ابن أعثم الكوفي

ومنهجه التاريخي في كتاب الفتوح

تأليف

الدكتور محمد جبر أبو سعده

أستاذ التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية

المساعد بجامعة الأزهر

الطبعة الأولى

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م

ابن أعثم الكوفي
ومنهجه التاريخي في كتاب الفتوح

تأليف

الدكتور محمد جبر أبو سعدة

أستاذ التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية

المســـاعد بجامعة الأزهر

الطبعة الأولى

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

„ وقل رَبِّ زدني علمًا "

مقدمة

الحمد لله حمدا كثيرا ، يبلغ رضاه ، ويوجب مزيده ، ويجير به من سخطه ، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين ، ورسول رب العالمين، صلاة تامة زاكية ، تؤدى حقه ، وتزلف عند ربه ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد :

يدعو المخلصون الغيورون من علماء الأمة ومفكريها الى الوقوف أمام هذا التراث الضخم ، الذى آل الينا من أسلافنا العظام صانعى الثقافة الاسلامية العربية ، موقف الاكبار والاجلال ، ثم نسمو برءوسنا فى اعتزاز وشعور صادق بالفخر والغبطة والكبرياء (١) .

ونحن لسنا مع هذه الدعوة الصادقة فحسب ، ولا نؤيدها بكل ما لدينا من طاقة وكفى ، وانما نضيف اليها دعوة حارة مخلصة أخرى ، ببذل أقصى المجهود الفردى والجمعى من القادرين كافة من أبناء الأمة فى سبيل جمع هذا التراث العظيم ، ونشره على خير وجه ، وأصحه، وأكمله ، وذلك لصيانته والحفاظ عليه من جهة ، ومن جهة ثانية لاحيائه وازالة آثار القرون عنه ، وتجديد عطائه الهائل فى شتى فروع العلم والثقافة ، التى اقتحمها هؤلاء الأسلاف الكرام ، من علماء الاسلام والعربية ، ومن جهة ثالثة وأخيرة ، لنؤكد أننا خلف واع مستنير ، يقدر هذا العطاء السخى العظيم النفع حق قدره ، ويذكر الفضل — بكل تقدير وامتنان — لأهله وذويه ، ونثبت لهم ، ولأنفسنا ، وللملأ جميعا أننا على الدرب سائرون وللأمانة حافظون ، وفى طريق المعرفة على هدى خطواتهم ماضون ، ساعون بكل العزم والحزم واليقين ، الى

---

(١) عبد السلام هارون : تحقيق النصوص ونشرها — الطبعة الثانية ، مؤسسة الحلبى ص ٥ .

تأكيد حقيقة الدور الايجابى الخطير الذى يقوم به هذا التراث ، ويؤديه بقوة دائمة ومتجددة فى اثراء الحركة الفكرية والعلمية ، وانهاض أبناء الأمة الاسلامية ودفعهم باصرار الى تبوء مكانتهم ومنزلتهم اللائقة بهم بين أمم هـذا العالم ! •

ومما لا خلاف عليه بين علمـاء الأمة ومفكريها ، أن التاريخ — وما صنف فيه — يعد من أهم وأبرز الميادين التى تتضح فيهـا بجلاء رسالة التراث العربى الاسلامى ، اذ كان هـذا التراث — وما يزال — هو المورد الأصيل ، والمصدر الدائم المتجدد ، الذى نستقى منه علمنـا بالاسلام ، ونتعرف من خلاله تفاصـيل مسيرته ، وتطورات مراحله المتتابعة ، منذ أن بدأت ارهاصاته المبشرة به ، ومقدماته المعلنـة عنه ، الى أن أكمل الله للأمة الدين ، وأتم عليهم النعمة ، ورضى لهم الاسلام دينا ، فغمر ضوءه آفاق الجزيرة العربية ، وعمر قلوب الأمة العربية بسكينة الايمان وروعة اليقين ، ثم انطلق منهـا الى أرض الله الشاسعة يغرى أهلهـا بالدخول فيما سبق اليه العرب من نعمـة الله التامة ، ويرغبهم فى خيره الرحب ورحمته الواسـعة ••

ولا شك فى أننا جميعـا متفقون على أن علم ذلك كله بجملتـه وتفاصيله ، لم يكن ليتهيأ لنـا ، ولم نكن لنحصله ، لولا وجـود هذا الميراث الهائل من المصنفات التاريخية ، التى أكرمنا اللـه بهـا وآلت الينا من العلماء من سلفنا الصالح ، كل على قدر ما أتيح له من التحصيل والحفظ والاتقان والعلم ، والحرص ، والقدرة على حسـن التبليغ ، ودقـة الأداء • ولا ريب كذلك فى أن التفاوت فى طاقـات العلماء وملكاتهم الذهنية والفكرية ، ينعكس بالضرورة على قيمة وأثـر ما تركه كل منهم من النتاج العلمى ، ومن هنا ظهرت أهمية وضرورة الحاجة الى النظـر ، والفحص والتدقيق فى كل ما نصـل اليه من هـذا التراث العظيم والفكر النفيس ، خصوصـا أن الأثبـات من علمائنا ، والأفذاذ من النقاد والباحثين من رجال هذا العصر ، قد تبينوا

وتثبتوا من خلال اتصـالهم الدائم بتراثنـا ، وانكبابهم الموصـول على تحريره وتنقيته ، أن بعض الأيدى غير الأمينة قد امتدت الى هـذا التراث ، فعبثت به وشوهته ، وحاولت طمس بعض حقائقه ، واخفاء كثير من معالمه ، وتزييف ما ينطوى عليه من القيم ! .

وفى حضور كامل وتبين تام لهذه المعانى فى ذهنى ، وتنبه شديد لما تحمله من دلالات كبيرة وخطيرة ، كانت وقفتى الطويلة الهادئة ، مع واحد من هـذه الأعمـال ، قدر لـه أن ينفض عن نفسـه غبار السنين وركام القرون ، وأن يرجع الى الحياة ــ عودا على بدء ــ ، فتدور بكلماته ونبض ما تنطوى عليه من الأخبار والأفكار والآراء ، عجلة المطابع فى مؤسسة علميـة عزيزة على قلوب المسلمين ، وبخاصـة أهل العـلم بالتراث الاسلامى منهم ، وهى « دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن فى الهند » ، تلك المؤسسة التى أخرجت هـذا السفر التاريخى الكبير «كتاب الفتوح» لأبى محمد أحمد بن أعثم الكوفى ، المتوفى نحو سنة ٣١٤ هـ / ٩٢٦ م [٢] .

وحين وقعت يدى على هذا الكتاب التاريخى ، الذى لم أسـمع به من قبـل ، ولم تقع عينى على اسم مؤلفه قبل ذلك العـام وهو عام ١٤٠١ هـ الموافق لعـام ١٩٨١ م [٣] ، وكنت حينئذ أراجع بحثا عن آل المهلب وأثرهم فى دعم الحكم الأموى » ، لينال به صاحبه درجـة « الماجستير » فى التاريخ الاسلامى من كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض . وقد شد انتباهى أن هذا

---

(٢) بدأت نشره فى عام ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م وفرغت منه فى عام ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م ، فى ثمانية أجزاء ، وعلى الرغم مما شاب هذه الطبعة ــ الأولى ــ من أخطاء كثيرة ، فان طبع هذا الكتاب جهد عظيم تستحق دائرة المعارف العثمانية عليه الشكر والثناء الجميل .

(٣) وكنت حينئذ أستاذا مشاركا بكلية الشريعة والدراسات الاسلامية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة .

الباحث ، يرجع الى مصدر جديد على ، ومؤرخ لم أسمع اسمه يتردد بين سائر المؤرخين المسلمين قبل هذه المناسبة ! .

وهيأ الله الأسباب ، فعثرت على نسخة من « الفتوح » فى احدى المكتبات بمكة المكرمة ، وكأنما كنت واياه على موعد ! فما ان تملكت الكتاب ، حتى أفرغت ذهنى — الا من شواغل العمل — له ، فأخذت أقرأه ، وأمعن فيه النظر ، وأطيل التأمل ، وأدقق الفكر ، فرأيته كتابا فريدا مشوقا ، يكاد يكون غريبا فى بابه ، وبين أشباهه من التواريخ العامة فى الاسلام ، ولعلى لا أذهب بعيدا اذا قلت : اننى لا أعتقد أنى وقعت على نظيره ، أو طالعت مثيلاً له ، وقد عزز هذه الخواطر فى نفسى ، وأكدها لدى أنى ما رأيت احالة عليه ، أو نقلا عنه ، أو رواية منه ، أو استنادا اليه من المؤرخين اللاحقين به ! .

ولا يذهبن بك الظن بعيدا ، أو يسرع الى خاطرك معنى لا أريده ولا أدعو اليه فى هذا المقام ، فالحق ، أن تفرد هذا الكتاب ، وغرابته بين سائر المصنفات التاريخية العائدة الى القرنين الثالث والرابع للهجرة ، انما يكمن ذلك فى جوانب شتى ، ينطوى عليها ويختص بها ، يراها الباحث التاريخى — وهو يتأمل الكتاب — فلا يكاد يخطئها ، ولا يغفل عنها ، وهذه الجوانب العديدة أو السمات الخاصة هى التى تجعل الباحث المدقق ، والناقد الفاحص فى تاريخ القرون الثلاثة الأولى للهجرة — وهى الاطار الزمنى الذى يتناوله فتوح ابن أعثم الكوفى — يقف من هذا الكتاب موقف الحذر والتردد بين القبول أو الرفض ، والرضا أو التبرم والسخط ، أمام طائفة كبيرة من روايات وأخبار ذلكم الكتاب الكبير ! فهل كان من الحق ، ومن صواب الرأى والفكر ، موقف أولئك المؤرخين الذين جاءوا بعد ابن أعثم — وهم كثيرون — أولئك الذين أجمعوا على تجاهله ، واطراحه جانبا ، فلا يكاد المرء يجد أحدا منهم قد أخبر به ، أو تحدث عنه ، أو أشار اليه فى بعض ما يورد من نصوص وأخبار فى كتابه ! ؟ .

ومما لا شك فيه أن هذا الاعراض العـام عن ابن أعثم الكوفى ، وكتابه « الفتوح » موقف جمعى ، لافت للنظر ، مثير للانتباه يدفع الباحث فى تاريخ هذه الحقبة من تاريخ الاسلام المديد ، الى محاولة تفسير هذا الموقف ، ومعرفة الدوافع الحقيقية اليه ، لا سيما وأنه موقف كأنه قد سبق الاتفاق عليه بين المؤرخين ! •

ان هذا البحث الذى بين يديك هو هذه المحاولة — ولعلها الأولى فيما أعلم — التى أسأل الله مخلصا أن يكون فيها جواب عن جميع الأسئلة ، التى سوف تفرض نفسها بعيد الفراغ من قراءة فتوح ابن أعثم ! انها أسئلة عديدة ، وذات أهمية فى بابها ، وفى مجال البحث التاريخى على وجه العموم ، ونختار من بين أهم هذه الأسئلة مثلا : هل ابن أعثم الكوفى — صاحب كتاب الفتوح هـذا — مؤرخ حقا (٤)؟ واذا قيل : « نعم » ، فما منزلته بين مؤرخى الاسلام ؟ وهل هـذا الكتاب يمكن أن تنطبق عليه مقاييس التأليف التاريخى التى اصطلح عليها أرباب هـذا الفن ؟ الى غير ذلك من الأسئلة التى لا أسترسل بايرادها هنا ، ولكنك سوف تجدها مبسوطة فى ثنايا هـذا البحث ، وقد فصلنا القول فيها ، ووفيناها حقها من المناقشة والتحليل ، وتقديم المثل التى تزيد الأمر وضوحا وتبيانا •

لقد توخيت فى الفصل الأول من هـذا البحث ، تقديم شخصية أحد كتاب التاريخ الاسلامى الأقدمين ، ولا أخفى أننى قد لقيت فى ذلك عنتا شديدا ، وواجهت صعوبة بالغة ، وأنا أحاول البحث عن شىء — أى شىء — ذى صلة بابن أعثم ، فلا أجد الا هـذا النزر اليسير من الكلمات القلائل ، التى لا يكاد مجموعها يتجاوز بضعة أسطر ، لاغناء فيها — ولكن لا غنى عنها — ، وقد يلتمس القارىء الكريم عذرا لى ،

---

(٤) قال بروكلمان عنه ، وعن كتابه هذا : كتب تاريخا قصصيا عن الخلفاء الأول وغزواتهم متأثرا بمذهب الشيعة ، دائرة المعارف الاسلامية — الترجمة العربية — ٩١/١ •

أن لـــم أقـــدم له هنا ما يروى ظمأه ، ويوازى تطلعه الى المعـــرفة فى عرض جوانب شخصية ابن أعثم ، على نحو ملائم ، وفى شكل متكامل ، كما سبق أن فعلت — بعون الله وحمده — فى تقديم شخصية مؤرخ مصر الكبـــير : أبى القاســـم عبـــد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم المتوفى عام ٢٥٧ هـ (٥) • فلقـــد توافرت هناك الأخبار ، وتضافرت النصوص العديدة ، والتراجم الكثيرة التى أوردتهـــا كتب الرجال ، معرفة بالرجل ، ومنوهة بشـــأنه ، ومشيدة بتاريخه الذى لم يسبق اليه عن « فتوح مصر وأخبارها » •

ومع ذلك فلم يخل حديثى فى هذا الفصـــل من مباحث ذات أهمية فى القاء الضوء على شخصيته ، فمن ذلك أنه من المرجح أن يكـــون أزديا من العتيك ، وأن التاريخ التقريبى الذى ذكروه لوفاته — وهو نحو ٣١٤ هـ — غير دقيق ، وأن وفاته ينبغى أن تكون فى أواخـــر سنة ٣٢٠ هـ أو بعدهـــا • وأن آثاره العلميـــة — بناء على ما ذكره ياقوت وابن حجر — كتابان اثنان ، هما : « الفتوح ، والتاريخ » ، ولا عبرة بما زاده بعضهم فوق ذلك • كذلك رجحت أن يكون كثير من الأشـــــعار والأرجاز — الكثيرة المبثوثة فى الفتوح — المنسوبة الى شعراء مجهولين ، أو نحلت شعراء معروفين وهى ليست لهم ، هذه الأشعار والأرجاز ، رجحت أن تكون لصاحب الفتوح نفســـه • ثـــم استقصيت مصادر ابن أعثم فى هذا الكتاب ، فتبينت أولا أنه لـــم يذكر مصدرا مكتوبـــا واحدا ، بينمـــا ذكر أسماء رجال عديدين ، ونص على أنه سمع من بعضهم ، وهم الذين يعدون مصادر مباشرة له ، بينمـــا أرســـل الأخبار والأقوال عن الكثرة منهم ، وهم المصادر غير المباشرة ، ومما يؤسف له كثيرا ، أن عظم هؤلاء جميعا رجال مجاهيل ، لم نقف لهم على ذكـــر فى مصادر التاريخ التى بين أيدينـــا •

---

(٥) راجع القسم الأول من كتابنا « ابن عبد الحكم المؤرخ وكتابه فتوح مصر وأخبارها » طبع مطبعة الوفاء بالقاهرة ١٣٩٩هـ ص ٧ — ٥٨ •

وأما الفصل الثانى ، فقد أفردته للحديث عن « خصائص الكتابة التاريخية فى فتوح ابن أعثم الكوفى » ، فتحدثت عن الغاية من تأليف الفتوح — لأن مؤلفه لم يذكرها ، ولم يقدم لكتابه — وهى : الانتصار لأمير المؤمنين على بن أبى طالب — رضى الله عنه — ولسائر الأئمة من بعده ، وللمذهب الشيعى ، والتشنيع على جميع المعارضين له ولهم ، وبخاصة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه ، وسائر بنى أمية وأنصارهم ، والتشنيع على بنى العباس الذين اغتصبوا الخلافة من آل البيت فيما بعد ، ويضاف الى ذلك مقصد آخر ، هو الاشادة بعرب اليمن بعامة ، والأزد على وجه الخصوص • وأوردت لاثبات ذلك الشواهد القوية والأدلة الواضحة من نصوص الفتوح •

ثم تعرضت فى مبحث آخر لمحتوى الفتوح بالنقد والتحليل ، فبينت أن ابن أعثم مؤرخ كثير الأغلاط ، التى تراوحت بين الغلط المتعمد الذى لا يخلو من سوء القصد وآخر نتيجة الغفلة وسوء الحفظ ، وضآلة المعلومات التاريخية ، وقدمت لذلك النماذج المؤيدة المؤكدة لهذه الأحكام •

وتناولت فى مبحث آخر ، توسع ابن أعثم فى مدلول كلمة « الفتوح » فأوضحت أنه لم يلتزم بحدود هذا العنوان ومداه ، وانما وسع دائرته ، ليدخل تحته ما ليس منه لغة أو اصطلاحا • وسقت على هذا الرأى الأمثلة التى تشهد له وتقويه وتدعمه •

وأما المبحث الأخير فى هذا الفصل ، فقد عالجت فيه منهجه فى العرض التاريخى ، بينت أن ابن أعثم ، وان اختار نظام التأريخ الموضوعى ، فانه لم يلتزم بالترتيب التاريخى من جهة ، ومن جهة أخرى ، لم يتقيد بتناول الموضوع أو الحادث التاريخى الواحد ، حتى ينتهى منه ، وانما كثيرا ما كان يتركه ليستطرد فى موضوع آخر — لأدنى ملابسة كانت — فاذا فرغ منه رجع الى حديثه الذى كان فيه أولا ، ونقدت هذه الطريقة ، التى تفسد التسلسل الموضوعى •

وفى الفصل الثالث ، وهو بعنوان « موقف ابن أعثم الكوفى من الصحابة والتابعين » :

تناولت فيه طائفة كبيرة من الروايات والأخبار التى خالف ابن أعثم فيهـا غيره من المؤرخين ، وانفرد وحده بتقديمهـا فى الفتوح ، وجميع هذه النصوص تحمل وجهة نظره الشيعية المنحازة ضـد من تناولهم فيها من الصحابة والتابعين وتابعى التابعين ، وفى هذه النماذج يبدو جليا ، تعمـد صاحب الفتوح تحريف التاريخ والعسف فى عرضه ، لكى يتحقق له ما أراد من وراء تصنيف هـذا الكتاب ، ان حملة ابن أعثم عـلى هؤلاء الذين تضمنت النصوص ذكرهم حملة شديدة قاسية ، تكشف عن مشـاعر الامامية تجاه غيرهم من المسلمين بصورة غاية فى الوضوح !

وقد بدأت بعرض موقفه السيىء من خالد بن الوليد ، فى قصتين : قصة مالك بن نويرة ، وقصة كتاب زعم ابن أعثم أن خالدا بعث به الى أبى بكـر الصديق • ثم قدمت ما ادعـاه صاحب الفتوح خلافا شب بين الصحابيين الجليلين زياد بن لبيد البياضى ، وعكرمة بن أبى جهـل المخزومى •

ومن أسوأ حظوظ الصحابة فى كتاب ابن أعثم ، حظ عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فلقد اجتهد فى النيل منه ، لذلـك عرضت بعض المواقف التى أساء فيهـا الى هذا الخليفـة الراشد ، تحت عنـوان « شخصية عثمان ابن عفان فى كتاب الفتوح » ، وهى ثلاثة مواقف : « بين عثمان وعبد الرحمن بن عوف — بين عثمان وعمار ابن ياسر — بين عثمان وأم المؤمنين عائشة » •

كذلك نال عمرو بن العاص نصيبا كبيرا من اهتمام ابن أعثم — باعتباره النصير الأكبر لمعاوية — فصب عليه قدرا هائلا من غضـبه وسخطه ! وقد عرضت بعض ذلك تحت عنوان « الحملة على عمرو بن العاص » ثم أوردت قصة أبى ذر الغفارى مع عثمان ، وعلى ، وما قيل

عن نفيه الى الربذة • ومن أشنع أخطاء ابن أعثم فى الفتوح : كذبه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمهات المؤمنين — وعائشة بخاصة، وعلى ابن أبى طالب رضى الله عنه وعنهن ؛ فعرضت مناسبة ذلك بعنوان « بين على وعائشة » •

ثم أوردت قصة « وساطة لا أصل لها » بين على ومعاوية فى أثناء حرب صفين عام ٣٧ هـ • ثم قدمت مثلا آخر للتزييف التاريخى الذى ارتكبه ابن أعثم بعنوان « بين الحديبية وصفين » • وقد كان صاحب الفتوح يرى — مثل سائر الشيعة — أن عليا يعلم كثيرا مما سيقع فى المستقبل (الغيب) ؛ وحاول تأكيد ذلك بعديد من الأخبار التى تتضمن التصريح بمضمونه المباشر ، ومن أمثلة ذلك ما عرضته تحت عنوان « اعتقاد غير صحيح » ؛ « بين على وابن ملجم المرادى » •

وخاض ابن أعثم فى مناسبة وفاة معاوية ما شاء ، واستخلاف ابنه يزيد بعده ، فعرضت ذلك بعنوان « وفاة معاوية واستخلاف يزيد »• ثم أفاض صاحب الفتوح فى النيل من يزيد — وهو أكبر أعداء الشيعة قاطبة — حتى زعم بأن النبى عليه الصلاة والسلام قد لعنه ودعا عليه فى أكثر من مناسبة ! لقد ذكرت ذلك تحت عنوان « هل دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على يزيد بن معاوية ؟ » • وتحدث ابن أعثم طويلا عن خروج الحسين رضى الله عنه من مكة الى الكوفة ، وذكر فى ذلك قصصا منسوجة وأخبارا لا تروى على لسان مؤرخ يقدر التأريخ ! وقد عرضت من ذلك : « قصة رسالة سرية » ، « نماذج للغفلة ، وسوء الحفظ ، والتشويش ، والخلط فى التاريخ » « قصيدة الفرزدق » • ومما يتصل بأمر يزيد أيضا ، ذكرت بداية دعوة عبد الله بن الزبير لنفسه ، وموقف يزيد منها تحت عنوان « بين يزيد ابن معاوية وعبد الله بن الزبير » •

ومن أخطر المسائل التى عالجها ابن أعثم فى الفتوح : مقتل

الحسين بن على رضى الله عنهما . ولذلك تحدث فيـــه طويلا وعن ذلك الحديث المطول تعرضت لـــ « مسؤولية الشيعة عن مقتل الحسين » . ثم انه يلفت النظر كثيرا ، موقف الشيعة ـــ وابن أعثم أحدهم ـــ من الحسن بن على ، فناقشت ذلك فى مبحث بعنوان « موقف الشيعة من الحسن بن على » . وكان آخـــر مبحث فى هـــذا الفصـــل عن « وفاة يزيـــد بن معاوية فى كتاب الفتوح » .

وبعدئذ خصصت الفصل الرابع لموضوع « القصة والخيال فى كتاب الفتوح » ، فالواقع الذى لا ريب فيه ، ان ابن أعثم الكوفى كان يفتعل الأقاصيص ، وينسج الخيالات ، ثم يودعها كتابه دون حرج ، وبغير استحياء من علم ، ويسجلها فى فتوحه على أنها جزء من ذلك التاريخ الاسلامى ! فاذا وقع هذا الكتاب ـــ وأشباهه ـــ فى أيدى الناس ـــ ولا سيما غير المتخصصين منهم ـــ وأقبلوا على قـــراءته ، فوجدوا فيه هذا القصص ، فلنا أن نتوقع أسوأ النتائج حينئذ ! ومن هنا وجب تعقب هؤلاء الكتاب المغرضين ، وتفنيد مصنفاتهم ، لبيان زيفها وفسادها ، حتى لا يقع راغبو المعرفة فى تلك الشراك التى ينصبها من لم تصف نفوسهم ، وتطهر قلوبهم من الأحقاد ، وأدران التعصب المقيت ! .

لقد اخترت من هذه القصص عشرا ، فأوردتها بنصها فى الفتوح ثم بينت فساد كل منها وافتعالها ، وهى على الترتيب التالى : « الهلقام ابن الحارث ، وما كان من أمره قبل اسلامه » ، « قوة عمرو بن معديكرب الزبيـــدى » ، « سفارتان اسلاميتان الى هرقـــل وجبلة بن الأيهم » ، « العير الذى تكلم أمام كسرى » لقاء فى جبال حلوان » ، « اختبـــار الذكاء قبل المعركة » ، « قلائد الحجاج بن يوسف » ، « كشـــف أثرى مثير » ، « ملحمة التوابين العشرة » ، الموقف فى أرمينيا وأذربيجان » .

ولا جدال فى أن ابن أعثم ـــ بحشو كتابه بهذه القصص ونظائرها وهى عديدة ـــ قد تجرد من الأمانة العلمية فى العرض التاريخى ، وتدخل

فى سرد الحوادث ، فأضاف اليها من خياله الخصب ما باعد بينها وبين التاريخ الصادق ، كما ينبغى أن يروى ، وكما يجب عرضه بواسطة التحمل الأمين ، لمن يبتغى المعرفة التاريخية الخالصة •

وأما الفصل الخامس والأخير وعنوانه : « الأزارقة فى فتوح ابن أعثم الكوفى — نهج خاص فى العرض التاريخى » • فقد قدمت فيه نص ما قاله ابن أعثم كاملا ، فى موضوع واحد هو الأزارقة منذ قاموا ، وحملوا السلاح فى وجوه المخالفين لهم (المحلين) من المسلمين، حتى تمكن المهلب بن أبى صفرة وأبناؤه وجنده من القضاء عليهم وعلى حركتهم ولم يبق لهم بعد ذلك من أثر ، وقد استغرق ذلك أربع عشرة سنة كاملة • ولما كان المهلب — وهو أزدى عتكى من قوم ابن أعثم فيما نعتقد — صاحب الجهد الأوفر والأبعد أثرا فى التخلص من خطر هذه الفرقة المارقة ، وازاحة كابوسها الثقيل ! فلقد رأينا ابن أعثم شديد الاهتمام بتاريخ معاركه معهم ، فتتبعه بالتفصيل من بدايته الى نهايته ، فلعله بذلك أحد الموضوعات القليلة التى وفاها صاحب الفتوح فذكرها كاملة ، ومن هنا كان اختيارى لهذا الموضوع ، كنموذج متكامل للعرض التاريخى لديه •

لقد بدأت حديثى بهذا التساؤل : « هذا الفصل •• لماذا ؟ » • ثم تمهيد عن ظهور الخوارج فى الاسلام • ثم عرضت النص الكامل لرواية ابن أعثم أخبار الأزارقة فى الفتوح • وعقب سرده لكل مجموعة من الوقائع والحوادث المرتبطة بعضها ببعض ، كنت أعقب — فى الحاشية — على ما انطوت عليه من أخطاء وتحريفات ، وتقديم وتأخير، وذكر أسماء رجال لم أعثر لهم على أثر فى المصادر ، وأشعار وأرجاز — تغلب عليها الركاكة والتفاهة — لا وجود لمعظمها ولا لأكثر من نسبت اليهم فى الكتب ، وايراد نصوص رسائل مخالفة تماما للمصادر الأخرى ، ويبعد تصديقها كما أوردها ابن أعثم ، ان هذا المثال — لكتابة التاريخ — يكشف عن القصور الشديد فى العرض التاريخى بالفتوح ،

ويوضح ـ مؤكدا ما ذكرناه آنفا غفلة ابن أعثم ، وسوء حفظه ، واختلاط وقائع التاريخ وتداخلها فى ذهنه ، ومن ثم جاء هذا التشويش البين فى عرضه وترتيبه للمعارك الحربية ، التى جرت بين المهلب وأهل العراق وبين جيوش الأزارقة ، فاقتضى ذلك أن أعقب — مصححا ومرتبا — على جميع ما أورده فى هذا الموضوع تقريبا حتى بلغ مجموع هـذه التعقيبات ثلاثة وعشرين تعقيبا مطولا ، وهذا عدا الاستدراكات ، التى لم تخل منها صحيفة واحدة من صحف هذا الفصل ! .

وفى المقدمة لابد من كلمة وافية عن المصادر فهكـذا مضـت سنة المصنفين من علماء الأمة فى كل فن ، وفى كل عصر ! وفى كلمتى هذه أقـول :

لا خلاف بين كافة الباحثين ، على أن من أهم مفاتيح النجـاح فى البحث العلمى ، تخير المصادر الأصيلة ، والمراجع المعتبـرة ، ذات العلاقة الوثيقة بموضوع البحث المنشود ، وأن القدرة على اسـتخدام هذه المصادر وتلك المراجع المتخيرة ، والمهارة فى استخراج المادة العلمية من بطون هذه المصنفات ، ثم البراعة فى عرض هذه المـادة المجموعـة عرضا فنيا جيدا ، لتشكل فى نهاية المطاف صلب البحث وأساسه ، وبعدذلك يأتى دور العناصر الأخرى فى تكوين البحث واخراجه على الصـورة الأمثل ، فهى عناصر مكملة ، وعـوامل مسـاعدة لذلك المطلب الأول والأساس ! .

ومن ثم ، فان نظرة العالم المدقق ، والفاحص الخبير الى قـائمة المصادر والمراجع التى استعان بها صـاحب البحث ، قد تكون — غالبا — أحد المداخل المشرقة الرحيبة الى قبول ذلك البحث واسـتحسانه على البديهة ، ثم تكون القناعة التامة به ، وبمستواه الجيد — مثلا — بعد قراءته ، واكتشاف جوانب الاجادة الأخرى الكامنة فيه ، والعكس فى ذلك صحيح أيضا ، لا مشاحة فى هذا ! .

وعلى أى الأحوال ، فان طبيعة هذا البحث ، قد اقتضت الرجوع فى اعداده الى صنوف من المصادر المتنوعة ، فى مقدمتها : مصادر التاريخ ، ثم معاجم الرجال ، تليها كتب اللغة والأدب ، ثم بعض صحاح كتب الحديث ، وبعض كتب البلدان •

وقد يسمح لى المقام أن أذكر — على استحياء — أن السبب فى قلة مجموعة المراجع الحديثة التى أفاد منها هذا البحث ، فى الدراسة المقارنة ، والنقد الموضوعى لكتاب الفتوح ، انما يرجع الى عدم المعرفة السابقة به ، وبصاحبه ابن أعثم الكوفى ، فلم تسبق دراسته من قبل ، ولم تظهر عنه ، وعن كتابه مصنفات حديثة — حسبما أعتقد ، والله أعلم بكل الحقائق •

ولابد أن أنوه بالعون الكبير الذى أسداه الى أسلافنا العظام من المؤرخين فى هذا البحث ، وكان فارسهم المعلم فى ذلك هو شيخهم أبا جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى عام ٣١٠ هـ ، وكتابه الفذ « تاريخ الرسل والملوك » ، ولا أظن أحدا من المشتغلين بتاريخ الاسلام فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، يجهل هذا المؤرخ ، وذلك التاريخ • ثم يليه فى هذا الباب تلميذه — بالوجادة — المؤرخ الناقد الحصيف : عز الدين بن الأثير الجزرى المتوفى عام ٦٣٠هـ ، وكتابه « الكامل فى التاريخ » وهو حقا من أكمل التواريخ • ولأبى العباس محمد بن يزيد المبرد المتوفى عام ٢٨٦هـ ، اهتمام ملحوظ بأخبار الأزارقة فى الجزء الثالث من كتابه « الكامل » ، ولذلك كان أثره جليا فى الفصل الخامس الذى عقدناه فى هذا البحث لأخبار الأزارقة • وأما المؤرخ الثقة القديم خليفة بن خياط العصفرى البصرى المتوفى عام ٢٤٠ هـ ، وكتاباه « التاريخ والطبقات » فلا ينكر فضلهما فى مواطن كثيرة من هذا البحث •

وينبغى كذلك أن أنوه بذكر طائفة أخرى من المؤرخين ، ومصنفاتهم

التى يتوالى ذكرها فى حواشى الكتاب ، على تفاوت بينها فى ذلك ، وهم : أبو محمد عبد الملك بن هشام الحميرى ، المعافرى ، المتوفى عام ٢١٨ هـ وكتابه « السيرة النبوية » وأبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ، المتوفى عام ٢٧٦ هـ ، وكتابه « المعارف » ، وأحمد ابن يحيى بن جابر البلاذرى ، المتوفى عام ٢٧٩ هـ ، وكتابه « فتوح البلدان » ثم أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر اليعقوبى ، المتوفى عام ٢٨٢هـ ، وكتابه « التاريخ » ، وأبو الحسن على بن الحسين المسعودى ، المتوفى عام ٣٤٦ هـ ، ومصنفه « مروج الذهب ومعادن الجوهر »وشهاب الدين أبو العباس أحمد بن عبد الوهاب النويرى المتوفى عام ٧٣٣ هـ ، وموسوعته « نهاية الأرب فى فنون الأدب » ، وأخيرا : الحافظ عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقى ، المتوفى عام ٧٧٤هـ ، وكتابه « البداية والنهاية » .

وأما الدعم القوى الذى لم يكن لهذا البحث غناء عنه ، فهو ما أفدناه من مجموعة كتب الرجال الحاشدة ، والتى حققنا بوساطتها كثيرا من المواقف ، وصححنا عديدا من الأغلاط المنسوبة الى أعلام كثيرين فى الفتوح ، وحددنا مواقيت طائفة كبيرة من الوقائع التى غفل ابن أعثم عن ذكر تواريخها . ومن أبرز مصنفات هذه المجموعة أثرا فى ذلك البحث :

« الطبقات الكبرى » لأبى عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهرى — كاتب الواقدى ، المتوفى عام ٢٣٠ هـ .

و « جمهرة أنساب العرب » لأبى محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسى ، المتوفى عام ٤٥٦ هـ .

و « سير أعلام النبلاء » لأبى عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى المتوفى عام ٧٤٨هـ .

و « الفهرست » لأبى الفرج محمد بن اسحاق النديم ، المتوفى عام ٤٣٨هـ .

و « المعارف » لأبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ، المتوفى عام ٢٧٦ هـ .

و « كتاب المعرفة والتاريخ » لأبى يوسف يعقوب بن سفيان البسوى ، المتوفى علم ٢٧٧ هـ .

و « وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » لأبى العباس أحمد بن محمد بن أبى بكر بن خلكان ، المتوفى عام ٦٨١ هـ .

ومن كتب الصحابة والطبقات التالية أيضا :

« فضائل الصحابة » للامام أبى عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانى ، المتوفى عام ٢٤١ هـ .

و « الاستيعاب فى معرفة الأصحاب » لأبى عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبى ، المتوفى عام ٤٦٣ هـ .

و « أسد الغابة فى معرفة الصحابة » لأبى الحسن على بن محمد ابن محمد ابن الأثير الجزرى المتوفى عام ٦٣٠ هـ .

و « الاصابة فى تمييز الصحابة » لأبى الفضل أحمد بن على العسقلانى ، وهو ابن حجر ، المتوفى عام ٨٥٢ هـ .

و « تهذيب التهذيب » له أيضا .

و « تاريخ بغداد » لأبى بكر أحمد بن على بن ثابت الخطيب البغدادى ، المتوفى عام ٤٦٣ هـ .

و « الجرح والتعديل » لأبى محمد عبد الرحمن بن محمد أبى حاتم بن ادريس الرازى ، المتوفى عام ٣٢٧ هـ .

و « ارشاد الأريب الى معرفة الأديب (معجم الأدباء) » . لأبى عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى ، الرومى ، المتوفى عام ٦٢٦ هـ .

و « طبقات المفسرين » لمحمد بن على بن أحمد الداودى ، المصرى ، المتوفى عام ٩٤٥ هـ .

ونختتم هؤلاء بذكـر كتاب « الأعلام » لخير الدين الزركلى ، المتوفى عام ١٩٧٦م .

وما كان لبحث كهذا أن يستغنى عن بعض أمهات كتب اللغـة والأدب ، فى تحقيق ما ورد فى الفتوح من خطب ، ورسائل ، وأشعار ، وأرجاز ، وهى مجتمعة قدر كبير ، شغل مساحة عريضة من أجـزاء هذا الكتاب الثمانية . ولما كان بعض ذلك منسوبا الى طائفة من أعلام الخطابة والكتابة والشعر — وبخاصة فى القرن الأول الهجرى ، فقد كان من الضرورى مراجعة هذه النسبة ، ومعرفة مدى صحتها أو زيفها ، طالما أن ابن أعثم لا يرى بأسا فى التقول ، والادعاء بغير الحق على من شاء من الناس أجمعين ! حتى التقول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يتحـرج منه ، أو يرعوى عنه ، أو يحذر عـاقبته الرهيبة ، فكان لزاما علينا أن ننظر كذلك فى بعض صحاح كتب السنة ، لنتبين ما زعمه ابن أعثم رواية عن النبى عليه الصـلاة والسـلام ، لذلك من بين أهم مصادر البحث :

الجامع الصحيح لأبى عبد الله محمد بن اسماعيل البخـارى ، المتوفى عام ٢٥٦ هـ .

والجامع الصحيح لأبى الحسين مسلم بن الحجاج النيسابورى ، المتوفى عام ٢٦١ هـ .

والمستدرك على الصحيحين لأبى عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابورى ، المتوفى عام ٤٠٥ هـ .

وأما كتب اللغة والأدب المشار اليها قبلا ، فكان منها : « البيان والتبيين » للجاحظ أبى عثمان عمرو بن بحر بن محبوب ، المتوفى عام ٢٥٥ هـ ، و « الكامل » للمبرد أبى العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر ، المتوفى عام ٢٨٦ هـ ، و « العقد الفريد » لابن عبد ربه أبى عمرو أحمد ابن محمد ، المتوفى عام ٣٢٨ هـ ، و « خزانة الأدب ولب لباب العرب » للبغدادى عبد القادر بن عمر بن بايزيد ، المتوفى عام ١٠٩٣ هـ ، و « صحاح اللغة وتاج العربية » للجوهرى أبى النصر اسماعيل بن حماد ، المتوفى عام ٣٩٣ ، أو ٣٩٨ هـ ، و « لسان العرب » لابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الأنصارى ، المتوفى عام ٧١١ هـ ، و « معجم ألفاظ القرآن الكريم » ، و « المعجم الوسيط » وقد صدرا عن مجمع اللغة العربية فى القاهرة .

ثم ماذا بعد ؟ بقيت لى فى هذا التقديم كلمة ، لعل هذه مناسبتها ، أقولها صادق النية ، سليم الطوية ، معتقدا الصواب ، فلقد نادى كثير من المفكرين باعادة كتابة التاريخ ، لما يجدون طيه من الغرائب المدهشة ، والعجائب المثيرة ، مبثوثا بين الحوادث التاريخية الصحيحة ، فيسىء الى تاريخنا أيما اساءة ، ويشوه وجهه السوى أبلغ تشويه ، وهو فى الواقع انما يسىء الى عناصر هذا التاريخ ، ويشوهها ، وتلك العناصر — كما لا يخفى — انما هى : أولئك الرجال الذين صنعوه ، ووجهوا حركته ، وكيف كان مسلكهم فى مراحل هذه المسيرة الهائلة التى امتدت خطاها الى أقصى المشرق وأقصى المغرب !

ان اعتقادى ، أن اعادة كتابة التاريخ أمر لا يتأتى ، كما أنه لا ينبغى ، وانما الأمر الممكن الذى يليق بنا فعله مع تاريخنا الذى نعتز به ، ونفخر بنسبته الينا ، أو بانتسابنا اليه هو : اعادة البحث فى هذا التاريخ ، بناء على قواعد النقد والفحص العلمية المستقيمة — وهى ولله الحمد موفورة معلومة مستقرة لدينا ، لن نعانى فى سبيلها ، لحضورها فى أذهان وعقول علمائنا ومفكرينا — فما وجدناه من هذا

التاريخ مكتويا على أسس من تلك القواعد النقدية ، متفقا وإياها ، أبقينا عليه كما جاءنا عن أسلافنا ، لا نمسه بأى صورة من صـــور التغيير ، وأما ذلك الصــنف الآخر ، الذى يشذ عن تلك القـــواعد ، ويجافيها ، فلا شك فى أنه هو المدسوس ، والدخيل على تاريخنا ، وان علماءنا برآء منه ، اذ كانوا على ذكر متجدد دائم لقواعد النقد ، والتمييز بين الصـــحيح والسقيم من الأخبار والنصوص التى تعرض عليهم وحينئذ ننحيه جانبا ، ونطهر تراثنا التاريخى العظيم منه ! •

اننا بذلك ندع الأصـــول التاريخية كما هى ، لا نضيف اليهـــا ، ولا ننقص منها ، وكل الذى فعلناه — ولا حرج مطلقا فى أن نفعله — هو تنقية هذا التاريخ من الشوائب ، والتشـــوهات التى علقت به ، وأصابته فى مراحل مختلفة ، وبأيد خفية ، لا سبيل الى تحديدهما بدقة فى غالب الظن •

لعل فى هذا البحث الذى أتقدم به اليك — أخى القارىء — تجربة عملية لاعادة البحث فى تاريخنا الاسلامى ، الذى يظلمه ، ولا يقدره حق قدره من يريد اعادة كتابته من جديد !

وانى لأسأل الله العلى القدير أن يمدنا بموصول عونه ، وأن يمنحنا من توفيقه وهديه ما يأخذ بأيدينا الى الحق والى طريق مســتقيم ، وأن يجعل أعمالنا صالحة خالصة متقبلة نافعة انه سميع مجيب ، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين •

محمد جبر أبو سعده

القاهرة فى :

غرة ربيع الأول من عام ١٤٠٨هـ

٢٣ من أكتوبر من عام ١٩٨٧م

الفصل الأول

« ابن أعثم الكوفى »

١ ــ عصر ابن أعثم :

أ ــ الحياة السياسية :

ب ــ الحياة الثقافية :

٢ ــ ابن أعثم الكوفى :

أ ــ اسمه ، ونسبه ، وكنيته :

ب ــ حيـــاته :

جـ ــ شيوخه وأساتذته :

د ــ تلاميذ ابن أعثم :

هـ ــ وفـــاته :

و ــ تحقيق تاريخ وفاة ابن أعثم :

ز ــ آثـــاره :

ح ــ هل كان ابن أعثم شاعرا ؟ :

٣ ــ مصادر فتوح ابن أعثم :

أ ــ المصادر المباشرة :

ب ــ المصادر غير المباشرة :

جـ ــ ملاحظات على مصادر الفتوح لابن أعثم ٠

١ ــ عصر ابن أعثم

أ ــ الحياة السياسية :

لقد أغفلت المصادر القليلة التى عرفت بابن أعثم تاريخ مولده ، كما لم تشر الى مقدار سنه حين توفى ، فلم يتح لنا بذلك أن نعرف متى قدم الرجل الى الحياة ! غير أنه يمكن افتراض أن مولده قد كان فى منتصف القرن الثالث الهجرى تقريبا ، وذلك الى أن تكشف الأيام القادمة عن تاريخ هذه المناسبة فى تلك المرحلة من عصر الدولة العباسية (منتصف القرن الثالث) ، كان نفوذ العناصر غير العربية قد بلغ حدا خطيرا فى ادارة شؤون الخلافة ، فاستبدوا بالسلطات المدنية والعسكرية دون الخلفاء ، الذين لم يعد لهم من الخلافة الا اسمها ورسمها ومظهرها الدينى ، والا أن تذكر أسماؤهم فى الدعاء بخطبة الجمعة ، وتسجل هذه الأسماء على السكة التى تصدر ابان عهد كل منهم .

ومن المشهور أن المعتصم بن الرشيد (٢١٨ ــ ٢٢٧ هـ) كان صاحب القرار السياسى الخطير الذى قضى باسقاط العرب من ديوان العطاء ، وعدم الاعتماد عليهم فى ادارة شؤون الدولة ، وبدلا منهم ، قد استعان بالأتراك ، وتوسع فى استخدامهم على نطاق واسع فى دواوين الخلافة ، حتى اذا تزايد عددهم ، وكاثروا أهل بغداد وآذوهم وأفسدوا فى المدينة ، تحول بهم الى العاصمة الادارية الجديدة للدولة ، والتى كان يقدر أنه سوف يحتاج اليها لسكنى هؤلاء الأتراك عما قليل ، فأعد العدة لذلك ببناء مدينة سامراء [١] .

---

(١) تحدث ياقوت بن عبد الله الرومى الحموى المتوفى ٦٢٦ هـ ، فى موسوعته الكبرى معجم البلدان ــ طبعة دار صادر ببيروت ١٧٣/٣ ــ
=

ويذكر المؤرخون أن نفوذ هؤلاء الأتراك ظل فى ازدياد مطرد واستفحال مخيف ، فى عهود الخلفاء الذين جاءوا بعد الواثق بن المعتصم (٢٢٧ — ٢٣٢ هـ) ، وهو الخليفة الذى ختم به عصر القوة والهيبة والنفوذ الكامل للخلفاء العباسيين ، أو ما يعرف تاريخيا بالعصر العباسى الأول ، ثم أعقبه ذلك العصر الذى طبعت فيه الخلافة بالضعف البين والوهن الشديد ، نتيجة لتعاظم نفوذ الأتراك ، وتدخلهم المتزايد فى شؤون الدولة ، منذ استخلاف المتوكل على الله فى عام ٢٣٢ هـ ، وكان مقتل المتوكل — بيد ابنه المنتصر — فى سنة ٢٤٧ هـ ، تجسيدا رهيبا لهذا المدى الهائل الذى وصل اليه سلطان الأتراك فى ادارة الدولة ، واستبدادهم بالأمر كله فيها دون الخلفاء الضعفاء الذين أصبحوا كالدمى فى أيدى هؤلاء ، يحركونهم كيف شاءوا ، يأمرونهم فيأتمرون ، وينهونهم فينتهون ، فمن حاول أن يعترضهم ، أو يكون له رأى مخالف لرأيهم ، دبروا له المكايد ، والمؤامرات ، حتى يخلعوه ، أو يسجنوه ، أو يقتلوه ! وفى بعض الأحيان ، لم يكن غضب الأتراك على بعض الخلفاء محتاجا الى معارضتهم ، أو اصطدام رغباتهم الجامحة برأيه ، بل ان استبدادهم الطائش ، وسوء تصرفهم وحمقهم ، وتحالفهم مع شياطين الانس ، كل ذلك كان يجمح بهم الى اتخاذ قرار الاطاحة بالخليفة ، دون أن يفعل ما يوجب ذلك أو يقتضيه ! (٢) .

=

١٧٨ . حديثا جغرافيا وتاريخيا ولغويا ضافيا عن هذه المدينة المندثرة فى أيامه ، فقال : انها مدينة كانت بين بغداد ، وتكريت على الشاطىء الشرقى لدجلة . كما ذكر أن جند المعتصم وغلمانه من الترك قد بلغوا سبعين ألفا ، فضج الناس اليه ليخلصهم من أذاهم وعبثهم وافسادهم ، فانتقل بهم الى سامراء .

(٢) وتأمل فى ذلك كيف كانت نهاية الخلفاء العباسيين الخمسة المتعاقبين : المتوكل على الله ، قتله ابنه المنتصر متآمرا عليه مع الأتراك ٢٤٧هـ ، وابنه المنتصر بالله ، قتلوه بالسم فى سنة ٢٤٨هـ ، ثم المستعين

=

وعلى الجملة ، فقد أصيبت الدولة العباسية على أيدى هـؤلاء الأتراك الذين عاثوا فى الخلافة فسادا لا حد له بالتفكك ، وذهـاب القوة ، وضياع الهيبة ، مما ترتب عليه ظهور الدول الاسلامية المستقلة ، أو شبه المستقلة ، واشتداد الأمراء فى ولاياتهم ، واستفحال خطر الصدامات المسلحة بين هؤلاء وبين جيوش الخلافة المنهكة القـوى ، بسبب الصراع الداخلى بين زعماء الأتراك وقوادهم ! .

لقد أفرزت هذه المرحلة فى تاريخ الدولة العباسية بعض العناصر الخارجة على الخلافة الاسلامية ، التى شكلت لها تهديدا خطيرا مباشرا ، وان حركة الزنج التى ارتجت بزلزالها أركـان الخلافة خمسـة عشر عاما (٢٥٥ — ٢٧٠) [٣] ، ووصول جيوش الصفاريين الى قـرب بغداد [٤] ، ليمثل ذروة الضعف والتهالك اللذين أصبحت عليهما الدولة

=

بالله قتلوه أيضا فى ٢٥٢هـ ، والمعتز بالله بعده قتلوه فى ٢٥٥ هـ ، والمهتدى بالله المقتول بأيديهم ٢٥٦هـ . راجع الطبرى : حوادث هذه السنين فى الجزء التاسع ، وابن الأثير : حوادث هذه السنين فى الجزء السابع ، والسيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣٤٠ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٣ .

(٣) لخطورة هذه الحركة ، وتهديدها السافر لدار الخلافة ، وماأصاب أهل البصرة وجنوب العراق من جرائها ، اهتم المؤرخون بتغطية أخبـارها وتتبعها بالتفصيل ، راجع الطبرى : تاريخ ٤١٠/٩ — ٤٣٧ ومواضـع أخرى كثيرة الى نهاية الجزء ، وابن الأثير : الكامل ٢٠٥/٧ — ٢١٥ ، ٢٣٧ ومواضع كثيرة أخرى الى ٤٠٦/٧ ، والذهبى : سير أعلام النبـلاء ١٢٩/١٣ — ١٣٦ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٢١/١١ — ٢٢ ، ٤٤ — ٤٥ ، ٤٧ — ٤٨ ، ومن المراجع الحديثة ، اقرأ عنها : حسـن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى — الطبعة السابعة بيروت ١٩٦٥ م ٣/ ٢٠٩ — ٢١٣ .

(٤) الصفاريون : هم أتباع يعقوب بن الليث الصفار الذى استولى هو وجنوده من المطوعة على خراسان وفارس ، وخرج على الخليفة فى بغداد ، وظل هو وأخوه عمرو بن الليث الصفار صاحبى دولة شبه مستقلة فى خراسان وفارس وسجستان ما بين سنتى ٢٥٤ — ٢٩٠هـ . =

العباسية ابان عصر نفوذ الأتراك (٢٣٢ — ٣٢٤ هـ) ، وهى الفترة التى لابد أن يكون ابن أعثم الكوفى قد ولد وعاش حياته كلها خلالها .

ومع أن كتاب الفتوح لابن أعثم ، قد اختتم فى هذه الفترة — فى ٢٥٢ هـ — بتنازل المستعين عن الخلافة تحت ضغط هؤلاء المستبدين بالأمر ، ومن قبله قتلوا المتوكل ، وابنه المنتصر ، مع ذلك فان صاحب الفتوح — لأمر لا نعلمه — قد تجاهل الحديث عن الأوضاع السائدة والظروف التى كانت تحيط بالخلافة والخلفاء العباسيين فى تلك المرحلة التى من المتوقع أن ابن أعثم قد عاشها ، وشهد بنفسه ، أو سمع من شهد وحضر الأحداث المثيرة والاضطرابات المتجددة فى العاصمتين العباسيتين — بغداد وسامراء — وسائر المدن والأصقاع التى كانت مسرحا لشغب الترك وغيرهم من العناصر المجلوبة الأخرى كالمغاربة والفراغنة ! .

ومن المؤكد أنه قد فاتنا — بتجاهل ابن أعثم الكوفى تسجيل ما وقع يومئذ من حوادث وقلاقل وما جرى من معارك بين جيوش الخلافة وكل من الزنج والصفاريين — الوقوف على وجهة نظر خاصة بطائفة كبيرة من أبناء الأمة الاسلامية هى طائفة الشيعة التى يعبر عنها ابن أعثم بحماس واندفاع فى كثير من الأحيان ، بل ويخيل الى قارىء فتوحه هذا ، أنه انما صنف هذا الكتاب ، وكرسه ، ليكون منبره الخاص الذى يعلن منه وفيه فكره ومذهبه ووجهة نظره ! .

= وعن أخبار الصفاريين اقرأ : الطبرى : تاريخ ٢٨٢/٩ — ٢٨٦ ، ٤٧٦ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ — ٥١٠ ، ٥١٦ — ٥٢٠ ، ابن الأثير : الكامل ١٩١/٧ — ١٩٥ ، ٢٤٧ ، ٢٦١ — ٢٦٣ ، ٢٦٨ — ٢٦٩ ، ٢٧٦ — ٢٧٧ ، ٢٩٠ — ٢٩٢ ، ٣٠٧ — ٣٠٨ ، والذهبى : سير أعلام النبلاء ٥١٣/١٢ — ٥١٧ ، واقرأ من المراجع الحديثة : حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ٦٥/٣ — ٧٠ .

وأيا ما كان الأمر ، فان هذه هى الصورة العامة للأوضاع السياسية التى ولد ، وعاش فى نطاقها وملابساتها ابن أعثم الكوفى منذ منتصف القرن الثالث الى نهاية الربع الأول من القرن الرابع الهجرى على وجه التقريب .

ب — الحياة الثقافية :

واذا كانت الصورة التى عرضناها للحياة السياسية سيئة الى هذا الحد البعيد ، فان الحياة العقلية والفكرية ابان هذه الفترة ذاتها ، كانت على العكس من ذلك ، من جميع الوجوه ، فقد تقدمت وارتقت ، بحيث لم تتأثر بضعف الخلفاء فى بغداد ، وبمظاهر الاضطرابات والفوضى ، اللذين كانا طابع الحياة السياسية ابان سيطرة الأتراك على مقاليد الأمور فى العاصمة — بغداد أو سامراء — وذلك أن حركة الترجمة التى نقلت ذخائر العلوم من تراث الأمم الأخرى وبصفة خاصة الأمة اليونانية ، قد هيأت ووضعت أمام أعين المسلمين ثروة علمية هائلة باللغة العربية ، فكانت الخطوة التالية أن تتوجه اليها الأفكار العربية ، تفهمها ، وتشرحها ، ثم تهضمها ، وتبتكر فيها ، وتزيد عليها ، وهذا ما شهدته الفترة التى نؤرخ لها من العصر العباسى (٥).

ففى القرن الثالث الهجرى كانت العلوم الاسلامية والعربية ، قد اقتربت من النضج ، وشارفت الكمال ، ففى مجال التشريع قد وضعت الأسس الثابتة لعلم الفقه ومذاهبه المشهورة ، وصنفت الكتب الصحاح فى الحديث ، وفى تفسير القرآن الكريم كذلك ، وجمعت السير والمغازى والفتوح ، وألفت فيها الكتب الكبار ، وجمعت اللغة من أفواه الأعراب ، وتحددت معالم الخلاف بين نحاة الكوفة والبصرة واستوعبت العربية طائفة من علوم الأمم الأخرى ، كالفرس والهند واليونان ، واتسعت آفاق المعرفة عند العلماء يومئذ ، فكان المشتغل باللغة والنحو عالما

---

(٥) أحمد أمين : ظهر الاسلام — الطبعة الخامسة ١/٩٤ .

بالحديث ووجوه التأويل ، والمحدث عارفا بالتاريخ وصنوف الفرق ، والمذاهب ومراتب الرجال ، والشاعر يأخذ بنصـــيب من اللغة والنحو والتصريف ، والفقيه يحفظ الشعر والمثل ، ويروى الحديث والخبر ، ويشارك فى صنوف الآداب (٦) .

كذلك لم تعد حلقـــات الدروس ، ومجالس العلماء ، ومدارســـة العلوم ، وصناعة التأليف موقوفة على الكوفة والبصرة وبغداد ، بـــل امتدت شرقا الى فارس ، وخراسان ، والرى ، وسجستان ، وما وراء النهر ، وسارت غربا الى الشام ، ومصر ، وبلاد المغرب ، والأندلس ، وأصبحت الحواضر والقرى فى هاتيك البلاد عامرة بالفقهاء والقراء ، والمحدثين ، والنظار ، وشيوخ الأدب وأئمة اللغة والنحو ، تشد اليهم جميعا الرحال ، ويقصدهم الراغبون فى العلم من كل مكان (٧) .

وعلى الجملة ، شهد القرن الثالث — الذى أدرك ابن أعثم نصفه الثانى تقريبا — وأوائل القرن الرابع ، نهضة ثقافية رائعة ، امتد نورها ليغمر أقطار الاسلام كلها ، وكانت حركة العلماء فى فروع الثقـــافة الاسلامية والعربية ، أصدق شاهد على عمق هذه النهضة وأصالتها وسمو غايتها ، فلقد تنقل طلاب العلوم بين الأمصار ، وارتحلوا الى الشيوخ والأساتذة أينما كانوا ، ليأخذوا عنهم ، ويسمعوا منهم ، دون أن يلقوا بالا الى المشاق والصعاب التى يتعرضون لها فى ترحالهم الذى لم يكن يهدأ الا ليبدأ من جديد ..

ان ثبتا صغيرا ، بأسماء نخبة من أعلام علماء هذه الفترة ، التى ازدهرت فيها الحركة العلمية ، وأزهرت النهضة الفكرية وأينعت ، لتدلنا

---

(٦) محمد أبو الفضل ابراهيم : مقدمة تحقيق كتاب « تاريخ الرسل والملوك لأبى جعفر محمد بن جرير . الطبرى : الطبعة الثانية — دار المعارف بمصر ٥/١ .

(٧) المرجع السابق ٥/١ .

أصدق دلالة على ما ذهبنا اليه فى توصيف وتقدير الحياة الثقافية فى أقطار الاسلام جميعا .

لقد برز من أعلام هذه المرحلة :

من المحدثين : الامام الفذ أبو عبد الله محمد بن اسماعيل الجعفى البخارى ، المتوفى عام ٢٥٦هـ (٨) .

وقرينه : الامام مسلم بن الحجاج بن مسلم ، أبو الحسين القشيرى ، النيسابورى ، المتوفى عام ٢٦١هـ (٩) .

وشيخ السنة الامام : أبو داود سليمان بن الأشعث بن شداد ،

---

(٨) صاحب الجامع الصحيح ، أصح كتب الحديث النبوى ، وأصح كتاب بعد القرآن الكريم ، ومناقبه وشمائله وشهرته فى الحديث والتاريخ أمر عظيم لا يتسع المقام لذكره . وقد ترجم له العشرات من المؤرخين وأصحاب الطبقات ، منهم : ابن أبى حاتم : الجرح والتعديل ١٩١/٧ ، الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ٤/٢ — ٣٤ ، محيى الدين بن شرف النووى : تهذيب الأسماء واللغات (ط المنيرية) ٦٧/١/١ — ٧٦ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ١٨٨/٤ — ١٩١ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ٣٩١/١٢ — ٤٧١ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب ٤٧/٩ — ٥٥ ، محمد بن على الداودى : طبقات المفسرين ١٠٠/٢ — ١٠٤ ، واقرأ مقدمة التحقيق للتاريخ الصغير للبخارى بقلم محمود ابراهيم زايد .

(٩) هو صاحب الجامع الصحيح الذى يقرن بصحيح البخارى ، وكلا الصحيحين قد حظيا باهتمام العلماء ونالا تقديرا واحتفاء لم ينله كتاب آخر فى أى فن من فنون العلم . وآية ذلك : الشروح العديدة لهما ، والتعليقات المتنوعة عليهما ، ولا غروفهما أصح كتب السنة النبوية . وقد ترجم لمسلم العشرات — أيضا — من المحدثين والمؤرخين ، ومنهم : ابن أبى حاتم : الجرح والتعديل ١٨٢/٨ — ١٨٣ ، الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ١٠٠/١٣ — ١٠٤ ، النووى : تهذيب الأسماء واللغات ٨٩/٢/١ — ٩٢ ، ابن خلكان وفيات الأعيان ١٩٤/٥ — ١٩٦ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ٥٥٧/١٢ — ٥٨٠ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب ١٢٦/١٠ — ١٢٨ .

الأزدى ، السجستانى ، المتوفى عام ٢٧٥هـ (١٠) .

والامام الناقد ، شيخ المحدثين : أبو حاتم محمد بن أدريس بن المنذر ، الحنظلى ، الرازى ، المتوفى عام ٢٧٧ (١١) .

والحافظ البارع ، والامام الناقد : أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة ، السلمى ، الترمذى ، المتوفى عام ٢٧٨هـ (١٢) .

والامام الثبت ، الناقد ، شيخ الاسلام أبو عبد الرحمن أحمد بن على بن سنان ، الخراسانى ، النسائى ، المتوفى عام ٣٠٣ (١٣) .

---

(١٠) صاحب السنن — أحد صحاح كتب الحديث الستة المشهورة — وممن ترجم له : ابن أبى حاتم : الجرح والتعديل ١٠١/٤ — ١٠٢ ، الخطيب البغادى : تاريخ بغداد ٥٥/٩ — ٥٩ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٤٠٤/٢ — ٤٠٥ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ٢٠٣/١٣ — ٢٢١ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب : ١٦٩/٤ — ١٧٣ ، الداودى : طبقات المفسرين ٢٠١/١ — ٢٠٢ .

(١١) قال الحافظ الذهبى عنه : برع فى المتن والاسناد ، وجمع وصنف ، وجرح وعدل ، وصحح وعلل — سير أعلام النبلاء ٢٤٧/١٣ — ٢٦٣ ، وترجم له ابنه عبد الرحمن فى الجرح والتعديل ٣٤٩/١ — ٣٧٥ ، ٢٠٤/٧ ، والخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ٧٣/٢ — ٧٧ ، تاج الدين السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ٢٠٧/٢ — ٢١١ ، صلاح الدين الصفدى الوافى بالوفيات ١٨٣/٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٦٣/١١ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب ٣١/٩ — ٣٤ .

(١٢) صاحب « الجامع الصحيح ، والعلل » وغيرهما ، وقد ترجم له : ياقوت : معجم البلدان ٢٧/٢ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٢٧٨/٤ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ٢٧٠/١٣ — ٢٧٧ ، الصفدى : الوافى بالوفيات ٢٩٤/٤ — ٢٩٦ ، ابن كثير البداية والنهاية ٧١/١١ — ٧٢ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب ٣٨٧/٩ — ٣٨٩ .

(١٣) صاحب السنن والتصانيف المشهورة ، وممن ترجم له : ياقوت : معجم البلدان ٢٨٢/٥ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٧٧/١ — ٧٨ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ١٢٥/١٤ — ١٣٥ ، السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ٣/ ١٤ — ١٦ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٣١/١١ — ١٣٣ ، تهذيب التهذيب ٣٦/١ — ٣٩ .

عالم العصر ، الامام العلم المجتهد ، محمد بن جرير بن يزيد أبو جعفر الطبرى ، المتوفى عام ٣١٠ هـ [١٥] .

عالم العصر ، الامام العلم المجتهد ، محمد بن جرير بن يزيد أبو جعفر الطبرى ، المتوفى عام ٣١٠هـ [١٥] .

ومن الفقهاء : العلامة الزاهد ، تلميذ الشافعى : اسماعيل بن يحيى ابن اسماعيل ، أبو ابراهيم ، المزنى ، المصرى ، المتوفى عام ٢٦٤هـ [١٦] .

---

(١٤) صاحب التفسير ، والمسند — قال الذهبى : « لا نظير لهما » وقال ابن حزم عن تفسير بقى بن مخلد : « أقطع أنه لم يؤلف فى الاسلام مثل تفسيره ، ولا تفسير ابن جرير ولا غيره » ! وقد ترجم له : أبو الوليد ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ٩١/١ — ٩٣ ، ابن بشكوال : كتاب الصلة ١١٦/١ — ١١٩ ، ياقوت بن عبد الله الرومى : معجم الأدباء ٧٥/٧ — ٨٥ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ٢٨٥/١٣ — ٢٩٦ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٦٠/١١ — ٦١ ، السيوطى : طبقات المفسرين ص ٤٠ — ٤٢ ، الداودى : طبقات المفسرين ١١٦/١ — ١١٧ .

(١٥) شيخ المفسرين ، وشيخ المؤرخين ، والفقيه المجتهد صاحب المذهب . وشمائله وفضائله وفيرة غزيرة لا يتسع لها المقام . وقد ترجم له : محمد بن اسحاق النديم : الفهرست ص ٣٢٦ — ٣٢٧ ، الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ١٦٢/٢ — ١٦٩ ، ياقوت : معجم الأدباء ٤٠/١٨—٩٤ ، القفطى : انباه الرواة ٨٩/٣—٩٠ ، النووى : تهذيب الأسماء واللغات ٧٨/١ — ٧٩ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ١٩١/٤ — ١٩٢ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ٢٦٧/١٤ — ٢٨٢ ، السبكى : طبقات الشافعية ١٢٠/٣ — ١٢٨ ، السيوطى : طبقات المفسرين ص ٣٠ ، الداودى : طبقات المفسرين ١٠٦/٢ — ١١٤ .

(١٦) أستاذ المشارقة والمغاربة فى مصر ، ورئيس الشافعية بها — ترجم له : ابن أبى حاتم : الجرح والتعديل ٢٠٤/٢ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٢١٧/١ — ٢١٩ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ٤٩٢/١٢ — ٤٩٧ ، السبكى : طبقات الشافعية ٩٣/٢ — ١٠٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٤٠/١١ ، أبو المحاسن بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٣٩/٣ .

الامام ، المجتهد ، البحر ، داود بن على بن خلف ، أبو سليمان ، البغدادى ، الأصبهانى ، المتوفى عام ٢٧٠هـ (١٧) .

الامام ، الفقيه ، الكبير : الربيع بن سليمان بن عبد الجبار بن كامل أبو محمد ، المرادى ، المصرى ، المتوفى عام ٢٧٠هـ (١٨) .

الامام الفقيه المحدث الكبير : أحمد بن محمد بن سلامة ، أبو جعفر ، الأزدى ، الطحاوى ، المتوفى عام ٣٢١ هـ (١٩) .

ومن المؤرخين والجغرافيين : الحافظ ، الحجة ، الرحال : يعقوب ابن سفيان بن جوان ، أبو يوسف ، الفسوى ، المتوفى عام ٢٧٧هـ (٢٠) .

---

(١٧) امام أهل الظاهر ، وقد ترجم له : ابن النديم : الفهرست ص٣٠٢ — ٣٠٥ ، الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ٣٦٩/٨ — ٣٧٥ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٢٥٥/٢ — ٢٥٧ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ٩٧/١٣ — ١٠٨ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٥١/١١ . الداودى : طبقات المفسرين ١٦٦/١ — ١٦٩ .

(١٨) هو راوية كتب الامام الشافعى ، كما صرح هو بذلك . ترجم له ابن أبى حاتم : الجرح والتعديل ٤٦٤/٣ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ٢٩١/٢ — ٢٩٢ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ٥٨٧/١٢ — ٥٩١ ، السبكى : طبقات الشافعية ١٣٢/٢ — ١٣٩ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب ٢٤٥/٣ — ٢٤٦ .

(١٩) هو محدث مصر ، وفقيهها ، صاحب التصانيف الجليلة . كان أول أمره شافعيا ، ثم صار حنفيا ، بل رئيسهم فى مصر ، ترجم له : محمد بن اسحاق النديم : الفهرست ص ٢٩٢ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٧١/١ — ٧٢ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ٢٧/١٥ — ٣٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٨٦/١١ ، ابن حجر : لسان الميزان ٢٧٤/١ — ٢٨٢

(٢٠) صاحب التاريخ الكبير « كتاب المعرفة والتاريخ » . ترجم له : ابن أبى حاتم : الجرح والتعديل ٤٦٤/٣ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ١٨٠/١٣ — ١٨٤ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٦٣/١١ — ٦٤ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب ٣٨٥/١١ — ٣٨٩ ، ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ١٧١/٢ .

العلامة ، الأديب ، المصنف ، أحمد بن يحيى بن جابر ، أبو بكر ، البغدادى ، البلاذرى ، المتوفى عام ٢٧٩ هـ (٢١) .

المؤرخ ، الجغرافى ، الرحالة : أحمد بن اسحاق بن جعفر بن وهب ابن واضح ، اليعقوبى ، البغدادى المتوفى عام ٢٩٢هـ (٢٢) .

ثم شيخ المؤرخين ، وعمدة المصنفين : محمد بن جرير بن يزيد أبو جعفر الطبرى المتوفى عام٣١٠هـ (٢٣) .

ومن اللغويين وأصحاب الموسوعات الأدبية : العلامة ، المتبحر ، ذو الفنون ، صاحب التصانيف عمرو بن بحر بن محبوب ، أبو عثمان

---

(٢١) صاحب الفتوح ، وأنساب الأشراف ، والبلدان ، وكان كاتبا بليغا ، ولكنه وسوس باخرة بعد أن شرب البلاذر للحفظ ! وقد ترجم له : محمد بن اسحاق النديم : الفهرست ص ١٦٤ ، ياقوت الحموى : معجم الأدباء ٨٩/٥ — ١٠٢ ، الصفدى : الوافى بالوفيات ٢٣٩/٨ — ٢٤١ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ١٦٣/١٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٦٩/١١ — ٧٠ . ابن حجر : لسان الميزان ٣٢٢/١ — ٣٢٣ .

(٢٢) صاحب التصانيف العديدة ، ترجم له : ياقوت : معجم الأدباء ١٥٣/٥ — ١٥٤ ، اغناطيوس كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى (الترجمة العربية) ١٥٨/١ ، نفيس أحمد : جهود المسلمين فى الجغرافيا (الترجمة العربية) ص ٤٥ — ٤٧ ، آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى (الترجمة العربية) ٩/٢ — ١٠ ، خير الدين الزركلى : الأعلام ٩٥/١ .

(٢٣) سبق ذكره والتعريف به بين المفسرين ص ٣٣ ، وترجم له كذلك : محمد أبو الفضل ابراهيم فى مقدمة نشرته وتحقيقه لكتاب « تاريخ الرسل والملوك » ط دار المعارف بمصر ٥/١ — ٣٢ .

الجاحظ ، المتوفى عام ٢٥٥هـ [٢٤] .

العلامة الكبير ، ذو الفنون ، صاحب التصانيف : عبد الله بن مسلم ابن قتيبة ، أبو محمد الدينوري المتوفى عام ٢٧٦ هـ [٢٥] .

وامام النحو واللغة فى البصرة : محمد بن يزيد بن عبد الأكبر ، أبو العباس ، المبرد ، الأزدى ، البصرى المتوفى عام ٢٨٦هـ [٢٦] .

العلامة ، المحدث ، امام النحو فى الكوفة : أحمد بن يحيى بن يزيد ،

---

(٢٤) كان أحد بحور العلم الزاخرة ، وتصانيفه كثيرة جدا ، ترجم له : ابن النديم : الفهرست ص ١٦٩ ، ص ٣ من تكملة الفهرست ، الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ٢١٢/١٢ — ٢٢٠ ، ياقوت : معجم الأدباء ٧٤/١٦ — ١١٤ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٤٧٠/٣ — ٤٧٥ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ٥٢٦/١١ — ٥٣٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٢٢/١١ — ٢٣ ، ابن حجر : لسان الميزان ٣٥٥/٤ — ٣٥٧ .

(٢٥) الكاتب الذى جمع وصنف ، وبعد صيته ، وقد ترجم له : ابن النديم : الفهرست ص١١٥—١١٦ الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد ١٧٠/١٠ — ١٧١ ، القفطى : انباه الرواة ١٤٣/٢ — ١٤٧ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٤٢/٣ — ٤٤ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ٢٩٦/١٣ — ٣٠٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٥٢/١١ ، ٦١ . ابن حجر : لسان الميزان ٣٥٧/٣ — ٣٥٩ .

(٢٦) الامام ، العلامة ، الفصيح ، المفوه ، صاحب النوادر والطرائف ، ترجم له : ابن النديم : الفهرست ص٨٧ — ٨٨ ، الخطيب : تاريخ بغداد ٣٨٠/٣ — ٣٨٧ ، ياقوت : معجم الأدباء ١١١/١٩ — ١٢٢ ، القفطى : انباه الرواة ٢٤١/٣ — ٢٥٣ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣١٣/٤ — ٣٢٢ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ٥٧٦/١٣ — ٥٧٧ ، ابن حجر : لسان الميزان ٤٣٠/٥ — ٤٣٢ ، الداودى : طبقات المفسرين ٢٦٧/٢ — ٢٧١ .

أبو العباس ، ثعلب ، الشيبانى — مولاهم — البغدادى ، المتوفى عام ٢٩١ هـ [٢٧] .

العلامة ، الأديب ، الأخبارى : أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب ، أبو عمر ، المروانى ، الأندلسى ، القرطبى ، المتوفى عام ٣٢٨هـ [٢٨] .

ومن الشعراء ، كان هناك من الكبار : ابن الرومى ، على بن العباس ابن جريج ، أبو الحسن مولى آل المنصور ، المتوفى عام ٢٨٣هـ [٢٩] .

البحترى ، الوليد بن عبيد بن يحيى بن عبيد ، أبو عبادة الطائى ،

---

(٢٧) الثقة ، الحجة ، أعلم الكوفيين . ترجم له : المسعودى : مروج الذهب ٢٨٤/٤ — ٢٨٥ ، ابن النديم : الفهرست ص١١٠ — ١١١ الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ٢٠٤/٥ — ٢١٢ ، ياقوت : معجم الأدباء ١٠٢/٥ — ١٤٦ ، القفطى : انباه الرواة ١٣٨/١ — ١٥١ ، النووى : تهذيب الأسماء واللغات ٢٧٥/٢ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ١٠٢/١ — ١٠٤ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ٥/١٤ — ٧ .

(٢٨) مولى أمير الأندلس هشام بن عبد الرحمن الداخل ، وكان موثقا ، نبيلا ، بليغا ، شاعرا . وقد ترجم له : ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ٣٨/١ ، ياقوت : معجم الأدباء ٢١١/٤ — ٢٢٤ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ١١٠/١ — ١١٢ ، الذهبى سير أعلام النبلاء ٢٨٣/١٥ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٢٠٦/١١ .

(٢٩) هو شاعر العصر — مع البحترى — ذو النظم العجيب ، والتوليد الغريب ، واخباره فى المديح والهجاء كثيرة ، وقد مات مسموما ، ترجم له : ابن النديم : الفهرست ص ٢٣٥ ، والخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ٢٣/١٢ — ٢٦ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣٥٨/٣ — ٣٦٠ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ٤٩٥/١٣ — ٤٩٦ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٧٩/١١ — ٨٠ ، ابن العماد : شذرات الذهب ١٨٨/٢ — ١٩٠ ، وكتاب عباس محمود العقاد « ابن الرومى حياته من شعره » .

البحترى ، المنبجى المتوفى عام ٢٨٤هـ [٣٠] . ثم يضيق المقام عن استقصاء شعراء هذه الفترة المزدهرة المشرقة ، فى تاريخ الأدب العربى بصفة عامة [٣١] .

وهكذا كان العصر الذى ولد ،ونشأ ، وعاش فى ظلاله ابن أعثم الكوفى ، عصرا يموج بالتقلبات السياسية ، والاضطراب المتجـــدد فى الحياة العامة ، بســـبب تسلط العنصر التركى على مقاليد الأمور فى عاصمة الخلافة ، بينما يزخر هذا العصر ذاته بالحركة العلمية ، ويزهو ويشرق بالنهضة الفكرية ، وتزدهر فيه الثقافة الاســـلامية والعربية ازدهارا مطردا ، يشهد لذلك العصر ، بأنه كان عصر النهضة فى الاسلام . وآية ذلك أن كثيرا من العلوم قد بلغت فيه مرحلة النضج ، فازدهرت وأزهرت ، وأينعت ثمارها ، وآتت أكلها ، فيما ورثناه عن القوم من تراث مجيد تلقينا بعضه ، ولازال البعض الآخر منه مجهولا ، لا يعلم مبلغه وقدره الا الله ، لم تقع أيدينا عليه بعد ، ونود ألا يطول أمد انتظارنا له ، حتى تكتمل لدينا الصورة المعبرة حقا عن نهضته ورقى هؤلاء الآباء الكرام من علماء الأمة [٣٢] .

---

(٣٠) سئل أبو العلاء المعرى : من أشعر الثلاثة : أبو تمام ، والبحترى ، والمتنبى ؟ قال : حكيمان ، والشـــاعر : البحترى ! وترجم له : ابن النديم : الفهرست ص ٢٣٥ ، والخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ٤٧٦/١٣ — ٤٨١ ، ياقوت : معجم الأدباء ٢٤٨/٩ — ٢٥٨ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٢١/٦ — ٣٠ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ٤٨٦/١٣ — ٤٨٧ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٨١/١١ ، ابن العماد : شذرات الذهب ١٨٦/٢ — ١٩٠ .

(٣١) راجع فى ذلك : محمد بن اسحاق النديم : الفهرست — الفن الثانى من المقالة الرابعة ص ٣٥ — ٢٤٢ .

(٣٢) اقرأ بتوسع وتفصيل — عن النهضة الثقافية فى العالم الاسلامى فى تلك الفترة :

أحمد أمين : ظهر الاسلام ، الأجزاء الأول والثانى والثالث ، وآدم
=

ابن أعثم الكوفى :

تعترض الباحث عن شخصية هذا الرجل مشكلة لا مفر من الاعتراف بها ، والاعلان عنها ، فى بداية الحديث ، فالحقيقة أن جل المصادر التاريخية ، والغالبية الساحقة من كتب الرجال ، قد أغفلت ذكر ابن أعثم ، ولم تشر اليه من قريب أو من بعيد ، سواء بالاسم أو بالصفة ، كما أنها — ترتيبا على ذلك — لم تورد لكتابه — أو كتابيه — ذكرا أو اشارة أو احالة عليه !

والاستثناء الذى اخترق هذا الاجماع ، انما يتمثل فقط فى بضعة المصادر التى لا يكاد عددها يبلغ مجموع أصابع اليد الواحدة . وعلى الرغم من ذلك ، فان ما ذكره أصحاب هذه المصنفات القليلة عنه قدر ضئيل جدا من المعلومات ، لا ينهض أن يقدم للقارىء تعريفا بالرجل ولا يعطى الفكرة الكافية عن شخصيته وجوانبها المختلفة ، واذن فلا مجال للزعم بأن الذى سوف نعرضه الآن ، صالح لتكوين صورة كاملة دقيقة عن ابن أعثم الكوفى ! ونبدأ أولا بالقول فى :

اسمه ونسبه ، وكنيته :

يرد اسم هذا المؤرخ فى المصادر القليلة التى ذكرته على غير نسق واحد ، فبينما ذكر ياقوت الحموى (ت٦٢٦هـ) (٣٣) ، وتابعه ابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢هـ) (٣٤) . أنه

=

متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى (الترجمة العربية) الفصل السابع عشر (الأدب) وانظر — كمثال على التراث الذى لم يصل الينا بعد — قائمة مصنفات محمد بن جرير الطبرى فى المقدمة التى كتبها محمد أبو الفضل ابراهيم لتحقيق تاريخ الرسل والملوك للطبرى .

(٣٣) فى كتابه : ارشاد الأريب الى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء (مطبعة دار المأمون بمصر) ٢/٢٣٠ .

(٣٤) فى كتابه : لسان الميزان (طبعة حيدر أباد — بالهند ١٣٣١هـ) ١/١٣٨ .

« أحمد بن أعثم » ، قال الحاج خليفة (ت ١٠٦٧هـ) [٣٥] : انه « محمد ابن على — أو — أحمـد بن على ، المعروف بابن أعثم » . أما كارل بروكلمان (ت ١٩٥٦ م) [٣٦] ، فقد أورد اسمه هكذا « محمد بن أعثم ، على بن أعثم ، ثم قال مرة أخرى [٣٧] : « محمد بن على (وقيل أبو محمد على) بن أعثم الكوفى » . غير أن آقابزرك الطهرانى [٣٨] ، وخير الدين الزركلى (ت ١٣٩٦ هـ) [٣٩] قد اتفقا على أنه « أحمد بن محمد بن على بن أعثم » [٤٠] . ومن المهم هنا أن نذكر الاسم كما ورد فى مستهل كتاب الفتوح الذى بين أيدينا ، وهو « قال الشيخ ، الامام ، العالم ، العلامة : أحمد بن محمد بن أعثم الكوفى ، عفا الله عنه » [٤١] ، كذلك

---

(٣٥) فى كتابه : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون (نشرة مكتبة المثنى ببغداد) ١٢٣٩/٢ .

(٣٦) فى دائرة المعارف الاسلامية (الترجمة العربية) ٩١/١ .

(٣٧) فى كتابه « تاريخ الأدب العربى » (طبعة دار المعارف بالقاهرة) — الترجمة العربية — ٥٥/٣ .

(٣٨) فى موسوعته « الذريعة الى تصانيف الشيعة — الطبعة الأولى ١٣٨٩هـ — ١٢٠/١٦ ، ٢٦/١٩ — ٢٧ .

(٣٩) فى قاموسه « الأعلام » (الطبعة الرابعة — بيروت ١٣٩٩هـ) ٢٠٦/١ .

(٤٠) وهكذا سجل الاسم فى النسخة المطبوعة من الترجمة الفارسية للفتوح .. انظر الحاشية ٣ ج ١/١ من الفتوح .

وفى معاجم اللغة : عثم العظم يعثم عثما : انجبر على غير استواء ، وعثم الجرح : يبست عليه قشرته ولم يبرأ بعد ، وعثم العظم : جبره على غير استواء ، وعثم القربة : خرزها خرزا غير محكم . راجع مادة « عثم » عند الجوهرى فى الصحاح ١٩٧٩/٥ — ١٩٨٠ . وابن منظور : لسـان العرب ٢٧٧/١٥ . ابراهيم أنيس وآخرين : المعجم الوسيط ٥٨٤/٢ .

وليس واضحا لى — على ضوء ذلك — تحديد المقصود من هذه المعانى فى كلمة « أعثم » !

(٤١) الفتوح ١/١ .

جاء اسمه فى موضع آخر من الكتاب (١٤٧/٢) : « قال أبو محمد أحمد ابن أعثم الكوفى » •

وهكذا نرى اختلافا ظاهرا ، حول اسم الرجل بين أولئك المؤرخين الذين ترجموا له ، وان انحصر هذا الاختلاف فى ترك أحد الآباء الثلاثة ، أو تقديم اسم منها ، وتأخير آخر ، لكنهم جميعا — ولله الحمد — قد اتفقوا على نسبته الى الكوفة ، وأجمعوا على كنية واحدة له وهى : « أبو محمد » •

لكن هناك أمرا آخر جديرا بالالتفات اليه فى هذه المناسبة ، وهو أن من ترجموا لابن أعثم ، لم ينسبوه الى قوم بعينهم ، وبذلك فاتنا أن نعرف حقيقة انتماء الرجل الى أى الأصول العربية ! سواء كان انتماء بالأصالة أو بالولاء ، فلقد كان لهذا الانتماء صداه — يومئذ — فى مواقف الرجال وميولهم الخاصة ، ويبدو هذا جليا بصفة خاصة فى مؤلفاتهم وآثارهم العلمية والفكرية ! ولا شك فى أن طائفة كبيرة من مصنفات ذلك العصر ، كانت مجالا لابراز ما فى بعض النفوس من عصبيات ومذاهب تموج بها الساحة الاسلامية ، كالانتصار لآراء الشيعة أو الخوارج ، والقيسية أو اليمنية ، والعرب أو الموالى ، الى غير ذلك من اتجاهات فى الفكر مختلفة •

على أن ما أثار انتباهى ، وشد اهتمامى ، هو ما ورد تعليقا على آخر نص الكتاب [٤٢] وجاء فيه : « تم الجزء الثانى من فتوح ابن أعثم (الكندى) على التمام والكمال » ! فتوقفت أمام هذه النسبة التى ظهرت فجاءة ، وبعد الفراغ من قراءة نص الكتاب كله ، وعلى الرغم من أنها لم ترد فى نص الكتاب ، وليست من أصله ، وانما هى ضمن

---

(٤٢) الفتوح ٣٥٤/٨ حاشية رقم ٧ .

تعليق بقلم الناسخ ، وهو « محمد بن على بن محمد الطنبذى المتوفى عام ٨٧٣هـ » (٤٣) . فقد كان لابد من تحرى أمر هذه النسبة ، وبعد التأمل والتدقيق فيها ، أدركت أن هذا الناسخ قد حرف الكلمة ، فاستبدل الكندى بالكوفى ، أى أننا اذا صوبنا هذا التحريف الذى وقع عند النسخ تبقى النسبة الأولى لابن أعثم « الكوفى » على ما هى عليه . وقد رجح هذا الاستنتاج لدى أسباب منها :

أن هذه النسبة — الى كندة — لم ترد الا مرة واحدة هى تلك التى ذكرناها ، وكان ورودها فى زمن متأخر جدا بعد وفاة ابن أعثم ، حيث كان فراغ محمد بن على الطنبذى من نسخ الفتوح فى سنة ٨٧٣هـ كما نص هو على ذلك فى نهاية الفتوح ، أى جاء ذلك بعد وفاة صاحب الكتاب بأكثر من خمسة قرون ونصف قرن ! ولو كان ابن أعثم «كنديا» لما تجاهل ذلك ثلاثة سبقوا هذا الناسخ فى الحديث عن مؤرخنا ، وهم : أحمد بن محمد المستوفى الهروى المتوفى بعد ٥٩٦هـ (٤٤) ، وياقوت بن عبد الله الرومى الحموى (ت ٦٢٦ هـ) ، وابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢ هـ) وكلاهما ترجم لابن أعثم .

وكذلك ، قد تبين لى من خلال مداومتى على مطالعة هذا الكتاب ، وبحثى المتأنى فيه ، أن مؤلفه من المرجح أن يكون أزدى النسب ، فطالما أعجب الرجل بأبناء هذا الفرع اليمنى الكبير ، وبأعمالهم ، كما أنه كثير الثناء عليهم ، والتغنى ببطولاتهم وأمجادهم ، ويشتد اعجابه ،

---

(٤٣) المصدر السابق ٣٥٤/٨ حاشية رقم ٧ ، ولم أعثر له على ترجمة فيما بين يدى من مصادر ومراجع .

(٤٤) وهو الذى ترجم الفتوح الى الفارسية ، وقد طبعت فى بومباى بالهند (طبع حجر) فى سنى ١٢٧٠ ، ١٣٠٠ ، ١٣٠٥هـ .

انظر بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ٥٦/٣ .

ويزداد ثناؤه بصفة خاصة بالمهلب بن أبى صفرة ، وبنيه ، وأبناء اخوته ، ويخصص لهم مساحة عريضة من كتابه ، يتناول فيها — بتوسع وتفصيل — جهادهم ونضالهم فى نصرة الاسلام ، وقتال أعدائه من الخوارج الأزارقة [٤٥] ، كما أبرز موقف المهلب من عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندى — الذى خرج علـى الحجاج بن يوسف الثقفى ، وعبد الملك بن مروان ٨١ — ٨٣ هـ — وهو موقف الناصح واللائم لابن الأشعث — وهو كندى — على ثورته وخروجه على ولاة الأمر ! ومن المؤكد أنه لو كان ابن أعثم من كندة لما أبرز هذا الرأى للمهلب [٤٦] .

ومنها ، أخيرا أن وقوع التحريف فى نسخ الكتب أمر يكثر وقوعه ، وليس بمستغرب على النساخ أن يرتكبوا — عن غير قصد — بعض الأخطاء ، وبصفة خاصة عندما يوشكون على الفراغ من الكتاب ، حيث يكون التعب قد نال منهم ، سيما وأن هاتين الكلمتين متقاربتان فى الرسم (الكوفى والكندى) وهذا فيما أرى احتمال أقرب الى الصواب .

حيـــاته :

من المعروف أن حياة كل انسان تنقسم الى مراحل متميزة يتلو بعضها بعضا ، وقد التفت كتاب التراجم وأصحاب معاجم الرجال الى هذه الحقيقة ، فجرت عادتهم بأن يتناولوا فى عرض سير الرجال وأخبارهم ، كل مرحلة فى حياة المترجم له بذكر ما يتوفر لديهم من المعلومات عنها ، لما يعلمون من أثر هذه المراحل جميعا على حياة صاحب الترجمة ، لذلك فهم يبدأون حديثهم — بعد ذكر تاريخ مولده ومكانه

---

(٤٥) قد خصصنا الفصل الخامس من هذا البحث لتفصيل القول فى قتال المهلب للازارقة .

(٤٦) الفتوح ١١٨/٧ — ١١٩ ، واقرأ حول الاشادة بالأزد بخاصة ، واليمنية بعامة قصة الهلقام بن الحارث مع فرسان العرب القيسية فى المصدر السابق ١٠٤/١ وما يليها .

اذا تيسر لهم — بمرحلة النشـــأة والتربية الأولى ، ثم يعقبون بعدها بمرحلة الطلب ، طلبه للعلم فى موطنه ، ورحلته بعد تحصـــيل علوم الشيوخ فى بلده ، الى العلماء فى الأمصار الأخرى الذين سمع بهم ، ويرغب فى الأخذ منهم والتلقى عنهم ، ويذكرون بعض أسماء هؤلاء الأساتذة الذين شد رحله اليهم • وكل ذلك انما يتيح للقارىء أن يعرف قدر المترجم له ومكانته بين العلماء بما حصل من علم عن أولئك الشيوخ هنا وهناك • ثم يتناولون بعد ذلك مرحلة العطاء التى يتصدى فيهـــا صاحب الترجمة لنشر العلم بين طلابه وقصاده من الراغبين فى التلقى عنه من أهل مصره ، أو من سائر الآفاق ، كما فعل هو فى المرحلة السابقة من حياته ، ويذكرون طائفة من تلاميذه الذين رووا عنه وحفظوا من علمه ما يخلد اسمه جيلا بعد جيل ، أو طبقة بعد طبقة • وأخيرا ، يحددون تاريخ وفاة المترجم وأين كانت ، حين تيسر لهم ذلك ، والا ذكـــروا التاريخ التقريبى لها •• وهذا نهج موفق طيب فى كتابة السيرة الشخصية للعلماء — كل على قدر مكانته وأثره بين رجال عصره — عرفنا بواسطة ذلك أخبـــار ، وتواريخ علمائنا منذ ظهور الاســـلام ، ويزخر تراثنا العظيم بحشد هائل من المصادر فى هذا المجال الرحب والحمد لله •

وكنا نود أن يكون لابن أعثم الكوفى ذكر كاف فى هذه المصـــادر المتخصصة ، حتى يتهيأ لنا أن نلقى ضوءا كاشفا على حياته ، لكن المؤسف أننا هنا مع رجل تجاهلته هذه المصادر ، فسكتت عن سيرته الذاتية تماما ، فلا نكاد نعلم من أمر حياته بمراحلها جميعا شيئا يمكن أن يسد هـــذا الفراغ الذى نواجهه الآن ونحن نتصدى للحديث عن حياته ، وكيف قضاها على تعاقب مراحلها ؟ وعلى سبيل المثال ، كان ينبغى لنا أن نعرف شيئا عن مرحلة الطلب فى حياته ، وهل كانت له رحلة فى سبيل ذلك ، أو أنه اكتفى بتحصيل علم من لقيهم فى بلده من العلماء ؟ ومن تمام هذه المعرفة ، أن نعلم الى أى البلاد ارتحل ان كانت له رحلة ، ومن لقى

من أهلها ؟ وذلك كله مفقود لا ذكر له فى الأسطر القلائل التى قدم بها ابن أعثم الينا ، ومحصلة هذا فى نهاية الأمر ، أن شخصية هذا الرجل بالنسبة الينا لا تزال مجهولة من هذه الزاوية المهمة ! ولا تختلف فى جهالتها عن تلك المرحلة ، من حياة ابن أعثم ، المرحلة الثالثة فيها ، مرحلة العطاء والتصدى لنشر العلم بين تلاميذه ، فان شيئا عنها لم يذكر ، ولم نعثر له على أخبار فى هذا الصدد بصورة محددة ، ومع ذلك فان هناك ما يدعونا الى تخصيص جانب من حديثنا هذا ، لنقول كلمة عن :

شيوخه وأساتذته :

ان أهم وأقدم ترجمة لابن أعثم الكوفى — فيما نعلم حتى الآن — لهى تلك الأسطر القلائل التى كتبها ياقوت عنه [٤٧] ، والتى تضمنت السر فى تجاهل مصنفى كتب الرجال شأن الرجل وذكره ، وهو المتمثل فى قوله : « وهو عند أصحاب الحديث ضعيف » [٤٨] . وبعد ذلك بقرنين من الزمان تقريبا ، جاء الحافظ ابن حجر العسقلانى ، وأكد هذه الكلمات التى سبقه بها ياقوت [٤٩] . أما سائر كتب الضعفاء والمتروكين ، فلم تلتفت اليه ، ولم تذكره بشىء ! واذا كان هناك هذا الاجماع الواضح على تجاهل الرجل ، واطراح ذكره ، حتى من دواوين الضعفاء والمتروكين التى تذكر أمثاله ، فليس غريبا أن لا نعرف من تتلمذ له ، أو عليه من الشيوخ ، ثم من الطلاب !

ولقد كان من الممكن أن ننشد ضالتنا هذه فى كتاب الفتوح ، لو كان ابن أعثم — فى تصنيفه اياه — قد سار على نهج المعاصرين ، وسلك سبيل العلماء المتقنين ، وأخذ بطريقة الأمناء من المصنفين ، الذين يذكرون بصريح القول ، عمن أخذوا علمهم ، يسجلون ذلك فى مقدمات

---

(٤٧) معجم الأدباء ٢/٢٣٠ — ٢٣١ .
(٤٨) المصدر السابق ٢/٢٣٠ .
(٤٩) لسان الميزان ١/١٣٨ .

كتبهم (٥٠) ، أو يسندون الأخبار والنصوص الى مصادرها التى نقلوا عنها من مشيختهم وأساتذتهم بأمانة ودقة (٥١) .. لكنه — مع الأسف — لم يفعل ذلك الا فى حالات قليلة ، مما يؤكد — فيما نرى — عدم اكترائه، وفقدان التزامه بالاسناد ، وطريقة التحمل ، التى كانت سائدة فى عصره ، بين الرواة للعلم فى مختلف فنونه ، ومنها علم التاريخ الذى شارك فيه ابن أعثم بهذا الكتاب فى أقل تقدير (٥٢) .

تلاميذ ابن أعثم :

من بـــاب تقـــرير الواقـــع فى التعـــريف بصـــاحب الفتوح ، أن نقول : ان ترجمته القصـــيرة التى خلت تماما من ذكر شـــيوخه وأستاذيه ، قـــد خلت أيضا من ذكر — أو الاشارة الى — تلاميـــذ سمعوا منه ، أو تلقوا عنه علمه فى التاريخ ، أو فى غيره من العلوم الأخرى ، التى ربما كانت له فيها مشاركة ، شأنه فى ذلك شـــأن علماء العصر الذى ينتمى اليه — القرن الثالث ومطالع القرن الرابع للهجرة — اذ من المعلوم أن أحدا منهم ، لم يكن معنيا بعلم واحد فحســـب ، غير ملتفت الى ما سواه من العلوم ، بل الشأن فى علماء ذلك العصر —

---

(٥٠) اقرأ — على سبيل المثال — : محمد بن عمر الواقدى(ت٢٠٧هـ): كتاب المغازى — بتحقيق مارسدن جونس — طبعة دار المعارف بمصر — ١/١ — ٢ . على بن الحسين المسعودى (ت ٣٤٦ هـ) : مروج الذهب ومعادن الجوهر — بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد — طبعة بيروت ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م — ١٢/١ — ١٧ .

(٥١) تجد هذه الطريقة واضحة جلية فى مصنفات مثل : تاريخ خليفة ابن خياط العصفرى (ت ٢٤٠ هـ) — بتحقيق أكرم ضياء العمرى — طبعة ثانية ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م بيروت — وفتوح البلدان لأحمد بن يحيى بن جابر (البلاذرى) — ت ٢٧٩ هـ — بتحقيق صلاح الدين المنجد — مطبعة نجنة البيان العربى بمصر .وتاريخ الرسل والملوك لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى (ت ٣١٠هـ) — بتحقيق محمد أبى الفضل ابراهيم — الطبعة الثانية بدار المعارف بمصر ١٩٧٦ م .

(٥٢) ذكر ياقوت وابن حجر أن له كتابا آخر بعنوان : « التاريخ » وهو غير الفتوح . معجم الأدباء ٢٣١/٢ ، لسان الميزان ١٣٨/١ .

بصفة عامة — أن الرجل منهم كان يدلى بدلوه فى أكثر من باب من أبواب العلم ، وقد يغلب عليه وصف المقرىء ، أو المحدث ، أو الفقيه ، أو المؤرخ ، ولكن ذلك لم يكن يعنى انصرافه عن بقية مجالات العلوم ، وانما المقصود أنه أجاد وأبدع فى هذا الميدان ، كما لم يجد أو يبدع فى غيره ، حتى لقد عرف به بين الأقران ، فأصبح وصفا له ولقبا (٥٣)..

ولكننا لم نعثر طى الكتب التى بين أيدينا على ما يدل على أن لابن أعثم الكوفى تلاميذ فى مجال التاريخ والرواية الأخبارية ، أو فى غيره من سائر العلوم ! .

وفـــاته :

لم يذكـــر الذين ترجمـــوا لابن أعثم تاريخ وفاته على وجـــه التحديد ، الذى يدل على ثقة فيما يؤرخون ، وانما ذكروه على نحـــو تقريبى ، فقالوا : « توفى فى حدود عام ٣١٤ هـ » (٥٤) . كذلك لم يكن مستطاعا أن يشار الى سنه حين مات ، وذلك لجهالة تاريخ مولده ، ولعدم التحقق من العام الذى توفى فيه !

تحقيق تاريخ وفاة ابن أعثم :

ولكن قد ثارت شبهة قوية حول صحة ودقة هذا التقدير للســنة التى توفى فيها ابن أعثم ، وذلك حينما راجعت ، وقارنت بين هذه السنة

---

(٥٣) راجع فى هذا الصدد — على سبيل المثال — سيرة خليفة بن خياط العصفرى (ت ٢٤٠ هـ) فى مقدمة المحقق لكتابه « تاريخ خليفة » الدكتور أكرم ضياء العمرى ، وترجمة ابن قتيبة الدينورى (ت ٢٧٦هـ) فى مقدمة التحقيق لكتابه « المعارف » بقلم محققه الدكتور ثروت عكاشة ، وســـيرة أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى (ت ٣١٠هـ) فى مقدمة محقق كتابه « تاريخ الرسل والملوك » المرحوم « محمد أبو الفضل ابراهيم » .

(٥٤) بروكلمان : تاريخ الأدب العربى (الترجمة العربية) ٥٥/٣ ، الزركلى : الأعلام ٢٠٦/١ . آغا بزرك الطهرانى : الذريعة ١١٩/١٦ .

(٣١٤هـ) ، وبين ما قاله ياقوت ، وابن حجر عن الكتاب الثانى لابن أعثم « كتاب التاريخ » حيث نص كلاهما على أنه «الى آخر أيام المقتدر»[٥٥] فوجدت أن ذلك لا يتأتى مطلقا ، لما هو معلوم من أن وفاة المقتدر العباسى مقتولا كانت فى سنة ٣٢٠هـ [٥٦] . فاذا ما أخذنا بقول هذين المؤرخين — وهو ما ينبغى أن نفعل لأن تقدير سنة ٣١٤ هـ تاريخا لوفاته لا دليل عليه — لزم حينئذ أن نصحح هذا التاريخ ، فنجعل وفاة ابن أعثم الكوفى آخر عام ٣٢٠هـ /٩٣٢م ، أو بعد ذلك ، أى بعد انتهاء خلافة وحياة المقتدر بن المعتضد ، لا أن تكون قبل ذلك ! .

آثـــاره :

أمـا الآثـار العلمية التى خلفهـا ابن أعثـم الكـوفى ، فليس بين أيدينا منها الا هذا الكتاب الذى نحن بصدد الحديث عنه الآن « كتاب الفتوح » . بيد أن ياقوتا الرومى ، وابن حجر العسقلانى قد صرحا بأن له كتابا آخر هو « كتاب التاريخ » ، وقد حددا الفترة الزمنية التى يتناولها الكتاب الثانى ، وهى « من أول دولة المأمون الى آخر دولة المقتدر » [٥٧] . ثم أضـاف ياقوت اضـافة مهمة فقـال : « ويوشـك أن يكون ذيلا على الأول » ، أى على الكتاب الأول وهو الفتوح . ثم انه لكى لا يظن ظان أن الأمـر قـد التبس عليـه ، وأن كتاب التاريخ هو جزء من كتاب الفتوح ، قطع هذا الاحتمـال ، وحسم المسألة حسما فقال : « رأيت الكتابين » [٥٨] .

---

(٥٥) معجم الأدباء ٢/٢٣٠ — ٢٣١ ، لسان الميزان ١/١٣٨ .

(٥٦) ابن الأثير : الكامل ٨/٢٤١ — ٢٤٢ ، النويرى : نهاية الأرب ٩٨/٢٣ .

(٥٧) معجم الأدباء ٢/٢٣٠ — ٢٣١ ، لسان الميزان ١/١٣٨ . أى الى سنة ٣٢٠ هـ .

(٥٨) معجم الأدباء ٢/٢٣١ . وأما بروكلمان ، فلم يذكر لابن أعثم الا كتاب الفتوح فحسب — تاريخ الأدب العربى (الترجمة العربية) ٣/٥٥ — ٥٦ — . وجاء بعدئذ فؤاد سزكين ، فى كتابه « تاريخ التراث العربى — =

على أن هناك أمرا ذا أهمية بينة فى هذه المسألة ، وهو أن كتاب الفتوح الذى بين أيدينا ، ينتهى بذكر خلع الخليفة العباسى المستعين بالله (٢٤٧— ٢٥٢هـ) نفسه من الخلافة ، وفى ذلك يقول ابن أعثم فى ختام الفتوح — ٨/٣٥٤ — « وصار الأمر (يعنى الخلافة) من بعده (من بعد المنتصر بالله) الى المستعين بالله ، ثم خلع نفسه بعد ثلاث سنين وثمانية أشهر ، وعشرين يوما ، فهذا آخر الفتوح ، والله أعلم وأحكم » (٥٩) .

=

الذى نقله الى العربية د/ محمود فهمى حجازى — والمطبوع فى الرياض ١٤٠٣هـ » فقال فى المجلد الأول ج ٢/١٦٩ — ١٧٠ : ان لابن أعثم الكوفى من الآثار : ١ — كتاب الفتوح. ٢ — كتاب « ابتداء خبر وقعة صفين » ، غير أنه تحفظ وشك شكا واضحا فى هذا الكتاب الأخير ! والحقيقة أن فى كتاب الفتوح فصلا مطولا خصصه ابن أعثم للحديث عن وقعة صفين وعنون الفصل هكذا « ابتداء خبر وقعة صفين » ، وهو يقع فى الجزء الثانى من ص ٣٤٤ الى نهايته ، وجميع صفحات الجزء الثالث من المطبوع . وهكذا نرى أن سزكين لم يذكر كتاب التاريخ ضمن آثار ابن أعثم الكوفى .

على أن الأعجب من ذلك ، هو قول الناشر اللبنانى لكتاب الفتوح ، فقد زعم أن لابن أعثم الكوفى ثلاثة مؤلفات ، هى : « المألوف ، والفتوح ، والتاريخ » ، وادعى بأنه نقل ذلك عن ياقوت ! وقد وهم فى ذلك ، لأن قول ياقوت صريح فى أن لابن أعثم كتابى الفتوح والتاريخ اللذين رآهما فحسب ! راجع ص ج من مقدمـــة الطبعة اللبنانية — وهى منقولة بحالتها كما هى فى طبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن بالهند — بقلم نعيم زرزور — دار الكتب العلمية ببيروت ١٤٠٣هـ /١٩٨٣م .

والحقيقة أنه لم ينقل ذلك عن ياقوت ، وانما نقله عن آخر — هو عبد الله مخلص — قد كتب مقالة فى مجلة المجمع العلمى العربى فى دمشق (مجلد ٦ جزء ٣ ص ١٤٢) قال فيها : ان لابن أعثم كتابا آخر اســـــمه « المألوف » فتأمل ذلك وأعجب ! ؟ .

(٥٩) راجع قصة خلع المســـتعين بالله نفسه من الخلافة ومبايعة المعتز بن المتوكل عند الطبرى : تاريخ ٩/٣٤٢ — ٣٤٦ ، ٣٤٨ — ٣٥٤ ، وابن الأثير : الكامل ٧/١٦٧ — ١٦٨ ، والنويرى : نهاية الأرب ٢٢/٣١٢.

ومعنى ذلك بجلاء ، أن كتاب الفتوح لا ينتهى بنهاية عهد الرشيد [٦٠] ، كما ذكر ياقوت ، وابن حجر ومن تابعهما من الكتاب ، وانما يمتد بعد ذلك حوالى ستين عاما ، حيث وقع آخر حدث ذكره المؤلف فى نهاية الفتوح ، وهو خلع المستعين بالله نفسه من الخلافة ، ويمثل ذلك زيادة كبيرة فى مساحة العرض التاريخى الذى يضمه الكتاب ، ويقرب من سبعين صفحة ، كلها فى آخر الفتوح [٦١] .

لكننا فى الواقع نواجه صعوبة واضحة فى تحديد نهاية قاطعة لهذا الكتاب ! فانه على الرغم من بيان هذا الاختلاف الذى وجدناه بين ما قال ياقوت وابن حجر ، وبين الكتاب المطبوع ، فان الجزء الثامن

---

(٦٠) توفى هارون الرشيد بن محمد المهدى ، بن عبد الله المنصور (أبى جعفر) بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس فى عام ١٩٣ هـ . أرخه ابن قتيبة فى المعارف ص ٣٨١ — ٣٨٣ ، الطبرى : تاريخ ٨/٣٤٢ — ٣٤٦ . ابن الأثير : الكامل ٦/٢١١ — ٢١٤ . النويرى : نهاية الأرب ٢٢/ ١٥٨ — ١٥٩ ، وغيرهم .

(٦١) وتتضمن هذه الزيادة الموضوعات التالية : ج ٨/٢٨٦ — ٢٩٠ : خلافة محمد الأمين . ٨/٢٩٠ — ٢٩٥ : ذكر خبر الشعراء الثلاثة وهم : أبو نواس ، والرقاشى ، ومصعب مع محمد الأمين . ٨/٢٩٥ — ٣١١ : ذكر المخالفة بينهما (بين الأمين والمأمون ابنى الرشيد) ومقتل الأمين . ٨/٣١١ — ٣١٢ : خلافة المأمون بن هارون الرشيد . ٨/٣١٢ — ٣١٥ : ذكر خبر نصر بن شبث وخروجه على المأمون بن الرشيد . ٨/٣١٥ — ٣٢١ : ذكر خروج طاهر بن الحسين على المأمون ووفاته . ٨/٣٢١ — ٣٣٠ : ذكر تزويج المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل ٨/٣٣٠ — ٣٣٢ : ذكر بلال الشارى وخروجه على المأمون . ٨/٣٣٢ — ٣٤٠ : ذكر خروج المأمون الى بلاد الروم . ٨/٣٤٠ — ٣٤٤ : ذكر سيرة المأمون وما جمع فيه من مكارم الأخلاق . ٨/٣٣٤ : ذكر خلافة المعتصم بالله . ٨/٣٤٤ — ٣٥٤ آخر الجزء : ذكر تولية الأفشين ومحاربته بابك الخرمى ، وتوليته ارمينية وأذربيجان . ثم ختم بذكر خلع المستعين بالله نفسه من الخلافة كما ذكرنا ، وبذلك يتبين لنا أنه لم يشر الى خلافتى الواثق والمتوكل (٢٢٧ — ٢٤٧هـ) .

(الأخير) من الفتوح ينطوى على اشارتين واضحتين بنهايتين أخريين لهذا الكتاب .

وقد وردت الاشارة الأولى خلال عرض ابن أعثم للمرحلة الأخيرة من تاريخ الدولة الأموية ، وقبيل أن يطوى صفحتها الأخيرة قال (١٤٥/٨) : « الى أن ظهرت المسودة بأرض خراسان مع أبى مسلم ، ودنا زوال بنى أمية ، فهذا أكرمك الله آخر الفتوح » ولكنه أضاف قائلا — فى نفس السطر — : « ونبتدىء بعد هذا فى أخبار نصر بن سيار (٦٢) ، والكرمانى (٦٣) ، وأبى مسلم الخولانى الخراسانى (٦٤) » .

وهكذا ، نرى ابن أعثم — فى ثلاثة أسطر فحسب — ختم الفتوح ، ثم لم يختمه !

---

(٦٢) هو نصر بن سيار بن رافع الكنانى ، من أمراء العهد الأخير فى الدولة الأموية ، وكان شيخ مضر فى خراسان ، وتولاها ١٢٠هـ ، فغزا ما وراء النهر ، وظفر وغنم ، وعلى الرغم من دهائه وشجاعته فقد حصره أبو مسلم وقحطبة بن شبيب حتى مات كمدا فى ساوة ١٣١ هـ . راجع ابن الأثير : الكامل ٣٩٥/٥ — ٣٩٦ ، ابن خلدون : العبر ١٢٥/٣ ، البغدادى : خزانة الأدب ٢٢٣/٢ — ٢٢٤ .

(٦٣) هو جديع بن على الأزدى المعنى ، شيخ اليمنية فى خراسان وفارسها فى عصره ، ولد بكرمان فنسب اليها ، ولما ولى نصر بن سيار خراسان نشب الشر بينهما ، وكانت بينهما وقائع ، الى أن تمكن منه نصر ، فسجنه فهرب من السجن ، ثم تمكن منه نصر مرة أخرى فقتله جنده فى عام ١٢٩هـ . راجع الطبرى : تاريخ ٣٦٧/٧ — ٣٧١ ، ابن الأثير : الكامل ٣٦٣/٥ — ٣٦٦ ، الزركلى : الأعلام ١١٤/٢ .

(٦٤) هو عبد الرحمن بن مسلم الخراسانى — ولا علاقة له بخولان التى نسبه اليها ابن أعثم — أسس الدولة العباسية ، ثم قتله ثانى خلفائها أبو جعفر المنصور لخشيته منه أن يستولى على الأمر سنة ١٣٧هـ وقصة حياته القصيرة (٣٧ سنة) عجيبة ومدهشة ، اقرأ عنها : الخطيب : تاريخ بغداد ٢٠٧/١٠ — ٢١١ ، والطبرى : تاريخ ١٩٩/٧ — ٢٠٠ ومواضع كثيرة أخرى . الذهبى : سير أعلام النبلاء ٤٨/٦ — ٧٣ .

وأما الاشارة الثانية ، فقد جاءت فى أثناء حديث ابن أعثم عن خلافة الرشيد ، وقبل أن يتم سرد أخبار هذا الخليفة العباسى الشهير ، فلقد نقل عن ثمامة بن أشرس [٦٥] نصا فى المميزات والخصائص التى انفرد بها الرشيد دون سائر الخلفاء جميعا ، صرح بقوله «تم كتاب الفتوح» [٦٦] غير أنه استأنف الحديث عن الرشيد فى الصفحة التالية مباشرة ، واستمر فى ذلك حتى دخل فى حديث ابنه محمد الأمين الى آخر الكتاب على النحو الذى بيناه آنفا ! وهنا كذلك يمكننا أن نردد عبارتنا السابقة وهى أن صاحب الفتوح ، اختتم كتابه ، ثم لم يختمه باستئنافه الحديث دون توقف أو فاصل زمنى فى عرضه التاريخى ! ؟ على أنه يمكن القول من جهة أخرى : ان هذه الاشارة الثانية قد تكون هى المعنية بقول ياقوت وابن حجر : « صنف كتاب الفتوح الى أيام الرشيد » وحينئذ لابد من التساؤل عن بقية هذا الكتاب ؟ أهى جزء منه لم يره ياقوت ؟ أم هى الكتاب الثانى « التاريخ » الذى عده ياقوت « ذيلا على الأول » ؟ .

وثمة ملاحظة لافتة للنظر ، بشأن هذا القسم الأخير من الكتاب — أى من ص ١٤٦ من الجزء الثامن الى آخر الفتوح — وتتجلى لك فى أنه اهتم بذكر المصادر التى يستقى منها أخباره فى هذا القسم على نحو لا نجده فى معظم أجزاء الكتاب ، بحيث يمكن القول : ان هناك تفاوتا صارخا — فيما يتعلق بذكر المصادر — بين قسمى الفتوح هذين ، فعلى حين لا تجد فى القسم الأول منه ، وهو يمثل معظم الكتاب الا بضعة عشر موضعا ذكر فيها ابن أعثم أسانيد أو مصادر لبعض

---

(٦٥) هو ثمامة بن أشرس النميرى ، أحد الفصحاء البلغاء ، من كبار المعتزلة ، وكان متصلا بالرشيد توفى ٢١٣هـ . راجع الخطيب : تاريخ بغداد ١٤٥/٧ ، الذهبى : ميزان الاعتدال ١٧٣/١ ، المقريزى : الخطط ٣٤٧/٢ .

(٦٦) الفتوح ٢٤٤/٨ .

الروايات ، فانه حشد فى القسم الأخير — وهو بعض الجزء الثامن من الفتوح — بضعة وثلاثين اسنادا أو مصدرا لما أورده من أخبار وحكايات ، كما أن هذه الأسانيد والمصادر ترد لأول مرة فى هذا القسم من الكتاب ! .

ونحن ازاء هذا الاختلاف بين الوصف الذى أورده ياقوت للكتاب وتابعه عليه ابن حجر ، وبعض الكتاب المحدثين ، وبين الحقيقة الماثلة أمامنا فى الكتاب المطبوع ، نحن ازاء ذلك أمام احتمالين لاثالث لهما ، فأما الأول فهو احتمال بعيد فيما أعتقد ، وهو أن يكون ياقوت قد أخطأ أو وهم حين حدد نهاية الفتوح بقوله « وصنف كتاب الفتوح الى أيام الرشيد » (٦٧) ، والذى يجعلنى أطرح هذا الاحتمال هو قول ياقوت الصريح « رأيت الكتابين » (الفتوح والتاريخ) ، ولم يسجل ياقوت هذه الجملة الدقيقة الا ليدفع هذا التوهم الوارد ، وهو اذ يقول قوله هذا ويحدد به مرادا معينا ، فانما يدرك ما يقول ويعنيه تماما ، ولا مجال لرد ذلك والشك فيه ، لأن ياقوتا هو من هو فى علمه وفهمه وتحريه ! وأما الاحتمال الثانى — الذى أرجحه — ، فهو أن يكون ناسخ مخطوط الفتوح قد تطوع ، فأضاف اليه هذا القدر من كتاب التاريخ لابن أعثم ، فأصبح على هذه الصورة المختلفة عن وصف المؤرخين الذى رأيناه آنفا ، ثم طبع الكتاب على ما هو عليه متضمنا هذه الاضافة الكبيرة (٦٨) ! .

وثمة مسألة أخرى ينبغى أن نعالجها فى هذه المناسبة ، وهى أن فريقا من المهتمين بابن أعثم الكوفى وفتوحه هذا ، وقد تناولوا بالذكر مضمون الكتاب ، وحددوا بداية موضوعاته وختامها ، فجانبهم الصواب ، وأوردوا فى ذلك الصدد مالا يتفق والصورة التى طالعتنا فى

---

(٦٧) عن ابن حجر : لسان الميزان ١٣٨/١ .

(٦٨) انظر فاروق عمر : بحوث فى التاريخ العباسى ص ١٨ .

الكتاب المطبوع ! فهذا كارل بروكلمان يحدد نهاية الفتوح في العبارة التالية « وهو تاريخ تحصى للفتوحات والخلفاء الأول الى عهد يزيد » (٦٩) .
وأما الدكتور فاروق عمر ، فيذكر : أن الجزء الأول من مخطوطة الفتوح يبدأ بخلافة عثمان بن عفان (٢٣ — ٣٥ هـ) ، وينتهى ببدء ثورة المختار بن عبيد (أبى عبيد) الثقفى سنة ٦٦ هـ ، وأما الجزء الثانى فيستمر فى روايته عن ثورة المختار ، ثم ينتهى بثورة بابك الخرمى فى عهد الخليفة العباس المعتصم (٢١٨ — ٢٢٧ هـ) (٧٠) ثم جاء بعده « شاكر مصطفى » فنقل عنه أقواله هذه دون أدنى تغيير أو اختلاف ! (٧١) .

ولا شك فى أن وصف هؤلاء الثلاثة يختلف كثيرا عن وصف القدماء للكتاب ، كما أنه يغاير بقدر كبير الصورة التى ظهر عليها الكتاب مطبوعا ، فلذلك وجب أن نلفت انتباه الاخوة الباحثين الى هذه الحقيقة ولو أننا التمسنا لبروكلمان بعض العذر اذا بدر منه مثل هذا الخطأ (٧٢) ، الذى لا يؤثر فى قيمة عمله الهائل فى تاريخ الأدب العربى فما بال اخواننا من الباحثين العرب ؟! .

---

(٦٩) تاريخ الأدب العربى — الترجمة العربية — ٣/٥٥ .

(٧٠) بحوث فى التاريخ العباسى — الطبعة الأولى — بيروت ١٩٧٧ م — ص ١٧ .

(٧١) التاريخ العربى والمؤرخون — دراسة فى تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله فى الاسلام — الطبعة الثانية — بيروت ١٩٨٠ م . ٢/٤٢ — ٤٣ .

(٧٢) انظر مثل ذلك قوله — فى تاريخ الأدب العربى ٣/١٥٤ — « ووجدت مجموعة من الأحاديث عنوانها « الصحيفة » اكثرها عن يوم الدين والآخرة ... الخ » ، وتعليقنا الذى بينا فيه ما كان من أخطاء فى قول بروكلمان هذا ، فى مؤلفنا « الحركة العلمية فى جامع عمرو بن العاص فى القرنين الأول والثانى للهجرة » — رسالة دكتوراه فى جامعة الأزهر ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م . ص ٢٧٤ — ٢٧٥ .

ومن تمام القول هنا أن نذكر ما لقيه هذا المصنف التاريخى (فتوح ابن أعثم) من عناية واهتمام محدودين بشأنه فى القديم والحديث فأما اهتمامهم به قديما ، فيتمثل فى قيام أحمد بن محمد المتوفى — كما قال حاج خليفة — (٧٣) ، أو محمد بن أحمد المؤرخ الهروى — كما ذكره آقابزرك الطهرانى (٧٤) — أو محمد بن أحمد بن محمد مستوفى الهروى — كما سماه بروكلمان وفؤاد سزكين (٧٥) — قيامه بترجمة الفتوح الى اللغة الفارسية فى سنة ٥٩٦ هـ للصدر افتخار أكابر خوارزم (٧٦) . وقد طبعت هذه الترجمة فى مدينة بومباى بالهند — طبع حجر — فى أعوام ١٢٧٠ هـ ، ١٣٠٠ هـ ، ١٣٠٥ هـ (٧٧) . مما يدل على الاهتمام به حديثا ، وكذلك نقل بعض المستشرقين منه نصوصا الى الانجليزية والألمانية ، حول قصة فتح السوس (٧٨) وهرب يزدجرد

---

(٧٣) كشف الظنون ١٢٣٩/٢ .

(٧٤) الذريعة الى تصانيف الشيعة ١١٩/١٦ ، وأشار الى الاسم فى المصدر السابق فاعتبره تصحيفا ، وكذلك ورد الاسم فى مقدمة الترجمة المطبوعة فى بومباى ١٣٠٠ هـ ١٨٨٢ م . كما ذكر عبد الله مخلص فى مجلة المجمع العلمى العربى فى دمشق المجلد السادس (١٣٤٤ هـ / ١٩٢٦ م) ص ١٤٢ .

(٧٥) تاريخ الأدب العربى (الترجمة العربية) ٥٦/٣ . وتاريخ التراث العربى (الترجمة العربية) ١٦٩/٢/١ .

(٧٦) آقا بزرك الطهرانى : الذريعة ١١٩/١٦ ، وسمى الكتاب المترجم « فتوح أعثم » — الزركلى : الأعلام ٢٠٦/١ .

(٧٧) بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ٥٦/٣ فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربى ١٦٩/٢/١ ، عبد الله مخلص : مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ١٤٢/٦ . الطهرانى : الذريعة ١١٩/١٦ . ويذكر الزركلى فى الأعلام ٢٠٦/١ أن النسخة الفارسية من الفتوح قد ترجمت الى لغة أردو ، وسميت الترجمة الأردية « تاريخ أعثم » .

(٧٨) السوس : بلدة بخوزستان فيها قبر النبى دانيال عليه السلام . ياقوت : معجم البلدان ٢٨٠/٣ — ٢٨١ .

— آخر ملوك الفرس — وقتله (سنة ٣١ هـ) [٧٩] ، وأخيرا ، نشر الكتاب عن مخطوطه العربى فى جيدر أباد الدكن بالهند [٨٠] ، ثم نشر مرة أخرى فى بيروت بلبنان [٨١] .

هل كان ابن أعثم الكوفى شاعرا ؟ :

ان الذى يدعو الى طرح هذا التساؤل على بساط البحث ، ونحن نعالج سيرة حياة ابن أعثم ، هو ما ذكره ياقوت عنه فى ختام ترجمته القصيرة للرجل ، حيث قال ما يلى : وقال أبو الحسين بن أحمد السلامى البيهقى : أنشدنى ابن أعثم الكوفى :

اذا اعتذر الصديق اليك يوما ... من التقصير عذر أخ مقر
فصنه عن جفائك وارض عنه ... فان الصفح شيمة كل حر [٨٢]

كذلك ما ورد فى هذا الباب لدى ابن حجر العسقلانى وهو قوله « وله نظم وسط » [٨٣] ، وهو بذلك انما يصف البيتين المذكورين وما يكون قد عثر عليه من شعر آخر لابن أعثم ، فأغلب الظن أن يكون لابن أعثم شعر ، أو أشعار أخرى سوى هذين البيتين ، غير أننا لم نعرف الطريق الى هذا الشعر بعد ، كما لم نصل الى غيره من الجوانب التى تجلى لنا شخصية هذا الرجل . وثمة وجه آخر

---

(٧٩) بروكلمان : المرجع السابق ٥٦/٣ . فؤاد سزكين : المرجع السابق ١٦٩/٢/١ — ١٧٠ .

(٨٠) بواسطة دائرة المعارف العثمانية — فى ثمانية أجزاء صدرت تباعا من سنة ١٣٨٨ هـ ١٩٦٨ م الى ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م .

(٨١) عن دار الكتب العلمية ، وهى طبعة منقولة حرفيا عن طبعة حيدر آباد . وصدرت فى عام ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

(٨٢) معجم الأدباء ٢٣١/٢ .

(٨٣) لسان الميزان ١٣٨/١ .

لتأيد هذا الظن الذى ذهبنا اليه ، فانه على الرغم من افتقاد نصوص أخرى من شعر ابن أعثم ، فلا شــك فى أنه كان مغرما بالشعر الى حد عظيم ، ولذلك خصص فى كتابه « الفتوح » مســاحة عريضة للشعر ، ما بين قصائد طوال ، ومتوسطة ، وقصيرة ، وأبيات مفردة ، وأرجــاز كثيرة ، وكل ذلك ورد فى مناسبات مختلفة على ألسنة من يؤرخ لهم تارة، وتارة أخرى دون اسناد الى أى من الشعراء ، بــل يرسله على لســان رجال دون أن يسميهم ! •

ويدور أكثــر ما ورد من شعر فى هــذا الكتاب حول معــانى البطولة والشجاعة والنجدة والصدق عند لقاء الأعداء ، والصبر على المكاره ، والحكمة والسياسة ، والانتصــار للمبدأ ، وحب آل البيت ، والتغنى بأمجاد الأرومة ، والعروبة ، واليمن بصفة خاصــة ، وغــير ذلك ممــا كان يدور حينئذ على ألسنة الشعراء ، وعلى الجملة ، فــانه يمكن القول بأن ابن أعثم كان عاشقا للشــعر ، ذواقة له ، فحشــد فى كتابه قدرا كبيرا منه ، واذن يسوغ القول بأن له شعرا آخــر ، ولكنه مفقود ! •

وقد لا تكون هناك مجافاة للحقيقة ، لو افترضنــا أن بعض ما ورد من شــعر مجهول القائــل — وهو كثير غزير — فى فتوح ابن أعثم ، انمــا هوله ، ومن نظمه هو • واذا كان هــذا القــول مجرد افتراض جدلى ، فان مما يؤيده ، ويوجهه توجيهــا مقبولا ، أن جل هــذا الشعر الذى ينسحب عليه هذا الافتراض — أى الذى نظن أن ابن أعثم قد نحله رجالا مجاهيل — يصب فى اتجاه واحد ، ويسعى نحو غاية واحــدة ، وتأكيد مذهب طالما اجتهد ابن أعثم فى الدعوة اليه وتكريسه •• ألا وهو التشيع والانتصــار المطلق للامام على رضى الله عنه ، وشيعته الذين معه ، والذين جاءوا من بعدهم الى زمن ابن أعثم الأخير ، الى أوائــل القرن الرابع الهجرى •

ان بعض الأمثلة التى نعرضهـا بين يديك الآن ، لهى دليـل قوى — نراه مقنعا — على صحة هـذا الذى ذهبنا اليه وافترضنـاه ، ومنها تلك الأبيات التى نحلهـا ابن أعثم رجلا من الأنصـار ، فى مـدح الحسن بن على بن أبى طالب ، وتفضيله على عبد اللـه بن الزبير بن العوام ، والاشـادة بخطبة الحسن التى فاق بهـا غيره من الخطباء ، وبخاصـة عبد الله بن الزبير — المشهور بانه من أخطب النـاس فى عصره ! (٨٤) .

قال هـذا الشـاعر المجهول :

حسـن الخير ياشـبيه أبيـه ... قمت فينا مقـام أنهى خطيـب
قمت بالخطبة التى تردع الجـا ... هل عن جهله وأهل العيـوب
وكشفت القنـاع فاتضح الأمر ... وداويت فاسدات القلـوب
لست كابن الزبير لجلج فى القو ... م وألقى الرأى غير مصـيب ؟
وأبى الله أن يقوم بمـا قمت ... وأنت النجيب وابن النجيب (٨٥)

وفى مناسبة أخرى تالية — هى موقعة الجمـل (٣٦ هـ) — يورد ابن أعثم خبر الفتى المجاشعى ، الذى رفـع المصحف لدعـوة الزبير وطلحة وأم المؤمنين عائشـة ، وأتباعهم ، للاحتكـام اليه فى هـذا الخلاف ، فقتله هؤلاء من ساعته ، فرثته أمه — وكانت حاضرة — برجز يسير ، ذكره الطبرى (٨٦) ، وابن أعثم ، غير أن صاحبنا هذا قـد انفرد

---

(٨٤) انظر الجاحظ : البيان والتبيين ٤٠٦/١ ، ٩٥/٢ — ابن عبد ربه : العقـد الفريـد ١٠٧/٤ — ١١٠ .

(٨٥) الى آخر الأبيات الأحد عشر ، التى قيلت تعقيبا على خطبـة وجيزة ألقاهـا الحسن بن على ، ردا على خطبة القـاها عبد الله ابن الزبير فى أهل البصرة ، اتهم فيهـا عليـا بقتل عثمان ، وحرضهم فيهـا على قتال على وأنصاره — راجع ابن أعثم : الفتوح ٣٠٢/٢ — ٣٠٥ .

(٨٦) الطبرى : تاريخ ٥٢٩/٤ .

يذكر أبيات أخرى ، قدمها بقوله : وأنشأ ابن عم له يرثيه ، ويقول أبياتا مطلعها :

تناوله شقى منهم بضربة ... أبان بها يمناه حتى تصوب
ويضربه أخرى فطارت شماله ... وفى الله ما يلقى وما يتحبب
ويحتضن القرآن منه بصدره ... فيحضنه من عند من يتنصب
ملأه دما من نحره وذراعه ... وأثبت فيه سيفه لا يكذب (٨٧)

الى آخرها

ويذكر ابن اعثم أن معاوية بن أبى سفيان ، كتب الى أهل المدينة ، يتهم عليا بقتل عثمان ، ويحرضهم على الانضمام اليه فى قتاله ، والاقتصاص من قتلة عثمان ، فردوا عليه ردا قبيحا ، وقد ذيلوه بأبيات من الشعر ، لرجل من الأنصار (؟) قال فيها :

معاوى ان الحق أبلج واضح ... وليس كما ربصت أنت ولا عمرو
نصبت لنا اليوم ابن عفان خدعة ... كما نصب الشيخان اذ زخرف الأمر
فهذا لعمرى حذو نعل بأختها ... سواء كرقراق يغربه السفر
ورميتم عليا بالتى لم تضره ... وليس له فى ذاك نهى ولا أمر (٨٨)

الى آخرها .

وفى مناسبة أخرى ، يزعم ابن أعثم ، أن معاوية أقبل على أصحابه ذات يوم يسائلهم : كيف صار على بن أبى طالب أولى بالخلافة منه ، مع أنه : كاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخته زوج النبى ،

---

(٨٧) ابن أعثم : الفتوح ٣١٥/٢ — ٣١٧ .

(٨٨) الفتوح ٤١٥/٢ — ٤١٧ ، وعمرو هو ابن العاص بن وائل السهمى — تأتى ترجمته ، والشيخان هما : طلحة بن عبيد الله التيمى (ت ٣٦ هـ) ترجم له ابن سعد فى الطبقات ١٥٢/١/٣ — ١٦١ ، وابن الاثير : أسد الغابة ٨٥/٣ — ٨٩ . والذهبى : سير أعلام النبلاء ٢٣/١ — ٤٠ — والزبير بن العوام بن خويلد (ت ٣٦ هـ) المصادر السابقة ٧٠/١/٣ — ٨٠ ، ٢٤٩/٢ — ٢٥٢ ، ٤١/١ — ٦٧ .

وأنه عامل عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ، وأمه هند بنت عتبة ابن ربيعة ، وأبوه هو أبو سفيان بن حرب ، وأن أهل الشام بايعوه كما بايع أهل الحجاز وأهل العراق عليا ، وأن هؤلاء فى الأمر سواء ، وأن من غلب على شيء فهو له ! ؟ ثم انصرف معاوية الى منزله ، فلما أصبح اذا برقعة موضوعة على بساطه ، فيها أبيات من الشعر مطلعها :

معاوى لله من خلقه ... عباد قلوبهم قاسية
وقلبك من شر تلك القلو ... ب وليس المطيعة كالعاصية
دع ابن حديج ودع حوشبا ... وذا كلع واقبل العافيه
وبايع عليا فان الذى ... تحاوله حبة قاصيه
فان عليا له فضله ... ويكفيك من خطه شاغيه(٨٩)

الى آخرها .

---

(٨٩) الفتوح ٤٢٨/٢ — ٤٢٩ — وابن حديج : هو معاوية بن حديج بن قتيرة الكندى السكونى (ت ٥٢ هـ) صحابى قد سكن مصر ، وهو نصير قوى لعثمان ومعاوية من بعده ، بل هو رئيس العثمانية فى مصر — راجع : ابن سعد : الطبقات ٥٠٣/٧ ، الكندى : ولاة مصر ص ٣٩ — ٤٢ ومواضع اخرى ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ٣٧/٣ — ٤٠ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب ٢٠٣/١٠ — وحوشب : هو حوشب بن طخمة ذو ظليم الحميرى من كبار التابعين الشاميين قتل مع معاوية فى صفين ٣٧ هـ — راجع الدينورى : الأخبار الطوال ص ١٧٢ ، ١٨٥ — ١٨٦ ، عبد القادر بدران : تهذيب تاريخ ابن عساكر ١٤/٥ ، الزركلى : الأعلام ٢٨٨/٢ — ٢٨٩ — وذوكلع : هو ذو الكلاع الأصغر سميفع بن ناكور بن عمرو بن يعفر بن ذى الكلاع الأكبر الحميرى — كان من ملوك اليمن فى الجاهلية ، اسلم ولم ير النبى عليه الصلاة والسلام ، قدم المدينة فى خلافة عمر ، وسكن حمص ثم قاد أهلها فى صفين حيث قتل ٣٧ هـ . راجع ابن حزم : جمهرة انساب العرب ص ٤٣٤ ، بدران : تهذيب ابن عساكر ٢٦٦/٥ . الزركلى : الأعلام ١٤٠/٣ ، ويذكر المسعودى : أن ذا الكلاع قدم المدينة ضمن وفد كبير من اتباعه وعبيده على أبى بكر الصديق — مروج الذهب ٣٠٥/٢ .

وخشية الاطالة ، نكتفى بما قدمناه من أمثلة ، تتيح لنا القول بأن ابن أعثم الكوفى ، لولعه بالشعر ، وقدرته على النظم ، قد أكثر من حشو المناسبات التاريخية التى يعرضها فى فتوحه بأشعار وأرجاز ، زعم أنها لهذا الرجل أو ذاك ، دون أن يسميهم — فى معظم الأحيان — وفى بعض المواقف ينسب الشعر الى شعراء معروفين وغير معروفين ، ثم بالبحث والتدقيق ، نكتشف أنه لا تصح نسبة كثير من ذلك الشعر الى أولئك الشعراء كما سوف يمر بنا فى الفصول التالية ان شاء الله • ولا حرج علينا فى أن نفترض أن جل هذا الشعر المجهول القائل ، أو المنسوب — دون أن تصح نسبته — انما هو من نظم ابن أعثم نفسه ! ولمن أراد المزيد من أمثلة هذا الشعر ، فليرجع الى المواضع الآتية (٩٠) :

مصادر فتوح ابن أعثم :

ابن أعثم الكوفى مؤرخ يرى أن لا أهمية لذكر مصادره التى اعتمد عليها فى تأليف كتابه الكبير « الفتوح » ، ورأيه هذا ، لم يصرح به قولا ، وانما طبقه بطريقة عملية فى مصنفه هذا • ويتجلى ذلك واضحا فى تتبع نص الكتاب فى أجزائه السبعة الأولى ، تلك التى يشح فيها ذكر الأسانيد ، أو التصريح بالنقل عن أحد المصادر التى يستقى منها مادة الفتوح ، سواء فى ذلك المصادر المكتوبة أو الشفوية ! •

---

(٩٠) الفتوح ٣١٩/٢ ، ٣٢٥ — ٣٢٦ ، ٤٢٤ — ٦/٣ ، ٧ ، ١٠ ، ٥٩ ، ٨٥ — ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٥ — ٩٦ ، ٩٦ — ٩٧ ، ٩٩ ، ١١٥ ، ١١٧ — ١١٨ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٥٣ ، ١٨٠ ، ١٨٨ ، ٢٠٢ ، ٢٠٨ — ٢٠٩ ، ٢٧٣ — ٢٧٤ ، ٢٨٩ — ٢٩٠ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٣٠٦ — ٣٠٧ — ١٨/٤ ، ٢٥ — ٢٦ ، ٣٥ — ٣٦ ، ٤٩ ، وسوف يمر بنا فى غير هذه المواضع نماذج أخرى كثيرة فى الفصل الخامس الخاص بالأزارقة ..

المصادر المباشرة :

وعلى سبيل المثال ، نجده فى الجزء الأول لا يصرح بالرواية عن شيخ ، أو النقل عن مصدر مكتوب الا فى موضع واحد فحسب ، وقد نص فيه على السماع من أحد الشيوخ ، وذلك قوله فى أثنـاء حديثه عن موقعة اليرموك الشهيرة (٩١) : « حدثنى جعال بن أسيد السكاسكى (٩٢) عن أبيه أسيد بن علقمة — وكان من أصحاب عياض بن غنم الفهرى (٩٣) — قال : لما رأيت ماهان قد عبى أصحابه وعسكره ، كنا نحن فى فى عسكرنا ، وليس عندنا مما صنع الكافر خبر ، فلما انشق الفجر ، وتقدم أبو عبيدة ، وصلى بالناس ، وهو لا يعلم بمكيدة ماهان ، فقرأ فى الركعة الأولى « والفجر وليال عشر » ، حتى أتى الى قوله « ان ربك لبالمرصاد » (٩٤) ؛ فهتف به هاتف : ظفرتم بالقوم ورب الكعبة ؛ وما يغنى عنهم كيدهم شيئا ، وما أجرى الله هذه الآية

---

(٩١) لقد حفل عرض ابن أعثم لمعركة اليرموك بالأقاصيص والخيالات التى لا تصح ، وكثير من التناقضات ، وأجرى على ألسنة الرومان أقوالا غريبة لا تصح عنهم ، فأطلق لنفسه العنان فى السرد والقصص الذى يميز طريقته فى العرض التاريخى ، فنسى فى خضم ذلك ، أنه يتحدث عن الروم فنسب اليهم أقوالا مستغربة الى الغاية . راجع ما قاله فى الفتوح ٢٣٠/١ — ٢٧١ .

(٩٢) قال الجوهرى : السكاسك هو أبو قبيلة من اليمن ، وهو السكاسك بن وائلة بن حمير بن سبأ ، والنسبة اليه هى : « سكسكى » انظر الصحاح (سكك) ١٥٩١/٤ .

(٩٣) هو الصحابى القائد الفاتح : عياض بن غنم بن زهير الفهرى ، وهو المعروف بأنه أول من جاز الدرب الى الروم ، وتولى الجزيرة لعمر ابن الخطاب رضى الله عنهما . وقد توفى سنة ٢٠ هـ — راجع : ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ١٧٧ ، خليفة بن خياط : الطبقات ص ٢٨ ، ٣٠٠ ، ابن عبد البر : الاستيعاب ١٢٣٣/٣ ، ابن الأثير : أسد الغابة ١٦٢/٤ — ١٦٣ .

(٩٤) سورة الفجر : الآيات ١ — ١٤ .

على لســان أميركم الابشــارة لكم ! فلمــا ســمع المسلمون الهاتف عجبوا • ثم قرأ فى الركعة الثانيــة « والشمس وضحاها » الى قوله فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسويها » (٩٥) • واذا الهاتف يقول : تــم الفأل وصح الزجر ، هذه علامة النصر ، فلمــا فرغ أبو عبيــدة من الصلاة ، قال : معاشر المسلمين ، هل سمعتم من الهاتف ما ســـمعت ؟ قالوا : سمعنا قائلاً يقول كذا وكذا ! قــال أبو عبيدة : هذا والله هاتف النصر ، وبلـــوغ الأمــر ، فأبشروا بنصر الله ومعونته ، فوالـلـه لينصرنكم الله العظيم عليهم (٩٦) ••

وليت ابن أعثم ما فعل ذلك ، لأن هذه الرواية مكذوبة لا أصــل لها من وجوه ثلاثة ، فأما الأول ، فاننا لا نعلم لهــا شاهدا أو شبيهــا فى سائر مصادرنا التاريخية التى نعتمدها — فى هــذا البحث • وثانيا ، لأن مورد هــذا الخبر — وهو جعال بن أسيد السكاسكى ، وكــذا أبوه أسيد بن علقمة — رجلان مجهولان ، لم نقف لهما على أثــر أو ذكــر فيما بين أيدينا من مصادر ! وثالثا ، فلو صح أن جعالا هــذا كــان موجودا ، وراوية حقيقيــا للأخبار ، لما صح أن يلقاه ابن أعثم الكوفى ، ويسمع منه مباشرة ، ألا ترى الى قوله عن أبى جعــال « وكان من أصحاب عياض بن غنم الفهرى » ، ولقــد توفى عياض فى ســنة ٢٠ هـ ! فهل عمر جعال بن أسيد — ابن صاحب عياض — قرنين كاملين حتى يتسنى لابن أعثم لقاؤه والسماع منه ! ؟ •

ومن الذين صرح ابن أعثم الكوفى بأنه لقيهم وسمع منهم مباشرة — وهم مجاهيل من باب جعال السكاسكى — :

---

(٩٥) سورة الشمس : الآيات ١ — ١٤ •

(٩٦) لهذا الخبر الغريب بقية لا تختلف كثيرا عمــا سلف لأبى عبيدة واحد رجاله اتخذهما المسلمون بشريين بالنصر على الروم ، وسوف نجــد الوانا أخرى من هذا القبيل فيما يلى من القول . والقصــة فى الفتـــوح ٢٤٩/١ — ٢٥٢ •

— نعيم بن مزاحم [٩٧] .

— اسحاق بن يوسف الفزارى [٩٨] .

— على بن عاصم [٩٩] .

— أبو الحسن أحمد بن الحسين النيسابورى [١٠٠] .

أبو حاتم سهل بن محمد الصانع [١٠١] .

— ابراهيم بن عبد الله بن العلاء القرشى المدنى [١٠٢] .

---

(٩٧) ذكره ابن أعثم فى موضعين اثنين (١٤٧/٢ ، ٣٤٤) : فى بدء حديثه عن خلافة عثمان فقال : « وحدثنى نعيم بن مزاحم » ، وفى ابتداء خبر وقعة صفين ، فقال : « وحدثنى نعيم بن مزاحم » . وهـو مجهول لم أقف على ذكر له .

(٩٨) حدث عنه صاحب الفتوح فى ثلاث مناسبات ، فى بدء حديثه عن خلافة عثمان ، فقال : « وحدثنى اسحاق بن يوسف الفزارى (١٤٧/٢) ، وفى ذكر عدد من قتل من الفريقين فى حرب الجمـل ، فقال : « قـال أبو يعقوب اسحاق بن يوسف الفزارى » (٣٤٢/٢) ، وفى ابتداء خبـر وقعة صفين ، فقال : « وحدثنى اسحاق بن يوسف الفزارى » (٢ / ٣٤٤) وهو مجهول لم أجد لـه ذكرا .

(٩٩) ذكره ابن أعثم فى موضع واحد من فتوحه (٢٠٩/٤) وهـو : ابتداء أخبار مقتل مسلم بن عقيل ، والحسين بن على وولده وشيعته ، من ورائه ، وأهل السنة (؟) وما ذكروا فى ذلك من الاختلاف . فقـال : « وحدثنى على بن عاصم » . وهو كسابقيه مجهول لاذكر له .

(١٠٠) ذكره ابن أعثم فى المناسبة السابقة فحسب (٢٠٩/٤) ، فقال : « حدثنى أبو الحسن أحمد بن الحسين النيسابورى » . مجهول أيضـا .

(١٠١) حدث عنه صاحب الفتوح فى المناسبة السابقة وحدها (٢٠٩/٤) فقال : « حدثنى أبو حاتم سهل بن محمد الصانع » ، وهو مثل السابقين مجهول لم أعثر له عن ذكر فى المصادر التى بين يدى .

(١٠٢) حدث عنه ابن أعثم فى موضع واحد هو : ذكر حبس الكميت رحمة الله عليه (٨٢/٨) ، فقال : « حدثنى ابراهيم بن عبد الله بن العـلاء القرشى » . وهو من الرواه المجاهيل الذين لم تذكرهم مصادرنا . أمـا =

— وأبو يزيد المهلبى (١٠٣) .
— عبد الله بن عبد الرحمن الخزاعى (١٠٤) .
— وبعض أهل العلم (١٠٥) .

واذ قد فرغنا من ذكر أولئك الذين صرح ابن أعثم بلقيهم ، والسماع منهم ، وعرفنا من يكونون من واقع دواوين التاريخ والرجال التى بين أيدينا ، فلنذكر فريقا آخر من الرواة للعلم ، الذين نص مؤرخنا فى فتوحه على أنه سمع منهم ، وروى عنهم مشافهة ، وهؤلاء يختلفون عن سابقيهم من حيث انهم رجال معروفون ، ولهم اشتغال بالعلم وروايته ، ويحتلون أماكنهم فى تواريخ الرجال . وهم فريقان متمايزان ، أولهما : رواة كانوا موجودين فى زمن ابن أعثم ، ويمكنه لقاؤهم والرواية عنهم . والثانى : رواة سبقوا ابن أعثم سبقا زمنيا بعيدا ، لا يتأتى معه أن يلقاهم أو يسمع منهم على أى حال ! .

=

الكميت فهو : ابن زيد بن الأخنس بن مجالد الأسدى ، الكوفى الشاعر المقدم ، العالم بلغات العرب ، الخبير بأيامها ، ومن شعراء مضر وألسنتها المتعصبين على القحطانية ، قيل فى حقه : ما جمع أحد من علم العرب ومناقبها ومعرفة أنسابها ما جمع الكميت — ومناقبه كثيرة — توفى ١٢٦ هـ — راجع أخباره عند ابن قتيبة : المعارف ص ٥٤٧ ، ٥٨٤ — الذهبى : سير أعلام النبلاء ٣٨٨/٥ — ٣٨٩ ، البغدادى : خزانة الأدب ١٤٤/١ — ١٤٧ .

(١٠٣) حدث عنه ابن أعثم مرة واحدة فقال : « وحدثنى أبو يزيد المهلبى » وذلك فى أثناء حديثه عن خلافة الامين بن الرشيد (٢٨٨/٨) .

(١٠٤) ذكره ابن أعثم فى موضع واحد وهو (٣١٢/٨) ذكر خبر نصر ابن شبث وخروجه على المأمون بن الرشيد ، فقال « حدثنى عبد الله ابن عبد الرحمن الخزاعى » . وهو والمهلبى من المجاهيل الذين لم أقف لهم على ذكر .

(١٠٥) أخبر عنهم — أو عنه — ابن أعثم مرة واحدة فى حديثه عن الامام الشافعى فقال : « أخبرنا بعض أهل العلم » الفتوح ٢٥٢/٨ — ٢٥٤ .

ولنبدأ بذكر رجال الفريق الأول ، وهم اثنان فقط ، أولهما أبو الحسن على بن محمد القرشى (ت ؟) ، وقد صرح ابن أعثم بالسماع منه فى موضع واحد بالفتوح [١٠٦] .

والثانى : عبد الله بن محمد البلوى (ت ؟) [١٠٧] ، روى عنه ابن أعثم فى مناسبات ثلاث ، قال فى الأولى : « حدثنا عبد الله بن محمد البلوى » [١٠٨] . وقال فى الثانية : « قال أبو محمد عبد الله بن محمد البلوى [١٠٩] » . وفى الثالثة قال : « أخبرنا عبد الله بن محمد البلوى »[١١٠] .

وأما رجال الفريق الثانى ، الذين صرح ابن أعثم بأنه لقيهم وسمع منهم ، ولا يتأتى له ذلك ! فهم اثنان أيضا ، وأولهما : سليم !

---

(١٠٦) ١٤٧/٢ ، بدء حديثه عن خلافة عثمان بن عفان ، وفيه قال : « حدثنى أبو الحسين على بن محمد القرشى » ، ولا نعرف عنه الا ما ذكره الدكتور جواد على فى بحثه الكبير عن موارد تاريخ الطبرى — نقلا عن المستشرق الألمانى « ولهلم هو نرياخ » — الذى قال ان أبا الحسن على بن محمد القرشى من الذين الفوا كتابا فى الردة .. انظر مجلة المجمع العلمى العراقى (المجلد الثامن) ١٣٨٠ هـ/١٩٦١ م ص ٤٣٥ . وينبغى الاشارة الى أن ابن أعثم قد روى عنه مرة أخرى بواسطة عبد الله بن محمد البلوى — الفتوح ٢٥٣/٦ — ٢٥٤ — فى « ذكر ابتداء فتنة البصرة ، وشغب أهلها وما كان بينهم من الحرب والعصبية » .

(١٠٧) ذكره الذهبى فى ميزان الاعتدال ٤٩١/٢ باقتضاب فقال : « عبد الله بن محمد البلوى . عن عمار بن يزيد ، يضع الحديث . روى عنه أبو عوانة فى صحيحه فى الاستسقاء خبرا موضوعا . ثم لم أجد عنه سوى ذلك فى سائر مصادرى .

(١٠٨) الفتوح ٣٦/٤ « ذكر ابتداء الغارات بعد صفين » .

(١٠٩) المصدر السابق ٢٥٣/٦ « ذكر ابتداء فتنة البصرة وشغب أهلها ، وما كان بينهم من الحرب والعصبية » .

(١١٠) المصدر نفسه ٢٤٥/٨ « حكاية الامام الشافعى مع الرشيد » .

وقد ذكره ابن أعثم فى موضع (١١١) واحد ، فقال : « حدثنى سليم عن مجاهد ، عن الشعبى (١١٢) .

وثانيهما هو المؤرخ الكبير القديم أبو الحسن على بن محمد المدائنى (ت ٢١٥ أو ٢٢٥ هـ) (١١٣) .

---

(١١١) المصدر نفسه ٢/٣٤٤ . « ابتداء خبر وقعة صفين » .

(١١٢) ذكرنا مجاهدا والشعبى فى هذا السند ، لكى نحدد شخصية « سليم » الذى ذكره ابن أعثم مجردا ، فعرفنا أنه : سليم المكى ، مولى أم على ، أبو عبيد الله ، الذى يروى عن مجاهد بن جبر ، ويروى عنه ابن جريج ، وعبد الملك بن أبى سليمان ، ولم يذكر يحيى بن معين ، ولا ابن حجر العسقلانى — اللذان ترجما له — تاريخ وفاته — راجع تاريخ يحيى ابن معين ٢/٢٣٨ ، تهذيب التهذيب ٤/١٦٧ — ١٦٨ غير أن تلميذيه المذكورين « ابن جريج قد توفى ١٥٠ هـ ، وابن أبى سليمان توفى ١٤٥ هـ ولا بد أن سليما قد توفى قبلهما ، فكيف والامر كذلك يلحق به ابن أعثم ويروى عنه بلفظ حدثنى ؟! .

وأما مجاهد فهو التابعى الثقة الكبير ، شيخ القراء والمفسرين : مجاهد بن جبر مولى بنى مخزوم ، وتلميذ ابن عباس وغيره من علماء الصحابة راجع فى ترجمته : ابن قتيبة : المعارف ص ٤٤٤ ، ويعقوب بن سفيان : المعرفة والتاريخ ١/٧١١ ، ابن أبى حاتم : الجرح والتعديل ٣/١/٣١٩ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب ١٠/٤٢ . الذهبى : سير أعلام النبلاء ٤/٤٤٩ — ٤٥٧ . وقد توفى مجاهد عام ١٠٤ هـ .

والشعبى هو : عامر بن شراحيل بن عبد بن ذى كبار (وهو قيل من أقيال اليمن) ، وهو من مشاهير التابعين بالكوفة ، روى عن جمع كبير من الصحابة وقدماء التابعين ، وأخباره كثيرة ، توفى عام ١٠٤ هـ ، ومصادر ترجمته وفيرة ، منها : ابن سعد : الطبقات ٦/٢٤٦ ، ابن قتيبة : المعارف ص ٤٤٩ ، يعقوب بن سفيان : المعرفة والتاريخ ٢/٥٩٢ ، ابن أبى حاتم : الجرح والتعديل ٣/١/٣٢٢ ، الخطيب : تاريخ بغداد ١٢/٢٢٧ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ٤/٢٩٤ — ٣١٩ .

(١١٣) هو المؤرخ الكبير ، العلامة الحافظ ، الصادق على بن محمد ابن عبد الله بن أبى سيف المدائنى ، قال الذهبى : كان عجبا فى معرفة

وقد صرح ابن أعثم بلقائه والأخذ عنه مشافهة فى موضع واحـــد بالفتوح (١١٤) • غير أنه فيما عدا ذلك أرسل أقواله — فى مواضع كثيرة — دون نص على الأخـــذ منه أو لقائه ، وسوف نشير الى هذه الأقوال فيما يلى ان شـــاء الله •

وهكذا نرى أن هؤلاء الشيوخ — على قلتهم بالمقارنة الى حجم الفتوح الكبير — لا سبيل الى الجزم بصحة دعوى ابن أعثم لقاءهم والرواية عنهم مشافهة ، مادامت الشواهد والقرائن التى بين أيدينا تقول بغير ذلك فى أغلب الحالات ، وتمســك عن القول فى حــالتين اثنتين (١١٥) ! •

المصـــادر غير المباشرة :

ثم علينـــا بعد هذا الاستقصاء للرواة الذين قال ابن أعثم : انه حدث عنهم ، أن نستقصى المصـــادر غير المباشرة ، وهم أولئك الذين أرســل مؤرخنـــا نصوصهم أو مروياتهم دون أن يذكـــر ما يـــدل على لقائهم أو السماع منهم ، كأن يقول : « قال مجاهد ••• » ، أو « ذكر جبريل بن بختيشوع •••• » وهؤلاء كذلك ينقسمون الى قسمين،

=

السير والمغازى والأنساب وأيـــام العرب ، وقـــد أكثـــر من التصانيف التى اعتمد عليهـــا المؤرخون من بعده فى هـــذه الميادين جميعـــا • انظر محمد بن اسحاق النديم : الفهرست ص ١٤٧ — ١٥٢ ، والخطيب : تاريخ بغداد ١٢/٥٤ — ٥٦ ، ياقوت : معجم الأدباء ١٤/١٢٤ — ١٣٩ ، الذهبى: سير اعلام النبلاء ١٠/٤٠٠ — ٤٠٢ ، ابن حجـــر : لســـان الميـــزان ٤/٢٥٣ — ٢٥٤ •

(١١٤) ٨/١٥٩ — ضمن أخبار أبى مسلم الخراسانى — قـــال ابن أعثم : « حدثنى أبو الحسن المدائنى قال ••• » •

(١١٥) وهما : تحديثه عن أبى الحسن على بن محمـــد القرشى ، وعبد الله بن محمـــد البلوى •

فقســم منهم : رجال معروفون ذوو شهرة علمية ، تحدثت عنهــم المصادر التاريخية والقسم الثانى : قوم من المجاهيل الذين لـم نعثـر نهم على ما يعرفنا بهم — ونبدأ بذكـر رجال القســم الأول ، وهم حسب ورود أقوالهم فى الفتوح •

« سعيد بن زيد بن عمرو ، ولعله ابن نفيل بن عبد العزى القرشى العدوى — أحد العشرة المبشرين بالجنة • (ت ٥٢ هـ) »[١١٦] •

« مجاهد ، وهو مجاهد بن جبر ، التابعى المكى ، الذى سـلفته ترجمته • (ت ١٠٤ هـ) »[١١٧] •

« سعيد بن جبير — مولى أسد بن خزيمة — (ت ٩٥ هـ) »[١١٨] •

---

(١١٦) وهو من السابقين الأولين الى الاسلام ، ومن البدريين ، الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وحضر سائر المشـاهد مـع النبى عليه الصلاة والسلام — ترجم لـه ابن سـعد فى الطبقات ٢٧٥/١/٣ — ٢٨١ ، وابن قتيبة : المعارف ص ٢٤٥ — ٢٤٦ ، ابن عبد البر : الاستيعاب ٦١٤/٢ — ٦٢١ ، ابن الأثير : أسد الغابة ٣٨٧/٢ — ٣٨٩ ، الذهبى : سير أعـلام النبلاء ١٢٤/١ — ١٤٣ ، ابن حجر : الاصـابة ١٨٨/٤ — ١٨٩ . وقد أرسل عنه ابن أعثم قولا واحدا فى الفتوح ٢٦٢/١ فقال : قـال سعيد ابن زيد بن عمرو : كان القتال فى الميمنة شديدا ... الخ الخبر ، وهو عن موقعة اليرموك .

(١١٧) سبقت ترجمته . وارسل عنه ابن أعثم خبرا واحدا ، هـو « قال مجاهد : لقـد دخلت مدينة رودس فى سـنة ثلاث وخمسين ، فبنينـا فيهـا مسجدا ، وأقمنا بهـا مؤذنا ... الخ الخبر المتعلق بجزيرة رودس ، وخرابهـا — الفتوح ١٢٧/٢ — ١٢٨ .

(١١٨) سعيد بن جبير بن هشام ، أبو عبد الله الأسدى ، الكوفى ، الامام ، الحافظ ، المقرىء ، المفسر — تلميذ ابن عباس ، وغيره من الصحابة ، وكبـار التابعين — ترجم له ابن سـعد فى الطبقات ٢٥٦/٦ ، يعقوب ابن سفيان : المعرفة والتاريخ ٧١٢/١ — ٧١٥ ، ومواضـع أخـرى ، =

« الحكم بن عتيبة — مولى كندة — (ت ١١٥ هـ) » [١١٩] .

« سليمان بن مهران الأعمش — مولى بنى أسد — (ت١٤٨هـ)[١٢٠]

=

ابن أبى حاتم : الجرح والتعديل ٩/١/٢ ، أبو نعيم : حلية الأولياء ٢٧٢/٤ وما يليهـا ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ٣٢١/٤ — ٣٤٦ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب ١١/٤ — ١٤ ، محمد بن على الداودى : طبقات المفسرين ١٨١/١ — ١٨٢ وقد أرسل عنه ابن أعثم خبرا واحدا عن عدد من كانوا مع على بن أبى طالب يوم صفين ، وهو قوله « قال سعيد بن جبير : كان مع على رضى الله عنه يومئذ ثمانمائة رجل من الأنصار ، وتسعمائة ممن بايـع تحت الشجرة ! الفتوح ٤٥٠/٢ .

(١١٩) عالم الكوفة الكبير ، روى عن كبار التابعين ، وأقوال العلماء شـاهدة بفضله وامامته . ترجم له : ابن سـعد فى الطبقات ٣٣١/٦ ، ابن أبى حاتم : الجرح والتعديل ١٢٣/٣ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب ٤٣٢/٢ — ٤٣٤ . أرسل عنه ابن أعثم قولا واحدا ، عن عدد من كان مع على يوم صفين ، فقال : « قال الحكم بن عتيبة : شهد مـع على يومئذ ثمانون بدريا ، وخمسون ومائتان ممن بايـع تحت الشجرة » . الفتوح ٤٥٠/٢ .

(١٢٠) أبو محمد الكوفى ، الحافظ ، شيخ المقرئين والمحدثين ، وعلامة الاسلام ، روى عن أنس بن مالك ، وجمع كبير من التابعين ، وكذلك روى عنه خلق كثير من العلماء — ترجم له ابن سعد فى الطبقات ٣٤٢/٦ ، وابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل ١٤٦/٤ ، وأبو نعيم الأصبهانى فى حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ٤٦/٥ — ٦٠ ، والخطيب البغدادى فى تاريخ ٣/٩—١٣، وابن خلكان فى الوفيات ٤٠٠/٢ — ٤٠٣ ، والذهبى فى سير أعلام النبلاء ٢٢٦/٦ — ٢٤٨ .

ذكره ابن أعثم فقال فى الفتوح ٤٥٠/٢ : « قال سليمان بن مهـران الأعمش : كان مع على يومئذ (يعنى يوم صفين) ثمانون بدريا ، وثمانمائة من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم » .

« عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق (ت ٥٣ هـ) »[١٢١] .

« هبيرة بن يريم الهمدانى ، أو العبـدى ، أو الشـيبانى (ت ٦٦ هـ) »[١٢٢] .

« الهيثم بن عدى الطائى (ت ٢٠٧ هـ) »[١٢٣] .

---

(١٢١) كان أكبر أولاد أبى بكر رضى الله عنهما ، وكان من الرماة المعدودين ومن الشجعان المذكورين ، وذكروا أنه قتل يوم اليمامة سبعة من كبار المرتدين أتباع مسيلمة الكذاب — اقرأ فى ترجمته : المعارف لابن قتيبة ص ١٧٣ ، ١٧٤ ، ٢٣٣ ، ٥٩٢ .والاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبد البر ٨٢٥/٢ ، وأسد الغابة لابن الأثير ٤٦٦/٣ ، وسير أعلام النبلاء للذهبى ٤٧١/٢ — ٤٧٣ ، والاصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى ٢٩٥/٦ — ٢٩٧ — وقد أرسل ابن أعثم عنه فى الفتوح ٤٥٠/٢ ما يلى : « قال عبد الرحمن بن أبى بكر : كان مع على ، سيد التابعين أويس القرنى ، وقتل بصفين بين يدى على رضى الله عنه .

(١٢٢) قال خليفة بن خياط فى الطبقات ص ١٤٩ : هبيرة بن يريم ، قتل يوم الخازر مع المختار ، سنة ست وستين . ويقال هو عبدى . وقال ابن حجر فى التهذيب ٢٣/١١ : هبيرة بن يريم الشيبانى ، ويقال الخارفى أبو الحارث الكوفى ، روى عن على وطلحة وابن مسعود والحسن بن على وابن عباس . وأرسل عنه ابن أعثم قولا واحدا فى الفتوح ٢٢٢/٤ — ٢٢٤ وهو : قال هبيرة بن يريم ، فحدثنى أبى يريم قال لقيت سلمان ... وهو عن مقتل الحسين ..

(١٢٣) ابن عبد الرحمن الطائى ، الكوفى ، الاخبارى ، المؤرخ . وهو من الضعفاء المتهمين عند أهل الحديث ، لذلك لا يعتدون بروايته . ترجم له : ابن قتيبة فى المعارف ص ٥٣٣ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ . والخطيب البغدادى ١٤ / ٥٠ — ٥٤ . ومحمد بن أسحاق النديم فى الفهرست ص ١٤٥ — ١٤٦ . وياقوت الرومى الحموى فى ارشاد الأريب الى معرفة الأديب (معجم الأدباء) ٣٠٤/١٩ — ٣١٠ . ابن خلكان : وفيات الأعيان ١٠٦/٦ — ١١٤ . الذهبى : سير الأعلام ١٠٣/١٠ — ١٠٤ . وقد أرسل عنه ابن أعثم أربعة أقوال فى الفتوح هى : ٥٢/٧ : قال الهيثم ابن عدى فى بعض أخباره ... وهو خبر الجارتيين ابنتى تبع الحميرى .

« عيسى بن يزيد بن دأب الليثى (ت ١٧١ هـ) » (١٢٤) .

« أبو الحسن على بن محمد المدائنى (ت ٢١٥ أو ٢٢٥هـ» (١٢٥) .

« الحسن بن الحباب المقرىء البغدادى (ت ٣٠١ هـ) » (١٢٦) .

=

ويرد فى الفصل الرابع ١٣١/٧ : قال الهيثم بن عدى : قال أنبانى عبد الله ابن عياش .. وهو خبر عن فتنة ابن الأشعث بالعراق .

١٣٨/٧ : قال الهيثم بن عدي : قال عوانة ... وهو خبر عن وقعة دير الجماجم بين ابن الأشعث والحجاج بن يوسف .

٢٢٦/٨ — ٢٦٨ : قال الهيثم بن عدى : أخبرنى خلف الأحمر النحوى ... وهو من أخبار هارون الرشيد .

(١٢٤) وهو المعروف بابن دأب ، وكان شاعرا ، راوية ، يجيد الخطب والرسائل جدا — كما يقول الجاحظ — وكان يضع الحديث والشعر وأحاديث السمر ، وله حظوة عند الهادى العباسى — ترجم له الجاحظ فى البيان والتبيين ٣٢٤/١ . ابن قتيبة : المعارف ص ٥٣٧ — ٥٣٨ . الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ١٤٨/١١ — ١٥٢ . ياقوت : معجم الأدباء ٦/ ١٠٤ : ديوان الضعفاء والمتروكين ص ٢٤٣ . وقد نقل عنه ابن أعثم قصة الفتية المدنيين التوابين ، بقوله : ذكر عيسى بن داب أن هؤلاء الفتية .... الخ . وسوف ترد هذه القصة فى الفصل الرابع .

(١٢٥) سبقت ترجمته . وقد أرسل عنه ابن أعثم مجموعة من الأخبار ، صدرها جميعا بلفظ «قال» فى المواضع الآتية من الفتوح ١٩٠/٨ خبران ١٩٢ — خبران أيضا — ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، وهذه الأخبار كلها عن بعض الخلفاء العباسيين — السفاح ، والمنصور — .

(١٢٦) ابن مخلد بن محبوب ، أبو على ، وكان يقرىء بقراءة أبى عمرو بن العلاء ، وكان ثقة — توفى وقد قارب التسعين — ترجم له الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد ٣٠١/٧ — ٣٠٢ — وقد أرسل ابن أعثم عنه خبرا واحدا حول رؤيا تتعلق بالمنصور العباسى — ٢١١/٨ — فقال : « الحسن بن الحباب المقرىء البغدادى ، قال ... الخ الخبر » .

« الرقاشى ، ولعله يكون الفضل بن عبد الصمد بن الفضل (ت نحو ٢٠٠ هـ) [١٢٧] .

« على بن يقطين (ت ١٦٩ هـ) » [١٢٨] .

« ثمامه بن أشرس النميرى (ت ٢١٣ هـ) » [١٢٩] .

« اسحاق بن ابراهيم بن ميمون الموصلى (ت ٢٣٥ هـ) » [١٣٠] .

---

(١٢٧) أبو العباس ، الرقاشى ، الشاعر ، البصرى ، قدم بغداد ، ومدح الرشيد وابنه الأمين ، والبرامكة ، ورثاهم حين نكبوا ، وكانت بينه وبين أبى نواس مهاجاة — ترجم له الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ٣٤٥/١٢ — ٣٤٦ ، ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ١٢٥/٢ ، وذكر بعض شعره ابن خلكان فى الوفيات ٣٤٠/١ . وقد أرسل عنه ابن أعثم خبرين فى مرض المنصور ووفاته . الفتوح ٢٣٨/٨ ، ٢٣٩ .

(١٢٨) كان — لا رحمه الله — زنديقا ، فقتله الهادى العباسى بذلك ، ومن قبل كان موظفا كبيرا فى خلافة المهدى ، حيث ولاه ديوان زمام الأزمة عام ١٦٨هـ ، والخاتم فى عهده وأول عهد الهادى ، ثم لم يلبث أن قتله بالزندقة — راجع الطبرى : تاريخ ١٦٧/٨ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٨٩ ، ٢٢١ — ابن الأثير : الكامل ٨٩/٦ . وقد أرسل عنه ابن أعثم خبرين عن خلافة المهدى العباسى بلفظ : قال ابن يقطين : كنا عند المهدى ... — و — قال على بن يقطين فكنا معه ... الفتوح ٢٣٩/٨ ، ٢٤٠ .

(١٢٩) أبو معن المعتزلى الشهير ، وهو أحد الفصحاء المقدمين ، وقد اتصل بالرشيد وابنه المأمون ، وقد عده المقريزى من رؤساء الفرق الهالكة، وأتباعه يسمون « الثمامية » . ترجم له : الجاحظ : البيان والتبيين ٦٦/١، والخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ١٤٨/٧ ، المقريزى : الخطط ٢٤٧/٢ ، ابن حجر : لسان الميزان ٨٣/٢ .. وقد أورد ابن أعثم قولا واحدا له فى الفتوح عن خلافة الرشيد ٣٤٤/٨ : « قال ثمامة بن أشرس : ولا اجتمع لأحد من بنى العباس ... الخ .

(١٣٠) أبو محمد ، يعد من أشهر ندماء الخلفاء ، وقد تفرد بصناعة الغناء ، غير أنه كان عالما باللغة ، والتاريخ ، وعلوم الدين ، وعلم الكلام راويا للشعر ، حافظا للاخبار ، وله تصانيف كثيرة جدا ، قال ثعلب : رأيت

=

« العباس بن الفضل بن الربيـع مولى المنصور (ت قبـل ٢٠٨ هـ) » (١٣١) .

« جبريل بن بختيشوع بن جرجس (ت ٢١٣ هـ) » (١٣٢) .

ويبقى أخيرا من استقصاء مصادر ابن أعثم في الفتوح ، أن

= لاسحاق الموصلي ألف جزء من لغات العرب ، كلها سماعه .. ترجم له : محمد بن اسحاق النديم : الفهرست ص ٢٠١ — ٢٠٤ . الخطيب البغدادي تاريخ بغداد ٣٣٨/٦ — ٣٤٥ . على بن يوسف القفطي : انباه الرواة على أنباه النحاة ٢١٥/١ . ابن خلكان : وفيات الأعيان ٢٠٢/١ — ٢٠٥ . الذهبي : سير أعلام النبلاء ١١٨/١١ — ١٢١ . الصفدي : الوافي بالوفيات ٣٣٨/٨ — ٣٩٣ .. وقد أرسل عنه ابن أعثم ثلاثة أخبار بلفظ قال ٢٤٣/٨ — عن خلافة الرشيد « قال ابراهيم بن اسحاق الموصلي » خطأ والصواب « قال اسحاق بن ابراهيم » ، ٢٧٧/٨ قال اسحاق بن ابراهيم الموصلي حدثني عمرو بن محمد ... وهو خبر عن قتل جعفر بن يحيى البرمكي — ٢٧٨/٨ : قال اسحاق بن ابراهيم الموصلي : كان على بن عيسى بن ماهان ...وهو خبر عن خروج رافع بن الليث على الرشيد ..

(١٣١) أبو الفضل ، الأديب الشاعر ، وقد كان حاجبا لأبيه الفضل ابن الربيع وزير الأمين بن الرشيد ، ثم مات في حياة أبيه ، فاشتد حزنه عليه ، ترجم له الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ١٣٣/١٢ — ١٣٤ ، وروى عنه الطبري عدة أخبار في تاريخه ٦٣/٨ ، ٨٤ ، ٢٠٦ ، ٢٩٤ — أما ابن أعثم ، فأرسل عنه خبرا واحدا ، فقال : قال العباس بن الفضل : سمعت الأصمعي يقول : بعث الى الرشيد ... الخ الخبر في الفتـوح ٢٧٤/٨ .

(١٣٢) هو طبيب الرشيد وجليسه وأنيسه ، وصاحب المنزلة عنده ، ومازال يحظى بتقدير الأمين والمأمون بعد الرشيد ، وقد صنف في الطب والمنطق — راجع ابن أبي أصيبعة : عيـون الأنبـاء في طبقـات الأطباء ١٢٧/١ — ١٣٨ ، والزركلي : الأعلام ١١١/٢ — وقد نقل ابن أعثم عنه خبرا واحدا ، فقال : « ذكر جبريل بن بختيشوع أنه كان مع الرشيد في الرقة ... الخ الخبر عن وفاة الرشيد — الفتوح ٢٨٣/٨ .

نذكر أسماء رجال القسم الثانى ، وهم الذين أرسل عنهم الأقوال ، ولم نجد لهم ذكرا أو ترجمة فى مصادر التاريخ التى نستعين بهـــا فى هـــذا البحث ، ونقدمهم فى هذا الثبت مرتبين حسب ورودهم فى الفتوح ، ونذكـــر قرين كل منهم المناسبة التى ورد فيهـــا قوله ، وها هى أسماؤهم :

سعيد بن رفاعة الحميرى — « قال سعيد بن رفاعـــة الحميرى : وكنت رجلا ... الخ الخبر » (١٣٤) . وهو خبر طويل عن معـــــركة اليرموك .

ورقا بن مهلهل — « قال ورقا بن مهلهل — وكان صاحب راية أبى عبيدة — أول من فتح باب الحرب ... الخ الخبر (١٣٥) » وهو عن معركة اليرموك أيضـــا .

سعداء بنت عاصم الخولانى — « قالت سعداء بنت عاصـــــم الخولانى : كنت مـــع النساء ... الخ الخبر » (١٣٦) حـــول موقعـــة اليرموك .

عامـــر بن مسلم — « قال عامر بن مسلم : فتأملنـــا فاذا بـــه أبو سفيان ... الخ الخبر » (١٣٧) عن يـــوم اليرموك أيضـــا .

---

(١٣٤) الفتوح ٢٥٢/١ .

(١٣٥) المصدر السابق ٢٥٧/١ ، ولهذا الخبر مغزى خاص يقول : « أول من فتح باب الحرب يوم جيش السلاسل — فى معركة اليرموك — غلام من الأزد حدث السن ! ... فقتل أربعة من الروم ، ثم قتله الرومى الخامس . فغضبت الأزد عند ذلك لأجل قتل صاحبهم ، ودنوا من صفوف الروم ، فعندها أقبلت الروم وزحفت كالجراد المنتشر ! وهكذا كان الأزد — وهم قوم ابن أعثم فيما أعتقد — هم الذين اقتحموا المعركة قبل غيرهم .

(١٣٦) الفتوح ٢٦٠/١ .

(١٣٧) المصدر السابق ٢٦٢/١ .

عبد الله بن قرط الأزدى — « قال عبد الله بن قــرط الأزدى : شهدت قتال الشـــام كله ••• الخ الخبر » (١٣٨) • وهو كذلك عن معركة اليرموك •

جعفر بن محمد — « قال جعفر بن محمد يحدث عن أبيه عن عبادة ابن الصامت ، أنه نظر الى معاوية وعمرو بن العاص مجتمعين ••• ••الخ الخبر » (١٣٩) • وهو خبر ذو دلالة خاصـــة ، يتعلق بانضمام عمرو بن العاص الى معاوية بن أبى سفيان ابان الخـــــلاف بين على ومعـــاوية •

زهير بن الأرقم — « قال زهير بن الأرقم : فلمـــا أصيب عـــلى رضى الله عنه بضربة ابن ملجم ••• الخ الخبر » (١٤٠) • والنص متعلق بما سيلقى الحسين من القتل عمـــا قليل على يد لعين هذه الأمة ! •

خزيمة الأسدى — « قال خزيمة الأسدى : ونظرت الى زينب بنت على رضى الله عنه يومئذ ••• الخ الخبر » (١٤١) • وهو من أخبـــار مقتل الحسين رضى الله عنه •

عبد الله بن زرارة — « قال عبد الله بن زرارة : سمعت أبى يقول: كنـــا عند أبى جعفر محمد بن على رضى الله عنهما ، اذا الكميت قـــد

---

(١٣٨) الفتوح ٢٦٦/١ .

(١٣٩) الفتوح ٣٩٠/٢ . ومما لاشك فيه أن هذا الخبر مكذوب لا أصل له ، لأن عبادة بن الصامت قد توفى سنة ٣٤ هـ ، يعنى قبل استخلاف على بأكثر من عام وانمـــا دس هذا الكلام للاســـاءة الى معاوية وعمـــرو ، يقول فى آخر الخبر : « فقال عبادة : ولكنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم — وقد نظر اليكما فأطال النظر ثم قال — : اذا رأيتم معاوية وعمرا مجتمعين ففرقوا بينهما ، فانهما لا يجتمعان على خير » !

(١٤٠) الفتوح ٤٦٦/٢ .

(١٤١) المصدر السابق ٢٢٢/٥ .

استأذن ... الخ الخبر » (١٤٢) . الذي يبين علاقة الكميت بن زيد بآل البيت .

أبو ثميلة — « قال أبو ثميلة : قال داود بن مصعب الأسدي : دخلت أنا والكميت بن زيد على فاطمة بنت الحسين ... الخ الخبر (١٤٣) . وهو من أخبار الكميت مع آل البيت .

يحيى بن يزيد — « وقال أبي يزيد بن على : أخبرني عمي عمر بن الحسن ، قال : قدم علينا الكميت بن زيد الى المدينة .... الى آخر الخبر » (١٤٤) . الذي يتعلق بحب الكميت لآل البيت ومدائحه فيهم .

موسى بن حبيب العجلى — « قال موسى بن حبيب العجلى : حدثتني نخلة بنت عبد الله — وهى أم ولد عمر ، وكانت من العابدات الصالحات — قالت : رأيت بعد أن قتل زيد بن على ... الى آخر الخبر » (١٤٥) . وهو خبر يدور حول مقتل زيد بن على بن الحسين سنة ١٢١ هـ .

أحمد بن يحيى — « قال أحمد بن يحيى : حدثني زيد مولى المنصور ، قال : لما أفضت الخلافة الى المنصور .. الى آخر الخبر »

---

(١٤٢) المصدر نفسه ٩٤/٨ . وهذا الخبر قد رواه عبد القادر بن عمر البغدادى فى خزانة الأدب ١٤٥/١ ، عن صاعد مولى الكميت ، وعلى صورة تختلف كثيرا عن تلك التى قدمها الينا ابن أعثم الكوفى فى فتوحه ، وكذلك الخبر الذى يليه مباشرة فى الفتوح ، يختلف عنه عند البغدادى — سندا ومتنا !

(١٤٣) الفتوح ٩٥/٨ — ٩٦ .

(١٤٤) المصدر السابق ٩٦/٨ — ٩٧ . وقد أورد البغدادى فى خزانة الأدب ١٤٥/١ — ١٤٦ : سندا ومتنا آخرين لهذا الخبر !

(١٤٥) الفتوح ١٢٥/٨ — ١٢٦ .

الذى يدور حول علاقة سديف بن ميمون الشاعر بالمنصور وآل البيت ، وقتل سديف [١٤٦] .

يحيى بن عبد الله الهاشمى — « وقال يحيى بن عبد الله الهاشمى : لما بايع الناس المنصور ، أقبل أبو مسلم الى عيسى بن موسى .... الى آخر الخبر » [١٤٧] . وهو يتعلق بموقف أبى مسلم من استخلاف أبى جعفر المنصور .

يزيد بن عبد الله الهلالى — « قال يزيد بن عبد الله الهلالى : حدثنى سراج خادم المنصور ، قال : خرج المنصور حاجا ... الى آخر الخبر » [١٤٨] . الذى يتعلق بالتنبؤ بقرب وفاة أبى جعفر المنصور .

أيوب بن عبد الله صاحب المنصور — « قال أيوب بن عبد الله صاحب المنصور : كانت خلافة المنصور اثنتين وعشرين سنة الا سبعة أيام ، وتوفى ببئر ميمون ، ودفن هناك » [١٤٩] .

أبو بشر المازنى — « قال أبو بشر المازنى : حدثنى صباح مولى المهدى قال : حدثنى مراقب مولى المهدى قال : كانت تحت الهادى امرأة يقال لها أم موسى ... الخ الخبر » [١٥٠] . وهو خبر يتعلق بحب الهادى بن المهدى لزوجه أم موسى هذه ! .

بكر بن اسماعيل — « قال بكر بن اسماعيل بن عروان : كان الرشيد

---

(١٤٦) المصدر السابق ٨/٢١٢ — ٢١٣ . وانظر فى أخبار سديف ابن اسماعيل بن ميمون مولى بنى هاشم المقتول سنة ١٤٦ هـ : عبد القادر بدران : تهذيب تاريخ ابن عساكر ٦/٦٦ ، وخير الدين الزركلى : الأعلام ٣/٨٠ .

(١٤٧) الفتوح ٨/٢١٣ — ٢١٤ .

(١٤٨) الفتوح ٨/٢٣٧ — ٢٣٨ .

(١٤٩) المصدر السابق ٨/٢٣٨ — ٢٣٩ .

(١٥٠) المصدر نفسه ٨/٢٤٢ — ٢٤٣ .

خليفة يحب أن يسمع الأخبار الحسنة ... الخ الخبر » [١٥١] . وهو خبر عن تذوق الرشيد للشعر .

وأبوه اسماعيل بن عروان — « فقال اسماعيل بن عروان : حدثني أبو عبد الله المروزى — وكان متولى أمر الأسواق — قال : لما قتل جعفر بن يحيى ... الى آخر الخبر » [١٥٢] . المتعلق بنكبة البرامكة .

أبو عبد الله الجبلى — « قال أبو عبد الله الجبلى : حدثنى يحيى ابن زكريا النحوى ، قال : حدثنى على بن حمزة الكسائى قال : دخلت على أمير المؤمنين الرشيد ، بعد ثلاث عشرة سنة من خلافته .... الخ الخبر » [١٥٣] . وهو خبر متعلق بنشأة محمد الأمين وعبد الله المأمون ابنى الرشيد .

عثمان بن سليم — « وقال عثمان بن سليم : حدثنى العباس بن الفضل ، قال : كان أمير المؤمنين الرشيد قد جعل ابنه محمدا فى حجر الفضل ابن يحيى ... الخ الخبر » [١٥٤] . وهو خبر يدور حول تربية الفضل ابن يحيى البرمكى للأمين بن الرشيد .

الحسن بن المنصور — « قال الحسن بن المنصور : أخبرنى الفضل ابن زرارة ، قال : لما أفضت الخلافة الى محمد الأمين ، أخرج كل من كان فى حبس الرشيد ببغداد ... الى آخر الخبر » [١٥٥] . وهو يتعلق بما أقدم عليه الأمين من اجراءات عقب استخلافه .

أهل العلم — « قال أهل العلم ، كما حدثنى به غير واحد ، من (ممن) جمع هذه العلوم ، أن عبيد الله بن الحر كان رجلا من سادات أهل الكوفة ... الى آخر الخبر » [١٥٦] . وهو خبر طويل عن عبيد الله ابن الحر الجعفى .

---

(١٥١) المصدر نفسه ٨/٢٦٠ — ٢٦١ .
(١٥٢) المصدر نفسه ٨/٢٧٥ — ٢٧٧ .
(١٥٣) المصدر نفسه ٨/٢٦٣ — ٢٦٦ .
(١٥٤) الفتوح ٨/٢٧٠ — ٢٧٢ .
(١٥٥) المصدر السابق ٨/٢٨٦ — ٢٨٨ .
(١٥٦) المصدر نفسه ٦/١٦١ .

أهل العلم — « قال أهل العلم : فكان مقتل عبد الله بن الزبير يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين ، وله نيف وسبعون سنة ، والله أعلم » (١٥٧) .

ملاحظات على مصادر الفتوح :

لعل أبرز الملاحظات وضوحا ، على هذا العرض « الدقيق » لما يعد مصادر لابن أعثم فى كتابه الفتوح ، أن الجزء الثامن والأخير من الكتاب ، قد استأثر وحده ، بأكثر من نصف تلك المناسبات التى صرح فيها مؤرخنا بأنه روى أو نقل عن هؤلاء المصادر المذكورين ، على حين يخلو الجزء الثالث تماما من اسناد أو نقل واحد عن أى من المصادر (١٥٨) ! وأما سائر الأجزاء ، فقد توزعت بينها الروايات أو النقول هكذا : فى الجزء الخامس رواية واحدة ، وفى الجزء السادس روايتان اثنتان ، وفى الجزء السابع أربع روايات ، واشتمل الجزء الرابع على خمس روايات ، ثم تضمن الجزء الأول ثمانى روايات ، على حين وردت بالجزء الثانى أربع عشرة رواية ، فيكون مجموع هذه الروايات أربعا وثلاثين ، أما مجموع روايات الجزء الثامن — منفردا — فهو ثمان وثلاثون رواية ! .

على أن ما تجدر الاشارة الصريحة اليه فى هذا الصدد ، هو أننا نسميها روايات تجوزا ، لأن معظمها أقوال مرسلة ، بغير اسناد ، وبدون بيان الطريق التى عرفها المؤلف بوساطتها ، فنحن لا نعلم من أين جاءت ! غير أننا قد نحسن الظن بصاحب الفتوح ، ونفترض أن رواياته ، وأقواله المرسلة عن أبى الحسن المدائنى ، والهيثم ابن عدى ، وعيسى بن دأب ، واسحاق بن ابراهيم الموصلى ، وأبى

---

(١٥٧) المصدر نفسه ٦/٢٧٩ .

(١٥٨) لقد خصص ابن أعثم هذا الجزء كاملا للحديث عن حرب صفين وحدها .

الحسن على بن محمد القرشى [١٥٩] ، قـد نقلهـا عن مصنفـات هؤلاء المؤرخين الذين سبقوا ابن أعثم الى التأليف ، وتحدث المؤرخون عن كتب لهم عالجت تلك الموضوعات التى تناولها ابن أعثم فى فتوحه . أما غير هؤلاء ممن وردت أسماؤهم فى قائمة مصادر الفتوح ، فلا نعـلم أن لهم مصنفات مشابهة ، بـل ان أكثرهم لا نعلم من أمرهم شـيئا ألبتة ! .

وبعد أن أتينا على جميـع ما وجدناه من مصادر ابن أعثم الكوفى فى مصنفه الكبير « الفتوح » ، وقـد مناهم على حسب أحوالهم من المعرفة بهم أو جهالة شأنهم كله ، ومن حيث توفـر الأدلة على امكـان لقائه ببعض هؤلاء المعروفين منهم ، أو افتقاد القرائن والشواهد التى تدل على تحقق هذه اللقيا ، انه بعد ذلك الاستقراء والبيان الشامل ، فان الانطباع الذى استقر — أو أراه كذلك — فى الأذهان : أن ابن أعثم ، قد تعمـد ألا يكون لكتابه هـذا مصادر واضحة محددة ، يستمد منها نصوصه ، ويؤسس عليهـا بناء فتوحه ، باعتباره كتابا ، عمـاده وأساسه وكيانه ، الرواية عن المؤرخين السابقين ، بطريق المشـافهة والتحمـل المباشر أو بطريق الاستمداد من المؤلفات السابقة .

وغنى عن البيان ، أن سلوك هذا السبيل فى التصنيف التاريخى ، يضفى على الكتاب الاحترام اللائق ، ويكسبه التقديـر لدى كل من يطلع عليه ، أو يسمع به ، اذ هو كتاب موثق ، قـد استقى مادته التاريخية من مصادر يعول عليهـا ، ويعتد بهـا ، ومن ثـم ، يصبح هو — فيما بعد — مصدرا يعتمد عليه ، ويرجـع اليه الباحثون فى الموضوعـات التى احتواهـا ، وعالجهـا على هـذا الاسـاس الواضح السليم .

أما وابن أعثم ، قـد تنكب هذه الطريق ، وانحرف عن هـذا

---

(١٥٩) يعد المدائنى صاحب أكبر نصيب من الأقوال فى الفتـوح ، حيث بلغ مجموعهـا أحد عشر ، وكلهـا مجتمعـة فى الجزء الثامن .

السبيل ، وسلك — فى صنعة كتابه الفتوح طريقا أخرى ، لا يرضاها القوم ، فان جميع المؤرخين الذين اشتهروا فى هذا الميدان ، وانتشرت مؤلفاتهم بين جمهور العلماء فى الأمة ، من لدن وفاة ابن أعثم الكوفى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى الى نهاية القرن الرابع عشر الهجرى ، قد تجاهلوا هذا الكتاب الكبير ، وأضربوا عن الاعتماد عليه ، أو الاستمداد منه ، وصرفوا أنظارهم عن الاستناد اليه ، أو الاحتجاج به ، فيما صنفوه من تواريخ تتناول الحقبة التى عالجها ابن أعثم فى فتوحه ، وآية ذلك ، أننا لا نكاد نجد كتابا فى تاريخ القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، يشير الى فتوح ابن أعثم ، أو يذكره ، فضلا عن أن يعول عليه ، أو ينقل عنه ، أو يحتج به (١٦٠) ، مع أنه كتاب قديم ، قدم تاريخ الطبرى ، وغيره من المصنفات التاريخية القريبة منه عهدا ، كالفتوح للبلاذرى ، والتاريخ لليعقوبى ، ومروج الذهب للمسعودى ، وكل أولئك من مصادر التاريخ الاسلامى ، التى اشتهر أمرها فى الآفاق ، وذاع صيتها بين الناس ، وأصبحت عمدة المؤرخين والباحثين على مر العصور .

---

(١٦٠) يرى الدكتور فاروق عمر فى كتابه « بحوث فى التاريخ العباسى ص ١٨ « أن المقارنة الدقيقة قد تثبت أن ابن الأثير اعتمد على ابن أعثم فى بعض اضافاته ونقوله غير الموجودة فى تاريخ الطبرى » . وهذا تعبير مرن كما ترى ، لا يلزم صاحبه بموقف محدد ، ولكنى أعتقد بعد المقارنة « الدقيقة فيما أتصور » أن ابن الأثير ربما لم يطلع على هذا الكتاب ، وان كان ذلك قد حدث ، فانه لم يجعله ضمن مصادره ، ولم ينقل عنه ، لأن رأيه ورأى ابن أعثم مختلفان ولأن الغاية من تصنيف كتاب كل منهما غير واحدة ، فأين اذا دواعى الاتفاق التى تجعل ابن الأثير ينقل عن ابن أعثم الكوفى ؟ ؟ .

الفصل الثانى

خصائص الكتابة التاريخية
فى فتوح ابن أعثم الكوفى

تمهيد :

١ ــ الغاية من تأليف فتوح ابن أعثم :

خبر هشام بن عبد الملك مع الشيخ وقوله فى بنى أمية ٠

٢ ــ نظرة فى محتوى الفتوح :

٣ ــ توسع ابن أعثم فى مدلول كلمة الفتوح :

٤ ــ منهج ابن أعثم فى العرض التاريخى :

٥ ــ أسلوب ابن أعثم :

٦ ــ كلمة أخيرة :

تمهيـــد :

مما لا ريب فيه أن الكتابة التاريخية عند المسلمين ، قد مـرت منذ ظهور الاسلام ، الى طوالع القرن الرابع الهجرى بأطوار ومراحـــل متعاقبة ، يمكن للباحثين أن يميزوا بينهـا تمييزا يوضح خصائص كـل منهـا ويحدد الملامح التى تفصل كل مرحلة منهـا عن المرحلـة التى سبقتهـا أو التى جاءت بعدهـا ، ويتفق هؤلاء الباحثون على أن ظهور تاريخ الطبرى ، الذى انتهى من املائه على تلامذته فى سـنة ثلاث وثلاثمائة ، وقطعه على آخـر سنة اثنتين وثلاثمائة [1] ، يمثـل قمة ما وصلت اليه الكتابة التاريخيـة عند المسلمين فى مرحلة التكوين ، وآية ذلك أن أخبار القرون الثلاثة الأولى للهجرة فى هذا الكتاب ، ظلت هى المنبع الرئيسى الذى يستقى منه المؤرخون اللاحقون مادتهم الخبريـة لمصنفاتهم جيلا بعد جيل [2] .

ومع أن ابن أعثم الكوفى هو نتاج تلك البيئة التى عاش فيهـا ابن جرير الطبرى — بيئة العراق — ، وفى الفترة الزمنيـة ذاتهـا ، حيث تقاربت وفاة كل منهمـا ، فتوفى الطبرى عـام ٣١٠ هـ ، ثـم توفى ابن أعثم فى أواخر سنة ٣٢٠ هـ أو عقبهـا ، مـع ذلك ، فان فتوح ابن أعثم « تاريخ » لا يمكن مقارنته بتاريخ الطبرى ، لما يفصـل بينهمـا من فروق متعددة وبارزة فى المنهج ، والأسلوب ، والمحتوى ، والغايـة التى دفعت كليهمـا الى تصنيف كتابه ! .

وكما أدركنا هذه الحقيقة عن بصيرة ووعى ، فقـد أدركهـا ووعاهـا ، والتزم بمقتضاهـا السلف الصـالح من المؤرخين الذين

---

(١) ياقوت الرومى : معجم الأدباء ١٨/٤٤ .

(٢) د/ عبد العزيز الدورى : بحث فى نشأة علم التاريخ عند العرب ص ٥٥ . أحمد أمين : ظهر الاسلام ٢/٢٠٢ .

جاءوا بعــد الطبرى وابن أعثم ، واطلعوا على الكتابين ، ونظروا فيهما بعيون فاحصة مدققة ، وعقول واعية ، وبصــائر نافذة ناقــدة ، فأخذوا من — واعتمدوا على — الأول ، وانصرفوا عن ابن أعثم وتاريخه انصرافا ، فلم يذكروا الرجل على أى وجه من الوجوه [٣] ، واطرحوا « فتوحه » اطراحا مطلقــا ، فلم يأخذوا منه خبرا واحدا ، ولم يجعلوه مصدرا لهم فى مناسبة واحدة من المناسبات التى أرخوها عن القرون الثلاثــة الاولى للهجرة تلك التى يدور حديث الفتوح كله فى اطارها ! .

ولقــد اهتم المؤرخون والباحثون منذ أمــد بعيد ، بتاريخ الطبرى ، فتحدثوا عنه ، ونوهوا به ، وبينوا خصائصه ، وفصلوا القول فى مميزاته كمــا أبرزوا المآخذ التى لاحظوها عليه [٤] ، فلا مجــال اذا لاعادة القول فى هذا التاريخ الكبير ، لأنه ليس من خطتنا أن نعقــد مقارنــة بينه وبين فتوح ابن أعثم ، وانمــا قصدنــا الآن أن نبين خصــائص الكتابة التاريخيــة فى الفتوح لابن أعثم الكوفى ، ولقــد رأيت أن أبدأ فى ذلك بالحديث عن الغاية التى توخاها صاحب الفتوح من تصنيفه هــذا الكتاب ، ثــم يرتبط بذلك ويكمله ايجاز القول فى محتوى الفتوح ، ثم نعالج بعد هذا مسألة المنهج الذى سلكه ابن أعثم فى عرضــه التاريخى ، وأخيرا نعرض لأسلوبه فى تأليف هذا الكتاب .

الغاية من تأليف فتوح ابن أعثم :

لقد مضت سنة العلماء فى كل فن ، على أن يقدموا لمصنفاتهم ،

---

(٣) نستثنى من ذلك : ما ذكره ياقوت فى معجم الأدباء ٢/ ٢٣٠ — ٢٣١ ، وابن حجر فى لسان الميزان ١/١٣٨ .

(٤) راجع فى ذلك ابن الأثير : الكامل ١/٦ ، النويرى : نهاية الأرب ٢/١٣ — ٣ ، أحمد أمين : ظهر الاسلام ٢/٢٠٢ — ٢٠٦ ، عبد العزيــز الدورى : بحث فى نشــأة علم التاريخ ص ٥٦ ، محمد عبد الغنى حسن : علم التاريخ عند العرب ص ١٧١ — ١٧٢ ، محمد أبو الفضــل ابراهيم مقدمة تحقيق تاريخ الطبرى .

بمقدمات يشرحون فيهـا أمورا تتعلق بهذه المصنفات ، وترتبط بهـا ارتباطا وثيقا ، وأول هذه الأمور ذكرا — فى أغلب الأحوال — هـو دواعى تأليف الكتاب الذى يقدم له ، وهـذا تقليد جميـل ، وذو أهمية كبيرة فى صنعة التأليف ، يدرك ذلك صـاحب الكتاب ، وقارئه معـا ، ومن هنا تصبح المقدمة جزءا مكمـلا لكل الكتاب ، ولاخلاف على هـذا القول بيننا فيمـا أعتقـد ان شاء الله •

ولو أن هذا الكتاب الذى نتهيأ لبيان خصائصه ودراسته الآن ، قد اشتمل على مقدمة لابن أعثم ، اذن لكان قـد أغنانا عن هـذا المبحث الذى نحاول فيه التعرف على دواعى ومقاصـد تأليف كتابه هـذا • غير أن فتوح ابن أعثم — المطبوع الذى بين أيدينـا — جاء خاليـا من أى تقديم له [٥] ، فأصبح لزاما علينـا أن نبحث فى ثنايا الكتاب ، ومن خلال موضوعاته وقضاياه التى عالجهـا ، عن غاية ابن أعثم الكوفى من تصنيف هـذا التاريخ الكبير ، ولا شـك فى أن تحديد أمـر كهذا ، ينبغى أن يكون بعد استيعاب كامل ودقيق لكل محتوى الكتاب ، والنظر والتفتيش والتدقيق فى مضمون هـذا المحتوى ، حتى تكون النتيجة التى نتوصـل اليهـا مطابقة — تمام المطابقة وأقواهـا — للحقيقـة التى نسعى اليهـا جهدنـا وطاقتنا •

والحقيقة السـافرة التى اهتدينا اليهـا — باذن الله — بعـد الاستيعاب ، والنظـر ، والتفتيش ، والتدقيق فى مضمون فتـوح ابن أعثم كله ، هى أن هـذا الكتاب المطول انما صنفه ابن أعثم من أجـل غاية محددة ، ووصولا الى هدف مقصود لديه قصدا لا شك فيه ، وهو : تمجيد أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه والارتفـاع بمنزلته الى الذروة العليـا ، التى لا يمكن لاحد من الصحابة — رضى الله عنهم

---

(٥) كذلك لم يقدم له الناشر بكلمة ، ومعلوم أن الناشر هو : دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن بالهند .

ـ الارتقاء اليهـا ، والطعن على جميـع من خالفه الرأى ، وتسفيهه والحط من قدره ، مهمـا يكن أمره ، من الصحابة ، أو من التابعين ، أو الطبقات التاليـة لهم ! أو فى عبارة مساوية أخرى : الانتصـار لعلى وسائر الأئمة من بعده ، وللمذهب الشيعى ، والتشنيع عـلى جميـع المعارضين له ولهم ، وبصفة خاصـة ، وعلى نحو سـافر ، التشنيع على معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه ، وسائر بنى أميـة ثم التشنيع من بعد ذلك على بنى العباس رضى الله عنه ـ الذين اغتصبوا الخلافة من أحفاد على فى عـام ١٣٢ هـ .

ولما كان ابن أعثم الكوفى مؤرخـا شيعيا ، واضح المذهب ، يكشف عن رأيه بقوة ، ويعلن عنه فى كتابه اعلانا لاخفاء بعده ، فلا عجب اذن جاء كتابه « الفتوح » تعبيرا حقيقيـا وصريحـا عن وجهة النظـر الشيعية فى حوادث تلك المرحلة المديدة من تاريخ الأمة والدولة الاسلامية ولقد كان ابن أعثم صادقـا تماما مـع نفسـه ، ورأيه الذى يدين به ، خلال عرضه لهـذا التاريخ على ذلك النحو الخاص ، حتى انه لـم يحاول ستر وجهته المذهبية هذه فى المناسبات التى ورد ذكرها فى الكتاب ويسمح المقـام فيهـا بالتعبير عن ذاك الرأى الا فى بعض المواقف التى ـ من ندرتهـا ـ لا يكاد قارىء الفتوح يحس بها ! .

واضـافة الى تلك الغاية الأساسية من تأليف هـذا الكتاب ، فـان ابن أعثم قد انتهز تصنيفه للفتوح فرصـة مهيأة ـ أو هو قـد هيأها لنفسـه ـ للاشـادة بعرب اليمن ، والتغنى بأمجادهم على وجـه العموم ، وبقومه وعشيرته من الأزد على وجه الخصوص ! .

ان الشواهد ـ التى لا سبيل الى الطعن فى مدلولهـا ، أو تجاهله، أو الغفلة عنه ـ على ماذهبنـا اليه فى هذا الصدد ، تطالعك فى ثنايا هـذا الكتاب ، واحدا تلو الآخر ، لتؤكد لك هـذا المعنى الواضح فى أبلغ صورة ، وأصرح عبارة ، ولسوف تجد مصداق ذلك وأنت تتـابع

قراءة الفصول الثلاثة التالية من هذا البحث • غير أننا نقدم هنا بعض الشواهد الأخرى التى تنهض — منفردة — دليلا مؤيدا وشاهدا قويا ، على صحة هذا الرأى الذى ارتضيناه وأعلناه « غاية وسببا لتأليف كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفى » •

ففى اطار غايته الأساسية من تأليف كتابه ، يتدفق حماس ابن أعثم لعلى وأولاده ، ولسائر أهل البيت رضى الله عنهم ، ولشيعتهم ، وأنهم أفضل أهل الاسلام جميعا ، بينما أسوأ الناس ، وأبعدهم من الاسلام ، ومن رحمة الله ، انما هو معاوية بن أبى سفيان وسائر بنى أمية ، وعمرو بن العاص ومن أخذ جانب معاوية فى خلافه مع على ابن أبى طالب •

وفى حديثه عن على رضى الله عنه فى خلافة عمر بن الخطاب ، ندرك قوة الاعجاب به ، وبآرائه السديدة وبمشورته الحكيمة التى لا يكاد يصل اليها غيره من كبار الصحابة رضى الله عنهم أجمعين حتى يقول أمير المؤمنين — موجها كلمته اليهم فى احدى المناسبات — : « ويحكم ! أعجزتم كلكم عن آخركم أن تقولوا كما قال أبو الحسن »• وهى قصة طويلة لا يسوغ قطع الحديث بذكرها (٦) •

---

(٦) الفتوح ٢/٣٤ — ٤٠ : ومضمون القصة بايجاز : أن الفرس فى سنة ٢١ هـ جمعوا جموعا هائلة فى نهاوند ، وأرسل والى الكوفة عمار بن ياسر بذلك الى أمير المؤمنين ، فجمع الناس فى المسجد ، وخطبهم مبينا الموقف الطارىء الذى يواجهه المسلمون فى العراق وقال لهم « أشيروا على رحمكم الله ، فانى قد رأيت رأيا غير أنى أحب أن لا أقدم عليه الا بمشورة منكم ، لأنكم شركائى فى المحبوب والمكروه » . فتكلم طلحة ، ثم تكلم الزبير ، ثم تكلم عبد الرحمن بن عوف ، ثم تكلم عثمان بن عفان ! فكل كلام هؤلاء لم يعجب عمر ! الذى قال لعلى : « يا أبا الحسن ، لم لا تشير بشىء كما أشار غيرك ؟ » فتكلم على طويلا ، وأشار بالرأى الذى كان أمير المؤمنين قد ارتآه فى نفسه ولم يعلن عنه ، فلما أعجبه رأى على قال : لهؤلاء =

وفى مناسبة أخرى ، جعل ابن أعثم الكوفى عمر بن الخطاب ، يجلس الى على جلوس المتعلم منه المتلقى عنه ، وهو يحدثه عن خراسان ومدنها ، ليغير من رأيه بشأن التقدم لفتحها ، بعد أن رأى على أن أمير المؤمنين راغب عن ذلك لبعدها الشديد عن بلاد المسلمين الذين لا حاجة لهم بها ! فأخذ على فى ذلك المجلس يحدث عمر عن مدن خراسان ، واحدة بعد الأخرى ، ما كان من أمر كل بلد ، وما يكون صفات أهلها ، وأخلاقهم ، ودرجة اسلامهم ، واستمساكهم بالدين ، أو تفريطهم فيه ، كأن هذه البلاد قد فتحت ، ودخل أهلها فى الاسلام ، فهو قول يدخل فى باب : الاخبار بالغيب ! ثم يختتم حديثه العجيب هذا بقوله لعمر : قد ذكرت لك ما علمت منها مما لا شك فيه ، فاله عنها ، وعليك بغيرها ، فان أول فتحها لبنى أمية ، وآخر أمرها لبنى هاشم ! ، وما لم أذكر منها لك هو أكثر مما ذكرته ! ؟ (٧) .

وتأييدا لعلى رضى الله عنه ، فان أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها قد خاضت — كما زعم ابن أعثم — فى بعض كبار الصحابة ، وسائر من انضم اليهم يوم الجمل ، وأرسلت اليه كتاب التأييد

=
السادة من الصحابة : « ويحكم ! أعجزتم كلكم ... الخ » . والخبر فى المصادر الأخرى على غير ماذكره ابن أعثم ، انظر مثلا : الطبرى : تاريخ ١١٤/٣ — ١٢٦ ، ابن الأثير : الكامل ٥/٣ — ٩ . وانظر شبيها بمضمون ذلك من انفراد على بالرأى السديد بين الصحابة ، واتباع عمر لرأيه فى الفتوح ٢٩١/١ — ٢٩٢ .

(٧) الفتوح ٧٧/٢ — ٨١ ، وفى هذا الحديث الغريب نكلم على عن عشرين بلدا هى : مرو ، خوارزم ، بخارى ، سمرقند ، الشاش ، فرغانة ، أبيجاب (خطأ والصواب : أسفيجاب) ، بلخ ، الطالقان ، الترمذ ، واشجرد ، سرخس ، سجستان ، سوج أو بوشنج ، نيسابور ، جرجان ، قومس ، الدامغان ، سمنان ، الرى ، طبرستان . وجميع ما ذكره ابن أعثم فى هذه القصة يكذبه الواقع التاريخى والجغرافى لهذه البلاد جميعا .

مع ابنهـــا عمر بن أبى سلمة [٨] ، الذى جعله ابن أعثم أحب النـــاس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والى على نفسه ، وقـــالت ، لـــه فى الكتاب : « ••• أما بعد ، فان طلحة ، والزبير ، وعائشة ، وبنيهـــا بنى السوء ، وشيعة الضلال ، خرجوا مع ابن الجزار عبد الله بن عامـــر الى البصرة ، يـــزعمون أن عثمـــان بن عفـــان قتل مظلوما ، وأنهـــم يطلبون بدمه ، والله كافيكم ، وجعل دائرة السوء عليهم ان شـــاء الله تعالى (ثم تعرض بأم المؤمنين عائشة فتقول) : وتا الله لولا ما نهى الله عز وجل عنه من خروج النســـاء من بيوتهن ، وما أوصى به رســـول الله صلى الله عليه وسلم عند وفاته لشخصت معك ! » [٩] • وكذلك كتبت الى على بمثل ذلك أم الفضل بنت الحارث الهلالية ، وهى زوج العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه [١٠] •

---

(٨) عمر بن أبى سلمة بن عبد الأســـد المخزومى القرشى وهو ربيب النبى صلى الله عليه وسلم منذ سنة أربع للهجرة حيث تزوج رســـول الله بأمه أم سلمة بعد وفاة أبى سلمة رضى الله عنهمـــا • توفى فى سنة ٨٣ هـ. ترجمه : ابن عبد البر : الاستيعاب ١١٥٩/٣ ـــ ١١٦٠ ، ابن الأثير : أسد الغابة ١٨٣/٤ ، ابن قيم الجوزية : زاد المعاد فى هدى خير العباد ١٠٧/١ ـــ ١٠٨ ، ابن حجر : الاصابة ٧٧/٧ .

(٩) الفتوح ٢٨٤/٢ ـــ ٢٨٥ . وعبد الله بن عامر بن كريز ، هـــو الأمير القرشى العبشمى ، وأبوه هو ابن عمة رسول الله البيضـــاء بنـــت عبد المطلب ، قال فيه أبو موسى الأشعرى ـــ حين ولاه عثمان البصرة ـــ : قد أتاكم فتى من قريش ، كريم الأمهات والعمات والخالات ـــ ترجم له : ابن ســـعد فى الطبقات ٤٤/٥ ، ابن عبد البر : الاستيعاب ٩٣١/٣ ـــ ٩٣٣ ، ابن الأثير : أســـد الغابة ٢٨٨/٣ ـــ ٢٨٩ ، أبو بكـــر بن العربى : العواصم من القواصم ص ٨٣ ـــ ٨٤ ، أبو العباس أحمد بن تيمية : منهـــاج الســـنة النبوية ١٨٩/٣ ـــ ١٩٠ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ١٨/٣ ـــ ٢١ . وقـــد كانت وفاته فى عام ٥٩ هـ .

(١٠) الفتوح ٢٨٥/٢ ـــ ٢٨٧ ، وسوف يرد ذكر أم الفضل رضى اللـــه عنهـــا فى مناسبة تالية ان شاء الله .

ومن جانب آخــر ، فهذا رأى وموقف أهل المدينــة ، وثلاثة من كبار الصحابة فى معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه ، وهو يعبر — فى الحقيقــة عن وجهة النظــر الشيعية ، لا عن رأى هؤلاء السادة من المسلمين ! فهو يقول على لسان أهل المدينة جوابا على رسالة معاوية اليهم يطلب نصرتهم وتأييدهم لــه فى الطلب بدم عثمان رضى اللــه عنه ، وقتال على بن أبى طالب الذى يؤوى قتلة عثمان ، قــال : « فلما قرىء كتاب معاوية على أهل المدينة اجتمعوا ، فكتبوا الى معاوية وعمرو ابن العاص جميعا : أما بعد ، فانكمــا أخطأتما موضــع النصرة ، وتناولتماها من مكــان بعيد ، يا ابن هند ، وياابن العــاص ، ما أنتما والمكاتبة ، والمشورة ؟ وما أنتما والخلافة والشورى ؟ أما أنت يامعاوية فطليق ، لعين ، وأمــا أنت يا عمــرو ، فخائن فى الدين ، فكفــا عن المكاتبة ، فليس لكمــا المكاتبة لأهل المدينة ولى ، ولا نصير ، ولا معين ، ولا ظهير (١١) .

وكتب معاوية الى عبد الله بن عمــر بن الخطاب يستنصره ، فكــان رد ابن عمــر عليه : أما بعــد ، فان الرأى الذى أطمعك فى ، هــو الذى صيرك الى ما صرت اليه يا معاوية ، اذ حدثتك نفسك أنى أترك عليــا والمهاجرين والأنصــار وأتبعك ، فأما زعمك أنى طعنت على على وخالفته ، فلعلى ما أنا كعلى فى الايمان ، والهجرة ، ونكايته فى المشركين ، ومكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الخ (١٢) .

---

(١١) الفتوح ٢/٤١٥ — ٤١٧ .

(١٢) الفتوح ٢/٤١٨ — ٤٢٠ ، وعبد الله بن عمر بن الخطــاب ، أبو عبد الرحمن القرشى العدوى ، المكى ، المدنى ، من مشاهير علمــاء الصحابة ، توفى سنة ٧٣ هـ ، ترجم له : ابن سعد : الطبقات ٤/١٤٢ — ١٨٨ ، البخارى : التاريخ الصغير ١/١٥٤ — ١٥٥ ، يعقوب بن سفيان : المعرفة والتاريخ ١/٢٤٩ ، ٤٩٠ ، ابن عبد البر : الاستيعاب ٣/٩٥٠ — ٩٥٣ ، ابن الأثــير : أســد الغابة ٣/٣٤٠ — ٣٤٥ ، الذهبى : سير أعــلام النبلاء ٣/٢٠٣ — ٢٣٩ ، ابن حجر : الاصابة ٦/١٦٧ — ١٧٣ .

وكان من بين ما أجاب به محمد بن مسلمة الأنصارى معاوية حين كتب اليه يستنصره ضـد على : ••• ، ولعمرى يا معاوية ما طلبت الا الدنيا ، ولا اتبعت الا الهوى ، فان تنصر عثمان ميتا ، فقد خذلته حيا ، وما أخرجنى الله من نعمة ولا صرت الى شك ••• الى آخر الجواب [١٣] .

ومن صريح قول ابن أعثم فى تمجيد على وأنصاره ، وتحقير معاوية وأتباعه ، ما زعم صاحب الفتوح أن عبد الرحمن بن غنم الأشعرى قد واجه به الصحابيين الجليلين : أبا الدرداء وأبا هريرة فى حمص ، اذ قال لهما : « وأنتما تعلمان أن من رضى بعلى خير ممن كرهه ، وأن من بايعه خير ممن لم يبايعه ، ثم انكما صرتما رسولين لرجل من الطلقاء الذين لا يحل لهم الخلافة ، ولا الشورى ••• ! [١٤] .

ان قريبا من ثلثى الجزء الخامس من الفتوح ، قد خصصه ابن أعثم لتأكيد هدفه واعلان غايته من تأليف كتابه هذا ، حيث يستطيع القارىء — بغير عناء — ادراك ما يريده مباشرة من الموازنة بين آل البيت وشيعتهم ، وبين الأمويين وأتباعهم ، وشتان ما بين الفريقين ! فان بطولة مسلم بن عقيل بن أبى طالب — مبعوث الحسين الى أهل الكوفة — وهو يواجه الموت وحده ، من قبل عبيد الله بن زياد ، بعد أن اصطلى

---

(١٣) الفتوح ٤٢٢/٢ — ٤٢٤ . ومحمد بن مسلمة بن سلمة ، أبو عبد الله الأنصارى ، الأوسى ، أحد نجباء الصحابة ، وقد شهد بدرا والمشاهد ، توفى عام ٤٣ هـ ، وقد ترجم له : ابن سعد فى الطبقات ١٨/٢/٣ — ٢٠ ، يعقوب بن سفيان : المعرفة والتاريخ ٢٨٢/١ ، ٣٠٧ ، ٣٢٩/٣ . ابن عبد البر : الاستيعاب ١٣٧٧/٣ ، ابن الأثير : أسد الغابة ١١٢/٥ — ١١٣ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ٣٦٩/٢ — ٣٧٣ ، ابن حجر : الاصابة ١٣١/٩ — ١٣٣ .

(١٤) الفتوح ٩٣/٣ — ٩٨ . وأقرأ قصة هذا الموقف كاملة فى الفصل الثالث من هذا البحث .

بغدر أهل الكوفة ! يقابلها فى الجانب الآخر ، نقيضها من الجبن والخور والخسة فى معاملة بطل عظيم أسلمه الغدر الى نهاية رهيبة! فهذا تصوير ابن أعثم لأحد المشاهد التى وقف مسلم فيها بمفرده يواجه قوة ابن زياد ، والمئات من الكوفيين ، فيقول : ثم أمر عبيد الله بن زياد عمرو بن حريث أن يبعث مع محمد بن الأشعث ثلاثمائة راجل من صناديد أصحابه ، فركب محمد بن الأشعث ، حتى وافى الدار التى فيها مسلم بن عقيل ، وسمع مسلم بن عقيل وقع حوافر الخيل (مع أنهم راجلون !) وزعقات الرجال ، فعلم أنه قد أتى فى طلبه ، فبادر رحمه الله الى فرسه ، فأسرجه ، وألجمه ، وصب عليه درعه ، واعتجر بعمامة ، وتقلد بسيفه ، والقوم يرمون الدار بالحجارة ، ويلهبون النار فى نواحى القصب ! فتبسم مسلم رحمه الله ، ثم قال : يانفس اخرجى الى الموت الذى ليس منه محيص ، ولا عنه محيد ... وخرج مسلم فى وجوه القوم كأنه أسد مغضب فجعل يضاربهم بسيفه حتى قتل منهم جماعة ! ؟ .

وبلغ ذلك عبيد الله بن زياد ، فأرسل الى محمد بن الأشعث ، وقال: سبحان الله ! بعثناك الى رجل واحد تأتينا به ، فأثلم (فثلم) فى أصحابى ثلمة عظيمة ! فأرسل اليه محمد بن الأشعث : أيها الأمير ، أما تعلم أنك بعثتنى الى أسد ضرغام ، وسيف حسام ، فى كف بطل همام من آل خير الأنام ! ؟ [١٥] .

وبعد أن أخذ ابن أعثم فى عرض أخبار الأزارقة ، اذا به يتذكر غايته من تأليف كتابه ، فيقطع حديث الأزارقة ، ليتحدث عن محمد بن

---

(١٥) الفتوح ٩٢/٥ — ٩٤ . ومازال مسلم بن عقيل يقاتل حتى أعياه صراع الكثرة من جند ابن زياد ، فقبضوا عليه ، فقتله ابن زياد ، وذلك فى سنة ٦٠ هـ ، بعد كلام طويل بينهما . انظر : خليفة بن خياط : تاريخ ص ٢٣١ ، الطبرى : تاريخ ٣٥٨/٥ وما يليها ، ابن الأثير : الكامل ٢٢/٤ — ٣٦ .

الحنفية (بن على بن أبى طالب) وهو يومئذ — ٦٥ هـ — كبير آل البيت ، وقصة ذهابه الى الطائف ، للاقامة فيها ، بعيدا عن عبد الله بن الزبير ، الذى ضيق عليه فى مكة ، فتركها له ، ثم يشير فى عبارة غامضة الى اختفائه مع نفر من أصحابه فى جبل رضوى (١٦) ، ويورد فى ذلك شعرا للسيد الحميرى (١٧) ! فاذا ما انتهى من ذلك الشعر — وهو قصيدة طويلة ، وأبيات من قصيدتين أخريين ، عاد مرة أخرى الى ذكر أخبار الأزارقة (١٨) .

خبر هشام بن عبد الملك مع الشيخ وقوله فى بنى أمية :

على أن فى القصة التالية — التى حشرها ابن أعثم حشرا فى سياق حديثه عن استعداد الفريقين لخوض معركة صفين — جماع القول فيما أراده صاحب الفتوح ، من تسفيه بنى أمية ، وسبهم والقاء

---

(١٦) ومحمد بن الحنفية هو أبو القاسم بن على أبى طالب ، وأمه التى لقب بها هى خولة بنت جعفر . كانت من سبى اليمامة فى خلافة أبى بكر . وقد ولد محمد فى سنة ١٣ هـ أو ١٦ أو ٢٠ هـ وتوفى عام ٨١ هـ ، وكان أحد الابطال الشجعان ، وأخبار قوته وشجاعته كثيرة . وتزعم الكيسانية (احدى فرق الشيعة) أنه لم يمت ، بل انه مقيم بجبل رضوى — وهو أحد جبال السراة يقع بين المدينة وينبع — انظر فى ترجمته : ابن سعد : الطبقات ٩١/٥ ، ابن قتيبة : المعارف ص ٢١٠ ، ٢١٦ ، أبو نعيم الاصبهانى : حلية الاولياء ١٧٤/٣ وما يليها ، النووى: تهذيب الأسماء واللغات ٨٨/١/١ ، ياقوت : معجم البلدان ٥١/٣ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ١١٠/٤ — ١٢٩ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب ٣٥٤/٩ .

(١٧) هو : اسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة بن مفرغ — الملقب بالسيد الحميرى — الشاعر الشيعى الامامى الكبير ، ويذكر صاحب الأغانى : أنه كان من أكثر الناس شعرا فى الجاهلية والاسلام — كان شديد التعصب لبنى هاشم ، وعلى غيرهم ممن ليس معهم من الصحابة وأزواج النبى صلى الله عليه وسلم — انظر ابن كثير : البداية والنهاية ١٧٩/١٠ — ١٨٠ وابن حجر : لسان الميزان ٤٣٦/١ ، الزركلى : الأعلام ٣٢٢/١ .

(١٨) الفتوح ١٠/٦ .

جميـــع الأوحـــال عليهم ، دون ما حياء أو حرج ، وهى للوهلة الأولى تجســـد ما يعتمـــل فى نفس هذا الرجل وأمثاله ، من شحنات البغض الهائلة لبنى أمية ، وان تصنيف هـــذا الكتاب (الفتوح) لمناسبة طيبة أتيحت له ، أن يكشف فيهـــا عن مكنون صدره ، وخبيئة نفســـه ، تنفيسا وتخفيفـــا ، فلعله بنفث ذلك يريح صدره ونفسه ، ولعله كذلك يسقط أقدار بنى أمية فى نفوس القارئين لكتابه هذا ! •

وسوف لا يغيب عن الذهن ، أن لهذه القصـــة المفتعلة قصدا آخر، يريد ابن أعثم التأكيد عليه من ذكرها ، ألا وهو مدى الشجاعة الفـــائقة التى يتمتع بهـــا بطل القصـــة الشيعى ، أمام الخليفة هشام بن عبد الملك ذاته ، غانه ما هابه ، ولا استبدت به رهبة مقـــام أمير المؤمنين ، فصدع فى وجهه برأيه القاسى ، وأعلن أمامه مذهبه الذى يعتقده ، ولم يلق ، بالا الى ما يمكن أن ينزل به أو يصيبه من أذى شديد وشر عظيم ، من جراء اهانة الخليفة وعشيرته ! ؟؟ •

قال ابن أعثم : فبينما هشام بن عبد الملك ذات يوم فى بريـــة الشام يتنزه ، ويتصيد ، اذ نظر الى غبار ساطع على قارعة الطريق ، فقـــال هشـــام لمن معه : قفوا فى مواضعكم ، لا يتبعنى أحد منكم الى أن أرجع اليكم • ثـــم حرك هشـــام ، ومضى نحو الغبار ، فاذا بعير قد أقبلت من بعض مدائن الشـــام ، عليهـــا زيت وأمتعة من أمتعة الشـــام يراد بها الكوفة ، وفى العير شيخ من أهل الكوفة ، لـــه رواء ومنظر ، ومـــع الشيخ غلمة له أحداث ، وهم بنوه ، ومع هشام مولى له ، يقـــال له : ربيـــع •

فسلم عليهم هشـــام ، فردوا عليه السلام وهم لا يعرفونه ، فأقبل هشـــام على الشيخ ، فقـــال : ممن أنت ، وأين منشؤك ؟ فقال الشيخ : أما المنشأ فالكوفة ، وأما من أين فمـــا سؤالك عن ذلك ؟ فوالله انى لوكنت من العرب فى أعلاهـــا لما نفعك ، ولو كنت من أدناهـــا لما ضرك•

فقـــال هشـــام : والله ياشيخ ما أظنك كتمت نسبك الا وأنت مستحى! فضحك الشيخ ، ثـــم قال : يا هذا ، ما هو الا ما ظننت ، وانى لأرجو أن يسأل الله عز وجل عمن يحسبنى بمــا اطلع عليه من دناءة جنســك ، ونسبك اذا أنبأتنى به ، فان قبح وجهك ، وحول عينيك ، ودمامة خلقتك ، وسوء منطقك قد أطمعنى فى ذلك منك ، وأنا أخبرك ممن أنا ، اذ قــد أبيت الا ذلك ! •

أنا رجل من حكم (١٩) ، وأمى سلولية (٢٠) ، ونحن اليوم خلف فى عكل (٢١) • فقال هشـــام : نسأل الله العافية ممن قد ابتلاك بـــه يا شيخ ! (كذا ؟) لقـــد اجتمع فيك ما لـــم يجتمـــع فى أحد قط ! فقال : ولم تقول ذلك ؟ وقد أملت أن يسأل الله عمن ينسبنا ، عند ما قد توسمته فيك عندمعرفتى بنسبك (كذا ؟) ، فمن أنت يا هـــذا ؟ فقـــال هشـــام : أنا رجل من قريش ، فقـــال الشيخ : ان قريشـــا كثير ، وان فيهم من قـــد علا نجمه ، وفيهم من قـــد سقط سهمه ، فمن أيهـــا أنت ؟ فقال هشـــام : أنا والله من أعلاها ، وأسناها ، وأزكاهـــا ! أنا رجل من بنى أمية التى لا تسامى أخطارها ، ولا يدرك آثارها (؟) • فقـــال الشيخ : مرحبا بك يا أخى (يا أخا) بنى أمية ، سليت ورب الكعبة غمى ، وفرجت عنى كربى ! كنتم والله يابنى أمية فى الجاهلية تربون فى التجارة (كذا) ، وفى الاسلام عاصين لأهل الطهارة سيدكم حمار ، وأميركـــم جبار ، ان قللتم عن الأربعين لم تدركوا بثأر ، وان بلغتموهـــا كنتم — بشهادة الرسول — من أهل النار ! رجالكم يتقبلون فى عار النسبة ، ونساؤكم

---

(١٩) بنو الحكم بن سعد العشيرة بن مالك بن أدد ، وهم من قبـــائل كهلان بن سبأ . ابن حزم : الجمهرة ص ٤٠٧ .

(٢٠) بنو سلول بن كعب بن عمرو بن عامر بن لحى بن قمعة بن الياس — من قبائل عدنان . المصدر السابق ص ٢٣٥ .

(٢١) عكل بن عوف بن عبد مناة بن اد بن طابخة بن الياس — من قبائل عدنان المصدر نفسه ص ٢٨٠ .

على نساء الاسلام سبه ! ومنكم الباكى على معلليه ، ومنكم معاليه (؟) مؤوى الطرداء ، وباقى الأخبار السعداء ، الذى اختار القراية على الصحابة ، وصرف المال عن أهل النجابة ! (٢٢) .

ومنكم صاحب الراية يوم القليب ، وأبو اللعينة ذات العيوب ، ومنكم صخر بن حرب ، فكان فى الجاهلية خمارا ، وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مجهزا كفارا ، وفى اسلامه رديا (رديئا) منافقا ، والى كل السوءات سابقا ، وابنه معاوية لعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم لعنات سبعا ، سبعا منعه الله عز وجل أن ينال بدعوته عليه ، سبعا منع أباه من الاسلام ، حثه على عبادة الأصنام ، ثم قال فى الشعر الذى بعث به الى أبيه يقول :

يا صخر لا تسلن طوعا فتفضحنا	بعد الذين ببدر أصبحوا مزقا
خالى وجدى وعم الأم ثالثهم	والمرء حنظلة المهدى لنا أرقا
لا تركنن الى أمر تقلدنا	والراقصات به فى مكة الحزقا
فالموت أهون من قول النساء لنا خلا	ابن حرب عن العقبى كذا فرقا (٢٣)

ثم انه بعد ذلك ، عادى النبى صلى الله عليه وسلم ، وقاتل

---

(٢٢) لعله بذلك يعرض بأمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه ، ففى قوله « مؤوى الطرداء » يشير الى مروان بن الحكم بن أبى العاص ، وسوف يرد ذكره فيما يلى من القول . وقوله « وباقى الأخبار » خطأ ، والصواب « ونافى الأخيار يشير بذلك الى أبى ذر الغفارى رضى الله عنه ، الذى اختار الاقامة فى الربذة — وستأتى قصة ذلك فى الفصل الثالث .

(٢٣) هذا الشعر — ان صحت تسميته شعرا — لا نعلم له قائلا ، ولا ندرك له معنى أو غرضا واضحا ! ويعنى بخاله وجده ، وعم أمه ، وحنظلة : قتلاهم يوم بدر : الوليد بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، وأباه عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة أخا عتبه ، وحنظلة بن أبى سفيان بن حرب ، أخا معاوية . وأمثال هذه الأبيات المجهولة كثيرة الورود فى الفتوح ، وقد أوردنا نماذج منها فى مناسبات عديدة من هذا البحث .

الوصى [٢٤] ، وألحق زيادا الدعى [٢٥] ، وعهد الى ابنه الفاسق الردى [٢٦] ، وبدل مكان كل سنة بدعة ، وجعل لابنه يزيد فى اراقة الدماء فسحة وسعة ، ونبش قبر حمزة سيد الشهداء ، وأجرى فيه الماء عداوة وبغضا ، ألحق زياد بن عبيد اللعين بأبى سفيان الخمار ، وأزوجه من نسائه ذات القلائد والخمار ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « الولد للفراش ، وللعاهر الحجر » [٢٧] ، فترك قول النبى صلى الله عليه وسلم ، وبزياد افتخر ، وسلطه على شيعة على بن أبى طالب ، ، ولم يخف من سوء العواقب !

---

(٢٤) يعنى به : على بن أبى طالب رضى الله عنه ، الذى تزعم الشيعة بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد أوصى له بالأمر من بعده ، فلذلك يلقبونه بالوصى — راجع : عبد القاهر البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٣٠ وما يليها .

(٢٥) هو زياد بن أبيه ، وهو زياد بن عبيد الثقفى ، وهو زياد بن سمية — أمه — ، وهو زياد بن أبى سفيان ، بعد أن استلحقه معاوية بأنه أخوه ، وقصة هذا الاستلحاق مبسوطة فى التواريخ ، اقرأ عنها : الطبرى : تاريخ ٢١٤/٥ — ٢١٥ ، ابن الأثير : الكامل ٤٤١/٣ — ٤٤٥ . ولم يذكره ابن حزم فى أولاد أبى سفيان — الجمهرة ص ١١١ . وكان زياد من رجال دولة على ، ودولة معاوية المعدودين ، توفى سنة ٥٣ هـ . وترجم له : ابن سعد فى الطبقات ٩٩/٧ ، ابن قتيبة : المعارف ص ٣٤٦ المسعودى : مروج الذهب ١٤/٣ — ١٧ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ٤٩٤/٣ — ٤٩٧ .

(٢٦) يقصد به : يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ، الذى أخذ له البيعة بالخلافة من بعده ، فلما توفى معاوية سنة ٦٠ هـ ، بايعه الناس بالخلافة الا الحسين بن على ، وعبد الله بن الزبير ، وكان من أمرهما معه ، ما يرد ذكره فيما يلى من هذا البحث .

(٢٧) هذا جزء من حديث صحيح رواه الامام مسلم فى صحيحه (١٧١/٤) عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها .

ومنكم عقبة بن أبى معيط [٢٨] ، نفاه رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش وسار العرب ، وضرب عنقه بين يديه على ذو الحسب، وألبسكم بقتله من بين قريش العار ، وجعل أرواحهم الى النار ، فقبلتم نسبه فيكم ، وزجتموه ، وهو علج من أهل صفورية فادعيتموه ، وابنه الوليد [٢٩] ، المحدود فى الخمر ، صلى بالناس أربعا فى الفجر والظهر ، فى مساجد الله ، وهو سكران ، وقرب أهل الخيانة والغدر ، فسماه الله فى كتابه فاسقا ، وجعله فى الدرك الأسفل منافقا !

ومنكم يا بنى أمية الحكم بن أبى العاص [٣٠] ، الملقب الحياص نفاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد لعنه ، وأردفه ثانية وباللعنة ثناه . ومنكم عبد الملك أغضب الأبرار ، واستعان بالفجار وتهاون

---

(٢٨) هو عقبة بن أبى معيط بن عمرو بن أمية بن عبد شمس ، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بضرب عنقه فى أثناء عودة المسلمين ظافرين من بدر فى رمضان ٢ هـ . وفى سيرة ابن هشام (٦٤٤/١) : أن الذى ضربه هو عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح الأنصارى ، وقيل قتله على ابن أبى طالب . وصفورية : بلد من نواحى الأردن (ياقوت : معجم البلدان ٤١٤/٣) ولا معنى لقول ابن أعثم : فقبلتم نسبه فيكم ، وزوجتموه ! .

(٢٩) هو الوليد بن عقبة بن أبى معيط الأموى ، له صحبة قليلة ، وهو من مسلمة الفتح ٨ هـ ، وقد جلده عثمان بن عفان بعد أن شهد عليه بعض الكوفيين بشرب الخمر — وهو أخوه لأمه — لكنه كان سخيا ممدحا شاعرا ، شجاعا مجاهدا . ترجم له : ابن سعد فى الطبقات ٢٤/٦ ، ٤٧٦/٧ ، ابن قتيبة : المعارف ص ٣١٨ ، المسعودى : مروج الذهب ٣٤٤/٢ — ٣٤٥ ، ابن عبد البر : الاستيعاب ١٥٥٢/٤ ، ابن الأثير : أسد الغابة ٤٥١/٥ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ٤١٢/٣ — ٤١٦ .

(٣٠) هو الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس ، من مسلمة الفتح ، وله أقل حظ من الصحبة — قال الذهبى : « ويروى فى سبه أحاديث لم تصح » . توفى سنة ٣١هـ . ترجم له : ابن سعد فى الطبقات ٤٤٧/٥ ، ٥٠٩ . يحيى بن معين : التاريخ ١٢٤/٢ . خليفة ابن خياط : تاريخ ص ١٣٤ ، ١٤١ ، ١٤٢ . ابن قتيبة : المعارف ص ١٩٤ ، ٣٥٣ ، ٥٧٦ . الذهبى : سير أعلام النبلاء ١٠٧/٢ — ١٠٨ .

بالأخيار ، فالحجاج أفضل حسناته ، والغدر والجور أقل سيئاته ، ثم بنوه الجبابرة فى الاســلام ، أبناء اللعنة والجور فى الأحكام ، منهم سليمان والوليد وهشــام ، وقبله يزيد (٣١) ، لا نذكر أحدا منهم برأى سديد ، ومالهم فى اللعنة من مزيد ، خونة غدرة ، رموا بيت الله الحرام بالحجارة والعذرة ، وقتلوا قبل ذلك العشرة البررة (٣٢) !

ومن نسائكم آكلة الأكباد (٣٣) ، ومظهر الفساد ، الصادة لزوجها عن الرشاد ، والداعية الى الكفــر والفســاد والعناد ، وصويحباتها الناقرات يوم أحد بالدفوف ، المغنيات وقد دنت الزحوف فأنتم يا بنى أمية ، الشجرة الملعونة فى القرآن ، لا ينكر ذلك انس ولا جان ، ولا أحد من أهل الايمان (٣٤) ، فأولكم ردى ، وأوسطكم درىء ، وشريفكم دنىء ، وآخركم مسيىء !

ألا فخذها يا أخـــا أميـــة ... يكـــون فى قلبك منها كيـــه
لا تفخرن بعـــــدها عليـــه ... ما تركت فخـــرا لكم ســـميه

---

(٣١) هم أمراء المؤمنين : الوليد (٨٦ — ٩٦ هـ) ، وسليمان (٩٦ — ٩٩هـ) ، ويزيد (١٠١ — ١٠٥هـ) ، وهشام (١٠٥ — ١٢٥هـ) راجع فى اخبارهم جميعا تاريخ الطبرى ، وكامل ابن الأثير ، والبداية والنهاية لابن كثير فى تواريخ هذه السنين .

(٣٢) لا نعلم من هؤلاء العشرة البررة الذين قتلهم هؤلاء الخلفاء ؟

(٣٣) يعنى بها : هند بنت عتبة بن ربيعة ، زوج أبى سفيان بن حرب ، وأم معاوية أمير المؤمنين ، وقد أسلمت يوم الفتح ٨هـ ، وبايعت النبى ﷺ اقرأ عنها : ابن عبد البر : الاستيعاب ١٩٢٢/٤ — ١٩٢٣ ، ابن الأثير : أسد الغابة ٢٩٢/٧ — ٢٩٣ ، الذهبى : المغازى ص ٩٢ ، ١٣٦ ، ١٥١ ، ١٦٧ ، ٤٤٦ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ .

(٣٤) بل الشجرة الملعونة فى القرآن هى : شجرة الزقوم التى هى طعام الأثيم فى نار جهنم ، كما قال البخارى فى صحيحه — كتاب التفسير — ١٠٧/٦ — ١٠٨ ، وكذلك قال سائر علماء أهل السنة . راجع ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (تفسير الآية ٦٠ من سورة الاسراء) ٨٩/٥ — ٩٠ .

قال ابن أعثم : ثم مر الشيخ على وجهه ، حتى لحق بالعير ، وبقى هشام حيرانا (حيران) لا يدرى ما يقول !؟ ثم أقبل على غلامه ربيع ، فقال : ويلك يا ربيع ! رأيت ما منينا به فى هذا اليوم من هذا الشيخ ! والله لقد أظلمت الدنيا على ، حتى ظننت أنى لا أبصر شيئا ! ولكن هل تحفظ من كلامه شيئا ؟ فقال ربيع : يا أمير المؤمنين ! والله لقد بقيت متحيرا لا أعقل من أمرى شيئا ، ولقد هممت أن أعلوه بالسيف مرارا لولا هيبتك ، فكيف أحفظ ما قال ؟ فقال هشام : لكنى والله قد حفظته ولو علمت أنك تحفظه لضربت عنقك !

ثم رجع هشام الى أصحابه ، ووجه الخيل فى طلب الشيخ ، وعزم على قتله ! فكان الشيخ داهيا ، فوقع فى قلبه أنه هشام بن عبد الملك ، واتقى ما قال ، وخشى الطلب ، فعدل عن الطريق ، وأخذ فى البرية على مياه بنى كلاب ، فطلب فلم يقدر عليه ، ومضى حتى دخل الكوفة ، فلم يزل هشام متأسفا على ما فاته من قتل الشيخ ! قال ابن أعثم : فكان ربيع يقول : والله ما شذعنى من كلام الشيخ شىء وانى لأحفظه ، وما حدثت بهذا الحديث أحدا حتى مات هشام (٣٥) .

وهكذا ، لم يترك ابن أعثم — فى هذه القصة الغريبة التى بها انفرد بين سائر المؤرخين — أحدا من بنى أمية من غير أن يناله لعنا وتسفيها وتشويها ، ويصب عليه أحقاده المتراكمة على صدره ! وكيف لا يفعل ، وهو انما نسج وتكلف صنعة تلك القصة من أجل هذه الغاية المنشودة !؟ وبعدئذ ، فلا مزيد من تعقيب ، أو قول ، فان وضوح بيان ابن أعثم فى قصته قد كفانا ذلك ، وأغنانا عنه .

كما يضيف ابن أعثم الكوفى الى هذا الحماس المذهبى ، والتعصب الفكرى الجامح الذى رأينا آنفا ، حماسا وانحيازا من لون آخر ، هو

---

(٣٥) القصة فى فتوح ابن أعثم ٢/٤٨١ — ٤٨٧ .

الحماس والانحياز الجلى الى الفرع العربى الكبير الذى انحدر منه — فيما نعتقد — وهو قحطان الذى ينتمى اليه عرب الجنوب ، فانه قد جعل من كتاب الفتوح ميدانا لابراز أمجاد الأجداد والآباء من اليمنية ، والأزد منهم بوجه خاص ، تتوالى فيه الاشارات المعبرة ، والتصريحات المبينة ، والمواقف ذات المغزى الصريح فى اعلان امتياز وتفوق هؤلاء أمام القيسية أو العدنانية من العرب ! فنراه ينسج القصص ، ويفتعل المواقف البطولية حــول رجال اليمن وفعالهم ونكايتهم بأعــدائهم ، وخصومهم من عرب الشمال ، كما تجده ينسب الأعمال الكبيرة ذات الأهمية الواضحة ، الى رجال من قومه •

ومن أقوى الأمثلة دلالة على هذه الغاية المنشودة : قصة الغلام الخارق — فى قوته وشجاعته — الهلقام بن الحارث « الأزدى » ، الذى تمكن وحده من الوقوف فى وجه أبطال القيسية المعدودين الذين ضرب بقوتهم وشجاعتهم المثل وهم : عامر بن الطفيل العامرى ، وعنترة ابن شداد العبسى ، والعباس بن مرادس السلمى ، فهزمهم ، وأذلهم بالأسر لديه شهرا كاملا ، حتى رق لهم أخيرا ومن عليهم ، فأطلقهم ! (٣٦)

كذلك نعتقد — والله أعلم — أن ابن أعثم الكوفى ما أفرد تلك المساحة الكبيرة من كتابه لتفصـــيل القول فى أخبار المهلب بن أبى صفرة وأبنائه — وهم أزديون من قومه — مع الأزارقة ، حتى بددهم وقضى عليهم فى نهاية الأمر ، ما فعل ذلك الا سعيا لتحقيق تلك الغاية المنشودة من تأليف ذلك الكتاب (٣٧) •

وعدا ذلك ، ففى الفتوح أمثلة عديدة لترسيخ هذه الفكرة وتأكيد هذه الغاية ، ومنها — على سبيل الاختيار ، لا الجمع والاستقصاء — •

---

(٣٦) انظر تفصيل ذلك فى أول الفصل الثالث من هذا البحث .

(٣٧) قد خصصنا الفصل الخامس من هذا البحث لعرض ما قاله ابن أعثم عن الأزارقة والمهلب .

ما ذكره عن قوة عمرو بن معد يكرب الزبيدى — اليمنى — وما صنعه يوم القادسية فى الفرس ، على الرغم من أنه يومئذ كان شيخا كبيرا ! [٣٨] وكذلك ما فعله هو وقبيلة زبيد يوم اليرموك ، وانضمام « حمير وحضرموت وخولان » اليمنيون فى هذه المعركة الخالدة ، يقول ابن أعثم فى ذلك : « ... فابتدر عمرو بن معد يكرب ، وهو مقدم على زبيد ، وهو الأمير فيهم ، وهم يعظمونه لما سبق من شجاعته فى الجاهلية ، وكان يوم اليرموك ، قد مر له من العمر مائة وعشرون سنة ، الا أن همة الشجاعة فيه متيقظة ! فلما نظر الى قومه قد انكشفوا ، صاح فيهم : يا آل زبيد ! يا آل زبيد ، أتفرون من الأعداء ، أترمون أنفسكم بالعار والذلة والشنار ؟ فما هذا الانزعاج ، من كلاب أعلاج ؟

أما علمتم أن الله يطلع على المجاهدين الصابرين ، فاذا نظر اليهم قد لزموا الصبر فى مرضاته ، وثبتوا لقضائه ، أمدهم بنصره ، وأيدهم به . فأين تهربون من الجنة ؟ أرضيتم بالعار ، وغضب الجبار !؟

فلما سمعت زبيد كلام سيدها عمرو بن معد يكرب الزبيدى تراجعوا اليه كعطفة الأم ، واجتمعوا من حوله ، وحملوا على الروم حملة واحدة ، وحملت معهم حمير ، وحضرموت ، وخولان (وكل أولئك يمان) فأزالوا الروم عن مواضعهم ... » [٣٩] .

وفى معركة اليرموك أيضا : ينص ابن أعثم على أن الذى أنشب القتال بين الفريقين هو : غلام من الأزد حدث السن اذ قال لأبى عبيدة ابن الجراح : « أيها الأمير ، انى قد أردت أن أشفى قلبى ، وأجاهد

---

(٣٨) الفتوح ١/٢٠٤ — ٢٠٦ .

(٣٩) الفتوح ١/٢٥٩ . ولا يخفى أن حضرموت علم على منطقة كبيرة من جنوب شبه الجزيرة العربية ، وليس اسما لقبيلة !! واقرأ كذلك عن بطولات عمرو بن معد يكرب ما ذكره ابن أعثم عنه فى يوم جلولاء ١/٢٧٦ — ٢٧٧ ، وفى موقعة نهاوند ٢/٥١ — ٥٨ .

عدوى وعدو الاســلام ، وأبذل نفسى فى طاعة الله عز وجل ، لعلى أرزق الشــهادة ، فهل تأذن لى فى ذلك ؟ وان كان لك حاجة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبرنى بها ! فبكى أبو عبيدة — رضى الله عنه — وقال : اقرىء محمدا عنى الســلام ، وخبره أنا قد وجــدنا ما وعدنا ربنا حقا » . وانطلق الغلام يجهز على فرسان الروم واحدا تلو الآخر ، حتى قتل أربعة منهم ، وأما الخامس فقتل الغلام الأزدى ! فغضبت الأزد عند ذلك لقتل صاحبهم ، ودنوا من صفوف الروم ، فعندما أقبلت الروم ، وزحفت كالجراد المنتشر .. الخ قوله (٤٠) . وليس الأمر كذلك ، لأن الذى أنشب القتال هو القعقاع بن عمرو التميمى ، وعكرمة ابن أبى جهل بأمر القائد يومئذ « خالد بن الوليد » (٤١) .

كذلك يشيد ابن أعثم بجهاد الأزد فى معركة اليرموك ، وقتــالهم مع أبى هريرة يومئذ قتالا شديدا ، حتى فشا فيهم القتل ، فأصيبت منهم خلق كثير ، الا أنهم لقوا الصــدمة بأنفســهم ، فاستشهد منهم ما لم يستشهد من غيرهم من القبائل ! (٤٢) .

وفى رواية ابن أعثم لأخبار فتح مدينة اصطخر (٤٣) ، خــالف المؤرخين ، وذكر أن الذى قتل قائد الفرس « شهرك بن ماهك » رجل من الأزد ، فقال فى ذلك : « ... فلما كبروا (يعنى المسلمين) انخلعت قلوب الفرس ، فأعطوا بأيديهم ، وولوا الأدبار منهزمين ، وولى معهم شهرك لا يقف ولا يلوى على شىء . ولحقه رجل من المسلمين يقــال له : الجنيد بن مسلم الأزدى ، فضربه ضربة على تاجه نكسه الى الأرض

---

(٤٠) المصدر السابق ٢٥٧/١ — ٢٥٨ .

(٤١) الطبرى : تاريخ ٣٩٨/٣ ، ابن الأثير : الكامل ٤١٢/٢ .

(٤٢) الفتوح ٢٦٢/١ .

(٤٣) مدينة اصطخر : من أعيان حصون فارس ، ومدنها ، وكورها ، وهى من أقدم بلاد فارس . ياقوت : معجم البلدان ٢١١/١ — ٢١٢ .

صريعا ، ثم نزل اليه ، فأخذ سلبه ، وتاجه ، ثم استوى على فرسه .
قال ابن أعثم : وقد ذكر ذلك أيضا رجل من الأزد فى شعر له (٤٤) ..

ولا نطيل بذكر الأمثلة العديدة التى يشيد فيها ابن أعثم بعرب اليمن وبالأزد ، والتى بثها فى ثنايا كتابه سواء كانت اشادة مبنية على أساس تاريخى سليم صحيح ، أو أنه تعمد افتعالها ونسجها نسجا ، لينسب اليهم من الأعمال ما يرفع ذكرهم ، ويعلى شأنهم ، فيخفض بذلك مكانة القيسية ، ويحط من قدرهم .

نظرة فى محتوى الفتوح :

ليس القصد فى هذا المبحث أن نقدم ثبتا بموضوعات الكتاب . فهذا فى متناول قارئه ، حيث تضمن كل جزء من الفتوح فهرسا كاملا بموضوعاته جميعا ، ولكنا نريد أن نقدم بين يديك بعض النماذج لما احتواه مصنف ابن أعثم هذا من الأخطاء التاريخية ، والمغالطات المقصودة التى ارتكبها فى عرضه للحوادث التى أرخها ، والقضايا التى عالجها ، وكذلك ما تعمده من التغيير فى أشخاص الذين صنعوا الحوادث وكانوا أبطالها ، أو شاركوا فيها ! وسوف نتبين من خلال ذلك ، أنه كان يفعل ذلك ، اما عن ضآلة معلوماته التاريخية ، وسوء حفظه ، أو عن غفلة تعتريه فلا يضبط ولا يتقن أو عن رغبة كامنة تسيطر عليه ، وتستبد به ، فيغير ويبدل حسب ما يمليه الرأى والهوى ! وكل ذلك — ولا ريب — قادح فى عمله ومهمته ، كما أنه قادح مؤثر فيما انتهى اليه من أفكار ونتائج .

---

(٤٤) ورواية الطبرى ها هنا تنص على أن الذى تولى قتل شهرك : هو الحكم بن أبى العاص بن بشر بن دهمان الثقفى — وكان أخوه عثمان ابن أبى العاص قائد المسلمين يومئذ — تاريخ الرسل والملوك ١٧٥/٤ — ١٧٦ ، وكذلك قال ابن الأثير ، غير أنه ذكر قولا آخر وهو : وقيل : قتله سوار بن همام العبدى ، حمل عليه فطعنه ، فقتله ، وحمل ابن شهرك على سوار فقتله . الكامل فى التاريخ ٤٠/٣ .

كذلك سـوف ندرك — من خلال هذا العرض — حقيقة أخرى ، تتلخص فى أنه كاتب — أو مؤلف — لم يكن يحترم رسالة المؤرخ ، والكتاب التاريخى ، اذ لم يعد لذلك عدته اللازمة الكافية ، ولم يتهيأ — كما ينبغى — لهذا العمل الجليل ، الذى يعتمد فى المقام الأول على التكوين العلمى لشخصية الكاتب بقدر كاف ومؤهل للتصـدى للكتابة التاريخية ، كما لابد أن يتسلح باليقظة الفكرية والصـفاء الذهنى ، وأن يتجرد تماما من الهوى المتسلط الذى يورده موارد الشطط ، ويوقعه فى مواقع الخلط والخبط !

ومن أشـد ما يؤسف له ، أن فتوح ابن أعثم هذا مشحون بالأخطاء التاريخية ، والمغالطات المقصودة فى عرض الحوادث ، والتغيير — العمد — فى الأفراد الذين صنعوا بعض الحوادث ، أو شاركوا فيها ، وأنه بعد تأمل هذا كله تبين لنا بجلاء ووضـوح ، أن تلك الأسباب التى ذكرناها فى السطور السابقة ، قد تضافرت جميعا فى اخراج هـذا السفر التاريخى الكبير على تلك الصورة من الخلل البين ، والتشـويه الظـاهر ! .

ان جميع المسائل والقضايا التاريخية التى ناقشناها — وناقشـنا ابن اعثم فيها — فى الفصول الثلاثة التالية من هذا البحث ، هى فى الواقع المحسوس ، نماذج مختارة لما وقع فى كتاب الفتوح من أخطاء ، ومغالطات ، وتحريفات صارخة فى التاريخ الاسلامى الذى تناوله ابن أعثم ، وكان من المقبول — منهجا وأسلوبا — أن نحيل عليها فى هـذا الصدد ، ونكتفى بها ، وفيها غناء وكفاء ، غير أنى رأيت تأكيدا للفكرة واضـافة الى ذلك كله ، وتنبيها لقارىء الفتوح كذلك ، أن أضيف بعض الأمثلة الأخرى من مخالفات ابن أعثم الكوفى ، لما عرفناه وحفظناه وأخذنا به عن قناعة عن المؤرخين الآخرين ، السابقين ، أو المعاصرين لابن أعثم ، أو الذين جاءوا من بعده !

فمن ذلك : ما ذكره ابن أعثم عن حكومة سعد بن معاذ الأنصارى — رضى الله عنه — فى يهود بنى قريظة عام خمسة من الهجرة ، اذ قال : « قالوا — يعنى الخوارج يوم النهروان لعلى بن أبى طالب — فانا نقمنا عليك غير هذا ، انك حكمت حكما فى حق هو لك ! فقال — أى على — ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حكم سعد بن معاذ فى بنى قريظة ، ولو شاء لم يفعل ، فحكم فيهم سعد بقتل النساء والرجال، وسبى الذرية والأموال ، وانما أقمت حكما ، كما أقام النبى صلى الله عليه وسلم لنفسه حكما »(٤٥) . وهذا خطأ شنيع جدا ! لأن الثابت المشهور فى دواوين الحديث والتاريخ المعتبرة ، أن سعدا قال فى حكمه — واللفظ للبخارى — : « فانى أحكم فيهم ، أن تقتل المقاتلة ، وأن تسبى النساء والذرية ، وأن تقسم أموالهم »(٤٦) .

وخطأ كبير آخر ، لا يقل فى جسامته عن المثال السابق ، وذلك قولـه بأن على النســاء جزية ! ؟ وهــاك رواية ابن أعثم فى ذلك : « فأرسلوا (أى أهل دمشق) الى أبى عبيدة بن الجراح ، يسألونه الصلح ، فأجابهم أبو عبيدة الى ذلك ، ووقع صلحهم على مائة ألف دينار ، والجزية بعد ذلك ، على كل محتلم أربعة دنانير فى كل سنة ، وعلى نسائهم ديناران ، فرضى القوم ، وكتب الكتاب بينهم بالصلح»(٤٧)

وليس الأمر كما زعم مؤرخنا هذا ، وانما تجب الجزية — كمـا

---

(٤٥) الفتوح ٤/١٢٥ .

(٤٦) الصحيح (كتاب الجهاد) ٥/١٤٤ ، وابن هشام : السيرة النبوية ٣/٢٤٠ ، وابن سعد : الطبقات ٢/٥٥ ، والبلاذرى : فتوح البلدان ١/٢٣، واليعقــوبى : تــاريخ ٢ / ٥٢ ، والطبرى : تــاريخ ٢ / ٥٨٧ — ٥٨٨ ، وابن حزم : جوامع السيرة ص ١٥٤ ، والذهبى : المغازى ص ٢٥٩ — ٢٦١

(٤٧) الفتوح ١/١٦٠ — ١٦١ .

صرح بذلك الفقهاء — على الرجال ، دون النساء والصبيان [٤٨] .

وفى عرض ابن أعثم لأخبار القادسية ، نجد عدة أخطاء ، لا تغيب عن قارىء مستوعب لتاريخ الفتوحات الاسلامية ، ومن ذلك أنه قال : « وعبأ سعد بن أبى وقاص أصحابه ، فكان يومئذ فى قريب من أربعين ألفا ، وقد كان عمر بن الخطاب كتب الى أبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنهما فأمدهم بعشرين ألفا من أهل الشام ، فصار سعد فى ستين ألفا » [٤٩] . ولا نعلم أحدا من أصحاب التواريخ قال بذلك سوى صاحب الفتوح ، فهو قول غريب لا شاهد له ولا دليل عليه .

ومنها أيضا : أنه جعل معركة القادسية ستة أيام ، ولم يسم اليوم الأول — شغل بمقتل مهران صاحب أذربيجان — وسمى اليوم الثانى بيوم أغواث ، وأطلق على اليوم الثالث اسم يوم السواد ، بينما سمى اليوم الرابع يوم النفاذ . ثم لم يسم اليوم الخامس — شغل بقصة أبى محجن الثقفى — ، كذلك ذهل عن تسمية اليوم السادس والأخير ، بل لا تكاد تعثر على نهاية واضحة محددة لمعركة القادسية فى روايته تلك ! [٥٠] .

ومنها كذلك : زعمه بأن فتح القادسية والمدائن ، كان فى جولة واحدة أو جولتين متتاليتين لا يفصل بينهما الا مقدار انتقال المسلمين من القادسية الى المدائن ، وبذلك كتب سعد بن أبى وقاص الى عمر !

---

(٤٨) أبو يوسف صاحب أبى حنيفة : كتاب الخراج ص ٢٥٣ ، وليس كل الرجال يدفعون الجزية ، وانما يستثنى منهم : المسكين المتصدق عليه ، والأعمى الذى لا عمل له ، والزمنى ، والمرضى ، والمقعدون ، والرهبان الذين لا مال لهم — نفس المصدر ٢٥٣ — ٢٥٤ ، وقال الماوردى فى الأحكام السلطانية ص ١٤٤ : « لا تجب الجزية الا على الرجال الأحرار العقلاء ، ولا تجب على امرأة ولا صبى ولا مجنون ولا عبد ، لأنهم ذرارى » .

(٤٩) الفتوح ٢٠١/١ .

(٥٠) الفتوح ١٩٥/١ — ٢١٢ .

قال ابن أعثم : « وكتب سعد بن أبى وقاص الى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما يخبره بفتح القادسية والمدائن وسلامة المسلمين ، وهرب يزدجرد وأصحابه الى الدسكرة وجلولاء ، وما والاهما ، وأنا نازل بالمدائن منتظر ما تأمر به »[٥١] . وليس الأمر على هذه الصورة الغامضة التى تدمها الينا ابن أعثم[٥٢] .

وأما أخطاؤه فى سرد أخبار اليرموك ، فمن هذا القبيل أيضا ، اذ زعم ابن أعثم الكوفى أن الروم كانوا يومئذ أربعمائة ألف رجل ![٥٣] بينما المشهور عند سائر المؤرخين أنهم كانوا مائتين وأربعين ألفا[٥٤] .

وكذلك زعمه بأن شعار المسلمين فى اليرموك كان مثل شعارهم يوم أحد ، وهو : « يا نصر الله انزل — يا نصر الله انزل » ! وليس كذلك . بل كان شعار المسلمين فى أحد : « أمت ، أمت »[٥٥] .

ومنها أيضا : أنه جعل المعركة ثلاثة أيام ، بينما المشهور عند المؤرخين أنها كانت يوما واحدا ![٥٦] وقد سمى أحد الأيام الثلاثة فقط ، وهو الأوسط باسم «يوم التعوير» وذلك لكثرة من أصيبت عينه من المسلمين فيه ، وذكر أنهم سبعمائة رجل ، وعد منهم : المغيرة بن

---

(٥١) المصدر السابق ٢١٤/١ .
(٥٢) راجع أخبار القادسية والمدائن عند خليفة بن خياط : تاريخ ص ١٣١ — ١٣٤ ، والبلاذرى : فتوح البلدان ٣١٣/٢ — ٣٢٣ ، والطبرى : تاريخ ٥٢٩/٣ — ٥٧٩ ، ٤/ ٨ — ٢٤ ، وابن الأثير : الكامل ٤٦٩/٢ — ٤٨٥ ، ٥٠٩ — ٥١٥ .
(٥٣) الفتوح ٢٤٧/١ .
(٥٤) الطبرى : تاريخ ٣٩٤/٣ ، ابن الأثير : الكامل ٤١٠/٢ .
(٥٥) الفتوح ٢٦٣/١ . وراجع ابن هشام : السيرة النبوية ٦٨/٢ ، وابن حزم : جوامع السيرة ص ١٢٦ .
(٥٦) البلاذرى : فتوح البلدان ١٦٠/١ — ١٦١ ، الطبرى : تاريخ ٣٩٨/٣ وما يليها ، ابن الأثير : الكامل ٤١١/٢ — ٤١٥ .

شعبة ، وسعيد بن زيد ، وأبا سفيان بن حرب ، وغيرهم [٥٧] . ولم يسم اليومين الآخرين !

وعن فتح بيت المقدس ، أوجز ابن أعثم القول فيه ، ولكنه قدم صورة تختلف اختلافا بينا عما حفظناه ، وقرأناه عن مؤرخى الاسلام الآخرين ، فقال : ... ثم وجه أبو عبيدة كتابه هذا الى أهل ايلياء ، فلما قرأوه ، أبوا ما عرض عليهم من الايمان ، ولم يجيبوه الى شىء ، فسار أبو عبيدة اليهم ، حتى نزل بساحتهم . وخرج أهل ايلياء الى حرب المسلمين ، فاقتتلوا ، ووقعت الهزيمة على أهل ايلياء ، فقتلهم المسلمون قتلا ذريعا ، حتى أدخلوهم مدينتهم . ودام الحرب بينهم أياما كثيرة ، فلما لم يجدوا حيلة ، ولم يكن لهم بالمسلمين طاقة بعثوا الى أبى عبيدة : انا قد أحببنا مصالحتكم ولسنا نثق بكم ، ولكن اكتبوا الى صاحبكم عمر بن الخطاب ، حتى يقدم ، فيكون هو الذى يعطينا الأمان ، ويكتب لنا العهد ، فانا به واثقون ، واليه نميل .. فكتب أبو عبيدة الى عمر ، فقدم ، فكتب لهم الصلح وأعطاهم الأمان ، وتسلم منهم المدينة[٥٨]

وهذا غريب جدا من وجهين ، أولا : لأنه لم يذكر أحد من المؤرخين أن قتالا جرى عند بيت المقدس بين أهلها وبين المسلمين ، وثانيا : لعدم ذكر عمرو بن العاص فى قليل ولا كثير من أخبار هذا الفتح الكبير ، مع أن المشهور أنه هو الذى ضرب الحصار على المدينة المقدسة ، وألح على أهلها حتى طلبوا الصلح ! [٥٩] .

وفى مناسبة تاريخية مهمة أخرى ،أخطأ ابن أعثم فى تحـديد تاريخها ، وذلك أنه زعم بأن مقتل يزدجرد — آخر ملوك الفرس —

---

(٥٧) الفتوح ٢٥٧/١ — ٢٦٧ .

(٥٨) المصدر السابق ٢٨٩/١ — ٢٩٠ .

(٥٩) البلاذرى : فتوح البلدان ١٦٤/١ — ١٦٦ ، الطبرى : تاريخ ٦٠٥/٣ — ٦٠٩ ، ابن الأثير : الكامل ٤٩٩/٢ — ٥٥١ .

كان فى أثنـاء خـلافة عمـر بن الخطـاب — وأن خبـر مقتله ، حين بلغ أمير المؤمنين عمـر قـال : « الحـمد لله الـذى طحطح ملكهم ، وأبـان هلـكهم » [٦٠] . والصـواب الـذى اجتمعت عليه كلمة المؤرخين ، أن مقتل يزدجرد قد كان فى سنة ٣١هـ ، أى فى خلافة عثمان بن عفان ، بعد وفاة عمر بسبع سنين وأشهر [٦١] ..

وأما عرض ابن أعثم لموقعة ذات الصوارى ، فشىء عجيب فى بابه ، فلقد جعل الموقعة موقعتين ، جرت الأولى ، وتحقق فيها النصر المؤزر للمسلمين على قسطنطين بن هرقل وأسطوله الكبير ، وجيوشـه البحرية العظيمة ، وقد اشتملت روايته لها على أخطاء عديدة . وأمـا الموقعة الثانية ، فلم تقع ، وانما أرسل الله سبحانه الريح العاتية ، فثار البحر ثورة عارمة ، حتى ان الموج كان يرفع المركب فى الهواء ثم يلعب بها لعبا ، فغرق أسطول قسطنطين الذى كان يتكون من ألفين ومائتى مركب ! ؟ ، لم يفلت منه الا تلك السفينة التى كان يستقلها ملك الروم ، فحملتها الريح الى جزيرة « سقلية » ، حيث استقبله أهلها أسوأ اسـتقبال ، ثم انتهى أمره معهم بأن ذبحوه ، جـزاء فشـله وهزيمته [٦٢] ! .

على أن من أشـد الأخطاء « الأعثمية » مجافاة لما تعارف عليه المؤرخون جميعا ، وكاد أن يصبح من المتواتر التاريخى ، وقوعه فى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وقوله فيه قولا بعيدا عن الصواب ،

---

(٦٠) الفتوح ٧٦/٢ .

(٦١) الطبرى : تاريخ ٢٩٣/٤ — ٣٠٠ ، ابن الأثير : الكامل ١٢٠/٣ — ١٢٣ .

(٦٢) الفتوح ١٢٨/٢ — ١٣١ . وسقلية : هى جزيرة صقلية الايطالية ومن أكبر جزر البحر الأبيض المتوسط ، وتقع جنوبى ايطاليا . وراجـع خبر موقعة ذات الصوارى البحرية الشهيرة عند ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص ١٨٩ — ١٩١ ، الطبرى : تاريخ ٢٨٨/٤ — ٢٩٢ ، الكندى : ولاة مصر ص ٣٦ — ٣٧ ، ابن الأثير : الكامل ١١٧/٣ — ١١٩ .

مصادما للحقيقة التى عرفها المؤرخون أجمعون لهذا الخليفة الراشد المسدد الموفق ! [٦٣] .

ومناسبة ذلك — كما روى ابن أعثم ، دون سند ، أو مصدر ، أو شاهد على ما روى — أنه بعد استخلاف عمر بن عبد العزيز ، أرسل الى مسلمة بن عبد الملك بن مروان [٦٤] — وكان يومئذ (٩٩هـ) مقيما مع جنده بمدينة النقفورية [٦٥] من بلاد الروم — كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر بن عبد العزيز ، الى مسلمة ابن عبد الملك ، أما بعد ، فأعظم الله لك الأجر فى أمير المؤمنين سليمان ابن عبد الملك ، وبارك له فيما صار اليه . فان أهل الشام قد بايعونى طائعين غير مكرهين ، على أنى أعدل فى الرعية ، وأقسم الفىء بالسوية ، وأنا أسأل الله التوفيق لما يحب ويرضى . فاذا ورد عليك كتابى فاسمع وأطع ، توفق ، وترشد ، وعجل بالقدوم على ، واياك والخلاف والشقاق ، فتفسد ما أصلحت ، وتنقض ما أبرمت ، وادخل فى الطاعة ، وكن

---

(٦٣) أخبار عمر بن عبد العزيز وآثاره ومناقبه ، مذكورة مشهورة ، اتسعت لعرضها مصادر التاريخ والرجال ، نذكر من بينها : عبد الله ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز (ط القاهرة ١٣٤٦ هـ) . ابن سعد : الطبقات ٢٤٢/٥ — ٣٠٢ ابن قتيبة : المعارف ص ٣٦٢ — ٣٦٣ . الطبرى : تاريخ ٥٦٥/٦ — ٥٧٣ . ابن أبى حاتم : الجرح والتعديل ١٢٢/٦ . ابن الأثير : الكامل ٣٨/٥ — ٦٦ الذهبى : سير أعلام النبلاء ١١٤/٥ — ١٤٨ . ابن حجر : تهذيب التهذيب ٤٧٥/٧ — ٤٧٨ . السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٢٨ — ٢٤٦ .

(٦٤) هو الأمير القائد ، ذو المواقف المشهورة والوقائع الكبيرة مع الروم ، والترك ، والسند ، ويقولون : انه كان أولى بالخلافة من سائر اخوته ، وقد ترجم له : خليفة بن خياط : تاريخ ص ٣٠١ ، ٣٥٠ . ابن أبى أبى حاتم :الجرح والتعديل ٢٦٦/٨ . الذهبى : سير أعلام النبلاء ٢٤١/٥ — ٢٤٢ . ابن حجر : تهذيب التهذيب ١٤٤/١٠ .

(٦٥) لم أجد لها ذكرا فى المصادر الجغرافية التى بين يدى .

مع الجماعة ، وأقدم الى بجميع ما (من) معك من المسلمين — والسلام عليك ورحمة الله وبركاته !!

فلما ورد كتاب عمر على مسلمة ، دعا بوجوه أصحابه ، ثم استشارهم فى المسير الى عمر بن عبد العزيز ، فقالوا : أيها الأمير ، نشير عليك بألا تخالف ، وأن تكون مع الجماعة ، فانك بحمد الله ممن يحتاج اليه ، ويرغب فيما عندك ، لما قد أعطاك الله من العلم والحلم ، والشدة والشجاعة والنجدة ، والشرف فى أهل بيتك ، ونكايتك فى العدو ، ولا تفسدن هذه الخصال ، بالخلاف والشقاق ، فيكن آخر أمرك الى الدمار والشنآن والتبار .. فقال مسلمة : لعمرى ، لقد أحسنتم المشورة ... ثم رحل الى دمشق فى ثلاثين ألفا من الناس ، وقد كان دخل الى بلاد الروم فى ثمانين ألفا ... فأقبل بجيشه حتى وقف بباب عمر بن عبد العزيز ، ثم استأذن فلم يأذن له ، فانصرف الى منزله . فلما كان من الغد ، ركب اليه فى عشرة آلاف فارس ، فلم يأذن له ، فانصرف الى منزله ، ثم ركب من الغد فلم يأذن له ، فركب اليه من الغد وحده ، وخلفه غلام له ، فاستأذن ، فأذن له ، فلما دخل عليه ، وسلم ، فرد عمر السلام ، وأذن له بالجلوس فجلس (٦٦) .

ثم قال : يا أمير المؤمنين ، أحب أن تخبرنى ما ذنبى ؟ ان كنت أذنبت ذنبا فقد أذنب غيرى ، وان كنت أخطأت ، فالخطأ يكون من بنى آدم ، والكمال لا يكون الا لله عز وجل ! فقال له عمر بن عبد العزيز : يا مسلمة ، انك ضربت بالناس برا وبحرا ، وسهلا وجبلا ، وقتلت الناس ، وبلغت موضعا لم تؤمر به ، وأردت أن يقال : غزا مسلمة ، وفعل مسلمة ، وفتح مسلمة ، وأغار مسلمة ! فطلبت بذلك الاسم

---

(٦٦) هذا هو أسلوب ابن أعثم الركيك ، الممل ، الذى لا ينبغى أن تصاغ به كتب العلم .

والذكر . فالويل لمن عمل فى هذه الدنيا رياء للناس ! وقد قيل : انك فعلت وصنعت [٦٧] !!

ولا تحتاج هذه القصة المطولة الى تعليق طويل مثلها ، وانما نكتفى بالقول : ان جميـــع مصادر التاريخ التى ترجمت للرجلين « عمـــر ، ومسلمة » قد خلت تماما منها ، ولم تشر الى سوء ظن ، أو شبهة فى سلوك مسلمة أو صدق بلائه فى سبيل الاسلام ودولته ، من قبل عمر ابن عبد العزيز ! والذى ذكرته المصادر بهذه المناسبة ، لا يتجاوز أمرا عاديا بعودة مسلمة ومن معه من المسليمن الى دمشق ، وقد شفع عمر هذا الأمر بما شرح صدور مسلمة وجيشه وأكرمهم ، يقول الطبرى . « وفى هذه السنة (٩٩هـ) وجه عمر بن عبد العزيز الى مسلمة — وهو بأرض الروم — وأمره بالقفول منها ، بمن معه من المســـلمين ، ووجه اليه خيلا عتاقا ، وطعاما كثيرا ، وحث الناس على معونتهم ، وكان الذى وجه اليه (من) الخيل العتاق — فيما قيل — خمســـمائة فرس » [٦٨] .

توسع ابن أعثم فى مدلول كلمة الفتوح :

تعنى كلمة « الفتوح » لدى المؤرخين المسلمين : ما قـــام بـــه الخلفاء الراشدون والأمويون من الفتح فى الأقطار التى كانت تحـــت الحكم الفارسى والبيزنطى ، وما وراء ذلك من البلدان ، مثـــل العراق ، وخراسان ، وأذربيجان وغيرها من بلاد المشرق ، والشـــام ، وآسيـــا الصغرى ، ومصر ، وبلاد الشمال الافريقى ، والأندلس . وقـــد صنفت بعض الكتب فى تاريخ هـــذه الفتوح عامة ، وأخرى فى تسجيل فتح

---

(٦٧) الى آخر القصـــة وهى طويلة ، راجع الفتوح ٣٠٧/٧ — ٣١١ .

(٦٨) تاريخ الرسل والملوك ٥٥٣/٦ ، ابن الأثير : الكامل ٤٣/٥ ، وانظر اليعقوبى : تاريخ ٣٠٢/٢ .

أقطار بعينهـا ، مثـل : فتوح البلدان للبلاذرى ، وفتوح الشـام للواقدى ، وفتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم ..

ولو أننا اتخذنا كتاب « فتوح البلدان للبلاذرى المتوفى عـام ٢٧٩ هـ » — أى قبل ابن أعثم الكوفى بأربعين عاما تقريبا — نموذجا لما اصطلح المؤرخون على تسميته فتوحا من المصنفات التاريخيـة ، اذن لتبين لنا أن « فتوح ابن أعثم » بعيد الى حـد كبير عن هــذا المدلول المتعارف عليه بين علمـاء التاريخ ، لأن نظرة عامة الى ثبت موضوعاته ، تؤكد أن ابن أعثم قـد مدد دائرة هـذا اللفظ ، بحيث أدخل فى اطاره ما لا يمكن — لغويا واصطلاحيا — حسبانه تحت عنوان « الفتوح » ! .

وعلى سبيل المثال ، فهل يمكن أن يعـد المبحث الذى استهل بـه الكتاب « ذكر ابتداء سقيفة بنى ساعدة ... » (٦٩) من موضـوعات الفتوح ؟ .

وكيف يتأتى أن تكون قصـة خيالية — وقتهـا ابن أعثم بمـا قبل الاسلام — وهى « قصـة الهلقام ابن الحارث ، وما كـان من أمره قبل اسلامه ... » (٧٠) ، من قصص الفتح الاسلامى وأحاديثه ؟ .

أما حديث الفتنة التى اشتعلت فى عهـد عثمان رضى الله عنه ، وتعاقبت فصولها ، الى أن عادت الأمـة مرة أخرى الى الوحدة واتفاق الرأى ، واجتمعت على خليفة واحد فى عـام الجماعة (٤١ هـ) ، هذا الحديث المطول ، الذى امتدت مساحته فى الفتوح لتشمل ثلثى الجزء الثانى ، والجزء الثالث كله ، وأكثـر من نصف الجزء الرابع ، لا يتصور أن يندرج حديث كهـذا تحت عنوان الفتوح ! .

---

(٦٩) ابن أعثم : الفتوح ١/١ — ٥ .

(٧٠) المصدر السابق ١/١٠٤ — ١١٣ .

وهل يصح منهجيا أن يكون مبحث مطول آخر يتناول « مقتل مسلم بن عقيل بن أبى طالب ، والحسين بن على ، وولده ، وشيعته من ورائه ... » ، ضمن مباحث كتاب عنوانه (٧١) ؟ .

كذلك أيمكن أن يقبل حسبان ما ذكره ابن أعثم عن موقعة الحرة (عام ٦٣ هـ) ، وما أصاب أهل المدينة فيها من الأهوال ، كموضوع من موضوعات الفتوح (٧٢) ؟ .

وأحسب أيضا ، أنه لا يسيغ لأى باحث أن يعد « أخبار سديف بن ميمون — مولى السجاد على بن الحسين بن أبى طالب ، وأشعاره الملاح بين يدى أمير المؤمنين » ، وهى أشعار يسعى بها الى تأليب أبى العباس السفاح — أول الخلفاء العباسيين — ضد بقايا الأمويين ، لا يسيغ لأى باحث أن يعد هذه من تواريخ الفتوح ! (٧٣) .

وكيف يمكن أن تكون قصة « مقتل عبد الله بن المقفع ، بأمر أبى جعفر المنصور » من أخبار الفتوح (٧٤) ؟ .

وهل يتأتى لنا أن نقول : ان « حكاية الامام الشافعى مع الرشيد » يسوغ اعتبارها أحد موضوعات الفتوح ، مع أنها عبارة عن لقاء اختبار ، عرف منه الرشيد فضل الامام الشافعى وعلمه ونبوغه الفائق (٧٥) ! .

---

(٧١) جاء الحديث عن ذلك فى موضعين من الفتوح ٢٠٩/٤ — ٢٢٤ ، ٣٠/٥ — ٢٥٢ .
(٧٢) ورد خبر موقعة الحرة فى الفتوح ٢٧٩/٥ — ٣٠٠ .
(٧٣) اقرأ أخبار سديف بن ميمون فى الفتوح ١٩٦/٨ — ٢٠١ .
(٧٤) المصدر السابق ٢١٨/٨ — ٢٢٢ .
(٧٥) اقرأ هذه الحكاية فى نفس المصدر ٢٤٥/٨ — ٢٥٤ .

ان هذه المتفرقات من القصص والأخبار ، وغيرها مما لم نذكره، تتناثر فى ثنايا كتاب الفتوح وهى — كما رأيت — لا علاقة لها بموضوع الفتوح الذى بينا مدلوله الذى توافق عليه المؤرخون فيما سلف من القول • وهكذا ترى — معى — أن ابن أعثم الكوفى قد توسع فى فهمه لمعنى واطار عنوان كتابه ، ومد دائرة ما يشمله ليدخل فيه ما ليس منه ! •

منهج ابن أعثم فى العرض التاريخى :

سلك المؤرخون من السلف طريقتين فى عرض وتنظيم المادة العلمية التى تشتمل عليها مصنفاتهم التاريخية وهاتان الطريقتان هما •

أ — التاريخ الموضوعى (حسب الموضوعات) •
ب — التاريخ الحولى •

وتعتمد الطريقة الأولى على الشخصيات الرئيسية التى هى محور الحوادث ، من الخلفاء والملوك ، والوزراء والقادة ، وسواهم من ذوى التأثير فى سير واتجاهات الوقائع المؤرخة ، وعلى هذا الأساس يكون ترتيب وتنظيم أخبار احدى الدول ، مرتبطا تماما بشخصيات خلفائها وأمرائها الأول فالأول ، حتى يصل الكاتب الى آخرهم ، فيكون قد أتى على تاريخ تلك الدولة وأخبارها جميعا ، على قدر استقصاء المؤرخ واستيعابه لما يتعلق بالدولة من أخبار (٧٦) •

ولون آخر من التاريخ الموضوعى ، لا يعتمد فى تنظيمه وترتيب موضوعاته الأشخاص المحركين للحوادث وانما اعتمد أصحابه على

---

(٧٦) وقد سار على هذه الطريقة : ابن قتيبة الدينورى فى كتاب المعارف ، وابن واضح اليعقوبى فى تاريخه ، وأبو الحسن المسعودى فى كتابيه : مروج الذهب ومعادن الجوهر — والتنبيه والاشراف . وقد التزموا فى عرضهم كذلك بالتسلسل الزمنى للوقائع التى يتضمنها كل موضوع تناولوه .

أســاس آخــر فى ذلك ، وهو التنظيم حسب المواقــع الجغرافيــة والترتيب التاريخى للحوادث المدونة ، وذلك كمــا صنع أحمــد بن يحيى بن جابر — البلاذرى — المتوفى ٢٧٩ هـ [٧٧] هـ .

وأما التاريخ الحولى ، فهو تسجيل الحوادث وتنظيمهــا حســب سنى وقوعها [٧٨] ، دون نظر الى ما قد يترتب على ذلك النهج من تمزيق عرض الحادثة الواحدة التى يستمر وقوعهــا سنتين أو أكثــر ، وهذا هو أبرز وجوه النقص التى أخذهــا النقاد على هذه الطريقــة فى التدوين التارخى .

فاذا ما أردنا أن نعرف : أى الطريقتين سلك ابن أعثم الكوفى فى مصنفه « الفتوح » لقلنا : انه قــد تخير الطريقة الأولى « التاريخ حسب الموضوعات » ، غير أننا نبادر ، فنبدى تحفظــا شديدا على نهجه المتميز الذى يكــاد ينفرد بملامحه بين ســائر المؤرخين ، ولعل فى عرض الملاحظــات التالية بيانا وتفسيرا لتحفظنــا هذا .

وأولى تلك الملاحظات : أن ابن أعثم كاتب للتاريخ لا يهتم بتحديد — أو ذكر — التواريخ للوقائع التى وردت فى فتوحه ، كقاعدة عــامة سار عليهــا ، لا نستثنى من هذه القاعدة الا بعض المناسبات القليلة ، التى لا نكاد نشعر بوجودها فى محيط هــذا الكتاب الكبــير ، فمن المناسبات التاريخية المهمة التى حرص على تسجيل زمن حدوثهـــا تسجيلا دقيقــا ، باليوم ، والشهر ، والعــام : وفيات الخلفــاء الراشدين ، والأموين ، والعباسيين ، ولا شــك فى أنه قــد أصاب فى ذلك ، وكان تحديده لهــذه المواقيت دقيقــا ، كمــا ذكر لبعض

---

(٧٧) فى كتابه « فتوح البلدان » .

(٧٨) وأشهر من صنف بهذه الطريقة : محمد بن جرير الطبرى فى كتابه « تاريخ الرسل والملوك » .

الخلفــاء المدة التى قضاهــا كل منهم فى الحكم [٧٩] ، ولكن المثــير للدهشــة أنه غفل عن ذكـــر تاريخ وفاة على بن أبى طالب رضى الله عنه ! وكذلك ترك ذكر تاريخ وفاة يزيـــد بن معاوية ، ومروان بن الحكم وابنه عبد الملك .

---

(٧٩) الفتوح ١/١٥٥ « وفاة أبى بكر الصديق » . ٢/٩٢ « وفاة عمــر بن الخطــاب » ٢/٢٤١ : « مقتل عثمـــان بن عفـــان » ٤/٢٦٥ : « وفاة معاوية بن أبى سفيان » ٧/٢٥١ « وفاة الوليـــد بن عبد الملك » . ٧/٣٠٦ « وفاة ســـليمان بن عبد الملك » ٧/٣٢٣ : « وفـــاة عمـــر بن عبد العزيز » ٨/٣٥ : « وفاة يزيـــد بن عبد الملك » ٨/١٢٩ : « وفـــاة هشـــام بن عبد الملك » ٨/١٤١ : « مقتل الوليـــد بن يزيد بن عبد الملك » ٨/١٤١ : « وفاة يزيد (الناقص) ابن الوليـــد بن عبد الملك » ٨/١٩٠ : « مقتل مروان بن محمد بن مروان » .

وذكر وفيات الخلفاء العباسيين فى الفتوح ٨/٢١١ : « وفاة أبى العباس السفاح » ٨/٢٣٨ : « وفاة أبى جعفـــر المنصور » ٨/٢٤١ : « وفاة محمد المهدى » ٨/٢٤٢ — ٢٤٣ : وفاة موسى الهادى بن المهدى » . ٨/٢٨٥ : « وفاة هـــارون الرشـــيد بن المهدى » ٨/٣٠٨ — ٣٠٩ : « وفاة محمد الأمين بن الرشيد » ٨/٣٣٩ — ٣٤٠ : « وفاة عبد الله المأمون ابن الرشيد » .

وأما ما سوى ذلك من التواريخ التى ذكرها فهى واحد وعشرون خبرا تناثرت فى بعض أجزاء الفتوح ، وهـــا هى ذى مواضعهـــا منه : ١/٢٦٦ ، ٢/١٢٧ ، ٢/٢١٠ ، ٢/٣٤٧ ، ٢/٤٩٥ ، ٤/٢٩٩ ، ٦/١٥٩ ، ٦/٢٧٩ ، ٧/٨٤ ، ٧/٢٠٤ ، ٧/٢٤٩ ، ٨/١٣٧ ، ٨/١٣٨ ، ٨/١٤٢ ، ٨/١٧٩ ، ٨/٢٥٣ ، ٨/٢٧٣ ، ٨/٢٩٥ ، ٨/٣٠٠ ، ٨/٣٠٨ ، ٨/٣١٧ — وبتأمل هذه المواضع جميعا نجد أن أكثرها قد ورد فى الجزء الثامن (الاخير) من الفتوح بينما تناثرت بقيتها فى سائر أجزاء الكتاب (السبعة) . مما يشير بقوة الى ما سبق أن لاحظناه ، ونبهنـــا اليه ، من تميز واختلاف الجزء الأخير أو بعضه — عن الاجزاء السبعة الأولى من هذا الكتاب ، ويقوى ويؤيد الاحتمـــال الذى نعتقد أنه وارد لا يمنع منه مانع ، ونرجح فيه أن قدرا كبيرا من الجزء الثامن مدخول على كتاب الفتوح ... انظر ص ٥٣ من هذا البحث .

وأما الثانية فانه على الرغم من أن ابن أعثم يذكر مواقع الحوادث والأخبار التى يدونها فى الفتوح ، فان بعض ما ورد من هذه الاخبار ، لم يشتمل على هذا العنصر المكمل لبناء النص التاريخى الذى يعتد به ، ويكون به موضع القبول لدى النقاد والباحثين ، ومن الأمثلة على ذلك ، ما ذكره تحت عنوان « ذكر الحبشة وما كان من غاراتهم على سواحل المسلمين » (٨٠) . ان الاهتمام بالجانب الجغرافى فى فتوح بن أعثم فاتر ، وغير معنى به الى حد كبير ، وآية ذلك ، أنه بينما يمضى فى سرده لأخبار الفتوح فى الجبهة العراقية ، اذا به فجاءة ومن غير تمهيد ينتقل الى الشام ، ويأخذ فى عرض مسيرة الفاتحين هناك ، ثم يعود مرة أخرى الى ما كان فيه أولا من حديث الفتح فى العراق أو فارس ، دون مقتض لهذا الانتقال المفاجىء ، أى الوحدة أو التسلسل الجغرافى لا يؤبه له لديه ، ولا يخفى أن من شأن ذلك تشتيت ذهن القارىء وفقدان الانسجام فى العرض التاريخى لتداخل الاخبار وتشابكها على نحو قد لا يساعد القارىء فى تكوين الصورة المراد تقديمها اليه (٨١) .

---

(٨٠) الفتوح ١١٦/٢ — ١١٧ . ولقد سبق لى أن ناقشت هذا الخبر باستفاضة فى بحث مستقل نشر فى العدد السادس السنة السادسة ١٤٠٢/١٤٠٣هـ بمجلة كلية الشريعة والدراسات الاسلامية بجامعة أم القرى — مكة المكرمة — وكان عنوانه : « نص قديم حول علاقة الحبشة بالدولة الاسلامية فى عهد عثمان بن عفان » .

(٨١) ومن الأمثلة البارزة على ذلك : ما سرده من أخبار الفتوح فى الشام والعراق ، فانه فى ١٦١/١ : انتقل عقب فتح دمشق مباشرة الى العراق لتحرك الفرس بها ، وبعد موقعة الجسر وما لقى المسلمون فيها ، وتعيين سعد بن أبى وقاص لقتال الفرس — يعنى فى القادسية — تركه وجنده زاحفين نحو عدوهم (١٧٤/١) ، وانتقل بنا فجأة الى الشام مرة أخرى ليتحدث عن تحرك الروم بأرض الشام من أرض فلسطين ، ومن أرض فلسطين ، انتقل (١٧٦/١) الى ذكر الوقعة بمدينة بعلبك .

=

كذلك يؤخذ على نهج ابن أعثم فى عرضه للتاريخ — وهو شبيه بما رأيناه فى الملاحظة السابقة .

— تداخل الأخبار بعضها فى بعض ، وترك بعضها قبل الفراغ منها ، والاستطراد فى موضوع آخر قد تربطه بالموضوع الأول صلة ، وقد لا تكون هناك صلة بينهما فاذا ما انتهى من ذكر هذا الاستطراد ، عاد مرة أخرى الى حديثه الذى كان فيه أولا ! ومن آثار هذا الأسلوب — كما هو ظاهر — أنه يؤدى الى توزيع فكر القارىء وتشتته ، وفقدان النسق والترتيب المنظم الذى يربط الحوادث بعضها ببعض ، ويجعل التاريخ سلسلة متتابعة الحلقات ، لاشذوذ بينها ولا خروج عليها . وهذا الاستطراد أمر شائع يكثر وروده فى كتاب الفتوح ، نشير الى بعض أمثلته فى الحاشية التالية (٨٢) .

=

ثم عاد مرة أخرى (١٩٥/١) الى ذكر مسير سعد بن أبى وقاص الى القادسية ونزوله عليها ومحاربتهم .

وفى الجزء الثانى ص ١ — ٣ : بعد أن تحدث عن نشاط عمرو ابن العاص فى غرب مصر ، وفتوحه فى أرض البربر — حديثا لاضابط ولا دقة فيه — كتب الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بهذه الفتوح ، وأنه مقيم على باب برقة الى ان يرد عليه كتاب أمير المؤمنين فينتهى الى أمره .. فيترك ابن أعثم عمرا وجنده ولا يتابع هذا الحديث عن افريقية ، وانما ينتقل مباغتة الى العراق ليتحدث عن تحرك الأعاجم بها ! ؟ .

(٨٢) قصة الهلقام بن الحارث الأزدى — الفتوح ١٠٤/١ — ١١٤ ، ذكر ما كان من زريب بن برثملا ، وكلامه للمسلمين — فتوح ٢٨١/١ — ٢٨٤ ، ذكر ما قاله على بن أبى طالب رضى الله عنه فى مسجد الكوفة ٢٨٦٦/١ — ٢٨٨ ، خبر نصر بن الحجاج السلمى وما كان من أمره — فتوح ١٥/١ — ١٨ ، حديث العنزى ٢٨/٢ — ٣١ ، خبر النخيرجان وقصته — فتوح ٥٩/٢ — ٦٢ ، ذكر كلام على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وما خبر به من أمر خراسان ، وما ذكر من فضائلها ومثالبها ٧٨/٢ — ٨١ ،

=

ومن أهم ما لاحظناه على العرض التاريخى الذى قدمه ابن أعثم

خبر الوليد بن عقبة بن أبى معيط وسبب عداوته مع على بن أبى طالب — ٣٥٣/٢ — ٣٦٠ خبر الطائى مع معاوية ٣٦٠/٢ — ٣٦١ ، خبر أربد الفزارى مع على بن أبى طالب ٣٦٢/٢ — ٣٦٣ ، خبر أويس القرنى — فتوح ٤٥١/٢ — ٤٦٠ ، خبر الراهب والعين ٤٦٨/٢ — ٤٧٠ ، خبر هشام بن عبد الملك ٤٨١/٢ — ٤٨٧ . حديث سودة بنت عمارة الهمذانية مع معاوية — فتوح ٨٩/٣ — ٩٣ ، حديث أم سنان المذحجية مع معاوية ١٠١/٣ — ١٠٥ ، ذكر ما جرى من المناظرة بين أبى نوح وذى الكلاع الحميرى ١١٤/٣ — ١٣٢ ، حديث عدى بن حاتم الطائى مع معاوية ١٣٤/٣ — ١٣٥ ، حديث الزرقاء بنت عدى الهمذانية مع معاوية ١٤٢/٣ — ١٤٥ ، حديث عبد الله بن هاشم مع معاوية ٢٠٤/٣ — ٢٠٧ خبر غرار بن الأدهم ٢٣٥/٣ — ٢٤٣ ، خبر عبد الله بن أبيه وأبى الأسود الدؤلى وما جرى بينهم ٧٢/٤ — ٧٥ خبر الخريت بن راشد وخروجه على على بن أبى طالب وخلافه عليه ٧٥/٤ — ٧٨ ، خبر مصقلة بن هبيرة الشيبانى وما كان منه الى على وهربه الى معاوية ٧٨/٤ — ٨٨ ، مسير عبد الله بن أبى عقب الى الخوارج وما جرى بينهم من المناظرة ١٠٨/٤ — ١٢٧ ، ذكر زياد بن أبيه حين كان مع على بن أبى طالب ، وكيف اعاده معاوية بعد ذلك وزعم أنه أخوه ١٦٩/٤ — ١٧٦ ، ابتداء أخبار مقتل مسلم بن عقيل والحسين بن على وولده وشيعته من ورائه ، وأهل السنة ، وما ذكروا فى ذلك من الاختلاف ٢٠٩/٤ — ٢٢٤ ، ذكر عبد الله بن عفيف الأزدى ورده على ابن زياد ومقتله رحمه الله ٢٢٩/٥ — ٢٣٥ ، ذكر ما جرى بين محمد بن الحنفية ، وعبد الله بن الزبير وما كان فى أمر البيعة وما كان بينهم من العداوة والبغضاء ١٢٥/٦ — ١٣٠ ، خبر سراقة بن مرداس البارقى ١٥٢/٦ — ١٥٥ ، ابتداء خبر عبيد الله بن الحر الجعفى ١٦١/٦ — ١٧٣ ، خبر عمير بن الحباب السلمى ١٧٤/٦ — ١٧٥ ، ذكر الأسود الذى كان يقطع الطريق واسمه الغداف ، وكيف قتله عبيد الله بن الحر — ٢٢٧/٦ — ٢٣١ ، ذكر ما جرى بين عبد الله بن عباس ، وابن الزبير فى أمر محمد بن الحنفية ٢٤٨/٦ — ٢٥١ ، ما جرى بين ابن عباس ، وابن الزبير أيضا من كلام قبيح ٢٥١/٦ — ٢٥٣ ، ذكر كلام الشعبى بين يدى عبد الملك بن مروان ٢٧٠/٦ — ٢٧١ ، خبر سبرة بن الجعد مع

الكوفي فى « فتوحه » : أنه عرض يفتقر — بصورة واضحة — الى التوازن بين حظوظ الدول الاسلامية التى عالج تاريخها فى هذا السفر الكبير ، فاذا علمنا أن الكتاب قد استهل مباحثه « بذكر ابتداء سقيفة بنى ساعدة ، وما كان من المهاجرين والأنصار » ، واختتمها بذكر « خلع المستعين بالله نفسه من الخلافة » فى عام ٢٥٢ هـ ، فان ذلك يعنى أنه أرخ لدولة الخلفاء الراشدين ، التى فازت بما يقارب نصف محتوى الفتوح ، أى الأجزاء الثلاثة الاولى ، وأكثر من نصف الجزء الرابع ، ونالت خلافة الحسن بن على بن أبى طالب قرابة العشرين صفحة من نفس الجزء . وملأت أخبار الدولة الأموية المائة صفحة الأخيرة من الجزء الرابع والأجزاء الخامس ، والسادس

=
الحجاج بن يوسف ٤٦/٧ — ٥١ ، خبر الجاريتين ابنتى تبع الحميرى وخبر محمد بن يوسف أخى الحجاج ، وخبر السيف ٥٢/٧ — ٥٣ ، ذكر عمران بن حطان الخارجى ٩٨/٧ — ١٠٧ ، ذكر وفاة المهلب بن أبى صفرة ووصيته عند موته ١١٩/٧ — ١٢٢ ، ذكر مقتل سعيد بن جبير رحمه الله ١٥٨/٧ — ١٦٧ ، ذكر نيزك البرقشي وهربه من معسكر قتيبة ٢٢٥/٧ — ٢٢٩ ، خبر المنطقة ٢٣٠/٧ ، ذكر حبس الكميت رحمة الله عليه ٨٢/٨ — ٩٤ ، ذكر أخبار الكميت فى أهل البيت رضى الله عنهم وهى أخبار حسان منتخبة ٩٤/٨ — ١٠٨ ، ذكر أخبار سديف بن ميمون ١٩٦/٨ — ٢٠١ ، خبر السيد بن محمد الحميرى ٢٠٥/٨ — ٢٠٦ ، خبر عبد الله بن سعيد السعدى ٢٠٦/٨ — ٢٠٧ ، ذكر مقتل عبد الله بن المقفع ٢١٨/٨ — ٢١٩ ، ذكر تزويج يزيد بن أسيد بن زافر السلمى الى ملك الخزر ٢٢٩/٨ — ٢٣٠ ، ذكر موشابذ البطريق ومحمد بن الحسن ابن قحطبة ٢٣٤/٨ — ٢٣٥ ،حكاية الامام الشافعى مع الرشيد ، وأيضا خبر الشافعى رحمة الله عليه ٢٤٥/٨ — ٢٥٤ ، خبر خالصة وحديثها للاحمر ٢٦٨/٨ — ٢٧٠ ، وهذا خبر حسن ٢٧٠/٨ — ٢٧٢ ، ذكر خبر الأصمعى فى قتل جعفر بن يحيى البرمكى ٢٧٤/٨ — ٢٧٨ ، خبر الشعراء الثلاثة وهم أبو نواس والرقاشى ومصعب مع محمد الأمين ٢٩٠/٨ — ٢٩٥ .

والسابع كاملة ، مضافا اليهــا النصف الأول من الجزء الثامن ــ والأخير ــ من الفتوح ، أى الى ص ١٧٧ • وأخيرا كان حظ العباســيين فى الكتاب أقل الحظوظ جميعــا ؛ لا يزيــد عن نصف الجزء الأخير منه ، على الرغم من أن الفترة الزمنيــة الخاصــة بهم فى الفتوح ، أطــول من عمر الدولتين السابقتين معا ! وعلى الرغم ــ كذلك ــ من أنــه كان يفترض أن عصر العباسيين هو أقرب العصور الى حياة ابن أعثم ؛ ومن ثم تكون مصادره أكثــر وأسهل منالا ، فتغزر مادته التاريخية عن ذلك العصر ، لكن الواقــع أنه جــاء على العكس من هذا التوقــع الفرضى ! ولعل فى ذلك ما يشير ــ مــرة أخرى ــ الى ملاحظتنــا التى أبديناها آنفا ، عن تميز واختلاف محتوى الجزء الأخير من الفتوح عن سائر أجزائه السبعة الأولى وذلك يؤيد احتمال أن كثيرا من محتوى هــذا الجزء مدخول على الفتوح ، وليس من أصله ! (٨٣) •

أســلوب ابن أعثم :

الحق أن أسلوب ابن أعثم الكوفى ــ فى الفتوح ــ مثير للحيرة والشك والتســاؤل ، ومبعث ذلك أن الباحث الناقــد يرى أن الصيغة التى كتب بهــا هذا السفر التاريخى غريبة ــ أى غرابة ــ على كتاب القرنين الثالث والرابع للهجرة ، ويراهــا كذلك مختلفــة عن ذلك الأسلوب الذى كانوا يصنفون به تصانيفهم الرفيعة القيمة ؛ ويصوغون فى قالبه كتبهم المتخصصــة أو الموسوعية الشاملة الجامعة ، وذلــك كأمثال الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) ومصنفاته الغزيرة ، وابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) وعديد كتبه ، والطبرى (ت ٣١٠ هـ) وآثاره المتنوعة ، وابن عبد ربــه (ت ٣٢٨ هـ) وعقده الفريد ، والمسعودى (ت ٣٤٦ هـ) ومؤلفـــاته المشهورة ، وغير هؤلاء كثيرون قــد عرفناهم ــ بحمد الله وفضله ــ بوســاطة آثارهم التى دلت عليهم ، وعلى عصرهم ، الذى تناولناه فيما سلف من القول •

---

(٨٣) انظر ص ٥٣ من هذا البحث .

ولقد تميزت الكتابة فى ذلك العصر بخصائص النثر الفنى الرفيع، من القصد مباشرة الى مخاطبة العقل والوجدان ، وتحقيق المتعة الذهنية ، واثراء فكر القارىء بالرغبة الحقيقية فى توصيل كل ابداع جديد اليه ، من خلال ما يقدمه الكاتب من نتاج يضيف الى عالم الفكر والمعرفة شيئا جديدا • وكل ذلك انما كان فى قالب فنى مشرق، وأسلوب سهل ممتع ، يعتمد الألفاظ الدقيقة الرشيقة المؤدية للمعنى المراد ، وتركيب واضح الدلالة ، لا تعقيد فيه ، ولا ابهام يغلفه ، ولا غموض يحيط به ، وايجاز يتحقق به التيسير على القارىء فيصل — دون عناء — الى ما قصد الكاتب التعبير عنه ، فى بساطة وعدم تكلف ، ينصرف بالكاتب عن الوحشى من الكلمات ،والأسجاع المصنوعة ، التى تبتعد بالقول عن وجهته ، وتسرع بالملل الى نفس القارىء ، فتعكر صفو ذهنه ، وتباعد بينه وبين المتعة المنشودة •

فأين أسلوب ابن أعثم فى « فتوحه » من ذلك كله ؟ هذا هو التساؤل الذى طرحناه آنفا ، وهو الذى يبعث فى النفس الحيرة ، ويطلق اليها الشك فى حقيقة أسلوب هذا الكتاب ، وصحة انتمائه الى ذلك العصر الذى يعد من أزهى عصور الكتابة والتأليف فى تاريخ اللغة العربية ! ؟ •

مما لا ريب فيه ، أن اعتماد ابن أعثم فى كتابه هذا القصة المتخيلة ، والرؤيا المزعومة ، والهاتف الوهمى أساسا فى العرض التاريخى ، وتقديم المعرفة بأخبار الماضين ، خطأ جسيم لا يقبله العقل، ولا يعترف به ، ولا يؤسس رصيده العلمى عليه ، فابن أعثم اذن مجانب للعقل فى أسلوبه مخاصم له ، وسوف نرى فى الفصل الرابع من هذا البحث ، نماذج لما حاول أن يقدمه الينا على أنه تاريخ ، وهو فى الواقع : قصص تاريخى ، أو تاريخ قصصى [٨٤] ، لعب الخيال فيه

---

(٨٤) بروكلمان : دائرة المعارف الاسلامية ١/٩١ •

الدور الأكبر ، كما استخدم الرؤيا والهواتف عنصرا فى بنـاء بعض أخباره (٨٥) .

كذلك نلاحظ — بقوة — أن طابع الاثارة مظهر غالب على أسلوب هذا الكتاب فى كثير جدا من مباحثه ، ورواياته ، ولنقرأ معا هـذه الأمثلة من الفتوح ، لندرك أنه كان يقصـد ذلك قصدا ، وأنـه قد تكلفه ، ليثير به القارىء ، ويحشـد حماسـه ، فيقول وهو يعـرض خبر سقيفة بنى سـاعدة ، بعد أن اجتمـع الناس فيهـا : ... ثـم وثب أسيد بن حضير الأنصـارى ، الأوسى — وكان مقبول القول عنـد الأنصـار ، وأهل الطاعة فيهم — فقـال : يا معشر الأنصـار ... فوثب اليه نفر من الأنصـار فأغلظوا لـه فى القول وسكتوه ، فسكت . ثم وثب بشيربن سعد الأنصارى الأعور — وكان أيضـا من أفاضـل الأنصـار — فقال : يا معشر الأنصار ... ، ثـم وثب عويم بن ساعدة الأنصارى ... فقال : يا معشر الأنصار ... ثم وثب معن بن عدى الأنصـارى ، فقال : يا معشر الأنصار ... الخ الخبر (٨٦) . وهـكذا لا يتحدث أحد من هؤلاء الصحابة الا بعد أن يثب !! ومثل هـذا المشهد تجده فى مواضع أخرى بالكتاب ، كالذى كان حين اجتمـع أمير المؤمنين عمر بالصحابة للتشـاور فى كيفية مواجهة الحشود الفارسية فى نهاوند عـام ٢١ هـ (٨٧) .

كذلك فان كثيرا من الأشعار والأرجاز التى لـم تعرف لاحـد الشعراء المعروفين ، ونسبهـا صاحب الفتوح الى بعضهم أو الى المجاهيل من الشعراء ، هذا الشعر انما تضمن الاثارة البالغـة ، والتحـريض

---

(٨٥) راجع ما عرضناه من أمثلة لذلك فى الفصل الرابع .

(٨٦) الفتوح ٣/١ — ٤ .

(٨٧) الفتوح ٣٥/٢ — ٣٩ .

الصارخ فى مواقف الصدام والحرب ، وقد حشد بن أعثم منه قدرا هائلا فى أجزاء الكتاب كلها الا الجزء الاول ، فان ما تضمنه من الشعر قليل [٨٨] .

وفى عديد من فقرات الكتاب ، يصدمك أسلوب الفتوح ، بسخف تراكيبه ، وثقل عباراته ، وركاكته الواضحة البينة ، مع اسهاب ممل، يثير السآمة فى النفس ، وسجع متكلف مجاف للذوق الأدبى الذى ينبغى أن يتحلى به كاتب من رجال القرنين الثالث والرابع للهجرة [٨٩] .

ولعل فى هذه الأمثلة المختارة التى نعرضها بين يديك من نص الفتوح ما يغنى عن جميعه ، فمن ذلك قوله — على لسان عبد الملك بن مروان — : « أيها الناس ، ان العراق قد تكدر ماؤها ، وظهر جدبها ، وملح عذبها ، وبدا وميضها ، واشتد ضرامها ، وكثر لهبها ، وثار قتامها، وعظم شررها ، وعلا أمرها ، وأبرق (كذا) رعودها ، وكثر وقودها ، بحطب حى ، وجمر ذكى ، ودخان وهى ... الخ الخطبة » [٩٠] .

وقوله — على لسان الحجاج بن يوسف الثقفى — : « أنا للعراق يا أمير المؤمنين فولنى اياها ، فأنا الليث القمقام ، والليث الضرغام ، والسيف الحسام ، الهشام للعظام والهام ، وأنا فراج الصفوف ، وقاتل

---

(٨٨) وانظر ما أوردناه من نماذج هذا الشعر فى مبحث « هل كان ابن أعثم الكوفى شاعرا ؟ » بالفصل الأول من هذا البحث . وما قدمناه من شعر ورجز فى الفصل الخامس من بحثنا هذا .

(٨٩) لقد غضضت الطرف عن التعليق على ما رأيت أنه خطأ وقع فيه مصححو الكتاب ، ولم أدخله ضمن المآخذ الأسلوبية ، وان كانت هذه الأخطاء كثيرة ، كذلك سكت عن ذكر الأخطاء اللغوية التى تتناثر بغزارة فى ثنايا الفتوح ، مما يؤكد الحاجة الماسة الى اعادة نشر هذا الكتاب محققا تحقيقا علميا ، يقوم به مؤرخون على دراية كافية بالتحقيق العلمى ، وقدرة على ضبط المشكل من النصوص الواردة فى الكتاب ، وما أكثرها ..

(٩٠) الفتوح ١/٧ — ٢ .

الألوف ، ومأوى القرى والضيوف ، وخلس الحمام والحتوف ، والقنا والسيوف !! » ، ثم قوله كذلك عن الحجاج : « أنا لها يا أمير المؤمنين ، فولنى اياها ، فأنا الليث الغشمشم ، والقــرن المنتقم من الظــالم الخائن ، والغادر الآفن ، أنا ذو النفاذ واللسان ، والعدل والاحسان ، والسرعة الى الأقران عند تشاجر المران » (٩١) .

ومن ركيك أسلوب الفتوح — مع الاثارة الواضحة فى ذكر الرؤيا والهاتف ! — ما رواه على لسان المثنى بن حارثة الشيبانى ، أنــه « رأى فى منامه رؤيا هالته ، وأفزعته ، فلما أصبح بعث الى وزرائه ، فجمعهم اليه ، ثم قال لهم : اعلموا أنى قــد رأيت رؤيا ! فقالوا : وما الذى رأيت أيها الأمير ؟ قال : رأيت كأن (رجلا) من أحسن الناس قد أقبل ومعه لــواء ، فدفعه الى ، وقال : ذل أهل فارس ، كذلــة الهجارس (٩٢) ، وزال ملكهم ، وحان هلكهم ، فارحل ناجيا ، وامض سائرا ، واستخبر خبرا ، واستنصر عمرا ! ؟ وأنا أظن ملك الفرس قد زال ، وعزهم قد حال . فقالت له المشايخ من قومه : صدقت رؤياك ، ونامت عيناك ، وسر الى عمر ! وركب المثنى بعيرا له ، وسار مع جماعة من أصحابه يريد المدينة الى عمر بن الخطاب ، فبينا هو يسير اذ غلط عن الطريق هو ومن معه ، فبينما هو كذلك ، اذ سمع هاتفا يهتف من الجادة ، وهو يقول أبياتا من جملتها :

والفرس قد خذلت رايات نصرتها   وان ملك بنى ساسان قد مرجا

---

(٩١) المصدر السابق ٢/٧ — ٣ . ولأقوال الحجاج بقية طويلة ، تركت ذكرها خشية الاطالة ، ويمكن قراءتها فى موضعها المذكور من الفتوح وسوف نعود الى ذكر هذه القصة بتمامها ونعلق عليها فى الفصل الرابع من بحثنا هذا .

(٩٢) الهجارس : جمع هجرس : وهو الثعلب ، أو ولد الثعلب ، وهو أيضا القرد . الجوهرى : الصحاح ٩٩٠/٣ ، ولسان العرب ١٣٣/٨ (هجرس) .

فاتبع المثنى الصوت حتى وصل الى الطريق ، ثم سار مجدا حتى قدم على عمر بن الخطاب رضى الله عنه ! [(٩٣)] .

ومن هذه النماذج أيضا : كتاب ، زعم ابن أعثم أن خالد بن الوليد أرسله الى أبى بكر يخبره بوقعة أجنادين [(٩٤)] ، يقول فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله بن عثمان خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من خالد بن الوليد ، سيف الله المصبوب على أعداء الله المشركين ، سلام عليك ، أما بعد ، فانى أخبرك أيها الصديق ، أننا لقينا المشركين بموضع من أرض الشام يقال له : أجنادين ، وقد جمعوا لنا جموعهم ، ورفعوا صلبانهم ، ونشروا أناجيلهم ، وتقاسموا بأيمانهم أنهم لا يفرون ولا يبرحون ، ولا ينصرفون حتى يقتلونا ويبيدونا ويخرجونا من بلادهم ، فلقيناهم ونحن بالله واثقون ، وبحبله معتصمون ، وعليه متكلون ، فطاعناهم بالرماح ، وكافحناهم بالصفاح ، وأرميناهم بالسهام ، وأذقناهم حر الحمام . فلم نزل كذلك حتى أعز الله عز وجل نصرة الاسلام ، وأظهر أمره ، وأنجز وعده ، وأفلح جنده ، وهزم الكافرين وحده ، فقتلنا فى كل وادح وحجر ، وتحت كل شجر ومدر ، فاحمد الله عز وجل يا خليفة رسول الله على اعزاز دينه وأوليائه ، واذلال أعدائه ، وحسن صنعه بالمسلمين ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته [(٩٥)] .

ومن هذا القبيل ما قاله ابن أعثم : « فلما ورد كتاب هشام (بن عبد الملك) على سعيد بن عمرو ، وقرأه ، وثب قائما ، واستوى على بغل له ، وأمر بنى عمه بالركوب ، فركبوا ، وسار حتى قدم على

---

(٩٣) الفتوح ١/١٦٢ — ١٦٣ .

(٩٤) أجنادين : موضع من فلسطين قريب من الرملة ، وهو من كورة بيت جبرين . ياقوت : معجم البلدان ١/١٠٣ — ١٠٤ .

(٩٥) الفتوح ١/١٤٨ .

هشام بن عبد الملك ، وهشام يومئذ على موضع يقال له الرصـاغة ، فاستأذن ، فأذن له ، فدخل ، وسلم ، فرد عليه هشام السلام ، ثم أمر بالجلوس ، فجلس ... الخ القصة »[٩٦] .

وقـدر عظيم من الشـعر الكثير الذى حشـده ابن أعثم فى الفتوح ، لا يقل فى ضعفه وركاكته وتهافته عن النثر الذى تحدثنـا عنه ، وقدمنا هذه النماذج منه ، ولما كانت مناسبات جل هذه الأشعار فى القرن الأول الهجرى ، فان مؤرخنا لم يتحرج أن ينسب طائفة كبيرة منها الى بعض شعراء هذا القرن مثل : قطرى بن الفجاءة المازنى ، والمغيرة بن حبناء التميمى ، وكعب بن معدان الأشقرى ، والصـلتان العبدى ، وعبيدة بن هلال اليشكرى [٩٧] وهم منها برآء تماما ، اذ يعدهم النقاد من فحول الشعراء يومئذ ، ولا يتأتى أن تكون هـذه أشعارهم على الاطلاق .

وهاك بعض الأمثلة من تلك الأشعار التى نحلها ابن أعثم غيره من الشـعراء :

فزعم أن قطرى بن الفجاءة قال :

ألا قل لبشر أن بشرا مصـبح — بخيل كأمثال السراجين شـرب
يقحمها عمرو القنـا ، وعبيـدة — مفدى خلال النقع بالأم والأب
هنالك لا تبكى عجوز على ابنهـا — فبشر بجذع للانوف موعب
ألم ترنا — والله بـالغ أمـره — ومن غالب الأقـدار بالشر يغلب
رجعنا الى الأهواز والخيل عكف — على الخير مالم يرمنا بالمهلب[٩٨]

---

(٩٦) المصدر السابق ٨/٤٣ .

(٩٧) تحدثنا عن هؤلاء الشعراء فى الفصل الخامس من هذا البحث .

(٩٨) الفتوح ٦/٣١٦ .

ونسب الى كعب بن معدان الأشقرى هذه الأبيات :

ان بشرا — والله يرحـم بشرا ويقى وجهـه عذاب الجحيم
وبرى الدهر قوسـه غرمـاه بخطوب من الخطـوب عظيم
فلئن كـانت المنـون أتتـه ان فينـا لمنع هـذا الحـريم
بأبى الحـرب وابنها وأخيها حل فى منصـب واسم كريم
وتمنى غناه فى سـالف الأز د عظـام النهى وأهـل الحلوم
ذاك ذاك المهلب بن أبى صفـ رة فى الحرب كالهزبر الشـنيم
حـاد عنه عبيدة بن هـلال ثم عمرو القنا بأنف رغيـم
واسـألوا عبد ربـه ورءوسا وذرى وائـل وحى تميم
من يقود الجيـاد يعثر فى النقع بفرسانها دوامى الشـكيم
ثم لا أنصرف الأعنـة والخيـل صـحاحا كذا بغير كلـوم (٩٩)

ونسب ابن أعثم هذه الأبيات الى رجل مجهول زعم أنه من أصحاب المهلب بن أبى صفرة ، كما زعم أن اسمه : عوف بن بشر السبتى ! ؟ وفيها يقـول :

قـد نفينا العدو أمس عن الجيـ ش وقد زحزحوا عن الأهـواز
بطعان مهالك القتـل فيـه موشك الحلف للنفوس العـزاز
وببيض تفرى الرءوس من القـو م كأن الضـباب برق الحجـاز
فى مقام أحـر من لهب الجمـر كثير بـه يـد الرحـاز
ان من رد هـؤلاء عن الحـر لأهل الصـلاح والاعـزاز
ذلكم شيخنا المهلب حسـبى من بناتى عليـه بالانجـاز
قـد دعـونا لها الرجال فحاموا دونها فعل خـائفين عجاز
قـد مضى ما مضى وذاك ابن ما حوز صريع لنانتقات الحراز (١٠٠)

---

(٩٩) المصدر السابق ٦/٣٢٠ — ٣٢١ .

(١٠٠) الفتوح ٦/١٧ . وقد سبق أن ناقشنا مسألة الشـعر عنـد ابن أعثم فى الفصل الأول من بحثنا . على أننا سوف نفصل القول — ان شاء الله — فى هذه الأشعار ومناسباتها فى الفصل الخامس من هذا البحث :

وفى هذه الأمثلة كفاء وغناء وتحقيق لما أردنا بيانه ، وايضاحه ، عن أن هـذا اللون من الشعر الهزيل الذى اشتمل عليه كتاب الفتوح ، هو والنثر فيه سواء ..

كلمـــة أخيرة :

والآن ، وبعد أن عرضنا لأسلوب ابن أعثم فى كتابه هذا ، وكشفنا عن درجته ومستواه بين أساليب الكتابة التى كانت سـائدة — على الاجمال — فى عصره ، فلابد من كلمة تقال فى هذه المسألة ، سـيما وقد سبق أن أثرنا الشـك ، وتساءلنا عن حقيقة هذا الأسلوب ، وصحة انتمائه الى القرنين الثالث والرابع للهجرة !

اننا أمام حقيقتين — فى هذه القضية — لا شك فيهما :

الأولى : أن كتاب الفتوح هذا الذى بين أيدينا هو لمؤلفه ابن أعثم الكوفى — الذى عاش فى القرنين الثالث والرابع للهجـرة ، وذلك بشـهادات لا سبيل الى الطعن فيها ، وأولها : شهادة ياقوت بن عبد الله الرومى المتوفى عام ٦٢٦هـ ، التى نص فيها على أنه رأى هذا الكتاب ، ونسبه — مع كتاب آخـر — الى ابن أعثم الكوفى [١٠١] . والثانية : تلك الترجمة الفارسية للفتوح ، وهى التى قام بها محمد بن أحمد المستوفى الهروى فى عام ٥٩٦ هـ ، وقد طبعت هذه الترجمة أكثر من مرة فى مدينة بومباى بالهند فى أعوام ١٢٧٠ ، ١٣٠٠ ، ١٣٠٥هـ[١٠٢] . والشهادة الثالثة : هى وجود تلك النسخ الخطية للفتوح فى أكثر من خزانة لكتب التراث العربى الاسلامى فى أنحاء العالم ، والتى عنها نشر هذا الكتاب الذى بين أيدينا ، وقد أشار اليها ، وحدد أماكنهـا

---

(١٠١) معجم الأدباء ٢/٢٣٠ — ٢٣١ .

(١٠٢) حاج خليفة : كشف الظنون ٢/١٢٣٩ ، بروكلمان : تـاريخ الأدب العربى ٣/٥٦ ، أغابزرك الطهرانى : الذريعة ١٦/١١٩ ، فـؤاد سزكين : تاريخ التراث العربى ٢/١/١٦٩ .

بروكلمان [١٠٣] ، وفؤاد سزكين [١٠٤] فى موسوعتيهما عن التراث العربى •

والحقيقة الثانية : هى أن الأسلوب الذى صيغ به كتاب الفتوح الذى بين أيدينا ، يختلف اختلافا بينا عن أسلوب العصر الذى عرفنا أساليب الكتابة فيه من خلال التراث الذى وصل الينا عن رجاله ، وهو كثير متنوع بحمد الله وفضله !

وكما هو واضح جلى ، فان هاتين الحقيقتين متعارضتان متصادمتان ، فكيف السبيل الى الخروج من هذا الاشكال ؟

اننى أعتقد — والله أعلم بكل الحقائق — أن يدا قد امتدت الى أصل الفتوح الذى كتبه ابن أعثم ، أو أملاه على تلاميذه (؟) ، وأخرجت هذا الأصل عن صورته الأولى ، وذلك بالاضافة اليه ، والزيادة عليه ، اضافة وزيادة مؤسفتين ، قد شوهتا هذا الكتاب الفريد تشويها ، وأصابتاه اصابة منكرة ، جعلته غريبا على عصره ، وأخرجتاه عن أصوله وجذوره التى ينبغى أن يظل مرتبطا بها • وأعتقد أيضا — والله أعلم بكل الحقائق — أن هذه اليد الآثمة ، ان هى الا يد الناسخ ، الذى كتب تلك النسخة التى عنها طبع الكتاب الذى بين أيدينا ، وهو محمد بن على بن محمد الطنبذى الذى كان موجودا عام ٨٧٣هـ ، سنة انتهائه من كتابة الفتوح [١٠٥] ، فهو من رجال القرن التاسع الهجرى ، حيث كانت الأساليب أشبه شىء بالأسلوب الذى أصبح عليه فتوح ابن أعثم الكوفى •

---

(١٠٣) تاريخ الأدب العربى ٣/٥٥ — ٥٦ .

(١٠٤) تاريخ التراث العربى ٢/١/١٦٩ .

(١٠٥) انظر ابن أعثم : الفتوح ٨/٣٥٤ حاشية رقم ٧ . ولم أعثر لهذا الناسخ على ذكر فى المصادر التى تحت يدى . غير أنى وجدت عند ياقوت ما يلى : طنبذة : قرية من أعمال البهنسا من صعيد مصر . وطنبذة أيضا : من نواحى افريقية . معجم البلدان ٤/٤٢ — ٤٣ .

الفصل الثالث

« موقف ابن أعثم الكوفى من الصحابة والتابعين »

تمهيـــــــد :

موقفه السيىء من خالد بن الوليد :

بين زياد بن لبيد وعكرمة بن أبى جهل :

شخصية عثمان بن عفان فى كتاب الفتوح :

الحملة على عمرو بن العاص :

بين عثمان وعلى وأبى ذر :

بين على وعائشة :

وســـاطة لا أصل لها :

بين الحديبية وصفين :

اعتقاد غير صـــحيح :

بين على وابن ملجم المرادى :

وفاة معاوية واستخلاف يزيد :

هل دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على يزيد بن معاوية ؟! :

قصـــة رسالة سرية :

نماذج للغفلة وسوء الحفظ والتشويش والخلط فى التاريخ :

قصـــيدة الفرزدق :

بين يزيد بن معاوية وعبد الله بن الزبير :

مسئولية الشيعة عن مقتل الحسين :

موقف الشيعة من الحسن بن على :

وفاة يزيد فى كتاب الفتوح :

تمهيـــــد :

فى هذا الفصل ، نعرض نماذج وصورا مختلفة ، رسمها ابن أعثم الكوفى — بقلمه هو دون اعتماد على مصدر يرجع اليه ، أو استنادا الى أدلة أو شواهد يعتمد عليها ، أو يعتد بها — لبعض الصحابة الأجلاء ، من منظور شيعى خالص ، وقد حاول فى ذلك أن يحقق غايته الأولى التى سعى اليها من تصنيف كتابه « الفتوح » . فاجتهد فى تشويه هؤلاء الشخصيات ، بما رماهم به من قدح ، وما صب عليهم من طعن ، وما قذفهم به من اساءات ، وما ألصقه بهم من نقائص ، وما نسبه اليهم من مثالب ، حتى تحولوا — بصنيع ابن أعثم هذا — الى صور كريهة ، ومثل غير كريمة ، ونماذج منفرة للرجال !

ان مضمون أقاويل صاحب الفتوح ، حول هؤلاء وغيرهم ممن لم نذكر من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، يصطدم مباشرة بما صح عن رسول الله أنه وصف به أصحابه ، من صورة رائعة ضخمة فخمة للرجال ، الذين ينبغى للمسلم من الطبقات اللاحقة بهم ، أن يجعلهم قدوته ، وامامه ، وأن يجتهد قدر طاقته فى السير على هديهم ، وترسم خطاهم ، وحينئذ يكون مسلما موفقا ، مهديا ، قريبا من الله سبحانه ، فمن ذلك : ما رواه الشيخان فى صحيحيهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تسبوا أصحابى ، لا تسبوا أصحابى ، فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه »[1] . وما رواه عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن رسول

---

(١) صحيح البخارى ١٠/٥ ، صحيح مسلم ١٨٨/٧ (واللفظ له) ، ورواه الامام أحمد فى المسند ١١/٣ ، وكتاب فضائل الصحابة ٥٠/١ — ٥١ ، وابن عبد البر : الاستيعاب ٨/١ ، وابن حجر : الاصابة ١٣/١ ، وشرحه فى فتح البارى ٣٤/٧ — ٣٥ .

الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « سألت ربى فيما اختلف فيه أصحابى من بعدى ، فأوحى الله الى : يا محمد ان أصحابك عندى بمنزلة النجوم فى السماء ، بعضها أضوأ من بعض ، فمن أخذ بشىء مما هم عليه من اختلافهم ، فهو عندى على هــدى » (٢) . ولا نسترســل فى ايراد النصوص الدالة على رفعة شأن الصحابة ، وسمو منزلتهم ، فهى كثيرة وصريحة فى القرآن والسنة على السواء ، وجميعها — كما قال الخطيب البغدادى — يقتضى طهارة الصحابة ، والقطع على تعديلهم ، ونزاهتهم ، فلا يحتاج أحــد منهم — مع تعديل الله تعالى لهم ، المطلع عــلى بواطنهم — الى تعديل أحد من الخلق ... على أنه لو لم يكن من الله عز وجل ورسوله فيهم شىء مما ذكرناه ، لأوجبت الحال التى كانوا عليها — من الهجرة والجهاد والنصرة ، وبذل المهج والأموال ، وقتل الآبــاء والأولاد ، والمناصحة فى الدين ، وقوة الايمان واليقين — القطع على عدالتهم والاعتقاد لنزاهتهم ، وأنهم أفضل من المعدلين ، والمزكين الذين يجيئون من بعدهم أبد الآبدين (٣) .

ولا شك فى أن هذا هو رأى أهل السنة والجماعة — ولله الحمد والمنة — قال الحافظ ابن كثير فى ذلك : « والصحابة كلهم عدول عند أهل السنة والجماعة . وقول المعتزلة : الصحابة عدول الا من قاتل عليا قول باطل مرذول ، ومردود . وأما طوائف الروافض — (الذين منهم ابن أعثم الكوفى) — وجهلهم ، وقلة عقلهم ، ودعاويهم ، ان الصحابة كفروا ، الا سبعة عشر صحابيا ، وسموهم ، فهو من الهذيان بلا دليل ،

---

(٢) عن الشيخ محب الدين الخطيب : مقدمة تحقيقه لكتاب العواصــم من القواصم لأبى بكر بن العربى ص ٣٣ .

(٣) نقلا عن الحافظ ابن حجر العسقلانى : الاصابة ١/١٠ — ١١ ، وانظر أيضا ما نقله وصى الله بن محمد عباس عن الخطيب ، فى مقدمته لتحقيق كتاب فضائل الصحابة ١/١٦ .

الا مجرد الرأى الفاسد ، عن ذهن بارد ، وهوى متبع ، وهو أقل من يرد ، والبرهان على خلافه أظهر » (٤) .

موقفه السىء من خالد بن الوليد :

ولابن أعثم الكوفى غمز شديد مؤلم فى سيف الله المسلول خالد ابن الوليد رضى الله عنه ، قد غمزه فى موضعين أولهما فى حروب الردة — فى قصة مقتل مالك بن نويرة اليربوعى — والثانى ، فى أثناء فتوح الشام ، وسوف نعرض له عقيب مناقشتنا لمسألة ابن نويرة . والحق أنه لو لم يكن هناك جديد فى هذه القضية القديم اثارتها وعرضها ، لكان ينبغى عدم الخوض فيها الآن ، ولكن ابن أعثم دائما له فى كل مناسبة شىء جديد يعرف به ، ويعرف له ! وقد كان له ما أراد هنا ، ولكنها — للأسف — المعرفة التى الجهالة أفضل منها وأحب ، ولأن يكون المؤرخ مجهولا مطوى الذكر أجمل وأوفق له من أن يكون مشهورا بالشتام والعياب ، والسباب ، الذى يتتبع الناس وينال منهم ، كذبا وافتراء !!

قصة مالك بن نويرة :

وتتلخص قصة مالك بن نويرة مع خالد فيما يلى : سار خالد حتى قدم البطاح — موطن مالك وقومه بنى يربوع — فلم يجدهم ، قد أمرهم بالتفرق ، فبث خالد السرايا للبحث عنهم ومعرفة حالهم ، فجاءته سرية بمالك ونفر من قومه ، فسألهم خالد عنهم ، فاختلف أفراد السرية ، فقال بعضهم : أذنوا وأقاموا وصلوا ، يعنى هم مسلمون . وقال الآخرون : لم يفعلوا . فأمر خالد بحبسهم ، وكانت الليلة شديدة البرودة ، فأمر خالد : أدفئوا أسراكم ، فظن القوم أنه أراد قتلهم — وهو يريد

---

(٤) ابن كثير : اختصار علوم الحديث ص ١٨١ — ١٨٢ وراجع احسان الهى ظهير : الشيعة والسنة — طبع لاهور ١٤٠١ هـ — ص ٤٩ — ٥١ .

الدفء — لأن أدفأ فى لغة كنانة تعنى القتل ، فقتلوهم ! فقال خالد بعد أن قضى الأمر : اذا أراد الله أمرا أصابه . ثم تزوج خالد أم تميم زوج مالك ! فقال عمر بن الخطاب لأبى بكر : ان سيف خالد فيه رهق ، وأكثر القول فيه . فقال أبو بكر : هيه يا عمر ! تأول خالد فأخطأ ، فارفع لسانك عنه ، فانى لا أشيم سيفا سله الله على الكافرين .. ثم دفع دية مالك ، وأمر خالدا فجاءه ، فاعتذر اليه فقبل عذره ، فلم يكلمه عمر ، بعد أن رضى أبو بكر بعذره [٥] .

وأما جديد ابن أعثم فى هذه القصة فهو ما قاله خالد بن الوليد فى نهاية الفقرة التالية التى ننقلها عن صاحب الفتوح ، قال : « وتوسط خالد ابن الوليد أرض البطاح ، وبالبطاح يومئذ رجل من أشراف بنى تميم يقال له : الجفول (أى مالك بن نويرة) ، لأنه جفل ابل الصدقة ، ومنع الزكاة ، وجعل يقول لقومه : يا بنى تميم ، انكم قد علمتم بأن محمد بن عبد الله قد كان جعلنى على صدقاتكم قبل موته ، وقد هلك محمد ، ومضى لسبيله ، ولابد لهذا الأمر من قائم يقوم به ، فلا تطمعوا أحدا فى مالكم ، فأنتم أحق به من غيركم ! فلامه بعض قومه على ذلك ، وحمده بعضهم ، وسدد له رأيه بما قال ، فلما بلغ كلامه أبا بكر والمسلمين ازدادوا عليه حنقا وغيظا ! وأما خالد بن الوليد فانه « حلف وعاهد الله عز وجل ، لئن قدر عليه ليقتلنه ، ويجعلن رأسه أثفية للقدور !! [٦] .

وللوهلة الأولى ، يمكن أن ينطبق على هذا اليمين الذى نسبه ابن أعثم الى خالد بن الوليد المثل الشهير « قطعت جهيزة قول كل خطيب » ! [٧] فلو صح —

---

(٥) الطبرى : تاريخ ٢٧٦/٣ — ٢٨٠ ، ابن الأثير : الكامل ٢ / ٣٥٧ — ٣٦٠ ، ابن عبد البر : الاستيعاب ٤٢٩/٢ . أسد الغابة ١١١/٢ ابن حجر : الاصابة ٧٣/٣ .

(٦) الفتوح ٢٠/١ — ٢١ . والأثفية : أحد أحجار ثلاثة توضع عليها القدر ، والجمع أثافى وأثاف .

(٧) مثل يضرب لمن يقطع على الناس ماهم فيه بحماقة يأتى بها . انظر الأمثال للميدانى (قطعت جهيزة قول كل خطيب) .

وهو غير صحيح على الاطلاق — أن خالدا قد أقسم على ذلك ، لردت القضية كلها ، ولصار الكلام فيها لغوا لا مبرر له ، لأن الذى قد بيت النية وأقسم ليقتلن ، وليفعلن كذا بعد القتل ، لا يعنيه أن يكون مالك قد استجاب وصلى أو لم يفعل ! وهكذا ، قلب ابن أعثم بحماقته وسوء رأيه الأمر وأفسده تماما ، وخرج منه بفريته تلك التى لا يمكن اعتبارها ولا مناقشتها !

وأما الذى بسطه المؤرخون فى كتبهم ، وأوجزناه آنفا ، فلابد من تحديد موقف واضح بشأنه ، يحسم به هذا الأمر ، ولقد سبق شيخنا الجليل الدكتور ابراهيم شعوط ، فبحث القضية بحثا مستفيضا ، وانتهى الى القول : « يقينى أن الذين أرادوا السوء بخالد لم يكونوا من الحكمة فى شىء ، حين اضطربت رواياتهم ، وتناقضوا فيها حتى صارت واضحة التزوير والافتراء » (٨) .

وانى لأستأذن أستاذى الفاضل فى السير على هذا الدرب ، وأن أضيف الى ما سبق به ما أعتقد أنه يفصل فى الأمر ان شاء الله . ذلك أن المؤرخين الذين يتحرون الدقة ويجتهدون فى نقل الأخبار الشخصية والسير الذاتية ، حين يواجهون أخبارا قادحة أو نصوصا تنطوى على اساءة وتجريح لصاحبها ، فانهم يقدمونها مسندة الى قائليها حتى لا يتحملوا مسئوليتها ، وأوزارها ، ويرفعوا عن كاهلهم ثقل وطأة العيب فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هكذا فعل شيخ المؤرخين أبو جعفر بن جرير الطبرى ، والمؤرخ الناقد البارع شمس الدين الذهبى (٩) ، وما على القارئين والباحثين

---

(٨) اقرأ هذا النقد فى كتابه : أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ — الطبعة الأولى — ص ٢١ — ٢٨ .

(٩) تاريخ الرسل والملوك ٢٧٦/٣ — ٢٨٠ ، سير أعلام النبلاء ٣٧٦/١ — ٣٧٧ .

بعدئذ الا أن يتعرفوا على هؤلاء الرواة ويعلموا حالهم ورأى النقاد فيهم فان كانوا من الثقات والمقبولين الصادقين ، والا رفضت رواياتهم ورد ما فيها عليهم ، فهذا حق واجب الأداء لمن تناولهم المؤرخون ونقلة الأخبار بألسنتهم ، كما أن هذا واجبنا نحن الباحثين فى كل عصر ، وأمام كل قضية ، طالما أن كتب التاريخ قد حشيت بمثل ما يطلع علينا به ذلك القصاص المؤرخ ابن أعثم الكوفى ! .

وقد تتبعت اسانيد الروايات التى أساءت الى خالد بن الوليد رضى الله عنه فى مسألة قتل مالك بن نويرة ، وما تعلق بها من أقوال شديدة الأثر منسوبة الى كبار الصحابة وزعمائهم ، تقدح فى خالد قدحا قاسيا ، تأباه أحوال هؤلاء الرجال الذين صحبوا رسول الله وأخذوا عنه ونهلوا من مورده الربانى الخالص ! .

فأما روايات الطبرى ففى اسنادها : سيف بن عمر الضبى ، الأسيدى ، الكوفى ، المتوفى سنة ٢٠٠ هـ ، وهذه أقوال النقاد عن حاله : قال يحيى بن معين : سيف بن عمر — يحدث عنه المحاربى — وهو ضعيف » [١٠] ، وذكره يعقوب بن سفيان فى باب « من يرغب عن الرواية عنهم » يعنى المتروكين [١١] . وقال عبد الرحمن بن أبى حاتم الرازى : متروك الحديث ، يشبه حديثه حديث الواقدى [١٢] . وهو عند الدارقطنى على بن عمر البغدادى : من الضعفاء والمتروكين [١٣]. وقال الذهبى : تركوه ، واتهم بالزندقة [١٤] . وقد أورد الذهبى روايتين فى سنديهما سيف بن عمر هذا ، فهما تلحقان بما رواه

---

(١٠) تاريخ يحيى بن معين ٣/٤٦٠ — رقم ٢٢٦٢ .

(١١) كتاب المعرفة والتاريخ ٣/٣٩ .

(١٢) الجرح والتعديل ٢/١/٣٧٨ .

(١٣) الضعفاء والمتروكون ص ٢٤٣ — رقم الترجمة ٢٨٣ .

(١٤) ديوان الضعفاء والمتروكين ص ١٤٠ — رقم ١٨٤٥ .

الطبرى عنه ، وكلهـا اسنادها ضعيف لضعف سيف ، حتى وان كـان بقية رجالهـا من الثقات ..

وكذلك أورد الطبرى رواية أخرى فى المسألة عن محمد بن حميد الرازى المتوفى سنة ٢٤٨ هـ ، وأكثـر النقـاد يرون ترك حديثه ، لأنه فى رأيهم : متهم بالكذب ، بـل قال صالح بن محمد الأسدى « ما رأيت أحذق بالكذب من سليمان الشـاذكونى ، ومحمد بن حميـد الرازى ، وكان حديث محمد بن حميـد كل يوم يزيد » ، وقال أبو أحمـد العسال سمعت فضلك يقول :

« دخلت على ابن حميـد وهو يركب الأسـانيد على المتون » . وقال الذهبى : « وهو مـع امامته منكر الحديث ، صاحب عجائب » (١٥). وترتيبا على ذلك ، وبسبب ضعف أسانيد هذه الروايات فلا مجـال لتصديقهـا ، وحينئذ تسقط ، وينتهى ذلك الجـدل الخبيث حـول طهارة خالد بن الوليـد ، وصدق ايمانه ، وشـدة بأسـه فى سـبيل الله وحده ، لا من أجل امرأة ينكحهـا !! .

قصة كتاب من خالد الى الصديق :

كانت معركة أجنادين فى عام ١٣ هـ (١٦) بين المسلمين وبين الروم،

---

(١٥) ابن أبى حاتم : الجرح والتعديل ٢٣٢/٢/٣ — ٢٣٣ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ٥٠٣/١١ — ٥٠٦ ، ديوان الضعفاء والمتروكين ص ٢٧٠ رقم ٣٦٨٠ .

(١٦) قد اختلف المؤرخون فى ترتيب فتوح الشـام بصورة واضحـة ، ومن بينهـا أجنادين ، فقـد قيل انهـا وقعت عقب اليرموك فى سنة ١٣ هـ وقيل بل كانت فى سنة ١٥ هـ . وأجنادين : بين الرملة وبيت جبرين بفلسطين انظر خليفـة بن خياط : تاريخ ص ١١٩ ، الطبرى : تاريخ ٤١٥/٣ — ٤١٨، ٦٠٥ — ٦٠٦ . ابن الأثير : الكامل ٤١٧/٢ — ٤١٨ ، ٤٩٨ — ٤٩٩ . ياقوت : معجم البلدان ١٠٣/١ — ١٠٤ .

من كبريات الوقائع التى شهدتهـا الجبهـة الشامية ، وأبلى المسلمون أعظم البلاء فى ذلك اليوم ، وكان القائد يومئذ خالد بن الوليـد . فلما فتح الله عليه وعلى جنده بالنصر المبين وأقر عيونهم بهزيمة الكافرين ،كتب — كما جرت بذلك عادتهم — الى خليفـة رسول الله صلى الله عليـه وسلم يبشره بالفتح ، ويخبره بمـا كان من أمر المسلمين وأمر أعدائهم فى أثناء القتال وبعـد انتهائه ، ويطلب رأيه فى الخطوة التاليـة .. ولم يكن هـذا أول كتاب يبعث به خالد الى الصديق رضى الله عنهمـا ، فى مثـل هذه المناسبة ، فكم من انتصـار حققه خالد سواء فى الجبهة العراقية أو فى الشـام ، أو قبل ذلك فى حروب الردة ، وعقب كل وقعة من تلك الوقائع ، كان لابد أن يكتب القـائد الى الخليفـة يخبره ، ويبشره ، ويطلب الأذن بالتحرك حسبما تقتضى ظروف وأوضاع العدو ، أو حسبما يرى الخليفـة رأيه . ولمـا كانت هذه الرسـائل المتبادلة بين القادة والخلفاء مما تقتضيه ضرورة التنسيق والترتيب اللازمين لسير الأمور على نحو طيب . وكانت نصوص هذه الرسائل لا تخرج عن هذا الاطار — الاخبار ، والبشرى ، وطلب التعليمات الجديدة — فقلما ذكـر المؤرخون فحوى هذه الرسائل بالتفصيل ، فلا أهمية لذلك فى غـالب الأحوال (١٧) .

أما ابن أعثم الكوفى ، فقـد طلع علينـا — وحده — بنص كتاب فريد غريب ، كتبه خالد بن الوليـد عقب أجنادين الى أبى بكـر رضى الله عنه ، وأتبع ذلك بذكـر تعليق على الكتاب من عمـر بن الخطاب ،

---

(١٧) على سبيل المثال : حين فتح الله على المسلمين دمشق سنة ثلاث عشرة ، قال المؤرخون : « وأرسل أبو عبيدة الى عمر بن الخطاب بالفتح ، فوصل كتاب عمر الى أبى عبيدة يأمره بارسال جند العراق نحو العـراق الى سعد بن أبى وقاص ، فأرسلهم ، وأمر عليهم هاشم بن عتبة المرقال ، وكانوا قد قتل منهم ، فأرسل أبو عبيدة عوض من قتل » . الطبرى : تاريخ ٣/٤٤٠ . ابن الأثير : الكامل ٢/٤٢٩ .

يكاد يشعر القارىء له ، بأن هذا الكتاب ما أورده ابن أعثم الا لأجل ابراز تعليق عمر أو ليبرز رأى عمر فى خالد ، واظهار أن بين الرجلين — عمر وخالد — عداوة أو ملاحاة قديمة ، لم يستطع ايمان عمر ، ولا ايمان خالد — وهما من هما فى قوة الايمان وسمو اليقين — أن يتجاوز ما يكون بين الأقران من تنافس ومغالبة قبل الاسلام!!ولنفسح المجال لكتاب خالد ، وتعليق عمر وجواب أبى بكر لعمر ، ثم يكون تعقيبنا بعدئذ ان شاء الله •

قال ابن أعثم : « ذكر كتاب خالد بن الوليد الى أبى بكر رضى الله عنه بخبر وقعة أجنادين » •

بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله بن عثمان خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من خالد بن الوليد سيف الله المصبوب على أعداء الله المشركين ، سلام عليك ! أما بعد ، فانى أخبرك أيها الصديق، أنا لقينا المشركين بموضع من أرض الشام يقال له : أجنادين ، وقد جمعوا لنا جموعهم ، ورفعوا صلبانهم ، ونشروا أناجيلهم ، وتقاسموا بأيمانهم أنهم لا يفرون ولا يبرحون ، ولا ينصرفون حتى يقتلونا ويبيدونا ويخرجونا من بلادهم ، فلقيناهم ونحن بالله واثقون ، وبحبله معتصمون، وعليه متكلون ، فطاعناهم بالرماح ، وكافحناهم بالصفاح ، وأرميناهم بالسهام ، وأذقناهم حر الحمام • فلم نزل كذلك حتى أعز الله عز وجل نصرة الاسلام ، وأظهر أمره ، وأنجز وعده ، وأفلح جنده ، وهزم الكافرين وحده ، فقتلنا فى كل واد وحجر ، وتحت كل شجر ومدر ، فاحمد الله عز وجل ياخليفة رسول الله على اعزاز دينه ، وأوليائه ، واذلال أعدائه ، وحسن صنعه بالمسلمين ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته •

قال : فلما قرأ أبو بكر الكتاب الذى لخالد بن الوليد ، تهلل لذلك وجهه وفرح فرحا شديدا ، وسر سرورا ظاهرا • ثم رمى بالكتاب الى عمر بن

الخطاب ، فلما قرأ الكتاب قطب حاجبه ، وعبس وجهه ! ثم قال : قبح الله صلف خالد ، وتيهه ، وعجبه بنفسه ! يكتب اليك « من خالد بن الوليد سيف الله المصبوب على أعدائه » ؟ ان سيف الله هو الذى وضعه بذلك الموضع ! قال : فسكت أبو بكر هنيهة ثم قال : أبا حفص ، الحمد لله على نصر المسلمين ، فقرت بذلك عيوننا ، فقال عمر : نعم فالحمد لله على ذلك ، ولكن لا يجب أن يتسمى بسيف الله ! .

قال ثم كتب أبو بكر رضى الله عنه الى خالد بن الوليد كتابا لطيفا (؟) يشكره على فعله بالمشركين ، ويبشره بثواب الله عز وجل ، ويبشر من معه من المسلمين ، ويقوى عزمهم ، ويأمرهم بالشكر لله عز وجل وذكره كثيرا [١٨] .

ان هذا الكتاب الذى انفرد بذكره صاحب الفتوح ، وذكر تعليق **عمر بن الخطاب عليه، يثير عدة أسئلة لابد من عرضها ، وفى مقدمتها:** هل صحيح أن المجاهدين فى سبيل الله من أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام كانوا يرغبون فى افساد جهادهم واحباط عملهم والتنازل عن مكافأة الله سبحانه اياهم عن الخروج للفتح واعلاء كلمة الله ؟ والجواب الذى لا جواب غيره أن ذلك غير صحيح ألبتة ، لما جاء فى القرآن الكريم والسنة النبوية من الربط الصريح بين قبول هذا الجهاد والمكافأة عليه وبين أن يكون هذا الجهاد فى سبيل الله وحده ، قال تعالى : « فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة » [١٩]، وقال : « الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله » [٢٠] . وقال عز وجل أيضا : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم » [٢١] وآيات عديدة

---

(١٨) الفتوح ١/١٤٨ — ١٤٩ .
(١٩) سورة النساء : الآية ٧٤ .
(٢٠) سورة النساء : الآية ٧٦ .
(٢١) سورة البقرة : الآية ١٩٠ .

أخرى من هذا الباب ، وفى الحديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم : عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن رجلا أعرابيا أتى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قاتل لتكون كلمة الله أعلى فهو سبيل الله » (٢٢) . وعن سليمان بن يسار رضى الله عنه عن أبى هريرة ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ان أول الناس يقضى يوم القيامة عليه ، رجل استشهد فأتى به ، فعرفه نعمه ، فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت حتى استشهدت ، قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : جرىء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ... »(٢٣) فهل يقال بعدئذ ان الصحابة — ومنهم خالد بن الوليد كانوا يجهلون هذه المبادىء المقررة فى الاسلام ، لكى نصدق رواية ابن أعثم ، التى ان صحت حبط عمل خالد ، وذهب ما كان يؤمل من جزيل الأجر وموفور العطاء من الله !؟ .

ونسأل بعد هذا : أصحيح أن يقول عمر : « لا يجب أن يتسمى بسيف الله » وهو يعلم جيدا أن الذى سماه بهذا الاسم الضخم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢٤) ؟ ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه لأعقل وأبر من أن يعترض على ما قال رسول الله ! كما أن عمر لا يزال يذكر موقف أبى بكر وحماسه فى الدفاع عن خالد ، ونهيه أياه عن النيل من سيف سله الله على الكافرين ، وذلك فى مناسبة مقتل مالك بن نويرة اليربوعى .

---

(٢٢) الامام مسلم : الصحيح ٤٦/٦ .

(٢٣) المصدر السابق ٤٧/٦ .

(٢٤) الامام أحمد : فضائل الصحابة ٨١٥/٢ — ٨١٦ . الحاكم : المستدرك ٢٩٨/٣ ابن عبد البر : الاستيعاب ٤٢٩/٢ — ٤٣٠ ابن الأثير : أسد الغابة ١١٠/٢ . ابن حجر : الاصابة ٧١/٣ .

وأخيرا ، لنـــا أن نشكك فى هذا الكلام الذى تضمنه ذلك الكتاب الذى نسبه ابن أعثم الى خالد ، ذلك أن عبارته ونظمه مما لا يوافق لغة العصر ، ولا ينتمى الى أساليب القوم ، فلم يكونوا يعرفون التكلف ، وليس هناك من داع اليه بين الرجلين ، وليست الصنعة الكلامية والأسجاع المقصودة مما يلتفت اليه مجاهـــد فذ ، شغله كله جهـــاد العـــدو ، ووضع الخطط الذكية ، واحكام مواجهته التى تكفل النصر باذن الله ، فلا وقت لديه ينفقه فى تدبيج مثل هذه الأقوال المصنوعة !! .

بين زياد بن لبيد وعكرمة بن أبى جهل :

ان زياد بن لبيد البياضى ، صحابى قديم الاسلام ، فهو مهاجرى ، أنصارى ، حيث قـــدم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من يثرب ، وأقـــام معه بمكة حتى هاجر النبى الى المدينة ، فلذلك كـــان يقـــال المهاجرى الأنصارى ، وقـــد شهد العقبة وبدرا وأحدا وسائر المشاهد مع الرسول عليه الصلاة والسلام ، ثـــم استعمله رسول الله عـــلى حضرموت ، وتولى أيـــام أبى بكـــر قتال المرتدين من كندة .. ثـــم توفى زياد رضى الله عنه فى أول أيـــام معاوية (٢٥) .

وكان عكرمة بن أبى جهل القرشى المخزومى كأبيه ، من أشـــد الناس على رســـول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين قبل اسلامه ، ثم أسلم عام الفتح (٨ هـ) ، بعد أن آمنه رسول الله ، فحســـن اسلامه بالمرة ، قال الامام الشـــافعى : كان محمود البلاء فى الاسلام رضى الله عنه ، جاهد المرتدين ، ثم كان بعدئذ من أبطال الفتح فى بلاد الشـــام

---

(٢٥) ترجم له ابن سعد : الطبقات ١٣١/٢/٣ ، ابن عبد البـــر : الاستيعاب ٥٣٤/٢ — ابن الأثير : أســـد الغابة ٢٧٣/٢ — ٢٧٤ . ابن حجر : الاصـــابة ٣٣/٤ — ٣٤ .

حتى استشهد يوم أجنادين أو يوم اليرموك (١٣هـ) [٢٦] .

وأخبار هذين الرجلين فى حروب الردة مما يشرف به تاريخ أى بطل من المجاهدين الأولين ، وقد كان أبو بكر يعرف لهما أقدارهما ، فجعل كلا منهما قائدا على أحد الجيوش التى رمى بها المرتدين ، فكان لهما البلاء الحسن والذكر الحميد . وعلى الرغم من ذلك ، فان ابن أعثم قد عطف عليهما بقلمه ، فغمزهما فى تاريخه غمزا قاسيا ، وتحدث عنهما ، فكأنهما من خلال حديثه لم يسلما ، وكأن سماحة الاسلام وتعاليمه السامية لم تنفذ الى قلب أى منهما ، بل أظهرهما بمظهر الجاهلية ، يتلاحيان بقسوة شديدة ، ويقدح كل منهما فى الآخر ، ويقع فيه وقوعا مؤلما ! وكان ذلك فى أثناء قتال المرتدين من كندة . فهذا حديث ابن أعثم عنهما : [٢٧] ثم قدم عكرمة وأصحابه على زياد ، والأشعث [٢٨] بعد لم ينزل من الحصن ، وهو يستوثق لنفسه ولمن معه من بنى عمه ، فأقبل زياد على عكرمة فقال : ما صنعت مع قبائل كندة ؟ فقال له : صنعت والله ! انى لقيت قوما لهم أقدار وأخطار ، وصبر على الموت ، فلم أزل أحاربهم حتى علمت أن انتصافهم منى أكثر من انتصافى منهم ، وأتانى كتابك يخبر أنه : بعث الأشعث اليك كتابا يسألك الأمان ، فكففت عن حرب القوم ، وانصرفت اليك ! فقال زياد : لا والله ! ولكنك جبنت ، فضعفت ، وكععت [٢٩] عن الحروب . ألم آمرك

---

(٢٦) ترجم له ابن سعد فى الطبقات ١٢٦/٢/٧ ، ابن الأثير : أسد الغابة ٧٠/٤ — ٧٣ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ٣٢٣/١ — ٣٢٤ . ابن حجر : الاصابة ٣٦/٧ — ٣٧ .

(٢٧) الفتوح ٨٣/١ — ٨٤ .

(٢٨) هو الأشعث بن قيس شيخ ورئيس قبيلة كندة توفى سنة ٤٠ هـ ، واقرأ ترجمة له عند : ابن قتيبة : المعارف ص ٣٣٣ ، وابن عبد البر الاستيعاب ١٣٣/١ — ١٣٥ ، ابن الأثير : أسد الغابة ١١٨/١ — ١١٩ ، ابن حجر : الاصابة ٧٩/١ — ٨٠ .

(٢٩) كع كعوعا وكعاعة : جبن وضعف . الجوهرى : الصحاح(كعع) ١٢٧٧/٣ . وابن منظور : اللسان (كعع) ١٨٧/١٠ — ١٨٨ .

أن تضع سيفك فيهم ، ثــم لا ترفعه عنهم وفيهم عين تطرف ، فعصيتنى وأحببت العافية ، وانصرفت الى بأصحابك ، خوفا من أن تفوتك الغنيمة !؟ قبح الله من يزعم أنك شجاع القلب بعد هذا ! •

فغضب عكرمة من ذلك ، ثــم قال : أما والله يازياد ، لو لقيتهم وقد أزمعوا على حربك ، لرأيت أسودا تحمى أشبالا وتكافح أبطالا ، ذات أنياب حداد ، ومخاليب شداد ، ولتمنيت أنهم ينصرفون عنــــك ويخلونك ! وبعد ، فانك أظلم ، وأغشم ، وأجبن قلبا ، وأشح نفســا وأيبس ، اذ قاتلت هؤلاء القوم وشننت هذه الحروب بينك وبين هؤلاء القوم بسبب ناقة واحدة لا أقل ولا أكثــر ولو لــم أغثك بجنودى هؤلاء ، لعلمت أنك تكون رهين سيوفهم ، وأسير جوامعهم [٣٠] •• ثــم نادى عكرمة فى أصحابه ، وهم بالرحيل ، فاعتذر اليه زياد مما تكلم به ، فقبل عكرمة عذره ! •

تلك هى الصورة التى رسمهــا صاحب الفتوح لموقف من مواقف الجهاد بين اثنين من قادة معارك الردة ، وصاحبين من أصحــاب النبى عليه الصلاة والسلام وقد عرفنا من سيرتيهما العطرتين ما عرفنــا • لكن ما خرج به علينــا ابن أعثم يغايــر تماما ذلك الذى علمنا من أمرهمــا ، ولابد اذن أن يكون هناك خطأ فيما قاله المؤرخون فى ترجمة الرجلين ، أو فيما ذكره ابن أعثم ! فكان من الضرورى والأمر كذلك ، أن نستقصى القصــة وندقق البحث عنهــا فى سجل حروب الردة ، وهو سجل قد اهتم المؤرخون به ، واستوعبوا فيه كل صغيرة وكبيرة وقعت يومئذ ، وكأن مؤرخينــا هؤلاء — جزاهم الله عنا خيرا — قــد جال بخاطرهم أنه قد يخرج بعضهم فى وقت ما ، فيقول بغير علم ، ويقذف تهما هنــا ، وباطلا هناك ، والناس سراع الى الاعجاب بمثل هــذه الأقوال الجديدة!

---

(٣٠) الجوامع : جمع جامعة وهى الأغلال التى تجمع اليدين الى العنق الجوهرى : الصحــاح (جمع) ١١٩٩/٣ •

فكان من أمرهم فى هذا التاريخ ما كان ، جمعوه ، فاستوعبوه بأسانيده الموصولة حتى تنتهى الى الذين حضروا وشهدوا الوقائع بأنفسهم ، ثم دونوه وهم يتحملون تبعته بكل الأمانة والصدق ! فماذا وجدنا فى هذا السجل الموثوق، خاصا بهذا الاشتباك الكلامى بين زياد وعكرمة ؟ .

من أول ما نقرره فى ذلك : أن شيئا مما ذكره ابن أعثم آنفا ليس له وجود ألبتة فى وقائع حروب الردة !؟ .

وبعد ذلك ، يقرر المؤرخون أن المرتدين من كندة — بصفة خاصة — وعلى رأسهم الأشعث بن قيس ، ليسوا من القوة والشدة على شىء مما تغنى به ابن أعثم فى فتوحه ، وانما كانوا صغارا جبناء أمام زياد وعكرمة وسائر جند المسلمين ، خافوهم ، فلجأوا الى حصنهم «النجير» فلم يخرجوا منه الا مستسلمين ! قالوا يصورون هذه الواقعة :

وعاد زياد بن لبيد بالأموال والسبى ، واجتازوا بالأشعث ، فثار فى قومه فاستنقذهم وجمع الجموع ! وكتب زياد الى المهاجر (٣١) يستحثه ، فلقيه الكتاب بالطريق ، فاستخلف على الجند عكرمة بن أبى جهل ، وتعجل فى سرعان الناس وقدم على زياد ، وسار الى كندة ، فالتقوا بمحجر الزرقان فاقتتلوا ، فانهزمت كندة وقتلت ، وخرجوا هرابا، فالتجأوا الى النجير ، وقد رموه وأصلحوه . وسار المهاجر فنزل عليهم ، واجتمعت كندة فى النجير ، فتحصنوا به ، فحصرهم المسلمون ، وقدم اليهم عكرمة ، فاشتد الحصر على كندة ، وتفرقت السرايا فى طلبهم فقتلوا منهم ، وخرج من بالنجير من كندة وغيرهم فقاتلوا المسلمين،

---

(٣١) هو المهاجر بن أبى أمية المخزومى ، بعثه أبو بكر الى قتال المرتدين باليمن ، ثم يسير الى ولايته بحضر موت . وقد ترجم له ابن عبد البر : الاستيعاب ١٤٥٢/٤ — ١٤٥٣ ، ابن الأثير : أسد الغابة ٢٧٧/٢ — ٢٧٨ ابن حجر : الاصابة ٢٩٤/٩ — ٢٩٥ .

فكثر فيهم القتل ، فرجعوا الى حصنهم ، وخشعت نفوســـهم وخافوا القتل ، وخاف الرؤساء على نفوسهم ، فخرج الأشعث ومعه تسعة نفر ، فطلبوا من زياد أن يؤمنهم وأهليهم على أن يفتحوا لـــه الباب . فأجابهم الى ذلك وقال : اكتبوا ما شئتم ، ثـــم هلموا الكتاب حتى أختمـــه . ففعلوا ، ونسى الأشعث أن يكتب نفسه ، لأن جحدما وثب عليه بسكين ، فقـــال : تكتبنى أو أقتلك ! فكتبه ونسى نفسه ! ، ففتحوا البـــاب ، فدخل المسلمون ، فلم يدعوا مقاتلا الا قتلوه ، وضربوا أعناقهم صبرا وأخذوا الأموال والسبى ، لما فرغوا منهم ، دعـــا الأشعث أولئك النفـــر والكتاب معهم ، فعرضهم ، فأجار من فى الكتاب ، فاذا الأشعث ليس منهم ! فقـــال المهاجر : الحمـــد لله الذى خطأ فاك يا أشعث يا عدو الله ! قد كنت أشتهى أن يخزيك الله . وشده كتافا ، فقيل له : أخره وسيره الى أبى بكـــر ، فهو أعلم بالحكم فيه فسيره الى أبى بكر مع السبى (٣٢) .

ولا حاجة بعد هـــذا البيان الى تعليق أو تعقيب ! سوى أن نلفت النظر الى أن كندة قبيل كبير من اليمن الذين طالما تغنى بمدحهم وأمجادهم وبطولاتهم ابن أعثم الكوفى ! .

---

(٣٢) خليفة بن خياط : تاريخ خليفة ص ١١٦ ، الطبرى : تـــاريخ ٣٣٠/٣ — ٣٣٩ ، ابن الأثير : الكامل ٣٧٨/٢ — ٣٨٣ ، والنص منه .

« شخصية عثمان بن عفان فى كتاب الفتوح »

وحين يتناول ابن أعثم أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فهو يجتهد بقدر ما وسعه الجهد فى الاساءة اليه ، وتشويه صورته وسيرته ، بما يضفى عليه وينسب اليه من ذميم الخصال وشنيع الفعال ، حتى انه ليخيل لمن يقرأ مزاعم ابن أعثم انه ليس ذلك الصحابى الجليل خليفة المسلمين الراشد الذى يعرفه أبناء الأمة : أنه من السابقين الأولين، والمجاهدين البارزين فى سبيل الله بالنفس والمال والأهل والوطن ، وأنه الرجل الذى حظى وفاز — دون غيره — بحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصهر اليه بابنتيه ، وبشره مع سائر العشرة من أقرانه بالجنة ، كما تمتع بحب وتقدير المسلمين ، فاختاروه خليفة عليهم ، وولى أمرهم لا ينازع فى ذلك أحد من اخوانه أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام (٣٣) .

ان هذه الصورة الضخمة الفخمة لفحل عظيم من الرعيل الأسبق فى تاريخ الاسلام ، جاءت فى فتوح ابن أعثم شديدة الاختلاف عما وقر فى وجدان المسلمين ، وتعارفوه فيما بينهم ، لاجهالة فيه ! ولقد تعرض صاحب الفتوح لأمير المؤمنين عثمان فى عدة مناسبات ابان خلافته ، فلم يعطه ، ولم ينصفه فى أى منها ، بل أساء اليه أبلغ اساءة ، وحط من قدره ، وطعن فى عقيدته بصورة مباشرة ! وكل ذلك يزعم ابن أعثم أنه قد صدر عن أصحاب عثمان وأقرانه من كبار الصحابة ..

---

(٣٣) اقرأ ترجمة عثمان فى كتب الرجال والتاريخ مثل ابن هشام : السيرة النبوية ٣١٥/٢ — ٣١٩ ، ابن سعد : الطبقات ٣٦/١/٣ — ٥٨ ، ابن قتيبة : المعارف ص ١٩١ — ٢٠٢ الطبرى : تاريخ ٣٩٦/٣ — ٤٢٣ — ابن عبد البر : الاستيعاب ١٠٣٧/٣ — ١٠٥٣ — ابن الأثير : أسد الغابة ٥٨٤/٣ — ٥٩٦ .

بين عثمان وعبد الرحمن بن عوف (٣٤) .

فهو فى الموقف الآتى — كما صوره كتاب الفتوح — رجل طويل اللسان على الصحابة ، شديد القدح فيهم ، يسبهم ولا يبالى ! يقول — فى بدء حديثه عن سياسة عثمان — : فكبر ذلك على أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، وكرهوا ذلك من فعله — يقصد توزيع عثمان بعض الأموال على طائفة من أقاربه — ، ثم انهم دخلوا على عبد الرحمن ابن عوف ، فشكوا اليه أمر عثمان ، وقالوا : يا ابن عوف ، هذا من فعالك بنا ، ولسنا نلزم هذه الامامة أحدا سواك ! فقال عبد الرحمن : ياهؤلاء ، انى كنت أخذت لكم بالوثيقة ؟ ولم أعلم بما يكون ، والآن ، فالأمر اليكم ! فقال له على بن أبى طالب — رضى الله عنه — : فهكذا تحب أن يكون ؟ فقال : يا أبا الحسن ، انه لم يكن عندى علم هذا ، والآن فخذ سيفك ، وآخذ سيفى ! ؟ .

قال ابن أعثم : وبلغ الخبر الى عثمان ... ، فقال عثمان : عبد الرحمن رجل منافق لا يبالى بما قال ، ويهون عليه أن يشيط بدمى ! وبلغ ذلك عبد الرحمن بن عوف فغضب ، وقال : ما كنت أظن أن أعيش الى دهر يقول لى عثمان (فيه) انى منافق ! ثم حلف عبد الرحمن أنه لا يكلمه أبدا ما بقى (٣٥) ..

وأيسر ما نجبه به ابن أعثم أن نسأله مبادأة : من أين لك هذا الدس بين أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ؟ وما مصدرك الذى

---

(٣٤) ترجم لعبد الرحمن بن عوف : ابن هشام : السيرة النبوية٢/٢٥٠ — ٢٥٢ ومواضع أخرى بالكتاب ، ابن سعد : الطبقات ٣/١/٨٧ — ٩٧ ، ابن قتيبة : المعارف ص ٢٣٥ — ٢٤٠ ، ابن عبد البر : الاستيعاب ٢/٨٤٤ — ٨٥٠ ، ابن الأثير : أسد الغابة ٣/٤٨٠ — ٤٨٥ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ١/٦٨ — ٩٢ .

(٣٥) الفتوح ٢/١٥١ .

يتحمل تبعة هذه الدعوى الخطيرة ؟ والجواب نعرفه قبل أن نطرح السؤال، فلا جواب ، لأن الرجل ذو هوى ، فهو فى قوله ، وفى فعله يصدر عن هواه والهوى لا يسأل عن أقوال الناس وأفعالهم ! وما هكذا يكون المؤرخ ، ولا التـــاريخ ..

ثم ان الرجل الذى هم بحمـــل السيف لخلع عثمان لعـــدم رضاه عن سياسته ، وأصبح مهيأ نفســـيا وفكريا لاجبار الخليفـــة عـــلى خلع نفسه بقوة السلاح ، هذا الرجل حين يبلغه أن الخليفـــة ذاته يسبه ويرميه بالنفاق والبلاهة يذوب غضبه وتتلاشى ثورته ، وترتخى يده عن سيفه ، ويقعد متخاذلا ، ثـــم يبتلع غضبته العارمة بكلمة باردة لا تصدر الا عن جبان رعديد ، « حلف عبد الرحمن أنه لا يكلمه أبدا ما بقى » !!

ان الحقيقة التاريخية الموثقة بمصادرها وأسانيدهـــا تؤكد أن شيئا مما زعمه ابن أعثم فى هذه المناسبة لـــم يحدث الا فى مخيلته هو، وأن العلاقة بين عثمان وعبد الرحمن كما كانت قبل استخلاف عثمـــان ، وأنه لـــم يحدث مطلقـــا أن تراجع عبد الرحمن عن بيعته لعثمان ، ولم يهم بخلعه ، وكذلك كان الشأن بالنسبة لعلى رضى الله عنهم أجمعين . بل الذى لا يغيب عن فكـــر الباحث فى أحوال كهذه ، وأمام مزاعم كتلك التى يرددها ابن أعثم وســـائر المتطرفين من الشيعة واخوانهم الخارجين على عثمان وعلى من بعده ، هو أنه يريد أن يلقى فى روع القـــارىء أن القوم جميعا — حتى عبد الرحمن بن عوف الذى أعلن اختياره للخلافة وبدأ بمبايعته — قد كرهوه وندموا على توليته الأمـــر ويريدون خلعـــه ، ولو باستخدام القوة ، ليست هذه الرغبة فى خلع عثمان قاصرة عـــلى ثوار مصر والعراق فحسب !! وسوف نمر خلال استعراضـــنا لبعض المواقف الأخرى بمـــا يؤيد هذا الاستنتاج تأييدا سافرا ..

بين عثمان وعمار بن ياسر (٣٦) :

وفى المناسبة التالية ، نرى مشهدا آخر ، يصور فيه ابن أعثم العلاقة بين عثمان بن عفان — أمير المؤمنين — وبين اخوانه من السابقين الأولين الى الاسلام ، ففى هذا الموقف لا يكتفى عثمان فى تعامله مع كبار الصحابة بشتمهم وعيبهم فحسب ، وانما يزيد على ذلك الأمر بالضرب ، ثم الاشتراك بنفسه فى ضرب هؤلاء السادة من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم !! وان تعجب ، فالعجب كله أن يستطيع عثمان يومئذ — وهو الشيخ ابن الثمانين عاما أو يزيد ! ضرب عمار بن ياسر حتى يغشى عليه ، ويحدث به فتقا فى بطنه !؟ .

يذكر ابن أعثم أن الكارهين لعثمان وسياسته ، قد اجتمعوا ، وكتبوا كتابا ذكروا فيه الأمور التى نقموها عليه ، ليطلبوا منه تركها والاقلاع عنها ، والا فانهم يخلعونه ، ويستبدلون غيره به ، ثم ان القوم رأوا أن يبعثوا بهذا الكتاب مع عمار بن ياسر ، ليسلمه الى أمير المؤمنين ، وينقل اليه مشاعرهم ، فانطلق عمار بالكتاب اليه ، فماذا حدث بعد ذلك ؟ قال ابن أعثم وهذا نصه : « فلما خرج — يعنى عثمان — من باب منزله نظر الى عمار — واقفا والكتاب فى يده — فقال : حاجة يا أبا اليقظان ؟ فقال عمار : مالى حاجة ، ولكنا اجتمعنا ، فكتبنا كتابا نذكر فيه أمورا من أمورك لا نرضاها لك ، ثم دفع اليه الكتاب ، فأخذه عثمان ، فنظر فيه حتى قرأ سطرا منه ، ثم غضب ورمى به من يده ! فقال له عمار : لا ترم بالكتاب ، وانظر فيه حسنا ، فانه

---

(٣٦) اقرأ ترجمة عمار بن ياسر عند : ابن سعد : الطبقات ١٧٦/١/٣ — ١٨٩ ، الامام أحمد : فضائل الصحابة ٨٥٧/٢ — ٨٦١ ، ابن قتيبة : المعارف ص ٢٥٦ — ٢٥٨ ، الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ١٥٠/١ — ١٥٣ . ابن عبد البر : الاستيعاب ١١٣٥/٣ — ١١٤١ ، ابن الأثير : أسد الغابة ١٢٩/٤ .

كتاب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا والله ناصح لك فقال له عثمان : كذبت يا ابن سمية ! فقال عمار : أنا والله ناصح لك ! فقال عثمان : كذبت يا ابن سمية ! فقال عمار : أنا والله ابن سمية ، وابن يا سر . فأمر عثمان غلمانه ، فضربوه ضربا شديدا ، حتى وقع لجنبه ، ثم تقدم اليه عثمان فوطىء بطنه ومذاكيره ، حتى غشى عليه ، وأصابه الفتق ، فسقط لما به لا يعقل من أمر شيئا !! .

ويحلو لابن أعثم أن يشعل الموقف أكثر من ذلك فيقول : واتصل الخبر ببنى مخزوم — حلفاء عمار — فأقبل هشام بن الوليد بن المغيرة فى نفر من بنى مخزوم ، فاحتملوا عمارا من موضعه ذلك ، وجعلوا يقولون : والله لئن مات الآن لنقتلن به شيخا عظيما من بنى أمية ! ثم انطلقوا بعمار الى منزله مغشيا عليه ، فلم يصل ظهرا ولا عصرا ولا مغربا ولا عشاء ، حتى ذهب بعض الليل ، ثم أفاق بعد ذلك من غشيته ، فقام فقضى ما فاته من صلواته كلها . ثم يضيف قائلا : فكان هذا من احداثه الذى نقموا عليه !! (٣٧) .

والحقيقة أن قواعد النقد العلمى تقضى بأن نلزم أشد الحذر عندما نواجه بمثل هذه الأخبار والقصص التى لا توافق المعهود المعروف عن أخلاق الصحابة ، وسلوكهم القديم ، والذى عرفناه من سيرهم المبسوطة فى كتب قيمة معتمدة لدى أهل العلم ، وسوف تظل هذه القصة وأشباهها مرفوضة لا يعتد بها ، طالما أنها تفتقر الى السند الذى يمنحها شيئا من الاعتبار ، وتفتقد الشاهد الذى يعضدها ويقويها ! أما وابن أعثم لا يقدم أسانيد لأخباره ، وأننا لم نعثر لها فى كتب التاريخ ودواوين طبقات الرجال على الشاهد المطلوب ، فلا عبرة بما ساقه صاحب الفتوح فى هذه القصة المصنوعة ، التى ما أراد بها الا التنقص من صحابى جليل وقطب عظيم من السادة الكبار الأبرار عثمان بن عفان ..

---

(٣٧) الفتوح ٢/١٥٣ — ١٥٥ .

بين عثمـــان وأم المؤمنين عائشـــة : (٣٨) .

ان الحكاية التالية ، وان كان عثمان رضى الله عنه بطلهـــا الأول كسابقتيهـــا ، غير أنهـــا ضرب مختلف كثيرا من وجه أو أكثـــر ، فالراوى هنا — وهو صاحب الفتوح — لا يقصـــد التشنيع على عثمان وحده ، وانمـــا على بقية أبطال قصته فى صراحة ووضوح لا لبس فيه ولا خفاء، كذلك أشرك لأول مـــرة احدى أمهـــات المؤمنين وهى الســـيدة عائشـــة رضى الله عنها فى قصصه ! واذا كان موقفه وموقف سائر المتطرفين من عثمان معروفا ، فان لهم موقفهم المعادى من الســـيدة عائشة ، بســـبب وجودها يوم الجمل مـــع الفريق الآخر الذى قاتل عليـــا رضى الله عنه ، وأمر ثالث وهو أخطرها وأشدها نكرا فى هذه القصـــة فلقـــد تجاوز ابن أعثم حد المعقول فيمـــا تقولـــه على لســـــان أمير المؤمنين ، وأم المؤمنين ! كأنه يراد أن يقال للمسلمين : ما أنتم ؟ وما أخلاقكم ؟ وما دينكم اذا كان هذا هو حديث أميركم وقائدكم وحديث أمكم وزوج نبيكم ؟ وحاشا لله أن يكون الأمر كذلك مهمـــا كان الخلاف بين أصحـــاب نبينا عليه الصلاة والسلام .

واليك القصـــة كما أوردها ابن أعثم ، وتحمـــل تبعتهـــــا الى يوم القيامة قال : وعزمت عائشـــة على الحج ، وكان بينهـــا وبين عثمان قبل ذلك كلام ، وذلك أنه أخـــــر عنهـــا بعض أرزاقها الى وقـــت من الأوقات ، فغضبت ، ثـــم قالت : ياعثمان ! أكلت أمانتك وضيقت رعيتك، وسلطت عليهم الأشرار من أهل بيتك ، لا سقاك الله الماء من فوقك ،

---

(٣٨) ترجم لأم المؤمنين عائشـــة رضى الله عنها : ابن سعد : الطبقات ٥٨/٨ — ٨١ ، يحيى بن معين : التاريخ ٧٣٨/٢ ، الامام أحمد : فضائل الصحابة ٨٦٨/٢ — ٨٨١ ، يعقوب بن سفيان : المعرفة والتاريخ ٢٦٨/٣ ، ابن عبد البر : الاستيعاب ١٨٨١/٤ — ١٨٨٥ ، ابن الأثير : أسد الغـــابة ١٨٨/٧ — ١٩٢ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ١٣٥/٢ — ٢٠١ .

وحرمك البركة من تحتك ! أما والله لولا الصلوات الخمس ، لمشى اليك قوم ذوو ثياب وبصائر يذبحونك كما يذبح الجمل !! .

فقال لها عثمان (ولا أتصور أن يدعى مسلم ذلك) : « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأت نوح وامرأت لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتا هما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين » (٣٩) .

ثم قال : وكانت عائشة تحرض على قتل عثمان جهدها وطاقتها ، وتقول : أيها الناس ! هذا قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبل وبليت سنته ، اقتلوا نعثلا ، قتل الله نعثلا (٤٠) .

قال : فلما نظرت عائشة الى ما قد نزل بعثمان ، من احصار القوم له ، قربت راحلتها ، وعزمت على الحج ، فقال لها مروان بن الحكم (٤١) : يا أم المؤمنين ، لو أنك أقمت لكان أعظم لأجرك ، فان هذا الرجل قد حوصر ، فعسى الله تبارك وتعالى أن يدفع بك عن دمه ! فقالت : الآن تقول هذا وقد أوجبت الحج على نفسى ، لا والله لا أقمت ! وجعل مروان يتمثل بهذا البيت :

ضرم قيس على البلاد دما   حتى اذا اضطرمن فأحجما

فقالت عائشة : قد فهمت ما قلت يامروان ! فقال مروان : قد تبينت ما فى نفسك ! فقالت : هو ذاك .

---

(٣٩) سورة التحريم : الآية ١٠ .

(٤٠) نعثل : اسم لرجل كان طويل اللحية ، فكانوا يعيبون عثمان رضى الله عنه فيشبهونه به لطول لحيته — الجوهرى : الصحاح (نعثل) ١٨٣٢/٥ :

(٤١) اقرأ ترجمة له عند : ابن سعد : الطبقات ٢٤/٥ — ٣٠ ، ابن قتيبة : المعارف ص ٣٥٣ — ٣٥٤ ، الطبرى : تاريخ ٥٣٠/٥ وما يليها ، المسعودى : مروج الذهب ٩٤/٣ وما يليها . ابن الأثير : الكامل ١٩١/٤ — ١٩٤ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ٤٧٦/٣ — ٤٧٩ .

ثم انها خرجت تريد مكة ، فلقيها ابن عباس ، فقالت له : يا ابن عباس ، انك قد أوتيت عقلا وبيانا ، فاياك أن ترد الناس عن قتل هـذا الطاغى عثمان ، انى أعلم أنه سيشأم قومه ، كما شأم أبو سفيان قومه يوم بدر ! ثم انها مضت الى مكة ، وتركت عثمان على ما هو فيه من الحصار والشدة » (٤٢) .

ان القول فى نقض مزاعم ابن أعثم ومفترياته تلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يطول بنا ، لو أطلقنا العنان للقلم ، ولكن « يكفيك من شر سماعه » ، ونجتزىء فى النقد والتفنيد بقليل الكلام الذى نرى فيه كفاء وغناء .. وبعد ، فان خاتم النبيين الذى أرسله الله رحمة للعالمين ، وأخرج به الناس من الظلمات الى النور ، وكانت أمته الأمة المؤمنة التى اختصها الله سبحانه بوصف فريد لا يزاحمها فيه أحد من أمم البشر « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (٤٣) ان هذا النبى الخاتم لأجل عند الله وأسمى من أن تكون امرأته — وهى أم المؤمنين — (٤٤) كافرة مثل امرأتى نوح ولوط ، وان السيدة الشريفة العفيفة الكريمة التى أنزل الله على رسوله فى تنزيهها ، وعفافها وطهارتها ، وبراءتها ، قرآنا يتلى ، ويتعبد المؤمنون به ربهم الى يوم القيامة (٤٥) ، هذه السيدة عائشة لاكرم وأعز على الله تعالى من أن تكون به كافرة !! .

---

(٤٢) الفتوح ٢/٢٢٤ — ٢٢٦ .

(٤٣) سورة آل عمران : الآية ١١٠ .

(٤٤) قال تعالى : « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم» سورة الأحزاب : الآية ٦ .

(٤٥) فى سورة النور : الآيات العشر من قوله تعالى « ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم — الى قوله وأن الله رءوف رحيم » — ١١ — ٢٠ من السورة كلها نزلت فى تبرئة أم المؤمنين عائشة من الافك والبهتان الذى رماها به المنافقون كذبا وافتراء ، فبرأها الله مما قالوا — راجع ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٦/١٧ — ٣٠ .

ومع خطورة ما تنطوى عليه تلك القصـــة من قدح شنيع فى حق عثمان وعائشـــة رضى الله عنهما ، فانهـــا لا تخلو من تفاهـــة وسذاجة واضعهـــا ! وآية ذلك قوله : أعلم أنه سيشأم قومه ، كمـــا شأم أبو سفيان قومه يوم بدر ! لأن معاوية — عدوهم الأكبر — هو ابن أبى سفيان ! كذلك لا ندرى البكاء على من أو على ماذا ؟ فى قوله مختتم قصـــته « ثم انهـــا مضت الى مكة ، وتركت عثمان على ما هو فيـــه من الحصار والشدة » ، هل هو يتحسر على عثمان الذى يواجه بالفعل خطر الموت المحقق ، أو يأسف لموقف الســـيدة عائشة التى تركت أمير المؤمنين فى هذه الشـــدة الشديدة ، وضنت عليه بالعون وهى قادرة عـــلى دفع الخطر عنه ؟ أو هو كشيعى صريح ، قـــد أعجبه حالهمـــا ، فهو قرير العين بذلك ؟؟ وسوف تكون لنـــا عودة الى مناسبة أخرى مع أم المؤمنين عائشـــة ان شاء الله .

« الحملة على عمرو بن العــاص » (٤٦)

وعلى الرغم من أن عمرو بن العاص كان منذ أسلم قبل الفتح — والى أن نشب الخلاف بين على ومعاوية رضى الله عنهم أجمعين وانحاز عمرو الى جانب معاوية — كان عمرو ابان هذه الفترة الطويلة التى شهدت السنوات الثلاث الأخيرة من حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، وخلافــة الصديق والفاروق وذى النورين رضى الله عنهم أجمعين — أقول : على الرغم من أن عمرو بن العاص كان ابان هذه الفترة كلهــا من الشخصيات البارزة فى الدولة الاسلامية فى ميادين الحرب والسياسة والادارة ، وأسندت اليه جلائل الأعمــال من قبل رسول الله وخلفائه الراشدين ، فقــام بهــا على أفضل ما يمكن أن تؤدى الأعمــال ، وحفل سجله الضخم بفتوح عظيمة قادهــا مباشرة ، وأخرى شارك فى قيادتهــا وادارتهــا ، وأعمال سياسية وادارية خطيرة فى بعض أقاليم الدولة الاسلاميــة ، فصنع لنفسه بذلك كله مكانة مرموقة بين كبار القـــادة المسلمين ، وحظى بثقة وتقدير النبى عليه الصلاة والسلام ، والخلفاء الراشدين الثلاثة من بعــده .. على الرغم من ذلك ، فان ابن أعثــم الكوفى بنظرته الحزبية وتشيعه المتعصب سعى — فى مصنفه هــذا — الى الغاء هذه الصورة المضيئة لشخصية عمرو بن العاص ، وحــاول جاهدا رسم صورة أخرى مشوهة تشويهــا مقيتا لهذا القــائد الفذ ، والسياسى البارع ، والادارى الناجح ، كمــا قــدمته الينا مصــادر التاريخ المعتبرة .

---

(٤٦) اقرأ ترجمة له عند : ابن سعد : الطبقات ٢٥٤/٤ ، ٤٩٣/٧ ، الامام أحمد : فضــائل الصحابة ٩١١/٢ — ٩١٣ — يعقوب بن ســفيان : المعرفة والتاريخ ٣٢٣/١ ، ابن قتيبة : المعــارف ص ٢٨٥ — ٢٨٦ ، الكندى : ولاة مصر ص ٢٩ وما بعدهــا ، ابن عبد البر : الاستيعــاب ١١٨٤/٣ — ١١٩١ ، ابن الأثير : أســد الغابة ٢٤٤/٤ — ٢٤٨، الذهبى : سير أعلام النبلاء ٥٤/٣ — ٧٧ .

استغاثة وشهادة :

ولقد كانت أول هجمة شنهــا ابن أعثم الكوفى على عمرو بن العاص ، هى ذلك القدح المباشر ، الذى اتهمه فى مروءته ونجدتـــه وصدقه ، وضمنه احدى قصصه المتهافت ، الذى انفرد به دون سائر المؤرخين !وذلك أن عمرو بن العاص حين رجع من عمان عقب وفـــاة النبى صلى الله عليه وســلم ، نزل على قرة بن هبيرة بن سلمــة بن قشير (٤٧) ، فذبح له وأكرمه ، فلمــا أراد المسير الى المدينة ، أسر اليه قرة : ان العرب لا تطيب لكم نفســا بالاتاوة (يعنى الزكاة) ، فــان أنتم أعفيتموهــا من أخذ أموالها فستسمع لكم وتطيع ، وان أبيتم فلا أرى أن تجتمع عليكم ! فقال عمرو : أكفرت يا قرة ؟ أتخوفنا بالعرب ؟ قال : اجعلوا بيننا وبينكم موعدا ! فقال له عمرو : والله لأوطئن عليك الخيل فى حفش أمك (٤٨) ! وقــدم عمرو عــلى أبى بكر والمســلمين فأخبرهم ..

وحين انتصر خالد بن الوليــد — رضى الله عنه — على بنى عامر، وأسر قرة بن هبيرة ، وعيينة بن حصن (٤٩) ، أرسلهما الى أبى بكــر ، فقــال له قرة : ياخليفــة رسول الله ، انى قد كنت مســلما ولى من

---

(٤٧) ترجم له : ابن حزم جمهرة أنساب العــرب ص ٢٨٩ ، ابن عبد البر : الاستيعاب ١٢٨/٣ ، ابن الأثير : أســد الغابة ٤٠٢/٤ — ٤٠٣ ، ابن حجــر : الاصــابة ١٥٦/٨ — ١٥٩ .

(٤٨) الحفش : البيت الصغير الحقير الذليــل ، القريب سقفه من الأرض . وهو الصندوق الذى تضع فيه المرأة أدواتهــا . وهو أيضــا : البيت الذى تنفرد فيه النفســاء — ابن منظور : لســان العــرب (حفش) ١٧٥/٨ .

(٤٩) ترجم لــه : ابن قتيبة : المعارف ص ٣٠٢ — ٣٠٤ ، ٣٤٢ ، ابن عبد البر : الاستيعاب ١٢٤٩/٣ — ١٢٥١ ، ابن الأثير : أســد الغابة ٣٢١/٤ ، ابن حجــر : الاصــابة ١٩٥/٧ — ١٩٧ .

ذلك على اسلامى عند عمرو بن العاص شهادة ؛ فلقـــد مربى فأكرمته ، وقربته ، ومنعته فدعا أبو بكـــر عمرو بن العاص ، فقـــال : ما تعلم من أمر هذا ؟ فقص عليه الخبر ، حتى انتهى الى ما قـــاله من أمـــر الصدقة ؛ فقـــال له قرة : حسبك رحمك الله !! قال عمرو : لا ، والله حتى أبلغ له كل ما قلت • فبلغ له • فتجاوز عنه أبو بكر ، وحقن دمه [٥٠] •

تلك كانت رواية المؤرخين الموثوقين ، لقصـــة استغاثة قـــرة ابن هبيرة ، بعمرو بن العاص ، أمام أبى بكـــر ، أما ابن أعثم ، فقـــد وجدها فرصـــة سانحة ليطعن فى شخص عمرو •

فقـــال فى قصـــته الفريـــدة : ••• فقـــال قرة : ياخليفـــة رسول الله ، انى رجل مســلم ؛ يشهد لى بذلك عمرو بن العـــاص ، وذلك أنه مر بى منصرفا من عمان ، فقربته ، وأكـــرمته ، ودللته عـــلى الطريق وهو عارف باسلامى • فدعا أبو بكـــر عمرو بن العـــاص ، فسأله ، فقال : نعم ياخليفـــة رسول الله ، عندى من الشهادة أنى مررت به وأنا منصرف من عمان ، فلما نزلت عليه ، سمعته يقول : واللـــه لئن لم يتجاف أبو بكـــر خليفة رسول الله عن زكاة أموالنا ، فمـــا لـــه فى أعناقنا طاعة ! فقال قرة : لـــم يكن القول على ما تقـــول يا عمرو ! فقال عمرو : بلى والله ياخليفـــة رسول الله ، لقـــد سمعته يقول هـــذا المقال ، وعلمت أنه قد عزم على العصيان ومنع الزكاة ، فهـــذا والله ياخليفة

---

(٥٠) راجع : البلاذرى : فتوح البلدان ص ١١٦ ، الطبرى : تاريخ ٢٥٩/٣ — ٢٦٠ ، ابن الأثير : الكامل ٣٥٢/٢ — ٣٥٣ ، ابن حجر : الاصابة ١٥٧/٨ — ١٥٨ .

رسول الله ، ما كان من مقالتى ، ومقالته [٥٢] . ثــم انى رحلت عنه ، فلما قربت فرسى وركبته ، سمعته يقول : ان أتيتنا فعضض على الأنامل! قال قرة بن هبيرة : يا هــذا ، فان كان هــذا ذكرت ، فكم الى كـــم هذا التحريف ؟ ! فسكت عمرو بن العاص ، وتكلم عمر بن الخطــاب رضى الله عنه ، فقــال : سوءا لك يا عمرو ! رجل نزلت عليه ، فآواك ، وأحسن ضيافتك ، وأطعمك ، وسقاك ، ثــم تكلم بكــلام بينك وبينه ، فأجبته على كلامه ، ثــم رحلت عنه ، فالآن لما نظرت اليه فى مثــل هذه الحالة ، أسيرا ، قــد جمعت يداه الى عنقه ، وثبت قائما على قدميك تخطب عليه بجهدك ! فاستحيا عمرو ، وندم على ما تكلم [٥٣] ! .

ولو كان ابن أعثم حيا لسألناه : أيتفق هذا مــع ايمان عمــر بن الخطاب ، وشدته فى الحق ، واجتهــاده فى تحقيق العــدل الذى يعتمد اعتمادا كبيرا على أداء الشــهادة مهمــا تكن الظروف والنتــائج ؟ وهل كان عمر يروج للكذب فى وقت من أوقــات حياته ؟ ويصل به الأمــر الى تأنيب أخ له فى الاســلام ، لأنه أدلى بالشهادة على وجههـــا الصحيح ؟؟ .

بين عمرو ومعاذ بن جبل [٥٤] :

وفى مناسبة أخرى ، كانت الهجمة الثانية ، وما أشبه هذه بتلك ! فلقد ابتلى المسلمون فى الشام بوباء جارف فى السنة الثامنة عشرة للهجرة ، وهو ذلك الوباء المشــهور فى المصادر التاريخية باســـم « طــاعون

---

(٥٢) يلاحظ أنه لــم يذكــر كلمة واحدة من مقالة عمرو ! .

(٥٣) الفتوح ١/١٧ — ١٩ .

(٥٤) ترجم له : ابن سعد : الطبقات ٣/٢/١٢٠ — ١٢٦ — ابن قتيبة : المعارف ص ٢٥٤ — ابن أبى حاتم : الجرح والتعديــل ٨/٢٤٤ — ٢٤٥ ، ابن عبد البر : الاستيعاب ٣/١٤٠٢ — ١٤٠٧ ، ابن الأثير : أســد الغابة ٥/١٩٤ — ١٩٥ . الذهبى : سير أعلام النبلاء ١/٤٤٣ — ٤٦١ .

عمواس » (٥٥) ، وكان أبو عبيدة عامر بن الجراح (٥٦) يومئذ واليا على الشام كله ، فلما اشتعل الوجع (انتشر الوباء) قام أبو عبيدة فى الناس خطيبا فقال : « أيها الناس ، ان هذا الوجع رحمة من ربكم ، ودعوة نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم ، وموت الصالحين قبلكم ، وان أبا عبيدة يسأل الله أن يقسم له منه حظه » ، فطعن ، واستخلف على الناس معاذ بن جبل ، فقام خطيبا بعده ، فقال : « أيها الناس ، ان هذا الوجع رحمة من ربكم ، ودعوة نبيكم ، وموت الصالحين قبلكم ، وان معاذا يسأل الله أن يقسم لآل معاذ منه حظهم » ، فطعن ابنه عبد الرحمن بن معاذ فمات ، ثم قام فدعابه لنفسه ، فطعن ، ... فلما مات استخلف على الناس عمرو بن العاص ، فقام خطيبا فى الناس ، فقال : « أيها الناس ، ان هذا الوجع اذا وقع ، فانما يشتعل اشتعال النار ، فتجبلوا منه فى الجبال (أى ادخلوا)! فقال أبو واثلة الهذلى : كذبت ، والله لقد صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت شر من حمارى هذا !! قال : والله ما أرد عليك ما تقول وايم الله لا نقيم عليه ، ثم خرج الناس ، فتفرقوا ، ورفعه الله عنهم ، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب من رأى عمرو بن العاص ، فوالله ما كرهه(٥٧)!

---

(٥٥) عمواس : قرية من قرى مدينة الرملة بفلسطين — ياقوت : معجم البلدان ١٥٧/٤ — ١٥٨ .

(٥٦) ترجم له : ابن سعد : الطبقات ٢٩٧/١/٣ — ٣٠١ ، الامام أحمد : فضائل الصحابة ٧٣٨/٢ — ٧٤٣ ، ابن قتيبة : المعارف ٢٤٧— ٢٤٨ ابن عبد البر : الاستيعاب ٧٩٢/٢ — ٧٩٥ ، ابن الأثير : أسد الغابة ١٢٨/٣ — ١٣٠ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ٥/١ — ٢٣ ، ابن حجر : الاصابة ٢٨٥/٥ — ٢٨٩ .

(٥٧) الامام أحمد : المسند ١٩٦/١ — الطبرى : تاريخ ٦١/٣ — ٦٢ — ابن الأثير : الكامل ٥٥٩/٢ — ابن كثير : البداية والنهاية ٨٠/٧ — ٨١ . وقال عز الدين بن الأثير فى أسد الغابة ٣٢٥/٧ : « لا أعرف أبا واثلة هذا الا فى هذه الحكاية » .

هذا ما كان من أمر قادة المسلمين بالشـــام « أبى عبيدة ، ومعاذ ، وعمرو » ابان هذه الشدة الطاحنة ، التى أودت بحياة الكثيرين من جند الاسلام المجاهدين فى أرض الشـــام ، وذلك كما رواه ، وقـــدمه الينا المؤرخون الثقات الذين يعتمد عليهم فى معرفة التاريخ الاسلامى المبكر •

أما ابن أعثم الكوفى ، وهو الجار القريب ـــ مكانا وزمانا ـــ لابن جرير الطبرى المتوفى ٣١٠ هـ ، فقـــد كان له شأن آخـــر ، فى تقديم هذه المناسبة فى تاريخه ، وذلك لحاجة فى نفســـه ، ونفس من عـــلى شاكلته من الامامية ! لقد تعسف الرجل ، فابتدع ما لم يحدث ، وتقول على كبار الصحابة ورؤساء الناس أقاويل تسىء اليهم ، وتشوه صورتهم الرفيعة ، وتهز مكانتهم فى قلوب المسلمين ، لو كانت صحيحة !! فماذا قال ابن أعثم ؟ قال ـــ عامدا الاســـاءة الى هؤلاء الثلاثة الفاتحين الكبار ـــ : « ••• ونزل بأبى عبيدة ما نزل بغيره فلمـــا حضرته الوفاة ، بعث الى وجوه المسلمين فدعاهم ، فلما دخلوا عليه ، وجلســـوا اليه ، أقبـــل عليهم بوجهه فقال : « أيهـــا الناس ، انى موصيكم ••• ، ثـــم التفت الى معاذ بن جبل فقـــال : أبا عبد الرحمن ، صـــل بالنـــاس رحمك الله ، فقـــد استخلفتك عليهم من بعدى • ثـــم توفى أبو عبيدة رحمة الله عليه بالأردن ! •

قال : وقام معاذ بن جبل بعد أبى عبيدة بأمور المسلمين ، فخطب الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثـــم قال : أيهـــا الناس ، توبوا الى الله توبة نصوحـــا ••• الى أن قـــال : « أيهـــا الناس ، انكم قـــد فجعتم برجل والله ما أعلم أنى رأيت عبدا لله أعلن أمرا ، ولا أبر صدرا ، ولا أبعد من الغائلة ، ولا أشد حبا للعافية ، ولا أنصح لعامة المسلمين منه ، فرحمة الله على أبى عبيدة ، فوالله لأثنين عليه ما حييت ثنـــاء صادقا ، ولا أقول فيه باطلا ، ولا أخاف أن يلحقنى فى ذلك من الله تبارك وتعالى مقت ولا غضب ! كان والله ـــ ما علمت ـــ من المخبتين المتواضعين ، الذين يرحمون اليتيم والمسكين ، ويبغضون الجبارين والمتكبرين » •

قال ابن أعثم : فقال عمرو بن العاص لرجل كان الى جنبه « لعمرى لقد استعمله أبو عبيدة ، فرضى عنه وأحسن الثناء عليه !! » ، فجاء ذلك الرجل الى معاذ ، فخبره بمقالة عمرو ، فأرسل اليه معاذ ، فدعاه ، ثم قال : « يا عمرو ، أتزعم أن ثنائى على أبى عبيدة بن الجراح ، لأنه ولانى هذا الأمر من بعده ؟ ان كنت صادقا فأماتك الله بمثل هذه الموتة التى توفى فيها أبو عبيدة ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله قد خبرنا أنها ميتة الصالحين ، وان كنت كاذبا فأماتنى الله بها ، وأبقاك الى الفتنة ، فانك تحب الامارة جدا ، ولعلك أن تعطى فيها سؤلك يا عمرو !! فقال عمرو بن العاص : أقسمت عليك أبا عبد الرحمن ألا تغضب ، ولا تقل الا خيرا ، فوالله ما أردت بك مساءة قط .. فسكت معاذ ، فلم يرد عليه » . ثم أضاف عقب ذلك قائلا : واشتد الطاعون بالشام ، وفشا الموت فى الناس ، فقال عمرو بن العاص : أيها الناس ، ان هذا الوباء قد وقع فيكم ، انما هو من وخز الجن ، فمن أقام به هوى ومن انحاز عنه نجا ! فبلغ ذلك معاذ بن جبل ، فكأنه غضب لذلك ، ثم قال : ويح عمرو بن العاص ! انه ليقول ما ليس له به علم ، أتراه قد صار ؟؟ .

ثم نادى معاذ بن جبل فى المسلمين فجمعهم ، حتى تكاملوا عنده ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ، انه قد بلغنى كلام عمرو ابن العاص فى هذا الوباء ، الذى يبتلى الله عز وجل به من يشاء من خلقه ، والله لقد أسلمنا وصلينا مع رسول الله ﷺ ، وان عمرا يومئذ لأضل من حمار شارد عن أهله ، وليس الأمر فى الوباء كما قال عمرو بن العاص ، لكنها رحمة من ربكم ، ودعوة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وميتة الصالحين من قبلكم (٥٨) .

---

(٥٨) الفتوح ١/٣١٠ — ٣١٣ .

ومن الغريب جدا أن يعود ابن أعثم ، فيقر بالحقيقة التى لا مفر من الاعتراف بهـا ، وهى أن معاذا وعمرا من خيار الناس ، وأن العلاقة بينهمـا هى علاقة المسـلم الصادق بأخيه ، وأن ثقة كل منهمـا بالآخر ثقة كاملة ، وأنه لا مجـال بينهمـا لسوء الظن والتهمة ! ولذلك لـم يلبث ابن أعثم طويلا ، حتى اعتدل قوله ، وصرح بمـا ينبغى أن يسجل فقـال : ثـم شهد معاذ بن جبل شهادة الحق ، وتوفى ـ رضى الله عنه ـ وقد استخلف على المسلمين عمرو بن العاص ، وهو الذى صلى عليه ، وأدخله قبره فى رجال ، فلمـا خرجوا وحثوا عليه التراب قال عمرو بن العاص : « رحمة الله عليك يا معاذ ، فلقـد كنت ناصحـا للمسلمين عظيم الغنى عن جماعتهم ، كنت مؤدبا للجهـال ، شديدا على الفاجر ، وايم الله لـم نجد بعدك مثلك أبدا » (٥٩) .

فهل كان يستقيم عقلا ، أن يستخلف معاذ عمرو بن العـاص على جماعة المسلمين بالشـام ، وهو ذلك الرجل الضـال ـ بـل الأضـل من الحمار الشارد ؟ ! .

والمتبادر الآن ، أن نسأل ابن أعثم : ما الذى أقحم الفتنة على لسـان معاذ فى هذه المناسبة وقـد وقعت بعد وفاته ـ رضى الله عنه ـ ببضع عشرة سنة ؟؟ والأسئلة حول هـذا الذى فعله ابن أعثـم فى تاريخه بشأن تلك المناسبة كثيرة يزاحم بعضهـا بعضـا ، ولكن لا تعويل على جوابات عنهـا نافعة أو شافعة !! .

---

(٥٩) الفتوح ٣١٧/١ ـ وانظر ما سجله ابن أعثم عن مكانة عمرو بن العاص ، لدى أبى بكـر ، وأبى عبيدة رضى الله عنهمـا ، فى فتوحـه ١٢٥/١ : ففيه رد من ابن أعثم على نفسـه ، كمـا أن فيه اثبـاتا قاطعا بتناقض أقواله بعضهـا مـع بعض ، ومن كثـر لغطه كثر غلطه ! .

تهافت المؤرخ ! .

ومن المتواتر على ألسنة المؤرخين ، أن وفاة عمرو بن العاص كانت بمصر ، ليلة الفطر من عام ٤٣ هجرية [٦٠] . وأن وفاة الحسن بن على ابن أبى طالب كانت بعد ذلك ببضع سنين ، أى فى سنة ٤٩ ، أو ٥٠ أو ٥١ هـ ، كما ذكر المؤرخون [٦١] . ومع ذلك الفارق الكبير الذى لا يقل عن ست سنوات ، سبق بها عمرو الحسن الى لقاء ربه ، لا يخالف فى ذلك أحد من مؤرخى الاسلام ، فان صاحبنا هذا ، ينسيه الهوى المتحكم ذلك كله ، ويخرج على قارىء فتوحه ، بالعجيب المغرب فى نسج الأخبار ، واصطناع الحوادث فيقول ، وكأنه لم يقرأ ولم يسمع التاريخ — : « وتوفى الحسن بن على بالمدينة ، فأقبل عمرو بن العاص حتى دخل على معاوية فقال : يا أمير المؤمنين ، انه قد توفى الحسن بن على بالمدينة ، وقد قر هذا الأمر فيك وفى ولدك ، وفيمن تومىء اليه من أهل بيتك ، ويجب عليك أن تعقد لرجل من أهلك عقدا فى أعناق المسلمين ، يقوم بأمرهم من بعدك ، ولكن (كذا ولعلها « وليكن ») ذلك عن الرضا والاختيار . فقال له معاوية : ننظر فى ذلك أبا عبد الله وتنظر أنت أيضا ، ويقضى الله فى ذلك ما يحب ويرضى » [٦٢] .

ومن نافلة القول ، أن نذكر أن أحدا من المؤرخين لم يسجل لعمرو بن العاص أى دور فى هذه القضية التى تعد من بين المآخذ الرئيسية التى أخذها خصوم معاوية بن أبى سفيان عليه ، وأعنى بها

---

(٦٠) ابن سعد : الطبقات ١٨٨/٢/٧ ، ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ١٨٠ — ١٨١ ، الكندى : ولاة مصر ص ٥٦ — ٥٧ . الذهبى : سير أعلام النبلاء ٧٧/٣ .

(٦١) خليفة بن خياط : التاريخ ص ٢٠٩ ، والطبقات له ص ٥ — ابن الأثير : أسد الغابة ١٥/٢ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ٢٧٨/٣ .

(٦٢) الفتوح ٢٠٥/٤ — ٢٠٦ .

« أخذ العهـد بالخلافة من بعده لولده يزيد بن معاوية » ، وانمـا الذى صرح به بعض كتاب التاريخ دون اختلاف بينهم تقريبا هـو : أن الذى عرض هذه الفكرة لأول مـرة على أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان ، انما هو المغيرة بن شعبة الثقفى ، حينما أحس بأن معاوية ينوى عزله عن ولاية الكوفة ، فأراد التقرب اليه بعرض هـذه الفكـرة عليه (٦٣) ..

والذى نستخلصـه من كل ما سبق ، أنه لا علاقة لعمرو بن العاص بهذه المسألة من قريب أو من بعيـد ، وأن اقدامه فيهـا على هـذه الصورة التى اصطنعهـا صاحب الفتوح ، انمـا القصـد منهـا — فيما يمكن أن يفهمه الباحث التاريخى — زيادة غضب الشيعة عليه ، باعتباره شريكا فى التمهيد لتولى يزيـد الخلافـة ، كمـا شارك فى التمهيـد لتولى أبيه « معاوية » من قبل فى عملية التحكيم المشهورة ، والتى كان عمرو بن العاص ممثلا فيهـا لمعاوية !! .

بين عثمان وعلى وأبى ذر :

ومن حيث أراد ابن أعثم الطعن على عثمان بن عفان رضى الله عنه ، والصاق السوءات التى لا أصـل لها به ، قصدا الى تشويه صورته ، وتسفيه رأيه ، والحط من قدره — من حيث أراد ابن أعثم ذلك ، غاص فيما لم يرد ، وانغمس من حيث لا يدرى فى النيل من على رضى اللـه عنه ، وتقول عليه وعلى عثمان كلاما لا يصدر عنهمـا ، وأجـرى بينهما حوارا هو أبعد ما يكون عن أخلاق السابقين الأولين من أصحـاب رسول الله صلى الله عليه وسلم !! .

يقول ابن أعثم : وكان أبو ذر — رضى الله عنه — مقيما بالشـام ، فجعل يظهـر عيب عثمان هناك ، ويذكـر منه خصالا قبيحة ، فكتب معاوية بن أبى سفيان بذلك الى عثمان : ان أبا ذر قـد أفسـد عليك

---

(٦٣) الطبرى : تاريخ ٥/٣٠١ — ٣٠٢ .

الشـــام ، وذلك أنه يظهـــر لأبى بكـــر وعمر كل جميـــل ، فاذا ذكرك أظهر عيبك ، وقال فيك القبيح ، وانى أكره أن يكون مثله بالشـــام أو بمصر أو بالعراق ، لأنهم قوم سراع الى الفتن ، وأحب الأمور اليهم الشبهات ، وليسوا بأهل طاعة ولا جماعة .. فكتب عثمان الى معاوية : اذا ورد عليك كتابى هذا فابعث به « أبى ذر » الى ، واحمله على أغلظ المراكب وأوعرها ، وابعث معه دليلا يسير به الليـــل مـــع النهار حتى يغلبه النوم فينسيه ذكرى وذكرك !! فمـــا أسرع أن بعث به كذلك ، فوصـــل الى المدينـــة وقـــد ســـقط لحم فخذيه — كما يقول !! ولما كان ابن أعثم حريصـــا على تعميق احساسنا بمـــا نال أبا ذر من عثمان ومعاوية من أذى فى هذه السفرة ، فقـــد أضـــاف قوله « وكان أبو ذر رحمه الله رجلا ، آدم ، طويلا ، ضعيفـــا ، نحيفا ، شيخـــا أبيض الرأس واللحية !! » .

فلما أدخل أبو ذر — بعد هذه الرحلة المضنية — على عثمان ونظر اليه ، قال : لا أنعم الله بك عينا ياجنيدب ! فقـــال أبو ذر : أنا جندب بن جنادة ، وسمانى النبى صلى الله عليه وسلم « عبد الله » ، فقـــال عثمان : أنت الذى تزعم بأننا نقول ان يد الله مغلولة ، وان الله فقير ونحن أغنياء؟ فقال أبو ذر : لو كنتم لا تقولون ذلك لأنفقتم مال الله على عباده المؤمنين انى لم أقل ذلك ، ولكنى أشهد ، لقـــد سمعت رسول الله صلى اللـــه عليه وسلم وهو يقول : « اذا بلغ بنو أمية العاص ثلاثين رجـــلا ، جعلوا مال الله دولا ، وعباد الله خولا ، ودين الله دخلا ، ثـــم يريح الله العباد منهم » (٦٤) فقـــال عثمان لمن بحضرته من المسلمين : أسمعتم هـــذا

---

(٦٤) جاء فى خطبة لأبى حمزة الخارجى (ت ١٣٠ هـ) بمكة المكرمة « ثم ولى معاوية بن أبى سفيـــان — لعين رسول الله ، وابن لعينه — فاتخذ عباد الله خولا ، ومال الله دولا ، ودينه دغلا ، ثـــم مضى لسبيله ، فالعنوه ، لعنه الله » الجاحظ : البيان والتبيين ٢/١٢٣ . فليس هـــذا من كلام رسول الله ولا من كلام أبى ذر ! .
=

الحديث من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالوا : ما سمعناه ! فقال عثمان : ويلك يا جندب ! أتكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال أبو ذر لمن حضر : أتظنون أنى كذبت ولم أصدق فى هذا الحديث ؟ فقال عثمان : ادعوا لى على بن أبى طالب ، فدعى له ، فلما جلس قال عثمان لأبى ذر : اقصص عليه حديثك فى بنى أبى العاص ، فأعاد الحديث ، فقال عثمان : يا أبا الحسن ، هل سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال على — رضى الله عنه — لم أسمع هذا ، ولكن قد صدق أبو ذر ، فقال عثمان : وبماذا صدقته ؟ فقال على : بحديث النبى صلى الله عليه وسلم ، قال « ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أحدا أصدق لهجة من أبى ذر » (٦٥) .

فقال جميع من حضر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : صدق على . قال أبو ذر : أحدثكم أنى سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتتهموننى ! ما كنت أظن أنى أعيش حتى أسمع هذا منكم ؟ فقال عثمان : كذبت ، أنت رجل محب للفتنة فقال أبو ذر : اتبع سنة صاحبيك أبى بكر وعمر حتى لا يكون لأحد عليك كلام . فقال عثمان : ما أنت وذاك لا أم لك فقال أبو ذر : والله ما أعرف لى اليك ذنبا الا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فاشتد غضب عثمان ثم قال : أشيروا على فى أمر هذا الشيخ الكذاب فقد فرق جماعة المسلمين !! فقال على — رضى الله عنه — أما أنا فأشير عليك بما قال مؤمن آل فرعون : « فان يك كاذبا فعليه كذبه وان يك صادقا يصبكم

= راجع المقريزى النزاع والتخاصم ص ٥٢ أسند المقريزى الى أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اذا بلغ بنو أبى العاص أربعين رجلا اتخذوا دين الله دغلا وعباد الله دولا » .

(٦٥) ابن سعد : الطبقات ١٦٨/١/٤ ، الحاكم : المستدرك ٣٤٢/٣ ، ابن الأثير : الكامل ٣٥٧/١ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ٥٩/٢ .

بعض الذى يعدكم ان الله لا يهدى من هــو مسرف كذاب » (٦٦) •

فقال عثمان : التراب بفيك يا على ؟ ! فقال على : بل بفيك ياعثمان ! أتصنع هذا بأبى ذر وهو حبيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى كتاب كتبه اليك معاوية ـــ من قد عرفت رفقه (كذا) وظلمه ؟ فأمســك عثمان عن على •

ثم أقبل على أبى ذر فقال : اخرج عنا من بلدنا ! فقال أبو ذر : ما أبغض الى جوارك ، ولكن الى أين أخرج ؟ فقــال عثمان الى حيث شئت ، فقــال : أرجع الى الشــام فانهــا أرض الجهاد • فقــال عثمان : انى انما جئت بك من الشــام لما تفســد بها على ، ولا أحب أن أردك اليهــا • قال أبو ذر : فأخرج الى العراق • قال عثمان : لا ، لأنهم قوم أهل شبهة وطعن على الأئمة • فقال أبو ذر : فانى حيث كنت ، فلا بد لى من قول الحق ، فالى أين تحب أن أخرج ؟ فقــال : الى بلد هو أبغض اليك • قــال : الربذة • قــال : فاخرج اليهــا ، ولا تعدها •• (٦٧) •

ونمسك عن بقية الخبر ، ويكفينا منه هــذا القدر الذى قدمــت ، والذى يفيض ملاحاة ، وسبابا ، ومساءات متبادلة !! وبين من ؟ انهــا بين ثلاثة من أعظم صحابة رسول الله ، فعثمان وعلى هما من همــا شرفا ومنزلة ، ويكفيهما فخرا أنهما زوجان لثلاث من بنات النبى عليه الصلاة والسلام ، وبشرا بالجنة ، وأنهمــا ثالث ورابع الخلفاء الراشدين ، أما أبو ذر فهو كمــا قال الذهبى : أحد السابقين الأولين ، من نجباء أصحاب محمد ﷺ ، وكــان خامس خمســة فى الاســلام (٦٨) ودعاله رسول الله وأثنى عليه وبشره حين المسير الى تبوك بمالم ينله غيره فقــال

---

(٦٦) سورة غافر ـــ الآية ٢٨ •

(٦٧) الفتوح ١٥٥/٢ ـــ ١٥٩ •

(٦٨) سير أعلام النبلاء ٤٦/٢ ، وانظر ابن سعد : الطبقات ١٦٤/١/٤

صلى الله عليه وسلم : « رحم الله أبا ذر ، يمشى وحده ، ويموت وحده، ويبعث وحده ! » (٦٩) .

ان هؤلاء السـادة من أعلام الصحابة ، يبعد تماما أن يكـون أسلوب تعاملهم ، وأن تكون علاقاتهم ، وأن يتحاوروا فيما بينهم عـلى هذا النحو الذى قدمه ابن أعثم آنفا ، ان تربيتهم التى نشأهم عليهـا نبى الاسلام ، وان أخلاقهم التى تمثلوا فيهـا — جاهدين — رسـول الله ، وان مبادىء الاسلام الرفيعة السمحة التى تشربوها واستقرت فى وجدان كل منهم ، ان كل ذلك — وهو عظيم هـائل — يحول بينهم وبين تشكيل هذه الصورة الشوهاء التى رسمهـا القلم الطائش قلـم ابن أعثم الكوفى ما فى ذلك ريب أو بادرة تردد !! .

واذا كانت هذه الصورة — المرفوضـة — من حيث المتن كمـا بينـا ، ومن حيث الاسناد ، لأنه لا اسناد لهـا فى الواقـع ، صورة قـد انفرد بهـا ابن أعثم ، فاننا نقدم الصورة الصحيحة لهذه القصـة المشهورة ، من سجلات ودواوين التاريخ المعتبرة لدى علمـاء الأمة ، ليميز الخبيث من الطيب ، وليعرف النـاس ما يصنعه المنحرفون من بعض طوائف الأمة الاسلامية ، بتاريخهـا وتراثهـا ، وقيمهـا العالية!!

قال مؤرخو الاسلام — واللفظ لابن الأثير — : وفى هذه السـنة (سنة ثلاثين) كان ما ذكر فى أمـر أبى ذر ، واشخاص معاوية ايـاه الى المدينة ، وقـد ذكر فى سبب ذلك أمور كثيرة ، من سب معاويـة اياه ، وتهديده بالقتل ، وحمله الى المدينة من الشـام بغير وطاء ، ونفيه، من المدينة على الوجه الشنيع ، لا يصح النقل به !! ولو صـح لكـان ينبغى أن يعتذر عن عثمان ، فان للامام أن يؤدب رعيته ، وغير ذلك من

---

(٦٩) ابن هشام : السيرة النبوية ٥٢٤/٢ ، ابن سعد : الطبقـات ١٧٣/١/٤ ، ابن الأثير : أسـد الغابة ١٠١/٦ ، الذهبى : سـير أعـلام النبلاء ٥٦/٢ .

الأعذار ، لا أن يجعل ذلك سببا للطعن عليه ، كرهت ذكرها ٠ ٠٠٠٠ ،
وكان أبو ذر يذهب الى أن المسلم لا ينبغى له أن يكون فى ملكه أكثر من قوت يومه وليلته ، أو شىء ينفقه فى سبيل الله ، أو يعده لكريم ، ويأخذ بظاهر القرآن « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم »[٧٠] ٠

فكان يقوم بالشام ويقول : يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء ، بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباهم وجنوبهم وظهورهم ، فمازال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك ، وأوجبوه على الأغنياء ، وشكا الأغنياء ما يلقون منهم ٠٠٠ فكتب اليه عثمان : ان الفتنة قد أخرجت خطمها وعينيها ولم يبق الا أن تثب ، فلا تنكأ القرح ، وجهز أبا ذر الى ، وابعث معه دليلا ، وكفكف الناس ونفسك ما استطعت ٠ وبعث اليه بأبى ذر ٠

فلما قدم المدينة ، ورأى المجالس فى أصل جبل سلع قال : بشر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار ٠ ودخل على عثمان فقال له : ما لأهل الشام يشكون ذرب لسانك ؟ فأخبره فقال : يا أبا ذر ، على أن أقضى ما على ، وأن أدعو الرعية الى الاجتهاد والاقتصاد ، وما على أن أجبرهم على الزهد ٠ فقال أبو ذر : لا ترضوا من الأغنياء حتى يبذلوا المعروف ، ويحسنوا الى الجيران والاخوان ، ويصلوا القرابات — فقال كعب الأحبار وكان حاضرا : من أدى الفريضة فقد قضى ما عليه ٠ فضربه أبو ذر فشجه ، وقال له : يا ابن اليهودية ، ما أنت وما هاهنا ؟ فاستوهب عثمان كعبا شجته ، فوهبه — فقال أبو ذر لعثمان : تأذن لى فى الخروج من المدينة ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمرنى بالخروج منها اذا بلغ البناء سلعا (جبل سلع) ٠

---

(٧٠) سورة التوبة الآية ٣٤ ٠

فأذن له ، فنزل الربذة ، وبنى بهـا مسجدا ، وأقطعه عثمـان صرمة من الابل [٧١] .

وأعطاه مملوكين ، وأجرى عليه كل يوم عطاء [٧٢] ..

وهكذا نجد القصـة تخلو من ذكر على بن أبى طالب من قـرب أو من بعد ! .

كذلك ليست صفة أبى ذر وهيئته على ما ذكـر ابن أعثم ، بـل قال المؤرخون الذين يعتد بهم فى وصفه : « وكان أبو ذر طويـلا عظيما » [٧٣] ، ويروى الأئمة من المحدثين والمؤرخين أن أبا ذر قـد سأل النبى عليه الصلاة والسلام الامرة ، فقال له : « يا أبا ذر ، انى أراك ضعيفـا ، وانى أحب لك ما أحب لنفسى ، لا تأمرن على اثنين ، ولا تولين مال يتيم » [٧٤] .

ويقول الحافظ الذهبى تعليقا على هذا الاثـر الصحيح ، حتى يدفع توهم غير الحقيقة فى وصف أبى ذر بالضعف الجسمى : فهـذا محمول على ضعف الرأى ، فانه لو ولى مال يتيم ، لأنفقه كله فى سبيل الخير ، ولترك اليتيم فقيرا ، فقـد ذكرنا أنه كان لا يستجيز ادخار النقـدين (الذهب والفضـة) ، والذى يتأمر على النـاس ، يريـد أن يكـون فيه حلم ومداراة ، وأبو ذر رضى الله عنه كانت فيه حدة فنصحه النبى صلى الله عليه وسلم [٧٥] .

---

(٧١) الصرمة من الابل : ما بين العشرين الى الثلاثين .

(٧٢) الكامل فى التاريخ ١١٣/٣ — ١١٥ ، وانظر : ابن سـعد : الطبقات ١٦٦/١/٤ — ١٦٧ ، الطبرى : تاريخ ٢٨٣/٤ — ٢٨٦ ، أبو بكر ابن العربى : العواصم من القواصم ص ٧٣ وما يليها ، الذهبى : سير اعلام النبلاء ٦٤/٢ وما يليهـا ، ابن تيمية : منهاج السنة ١٩٨/٣ — ١٩٩) .

(٧٣) أسد الغابة ١٠١/٦ ، سير الأعلام ٦٩/٢ .

(٧٤) الامام أحمد : المسند ١٨٠/٥ ، الامام مسلم : الصحيح ٧/٦ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ٧٥/٢ .

(٧٥) سير أعلام النبلاء ٧٥/٢ .

بين على وعائشـــة :

ولقد أغرب ابن أعثم أشـــد الاغراب ، وجاوز حد المقبول والمعقول فى تلفيق التاريخ ونسج الأخبار ، ولم يكتف بالنيـــل من أم المؤمنين عائشـــة رضى الله عنهـــا فيما سلف من روايات مخترعة وأقاصـــيص مبتدعة ، وانمـــا أضـــاف الى ذلك ، ما ألقاه اليه شيطان التعصـــب وشطط التحزب ، فافترى على الله وعلى رسوله ، وعلى أم المؤمنين عائشة بل عـــلى أمهات المؤمنين ــ رضى الله عنهن جميعا ــ كمـــا افترى عـــلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب نفســـه من حيث لا يحتسب ! ؟ فلقـــد حسب ــ وما أبعده عن صحة الحسبان ــ أنه يضيف بما قاله ــ فيما يلى ــ مكرمة الى الامام على رضى الله عنه ذى المكرمات الفائقـــة والمزايـــا الرفيعة ، فاذا الأمـــر فى النهاية على خلاف ما أراد ، وصـــار ما اعتقده هذا الطائش الكوفى ابن أعثم منقبة سجلت لعلى منقصـــــة يبـــرأ منهـــا كل مسلم على الاطلاق ، بمـــا تضمنته من اهانة سافرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأزواجه رضى الله عنهن جميعا !! .

والقصة الغريبة جدا التى انطوت على هذه الفرية العجيبة ، أوردها ابن أعثم فى ختام حديثه عن موقعة الجمـــل المشؤومة ، فى الســـــياق التالى :

بعد انتهـــاء القتال ، نقلت عائشـــة رضى الله عنهـــا الى أحـــد بيوت البصرة ، ثم أرسل اليهـــا أمير المؤمنين يطلب منهـــا الرحيل الى المدينـــة ، فجادلت عبد الله بن عباس ، وأبت الرحيل ، فجاءها على بنفسه وطلب منهـــا العودة الى المدينـــة ، قـــال ابن أعثم : « فلمـــا كـــان من الغد ، بعث اليهـــا ابنه الحسن ، فقـــال لهـــا : يقول لك أمير المؤمنين « أما والذى خلق الحبة ، وبرأ النسمة ، لئن لـــم ترحلى الســـاعة لأبعثن عليك بما تعلمين » . قـــال : وعائشة فى وقتهـــا ذلك قد ضفرت قرنهـــا الأيمن ، وهى تريـــد أن تضفر الأيسر !! فلما قال لهـــا الحسن

ما قــال ، وثبت من ساعتهــا وقالت : رحلونى ! فقالت لها امرأة من المهــالبة (٧٦) يا أم المؤمنين ، جاءك عبد الله بن عباس فسمعنــاك وأنت تجاوبيه (كذا) حتى علا صوتك ، ثم خرج من عندك وهو مغضب ، ثم جاءك الآن هذا الغلام (٧٧) برسالة أبيه ، فأقلقك ، وقــد كــان أبوه جاءك ، فلم نر منك هــذا القلق والجزع ؟ ! فقالت عائشة : انما أقلقنى لأنه ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن أحب أن ينظر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلينظر الى هذا الغلام ، وبعد ، فقد بعث الى أبوه بمــا قد علمت ، ولابد من الرحيل ! فقالت لهــا المرأة : سألتك بالله وبمحمــد صلى الله عليه وسلم الا أخبرتنى بماذا بعث اليك على رضى الله عنه •

فقالت عائشــة رضى الله عنهــا : ويحك ! ان رسول الله صــلى الله عليه وسلم أصاب من مغازيه نفلا ، فجعل يقســم ذلك فى أصحابه ، فسألناه أن يعطينــا منه شيئا ، وألححنا عليه فى ذلك ، فلامنا على رضى الله عنه وقال : حسبكن ، أضجرتن رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، فتجهمناه وأغلظنــا له فى القول ، فقال : « عسى ربه ان طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن » (سورة التحريم • آية ٥) فأغلظنا لــه أيضــا فى القول وتجهمناه ، فغضب النبى صلى الله عليه وســلم من ذلــك ، وممــا استقبلنــا به عليــا ، فأقبل عليه ، ثــم قال : « يا على ! انى قد

---

(٧٦) المهالبة : هم أبناء المهلب بن أبى صفرة الأزدى المتوفى سنة ٨٣ هـ واحفاده وكل من جاء من نسله ، لكن وجود امرأة من المهالبة فى هــذه المناسبة خطأ فاحش يطعن رواية ابن أعثم فى الصميم ، ويسقط أى اعتبار لهــا ، ذلك أن المهلب قــد ولد فى عام سبعة من الهجرة ـــ أى قبــل الجمل بتســعة وعشرين عاما ، فهل يتأتى للمهلب وهو فى هذه السن المبكرة أن تكون له ابنة تصلح أن تكون من رفيقات أم المؤمنين تعقــل مثل هــذه الأمور ، وتصف الحسن بن على بالغلام وهو يومئذ أكبر من المهلب الذى تنتمى اليه ؟!

(٧٧) كيف يكون الحسن بن على يومئذ غلاما وهو فى الثلاثين من عمره أو يزيــد ! ؟ .

جعلت طلاقهن اليك فمن طلقتهـــا منهن فهى بائنة ولم يوقت النبى (ص) فى ذلك وقتا فى حياة ولا موت !! فهى تلك الكلمة ، وأخاف أن أبين من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ !! [٧٨] .

وســاطة لا أصــل لهــا :

ومن أعاجيب ابن أعثم ، ومفرداته التى اختص بها كتابه «الفتوح»: تلك القصــة التى زعم فيها ، أن اثنين من جلة الصحابة رضى اللــه عنهم ، قاما بدور الوسيط بين على ومعاوية للتقريب بينهما ، ووقــف القتال بين المسلمين فى صفين وانهاء هذا الخلاف الذى يهدد الأمــة الاسلامية تهديدا خطيرا ، قــال ابن أعثم — فى ثنايا حديثه عن حــرب صفين — : « فلمــا كان من الغد ، أقبل أبو هريرة [٧٩] وأبو الدرداء [٨٠]،

---

(٧٨) الفتوح ٣٣٥/٢ — ٣٤٠ . والذى لا ريب فيه أن هــذا البهتان ، والا فك المبين ، لا يقول به ابن أعثم وحده ، وانمــا هذا الافتراء وأشباهه مما تنضح به كتب الشيعة المعول عليهــا عندهم ، فلقــد نقل احســـان الهى ظهير — الباكستانى — عن أئمة الكتاب عندهم مثل الكشى وهو الفقيه الامامى محمد بن عمر بن عبد العزيز ، المتوفى نحو ٣٤٠ هـ — والطبرسى وهو المفسر اللغوى الامامى الفضل بن الحسن بن الفضل ، المتوفى سنة ٥٤٨ هـ — هذه القصة بذاتها مع اختلاف فى بعض التفاصيل ! راجع كتابه « الشيعة والسنة — طبع لاهــور بباكســتان ١٤٠١هـ /١٩٨١ م» ص ٤٧ — ٤٩ .

(٧٩) اقرأ فى ترجمة أبى هريرة — وهو عبد الرحمن بن صخر الدوسى المتوفى عام ٥٧ هـ — ابن سعد : الطبقات ٥٢/٢/٤ — ٦٤ . يعقوب بن سفيان : المعرفة والتاريخ ١٦٠/٣ — ١٦٢ . ابن عبد البر : الاستيعاب ١٧٦٨/٤ — ١٨٧٢ . ابن الأثير : أســد الغابة ٣١٨/٦ — ٣٢١. ابن حجر: الاصــابة ٦٣/١٢ — ٧٩ . الذهبى : سير أعلام النبلاء ٥٧٨/٢ — ٦٣٢ .

(٨٠) أبو الدرداء هو عويمر بن عامر بن زيــد بن قيس ، الأنصارى المتوفى عام ٣٢ هـ . ترجم له : ابن سعد : الطبقات ١١٧/٢/٧ — ١١٨ ، ابن أبى حاتم : الجرح والتعديل ٢٦/٧ — ٢٨ ، ابن عبد البر : الاستيعاب ١٦٤٦/٤ — ١٦٤٨ ، ابن الأثير : أسد الغابة ٩٧/٦ — ٩٨ ، ابن حجر . الاصابة ١٨٢/٧ — ١٨٣ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ٣٣٥/٢ — ٣٥٣ .

حتى دخلا على معاوية ، فقالا له : يا معاوية ، علام تقاتل على بن أبى طالب ، **وهو أحق بهـذا الامر منك لسابقته فى الدين وفضـيلته فى الاسلام ، وهو رجل من المهاجرين الأولين السابقين ، وأنت رجـل طليق ، وكان أبوك من الأحزاب ؟** فقال معاوية : انى لست أزعم أنى أحق بهـذا الأمـر منه ، وانى لأ علم أن عليـا لكمـا وصفتمـا ، ولكنى أقاتله حتى يدفع الى قتلة عثمان ، فاذا فعل ذلك ، كنت أنا رجـلا من المسلمين ، أدخل فيمـا دخل فيه الناس ، قالا : ياهـذا ، انا نكفيك بهذا الأمـر . ثـم أقبلا على على بن أبى طالب ، فسلما عليه وقالا : يا أبا الحسن ، **ان لك فضلا لا يدفـع ، وشرفا لا ينكـر ، وقـد سرت مسير من لا يشبهك الى رجل سفيه ، ومعه قـوم سفهاء لا يبالون بمـا قالوا ، ولا بمـا قيل لهم !!** وقد زعم معاوية أن قتلة عثمان عندك ، وفى عسكرك ، فادفعهم اليه ، فان فعلت ذلك وقاتلك معاوية بعـد ذلك علمنا أنه ظـالم متعد ..

فقال على رضى الله عنه : **انى لم أحضر عثمان فى اليوم الذى قتل فيه ،** ولكن هل تعرفان من قتله ؟ فقالا ، بلغنـا أن محمد بن أبى بكـر فيمن دخل عليه ، وعمار بن ياسر ، والأشتر ، وعـدى بن حـاتم وعمرو ابن الحمق ، وفلان ، وفـلان ، فقال على : فانطلقا اليهم فخذاهم . فأقبل أبو هريرة وأبو الدرداء الى هؤلاء القوم ، فأخذاهم ، وقالا لهم: أنتم ممن قتل عثمان ، وقـد أمرنا أمير المؤمنين بأخذكم ! فوقعـت الصيحة فى العسكر بهـذا الخبر ، فوثب من عسكر على أكثـر من عشرة آلاف رجل ، فى أيديهم السيوف ، وهم يقولون : نحن كلنـا قتلنا عثمان !! فبقى أبو هريرة وأبو الدرداء متحيرين ، وأنشأ رجل من أصحاب على يقول :

ألا ذهب الخداع فـلا خداع — وأبدى السيف عن طبق النخاع
أبا الدرداء لا تعجـل علينـا — وأنت أبـا هريرة غير واعى

الى آخـر الأبيـات ...

قال ابن أعثم : فخرج أبو هريرة وأبو الدرداء من عسكر علي وهما يقولان : هذا الأمر لا يتم أبدا . واذا بصائح يصيح بهما من ورائهما وهو يقول :

أيها الطالبان ثأر ابن عفا ن وللقتل والقصاص رجال
ان تكونا أمرتما بدم القا تل فالناس كلهم قتال

الى آخر الأبيات ...

ثم أقبل أبو هريرة وأبو الدرداء الى معاوية ، فأخبراه بما سمعا من عسكر علي ، ثم انصرفا الى حمص ، وبها يومئذ عبد الرحمن بن غنم الأشعري [٨١] ، فأخبراه بالقصة ، فقال لهما عبد الرحمن : العجب لكما ، تأتيان عليا ، وتطلبان منه قتلة عثمان ، وقد علمتما **أن المهاجرين والأنصار كانوا بالمدينة حضورا يوم قتل عثمان ، فما نصروه ولا دفعوا عنه !! وأنتما تعلمان أن من رضي بعلي خير ممن كرهه ، وأن من بايعه خير ممن لم يبايعه ، ثم انكما صرتما رسولين لرجل من الطلقاء الذين لا يحل (كذا لعلها يحق) لهم الخلافة ، ولا الشورى ، فسوءة لكما ، ولما جئتما به !! »** (الفتوح ٣ / ٩٣ — ٩٨) .

وعلى الرغم من طول هذه القصة ، وما حفلت به من المحاورات المثيرة ، والأقوال الخطيرة ، والاتهامات المتبادلة ، والشتائم المسيئة ، فانها قصة زائفة ، تحمل بين ثناياها عناصر بطلانها ، وأدلة اختلاقها وأول ما نبادر باعلانه في ذلك : أنه لا وجود لتلك الرواية جملة وتفصيلا في سائر الكتب السابقة على فتوح ابن أعثم ، أو المعاصرة ، وبذلك

---

(٨١) توفي عام ٧٨ هـ ، وترجم له : ابن سعد : الطبقات ١٥٣/٢/٧ ، يعقوب بن سفيان : المعرفة والتاريخ ٣٠٩/٢ ، ابن عبد البر : الاستيعاب ٨٥٠/٢ — ٨٥١ ، ابن الأثير : أسد الغابة ٤٨٧/٣ — ٤٨٨ . الذهبي : سير أعلام النبلاء ٤٥/٤ — ٤٦ .

يكون الباب الوحيد الذى أطلعنا منه عليها ، وآية ذلك أن نعيد النظر فى حرب صفين من بدايتها الى نهايتها ، فلا نجد صدى لهذه الوساطة المزعومة أبدا فى أى من تلك التواريخ المشار اليها [٨٢] .

ثم أن كتب الرجال جميعا قد اتفق أصحابها على أن أبا الدرداء عويمر بن عامر الأنصارى رضى الله عنه ، قد توفى قبل صفين بعدة سنين لا تقل عن ثلاث ، فكيف يتأتى له القيام بالوساطة وقد انتقل الى جوار ربه ؟ لقد أرخ وفاته كل من محمد بن سعد [٨٣] وخليفة ابن خياط [٨٤] فى سنة ٣١ أو ٣٢ هـ ، وأما البخارى فقال : كانت وفاة أبى الدرداء قبل مقتل عثمان بسنة [٨٥] وقال يعقوب بن سفيان البسوى : توفى أبو الدرداء قبل أن يقتل عثمان ، وقبل أن تقع الفتن [٨٦] . أما قول عز الدين بن الأثير فى تاريخ وفاة أبى الدرداء فله مغزى خاص ومفيد ومهم جدا ، ونصه : « وتوفى قبل عثمان بسنتين ، قيل توفى سنة ثلاث أو اثنتين وثلاثين بدمشق ، وقيل توفى بعد صفين سنة ثمان أو تسع وثلاثين . **والأصح ، والأشهر ، والأكثر** عند أهل العلم : أنه توفى فى خلافة عثمان ، ولو بقى لكان له ذكر بعد قتل عثمان ، اما فى الاعتزال ، واما فى مباشرة القتال ، ولم يسمع له بذكر ألبتة ، والله أعلم » [٨٧] . واستبعد الذهبى أن تكون وفاته سنة ٣١ وترجح لديه أنه توفى سنة ٣٢هـ [٨٨] .

---

(٨٢) راجع مثلا : اليعقوبى : تاريخ ١٨٧/٢ وما يليها ، الطبرى : تاريخ ٥/٥ وما يليها ، ابن الأثير : الكامل ٢٧٦/٣ وما يليها .
(٨٣) الطبقات ١١٨/٧ .
(٨٤) الطبقات ص ٩٥ .
(٨٥) التاريخ الصغير ٦١/١ .
(٨٦) كتاب المعرفة والتاريخ ٣٣٥/٣ .
(٨٧) أسد الغابة ٣١٩/٤ .
(٨٨) سير أعلام النبلاء ٣٥٣/٢ .

واذا كانت هناك اشارة عابرة الى هذه الوساطة وردت فى أسد الغابة لابن الأثير (٣/٤٨٧) فى أثناء ترجمته لعبد الرحمن بن غنم الأشعرى ، فلا اعتبار لها لأنه عاد ونفى احتمال حدوثها ألبتة — كما سبق ذكره فى الفقرة السابقة ، كذلك جاءت اشارة أخرى اليها لدى ابن كثير ، غير أنها اشارة مبتورة ، وتختلف فى تفاصيلها عما ذكره ابن أعثم فى قصته ، كما أنها تخلو من الاساءات والتهم الخطيرة المتبادلة التى انطوت عليها رواية ابن أعثم ، قال ابن كثير : « وخرج أبو الدرداء وأبو أمامة (٨٩) فدخلا على معاوية ، فقالا له : يا معاوية علام تقاتل هذا الرجل ؟ فوالله انه أقدم منك ومن أبيك اسلاما وأقرب منك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحق بهذا الأمر منك ! فقال : أقاتله على دم عثمان ، وأنه آوى قتلته ، فاذهبا اليه ، فقولا له : فليقدنا من قتلة عثمان ، ثم أنا أول من بايعه من أهل الشام ، فذهبا الى على ، فقالا له ذلك . فقال : هؤلاء الذين تريان ، فخرج خلق كثير ، فقالوا : كلنا قتلة عثمان ، فمن شاء فليرمنا ! فرجع أبو الدرداء وأبو أمامة فلم يشهدا لهم حربا » (٩٠) .

واذا جاز لنا أن نغض الطرف عن سؤال ابن كثير — ومن قبله ابن الأثير — عن مصدر هذه الاشارة العابرة حول تلك الوساطة ، فلا مندوحة من اثارة القضية الأشد الحاحا فى ذلك الأمر ، وتلكم هى كيفية وأسلوب الحوار بين أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، وعلاقة هؤلاء الرجال الذين ألف الله بين قلوبهم فأصبحوا بنعمة الله اخوانا ، والذين أنعم الله عليهم بصحبة رسوله الكريم فصاروا « أشداء على الكفار ، رحماء بينهم » !

---

(٨٩) هو صدى بن عجلان الباهلى المتوفى ٨٦هـ . ترجم له ابن سعد فى الطبقات ٧/٢/١٣١ ، ابن عبد البر : الاستيعاب ٢/٧٣٦ ، ابن الأثير : أسد الغابة ٣/١٦ ، ٦/١٦ ، الذهبى : سير ٣/٣٥٩ — ٣٦٣ .

(٩٠) البداية ٧/٢٧٠ .

ان الباحث فى التاريخ ينبغى له ألا يسلم بما شحنت به كتب المؤرخين من الروايات والأخبار ، وانما قبل ذلك لابد له أن يجرى عملية اختبار وفحص دقيقة لهذه وتلك من مواد التاريخ ، وبصفة خاصة ما يتعلق منها بتواريخ الرجال وسيرهم الذاتية ، فان وجد الخبر المروى متفقا وأخلاق وسجايا من يخبر عنه ، ويلائم المشهور الذى لا خلاف عليه من سيرته ، قبله وأخذ به ، والا فلا عبرة له ، ولا قيمة له ، ومن ثم يجب اطراحه واهماله تماما . وحينما لا تتوافر لدى الباحث هذه الخلفية التاريخية عمن يتعلق به الخبر — مع ضرورتها وأهميتها البالغة — فلا مناص من استخدام طريقة المحدثين فى النقد والتمييز بين النصوص الحديثية ، وهى البحث فى أسانيد الأخبار ، فاذا وجدوا رجال الاسناد ثقات عدولا مشاهير معروفين لديهم قبلوا روايتهم ، والا ردوها عليهم ، ورفضوا كذبهم دون تردد[٩١] !

ونحن بدورنا اذا طبقنا هذه القاعدة فى النقد والتمحيص ، وبما توافر لدينا — بحمد الله — من معرفة الصحابة ، وأخلاقهم ، وعلاقاتهم بعضهم ببعض ، وسلوكهم الشخصى ، وكل ذلك مدون مبسوط فى دواوين جامعة تعرف بين العلماء بكتب معرفة الصحابة [٩٢] نحن بدورنا نستطيع الحكم دون معاناة على رواية ابن أعثم هذه بأنها غير صحيحة ، ولا يصح الأخذ بها على أى حال ، فهى أولا عارية عن الاسناد الذى يوثقها ويمنحها اعتبارا لدى النقاد ، وهى ثانيا لا تتفق ولا تنسجم — فى سياقها ولفظها وسلوك أبطالها — مع المشهور الثابت المعلوم من خلق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ! .

---

(٩١) ينظر فى هذه القاعدة : ما كتبه الشيخ محب الدين الخطيب فى تعليقه على كتاب العواصم من القواصم ص ١٣٩ هامش ١ .

(٩٢) ومن أشهرها : الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد كاتب الواقدى ، والاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبد البر القرطبى ، وأسد الغابة فى معرفة الصحابة لعز الدين بن الأثير ، والاصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى .

وعلى سبيل المثال : كيف يسوغ لعبد الرحمن بن غنم الأشعرى — رضى الله عنه — (ت ٧٨هـ) أن يقرع ، ويوبخ أبا الدرداء وأبا هريرة وهو يعلم كل العلم مكانتهما الرفيعة كصاحبين جليلين للنبى عليه الصلاة والسلام طالت صحبتهما له ، وشهدا معه المشاهد الكبرى ، بينما لم يلق ابن غنم رسول الله ، وان كان قد أسلم قبل وفاته ؟ ثم أمر آخر ، كيف ساغ له أن يلقاهما بهذا التأنيب الشديد على محاولة جمع كلمة المسلمين ، وانهاء الخلاف بين الفريقين ؟ أما الأمر الثالث فهو الأشد اثارة والأدعى للدهشة ، ألا وهو قوله لهما : العجب لكما ، تأتيان عليا ، وتطلبان منه قتلة عثمان ، وقد علمنا أن المهاجرين والأنصار كانوا بالمدينة حضورا يوم قتل عثمان ، فما نصروه ولا دفعوا عنه ! وأنتما تعلمان أن من رضى بعلى خير ممن كرهه ، وأن من بايعه خير ممن لم يبايعه ، ثم انكما صرتما رسولين لرجل من الطلقاء الذين لا يحل لهم الخلافة ، ولا الشورى ، فسوءة لكما ولما جئتما به ؟!

ان مقتضى قول عبد الرحمن هذا أنه قد بايع عليا ورضى به — حتى لا يصبح فى زمرة المفضولين — فكيف بايعه ورضى به وهو فى حمص — احدى عواصم الشام ، والشام كله برجاله أنصار معاوية ؟ فاذا لم يكن بايع عليا — لأنه من حيث الواقع يقيم مع معاوية — فكيف يناقض حقيقته بهذا الحكم الصريح « من رضى بعلى خير ممن كرهه ومن بايع عليا خير ممن لم يبايعه » ؟؟ ان بيت القصيد فى القصة كلها انما يكمن فى هذا الحكم الذى يقسم الأمة الاسلامية الى طائفتين اثنتين ، الأولى : « من رضى بعلى خير ، ومن بايع عليا خير » وهم الشيعة ، والثانية : هم المفضل عليهم ، وهم الشر المقابل للخير الممثل فى الطائفة الأولى ، وهم من عدا الشيعة من المسلمين طرا !؟ ولا يخفى كذلك أن يكون من غايات ابن أعثم فى هذه القصة : سب معاوية ، وسب أبيه ، وسائر الطلقاء وجلهم مع معاوية ولذلك فهم سفهاء مثل قائدهم ، وهم لا يبالون بما قالوا ، ولا بما قيل لهم ! كما لا يحق لهم الخلافة ولا الادلاء برأى فيها !! •

« بين الحديبية وصفين » :

ودعوى — أو ادعاء — علم الغيب التى ينسبها ابن أعثم الكوفى الى بعض أعلام الصحابة ، تعد ظاهرة بينة فى كتابه « الفتوح » ، وهى ان دلت على شىء ، فانما تدل بجلاء ووضوح على نظرة أولئك الشيعة المتطرفين ، الى التأريخ ، ومنهج صنعه ، وطريقة عرضه ، فهم — وابن أعثم أحد البارزين منهم — يجتهدون بغير ملل أو خجل فى توجيه الحوادث ، وترتيب المواقف ، ووضع النصوص ، واختلاق الأخبار ، ويتعسفون فى تنسيقها بعدئذ ، كى يؤدى كل ذلك فى نهاية الأمر الى تحقيق غايتهم الخاصة ، وترسيخ فكرتهم ومذهبهم الذى لا يدينون بغيره ، ولا يعترفون بسواه !!

فنحن — مثلا — حين نقرأ خبر « صلح الحديبية سنة ٦ هـ » فى المصادر التاريخية المبكرة ، التى عول عليها المؤرخون جميعا ، من لدن القرن الرابع الهجرى الى يوم الناس هذا ، نجد ذلك الموقف الشهير قد انتهى على النحو التالى — واللفظ لابن اسحاق رواية عن ابن شهاب الزهرى (ت ١٢٤هـ)— قال : « ثم بعثت قريش سهيل ابن عمرو أخا بنى عامر بن لؤى (٩٣) ، الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا له : ائت محمدا فصالحه ولا يكن فى صلحه الا أن يرجع عنا عامه هذا ، فوالله لا تحدث العرب أنه دخلها علينا عنوة أبدا ، فأتاه سهيل بن عمرو ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم مقبلا قال : «قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل» ، فلما انتهى سهيل بن عمرو الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تكلم فأطال الكلام ، وتراجعا ، ثم جرى بينهما الصلح •

---

(٩٣) ترجم له : ابن سعد : الطبقات ١٢٦/٢/٧ ، ابن عبد البر : الاستيعاب ٦٦٩/٢ — ٦٧٢ ، ابن الأثير : أسد الغابة ٤٨٠/٢ — ٤٨١ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ١٩٤/١ — ١٩٥ •

فلما التأم الأمر ولم يبق الا الكتاب ... دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب رضوان الله عليه ، فقال : « اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم » ، فقال سهيل : لا أعرف هذا ، ولكن اكتب باسمك اللهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اكتب باسمك اللهم » ، فكتبها ، ثم قال : « اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو » ، فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين » الخ [٩٤] .

هذا هو ما سجله أعلام المؤرخين فى القرنين الثانى والثالث للهجرة عن صلح الحديبية عام ستة من الهجرة لا خلاف بينهم عليه ، ومن ثم رضيه وأقره سائر المؤرخين من بعدهم [٩٥] .

أما ابن أعثم الكوفى ، فقد خالف هؤلاء جميعا ، وغيرهم ممن لم نطل بذكرهم ، وتعسف تعسفا ظاهرا ، وغير ، وبدل ، حين تعرض لهذه الواقعة ، وهو يروى كتاب الصلح الذى اتفق عليه الفريقان بعد أن أنهكتهم حرب صفين فى عام ٣٧هـ ، فقال : « ثم وضع الناس السلاح ، والتقوا فى المنصف بين العسكرين ، ودعوا بالكاتب ، فجاء عبيد الله ابن أبى رافع — مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم — وهو كاتب على — واجتمع الناس من أهل العراق وأهل الشام ، فقال على رضى الله عنه

---

(٩٤) ابن هشام : السيرة النبوية ٣١٦/٢ — ٣١٨ . الواقدى : المغازى ٦٠٣/٢ وما يليها . ابن سعد : الطبقات ٧٠/٢ — ٧١ . خليفة بن خياط : تاريخ ص٨٢ البخارى : الصحيح ١٦٢/٥ اليعقوبى : تاريخ ٢ / ٥٤ — ٥٥ .

(٩٥) راجع الطبرى : تاريخ ٦٣٣/٢ — ٦٣٥ . ابن الأثير : الكامل ٢٠٤/٢ — ٢٠٥ . الذهبى : سير أعلام النبلاء ١٩٤/١ . ابن كثير : البداية والنهاية ١٧٠/٤ — ١٧١ ، ١٧٧ — ١٧٨ .

لكاتبه : « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان » ، فقال معاوية : فان كنت أمير المؤمنين كما زعمت فعلام أقاتلك ؟ فقال على رضى الله عنه : « الله أكبر ، كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يوم الحديبية ، حين صده المشركون عن مكة ، ثم اتفق أمره وأمرهم على الصلح ، بعد ذلك ، فدعانى لأكتب ، فقلت : ما أكتب يا رسول الله ؟ فقال : « اكتب هذا ما اصطلح عليه محمد رسول الله وأهل مكـــة » فقال أبو هذا أبو سفيان بن حرب : يا محمد ، انى لو أقررت أنك رسول الله لما قاتلتك ، ولكن اكتب لنا صحيفتك باسمك واســم أبيك . فكتبت ذلك بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « يا على ، ان لك يوما مثل هذا ، أنا أكتبها للآباء ، وتكتبها للأبناء » !! وانى الآن أكتبه لمعاوية ، كما كتب النبى صلى الله عليه وســلم لأبى سفيان ! فقال عمرو بن العاص : يا سبحان الله ! ونقاس نحن الى الكفار ، ونحن مؤمنون !! فصـــاح به على صيحة ، وقال : يا ابن النابغة ، لو لم تكن للمشركين وليا ، وللمؤمنين عدوا ، لم تكن فى الضلالة رأسا ، وفى الاسلام ذنبا ... » الخ الخبر (٩٦) .

اعتقــاد غير صــحيح :

فى معتقد ابن أعثم ، وسائر المندفعين فى تشيعهم أن أمير المؤمنين عليا ، كان يعلم بعض ما سيقع من الحوادث ، ولذلك فهو يهتبل كل فرصـــة لترسيخ هذا الاعتقاد وتأكيده على أرض الواقع ــ فيما يزعم ــ ولا يرى الحرج فى أن ينســب اليه أقوالا صريحة فى ذلك ، ومن هذا القبيل : ما زعمه ابن أعثم ، وهو يعرض لأول موقعة جرت بين

---

(٩٦) الفتوح ٨/٤ ــ ١٠ . وقارن بذلك ما ذكره الطبرى : تـــاريخ ٥٢/٥ ــ ٥٣ ، وابن الأثير : الكامل ٣١٩/٣ ــ ٣٢١ .

على وبين الخوارج ، موقعة النهروان ، عقب اختلافهم وخروجهم عليه بسبب التحكيم فى عام سبعة وثلاثين للهجرة ، حيث قال ما نصه :

« وعندها — أى عندما فشلت الجهود فى اعادة الخوارج الى صفوف الجماعة مع أمير المؤمنين — نادى على فى أصحابه ، وأمرهم بالمسير الى النهروان ، فرحل ، ورحل الناس معه فى السلاح والآلة الكاملة ، والعدة القوية ، حتى اذا صار قريبا من النهروان ، نظر ، فاذا برجل من أصحابه ، قد عدل عن الطريق وجلس على ترسه ، فعلم على رضى الله عنه أنه قد شك فى قتال أهل النهروان ، فعدل اليه على ابن أبى طالب ، وقام الرجل ، فجلس على فى موضعه ، فاذا برجل قد أتى من ناحية نهروان ، يركض على فرس له ، فصاح على كرم الله وجهه : الى ، فجاء اليه ، فقال له على : ما وراءك ؟ فقال : ان القوم لما علموا أنك تقاربت منهم ، عبروا النهروان هاربين ! فقال له رضى الله عنه : أنت رأيتهم حين عبروا ؟ قال : نعم . قال على : كلا والذى بعث بالحق نبيا لا يعبرون ، ولا يبلغون الى قصر بوران بنت كسرى ، حتى يقتل الله مقاتلتهم على يدى ، فلا يبقى منهم الا أقل من عشرة ، ولا يقتل من أصحابى الا أقل من عشرة ، ذلك عهد معهود ، وقضاء مقضى ! » (٩٧) .

والأمر الذى أبادر بتسجيله بدء مناقشة قول صاحب الفتوح هذا : أنه ليس وحده فى اسناد هذا القول — الذى يتضمن تصريحا بعلم ما سوف يقع لهؤلاء الخوارج فى المستقبل القريب — الى على رضى الله عنه ، بل شاركه فى ذلك مؤرخون عديدون يعتد بأقوالهم ، ويرجع اليهم فى البحث التاريخى ، أمثال : ابن واضح اليعقوبى (٩٨) ،

---

(٩٧) الفتوح ٤/١٢٠ .

(٩٨) فى تاريخه ٢/١٩٣ .

والمسعودى [٩٩] ، وهما ممن اشتهر ميلهم الى على بن طالب — ثم ابن الأثير [١٠٠] ، وشهاب الدين النويرى [١٠١] • وهؤلاء جميعا ، حين سجلوا هذا فى مصنفاتهم ، لم يعزوه الى مصدر ، ولم يسندوه الى قائل يمكن أن نرجع اليه نستوثق منه الخبر ، ونراجعه فيما ذكر ! غير أن لدينا ما نهتدى به فى مثل هذه الملابسات والمواقف غير الواضحة ، فنحن نعلم أن ابن الأثير الجزرى المتوفى سنة ٦٣٠هـ ، قد اعتمد فى تاريخه على شيخ المؤرخين أبى جعفر بن جرير الطبرى المتوفى ٣١٠هـ وجعل من كتابه « تاريخ الرسل والملوك » أصلا لما دونه فى « الكامل » عن القرون الثلاثة الأولى للهجرة [١٠٢] • لذلك سارعت بالعودة الى تاريخ الطبرى ، أراجعه مرة أخرى ، وأتأنى قراءته ، وأدقق فى رواياته المسندة الى من شهد وحضر هذا الموقف من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن أصحاب على ، ممن يوثق بخبره ويعول على حفظه ، فلم أجد لهذه الأقوال ذكرا فيه على لسان أى من هؤلاء أو أولئك !! [١٠٣] • وأما الشهاب النويرى المتوفى ٧٣٣هـ ، فهو لم يبين لنا مصادره فى تاريخه ، وان كان — فى معظمه — يأخذ عن الطبرى فعل ابن الأثير ، ولكن دون التصريح بذلك ، ولهذا لم نستطع الوصول الى مورد هذا النص ، واذا فالأقرب الى المعقول أن نقول : انهما — أى ابن الأثير والنويرى — قد نقلاه عن أحد المصادر الشيعية المبكرة كاليعقوبى ••

وفى الجانب الآخر ، نجد على سبيل المثال : محمد بن سعد كاتب

---

(٩٩) فى مروج الذهب ٤١٧/٢ •

(١٠٠) فى الكامل ٣٤٥/٣ •

(١٠١) فى نهاية الأرب ١٧٦/٢٠ •

(١٠٢) مقدمة ابن الأثير لتاريخه الكامل ٣/١ •

(١٠٣) راجع تاريخ الرسل والملوك ٧٢/٥ — ٩٢ •

الواقدى المتوفى ٢٣٠هـ [١٠٤] ، وخليفة بن خياط المتوفى ٢٤٠هـ [١٠٥] ، اضافة الى ابن جرير الطبرى [١٠٦] ، وعماد الدين بن كثير المتــوفى ٧٧٤هـ [١٠٧] ، نجد هؤلاء الأعلام من المؤرخين وهم أقرب زمانا من الواقعة الا ابن كثير ، لا يقولون ما قال الآخرون ونسبوه الى على ، لأنهم — بداهة — لم يسمعوه من شيوخهم الذين يثقون بهم ويطمئنون الى رواياتهم ، ولو أنهم سمعوا مثل هــذا الخبــر المثير ، وقبلوه ما ترددوا فى ضــمه الى ســائر مروياتهم ، ولحرصــوا على تسجيله فى دواوينهم التاريخية التى بين أيدينا !

على أن مؤرخا قديما ، ثقة صادقا ، هو خليفة بن خياط ، ما كان له أن يعتمد ما قاله هؤلاء عن على بن أبى طلب ، ويســلم به ، ويسجله فى تاريخه ، وهو قد روى فى نفس الموضع منه) ص ١٩٧ (ما يناقضه مناقضة مباشرة !! قال خليفة : « أبو نعيم قال : ناموسى بن قيس عن سلمة بن كهيل عن زيد بن وهب قال : لقيهم على ، فقتلوا ، وقتــل من أصحاب على اثنا عشر رجلا ، أو ثلاثة عشر رجلا » . فكيف يتفق أن يطرح خليفة هذا الخبر الموثق برواته الثقات ، ويذكر قولا مطلقا دون سند أو أصل معروف ؟

هذه واحدة ، أما الثانية فهى من البينات المضيئة ، والحســنات المذكورة ، التى ينبغى أن يلتفت اليها المشتغلون بالتاريخ ويهتموا بهــا غاية الاهتمام ، ليعرفوا ويتعلموا جانبا فى النقــد التاريخى القــائم على قواعد راسخة أصيلة من البحث والاستقصاء ، طبقه أســلافنا العظام ، ومهدوه لنا ، ثم قدموه الينا خالصــا سائغا ، لا يحتاج فى استيعابه ، وتمثله الا أن نفيه حقه من الاحاطة به وادراك طرقه ومسالكه! حتى لا نذهب بعيدا ، فها هى المسألة بين يديك بجوانبها جميعا :

---

(١٠٤) الطبقات ٢١/١/٣ .
(١٠٥) فى تاريخه ص ١٩٧ .
(١٠٦) تاريخ الرسل والملوك ٧٢/٥ — ٩٢ .
(١٠٧) البداية والنهاية ٢٩٩/٧ — ٣٠٠ .

لقد عالج الحافظ ابن كثير الدمشقى ، وقعة النهروان بمقدماتها ، ووقائعها ، ونتائجها ، ووجد نفسه فى مواجهة بعض الآثار المنسوبة الى على رضى الله عنه ، فحاكت فى صدره ، واستعصت على القبول ، وأبى قلمه أن يخطها فى تاريخه ، لما تتضمنه من صريح ادعاء علم الغيب المتمثل فى هذه العبارة « كلا والذى بعث بالحق نبيا لا يعبرون ، ولا يبلغون قصر بوران بنت كسرى ، حتى يقتل الله مقاتلتهم على يدى ، فلا يبقى منهم الا أقل من عشرة ، ولا يقتل من أصحابى الا أقل من عشرة ، ذلك عهد معهود وقضاء مقضى » لذلك شمر عن ساعديه لتحقيق هذه المسألة ، فاتجه الى ميدانه الرحيب الذى يتمتع فيه بالدرجة الرفيعة بين رجاله ، درجة « الحافظ » ميدان الحديث النبوى الشريف ، ولم يبخل الرجل بجهد لاستجلاء الموقف الذى يتفق والحقيقة ، فكان هذا الفيض العميم من الأحاديث النبوية التى تناولت هذه الفرقة الناشزة المارقة من بين صفوف الأمة « الخوارج » ، مع كثرة هذه الأحاديث — حيث بلغت أربعة عشر حديثا — وتعدد طرقها التى أوردها ابن كثير جميعا ، فلم يكن من بينها مثل ذلك الذى تضافر على ذكره أولئك المؤرخون المذكورون آنفا ، بينما اشتملت هذه النصوص التى رواها عن النبى صلى الله عليه وسلم طائفة من أصحابه الأجلاء فى مقدمتهم على بن أبى طالب — اشتملت على الأوصاف التى تميز هؤلاء القوم عن سائر أفراد الأمة ، وتذكر بعض الشواهد والعلامات التى سوف لا يخطئها أحد حين يراها ، كالرجل المخدج المعروف بذى الثدية (١٠٨) .

---

(١٠٨) ذو الثدية : كان رجلا من عرنة من بجيلة ، أسود شديد السواد ، أحد عضديه ليس بها ذراع ، وانما لحم مجتمع على منكبه كثدى المرأة ، له حلمة عليها شعرات سود ، فاذا مدت امتدت حتى تحاذى يده الأخرى ، ثم تنزل فتعود الى منكبه كثدى المرأة ، كان من قتلى الخوارج يوم النهروان ، وهو احدى العلامات التى لا يخطئها أحد ، قال صلى الله =

بين على وابن ملجم المرادى :

ومن مزاعم ابن أعثم التى اشتدت غرابتها ، وذهب فى تخيلها مذهبا بعيدا : ما زعمه عن معرفة على بن أبى طالب قاتله — عبد الرحمن ابن ملجم المرادى — قبل أن يرتكب جريمته البشعة ، وأن عليا رضى الله عنه قد تبادل معه حديثا تأكد منه أنه هو القاتل لا شك فى ذلك ، وأن موعد الجريمة وشيك، بل انه فى ذلك الشهر (رمضان ٤٠هـ) . ومع ذلك تركه أمير المؤمنين حرا طليقا ! كى يتمكن من تحقيق هدفه الدنىء الرهيب ؟

وقصة ذلك الحادث الجلل ، يسوقها ابن أعثم هكذا : « وقدم على كرم الله وجهه من سفره ، واستقبله الناس يهنئونه بظفره بالخوارج ، ودخل الى المسجد الأعظم ، فصلى فيه ركعتين ، ثم صعد المنبر فخطب خطبة حسناء ، ثم التفت الى ابنه الحسين فقال : يا أبا عبد الله ، كم بقى من شهرنا هذا — يعنى شهر رمضان الذى هم فيه ؟ فقال الحسين : سبع عشرة يا أمير المؤمنين . فضرب بيده الى لحيته ، وهى يومئذ بيضاء » وقال : والله ليخضبنها بالدم اذ انبعث أشقاها . ثم جعل يقول :

أريد حياته ويريد قتلى خليلى من عذيرى من مراد

فسمع ذلك عبد الرحمن بن ملجم — لعنه الله — فكأنه وقع بقلبه شىء من ذلك ، فجاء حتى وقف بين يدى على رضى الله عنه ، فقال : أعيذك بالله يا أمير المؤمنين ، فهذه يمينى وشمالى بين يديك فاقطعهما ، أو

=
عليه وسلم بصدد ذلك « ... وآية ذلك ، أن فيهم رجلا له عضد ليس لها ذراع ، على راس عضده حلمة الثدى ، عليه شعرات بيض ، والمخدج اليد : الناقصها » انظر : المبرد : الكامل ٣/٢٢٠ — ٢٢١ ، الطبرى : تاريخ ٥/٩١ — ٩٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٧/٣٠٠ — ٣١٦ .

اقتلنى !؟ فقال على كرم الله وجهه : وكيف أقتلك ولا ذنب لك عندى ، أنى لم أردك بذلك المثل ، ولكن خبرنى النبى صلى الله عليه وسلم أن قاتلى رجل من مراد ، ولو أعلم أنك قاتلى لقتلتك ، ولكن هل كان لك لقب فى صغرك ؟ فقال لا أعرف يا أمير المؤمنين قال على : فهل لك حاضنة يهودية فقالت لك يوما من الأيام : يا شقيق عاقر ناقة صالح ؟ قال : قد كان ذلك يا أمير المؤمنين ! فسكت على وصار الى منزله •

فلما كان يوم ثالث وعشرين من شهر رمضان ، خرج على من منزله ، فلما صار فى صحن الدار ، كان فى داره شىء من الوز ، فتصايح الوز فى وجهه ، فقال على رضى الله عنه : صوائح تتبعها نوائح • فقال له ابنه الحسين : يا أبة ، ما هذه الطيرة ؟ فقال : يا بنى ، لم أتطير ولكن قلبى يشهد أنى مقتول فى هذا الشهر • وجاء على رحمه الله الى باب دار مفتحة ليخرج ، فتعلق الباب بمئزره ، فحل مئزره وهو يقول :

اشدد حيازيمك للموت ... فان الموت لاقيكا
ولا تجزع من الموت ... فقد حل بواديكا

الخ

ثم جاء حتى وقف فى موضع الأذان ، فأذن ودخل المسجد ، وقد كان عبد الرحمن بن ملجم نائما تلك الليلة فى منزل قطام بنت الأضبع ، فلما سمعت أذان على رضى الله عنه ، قامت اليه وهو نائم — وكان تناول نبيذا — فأيقظته ، وقالت يا أخا مراد ، :هذا أذان على ، قم فاقض حاجتنا وارجع قرير العين مسرورا ، ثم ناولته سيفه ، فقال ابن ملجم : بل أرجع والله سخين العين مثبورا ، وقد سمعت عليا يقول : « قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ان أشقى الأولين قدار بن سالف عاقر ناقة صالح ، وأشقى الآخرين قاتل على بن أبى طالب » فما أخوفنى أن أكون ذلك الرجل ؟! ثم تناول سيفه ، وجاء حتى دخل المسجد ، ورمى بنفسه بين النيام ، ودخل على رضى الله عنه المسجد ،

وجعل ينبه من فى المسجد من النيام ، ثم صار الى محرابه ، فوقف فيه ، فافتتح الصلاة ، وقرأ ، فلما ركع وسجد سجدة واستوى قاعدا وأراد أن يسجد الثانية ، ضربه ابن ملجم ضربة على رأسه ، فوقعت الضربة على الضربة التى كان ضربها عمرو بن عبدود يوم الخندق بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم بادر فخرج من المسجد هاربا ، وسقط على رحمة الله عليه لما به ، وتسامع الناس بذلك وقالوا : قتل أمير المؤمنين ! ودنت الصلاة ، فقام الحسن بن على ، فتقدم فصلى بالناس ركعتين خفيفتين .

ثم احتمل على الى صحن المسجد ، وأحدق الناس به ، فقالوا : من فعل هذا بك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : لا تعجلوا ، فان الذى فعل بى هذا ، سيدخل عليكم الساعة من هذا الباب ، وأومأ بيده الى بعض الأبواب . فخرج رجل من عبد القيس فى ذلك الباب فاذا هو بابن ملجم — وقدسدت عليه المذاهب فليس يدرى الى أين يهرب ؟ فضرب العبدى بيده اليه ، ثم قال : ويحك ، لعلك ضارب أمير المؤمنين ؟ فأراد أن يقول لا ، فقال نعم !! فكببه ، وأدخله المسجد . فجعل الناس يلطمونه من كل ناحية ، حتى أقعدوه بين يدى على ، فقال له : أخا مراد ، بئس الأمير كنت لك ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين ، قال : ويحك ! ما حملك على أن فعلت ما فعلت ، وأيتمت أولادى من بعدى ؟ فسكت المرادى ولم يقل شيئا . فقال على رضى الله عنه : « وكان أمر الله قدرا مقدورا » (١٠٩) .

---

(١٠٩) سورة الأحزاب : الآية ٣٨ — والقصة فى الفتوح ٤ / ١٣٥ — ١٤٤ .

وفاة معاوية واستخلاف يزيد :

وثمة مناسبة أخرى كانت مجالا فسيحا خاض فيه ابن أعثم خوضا مهيجا ، وأوغل فى الاختلاق حتى ذهب بعيدا ؛ وتلك مناسبة وفاة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه ، وانتقال الخلافة — بالعهد — من بعده الى ولده يزيد . ولما كان معاوية شيخا قد قارب الثمانين ، أو تجاوزها بعامين يوم وفاته كما ذكر المؤرخون (١١٠) .

فـلا غرابة أن يجد فى الساعات الأخيرة شـدة الموت ، وأن يعالج سكراته بما عرف عنه من صبر وتحمل . ومع ذلك لم يسلم فى هذه المناسبة المؤلمة من خيال ابن أعثم الذى أطلق له العنان كى يتحدث عن الأهوال التى لقيها معاوية فى أيامه الأخيرة ، فيقول :

« وكان فى مرضه يرى أشياء لا تسره ، حتى كأنه ليهذى هذيان المدنف وهو يقول : اسقونى ، اسقونى ! فكان يشرب الماء الكثير فـلا يروى ، وكان ربما غشى عليه اليوم واليومان ، فاذا أفاق من . غشوته (كذا) ينادى بأعلى صوته : مالى ومالك يا حجر بن بن عدى ! (١١١) مالى ومـالك يا عمـرو بن الحمق ! (١١٢) ، مالى ومالك يا ابن أبى طالب !! (١١٣) ولا مشارك أو مساند من المؤرخين لما قاله ابن أعثم فى ذلك ؟ .

---

(١١٠) ابن سعد : الطبقات ١٢٨/٢/٧ ، خليفة بن خياط : تـاريخ ص ٢٢٦ ، الطبرى : تاريخ ٣٢٥/٥ ، ابن الأثير : الكامل ٧/٤ — اسـد الغابة ٢١١/٥ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ١٦٢/٣ .

(١١١) ت ٥١هـ — راجع ترجمته فى سـير أعلام النبلاء للذهبى ٣ / ٤٦٢ — ٤٦٧ .

(١١٢) ت ٥٠هـ راجع سيرته فى : الذهبى : تاريخ الاسلام ٢٣٤/٢ ، ابن الأثير : اسد الغابة ٢١٧/٤ — ٢١٩ .

(١١٣) الفتوح ٢٥٠/٤ .

ثم توفى معاوية ، وكان يزيد حينئذ بحوارين (١١٤) — فقدم مسرعا الى دمشق ، فاستقبله الناس « يهنئونه بالخلافة ، ويعزونه فى أبيه ، وجعل يزيد يقول : نحن أهل الحق ، وأنصار الدين ، وأبشروا يا أهل الشام ، فان الخير لم يزل فيكم ، وسيكون بينى وبين أهل العـراق حرب شديد (كذا) ، وقد رأيت فى منامى : كأن نهرا يجرى بينى وبينهم دما عبيطا ، وجعلت أجهد فى منامى أن أجوز ذلك النهر ، فلم أقدر على ذلك ، حتى جاءنى عبيد الله بن زياد ، فجازه بين يدى وأنا أنظر اليه ! فأجابه أهل الشـام وقالوا : يا أمير المؤمنين ، امض بنا حيث شئت ، وأقدم بنا على من أحببت فنحن بين يديك ، وسيوفنا تعرفها أهل العراق فى يوم صفين . فقال لهم يزيد : أنتم لعمرى كذلك ، وقد كان أمير المؤمنين معاوية لكم كالأب البار بالولد ، وكان من العرب أمجدها ، وأحمدها ، وأهمدها ، وأعظمها خطرا ، وأرفعها ذكرا وأنداها أنامل ، وأوسعها فواصل وأسماها الى الفرع الباسق ، لا تعتريه الفهاهة فى بلاغته ، ولا تدخله اللكنة فى منطقه ، حتى اذا انقطع من الدنيا أثره ، وصار الى رحمة الله تعالى ورضوانه .. فصـاح به صائح من أقاصى الناس وقال : كذبت والله يا عدو الله ما كان معاوية والله بهذه الصفة ، وانما كانت هذه صفة رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، وهـذه أخلاقه وأخلاق أهل بيته ، لا معاوية ولا أنت !!

قال ابن أعثم : فاضطرب الناس ، وطلب الرجل فلم يقدروا عليه ، وسكت الناس ! وقام الى يزيد رجل من شيعته يقال له : عطاء بن أبى صيفى (١١٥) فقال : يا أمير المؤمنين ، لا تلتفت الى مقـالة الأعداء ، أعطيت خلافة الله (كذا) من بعد أبيك ، فأنت خليفتنا ، وابنك معاوية

---

(١١٤) حوارين : قرية قرب حمص ، وهناك قرية أخرى بنفس الاسم قرب حلب . والمقصود هنا : الأولى . ياقوت : معجم البلدان ٢/٣١٥–٣١٦

(١١٥) لم أعثر له على ترجمة .

ولى العهد بعدك ، لا نريد به بدلا ، ولا نبغى عنه حولا والسلام . ثم أنشأ يقول : (شعرا من عدة أبيات) فأمر له يزيد بجائزة حسناء [١١٦]

ونبحث فى مصادر التاريخ الاسلامى عن هذا الذى زعمه ابن أعثم ، أو حتى عن شبيه به فلا نجد منه شيئا ، بل لا نكاد نجد له صدى وكأنه تاريخ خاص انفرد به صاحب الفتوح ، وضن به على سائر المؤرخين ! وليس الأمر كذلك فى الحقيقة ؟ نعم ليس هذا بتاريخ ، ولا هو من قبيل تسجيل الحوادث الكائنة فى الزمن الماضى نقلاً عن الذين حضروها وشهدوها ، أو عمن نقلها عنهم من الرواة الحفاظ ، ولكنه — مثل غيره من مدونات ابن أعثم فى فتوحه — مشاعر طاغية ضد الخصوم ، تجد لها متنفسا فى تلك المناسبات العارضة ، فما يكاد يتناولها حتى يتجاهلها ليفسح المجال لذات نفسه وخبيئة صدره ، فينفث ذلك مبتعدا به عن مهمة المؤرخ الأولى ورسالته الأصيلة ، وهى تسجيل الحوادث والمواقف والأقوال كما وقعت دون تدخل منه فى شىء من ذلك كله ، لكنه الهوى المستحكم ، والتعصب المستبد الذى يفقد من اعتراه سلامة الرؤية وصحة الفكرة ودقة الرأى !

ولما كانت وفاة خليفة المسلمين وأمير المؤمنين حدثا جللا ، وأمرا جسيما ، ومناسبة خطيرة للغاية ، وكذلك الشأن فى استخلاف من يحل محله ، فان جميع مؤرخى الاسلام قد سجلوا كلا الأمرين فى مصنفاتهم وأفردوا لهما ما يستحقان من تنويه ، وذلك على الصورة التى وصلتهم عن طريق شيوخهم والسابقين من رواة الأخبار وحفاظها ، وليس كما صنع ابن أعثم !!

فابن جرير الطبرى — مثلا — وهو مؤرخ معاصر لصاحب الفتوح ، قد سجل يوم وفاة معاوية رضى الله عنه على الصورة التالية ، وشتان

---

(١١٦) الفتوح ٥/٦ — ٨ .

ما بينها وبين الصورة التى رسمها ابن أعثم الكوفى ، قال أبو جعفر : « حدثنى الحارث ، قال حدثنا محمد بن سعد ، قال حدثنا أبو عبيدة ، عن أبى يعقوب الثقفى ، عن عبد الملك بن عمير : لما ثقل معاوية ، وحدث الناس أنه الموت ، قال لأهله : احشوا عينى اثمدا ، وأوسعوا رأسى دهنا ، ففعلوا ، وبرقوا وجهه بالدهن ، ثم مهد له ، فجلس وقال : أسندونى ، ثم قال : ائذنوا للناس فليسلموا قياما ، ولا يجلس أحد ، فجعل الرجل يدخل فيسلم قائما ، فيراه مكتحلا مدهنا فيقول : يقول الناس : هو لمآبه ، وهو أصح الناس . فلما خرجوا من عنده قال معاوية :

وتجلدى للشامتين أريهم ... أنى لريب الدهر لا أتضعضع
واذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمة لا تنفع (١١٧)

قال : وكان به النفاثات ، فمات من يومه » (١١٨) .

وباسناد آخر قال أبو جعفر : حدثنى أحمد بن زهير ، عن على ، عن سليمان بن أيوب ، عن الأوزاعى وعلى بن مجاهد ، عن عبد الأعلى ابن ميمون ، عن أبيه ، « أن معاوية قال فى مرضه الذى مات فيه : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كسانى قميصا فرفعته ، وقلم أظفاره يوما ، فأخذت قلامته فجعلتها فى قارورة ، فاذا مت فألبسونى ذلك القميص ، وقطعوا تلك القلامة ، واسحقوها وذروها فى عينى ، وفى

---

(١١٧) البيتان لأبى ذؤيب الهذلى المتوفى عام ٢٧ هـ ، وانظر ترجمته فى خزانة الأدب للبغدادى ٤٢٢/١ — ٤٢٤ .

(١١٨) تاريخ الرسل والملوك ٣٢٦/٥ . والنفاثات : جمع نفثة ، وهى ما يخرجه المصدور من فيه يروح به عن نفسه ويريح به صدوره . فكأنه كان يشكو من علة فى صدره ، أما ابن قتيبة فذكر فى كتابه المعارف ص ٣٤٩ ان علة معاوية التى مات بسببها هى « الناقبات جمع ناقبة ، وهى قرحة تخرج فى جنب الانسان تهجم على الجوف راسها من الداخل .

فى ، فعسى الله أن يرحمنى ببركتها ! ثم قال متمثلا بشعر الأشهب بن رميلة النهشلى يمدح به القباع [١١٩] :

« اذا مت مات الجود وانقطع الندى
من الناس الا من قليل مصرد
وردت أكف السائلين وأمسكوا
من الدين والدنيا بخلف مجدد »

فقالت احدى بناته — أو غيرها — : كلا ، يا أمير المؤمنين ، بل يدفع الله عنك ! فقال متمثلا :

« واذا المنية أنشبت أظفارها   ألفيت كل تميمة لا تنفع »

ثم أغمى عليه ، ثم أفاق ، فقال لمن حضره من أهله : اتقوا الله عز وجل ، فان الله سبحانه يقى من اتقاه ، ولا واقى لمن لا يتقى الله ، ثم قضى .

حدثنا أحمد ، عن على ، عن محمد بن الحكم ، عمن حدثه : أن معاوية لما حضر أوصى بنصف ماله أن يرد الى بيت المال ، كان أراد أن يطيب له الباقى ، لأن عمر قاسم عماله » [١٢٠] .

---

(١١٩) هو الحارث بن عبد الله بن ابى ربيعة المخزومى المعروف بالقباع توفى سنة ٨٠هـ وهو اخو الشاعر المشهور عمر بن ابى ربيعة . لقب بالقباع باسم مكيال وضعه لأهل الكوفة حين كان واليا عليها لعبد الله ابن الزبير . انظر الذهبى : سير اعلام النبلاء ١٨١/٤ — ١٨٢ ، والأشهب ابن رميلة شاعر أسلامى مخضرم ولم تعرف له صحبة بالنبى صلى الله عليه وسلم — ورميلة أمه أما أبوه فهو ثور بن أبى حارثة بن عبد المدان النهشلى التميمى . البغدادى : الخزانة ٣٠/٦ — ٣٢ .

(١٢٠) تاريخ الرسل والملوك ٣٢٦/٥ — ٣٢٧ ، وانظر ابن الأثير : الكامل ٧/٤ — ٨ ، الذهبى : سير أعلام ١٥٩/٣ — ١٦١ .

أما أبو الحسن المسعودى (ت ٣٤٦ هـ) المعروف بتشيعه ، فقد تحدث عن معاوية لدى وفاته حديثا طيبا ، يعبر عن حقيقة رجل صاحب النبى عليه الصلاة والسلام ، واستقر الايمان فى فؤاده ، وحين يحضر الحدث الذى لا مفر منه ، يفزع الى المولى سبحانه ضارعا متبتلا يرجو رحمته ويخاف عذابه ، ويسأله العفو والصفح . قال فى مروج الذهب : « وذكر لوط بن يحيى ، وابن دأب ، والهيثم بن عدى ، وغيرهم من نقلة الأخبار ، أن معاوية لما احتضر تمثل :

« هو الموت ، لا منجى من الموت ،
والذى تحاذر بعد الموت أدهى وأفظع »

ثم قال : اللهم أقل العثرة ، واعف عن الزلة ، وجد بحلمك على جهل من لم يرج غيرك ، ولم يثق الا بك ، فانك واسع المغفرة ، وليس لذى خطيئة مهرب » فبلغ ذلك سعيد بن المسيب ، فقال : لقد رغب الى من لا مرغوب اليه مثله ، وانى لأرجو أن لا يعذبه الله . وذكر محمد بن اسحاق ، وغيره من نقلة الآثار : أن معاوية دخل الحمام فى بدء علته التى كانت وفاته فيها ، فرأى نحول جسمه ، فبكى لفنائه ، وما قد أشرف عليه من الدثور الواقع بالخليفة ، وقال متمثلا :

« أرى الليالى أسرعت فى نقضى ... أخذن بعضى وتركن بعضى
حنين طولى ، وحنين عرضى ... أقعدننى من بعد طول نهضى »

ولما أزف أمره ، وحان فراقه ، واشتدت علته ، وأيس من برئه ، أنشأ يقول :

فياليتنى لم أعن فى الملك ساعة ... ولم أك فى اللذات أعشى النواظر
وكنت كذى طمرين عاش ببلغة ... من الدهرحتى زار أهل المقابر (١٢١)

---

(١٢١) المسعودى : مروج الذهب ٣/٥٨ ، وانظر الذهبى : سير أعلام ٣/١٦٠ .

فأين هذا مما قاله — ولا أقول رواه — ابن أعثم الكوفى ؟! .

وأما ما تقوله على يزيد بن معاوية حين قدم دمشق عقيب وفاة أبيه ودفنه ، وحلوله مكانه فى خلافة المسلمين ، فلا نظير لـه ألبته فيما نعلم من التواريخ المعتمدة التى يرجع اليها ويعتد بما سجل فى ثناياها من أخبار وآثار ، ومن أعجب ما فى أقاويل ابن أعثم التى ادعاها على يزيد فى أول عهده بالخلافة : اعلانه الحرب على أهل العراق - والقوم يومئذ فى سلم وسمع وطاعة لولى الأمر بدمشق !! ثم ربط ذلك بالرؤى والأحلام ، وعبيد الله بن زياد — قاتل الحسين بن على رضى الله عنهما — وكأنه بهذا يمهد للكارثة التى ستقع وشيكا فى الكوفة وفى كربلاء ؟! .

نعم ، لقد خطب يزيد فى القوم بهذه المناسبة الخطيرة ، ولكن ماذا قال ، وهو من أبلغ الناس فى رأى سعيد بن المسيب ، والجاحظ[١٢٢] قال يزيد — وما أبين ما قال — « الحمد لله الذى ما شاء صنع ، ومن شاء أعطى ومن شاء منع ، ومن شاء خفض ، ومن شاء رفع . ان أمير المؤمنين كان حبلا من حبال الله ، مده ما شاء أن يمده ، ثم قطعه حين أراد أن يقطعه ، وكان دون من قبله ، وخيرا ممن يأتى بعده ، ولا أزكيه عند ربه ، وقد صار اليه فان يعف عنه فبرحمته ، وان يعاقبه فبذنبه ، وقد وليت بعده الأمر ، ولست أعتذر عن جهل ، ولا آسى على طلب علم ، وعلى رسلكم ، اذا كره الله شيئا غيره ، واذا أحب شيئا يسره[١٢٣] .

ومن العجيب المثير فى هذا الامر ، أن ابن أعثم يعود بعد أن ادعى على يزيد ما أوردناه آنفا ، فيذكر هذه الخطبة على أنها

---

(١٢٢) البيان والتبيين ٣١٤/١ .

(١٢٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد ٨٩/٤ ، المسعودى : مروج الذهب ٧٥/٣ .

الاعلان الرسمى بوفاة معاوية — الخليفــة السابق — وبدء خلافتـــه هو وكأنى به قد نسى ، أو تناسى ما زعمه على لسان يزيد !! • وأنه حين انتهى من خطبته جلس ، فصـــاح الناس من كل جانب : سمعا وطاعـــة يا أمير المؤمنين •

وبايع الناس بأجمعهم يزيد بن معاوية ، **وابنه معاوية بن يــزيد من بعده** (١٢٤) • ويأبى ابن أعثم الا أن يضيف مخالفة أخرى ، يشذ بها عن سائر المؤرخين فى هذا الموطن من تاريخ الدولة الأموية ، فيصرح منفردا — ودون سند يوثق به تصريحه — بقوله السابق « وبايـــع الناس بأجمعهم يزيـــد بن معاوية ، وابنه معاوية بن يزيـــد من بعده »!! واذا كان ذلك غير صحيح على الاطلاق فان التاريخ الموثق الذى لا مطعن عليه ولا خلاف حوله يقول : ان أهل الشام قـــد بايعوا معـــاوية بن يزيـــد عقب وفاة أبيه فى ربيع الأول من عام أربعة وستين للهجرة(١٢٥) •

هل دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على يزيد بن معاوية ! ؟ :

ومازال الحديث عن يزيد بن معاوية موصولا ، حيث لم يلبث بعـــد أن استقر له الأمر فى الشـــام ، وبايعه القوم جميعـــا بالخلافة ، حتى أرســـل الى الولاة فى الأمصار بأخذ البيعة له من أهلهـــا غير أن ما كان يهمـــه فى المقـــام الأول هـــو بيعـــة أولئـــك الرجـــــال الـــذين أوصاه بهم أبوه معاوية حين حضرته الوفاة — الحسين بن على ، وعبد الله ابن عمر وعبد الله بن الزبير — فهم المنافسون الحقيقيون له والمعارضون الخطرون لخلافته الذين يمكنهم أن يحظوا بتأييد جمهور المسلمين فى أقاليم الدولة عدا الشـــام ، لو أن أحدهم بادر ودعا لنفسه بالخلافة(١٢٦)

---

(١٢٤) الفتوح ٥/٨ — ٩ •

(١٢٥) الطبرى : تاريخ ٥/٥٠١ ، ٥٠٣ • ابن الأثير : الكامل ٤/١٢٩ • الذهبى : سير ٤/١٣٩ •

(١٢٦) اقرأ نص وصية معاوية ليزيد لدى الطبرى : تاريخ ٥/٣٢٢ — ٣٢٣ • ابن الأثير : الكامل ٥/٦ •

يقول المؤرخون بصدد هذه القضيـــة — واللفظ لأبى جعفـــر بن جرير — « ولم يكن ليزيـــد همة حين ولى الا بيعة النفر الذين أبـــوا على معاوية الاجابة الى بيعة يزيـــد حين دعا الناس الى بيعته ، وأنه ولى عهده بعده ، والفراغ من أمرهم ، فكتب الى الوليد [١٢٧] :

« بسم الله الرحمن الرحيم » من يزيـــد أمير المؤمنين الى الوليـــد ابن عتبة ؛ أما بعد ، فان معاوية كان عبدا من عباد الله ، أكرمه اللـــه واستخلفه ، وخوله ، ومكن له فعاش بقدر ، ومات بأجـــل ، فرحمه الله، فقد عاش محمودا ، ومات برا تقيا ، والسلام .

وكتب اليه فى صحيفة كأنهـــا أذن فأرة : « أما بعـــد فخذ حسينا ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذا شديدا ليســـت فيه رخصـــة حتى يبايعوا ، والسلام » [١٢٨] .

أما ابن أعثم الكوفى — وهو نسيج وحده فى التأليف التاريخى — فقـــد كان له شأن آخر فى تسجيل هـــذا الأمـــر ، وها هو نص كتاب يزيـــد الى عامله على المدينة « الوليـــد بن عتبة » بأخـــذ البيعـــة من أهلهـــا كمـــا أورده :

« من عبد الله يزيـــد بن معاوية أمير المؤمنين الى الوليد بن عتبة ، أما بعد ، فان معاوية كان عبد الله من عباده (كذا) أكرمه الله ، واستخلفه، وخوله ، ومكن له ، ثم قبضه الى روحه وريحانه ، ورحمته وغفرانه ، عاش بقدر ،ومات بأجل ، عاش برا تقيـــا ، وخرج من الدنيـــا رضيا زكيا، فنعم الخليفـــة كان ، ولا أزكيه على الله ، هو أعلم به منى ، وقـــد كان عهد الى عهدا ، وجعلنى له خليفة من بعده ، وأوصانى أن أحدث آل أبى

---

(١٢٧) يعنى الوليد بن عتبة بن أبى سفيان والى المدنية يومئذ :

(١٢٨) تاريخ الرســـل والملوك ٥ / ٣٣٨ . ابن الأثير : الكامل ٤/١٤ . خليفـــة بن خياط : تاريخ ص ٢٣٢ .

تراب (كذا) بآل أبى سفيان ، لأنهم أنصار الحق وطلاب العـدل ، فاذا ورد عليك كتابى هذا فخذ البيعة على أهل المدينة — والسلام .

ثم كتب اليه فى صحيفة صغيرة كأنهـا أذن فأرة : أما بعـد ، فخذ الحسين بن على ، وعبد الرحمن بن أبى بكـر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب أخذا عنيفا ليست فيه رخصـة ، فمن أبى عليك منهم فاضرب عنقه ، وابعث الى برأسه (١٢٩) !! .

وهكذا ، كأنه كان لابد أن ترتبط علاقة يزيـد بن معاوية بهؤلاء النفر من الصحابة ، بالقتل ، وضرب الأعناق ، واسـتلال الرءوس من أجسادها ، وارسالها الى العاصمة ، وذلك كمـا بدأ خلافته بشن الحرب على أهل العراق ، وجريان أنهـار دمائهم التى سيريقهـا بعد اعمـال سيفه فيهم ، وسيف عبيد الله بن زياد ، وسيوف أهل الشـام التى يعرفهـا العراقيون منذ أيـام صفين معرفة وثيقة !! ونسأل ابن أعثم الكوفى السؤال الذى يفصـل فى هذه القضية فصلا ويحسمهـا حسما أين مصدرك فيما جئت مخالفا جمهرة المؤرخين ؟ واذا كان الجـواب المتوقـع أنه لا جواب ، فلا مفر من رفض زعمك ، ورده عليك ، فاتباع الحق خير من متابعة من يفترون على الناس الأكاذيب دون حرج ! .

أما عن موقف الحسين من بيعة يزيد بالخلافة ، حين طلب منه ذلك ، فقد اهتبلها ابن أعثم فرصـة سانحة كى يصب أحقاده على يزيـد ومعاوية وسائر بنى أمية أجمعين ، ونسب الى الحسين بن على فى ذلك أقوالا شديدة الغرابة بينة الصنعة ، وزعم أن الحسين قـد سمع هـذه

---

(١٢٩) الفتوح ٥/١٠ — ١١ . وقد أخطأ حين ذكر عبد الرحمن بن أبى بكر مع الثلاثة الآخرين ، فلقد توفى عبد الرحمن فى عام ٥٣ هـ قبـل أن يستخلف يزيد . خليفة بن خياط : الطبقات ص ١٨ البخارى : التاريخ الصغير ١٠٣/١ . ابن الأثير : الكامل ٤٩٦/٣ .

الأقوال من جده صلى الله عليه وسلم ، ففى حوار حول ذلك الأمر بين الحسين ومروان بن الحكم قال الحسين لمروان : اليك عنى يا عدو الله ! فانا أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والحق فينا ، وبالحق تنطق ألسنتنا ، وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الخلافة محرمة على آل أبى سفيان ، وعلى الطلقاء أبناء الطلقاء ، فاذا رأيتم معاوية على منبرى فابقروا بطنه (١٣٠) !! » ثم بعدئذ يقول شبيها بهذا الكلام على لسان الحسين أيضا ضمن حديث بينه وبين أخيه محمد بن على بن أبى طالب المعروف بابن الحنفية : « يا أخى ، والله لو لم يكن فى الدنيا ملجأ ولا مأوى لما بايعت — والله يزيد بن معاوية أبدا ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « اللهم لا تبارك فى يزيد » (١٣١) . وكأن هذا الرجل يدرك سلفا أن أحدا لن يقبل من مزاعمه تلك شيئا ، فيحاول اقناع القارىء بمزيد من الروايات التى تؤكد — فيما يرى طبعا — أقواله ، فيضيف الى ما سبق مشهدا جديدا يتضمن دعاء آخر على يزيد زعم ابن أعثم أن عبد الله بن عباس قد سمعه من رسول الله !! فى مشهد جمع بين ابن عباس وعبد الله ابن عمر بن الخطاب والحسين بن على رضى الله عنهم ، وفيه يقول ابن عمر للحسين : « وأنا أشير عليك أن تدخل فى صلح ما دخل فيه الناس ، واصبر كما صبرت لمعاوية من قبل ، فلعل الله أن يحكم بينك وبين القوم الظالمين . فقال له الحسين : أبا عبد الرحمن ، أنا أبايع يزيد وأدخل فى صلحه ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم فيه وفى أبيه ما قال ! ؟ فقال ابن عباس : صدقت أبا عبد الله ! قال النبى صلى الله عليه وسلم فى حياته : « مالى وليزيد ، لا بارك الله فى يزيد وانه يقتل ولدى — وولد ابنتى — الحسين رضى الله عنه (كذا) والذى نفسى بيده لا يقتل ولدى بين ظهرانى قوم فلا يمنعونه الاخالف

---

(١٣٠) الفتوح ٢٤/٥ .

(١٣١) الفتوح ٣٢/٥ .

الله بين قلوبهم وألسنتهم !!» ثم بكى ابن عباس ، وبكى معه الحسين (١٣٢) ونعوذ بالله أن نتقول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم يقل .

فانه مما ينبغى التنويه به والتأكيد عليه فى هذا المقام ، ذلك الحديث المتواتر الذى رواه عن النبى صلى الله عليه وسلم العدد الجم من اصحابة (من أربعين الى اثنين وستين صحابيا) وفيهم العشرة المشهود لهم بالجنة (١٣٣) ، ونصه « من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » (١٣٤) .

فان هذا الحديث الصحيح كفيل — بما تضمنه من تحذير قاطع حاسم — بمنع أى عاقل من التقول على رسول الله ما لم يقل ، واسناد نصوص لم تصدر عنه اليه صلى الله عليه وسلم ، والذى لا ريب فيه ، أن ابن أعثم الكوفى وأضرابه ، كانوا يعلمون تماما هذا الحديث بلفظه وبمعناه ، فضلا عن اتفاق عامة الناس على قبح الكذب واستبشاعه ، ورفض ما يترتب عليه من نتائج .

وعلى الرغم من كل ذلك ، فقد تجاوز ابن أعثم — مثله سائر متطرفى الشيعة — حد الجرأة العقلية ، وأسند الى النبى عليه الصلاة والسلام ما لم يقله من الكلام الذى لا يمكن أن تصح نسبته الى رسول الله ذلك أنه لا يتأتى منه صلى الله عليه وسلم أن ينقض فى أقواله ما جاء به من المبادىء العامة والقواعد الكلية فى القرآن الكريم أو السنة النبوية الصحيحة ، ومن ذلك أن الله سبحانه وتعالى هو وحده المختص

---

(١٣٢) الفتوح ٣٨/٥ — ٣٩ .

(١٣٣) تقى الدين عثمان بن الصلاح : مقدمة ابن الصلاح ص ٣٩٢ — ٣٩٣) .

(١٣٤) البخارى : الصحيح ٣٨/١ ، مسلم : الصحيح ٢٢٩/٨ ، ٨/١ .

المنفرد بعلم الغيب ، قال تعالى فى محكم آياته البينات « قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب الا الله »[١٣٥] ، وقال كذلك « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو »[١٣٦] وقال عز وجل « ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل انما الغيب لله فانتظروا انى معكم من المنتظرين »[١٣٧] ، وقال تعالى أيضا « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا »[١٣٨] ، وقال عز من قائل « وما كان الله ليطلعكم على الغيب »[١٣٩] .

ولئلا يظن ظان — على نحو من الأنحاء — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو استثناء من تلك القاعدة الاسلامية الثابتة ، فقد اهتمت الآيات البينات غاية الاهتمام بنفى هذا الاحتمال وحسم الأمر بقطع توهمه ألبتة ، قال تعالى « قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم انى ملك ان أتبع الا ما يوحى الى[١٤٠]

وقال جل شأنه « قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا ، ولو كنت أعلم الغيب لا ستكثرت من الخير وما مسنى السوء »[١٤١] .

كما جاء صريحا قاطعا نفى علم الغيب عن الجن ، وكل من يحاول أو يدعى علم ذلك من دون الله ، قال تعالى : « فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين »[١٤٢] .

---

(١٣٥) سورة النحل — آية ٦٥ .
(١٣٦) سورة الانعام — الآية ٥٩ .
(١٣٧) سورة يونس — الآية ٢٠ .
(١٣٨) سورة الجن — الآية ٢٦ .
(١٣٩) سورة آل عمران — الآية ٥٠ ، واقرأ الاية ٣١ من سورة هود .
(١٤٠) سورة الأنعام — الآية ٥٠ ، واقرأ الآية ٣١ من سورة هود .
(١٤١) الأعراف — الآية ١٨٨ .
(١٤٢) سورة سبأ — الآية ١٤ .

وقال أيضا « أفرعيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين ما لا وولدا . أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا (١٤٣) » ؟ .

وقال عز وجل « أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟ (١٤٤) ؟ .

وأخيرا قال سبحانه « أعنده علم الغيب فهو يرى ؟ » (١٤٥) .

أفترى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك كله ، وهو الذى أنزل عليه الوحى ، وقام بابلاغه للناس ، يقول ما يصطدم بهذا الوحى اصطداما حادا مباشرا ، كذلك الذى — زعم ابن أعثم أن رسول الله — قاله فى حق معاوية وابنه يزيد قبل أن يستخلف معاوية ، وقبل أن يولد يزيد بن معاوية بسنين عددا ؟ ومن نافلة القول أن نذكر بأن استخلاف معاوية رضى الله عنه كان فى عام ٤١ هـ ، — عام الجماعة — أى بعد وفاة النبى بثلاثين عاما كاملة ، كما أن مولد يزيد ابنه كان فى عام ٢٥ هـ أى بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربعة عشر عاما كاملة !! فكيف اذن يقول فى الرجلين ما زعمه ابن أعثم ؟؟ .

ومن جهة أخرى ، فان لدى أصحاب الرأى والعقلاء من جمهور الأمة قدرا عظيما من سعة الصدر ، والرغبة الصادقة فى الاستماع بجدية لكل ما يعرضه أو يقوله صاحب أى فكر أو رأى يخالف ما تعارف عليه جمهور العلماء ، ولكن بشرط لا مندوحة عنه ولا تسامح فيه ، ألا وهو أن يستند هذا الفكر وذاك الرأى الى وجاهة مبدئية ، وبراهين منطقية وادلة معقوله تصلح أساسا لبناء الأفكار وتكوين الآراء ، ومن ثم يمكن مناقشتها وتفنيدها ، أو قبولها والتسليم بها .ولكن الواقع فى نصوص ابن أعثم هذه التى نسبها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها جميعا عارية لا وجاهة تتسم بها ، بريئة من تلك البراهين والأدلة

---

(١٤٣) سورة مريم — الآيتان ٧٧ ، ٧٨ .
(١٤٤) سورة الطور — الآية ٤١ ، سورة القلم — الاية ٤٧ .
(١٤٥) سورة النجم — الآية ٣٥ .

التى تجيز لهـا الدخول فى مساجلات العقلاء ومحاورات ذوى الفكر والرأى من الناس ! انها مجرد أقوال لا سـند لهـا من التاريخ الذى يعتد به ، لأن هذا التاريخ — وأعنى به تاريخ القرن الأول من الهجرة — قد وصـل الينا موصولا بأسانيده المعروفة التى أتاحت للباحثين والنقاد النظر فيه والمراجعة والتدقيق فقبلوا منه ما اطمأنت اليه نفوسهم ، وارتاحت له ضمائرهم العلمية غير أسيرة لهوى مستبد أو رأى سـابق مسلم به ، وكان منطقيـا أن يطرحوا من هـذا الحشد التاريخى الهائل — الذى ملئت به بطون الكتب — كل ما لا يقوى على الصمود فى وجه النقـد العلمى الذى اصطلح عليه المؤرخون المنصفون ! .

ان من ذلك الصنف الأخير من التاريخ الذى اطرحه جمهور المؤرخين المسلمين ، تلك الأقاويل التى زعم ابن أعثم نسبتهـا الى رسـول الله صلى الله عليه وسلم متعلقة باستخلاف معاوية بن أبى سـفيان وولده يزيـد ، فانهم حين عرضوها على موازين النقـد العلمى ، وسلطوا عليها ضوء البحث التاريخى لم تلبث أن انهارت ، ولم تجد لهـا ما يسندها على الاطلاق ، ويكاد هذا الكاتب الشيعى المنحاز جدا الى مذهبه واتجاهه يكون هو الوحيد الذى انفرد بمزاعم كهـذه ، لأنه فضـلا عن خلـو مصنفات أهل السنة المبكرة واللاحقة بهـا من هـذه الأقاويل (١٤٩) ، فان المؤرخين الآخرين ، الذين عرف عنهم التشيع لـم يقعوا — كمـا وقـع ابن أعثم — فى هذه المزالق الخطيرة ، التى تقذف بهم لو ارتكبوها الى قرار جهنم وبئس المصير (١٥٠) .

ومما لا ريب فيه ، أن ابن أعثم الكوفى كان لشـدة تشيعه لعلى والحسين وسائر آل البيت ، وعظم كراهيته لمعاوية ومن والاه ، قـد

---

(١٤٩) كتاريخ الطبرى ١٦٢/٥ — ٥٠٠ ، وكامل ابن الأثير ٤٠٤/٣ — ٥٢٥ ، ٥/٤ — ١٢٦ .

(١٥٠) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ٢١٦/٢ — ٢٥٣ ، المسعودى : مروج الذهب ١١/٣ — ٨١ .

حشى قلبه حقدا وبغضا للفريق الثانى ، وأنه فى كتابه هذا قد صب مشاعره الطاغية على رءوسهم جميعا ، وحاول جاهدا أن يكون لهذه المشاعر السوداء صفة العمومية ، وأن تكتسى ثوب القداسة والتسليم باعتبار أنها تمثل رأى النبى صلى الله عليه وسلم .

قصة رسالة سرية :

ومن مفردات ابن أعثم التى لم نجد لها نظيرا فى بطون الكتب التاريخية عامة ، تلك القصة المثيرة التى انفرد بها دون سائر المؤرخين ، وهى قصة ذات صلة وثيقة بيزيد بن معاوية والحسين بن على ، وما وقع بينهما من أمور وتطورات أدت فى النهاية الى استشهاد الحسين رضى الله عنه ، فبعد أن كتب أهل العراق الى الحسين يرغبونه ويلحون عليه فى القدوم اليهم وأنهم لا يعترفون بخلافة يزيد ، وأن الرجل الجدير بالخلافة فى رأيهم هو ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم دون سواه ، فلما كثرت كتبهم اليه عزم على الذهاب اليهم ، ولكن كخطوة تمهيدية لتنفيذ ذلك ، انتدب ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبى طالب ليذهب الى الكوفة ، ويأخذ البيعة من أهلها ، ومن سائر العراقيين وهم شيعة على وبنيه . وشد مسلم رحله الى الكوفة ، فواجهه يزيد بتعيين وال عنيف شديد هو عبيد الله بن زياد ، الذى تمكن من كشف أمر مسلم ، وتفريق الناس عنه ، وقتله أخيرا ، مما كان له الأثر البليغ فى احباط خطة الحسين ، وانهزام الكوفيين عنه قبل أن يلقوه ، ومن ثم كانت النهاية المحزنة المؤسفة للحسين وأهل بيته وخاصة شيعته الذين صحبوه الى كربلاء فى المحرم من سنة ٦١ للهجرة (١٥١) .

والقصة طويلة متعددة التفاصيل ، مؤسفة الأحداث ، مثيرة محزنة

---

(١٥١) راجع الطبرى : تاريخ ٣٤٧/٥ وما يليها ، ابن الأثير : الكامل ١٩/٤ وما يليها . خلفية بن خياط : التاريخ ص ٢٣١ .

لما تنطوى عليه من غزارة الدماء التى اهريقت فيهـا ، ولما ختمت به من مقتل سيد الشهداء رضى الله عنه وأرضـاه ! والذى يعنينا من ذكـر ذلك الآن ، انمـا هو ما انفرد به ابن أعثـم ، وخالف فيه سـائر المؤرخين ، فى سرده لهذه القصـة ، حيث لم يدع هذه المناسبة تفلت من يده دون أن يكون له فيهـا ما يختص به وحده ، فأضـاف اليهـا ما أعرضـه بين يديك الآن :

قال ابن أعثم : « فبينا عبيد الله بن زياد من هؤلاء القوم فى محاورة اذ دخل عليه رجل من أصحابه يقال له : عبد الله بن يربوع التميمى ، فقال : أصلح الله الأمير ، ههنا خبر ، فقـال له ابن زياد : وما ذاك ؟ قال : كنت خارج الكوفة ، أجول على فرسى ، وأقلبه ، اذ نظـرت الى رجل قد خرج من الكوفة مسرعا يريـد البادية ، فأنكرته ثم لحقتـه ، وسألته عن حاله وأمـره ، فذكـر أنه من أهل المدينة . ثـم نزلت عن فرسى ، ففتشته ، فأصبت معه هذا الكتاب فأخـذ عبيد الله بن زيـاد الكتاب ، ففضـه وقرأه ، واذا فيه مكتوب : « بسم الله الرحمن الرحيم، للحسين بن على ، أما بعد ، فانى أخبرك أنه قـد بايعك من أهـل الكوفة نيف وعشرون ألفا ، فاذا بلغك كتابى هذا ، فالعجل العجل ، فان الناس كلهم معك ، وليس لهم فى يزيـد بن معاوية رأى ولا هوى — والسلام » فقال ابن زياد : أين هذا الرجل الذى أصبت معه هذا الكتاب ؟ قـال : بالباب . فقال ائتونى به . فلما دخل ووقف بين يدى ابن زيـاد ، فقال له : من أنت ؟ قال : أنا مولى لبنى هاشم ، قال : فمـا اسمك ؟ قال . اسمى عبد الله بن يقطين . قال : من دفـع اليك هـذا الكتاب ؟ قال : دفعه الى امرأة لا أعرفهـا . فضحك عبيد الله بن زيـاد ، وقـال : أخبرنى ، واحدة من ثنتين : اما أن تخبرنى من دفـع اليك هـذا الكتاب فتنجو من يدى ، واما أن تقتل ! فقال : أما الكتاب فانى لا أخبرك من دفعه الى ، وأما القتل فانى لا أكرهه ، فانى لا أعلم قتيلا عنـد اللـه

أعظم ممن يقتله مثلك ! فأمر عبيد الله بن زياد بضرب عنقه ، فضربت عنقه صبرا — رحمه الله » (١٥٢) .

ويتبادر الى الذهن — صدى لهذه القصة — قصة الكتاب الذى زعمه الثوار على عثمان بن عفان رضى الله عنه فى عام ٣٥ هـ ، وادعوا — زورا وبهتانا — أنه كتبه أو أمر كاتبه مروان بن الحكم بكتابته الى عبد الله بن سعد بن أبى السرح والى مصر من قبله ، يأمره فيه بقتلهم ، والبقاء واليا على مصر .. والثوار على عثمان هم من تلك الفصيلة التى ينتمى اليها ابن أعثم وسائر أولئك الكوفيين ، الفصيلة الشاردة عن الجماعة الخارجة على الحق يصدرون عن مورد واحد ، وينفثون دخانا فاسدا يزكم أنوف المسلمين ، ويحرج صدورهم ، لا يبالون أن يقولوا أو يفعلوا أى شىء كان ؟؟ فحقيقة الأمر ، أن مغزى القصة التى أضافها ابن أعثم فى ثنايا قصة الحسين مع يزيد ، غير واضح ، وغير جلى ، الا اذا انحاز هذا المؤرخ الى رأينا الذى استخلصناه بعد قراءة متأنية لقصة هذا الكتاب ، وهذا الرجل الذى لم نعثر له على ذكر فى المصادر المتوافرة بين أيدينا « عبد الله ابن يقطين » ! ان الرأى الذى انتهيت اليه هو : أن هذا الكتاب — لو صحت روايته — يعد خزيا وعارا دائمين على أهل الكوفة ، واتهاما صريحا لهم بالخيانة والغدر لا شك فيه لأنه شهادة شاهد من أهلها — رأيا ومذهبا وموطنا — وهذا هو الملحظ الذى يجعل لهذه الرواية على فرض صحتها قيمة ووزنا ..

نماذج للغفلة وسوء الحفظ والتشويش والخلط فى التاريخ :

ويدلك على أن ابن أعثم يغفل كثيرا ، ويخلط بين الحوادث والأفراد ، والتواريخ ، وأنه — كما سبق القول — سيىء الحفظ ،

---

(١٥٢) الفتوح ٧٦/٥ — ٧٨ .

مشوش النقل يدلك على ذلك : أنه خلط بين سعيد بن العاص بن أمية [١٥٣] وبين ولده عمرو بن سعيد المشهور بالأشدق [١٥٤] ، وكان ذلك فى مناسبة خروج الحسين بن على الى الكوفة فى ذى الحجة من عام ستين للهجرة ، قال ابن أعثم : « وكتب اليه (الى الحسين) سعيد بن العاص من المدينة : أما بعد ، فقد بلغنى أنك قد عزمت على الخروج الى العراق ، وقد علمت ما نزل بابن عمك مسلم بن عقيل رحمه الله وشيعته ، وأنا أعيذك بالله من الشيطان ، فانى خائف عليك منه الهلاك ، وقد بعثت اليك بابنى يحيى بن سعيد ، فأقبل الى معه ، فلك عندنا الأمان والصلة والبر والاحسان ، وحسن الجوار ، والله لك بذلك على شهيد ، ووكيل ومراع ، وكفيل ، والسلام » . فكتب اليه الحسين بن على رضى الله عنهما : أما بعد ، فانه لن يشاق من دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين ، وقد دعوت الى البر والاحسان ، وخير الأمان أمان الله ، ونحن نسأل الله لنا ولك فى الدنيا والآخرة عملا زكيا ، فان كنت نويت فى كتابك هذا الى من برى وصلتى ، فجزيت بذلك خيرا فى الدنيا والآخرة . والسلام » [١٥٥] .

واذا كان خروج الحسين من مكة قاصدا العراق ، فى يوم التروية — الثامن من ذى الحجة سنة ٦٠ هـ — فقد كانت وفاة سعيد بن العاص فى عام ٥٧ أو ٥٩ ، لكنها فى أكثر الأقوال فى عام ٥٨ هـ ، ولم يقل أحد من المؤرخين انه كان موجودا حين خرج الحسين الى العراق !! فهذا

---

(١٥٣) توفى عام ٥٧ أو ٥٨ هـ ، وترجم له ابن سعد فى الطبقات ١٩/٥ — ٢٤ ، يعقوب بن سفيان ٢٩٢/١ ، ابن عبد البر : الاستيعاب ٦٢١/٢ — ٦٢٤ ، ابن الأثير : أسد الغابة ٣٩١/٢ — ٣٩٣ . الذهبى : سير أعلام النبلاء ٤٤٤/٣ — ٤٤٩ ، الصفدى : الوافى بالوفيات ٢٢٧/١٥ — ٢٣٠ .

(١٥٤) قتله عبد الملك بن مروان سنة ٦٩ هـ بدمشق — انظر ترجمة له فى الطبرى : تاريخ ١٤٠/٦ — ١٤٨ ، المسعودى : مروج الذهب ١٠٩/٣ — ١١٢ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ٤٤٩/٣ — ٤٥٠ .

(١٥٥) الفتوح ١١٦/٥ — ١١٧ .

هو الخلط والتشـويش وسوء الحفظ والغفلة ، الذى سوف يتبين لـك من مقارنة ما ذكره ابن أعثم بمـا أورده المؤرخون الثقات حـول هـذه المناسبة التاريخيـة ، قالوا — والنص من ابن جرير الطبرى — « لمـا خرج الحسين من مكة ، اعترضـه رسل عمرو بن سعيد بن العـاص (وكان يومئذ أميرا على الحجاز) عليهم يحيى بن سعيد ، فقالوا له : انصرف أين تذهب ؟ فأبى عليهم ومضى ، وتدافـع الفريقان ، فاضطربوا بالسياط ثم ان الحسين وأصحابه امتنعوا امتناعا قويـا ، ومضى الحسين على وجهه ، فنادوه : ياحسين ، ألا تتقى الله ! تخرج من الجمـاعة وتفرق بين هذه الأمة ! فتأول حسين قول الله عز وجـل : « لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمـل وأنا برىء مما تعملون » [١٥٦] .

ثم كانت هناك محاولة أخرى ، للحيلولة دون خروج الحسـين الى العراق ، قام بهـا عمرو بن سعيد بن العاص أيضـا — وهو أمير مكـة يومئذ — بعد أن طلب منه ذلك عبد الله بن جعفـر بن أبى طـالب ، فلقـد روى الطبرى : أن عبد الله قـام الى عمرو بن سعيد بن العاص، فكلمه ، وقال : اكتب الى الحسين كتابا تجعـل له فيـه الأمان ، وتمنيه فيه البر والصلة ، وتوثق لـه فى كتابك ، وتسأله الرجوع ، لعله يطمئن الى ذلك فيرجع ، فقال عمرو بن سعيد: اكتب ما شئت وائتنى به حتى أختمه، فكتب عبد الله بن جعفر الكتاب ثم أتى به عمرو بن سعيد فقال له : اختمه ، وابعث به مع أخيك يحيى بن سعيد ، فانه أحرى أن تطمئن نفسه اليه، ويعلم أنه الجد منك، ففعل.وكان عمرو بن سعيد عامل يزيد بن معاوية على مكة، قال : فلحقه يحيى وعبد الله بن جعفر ، ثـم انصرفا بعد أن أقرأه يحيى الكتاب ، فقالا : أقرأناه الكتاب ، وجهدنا به ، وكان مما اعتذر به الينا أن قال : انى رأيت رؤيا فيهـا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمرت فيهـا بأمـر أنا ماض له ، على كان ، أو لى ، فقالا لـه : فمـا تلـك

---

(١٥٦) سورة يونس : الآية ٤١ . تاريخ الرسل والملوك ٥/٣٨٥ ، ابن الأثير : الكامل ٤/٣٩ .

الرؤيا ؟ قال : ما حدثت أحدا بهـا ، وما أنا محدث بهـا حتى ألقى ربى [(١٥٧)] .

ثم جاء الطبرى ينص الكتاب فقال : وكان كتاب عمرو بن سـعيد الى الحسين بن على « بسم الله الرحمن الرحيم » من عمرو بن سعيد الى الحسين بن على ؛ أما بعد ، فانى أسأل الله أن يصرفك عمـا يوبقك، وأن يهديك لما يرشدك ، بلغنى أنك قد توجهت الى العراق ، وانى أعيذك بالله من الشقاق ، فانى أخاف عليك فيه الهلاك ، وقـد بعثت اليـك عبد الله بن جعفـر ويحيى بن سعيد ، فأقبل الى معهمـا ، فـان لك عندى الأمان والصلة والبر ، وحسن الجوار لك ، الله على بذلك شهيد وكفيل ومراع ووكيل ، والسلام عليك » قـال : وكتب اليه الحسين : أما بعد ، فانه لـم يشاقق الله ورسوله من دعا الى الله عز وجـل ، وعمـل صالحـا وقال اننى من المسلمين ، وقـد دعوت الى الأمان والبر والصلة ، فخير الأمان أمان الله ، ولن يؤمن الله يوم القيامة من لـم يخفه فى الدنيـا ، فنسأل الله مخافة فى الدنيـا توجب لنـا أمانة يوم القيامة ، ان كنت نويت بالكتاب صلتى وبرى ، فجزيت خيرا فى الدنيـا والآخرة ، والسلام » [(١٥٨)] .

ولعل هذا هو الكتاب الذى أورده ابن أعثم فى هذه المناسبة ، ولكن الاختلاف شديد وجلى بين هذا وذاك ، سواء من حيث مرسله ، أو من حيث نصه ، ونص جواب الحسين ، كمـا أن جانبا مهمـا جدا قـد أغفله ابن أعثم ، ألا وهو الباعث على ارسـاله ، ومن قـام بهذه المهمة!!

وثمة كتاب آخر لا أصل له ولا سند عند المؤرخين ، ابتكره ابن أعثم الكوفى وادعى أن الوليد بن عتبة بن أبى سفيان — والى المدينة — قـد

---

(١٥٧) تاريخ الرسل والملوك ٥/٣٨٨ ، ابن الأثير : الكامل ٤/٤٠—٤١

(١٥٨) تاريخ الرسل والملوك ٥/٣٨٨ — ٣٨٩ ، النويرى : نهـاية الأرب ٢٠/٤١٠ — ٤١٢ .

أرسله الى عبيد الله بن زياد والى العراق يحذره تحذيرا صريحا من عاقبة التعامل بالشدة مع الحسين الذى توجه الى العراق ! قال ابن أعثم : « واتصل الخبر بالوليد بن عتبة أمير المدينة بأن الحسين قد توجه الى العراق ، فكتب الى عبيد الله بن زياد : بسم الله الرحمن الرحيم ، من الوليد بن عتبة الى عبيد الله بن زياد ، أما بعد فان الحسين ابن على قد توجه نحو العراق ، وهو ابن فاطمة ، وفاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فاحذر يا ابن زياد أن تبعث اليه رسولا ، فتفتح على نفسك ما لا تختار من الخاص والعام ، والسلام ، قال : فلم يلتفت عبيد الله بن زياد الى الكتاب »(١٥٩) .

ومما لا ريب فيه أن الوليد بن عتبة ، قد أحسن معاملة الحسين وابن عمر وابن الزبير ، ولم يستعمل الشدة أو القسوة وهو يطلب منهم البيعة للخليفة الجديد يزيد بن معاوية ، حتى أدى تساهله معهم ورقته بهم — حفظا لحقهم وصيانة لقدرهم — الى تمكن الحسين وابن الزبير من الخروج الى مكة دون أن يبايعا ، وكان ذلك سببا فى عزله عن ولاية المدينة ، وتولية عمرو بن سعيد بن العاص على الحجاز كله فى رمضان سنة ٦٠ هـ . ثم عاد يزيد ، فولى الوليد على الحجاز فى مستهل ذى الحجة من السنة ذاتها(١٦٠) .

لكن ذلك أمر مجمع عليه بين مؤرخى الاسلام ، أما هذا الكتاب الذى انفرد به صاحبنا ، فمن أين له به ؟! ومما لا ريب فيه كذلك ، أن عبيد الله بن زياد قد أخطأ خطأ شنيعا فادحا ، وأساء السلوك بفظاظة شديدة مع الحسين رضى الله عنه ، فهل أراد ابن أعثم من وضع هذا الكتاب أن يزيد هذه الفكرة تأكيدا ورسوخا فى أذهان الناس،

---

(١٥٩) الفتوح ١٢١/٥ — ١٢٢ .

(١٦٠) خليفة بن خياط : التاريخ ص ٢٢٩ ، الطبرى : التاريخ ٣٩٩/٥، ابن الأثير : الكامل ١٨/٤ .

وذلك باضافة قرينة ذات مدلول خلص ، باعتبارها تحذيرا وتنبيها صادرا من أحد رجالات بنى أمية القريبين من الخليفة ، والمطلعين على مجريات الأمور ، والحريصين فى ذات الوقت على وحدة الأمة فى ظل الخلافة الأمويه ؟ انه فى عبارة أخرى يريد أن يسجل بصورة غير مباشرة عن طريق هذا الكتاب ، أن الدولة الاموية قد ارتكبت هذا الخطأ اللعين مع سبق الاعداد له والاصرار عليه ، وأن بنى أمية قد فتحوا على أنفسهم بابا لم يستطيعوا اغلاقه حتى سقطت دولتهم بعد حوالى سبعين عاما !! ؟ ألا ترى الى قول الوليد لابن زياد « فاحذر يا ابن زياد أن تبعث اليه رسولا ، فتفتح على نفسك (وهو هنا ممثل الدولة) ما لا تختار من الخاص والعام » وقوله « فلم يلتفت عبيد الله بن زياد الى الكتاب » وهذا هو عين الاصرار على ارتكاب الخطأ الرهيب الذى ضاع بسببه الألوف المؤلفة من أرواح المسلمين ..

قصيدة الفرزدق :

ومما يتصل بهذه المناسبة كذلك ، تلك القصة الأخرى ، التى افتعلها ابن أعثم الكوفى ، ومارس فيها هوايته فى التحريف والتبديل والتزييف التاريخى ، غير أن ما صنعه فى هذه المرة انما يدخل فى تاريخ الأدب العربى ، وان كانت صلته بالتاريخ قائمة ، فبعد أن مضى الحسين وركبه نحو العراق ، قال ابن أعثم : « وسار الحسين حتى نزل الشقوق (١٦١) .

---

(١٦١) منزل بطريق مكة لمن يقصد الكوفة — معجم البلدان لياقوت ٣٥٦/٣ . هذا ولم يكن اللقاء بينهما بهذا الموضع ، وانما فى مكان آخر يسمى الصفاح — كما ذكر الطبرى : تاريخ ٣٨٦/٥ وابن الأثير : الكامل ٤٠/٤ — وهو موضع بين حنين وأنصاب الحرم على يسار الداخل الى مكة ، قال الفرزدق « لقيت الحسين بأرض الصفاح عليه اليلامق والدرق » معجم البلدان ٤١٢/٣ .

فاذا هو بالفرزدق بن غالب الشاعر ، قد أقبل عليه ، فسلم ثم دنا منه فقبل يده ، فقال الحسين : من أين أقبلت يا أبا فراس ؟ — الى أن قال : ثم ودعه الفرزدق فى نفر من أصحابه ، ومضى يريد مكة ، فأقبل عليه ابن عم له من بنى مجاشع ، فقال : أبا فراس ، هذا الحسين بن على ! فقال الفرزدق : هذا الحسين بن فاطمة الزهراء بنت محمد صلى الله عيه وآله وسلم ، هذا والله ابن خيرة الله ، وأفضل من مشى على وجه الأرض بعد محمد ، وقد كنت قلت فيه أبياتا قبل اليوم . فلا عليك أن تسمعها ! فقال له ابن عمه : ما أكره ذلك يا أبا فراس . فان رأيت أن تنشدنى ما قلت فيه ! فقال الفرزدق : نعم أنا القائل فيه ، وفى أبيه ، وأخيه ، وجده صلوات الله عليهم هذه الأبيات :

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقى النقى الطاهر العلم
هذا حسين رسول الله والده ... أمست بنور هداه تهتدى الأمم(١٦٢)
هذا ابن فاطمة الزهراء عترتها ... فى جنة الخلد مجريا بها القلم(١٦٣)
اذا رأته قريش قال قائلها ... الى مكارم هذا ينتهى الكرم
يكاد يمسكه عرفان راحته ... ركن الحطيم اذا ما جاء يستلم
بكفه خيزران ريحه عبق ... بكف أروع فى عرنينه شمم(١٦٤)

---

(١٦٢) هذا البيت ليس فى الديوان،فهو من زيادات ابن أعثم ليربط الابيات بالحسين ربطا مباشرا .

(١٦٣) هذا البيت يختلف عنه فى الديوان ، فقد ورد غيره بهذا النص .

هذا ابن فاطمة ان كنت جاهله ... بجده أنبياء الله قد ختموا

(١٦٤) هذا البيت مختل الوزن ، والصواب كما فى الديوان :

فى كفه خيزران ريحه عبق ... من كف أروع فى عرنينه شمم

يغضى حيـــاء ويغضى من مهــابته فلا يكلم الا حين يبتســـم [(١٦٥)]

ينشق نور الدجى عن نور غرتـــــه
كالشمس تنجلب عن اشراقهـــا الظلم [(١٦٦)]

مشتقة من رسول الله نبعتـــــــه طابت أرومته والخيم والشيم [(١٦٧)]

فى معشر حبهم شـــكر وبغضـــهم كفر وقربهم منجى ومعتصم [(١٦٨)]

يستدفع الضر والبلوى بحبهـــم ويستقيم به الاحسان والنعم [(١٦٩)]

ان عـــد أهـــل النـــدى كانــــوا أئمتهم
أو قيل : من خير أهل الأرض ؟ قيل هم [(١٧٠)]

لا يستطيع جواد بعد جودهـــــم ولا يدانيهم قوم وان كرموا [(١٧١)]

بيوتهم من قـــــريش يستضــــاء بهـــــا
فى النائبــــات وعند الحكم ان حكموا [(١٧٢)]

فجده من قريش فى أرومتهــــا محمـــد وعلى بعـــده علم [(١٧٣)]

قال ابن أعثم : ثم أقبل الفرزدق على ابن عمه فقــال : والله لقد

---

(١٦٥) رواية البيت فى الديوان « فمـــا يكلم الاحين يبتســـم » .
(١٦٦) رواية هذا البيت فى الديوان هكذا :
ينشق نور الهدى عن نور غرتـــه كالشمس ينجاب عن أشراقها الظلم
(١٦٧) فى الديوان مفارسه بدلا من أرومته .
(١٦٨) ورد صدر البيت فى الديوان هكذا .
من معشر حبهم دين وبغضـــهم
(١٦٩) هذا البيت فى الديوان هكذا .
يستدفع السوء والبلوى بحبهم ويسترد به الاحسان والنعم
(١٧٠) وردت كلمة التقى فى الديوان بدلا من كلمة « الندى » .
(١٧١) وردت فى الديوان كلمة غايتهم بدلا من « جودهم » .
(١٧٢) ليس هذا البيت فى الديوان .
(١٧٣) وهذا البيت أيضـــا ليس فى الديوان .

قلت فيه الأبيات غير متعرض الى معروفه ، غير أنى أردت الله والدار الآخرة »(١٧٤) .

ونقول تعليقا على هذا الذى قاله ابن أعثم : ان لقاء الحسين والفرزدق قد تم فعلاً ، وجرى بينهما حوار قصير ، استأنف بعده كلاهما المسير الى وجهته المقصودة ، لكن الذى لم يتم — كما تؤيد ذلك الشواهد العديدة والمشهورة فى سيرتى على بن الحسين زين العابدين رضى الله عنه ، والفرزدق الشاعر — هو ذلك الحوار بين الفرزدق وابن عمه المجاشعى المجهول ، والذى قيلت فى أثنائه هذه الأبيات التى زعم ابن أعثم أن الفرزدق قد أنشدها فى مدح الحسين بن على — تلفيقا وتزييفا — وكأن الحسين كان فى حاجة اليها ليرتفع ذكره ، ويشتهر أمره ! ؟ .

أما المشهور والمدون لدى مؤرخى السير والأدب العربى فهو — وان رغم أنف صاحبنا الكوفى ابن أعثم — أن هذه القصيدة التى لم يستطع ابن أعثم أن يوردها تامة حتى لا ينكشف زيفه وتلاعبه فيها قد قالها الفرزدق يمدح بها ذلك العلم الهاشمى الكبير على بن الحسين ، وأنه أنشدها فى موقف معروف « عند بيت الله الحرام بمكة المكرمة » ، وأمام شخصية أمويه شهيرة « هشام بن عبد الملك » ، وبسبب محدد ، ذكروا ذلك كله فقالوا — واللفظ لشمس الدين بن خلكان — « وتنسب اليه (الى الفرزدق) مكرمة يرجى له بها الجنة ، وهى أنه لما حج هشام بن عبد الملك — فى أيام أبيه — ، فطاف ، وجهد أن يصل الى الحجر ليستلمه ، فلم يقدر عليه لكثرة الزحام، فنصب له منبر ، وجلس عليه ينظر الى الناس ، ومعه جماعة من أعيان أهل الشام ، فبينما هو كذلك اذ أقبل زين العابدين على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، رضى الله عنهم وكان

(١٧٤) الفتوح ١٢٤/٥ — ١٢٩ .

من أحسن الناس وجهـا وأطيبهم أرجا ، فطاف بالبيت ، فلما انتهى الى الحجر تنحى له الناس حتى استلم ، فقال رجل من أهل الشام : من هذا الذى قد هابه الناس هذه الهيبة ؟ فقال هشام : لا أعرفه ! مخافة أن يرغب فيه أهل الشام . وكان الفرزدق حاضرا فقال : أنا أعرفه ! فقال الشامى : من هذا يا أبا فراس ؟ قال :

« هذا الذى تعرف البطحاء وطأته البيت يعرفه والحل والحرم »
الخ القصيدة (١٧٥)

قالوا — واللفظ فى الفقرة للنويرى — فغضب هشام لذلك ، وتنغص عليه يومه ، وأمر بحبس الفرزدق بعسفان بين مكة والمدينة ، وبلغ ذلك على بن الحسين رضى الله عنه ، فبعث اليه باثنى عشر ألف درهم ، وقال : اعذر أبا فراس ، لو كان عندنا أكثر من هذا لوصلناك بها . فردها الفرزدق وقال : ما قلت الذى قلت الا غضبا لله ولرسوله ، وما كنت لأزرأ عليها شيئا ، فردها عليه ، وقال : بحقى عليك الا قبلتها ، فقد علمت أنا أهل بيت اذا أنفذنا أمرا لا نرجع فيه ! وقد رأى الله مكانك ، وعلم نيتك ، والجزاء عليه تعالى . فقبلها .. وجعل الفرزدق يهجو هشاما ، فكان مما هجاه به :

---

(١٧٥) التى تغاضى ابن أعثم عن كثير منها ، فلم يذكرها مخافة أن يكون من بينها ما يبين حقيقتها ، والحقيقة أن منها بيتا يصرح بأن القصيدة ليست فى مديح الحسين وهو :

فليس قولك : « من هذا » ؟ بضائره
العرب تعرف من أنكرت والعجم

وبيان ذلك المعنى فى البيت : أن القصيدة لو كانت فى الحسين ما صح أن يقول الفرزدق ذلك ، لأن الناس جميعا كانوا يعرفون الحسين ، واذن فلا يتأتى لأحد أن يسأل عنه ويقول « من هذا ؟ » .

أيحبسنى بين المدينة والتى اليها قلوب الناس يهوى منيبها
يقلب رأسا لم يكن رأس سيد وعينين حولاوين باد عيوبها (١٧٦)

فأين هذا من ذاك الذى صنعه ابن أعثم فى القصيدة ومناسبتها ؟!

بين يزيد بن معاوية وعبد الله بن الزبير :

وهناك اشارة وجيزة الى ابتداء أمر عبد الله بن الزبير بن العوام وما صنعه يزيد بن معاوية لوقف هذا التيار المضاد ، الذى ينذر بأخطار جسيمة قادمة ، قال أبو جعفر الطبرى — وتابعه على ذلك جمهرة من المؤرخين — : لما قتل الحسين عليه السلام ، قام ابن الزبير فى أهل مكة ، وعظم مقتله ، وعاب على أهل الكوفة خاصة ، ولام أهل العراق عامة فقال : ••• ان أهل العراق غدر فجر الا قليلا ، وان أهل الكوفة شرار أهل العراق ••• ثم أخذ يثنى على الحسين ، ويعرض بيزيد ! قال : فثار اليه أصحابه فقالوا له : أيها الرجل أظهر بيعتك ، فانه لم يبق أحد اذ هلك حسين ينازعك هذا الأمر • وقد كان يبايع الناس سرا ويظهر أنه عائذ بالبيت ، فقال لهم : لا تعجلوا — وعمرو بن سعيد بن العاص يومئذ عامل مكة ، وقد كان أشد شىء عليه وعلى أصحابه ، وكان مع شدته عليهم يدارى ويرفق — فلما استقر عند يزيد بن معاوية ما قد جمع ابن الزبير من الجموع بمكة ، أعطى الله عهدا ليوثقنه فى سلسلة ، فبعث بسلسلة من فضة ، فمر بها البريد على مروان بن الحكم بالمدينة ، فأخبر خبر ما قدم له وبالسلسلة التى معه ، فقال مروان :

خذها فليست للعزيز بخطة وفيها مقال لامرىء متضعف

---

(١٧٦) وفيات الأعيان (ترجمة الفرزدق) ٩٥/٦ — ٩٧ • النويرى : نهاية الأرب ٣٢٧/٢١ — ٣٣١ • الذهبى : سير أعلام النبلاء ٣٩٨/٤ — ٣٩٩ (ترجمة على بن الحسين) ، ابن كثير : البداية والنهاية ١١٣/٩ — ١١٥ • وراجع ديوان الفرزدق بشرح الصاوى ط القاهرة ١٣٥٤ هـ — ٨٤٨/٢ — ٨٤٩ •

ثم مضى من عنده حتى قدم على ابن الزبير ، فأتى ابن الزبير فأخبره بممر البريد على مروان ، وتمثل مروان بهذا البيت ، فقال ابن الزبير : لا والله لا أكون أنا ذلك المتضعف ، ورد ذلك البريد ردا رقيقا .. وعلا أمر ابن الزبير بمكة ، وكاتبه أهل المدينة ، وقال الناس : أما اذ هلك الحسين عليه السلام ، فليس أحد ينازع ابن الزبير . ثم قال عقب ذلك : رواية عن عبد العزيز بن مروان ، قال « لما بعث يزيد بن معاوية ، ابن عضاه الأشعرى ، ومسعدة ، وأصحابهما الى عبد الله بن الزبير بمكة ليؤتى به فى جامعة (قيد) لتبر يمين يزيد ، بعث معهم بجـامعة من ورق وبرنس خز .... » (١٧٧) .

غير أن ابن أعثم الكوفى قد خرج على طريقته المعهودة لدينا حين تناول هذه المناسبة التاريخية ، حتى ليحار المرء فى فهم ميله ، واتجاهه نحو أى الفريقين ، أهو يؤيد ابن الزبير فى خروجه على يزيد (قاتل الحسين عليه السلام) وعدو آل البيت وأنصارهم ؟ أم يؤيد يزيد ، لا ميلا فيه ولا حباله ، وانما كراهة أن ينتصر ابن الزبير (الذى كان المستفيد الأول من استشهاد الحسين) ؟

ويتضح هذا الأمر بجلاء من خلال معالجة ابن أعثم ، لهذه المرحلة المبكرة من دعوة ابن الزبير لنفسه ، وبدء مقاومته لخلافة يزيد بن معاوية مقاومة عملية ، واذا كانت اشارة المؤرخين الآخرين لهذه المسألة قد جاءت موجزة — كما عرضناها آنفا — فان ابن أعثم قد فصل القول فيهـا تفصيلا مهما الى حد كبير ، سوف نشير اليه بعد أن نقدم بين يديك ما أورده حول هذه القضية ، قال ابن أعثم :

ولما بلغ يزيد بن معاوية ما فيه عبد الله بن الزبير من بيعة الناس

---

(١٧٧) تاريخ ٤٧٤/٥ ، ٤٧٦ ، ابن الأثير : الكامل ٩٨/٤ — ١٠٠ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ٣٧٣/٣ .

له ، واجتماعهم اليه ، دعا بعشرة نفر من وجوه أصحابه ، منهم [١٧٨] : النعمان بن بشير الأنصارى ، وشريك بن عبد الله الكنانى ، وزمل بن عمرو العذرى ، ومالك بن هبيرة السكونى ، وعبد الله بن عضاه الأشعرى ، وروح بن زنباع الجذامى ، وأبو كبشة السكسكى ، وسعيد بن عمرو الهمدانى ، وعبد الله بن مسعدة الفزارى ، وعبد الرحمن بن مســعود الفزارى ، فدعا بهؤلاء العشرة ثم قال لهم : ان عبد الله بن الزبير قد تحرك بالحجاز ، وأخرج يده من طاعتى ، ودعا الناس الى سبى وسب أبى ، وقد اجتمع اليه قوم يعينونه على ذلك ، ويزينون له أمــره ، وأنا أكره البغى عليه قبل الاعذار اليه ! ولكن صيروا اليه ، فاذا دخلتم عليه ، فعظموا حقه وحق الزبير ، وخبروه بالذى بلغنى عنه ، وسلوه بعد ذلك أن يلزم الطاعة ولا يفارق الجماعة ، وأن يرجع الى الأمــر الذى خرج منه ، وعليكم بالرفق والتأنى ، فان أجاب الى ذلك فخذوا بيعته وانصرفوا عنه ، وان أبى الا العداوة وشق العصا ، فخوفوه ، وحذروه ما نزل بالحسين بن على ، وليس الزبير عندى بأفضل من على ابن أبى طالب رضى الله عنه ، ولا ابنه عبد الله بأفضل من الحسين بن على ! وانظروا ألا تلبثوا عنده ، فانى متعلق القلب بورود خبركم على ، ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

فخرج القوم من الشام وساروا الى مكة ، ودخلوا على عبد الله ابن الزبير ، وعنده يومئذ المختار بن أبى عبيد ، وعبد الله بن مطيع العــدوى ، والعباس بن سهل الأنصــارى ، ووجوه أولاد المهــاجرين والأنصار ، فسلموا عليه ، فرد عليهم السلام [١٧٩] ، ورحب بهم ، وقربهم ، وأدناهم ، ثم سألهم عن حالهم وأمرهم . فأدوا اليه رسالة يزيد . فقال عبد الله بن الزبير : وما الذى يريد منى يزيد بن معاوية ؟

---

(١٧٨) كذا ، والأوجه أن يقول هم .

(١٧٩) من أسلوب هذا الكتاب : التفصيل الممل فى بعض الأحيان ، كقوله هذا « فسلموا عليه ، فرد عليهم السلام » .

انما أنا رجل مجاور لهذا البيت ، عائذ به ، من شر يزيد بن معـــاوية ، وغير يزيد ، فان تركتنى فيه ، والا انتقلت عنه الى بلد غيره ، وكنت فيه الى أن يأتينى الموت ! ثم أمـــر لهم بمنزل ، فصاروا يومهم ذلـــك ، وأمر لهم بما يصلحهم .

فلما كان من الغد خرج ، فصلى بأصحابه الفجر ، ثم أقبل ، فجلس فى الحجر ، واجتمع اليه أصحابه ، وأقبل اليه هؤلاء الوفد الذين قدموا عليه من عند يزيد وتكلموا كلاما يرجون به اتباعه ليزيد وطـــاعته له ، فأقبل اليه النعمان بن بشير فقال : بلغ يزيد عنك أنك تصعد المنبـــر ، فتذكره وتذكـــر أباه معاوية بكل قبيح ، وأنت تعلم أنه امام وقد بايعه الناس ، ولا نحب لك أن تخرج يدك من الطاعة وتفارق الجماعة ، وبعد ، فان الغيبة لا خير فيها ! فقطع عليه الكلام عبد الله بن الزبير ، ثـــم قال : يا ابن بشير : ان الفاسق لا غيبة فيه ، وما قلت فيه الا ما قـــد علمه الناس منه ، ولو كان على ما كان عليه الأئمة الأخيار ســـــمعنا وأطعنا ، ولذكرناه بكل جميل ، وبعد فانى أنا فى هذا البيت بمنزلة حمامة من حمام مكة ، أفيحل لكم أن تؤذوا حمام مكة ؟ فغضب عبد الله بن عضاه الأشعرى ، فقال نعم والله يا ابن الزبير ! نؤذى حمام مكة ، وما حرمة حمام مكة يا ابن الزبير ؟ أتصعد المنبر ، وتتكلم فى أمير المؤمنين بكل قبيح ، ثم تشبه نفسك بحمام مكة ؟ ثم قال له : أما والله يا ابن الزبير ، انى خائف عليك ، وأقســـم بالله قسما صادقا لتبايعن يزيد طائعا أو كارها ، أو لتعرفنى فى هذه البطحاء ، وفى يـــدى راية الأشعريين ! فقال المختار بن أبى عبيد : أما والله يا ابن عضـــاه لئن أنت رمت ذلك وأردت بصاحب هذا البيت سوءا ليدمرن الله عليك وعلى صاحبك يزيد كما دمر على أصحاب الفيل ، إذ راموه فجعل كيدهم فى تضليل ، فان شئت فرم ذلك ! ؟ فقال عبد الله بن عضاه : يا ابن أبى عبيد ، أما ان عبيد الله بن زياد قد كان حازم الرأى فى حبســـك

بالكوفة ولو ضرب عنقك لأصاب الرأى ، ولكن لاجزى الله صهرك عبد الله بن عمر خيرا ! (١٨٠) .

قال ابن أبى عبيد : والله ما كان أبوه أمير المؤمنين (يعنى يزيد ابن معاوية) وقد قتل وسفك دماء المؤمنين وقد قتل ابن بنت نبى رب العالمين . وارتفعت الأصوات بين عبد الله بن عضاه وبين المختار . فأقسم عبد الله بن الزبير على المختار أن يسكت ، فسكت . ثم أقبل على عبد الله بن عضاه ، فقال : يا هذا ! أتستحل فى البيت الحرام وقد أخبر الله تعالى فى كتابه : « ومن دخله كان آمنا » (*) فقال ابن العضاه : انما يستحل الحرام من حل فيه ، وخلع الطاعة وفارق الجماعة !! قال ابن أعثم : وكثر الكلام بين القوم ، ولم يجبهم ابن الزبير الى ما يريدون ، فانصرفوا عنه ، حتى اذا صاروا الى يزيد فخبروه بذلك ، فأمهله يزيد ، وجعل يتأنى فى أمره ، ويقول لأصحابه : ويحكم ! انى قتلت بالأمس الحسين بن على ، وأقتل اليوم عبد الله بن الزبير ، أخاف أن تشعث على العامة ، ولا يحتمل ذلك لى ، ويتنغص على أمرى !! (١٨١) .

ولابد من الوقوف مع هذا النص المهم ، لابداء بعض الملاحظات الكاشفة عن جوانب أخرى من تاريخ ابن أعثم ، واتجاه آخر فى سياسة يزيد بن معاوية مع منافسيه الأقوياء ، ولعل فى كشف هذا الاتجاه السياسى ما يلقى ضوءا مبينا على حوادث أخرى وقعت ابان خلافته ..

فأولا : ان هذا النص المطول الذى تضمن تفاصيل دقيقة تتعلق بهذه السفارة ذات الأهمية البالغة — من وجهة نظر يزيد كما هى من

---

(١٨٠) حيث تشفع لدى يزيد حتى أمر ابن زياد فأخرجه من الحبس ونفاه الى الطائف — ابن الأثير : الكامل ١٦٩/٤ .

(١٨١) الفتوح : ٢٧٩/٥ — ٢٨٤ .

(*) آل عمران آية ٩٧ .

وجهة نظر ابن أعثم — ، وتبرز هذه الأهمية في اختيار أعضاء ذلك الوفد الذى يمكن أن يوصف بلغة العصر الحاضر بأنه ذو مستوى رفيع ، فهو مكون أولا من عشرة رجال أى أنه وفد كبير ، وثانيا ، لكثير من هؤلاء العشرة وزن كبير وتاريخ مميز تحتفل به دولتا معاوية ويزيد (١٨٢) .

كذلك احتوى هذا النص على بعض الحوار الذى تبودل بين ابن الزبير وبعض أنصاره — كالمختار ابن أبى عبيد الثقفى — وبين بعض الرجال من وفد يزيد ، وفى ثنايا ذلك الحوار تتكشف لنا الطريقة التى سلكهـا ابن الزبير فى بداية العمل لنفسه ، وحشـد الأنصار الى جانبه ، وذلك

---

(١٨٢) فالنعمان بن بشير بن سعد الأنصارى رضى الله عنه من أجلاء الصحابة — ومن أشهر من وقفوا مع معاوية بن أبى سفيان ، وكان قد حمل قميص عثمان رضى الله عنه بعد قتله الى معاوية ، وولاء القضاء بدمشق ، ثم ولاه اليمن ، ثم الكوفة وحمص ، وأخيرا قتل فى سنة ٦٥هـ وكان من اخطب الناس . راجع أسد الغابة لابن الأثير ٣٢٦/٥ — ٣٢٩ . ابن حجر : تهذيب التهذيب ٤٤٧/١٠ . ومالك بن هبيرة السكونى الكندى أحد رؤوس كندة فى العصر الأموى بالشام — صحابى — خطيب شهير ، ومن أشـهر قادة بنى أمية فى البحر والبر ، ولاه معاوية حمص ، وسار مع مروان بن الحكم لفتح مصر سنة ٦٥هـ ثم توفى بعدها فى السنة ذاتها . راجع أسـد الغابة ٥٤/٥ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب ٢٤/١٠ . وعبد الله بن مسعدة ابن حكمة الفزارى — صحابى أيضا ، كان قائدا للمسلمين فى غزو الروم سنة ٤٩هـ فى عهد معاوية — وقد شهد معه صفين ، وبعثه يزيد على جند دمشق يوم الحرة وكان شـديدا فى قتال ابن الزبير بمكة . وبايع مروان بالخلافة فى الجابية . وتوفى عام ٦٥هـ . أسد الغابة لابن الأثير ٢١٤/٣ ، وراجع الطبرى : تاريخ ١٣٥/٥ ، ٢٨٧ ، ٣٣٤ . وأما روح بن زنباع بن روح بن سلامة الجذامى ، فكان سيد اليمانية فى الشام وقائدها وخطيبها وشجاعها ، وأخباره مشهورة مع عبد الملك بن مروان وغيره . واختلف فى صحبته بين المؤرخين . الصلاح الصفدى : الوافى بالوفيات ١٥٠/١٤ — ١٥١ . وراجع ابن كثير : البداية والنهاية ٥٨/٩ ، ٥٩ . وكان زمل ابن عمرو العذرى أحد شهود أهل الشام على كتاب التحكيم بين الفريقين . الطبرى : تاريخ ٥٢/٥ . ابن الأثير : الكامل ٣ /٣٢١ .

بتأليب الناس ضـد يزيـد ، والطعن عليه وعلى أبيه بقبيح الأقوال والأوصـاف والأعمال ! والكيفية التى يجادل بها دفاعا عما يصنع فى مكة ضد الدولة والخليفة ، فاذا ما ضيق عليه فى الحوار والجدال ، قال للرجال « لو كان على ما كان عليه الأئمة الأخيار سمعنا وأطعنا ، ولذكرناه بكل جميل » أو قال انما أنا عائذ بالبيت فهل تقدرون أن تستحلوا فى الحرم؟ أو قال لهم : انى فى هذا البيت بمنزلة حمامة من حمام مكة ، أفيحل لكم أن تؤذوا حمام مكة ؟ ! (١٨٣) .

أما تعليمات يزيـد لأعضاء وفده ، فتبين عن حرصه الشـديد على احتواء الموقف الناجم عن مخالفة ابن الزبير دون اثارة قلاقل أخرى ، أو ارتكاب أخطاء تورث أحقادا ونفرة زائدة من يزيـد وبنى أمية ، كذلك تبين هذه التعليمات عن رغبة قوية صادقة فى سلوك سبل السلام فى مواجهـة الأزمات ، ويتجلى ذلك بقوة فى قوله لهم : « ... لكن صيروا اليه ، فاذا دخلتم ، فعظموا حقه وحق الزبير ، وخبروه بالذى بلغنى عنه ، وسلوه بعد ذلك أن يلزم الطاعة ولا يفارق الجماعة ، وأن يرجـع الى الأمر الذى خرج منه ، وعليكم بالرفق والتأنى ، فان أجاب الى ذلك ، فخذوا بيعته ، وانصرفوا عنه ، وان أبى الا العداوة وشق العصـا ، فخوفوه وحذروه ما نزل بالحسين بن على !! » هكذا كان سـلوك أعضاء الوفد مع عبد الله بن الزبير ، فقـد بدأه النعمان بن بشـير بقوله « بلغ يزيـد عنك ، أنك تصعد المنبر ، فتذكره وتذكر أبـاه معاوية بكل قبيح ، وأنت تعلم أنه امام (كذا) وقد بايعه النـاس ، ولا نحب

---

(١٨٣) لقد سبق لمعاوية رضى الله عنه أن أوصى ابنه يزيد — لدى وفاته — بأن يحذر الحذر كله من عبد الله بن الزبير لأنه أخطر منافسيه على الخلافة وقال له فى وصفه وهو الخبير بأحوال الرجال العليم بطرائقهم : « وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد ، ويراوغك مراوغة الثعلب ، فان أمكنته فرصة وثب ، فذاك ابن الزبير » الطبرى ٥/٣٣٢ — ٣٣٣ . ابن الأثير : ٤/٦ .

لك أن تخرج يدك من الطاعة ، وتفارق الجماعة ، وبعـــد ، فان الغيبة لا خير فيهـــا ! » •

وبعـــد ، فهـــذه هى ســـياسة يزيـــد بن معـــاوية مـــع منـــافســـيه ، يجســـدها هذا الموقف بحيويته وحرارته — كمـــا نقلهـــا الينا ابن أعثم — الشيعى المغالى فى خصومته وعداوته لجميع بنى أميـــة — سياســـة قائمة على السعى المخلص الى الســـلم ، وحقن دماء المســـلمين ، وتقدير الصحابة ، وأبنائهم حق قدرهم ، وحسن التعامل معهم ، وعـــدم البدء معهم بالشرأبدا !! ولو أنصف ابن أعثم لعاد الى الوراء قليـــلا فى كتابه ، ليصحح ما وجه الى يزيـــد من تهمة ظالمـــة — انفرد وحـــده بتلفيقهـــا — وهى أنه طلب من ابن عمه « الوليد بن عتبة بن أبى سفيان» والى المدينة أن يأخذ البيعه له بالخلافة من الحسين وابن عمر وابن الزبير أخذا ليست فيه رخصـــة ، والاضرب أعناقهم !! (١٨٤) •

مسؤولية الشيعة عن مقتل الحسين :

ومما لا يختلف عليه اثنان من المسلمين : أن مقتل الحسين بن على رضى الله عنهمـــا كان مصيبة عظيمة وكارثة ثقيله أصـــابت أبناء الأمة أجمعين بالذهول والصدمة العنيفة ، كما أورثتهم حزنا عميقـــا لا يزالون يجترونه ويتجدد فى قلوبهم عاما بعد عام ، مـــع تجدد ذكراه فى العاشر من المحرم الحرام ، كذلك لاخلاف بين علمـــاء التـــاريخ على أن هذه السقطة الشنيعة التى وقـــع فيهـــا عمال يزيـــد بن معاوية فى العراق ، ومالأهم عليهـــا ، ومهد لها كل السبل أولئك الكوفيون — الغدرة الفجرة أنصار السوء وأعوان الخور والعجز والفشل — بالحاحهم على الحسين بالقدوم اليهم لمبايعته بالخلافة ، وخلع يزيد !! لا خلاف على أن هذه الجريمة البشعة كانت من أهم وأقوى الأسباب فى كراهيـــة السواد الأعظم من المســـلمين لبنى أمية ، واضـــعاف دولتهم ، ومن ثـــم اسقاطهـــا ••

---

(١٨٤) انظـــر ص ٢٠٦ من هذا الكتاب •

وغنى عن البيان أن يكون أعظم الناس احساسا بالذنب الأكبر ، وشعورا بالخطأ الأعظم فى ذلك الحدث الجلل والخطب الجسيم ، هم الشيعة الذين أوردوا الحسين رضى الله عنه — بغدرهم وخيانتهم وكذبهم وجبنهم — مهلكه وحتفه ، لذلك اجتهدوا غاية الاجتهاد ، وحاولوا بكل ما وسعهم عزمهم الخائر ، تبرئة ساحتهم ، والتخلص من تبعة هذا الأمر الخطير ، والخروج من دائرة المسئولية التى تطوق أعناقهم أبد الدهر ، وتلصق بهم عار الخيانة والغدر والكذب والجبن ، بل لا مبالغة اذا قيل : تطوقهم بتهمة القتل العمد للحسين ومن كان معه من أهل بيته ، وشيعته المخلصين ، ومن قبلهم ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبى طالب !! وفى ذات الوقت القاء التبعة الكاملة على يزيد بن معاوية ورجاله ، باعتبارهم الجناة المرتكبين وحدهم لهذا الاثم العظيم !! .

ولما كانت المسألة واضحة جلية لا لبس فيها ولا غموض ، ولا مجال أمامهم للهروب مما ارتكبوه فى حق الحسين وآل البيت رضى الله عنهم أجمعين ، فقد انصب جهد أولئك الشيعة فى العمل على تضليل الناس ، وصرف أنظارهم عن الحقائق التاريخية المعروفة المتوارثة عن رواة الآثار والثقات من المؤرخين ، وهى الحقائق التى تدمغهم وتدينهم ادانة مباشرة فى هذا الحادث الهائل ، وذلك باختراع القصص ، واختلاق الأكاذيب ، ووضع الأحاديث المزيفة ، ونسبتها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والى على رضى الله عنه وبعض آل البيت ، وكل ذلك يتضمن أقوالا باطلة ، ومزاعم لا أصل لها ، تؤكد ان الحسين مقتول ، أو محكوم عليه بالقتل ، وأن ذلك قد عرف منذ العام الأول لمولده ، وذلك بواسطة جبريل والملائكة عليهم السلام ، بل ، وقد عرف قاتله بالاسم ، وأنه على رأس الطائفة الظالمة من الأمة ، وأن الله قد لعنه ولعن من معه وكذلك حدد مكان مقتله الى آخر ما زعموه ، وملكوا القدرة على ابتكاره وتزييف نسبته الى النبى عليه الصلاة والسلام ! .

ويطول بنا الحديث لو أننا عرضنا هنا جميع ما أورده ابن أعثم

الكوفى لنشر هـذه الدعوى الكاذبة ، ولترسيخ هذه الأفكار فى أذهان الناس ، حتى يمكن التخلص مما هم فيه من اثم بين وذنب عظيم ، لذلك سوف نكتفى ببعض هـذه القصص الأسطورية المعلومة الهدف والمحدودة الغاية ، فمن ذلك مثلا قوله : « ... قالت أم الفضل (١٨٥) :

فدخل النبى صلى الله عليه وسلم ذات يوم ، والحسين فى حجرى ، فأخذه وجعل يلاعبه وهو مسرور به ، قالت أم الفضل ، فبال الحسين ، فقطر من بوله على ثوب النبى صلى الله عليه وسلم ، فقرصته ، فبكى . فقال صلى الله عليه وسلم : مهلا يا أم الفضل ، فهذا الذى أصاب ثوبى يغسل ، وقد أوجعت ابنى . قالت فتركته فى حجره وقمت لآتيه بماء أغسل به ثوبه ، فلما جئت نظرت اليه وعيناه تذرفان بالدموع فقلت : فداك أبى وأمى يا رسول الله ، دفعته اليك وأنت به مسرور ، ثم رجعت اليك وعيناك تذرفان بالدموع ، فلماذا يا رسول الله ؟ فقال : نعم يا أم الفضل ! أتانى جبريل فأخبرنى أن أمتى تقتل ولدى هذا بشط الفرات ، وقد أتانى بتربة حمراء ! (١٨٦) .

ومثل آخر : قال ابن عباس : لقد رأيت حين هبط جبريل عليه السلام فى قبيل من الملائكة قد نشروا أجنحتهم يبكون حزنا منهم على الحسين ، وجبريل معه قبضة من تربة الحسين ، تفوح مسكا أذفر ، دفعها الى فاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال : يا حبيبة الله ، هذه تربة ولدك الحسين ، وستقتله اللعناء بأرض كرب وبلاء . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : حبيبى يا جبريل ، وهل

---

(١٨٥) هى لبابة بنت الحارث الهلالية زوجة العباس بن عبد المطلب ، وكانت ترضع الحسين بن على — ابن سعد : الطبقات ٢٠٤/٨ ، ابن الأثير : أسد الغابة ٢٥٣/٧ — ٢٥٤ .

(١٨٦) الفتوح ٢١١/٤ — ٢١٢ ، وقارن ما رواه ابن سعد فى الطبقات ٢٠٤/٨ .

تفلح أمة تقتل فرخي وفرخ ابنتي ؟ فقال جبريل : لا ، بل يضربهم الله بالاختلاف ، فتختلف قلوبهم وألسنتهم آخــر الدهر !! [١٨٧] .

أما هذا المثل الثالث فهو من أغرب وأعجب ما خطه قلم كاتب وقرأه قارىء ! قال ابن أعثم : « فلمــا أتى على الحسين من مولده ســـنة كاملة ، هبط على رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنا عشر ملكـــا ، أحدهم على صورة الأســد ، والثاني على صورة الثور ؟؟ والثالث على صورة التنين ؟؟؟ والرابع على صورة ولد آدم والباقون الثمانية عــلى صور شتى محمرة وجوههم ، قــد نشروا أجنحتهم ، وهم يقولون : يا محمد ، انه سينزل بولدك الحسين بن فاطمة ما نزل بأبيك من قابيل وسيعطى هابيل أخو قابيل ؟ وسيحمل على قاتله مثل وزر قاتله . قال : ولم يبق في السموات ملك الا وقد نزل الى النبي صلى الله عليه وسلم، كل يعزيه في الحسين ، ويخبره بثواب ما يعطى ، ويعرض عليه تربته ، والنبي عليه السلام يقول : اللهم اخذل من خذله ، واقتــل من قتله ، ولا تمتعه بما طلبه !! [١٨٨] .

وما زال في حقيبة ابن أعثم من هذا القبيل كثير يدهش ويثـــير العجب ، ومنــه قوله : قــال المســور بن مخرمــة : [١٨٩] ولقــد أتى النبي صــلى الله عليه وســلم ملك من ملائكة الصــفيح الأعلى[١٩٠] . لم ينزل الى الأرض مــذ خلقت الدنيــا ، وانمــا استأذن ذلك الملك

---

(١٨٧) الفتوح ٢١٢/٤ — ٢١٣ .
(١٨٨) الفتوح ٢١٤/٤ — ٢١٥ .
(١٨٩) أحد صغار الصحابة القرشيين — ولد بمكة بعد الهجــرة بعامين ، ومات قتيلا أصابه حجر وهو يصلى في الحجر أيام حصار الأمويين لابن الزبير في مكة عام ٦٤هـ . أسد الغابة لابن الأثير ١٧٥/٥ — ١٧٦ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ٣٩٠/٣ — ٣٩٤ .
(١٩٠) الصفيح الأعلى هو اسم من أسماء السماء . لسان العرب (صفح) ٣٤٨/٣ .

لم ينزل الى الأرض مذ خلقت الدنيا ، وانمـــا استأذن ذلك الملك ربه ، ونزل شوقا منه الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فلمـــا نزل الى الأرض أوحى الله عز وجل اليه : أيهـــا الملك ، أخبر محمدا بأن رجـــلا من أمته يقال له يزيـــد ، يقتل فرخه الطاهر ابن الطاهرة نظيرة البتول ابنة عمران ! فقال الملك : الهى وسيدى ، لقـــد نزلت من الســـماء وأنا مسرور بنزولى الى نبيك محمد ، فكيف أخبره بهـــذا الخبر ؟ ! ليتنى لم أنزل اليه ! فنودى الملك من فوق رأسه : أن امض لما أمرت . فنزل وقد نشر أجنحته ، حتى وقف بين يديه ، فقال : السلام عليك يا حبيب الله ، انى استأذنت ربى فى النزول اليك فأذن لى ، فليت ربى دق جناحى ولم آتك بهـــذا الخبر ، ولكنى مأمور يا نبى الله ، اعلم أن رجـــلا من أمتك يقال له يزيـــد — زاده الله عذابا — يقتل فـــــرخك الطاهر ابن الطـــاهرة ، ولن يمتع بالملك من بعد ولدك ، وسيأخذه الله مغافصـــة على أسوأ عمله ، فيكون من أصحاب النار » (١٩١) .

ثم نختم هـــذه الأمثلة المختارة من عجائب أساطير الشيعة حـــول استشهاد الحسين رضى الله عنه وعن سائر آل بيت رسول الله الطيبين الطاهرين بهذه القصة المغربة فى تخيلهـــا وتدبيجهـــا ، ونضرب صفحا عن بقيتهـــا ، ففيما ذكرنـــا غنـــاء يتحقق الغرض به أن شـــاء الله . قال ابن أعثم الكوفى : فلمـــا أتت على الحسين من مولده سنتان كاملتان خرج النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر له ، فلمــــا كان فى بعـــض الطريق ، وقف ، فاسترجع ، ودمعت عينـــاه ، فسئل عن ذلك ، فقـــال : هـــذا جبريل يخبرنى عن أرض بشـــاطىء الفرات يقـــال لهـــا كربلاء يقتل بهـــا ولدى الحسين بن فاطمة !! فقيل : من يقتله يا رسول الله ؟ فقال : رجل يقال له يزيد لا بارك الله له فى نفسه ! وكأنى أنظر الى مصرعه ، ومدفنه بهـــا ، وقـــد أهدى برأسه ، ووالله ما ينظـــر أحـــد

---

(١٩١) الفتوح ٤/٢١٥ — ٢١٦ ، والمغافصة : هى أخذه على غرة . لسان العرب (غفص) ٨/٣٢٨ .

الى رأس ولدى الحسين فيفرح الا خالف الله بين قلبه ولسانه : ثم رجع النبى صلى الله عليه وسلم من سفره ذلك مغموما ، ثم صعد المنبر ، فخطب ، ووعظ ، والحسين بن على بين يديه مع الحسن . فلما فرغ من خطبته ، وضع يده اليمنى على رأس الحسن ، واليسرى على رأس الحسين ، ثم رفع رأسه الى السماء ، فقال : اللهم انى محمد عبدك ونبيك ، وهذان أطايب عترتى ، وخيار ذريتى وأرومتى ، ومن أخلفهم فى أمتى ، اللهم ، وقد أخبرنى جبريل بأن ولدى هذا مقتول مخذول ، اللهم فبارك له فى قتله ، واجعله من سادات الشهداء ، انك على كل شىء قدير .. اللهم ، ولا تبارك فى قاتله وخاذله . وضج الناس فى المسجد بالبكاء ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أتبكون ولا تنصرونه ؟ ! اللهم ، فكن أنت له وليا وناصرا .

قال ابن عباس : ثم رجع وهو متغير اللون محمر الوجه ، فخطب خطبة بليغة موجزة ، وعيناه تهملان دموعا ، ثم قال : أيها الناس ، انى قد خلفت فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتى وأرومتى ، ومراح مماتى وثمرتى ، ولن يفترقا حتى يردا على الحوض ألا وانى لا أسألكم فى ذلك الا ما أمرنى ربى أن أسألكم المودة فى القربى ، فانظروا ألا تلقونى غدا على الحوض ، وقد أبغضتم عترتى وظلمتموهم ألا وانه سيرد على فى القيامة ثلاث رايات من هذه الأمة : راية سوداء مظلمة قد فزعت لها الملائكة فتقف على فأقول : من أنتم ؟ فينسون ذكرى ويقولون : نحن أهل التوحيد من العرب ، فأقول : أنا أحمد نبى العرب والعجم . يقولون : نحن من أمتك يا أحمد . فأقول لهم : كيف خلفتمونى من بعدى فى أهلى وعترتى وكتاب ربى ؟ (انظر كيف جاء الترتيب ؟) فيقولون : أما الكتاب فضيعنا ومزقنا وأما عترتك فحرصنا على أن يندهم (كذا) من حديد الأرض ! فأولى عنهم وجهى — فيصدرون ظماء عطاشا مسودة وجوههم ! ثم يرد على راية أخرى ، أشد سوادا من الأولى ، فأقول لهم : من أنتم ؟ فيقولون كما تقول الأولى ، انهم من أهل التوحيد ، نحن من أمتك ، فأقول لهم : كيف خلفتمونى فى

الثقلين الأصغر والأكبر ، فى كتاب الله وفى عترتى ؟ فيقولون : أمـــا الأكبر فخالفنـــا ، وأما الاصغر فخذلنـــا ، ومزقناهم كل ممزق ! فأقول: اليكم عنى ! فيصدرون ظماء عطاشـــا مسودة وجوههم • ثـــم يرد على راية أخرى تلمع نورا ، فأقول لهم : من أنتم ؟ فيقولون : نحن كلمة التوحيد نحن أمة محمد ، ونحن بقية أهل الحق ، الذين حملنـــا كتـــاب ربنا ، فأحللنا حلاله ، وحرمنا حرامه ، وأحببنا ذرية نبينـــا محمـــد صلى الله عليه وسلم ، فنصرناهم بمـــا نصرنا به أنفسنـــا ، وقاتلنـــا معهم ، وقتلنا من ناوأهم ! فأقول لهم : أبشروا ، فأنا نبيكم محمد ، ولقد كنتم فى دار الدنيـــا كما وصفتم ، ثـــم أسقيهم من حوضى فيصدرون مرويين •• ألا ان جبريل عليه السلام ، قـــد أخبرنى بأن أمتى تقتـــل ولدى الحسين بأرض كرب وبلاء ! ألا فلعنة الله على قاتله ، وخاذله آخر الدهر •• ثـــم نزل عن المنبر ، ولم يبق أحد من المهـــاجرين والأنصار ، الا واستيقن أن الحسين مقتول ، حتى اذا كان فى أيـــام عمر بن الخطاب وأسلم كعب الأحبار ، وقـــدم المدينـــة ، جعل النـــاس يسألونه عن الملاحم التى تكون فى آخر الزمان وكيف تحدثهم بأنواع الملاحم والفتن ثم قال كعب : نعم وأعظمهـــا ملحمة التى لا تنسى أبدا ، وهو الفســـاد الذى ذكره الله تعالى فى الكتب ، وقـــد ذكره فى كتابكم ، فقال عز وجل: « ظهر الفساد فى البر والبحر » (١٩٢) • وانما فتح بقتل هابيل ، وختم بقتل الحسين بن على ؟؟ !! (*) •

---

(١٩٢) سورة الروم : الآية ٤١ •

(*) الفتوح ٢١٦/٤ — ٢٢٠ • هذا وقد أضربت عن سرد بقية حديث كعب الأحبار وهى تربى على أربع صفحات ، وكلها من هذا الطراز المغرب المغدق فى تخيلاته وتصوراته ، ولا يخفى على ذى لب ومعرفة بتـــواريخ الاسلام والرجال أن كعبا هذا — الذى أسلم فى عهد أبى بكر رضى اللـــه عنه ، وقدم المدينة فى زمن عمر رضى الله عنه وتوفى فى أواخر خلافة عثمان رضى الله عنه — كان من يهود اليمن وأحبارهم المشهورين ، وبعد اسلامه أخذ =

موقف الشيعة من الحسن بن على

ان من الحقائق المســلم بها لدى المسلمين أتباع النبى عليه الصلاة والسلام ، أن لأهل البيت النبوى الكرام المطهرين منزلة رفيعــة سامية من التقدير والتوقير والتكريم ، وحبا عظيما لا يكاد يضارعه فى نفوسنا وأفئدتنا حب سواه ، حاشــا حب الله وحب رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا شك فى أن حب رسول الله هو الذى جعلنــا كمسلمين نجتهــد ما وسعنا الجهد فى اتباعه والعمــل بسنته الصحيحة ، فنحب آل بيته ونجلهم بما هم فرعه الباسق وعترته المباركــة وخلفه الموصول به الى ما شاء الله ، لا يكاد يوجــد بيننا من يتخذ موقفــا مخالفا لهــذا العطاء العاطفى الصادق لآل البيت ، لأنه فى واقــع الأمــر نابع من ايماننا المطلق برسالته صلى الله عليه وسلم ..

وقد صح عن رسول الله عليه الصلاة والسلام أنه قال للحســن (يعنى ابن على) : « اللهم انى أحبه فأحبه وأحب من يحبه » (١٩٣) .

وعن أبى بكرة قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم عــلى

=
يحدث الناس بكثير من قصص بنى اسرائيل وأحاديث الأمم الغابرة ، وغير ذلك مما نحن بصدده الآن ، قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره لسورة النمل — بعدما أورد طائفة من هذا القصص حول خبر ملكة سبأ مع سليمان عليه السلام — : « والأقرب فى مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب مما وجد فى صحفهم ، كروايات كعب ووهب (بن منبه) سامحهما الله تعالى فيما نقلاه الى هذه الأمة من أخبار بنى اسرائيل ، من الأوابد والغرائب والعجائب ، مما كان ومما لم يكن ، ومما حرف وبدل ونسخ ، وقد أعاننا الله بما هــو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ ، ولله الحمد والمنة » تفسير القرآن العظيم ٢٠٦/٦ ، وانظر ترجمة كعب الأحبار فى ابن قتيبة : المعارف ص ٤٣٠ وقد أرخ وفاته بسنة ٣٢هـ ، والذهبى : سير أعلام النبلاء ٤٨٩/٣ — ٤٩٤ .

(١٩٣) أخرجه البخارى فى الصحيح ٩٤/٧ ، ومسلم فى صحيحه ١٣٠/٧ ، والامام أحمد فى كتابه : فضائل الصحابة ص ٧٦٦ — ٧٦٧ .

المنبر ، وحسن معه ، وهو يقبل على الناس وعليه مرة ، ويقول : « ان ابنى هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » (١٩٤) .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أحبهما فقد أحبنى ، ومن أبغضهما فقد أبغضنى يعنى حسن وحسين » (١٩٥) .

وعن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة » (١٩٦) .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات غداة ، وعليه مرط مرحل من شعر أسود (ضرب من برود اليمن عليه تصاوير الرحل) . فجاء الحسن بن على فأدخله ثم جاء الحسين فدخل معه ، ثم جاءت فاطمة — رضى الله عنهم — فأدخلها ثم جاء على

---

(١٩٤) ولقد صدق صلى الله عليه وسلم ، فان الله سبحانه قد حقن به دماء المسلمين الكثيرة ، ووحد بين أبناء الأمة وأصلح ذات بينهم حين أوقف الحرب بينه وبين أهل الشام ، أو بينه وبين معاوية حين اصطلح واياه على أن تكون الخلافة لمعاوية فى سنة ٤١هـ فسمى هذا العام عام الجماعة — وانظر الحديث عند الامام أحمد : فضائل الصحابة ص ٧٦٨ ، البخارى : الصحيح ، ط السلفية ٣٠٧/٥ ، ٩٤/٧ ، ٦١/١٣ ، وأخرجه الترمذى ، وأبو داود والنسائى .

(١٩٥) الامام أحمد : فضائل الصحابة ص ٧٧١ ، الحاكم : المستدرك ١٧١/٣ .

(١٩٦) الامام أحمد : فضائل الصحابة ص ٧٧٩ — ٧٨٠ ، الحاكم المستدرك ١٦٦/٣ ، يعقوب بن سفيان : المعرفة والتاريخ ٦٤٤/٢ .

رضى الله عنه فأدخله ، ثم قال : « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » (١٩٧) .

واذا كان سبطا رسول الله صلى الله عليه وسلم — الحسن والحسين — بمنزلة واحدة من حبه واعزازه اياهما ، وكما ينبغى أن يكونا لدى المسلمين أجمعين ، فلماذا لا يكون الأمر كذلك عند ابن أعثم وسائر طوائف الشيعة ؟ الحق أنهم جميعا قد أفرطوا ، وفرطوا ، وظلموا ولم يعدلوا ، وأعطوا ومنعوا ، وكالوا بكيلين بينهما تفاوت عظيم ، حين عالجوا سيرة الحسنين رضى الله عنهما !! وقد شهدنا فى الصفحات السابقة كيف تحدث ابن أعثم ، عن مقدمات استشهاد الحسين حيث كان فى المهد ، وأوجزنا القول فى ذلك حتى لا يسرع اليك الملل بالتطويل فأما حديثه عن خروجه الى العراق حيث استشهد رضى الله عنه فى كربلاء ، بما اشتمل عليه من مشاورات ولقاءات مع أقرانه من زعماء قريش ، وما كان له من مقدمات سبقته كمراسلات الكوفيين اليه ، واستجابته بارسال ابن عمه مسلم بن عقيل رضى الله عنه الى الكوفة والملحمة التى خاضها هناك وختمت بمقتله ، وكذلك ما لقى الحسين فى الطريق من أناس نصحوه بعدم الذهاب الى العراق ، كما نصحه — تماما — اخوانه فى مكة ، ثم بعدئذ ما جرى بينه وبين جيش ابن زياد من أخذ ورد ، ومحاولات لانهاء الموقف دون قتال ، وفشل ذلك كله لتكون المعركة العسكرية — غير المتكافئة — أسوأ ختام ، لحياة خير أبناء الأمة الاسلامية فى ذلك الوقت .. كل ذلك بتفاصيله الجزئية ، وما تضمنه من الأشعار التى لم يخل منها موقف أو مناسبة قد أتى عليه ابن أعثم ،

---

(١٩٧) سورة الأحزاب : الآية ٣٣ . والحديث بهذا اللفظ عند مسلم : الصحيح ٧/١٣٠ ، والامام احمد : المسند ٦/٢٩٨ ، ٣٠٤ ، الحاكم : المستدرك ٣/١٤٧ . واقرا المبحث الوجيز الذى كتبه الشيخ المحقق ناصر الدين الألبانى حول المقصودين بآل البيت فى الآية الكريمة مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذرى بتحقيقه (الطبعة الأولى بالكويت) ١٣٨٨ هـ /١٩٦٨ م ج ٢ ص١٩٨ هامش ٥ .

ولم يبخل بذكر ما جاء به خياله الخصب ، ان لم تسعفه ذاكرته التاريخية غير الحافظة جيدا ، مما جعل حصيلة ما يتعلق بحياة الحسين وشخصيته — الى وفاته فحسب — قدرا كبيرا جدا من كتاب الفتوح لابن أعثم ، شمل من الجزء الرابع قريبا من عشرين صحيفة ص ٢٠٩ وما يليها ، بينما استوعب جل صفحات الجزء الخامس من الكتاب من ص ١٠ الى ٢٥٠ .

كان هذا — دون استقصاء كامل — هو حظ الحسين من كتاب الفتوح فما نصيب شقيقه الحسن رضى الله عنه من هذا السفر التاريخى الكبير ؟ انه يكاد يكون لا شيء للحسن لدى ابن أعثم !! وعلى الرغم من أن الحسن قد بويع بعد وفاة أبيه بالخلافة من قبل أهل العراق ، وظل أميرا للمؤمنين سبعة أشهر ، حتى تنازل لمعاوية بن أبى سفيان فى عام ٤١ هـ ، فان كل ما ناله من فتوح ابن أعثم لا يتجاوز العشرين صحيفة (١٤٨ — ١٦٧ من الجزء الرابع) !! أما الذى يلفت النظر تماما فى هذا الصدد ، فهو ما قاله ابن أعثم فى مناسبة وفاة الحسن رضى الله عنه ، ماذا قال ؟ قال .. ! قال جملة يتيمة ثم سكت ؟ ! لقد أرخ وفاة الحسن بن على — وهو الامام الثانى لدى الشيعة — بقوله : « وتوفى الحسن بن على بالمدينة » (١٩٨) . ومن هنا ، قلنا : انهم أفرطوا ، أى فى الحديث عن الحسين ، وفرطوا فى تقدير الحسن وحفظ حقه عليهم ، وظلموا الأخوين ولم يعدلوا بينهما فى التأريخ لهما وبيان مكانة كل منهما ، وأعطوا الحسين بسخاء حين كتبوا سيرته وسجلوا حياته ، وأضافوا اليها من خيالهم ما لم يره ولا يرضى عنه لو علم به ، بينما منعوا ذكر الحسن بما هو أهل له من اجلال وتعظيم ، فغاب عنهم فى كل ذلك الانصاف وقولة الحق ، الذى بدونهما يفقد أى مؤرخ قيمته واحترامه لدى الناس ، فلذلك صارت كتابات الشيعة موضع الحذر والتحفظ البالغين ، ولا يعتمد عليهم فى مثل هذه الموضوعات الا فى القليل النادر من الأحوال !!

---

(١٩٨) الفتوح ٤/٢٠٥ .

ولكن ، لا ينبغى أن نغادر هذه المقارنة بين تاريخى السبطين العظيمين — فى تاريخ ابن أعثم — دون أن نحاول تفسير هذا التفاوت الشديد الذى رأيناه آنفا بين حظى الرجلين منه .. وغير خاف على فطنة القارىء الكريم ، أن ما عرضناه فى الصفحات السابقة من محاولات الشيعة تصوير مقتل الحسين على أنه قضاء محتوم لا شأن لهم ولا يد فيه يحاسبون عليها ويدانون بها أمام الله والناس والتاريخ .. أقول : غير خاف أن هذا التصوير الشيعى لمقتل الحسين — والذى شغل مساحة كبيرة من فتوح ابن أعثم — هو جزء من تفسير هذا التفاوت الشديد ، وأما الجانب الآخر من ذلك التفسير الذى أراه أمرا مكملا ومتمما لهذا المبحث من الكتاب ، فهو موقف الحسن رضى الله عنه من الخلافة ومن أهل العراق شيعة أبيه ! ولأنه موقف سيىء ، ولأن رأيه فيهم صريح واضح بأنهم لا أمان لهم ، ولا يعتمد عليهم ، ولا ينتصر بهم أحد ! فلذلك قابلوه فى كتبهم بالتجاهل والاهمال ، وعدم اعطائه حقه من الذكر ، عكس ما فعلوا مع شقيقه الأصغر منه الحسين !! .

وليس مقصودا هنا ، أن نستقصى الظروف والدوافع التى انتهت بالحسن بن على الى قراره التاريخى الصحيح بتسليم الأمر الى معاوية ابن أبى سفيان ، ومبايعته بالخلافة ، غير أن طبيعة بحث هذه المشاعر غير الودية المتبادلة بين الحسن وبين الشيعة تقتضى الالمام الوجيز بهذه المناسبة التاريخية ذات الأهمية الكبرى فى تلك المرحلة من تاريخ الدولة الاسلامية ، وفى هذا الصدد يقول ابن الأثير الجزرى :

كان أمير المؤمنين على قد بايعه أربعون ألفا من عسكره على الموت ، لما ظهر ما كان يخبرهم به عن أهل الشام ، فبينما هو يتجهز للمسير قتل عليه السلام ، واذا أراد الله أمرا فلا مرد له ، فلما قتل وبايع الناس ولده الحسن ، بلغه مسير معاوية فى أهل الشام اليه ، فتجهز

هو والجيش الذين كانوا بايعوا عليا ، وسار عن الكوفة الى لقاء معاوية — وكان قد نزل مسكن (١٩٩) — فوصل الحسن الى المدائن ، وجعل قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى على مقدمته فى اثنى عشر ألفا ... فلما نزل الحسن المدائن ، نادى مناد فى العسكر : ألا أن قيس ابن سعد قتل فانفروا ، فنفروا بسرادق الحسن ، فنهبوا متاعه حتى نازعوه بساطا كان تحته فازداد لهم بغضا ، ومنهم ذعرا ، ودخل المقصورة البيضاء بالمدائن ، وكان الأمير على المدائن سعد بن مسعود الثقفى — عم المختار بن أبى عبيد — فقال له المختار وهو شاب : هل لك فى الغنى والشرف ؟ قال : وماذاك ؟ قال : تستوثق من الحسن ، وتستأمن به الى معاوية فقال له عمه : عليك لعنة الله ! أثب على ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأوثقه ؟ بئس الرجل أنت !! (٢٠٠) .

فلما رأى الحسن تفرق الأمر عنه كتب الى معاوية ، وذكر شروطا ، وقال له : ان أنت أعطيتنى هذا فأنا سامع مطيع ، وعليك أن تفى لى به . وقال لأخيه الحسين وعبد الله بن جعفر : اننى قد راسلت معاوية فى الصلح . فقال له الحسين : أنشد الله أن تصدق أحدوثة معاوية ، وتكذب أحدوثة أبيك ! فقال له الحسن : اسكت ، أنا أعلم بالأمر منك . (وجرت المفاوضات وتم الصلح ، وسلم الحسن الأمر الى معاوية فى سنة ٤١ هـ) قال ابن الأثير : فلما اصطلحا ، قام الحسن فى أهل العراق فقال : « يا أهل العراق ، انه سخى بنفسى عنكم ثلاث : قتلكم أبى ، وطعنكم اياى ، وانتها بكم متاعى » (٢٠١) .

---

(١٩٩) مسكن : موضع قريب من أوانا على نهر دجيل — قرب بغداد . ياقوت : معجم البلدان ١٢٧/٥ — ١٢٨ .

(٢٠٠) ان المختار الثقفى هذا هو الذى كان رأس الشيعة فى معارك الثأر من قتلة الحسين بن على فيما بعد ! أرأيت كيف أخلاقهم ؟ .

(٢٠١) الكامل فى التاريخ ٤٠٤/٣ — ٤٠٥ ، وراجع الطبرى : تاريخ ١٥٨ — ١٦٠ .

ويعود ابن الأثير وهو يستقصى بحث هذه المناسبة المهمة ، فيذكر أن الحسن رضى الله عنه قد استشـــار أهل العراق قبل أن يبرم الأمر مع معاوية ، وأنهم قــد حثوه على ابرام صلحه مع منافسه الشـــديد بالشـــام فقال : وقيل : انما سلم الحسن الأمــر الى معاوية ، لأنـــه لما راسله معاوية فى تسليم الخلافة اليه ، خطب الناس ، فحمدا للـــه وأثنى عليه ، وقال : انا والله ما يثنينا عن أهل الشـــام شك ولا نـــدم وانما كنا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبر ، فشيبت السلامة بالعداوة، والصبر بالجزع ، وكنتم فى مسيركم الى صفين ودينكم أمام دنياكم ، وأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم ، ألا وقــد أصبحتم بين قتيلين : قتيل بصفين تبكون لـــه ، وقتيـــل بالنهروان تطلبون بثأره ، وأما الباقى فخاذل ، وأما الباكى فثائر ، ألا وان معاوية دعانا لأمــر ليس فيــه عز ولا نصفة ، فان أردتم الموت رددناه عليه ، وحاكمناه الى الله عز وجل بظبى السيوف ، وان أردتم الحياة ، قبلنـــاه وأخذنا لكم الرضى ! فناداه الناس من كل جانب : البقية البقية !! وأمضى الصلح (٢٠٢) .

ان هذا التهافت من أهل العراق الى وضع الحرب والصلح مــع معاوية وأهل الشـــام ، أمر تكرر عقب ذلك مباشرة ، حين كتب الحسن الى قيس بن سعد بن عبادة — وكان يومئذ على مقدمته فى اثنى عشر ألفا — يأمره بالدخول فى طاعة معاوية ، فقام قيس فى الناس خطيبـــا فقال لهم : أيهـــا الناس ، اختاروا : الدخـــول فى طاعة أمـــام ضلالة ، أو القتال مـــع غير امام ؟ فقالوا : لا ، بل نختار أن ندخل فى طـــاعة امام ضلالة ، فبايعوا لمعاوية وانصرف عنهم قيس (٢٠٣) !! .

ومما يؤثر عن الحسن فى تلك المناسبة الخطيرة أن طلب منـــه معاوية أن يخطب فى الناس بهذه المناسبة فقام فحمد الله ثم قـــال

---

(٢٠٢) الكامل ٣/٤٠٦ ، ورواها الذهبى عن ابن دريد « التقية ، التقية» سير أعلام النبلاء ٣/٢٦٩ .

(٢٠٣) الطبرى : تاريخ ٥/١٦٠ . ابن الأثير : الكامل ٣/٤٠٦ — ٤٠٧ .

فى ذكاء بين وحضور عظيم : أيهـا الناس ، ان الله قـد هداكم بأولنا، وحقن دماءكم بآخرنا ، وان لهذا الأمر مـدة ، والدنيا دول ، وان اللـه عز وجل قال لنبيه : « وان أدرى لعله فتنة لكم ومتاع الى حين » (٢٠٤)، وفى تفسير صريح لما أقدم عليه الحسن من تسليم الأمـر الى معاوية ، قال : كرهت الدنيـا ، ورأيت أهل الكوفة قوما لا يثق بهم أحد أبدا الاغلب ، ليس أحد منهم يوافق آخر فى رأى ولا هوى ، مختلفين لانية لهم فى خير ولا شر ، لقـد لقى أبى منهم أمورا عظاما ، فليت شعرى لمن يصلون بعدى ، وهى أسرع البلاد خرابا !! (٢٠٥) .

أما رأى الشيعة فى الحسن وموقفهم منه ، فقـد عبروا عنهمـا مبكرا جدا ، وذلك حين هجموا عليه ونهبوا رداءه ومتاعه ، وضربه أحدهم بخنجر فى ظهره ، فجرحه جراحة أشوته (نالت منه نيلا) ، ثم حين هم بالخروج من الكوفة ذاهبا الى المدينة ، فلقيه أحدهم بقوله « يا مسود وجوه المسلمين » !! ثم حين مـر بالقادسية ، تلقـاه ناس منهم فقالوا له : « يا مذل العرب !! » (٢٠٦) .

وفاة يزيـد فى كتاب الفتوح :

وكما حاول ابن أعثم رسم صورة مهولة مفزعة لوفاة أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه ، لـم نجـد له أحدا من المؤرخين — حتى ممن عرف عنهم التشيع — يشاركه فى نقل هذه الصورة ، التى ما قصـد بتصويرهـا الا النيـل من شخصية معاوية والحط من قيمتها! كما حاول ابن أعثم ذلك فى مناسبة ذكـر وفاة معاوية ، فانه قـد فعل

---

(٢٠٤) سورة الأنبياء : الآية ١١١ .

(٢٠٥) ابن الاثير : الكامل ٤٠٧/٣ المسعودى : مروج الذهب ٨/٣ - ٩ الطبرى : تاريخ٥ /١٦٣ .

(٢٠٦) ابن الأثير : الكامل ٤٠٧/٣ ، الطبرى : تـاريخ ١٦٥/٥ ، وراجـع اليعقوبى : تاريخ ٢١٥/٢ .

الشيء ذاته فى مناسبة ذكر وفاة ابنه يزيد ، مع اختلاف يميز كلتا الصورتين احداهما عن الأخرى ، وان كان الهدف من المحاولتين واحدا .

ومع أن ابن أعثم الكوفى قد انفرد — كلية — دون سائر المؤرخين، بروايته الغريبة هذه عن قصة وفاة يزيد بن معاوية ، فان نسيج هذه القصة وتركيبها يحملان فى ثناياهما أدلة اختلاق القصة واغترائها على الواقع ، يبدو هذا جليا تماما لمن يقرأها بتأمل يسير ! واليك قصة وفاة يزيد معاوية كما نظمها ابن أعثم :

قال : فبينما الحصين كذلك (٢٠٧) ، اذا برجل من أهل الشام قد قدم عليه ، فسلم ثم جلس عنده ، فقال (يخاطب الحصين) : أيها الشيخ الضال ! أنت حائم على بيت الله الحرام ترميه بالحجارة والنيران ، ويزيد بن معاوية قدمات ، ومضى الى سبيله ! فقال الحصين: ويلك ما تقول ؟ فقال : أقول ما تسمع ! فقال له : وما كان سبب ذلك ؟ فقال : انه شرب من الليل شرابا كثيرا ، ثم أصبح مخمورا ، فذرعه القيء ، ثم لم يزل كذلك ، الى أن مات ، حتى قذف عشرين طشتا من ذهب فهذه قصته ! ؟ قال الحصين : ويحك ، لمن بايع الناس بعده فقال : بايعوا ابنه معاوية بن يزيد ، غير أنه قد خلع نفسه من الخلافة ! فقال : ولم ذلك ؟ فقال : اذا أخبرك أنه ملك أربعين يوما ، فلما كان بعد ذلك ، صعد المنبر ، حمد الله وأثنى عليه ، ثم خطب وقال فى خطبته : « أيها الناس ، انما أنا لحم ودم ، واللحم والدم لا يصبران على نار جهنم ، وأنا خالع هذا الأمر ، فقلدوا أموركم من أحببتم » (٢٠٨) .

---

(٢٠٧) يقصد الحصين بن نمير السكونى قائد جند الشام المحاصرين لعبد الله بن الزبير فى مكة المكرمة من المحرم وحتى وفاة يزيد فى منتصف ربيع الأول سنة ٦٤ هـ .

(٢٠٨) الفتوح ٣٠٣/٥ .

وهذه القصـــة وان كانت تعجب الشيعة ممن على شاكلة ابن أعثم — ناسجهـا ومؤلفهـا — فانهـا غير واقعية لأسباب وأمور نستلهـا من نسيجهـا المتهافت وتاليفهـا غير المتجانس ، فأولا : غير معقـول — مهما تكن الظروف والأحوال — أن تنقطع خطوط الاتصـال بين عاصمة الدولة ، والجيش الذى يقاتل من أجل سلامة تلك الدولة ، مـدة أربعين يوما ! يقال هذا ، بينما نعلم من أخبار معاويـة بن أبى سفيـان — مؤسس الدولة الأموية — أنه أول من وضع البريـد فى الدولـة الاسلامية ! (٢٠٩) فهل يقال أيضـا : ان خليفته أو خلفـاءه قـد أهملوا أهمية البريد بعد أربع سنين من وفاته ، ولم يطبقوا نظامـه حتى ولو كانت الدولة فى حالة حرب مع أحد الخصوم ؟ واذا امتنـع قول ذلك بداهـة ، فان الذى يمكن أن يقـال دون عناء : ان خصـم يزيـد العنيد — العائذ بالبيت العتيق — عبد الله بن الزبير ، كان يدرك أهمية وخطورة الاسراع فى الحصول على المعلومات الخاصـة بيزيـد والدولة الأموية ، وبخاصـة فى حالة الاشتباك العسكرى القائمة بينهمـا منذ شهرين تقريبا ، ان ابن الزبير بعـد أن أدرك هـذا ، عمل جاهـدا فى سبيل الوقوف أولا بأول على أخبار يزيـد ودولته ، ومن هنا يستطيع الباحث ان يفسر هذا الأمر الذى أجمـع عليه عامة المؤرخين ، وهو أن عبد الله بن الزبير قـد علم بوفاة يزيـد بن معاوية قبل أن يعلم بها قائد جيش الأمويين المحاصر له بمكة الحصين بن نمير السكونى (٢١٠) .

وثانيا : من حيث أراد ابن أعثم أن يؤكـد معاناة يزيـد وهـو يموت ، بالمبالغـة الشديدة المسرفة ، فى وصف حالته ، فقـد نسـف أقواله نسفا ، والا فأى بطن تلك التى تتسـع لملء عشرين طشتا —

---

(٢٠٩) ابن الأثير : الكامل ١٣/٤ .

(٢١٠) الطبرى : تاريخ ٥٠١/٥ ، ابن عبد ربه : العقد الفريد ١٢٩/٤ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٢٢٨/٨ — ٢٢٩ ، أما أبو حنيفة الدينورى ، فقال : ان الحصين علم بوفاة يزيـد قبل أن يعلم بهـا ابن الزبير — أى كمـا قال ابن أعثم ، ولكن بدون تلك القصة . انظـر الاخبار الطوال ص ٢٦٨ .

حتى ولو كانت من ذهب — من قيء الخمر ؟! ان الطشت أو الطست ، كما عرفته المعاجم هو : اناء كبير من نحاس أو غيره ، يغسل فيه ، وهو لفظ معرب [٢١١] .

وثالثا : ان هذه القصة بجملتها وتفاصيلها ، لا تجد لها سندا يقويها ، أو شاهدا يشد من أزرها فى كتب التاريخ الأخرى ، فهى غريبة وحيدة شاذة ، ولذلك فهى جديرة برفضها واطراحها لاعتبارين : فمن جهة لأن متنها ثبت عدم قبوله عرفا وعادة ، ولتعارضها مع الرواية التى تواطأ عليها سائر المؤرخين ، ومن جهة أخرى لافتقادها الاسناد الذى يوثقها ، والشاهد الذى يجعلها أقرب الى القبول لدى النقاد والباحثين ..

---

(٢١١) المعجم الوسيط ٥٥٧/٢ (مادة طست) .

الفصل الرابع

القصـــة والخيال فى كتاب الفتوح

١ ــ الهلقام بن الحارث وما كان من أمره قبل اسلامه :

٢ ــ قوة عمرو بن معد يكرب الزبيدى :

٣ ــ سفارتان اسلاميتان الى هرقل وجبلة بن الأيهم :

٤ ــ العير الذى تكلم أمام كسرى :

٥ ــ لقـــاء فى جبال حلوان :

٦ ــ اختبار الذكاء قبل المعركة :

٧ ــ قلائد الحجاج بن يوسف :

٨ ــ كشف أثرى مثير :

٩ ــ ملحمة التوابين العشرة :

١٠ ــ الموقف فى آرمينيا وأذربيجان :

من الأمور الواضحة والمظاهر المميزة البارزة فى « فتوح ابن أعثم الكوفى » ذلك الخيال الخصب ، الذى تجده جليـا صريحـا يكسو عبارة الكتاب ، ويضفى على أخباره ثوب القصـة المنسوجة ، ويحلق بالقارىء فى عالم أشبه ما يكون — فى بعض الأحيان — بعالم الأساطير والحكايات والعجائب ، هذه سمة عامة غلبت على أسلوب الكتاب ، حتى حولته الى مجموعة من القصص التاريخية التى تعتمـد الهيكل والأساس التاريخى فى بنائهـا وتكوينهـا ، ولكنهـا تخرج عن هـذا الاسـاس بقـدر متفاوت ، لترتدى رداء القصـة ، وأحيانـا رداء الأسطورة بقسماتهـا المميزة لها عن سائر فنون التعبير ! •

غير أن هذا الكتاب يحتوى — فضلا عن ذلك — على نماذج أخرى من القصص التاريخى ، تختلف اختلافا تاما عما أشرنا اليه فى السطور السابقة ، وذلك أنهـا قصص لعب الخيـال فيهـا الدور الكـامل ، بمعنى أن الخبر التاريخى — الذى يمثل الهيكل والأساس — غير موجود ألبتة فى هذه النماذج ، فهى قصص خيالية فى تأليفهـا وتكوينهـا ، وعبارتهـا ، وسائر ماله صلة بهـا ، اللهم الاشيئا واحدا لابد أن يستثنى من ذلك التعميم ، ألا وهو الهـدف والغاية من وراء نسج تلك القصص وتقديمهـا الى قارىء كتاب تاريخى يعنى فى المقـام الأول بتسجيل تاريخ الفتوحات الاسلامية !؟ وفى هذه التوطئة لمبحث القصص ودور الخيال فى كتاب الفتوح ، لا أرى أن نحدد الآن أهداف وغايات هذه القصص التى ابتكرهـا ابن أعثم وأودعهـا كتابه ، بل نترك ذلك مؤقتا لأنه سوف يستبين لك من متابعة كل قصـة على حدة ••

١ — « الهلقام بن الحارث وما كان من أمره قبل اسلامه » .

رواه بعض العلماء عن آخر [١] .

قال ابن أعثم : « ولم يكن فى ذلك العصر [٢] ، فى قيس عيلان خاصــة أفرس من هؤلاء الثلاثة : عــامر بن الطفيل العامرى ، وعنترة ابن شداد العبسى ، والعباس بن مرداس السلمى ، وكانوا مولعين بالغارة على أحياء العرب ! فاجتمعوا على ذلك (أى على الغارة) ، ثم انهم خرجوا وخرج معهم ألف رجل من أخيار قيس وشجعانهم ، فلم يزالوا يسيرون ، فلم يأتوا على حى من أحياء العرب ، الا أبادوهم وأوجعوهم بالأسر والقتل ، يذلون العرب ، ما يفلت منهم أحد الا مأسورا أو مقتولا أو مفلولا أو مغلوبا [٣] ؟ فجمعــوا من الغنائم ما لم يجمعه أحد فى عمره ، ثم انهم أتوا أجمعين يريدون بلادهم ، فجعلوا يفتخرون بمــا صنعوا بالناس ويقولون فى ذلك الأشعار ، ويذكرون جلادتهم ، وصبرهم فى الحرب ، وقتلهم الأبطال ، وأخذهم الأموال ، فأول من تكلم منهم وفخــر بقومه : عامــر بن الطفيل العامرى ، ثم تكلم العباس بن مرداس السلمى ، ثم تكلم عنترة بن شداد (العبسى) وفخــر بقومه .

قال : فلم يزالوا سائرين بالغنائم والأموال ، حتى نزلوا واديا غريبا من أرض اليمن ، يقال له « السلى » [٤] فلمــا استقر بهم الموضع ،

---

(١) ان قوله « رواه بعض العلماء عن آخر » جزء من العنوان ، وهو فى غاية الأهمية ، ذلك أن المؤلف وهو يحس بتهافت قصته وعدم واقعيتها كأنه أراد أن يبدد الشكوك التى تكتنفها ، فأحب أن يوثقها ، ويوهم القارىء بأنها من الأخبار المروية ، لا المؤلفة المختلقة ! ولكن اذا كان ذلك صحيحــا فأين هم أولئك العلماء الذين رووهــا بعضهم عن بعض ؟ .

(٢) يقصد عصر الجاهلية .

(٣) وكيف يفلت المأسور والمقتول ؟ ثم تأمــل قوله قبلهــا يأتوا عــلى حى من أحياء العرب الا أبادوهم ؟؟ .

(٤) السلى : واد باليمامة — ياقوت : معجم البلدان ٢٣١/٣ — ٢٣٢ واللســان (سلا) ١٢٠/١٩ . وانظر : المبرد : الكامل ٣٢٢/٣ ٣١/٤ .

نظروا فاذا هم بخيمة قد لاحت لهم قريبة منهم ، فأرسلوا ثلاثة نفر من أصحابهم لينظروا ما هى ، ومن فيهـا ، فأقبل الثلاثة النفـر الى الخيمة، فاذا هم بعجوز قاعـدة • فكلموهـا فلم تكلمهم ، فقـال أحد الثلاثة لصاحبه : انزل عن فرسك ، فانظر من فى هذه الخيمة ، فنزل ، ومشى نحو باب الخيمة ، فصاحت به العجوز : وراءك ! فلم يفعل ، حتى اذا صار قريبا من باب الخيمة ، فوثبت اليه العجوز ، فضربت بيدها الى جنبه ، ثم رفعته ، فضربت به الأرض ، فاذا هو ميت ! فنزل الثانى ، ومضى الى صاحبه ، فنظر اليه ميتا ، فلم يرجع ، لكنه مشى نحو الخيمـة ، فصاحت به العجوز : وراءك قليلا ، لا ألحقك بصـاحبك ! فلم يفعـل ، ودنا من باب الخيمة ، فرفعت العجوز يدهـا ووكزت فى صدره وكزة، فاذا هو قـد خر ميتا ! فلما رأى الثالث (ذلك) انصرف الى أصحابه ، فخبرهم بذلك •

قال : فركب عامـر بن الطفيل ، والعباس بن مرداس ، وعنترة بن شداد ، فى قريب من مائة فارس من أبطـال قومهم ، وخلفوا الباقين من أصحابهم عند الغنائم والأمتعة ، فلمـا نظرت العجوز الى هؤلاء المائة ، قـد أقبلوا صاحت وقالت فى صيحتها : ياهلقام ، الحـزم ، الحزم ! فاقشعر القـوم من صيحة العجوز ! واذا بجارية قـد أطلعت رأسهـا من الخيمة ، كأنهـا القمـر فى ليلة البدر حسنا وجمالا • فقالت : يا هؤلاء انصرفوا من حيث جئتم قبل أن يأتيكم الليث الهصور •• فضحك عامـر من تهديدهـا اياهم ، ثـم أقبل على العبـاس بن مرداس ، فقـال : ويحك ياعباس ! ما أظن العرب والعجم ولدت مثـل هذه الجارية ؟ فانزل الى الجارية ، فاما تقتل ، واما نعينك !؟ فقـال العباس : وان قلت هذا وافتخرت ، فأنت قد قلت ، وهـذا عنترة أيضا قد قال ؟ وهذا وقت يختبر فيه الأبطـال ، فانزل يا عامر ، ويا عنترة ، وأنا معكمـا •

قال : فبينما هم كذلك فى المحاورة ، واذا هم بغـلام أمرد ، قـد

طلع عليهم من شعب فى ذلك الوادى كأنه الشمس الطالعة بهاء وجمالا وحسنا !! ؟ على فرس له أدهم أغر محجل ، وفى يده رمح يجره من طوله ، وفى رأس الرمح سنان كأنه شعلة نار ، وللغلام ذؤابة قد سقطت على عجز الفرس، وعليه قميص وازار ، ومعه ثلاثة عبيد له سود ، يمشون بين يديه ، فلما نظر الى الخيل قد أحدقت بباب الخيمة ، جعل يزأر كالليث المغضب عند فريسته وهو فى ذلك !؟ .

قال : ثم دنا من القوم ، فقال : ما بغيتكم ؟ فلا ، واللات والعزى ، ما عندى الا شويهات يسيرة ، وعشرة من الابل ، وثلاثة أفراس ، وسلاحى وعبيدى هؤلاء ، وأمى وأختى وأهلى هى بنت عمى ، فانصرفوا عنى ، ولا تهيجونى ، فان كنتم قد حدثتكم أنفسكم ، وظننتم أنكم تأخذون منى شيئا فبئس ما ظننتم !! فقال عامر بن الطفيل : من أنت يا غلام ؟ قال الغلام : أنا « الهلقام بن الحارث بن معمر بن النضر بن خليد الأزدى أحد بنى العتيك بن الأزد » (٥) وابن عمى : سبرة بن قرة فارس العنقاء الذى أغار على أحياء العرب ، فأسر (؟) ثم أطلقهم بعد ذلك عن مقدرة !؟ (٦) فقال عامر بن الطفيل : فكيف اخترت هذا الوادى فنزلته منقطعا عن الناس ؟ فقال : انى جنيت فى قومى جناية ، قتلت منهم ، فرحلت عنهم بأمى وأختى وأهلى ومالى ، حتى نزلت هذا الوادى ، فقلت : أكون فيه مقيما الى أن ترضى عنى بنو عمى ، فيصفحون عن دم قتيلهم ، ثم أعود اليهم !

ولكن ، خبرونى من أنتم ؟ فقال له : أنا عامر بن الطفيل العامرى ، وهذا عنترة بن شداد العبسى ، وهذا العباس بن مرداس السلمى ، ومع كل واحد منا وجوه قومه ، وأشراف عشيرته . فتبسم الغلام

---

(٥) ليس هؤلاء الأعلام جميعا فى جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٣٦٧ وما بعدها .

(٦) لا وجود فى دواوين العرب على اختلافها فى الجاهلية والاسلام لهذين الاسمين « الهلقام بن الحارث الأزدى ، وسبرة بن قرة ابن عمه » .

ضاحكا ، ثم قال : والله ما كنت بالذى أبالى بكم ، ولو كان معكم ابن عمى « عمرو بن معدى كـرب الزبيدى » فانه أشـد منكم جاشا ، وأجرأ منكم جنانا ، وأشجع منكم قلبا ! ولقد أقررتم له بذلك عند النعمان ابن المنذر [٧] ، وخضـعتم له صـاغرين ، فقال له عامر بن الطفيل : وما علمك أنا أقررنا له ؟ فقال : علمنى شـعرك حين غضلته على نفسك . ثم أقبل الغلام على العباس بن مرداس السلمى ، فقال له : يا عباس ! ألست القائل يوم فضلت عمرا على نفسك ؟ [٨] ثم أقبل الغلام على عنترة بن شداد ، وقال له : وأما أنت يا عنترة ، فانك لـم تشهد ذلك المشهد ، والكذب عار على الأحرار ! [٩] .

فقال له عامر بن الطفيل : حسبك يا غلام من كثرة القول ، أمـا ما ذكرت من تفضيلنا عمرا على أنفسـنا ، فلعمرى لقد كان ذلك فى وقت من الأوقات ، ولم نجد بدا من تفضيله ، ولكن ، ما أنت وعمرو ، ولست كعمرو ! وانما أنت صبى من الصبيان ، فخل عن أختك وأهلك ، وانج بنفسك وخدمك وأمك ، وسائر أموالك . قال الغلام : أيجوز هذا يا عامر ، أن أخلى عن أختى وأهلى ، وقد أوصانى [١٠] ... بحفظ الجار وطلب الثأر ، ونفى العار ، ومنع الذمار ، لسنا — واللات والعزى — كأولاد قيس عيلان انما نحن ولد قحطان ، أصحاب الضراب والطعان ،

---

(٧) هناك : النعمان بن المنذر بن الحارث بن جبلة الغسانى المتوفى سنة ٢٨ قبل الهجرة ، وكان أمير بادية الشام . والنعمان بن المنذر بن امرىء القيس اللخمى وهو أبو قابوس ملك الحيرة المشهور المتوفى حوالى سنة ١٥ قبل الهجرة . فأيهما يقصد ابن أعثم ؟

(٨) لم يذكر ماذا قال العباس فى هذا الموقف !؟

(٩) واليس الكذب عارا ومحرما على مؤلف القصة ؟! ويبدو أن المؤلف كان يعرف أن عنترة مات قديما (حوالى سنة ٢٢ قبل الهجرة) فأعفاه من حضور ذلك الموقف ! .

(١٠) موضع النقط بياض بقدر كلمة .

ملوك الشرق والغرب ، وأحلاس الوخز والضرب [١١] ؛ ما أنتم عندى الا كما قال سيدكم عمرو بن معدى كرب :

والله ما لبني عيلان مكرمة   فرع قديم ولا أس بتأسيس ! [١٢]

قال ابن أعثم : فغضب عامر بن الطفيل من قوله غضبا شديدا ، وهم أن يحمل عليه ، ثم خشى أن يغلبه الغلام ؛ فتكون فضيحة ومسبة عليه ؛ فأقبل على أصحابه ، وقال لرجل منهم يقال له ضمضم : يا ضمضم، اخرج الى هذا الغلام ؛ فاكفنا أمره ، فخرج ضمضم نحو الهلقام ، وهو يرتجز ، فبدر اليه الهلقام بن الحارث وهو يرتجز ، فالتقيا بطعنتين طعنه الهلقام طعنه أرداه عن فرسه قتيلا ! فاغتنم القوم بقتل ضمضم ابن عاصم العامرى غما شديدا • فأقبل عنترة بن شداد على رجل من بنى عبس يقال له : عمرو بن دعامة ، فقال : ويحك يا عمرو ! اخرج الى هذا الكلب فاكفنا أمره • فخرج عمرو بن دعامة نحو الهلقام وهو يرتجز ، فبدر اليه الهلقام بن الحارث ، والتقيا بطعنتين ؛ طعنه الهلقام طعنة قتله ، ثم جال جولة ووقف !

فلما نظر العباس بن مرداس السلمى الى هذا الغلام ؛ وقد قتل رجلا من بنى عامر ، ورجلا من بنى عبس ، أقبل على رجل من فرسان بنى سليم يقال له : حرشل بن زياد [١٣] ، فقال له : ويحك يا حرشل ، واللات والعزى ، انى لأعلم أنه ما يقوم لهذا الغلام

---

(١١) أى الملازمون للحرب والقتال .

(١٢) لم أجد هذا البيت فى سائر المصادر التى بين يدى .

(١٣) اسم غريب ، لم أجد صيغته فى الصحاح ولا فى اللسان ، وأقرب ما وجدته هو « حرجل » ، قال الجوهرى : الحرجل : الطويل الصحاح ١٦٦٨/٤ . وقال ابن منظور : الحرجل والحراجل : الطويل ، والحرجل : الطويل الرجلين . والحرجل : قطيع من الخيل ... وحرجل : اسم . اللسان (مادة حرجل) ١٥٨/١٣ .

أحد سواك ، فان رأيت أن تشفى صدور بنى عمك منه فعلت ، منعما ! فخرج حرشل بن زياد السـلمى نحو الهلقام بن الحارث ، وفى يـده حربة له كالشـهاب ، فجعل يلعب بها ويقلبها ، وتحته فرس له أشقر وهو يرتجـز ، فبدر اليه الهلقـام بن الحارث وهو يرتجز ! والتقيا بطعنتين ، طعنه الهلقام طعنة قتله ، ثم وقف فى ميدان الحرب ، ثم دعاهم الى البراز ، فلم يزل يخرج اليه رجلا (رجل) بعد رجل حتى قتل منهم بضعة عشر رجلا !؟

قال ابن أعثم : وامتلأ القوم غيظا وغضبا ، وندموا على مجيئهم اليه ، وخشوا العار أن ينصرفوا عنه ، وهم فرسان ، وسـادات من سادات العرب ! ثم انهم هموا بالحملة عليه ، وأحس الغلام بذلك ، فقال : يا معشر العرب ، أما تستحون من هـذا الذى أزمعتم عليه ؟ ان كنتم تريدون ذلك ، فارقبوا على قليلا حتى أفرغ على سـلاحى . فقال له عامر بن الطفيل : قد فعلنا ذلك ، فأته الى ما تريد ! فقنع الغلام فرسه ، ومضى موليا نحو باب الخيمة ، فصاح ، وقال : يا أمه ! هلمى سلاحى ، ثم نزل عن فرسـه ، والقوم قد أمهلوه ، وينظرون اليه ،

فخرجت اليه بالدرع فأفرغته عليه ، وناولته ابنة عمه السيف ، وأعطته أخته عمامة فاعتجر بها ، ثم تناول رمحه ، واستوى على فرسه كالبرق الخاطف ، ثم أقبل نحو القوم ، قال : ثم انه حمل عليهم ففرق جمعهم ، وجعل يكر عليهم ، ويكرون عليه ، حتى أثخنوه بالجراحات ، ثم حمل عليه عامر بن الطفيل ، والتقيا بطعنتين ، طعنه الهلقام طعنة نكسه عن فرسه ، وحمل عليه عنترة بن شداد ليطعنه ، فكبا بعنترة فرسه ، فاذا هو فى الأرض ، فانهزم الباقون من بين يديه ، وفيهم العباس بن مرداس السلمى !!

قال : وصاح الهلقام بغلمانه ، فأقبلوا اليه يحصرون (؟) فقال : دونكم هذين الكلبين فاكتفوهما ، قال : فكتف عامر بن الطفيل ، وعنترة

ابن شـــداد • ومر الهلقام فى طلب القوم ، فاذا هم يسوقون الغنائم سـوقا عنيفا فلما نظروا اليه قد وافاهم ، رجعوا عنها ، فجاولوه ، وجاولهم ، وطاعنوه وطاعنهم ، وجرحوه وجرحهم ، ثم قال : واللات والعزى ، « وحق أنصار اليمن »[١٤] ، لا رجعت عنكم دون أن أقتل ، أو أبيدكم ، أو تدفعون الى العباس بن مرداس أسيرا ؟ واذا فعلتم ذلك رجعت عنكم ، والا فهذا دأبى ودأبكم أبدا !! فكونوا من ذلك عـلى يقين • فبادر القوم الى العباس بن مرداس ، فأحاطوا به من كل جانب ، حتى نكسوه عن فرسه ، ثم كتفوه ودفعوه اليه ، ومضى القوم عـلى وجوههم !

وأقبل الهلقام بالعباس الى موضع الوقعة ، وغلمانه وقوف على عـامر بن الطفيل وعنترة بن شـداد فقال لغلمانه : اجمعوا عـلى ما قدرتم عليه من غنـائم هـؤلاء القوم • فجمع غلمانه شـيئا مما تخلف عن القوم فجعل الهلقام يسوق الغنائم بين يديه ، وهؤلاء الثلاثة يساقون مع الغنائم نحو باب الخيمة ، والهلقام من ورائهم ، وقد رفع صـوته ، ثم نزل عن فرسه على باب الخيمة ، فخرجت اليه بنت عمه فجعلت تمسح وجهه بردائها ، وخرجت اليه أخته ، فأخذت عنه سلاحه ، وتقدمت اليه أمه فقبلت بين عينيه ، ثم انها حطت عن الفرس السرج واللجام ، وأقامتها على مذودها •

قال : وقعد الهلقام ثم دعا بالطعام فأكل ، فلما فرغ من طعامه ، أمر فقرب الى هؤلاء الثلاثة المائدة — بعد أن أطلقهم من كتافهم — فأكلوا ، فلما فرغوا من طعامهم ، أمر بهم فأعيدوا فى كتافهم ! ثم رفع صوته ؟! فمكث هؤلاء القوم فى يده شهرا كاملا ونحو ذلك (؟) لا يكلمهم ولا يسألهم عن شىء ، غير أنه يجرى عليهم من الطعـام

---

(١٤) هذا قسم غريب ، ولا أدرى ما المراد بأنصار اليمن ، ولا من نصروه ، ولماذا يحلف بهم ؟

ما يقوتهم ، والقوم يمنعهم الحياء أن يسألوه التخلية عنهم ، بما كانوا ارتكبوا منه وتعرضوا لحرمته وبغوا عليه !

فلما كان بعد شهر ، اتصل الخبر ببنى عمه ، فسرهم ما كان منه ، ثم انهم صفحوا عنه ، وعن دم قتيلهم وسألوه أن يصير اليهم فتهيأ لذلك ، وهيأ الرواحل لأمه وأخته وامرأته وغلمانه ، ثم أمر أن تهيأ ثلاثة (كذا) رواحل لهؤلاء الثلاثة ليحملهم الى قومه ، فشق ذلك عليهم ، وجعل عامر بن الطفيل يقول لعنترة وللعباس بن مرداس : ويحكما انه متى حملنا هذا الغلام الى قومه ، فذاك هو العار الذى لا يغسل عنا أبدا ! ولكن ذرونى أتكلم بما أريد ، فأسأله الصفح ، فلعله أن يفعل ، فقالا له : شأنك يا عامر . فخرج اليه عامر بن الطفيل ، والفتى قاعد على باب الخيمة ، حياه بتحية الجاهلية ، ثم قال له : يا سيد الفتيان كلها قاطبة غير مدافع ، أتأذن لأسيرك فى الكلام ؟ فقال له الهلقام : تكلم ما أحببت ، فأنشأ عامر بن الطفيل يقول أبياتا من جملتها :

فامنن عليه يا ابن نضر الخير بالعفو والرضاء والتيسير
خل سبيل الحامد الشكور

قال الهلقام : انى قد فعلت ، يا غلام ، خل سبيله ، واردد عليه فرسه وسلاحه ! فأنشأ عنترة بن شداد يقول أبياتا من جملتها :

جاء على أجرد أعوجى مثل هزبر غالب خيسى
قد طال حبس الجائر الشقى خل سبيل الشاكر الوفى

فقال الهلقام : قد فعلت ، يا غلام ، حل كتافه ، واردد عليه فرسه وسلاحه ! فأطلق الغلام سبيله ، ورد عليه فرسه وسلاحه . ثم أنشأ العباس بن مرداس أبياتا من جملتها :

والضرب عند الحرب بالصمصام قــد طال حبس ••• المجــرام
فامنن على واغتفر اجرامى (١٥)

فقال الهلقام : قد فعلت ، يا غلام ، فحل عنه كتافه ، واردد عليه فرسه وسلاحه !!

قال ابن أعثم : فأطلق سبيلهم ورد عليهم أســلحتهم وأفراسهم ، ثم دعاهم وأجلسهم بين يديه ، ثم قال : اعلموا أنى لســت كأنتم من الناس ، ولا أقاس بأمثالكم فى الشدة والنجدة والشجاعة والبأس ، ولكنى انمــا نصرت عليكم ، لأنكم وافيتمونى فى الشهر الحرام ، فتعرضتم لحرمتى ، وأردتم هتكى وفضيحتى ، فنصرت عليكم للذى كان من بغيكم فى الشهر الحرام ، ولعمرى بى لفعلتم (كذا) غير أنى لم أحب أن تتحدث العرب بذلك ، ويقول بعضها لبعض : ان الهلقام لئيم الظفر ، وهذه غنائمكم خذوها اليكم وانصرفوا الى قومكم ، ولا تحدثوا أحدا بالذى كان منكم ، لأنى لا أحدث أحدا مع أنى أعلم أنه حديث لا ينكتم •

قال ابن أعثم : فانصرف القوم الى بلادهم ، وانصرف الهلقام الى بلاده وقومه وبنى عمه من الأزد ، وشاع خبره ، وخبر هؤلاء القوم فى قبائل العرب ، فتحدثوا به ، ودار فى أفواه أهل الأدب • فأما عنترة ابن شــداد (ف) مات ولم يدرك الاسلام وأما العباس بن مرداس : فانه رزق الاسلام ، وكان مع النبى صلى الله عليه وسلم ، وغزا معه فى عشرين غــزوة ، وقــاتل فى يوم حنين قتالا شــديدا الى أن مضى

---

(١٥) لا يخفى على قارىء الشعر العربى ــ وبخاصة الشعر الجاهلى ــ أن هذه الأبيات فى غاية الضعف والتهافت ، فضلا عما يعتور بعضــها من مخالفة الوزن (بعضها مكسور) ، كما أن البيتين المنسوبين الى عنترة لا يوجدان بديوانه ..

لسبيله (١٦) . وأما عامر بن الطفيل فانه أدرك الاسلام ولم يسلم (١٧).
وأما هذا الفتى الهلقام ، فانه لم يزل فى ديار قومه ، ثم أسـلم ،
وبطىء عن القدوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، حتى
مضى لسبيله ، ثم كانت الردة فلم يشهد شيئا منها ، ثم قدم على أبى
بكر الصديق رضى الله عنه فى وفد اليمن (؟) فلما ندب أبو بكر الناس
الى حرب الروم ، كان هذا هلقام ممن انتدب مع سبعين رجلا من قومه
وبنى عمه ، فصار فى جيش هاشم بن عتبة بن أبى وقاص (١٨) ..

تفنيد القصة وبيان زيفها :

١ — فى محاولة الوقوف على أصل هذه القصة وحقيقتها التاريخية ،
كانت الخطوة التى لابد أن أبدأ بها ، هى التعرف على أبطالها ، الذين
يمثلون العناصر الأساسية فيها . وكما سبق أن أشرت فى ثنايا عرض
القصة ، فلا شك فى وجود الثلاثة المشهورين من فرسان العرب وشجعانهم
« عامر بن الطفيل ، وعنترة بن شداد ، والعباس بن مرداس » ، أما
منافسهم وخصمهم الخارق ، الذى بلغ من شدته أن أذلهم جميعا —

---

(١٦) أسلم العباس بن مرداس قبل فتح مكة بيسير ، وكان من المؤلفة قلوبهم ، وممن حسن اسلامه منهم ، وكان قد حرم الخمر على نفسه فى الجاهلية ، وهو ابن الخنساء الشاعرة والصحابية المشهورة . وتوفى سنة ١٨ هـ . وليس بصحيح أنه غزا مع النبى عليه الصلاة والسلام فى عشرين غزوة ، لتأخر اسلامه الى سنة ثمان من الهجرة . راجع ترجمته فى الطبقات لابن سعد ١٥/٢/٤ — ١٧ وابن عبد البر : الاستيعاب ٨١٧/٢ — ٨١٩ ، وابن الأثير : أسد الغابة ١٦٨/٣ — ١٧٠ .

(١٧) ترجم له ابن الأثير : الكامل ٢٩٨/٢ — ٢٩٩ ، البغدادى : خزانة الأدب ٨٠/٣ — ٨٢ ، وله فى العقد الفريد أخبار ١٧/٢ ، ١٩ ، ١٢٨/٣ ، ٤١٠ .

(١٨) كتاب الفتوح ١٠٤/١ — ١١٤ .

هذا « الهلقام[١٩] بن الحارث بن معمر بن النضر بن خليد الأزدى العتكى» وكذلك ابن عمه « سبرة بن قرة » ، فلم أستطع الوصول الى وجـود لهما ، أو حتى التوصل الى اشارة تاريخية اليهما من قريب أو من بعيد، يستوى فى ذلك تاريخ العرب قبل ظهور الاسلام ، أو بعد ظهوره ! ومما لاشك فيه أنه لو كانت هذه الشخصية قد وجدت حقا ، وعـلى ما وصف ابن أعثم من القوة والبأس الشديدين ، لما أغفلها مؤرخـو العرب ، ولكان لها شأن يذكر بين أبطال العرب الذين تناولتهم أقـلام الكتاب وروايات الحفاظ من نقلة الأدب العربى ، خصوصا وقد أكـد ابن أعثم — فى ختام سرده للقصة — أنه بعد انصراف الهلقام الى بلاده — ولسنا ندرى ما هى وأين موقعها ؟ — وقومه « شاع خبره وخبر هؤلاء القوم فى قبائل العرب ، فتحدثوا به ، ودار فى أفواه أهل الأدب » ؟!

٢ — نعم ، لقد اجتمع كل من عامر بن الطفيل العامرى ، وعمرو ابن معد يكرب الزبيدى فى بلاط أبى قابوس النعمان بن المنذر اللخمى ملك الحيرة ، وكانا من بين عشرة من مشاهير رجالات العرب يومئذ ، وهم : أكثم بن صيفى ، وحاجب بن زرارة التميميان ، والحارث بن عباد وقيس بن مسعود البكريان ، وخالد بن جعفر ، وعلقمة بن علاثة ، وعامر بن الطفيل العامريون ، وعمرو بن الشريد السلمى [٢٠] ، وعمرو

---

(١٩) حول معنى هذا الهلقام ، قال ابن منظور : الهلقام والهلقامة : الطويل . وقيل : الضخم الطويل ، وهو الفرس الطويل . والهلقام : السيد الضخم القائم بالحمالات (المغارم) . والهلقم والهلقام : الواسـع الشدقين من الابل . والهلقام : الأسد . وهلقام : اسم رجل . لسـان العرب (هلقم) ١٠٣/١٦ . وقد ورد فى المصادر التاريخية اسم « الهلقام ابن نعيم بن القعقاع » بين الثائرين مع ابن الأشعث ضد الحجاج الثقفى ، وقبض عليه وقتله الحجاج سنة ٨٣هـ . الطبرى : تاريخ ٣٧٣/٦ ، ٣٧٤ ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٢٣٣ .

(٢٠) وليس العباس بن مرداس السلمى ؟

ابن معد يكرب الزبيدى ، والحارث بن ظالم المرى • وقد طلبهم النعمان ليوفدهم سفارة الى كسرى الفرس ، كى يعرف حقيقة العرب ، ويتجلى له معدنهم ، وذلك بعرض أفكارهم ، وتجاربهم ، وخبراتهم بالحيــاة والبشر ، والسياسة ، وانما فعل النعمان ذلك ، بعد أن رأى الملك الفارسى يتنقص العرب ، ويريد أن يتخذهم خدما يعملون له ويؤدون اليــه الخراج دون أن يكون لهم أى اعتبار [٢١] ••

واذن ، فلم يجتمع لدى النعمان هؤلاء الأربعة الذين ذكرهم ابن أعثم فيما نعلم من خلال مصادر التاريخ التى لها اعتبار ، كما أن هذا اللقاء الذى ضم ابن الطفيل وابن معد يكرب ، لم تجر فيه منافرات أو مفاضلات بين هذا وذاك ، لا فى الشجاعة ولا الفروسية ولا أى ميدان من ميادين التنافس بين الأقران ! وبالتالى فلم يحدث يومئذ تفضيل لأحد على أحد ، كما زعم ابن أعثم ••

٣ — ان ابن أعثم الكوفى ، كان يدرك تماما أنه قد بالغ ، وأوغل فى تصوير قوة وبطولة هذا الهلقام ، وأن الأمر على هذه الصورة فى حاجة ملموسة الى تفسير وبيان ، لأن قوة وبطولة أولئك الأبطال الثلاثة « عامر وعنترة والعباس » حقيقة لا يستهان بها بين العرب جميعا ، فكيف يهدرها ذلك الغلام فى جولة واحدة ؟ انه أمر غريب كما نرى ، لذلك تفتق ذهنه عن تفسير رآه مقنعا وكافيا فى الرد على من تأخذه الدهشة من انتصار الهلقام على فرسان العرب الذين سارت بذكرهم الركبان ، فقال على لســان غلامه المعجزة : « اعلموا [٢٢] أنى لست كأنتم من الناس ، ولا أقاس بأمثالكم فى الشدة والنجدة والشــجاعة

---

(٢١) اقرأ خبر هذه السفارة ، وما تكلم به هؤلاء الزعماء أمام كسرى لدى ابن عبد ربه : العقد الفريد ١/٩ وما يليها .

(٢٢) الأمر هنا موجه الى الثلاثة الأبطال « ابن الطفيل ، وعنترة ، وابن مرداس » .

والبأس ، ولكنى انما نصرت عليكم ، لأنكم وافيتمونى فى الشهر الحرام ، فتعرضتم لحرمتى ، وأردتم هتكى وفضيحتى ، فنصرت عليكم للذى كان من بغيكم فى الشهر الحرام » (٢٣) . واذا قبل ذلك جدلا ، فما تفسير ابن أعثم لضربات أم الهلقام القاتلة ؟ لقد رأيناها — فى أثناء عرض القصة — وهى توجه ضربة واحدة ، أو وكزة واحدة ، فتقتل على الفور ، بحيث يسقط الشديد من غلمان القوم ميتا لحظة تلقية الضربة القاضية من أم الهلقام !!

٤ — ان معارك الفتح الاسلامى المبارك على امتداد ميادينه ، وساحاته ، فى العراق أو الشام ، أو مصر ، أو فارس أو غيرها ، كانت مجالا طيبا ، لبروز الأبطال وتخليد أسمائهم على مر التاريخ ، بما يفعلونه فى مواجهة الأعداء ، وما يقدمون من عطاء سخى بالنفس يجودون بها فى سبيل الله ورفع راية الاسلام ، ومن هنا ، فان من يقرأ سجل هذه الفتوح الرائعة ، يتمتع متعة حقيقية وهو يستعرض أسماء الخالدين من مجاهدى الاسلام فى هذه المرحلة الباكرة ، وقرين كل اسم منها ما قام به صاحبه من الأعمال البطولية الفائقة التى كانت من مفاتيح النصر والظفر فى تلك المعارك التى لا ينساها التاريخ !!

وعلى سبيل المثال ، فقد ذكر اسم العباس بن مرداس السلمى فى وقعة حنين ، وأنه يومئذ قاتل قتالا شديدا (٢٤) ، وأشادت المصادر التاريخية بأفاعيل عمرو بن معد يكرب الزبيدى فى موقعة القادسية ، والقعقاع بن عمرو التميمى ، وهاشم بن عتبة المرقال ، وأبى محجن الثقفى ، مما كان له أثره القوى المباشر فى تحقيق النصر (٢٥) ، كما

---

(٢٣) كتاب الفتوح ١/١١٣ .

(٢٤) ابن سعد : الطبقات ٤/٢/١٦ — ١٧ . ابن عبد البر : الاستيعاب ٣/٨١٨ — ٨١٩ . ابن الأثير : أسد الغابة ٣/١٦٨ — ١٦٩ .

(٢٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣١٥ وما يليها ، الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ٣/٥٣٣ وما يليها ، ابن الأثير : الكامل ٢/٤٧٨ وما يليها ، البغدادى : خزانة ٢/٤٤٥ — ٤٤٦ .

نوه المؤرخون بصنيع عكرمة بن أبى جهل ، والقعقاع بن عمرو ، والحارث ابن هشام ، وضرار بن الأزور ، وغيرهم فى موقعة اليرموك ، حتى حقق الله للمسلمين النصر المؤزر (٢٦) .. وهكذا كان الميدان فسيحا لمن أراد من الأبطال أن يبلى البلاء الحسن الذى يقربه الى الله ، ويرفع ذكره بين المجاهدين ! غير أن أحدا من مؤرخى الفتوحات الاسلامية لم يجر قلمه ، أو يتحرك لسانه ، بذكر هذا الهلقام بن الحارث الذى زعم ابن أعثم الكوفى أنه كان ممن انتدب مع سبعين رجلا من قومه ، وبنى عمه ، لحرب الروم ، فصار فى جيش هاشم بن عتبة بن أبى وقاص ، بتوجيه من أبى بكر الصديق رضى الله عنه (٢٧) .

أما وقــد فرغنا من عرض هــذه الملاحظات التى تقدح فى صحة هــذه القصـــة قدحا مباشرا ، وتطعن فى الأصـــل التاريخى لهـــا ، فيجدر بنا أن ننتقل الى البحث فى مسألة أخرى ، ذات علاقة وثيقة بقصة الهلقام تلك ، وأعنى بها : هدف ابن أعثم وغايته من تأليف قصة كهذه !

وفى البداية ، كان لابد من معرفة ما اذا كان هنـــاك روابط أو صــلات ، أو مناسبات — غير التى ذكرها ابن أعثم فى القصـــة — جمعت بين أبطال القصة البارزين ، الذين لهم وجود تاريخى موثوق وهم : الثلاثة القيسيون « عامر بن الطفيل ، وعنترة بن شداد ، والعباس ابن مرداس » واليمنى الوحيد « عمرو بن معد يكرب الزبيدى » ، فهذه المعرفة هى المفتاح الذى يمكن أن يقودنا الى بغيتنا . وقد وقعت على طلبتى ، وأنا أراجع « العقد الفـــريد » ، فوجدت أبا عمر أحمد ابن عبد ربه يعالج موضوعا طريفا هو « ومما قيل فى الفرارين والجبنـــاء

---

(٢٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٦٠ وما يليها . الطبرى : تاريخ ٣/٤٠١ وما بعدها .

(٢٧) كتاب الفتوح ١/١١٤ .

من الشعر » [٢٨] ، عرض فيه لذكر عمرو بن معد يكرب فى واقعتين محددتين ، وقد سجل فيهما شعرا ينسب اليه كلتا الواقعتين ، وقد مهد ابن عبد ربه لهما بقوله : « وليس يعاب الشجاع والبهمة [٢٩] البطل بالفرة الواحدة ، تكون منه خاصة لا عامة ، وقليلة لا عادة » . ثم سجل الواقعة الأولى فقال : « وفر عمرو بن معد يكرب ، من عباس بن مرداس السلمى ، وأسر أخته ريحانة . وفيها يقول عمرو :

أمن ريحانة الداعى السميع ‍ ‍ ‍ ‍ يؤرقنى وأصحابى هجوع [٣٠]

ثم سجل الواقعة الثانية فقال : وفر (يعنى عمرو بن معد يكرب) عن بنى عبس ، وفيهم : زهير بن جذيمة العبسى ، وولده شأس بن زهير ، وقيس بن زهير ، ومالك بن زهير ، فقال فيهم :

أجاعلة أم الثوير [٣١] خزاية ‍ ‍ ‍ ‍ على فرارى اذ لقيت بنى عبس
لقيت أبا شأس وشأسا ومالكا ‍ ‍ ‍ ‍ وقيسا فجاشت من لقائهم نفسى
لقونا فضموا جانبينا بصادق ‍ ‍ ‍ ‍ من الطعن مثل النار فى الحطب اليبس
ولما دخلنا تحت فىء رماحهم ‍ ‍ ‍ ‍ خبطت بكفى أطلب الأرض باللمس
وليس يعاب المرء من جبن يومه ‍ ‍ ‍ ‍ اذا عرفت منه الشجاعة بالأمس [٣٢]

وهكذا نجد أنفسنا أمام واقعتين محددتين ، فى مصدر معتبر من مصادر التاريخ والأدب فى لغة العرب ، وفى الواقعة الأولى : فر عمرو ابن معد يكرب الزبيدى القحطانى ، منهزما أمام العباس بن مرداس السلمى القيسى ، وترك أخته « ريحانة » فى ذل الأسر . وفى الثانية :

---

(٢٨) العقد الفريد ١/١٤٤ .
(٢٩) البهمة (بالضم) : الشجاع الذى لا يهتدى من أين يؤتى .
(٣٠) العقد الفريد ١/١٤٦ .
(٣١) أم الثوير : هى امرأة عمرو بن معد يكرب .
(٣٢) العقد الفريد ١/١٤٦ — ١٤٧ .

فر عمرو كذلك منهزما أمام زهير بن جذيمة العبسى القيسى أيضا !! ونحن لا نذكر هاتين الحادثتين لنقلل من شأن أو شهرة عمرو بن معد يكرب فى الشجاعة والقوة ، فلا سبيل الى ذلك ، حيث انهم يضربون به المثل فى الفروسية كما يفعلون بعنترة بن شداد ، وعتيبة بن الحارث ابن شهاب التميمى(٣٣) . وليس هناك أشهر من بيت أبى تمام حبيب بن أوس الطائى ، الذى مدح به أحمد بن المعتصم ، وهو :

اقدام عمرو ، فى سماحة حاتم   فى حلم أحنف ، فى ذكاء اياس (٣٤)

انما ذكرنا ذلك ، لنقول لابن أعثم : انك ، ما نسجت قصة الهلقام هذه الا لترد عن اليمنية بعض ما لحقهم من خزى الفرار والهزيمة أمام القيسية ، وأجهدت نفسك فى محاولة لا جدوى منها لن تغير ما أثبته التاريخ ، فأردت أن تعكس المواقف وأن تزيف التواريخ ، مع أنه لا حرج على الفارس البطل — اذا قدر أن الجولة خاسرة — أن ينجو بنفسه هذه المرة ، على أن يكر فى الهجمة القادمة ، كما سلف القول بذلك ! غير أن تعصب ابن أعثم لأصله القحطانى — كما هو متعصب لمذهبه الشيعى — هو الذى جعله يفعل ذلك ، حطا من قدر القيسية ، واعلاء لذكر اليمنية ! اقرأ له — ان شئت — قوله فى قصته تلك : « انما نحن ولد قحطان ، أصحاب الضراب والطعان ، ملوك الشرق والغرب ،

---

(٣٣) الجاحظ : البيان والتبيين ٢١/١ .

(٣٤) هذا البيت من قصيدة أولها :

ما فى وقوفك ساعة من باس   نقضى ذمام الأربع الأدراس

وعمرو هو ابن معد يكرب الزبيدى ، وحاتم هو ابن عبد الله بن سعد الطائى ، والأحنف هو ابن قيس التميمى ، واياس هو ابن معاوية المزنى القاضى . المصدر السابق ٧٩/٤ .

وأحلاس الوخز والضرب ، ما أنتم عندى الا كما قال سيدكم عمرو بن معد يكرب :

والله ما لبنى عيلان مكرمة　　فرع قديم ولا أس بتأسيس » (٣٥)

٢ ـ قوة عمرو بن معد يكرب الزبيدى :

ومما له علاقة واضحة بهذه القصة التى ساقها ابن أعثم لترسيخ دعواه بأن القوة والبطولة والفروسية والشجاعة والنجدة ، فى ولد قحطان آصل وأثبت منها فى القيسية ، ما ذكره بعد فى شأن عمرو بن معد يكرب الزبيدى ! فلقد انتهز فرصة الحديث عن موقعة القادسية (١٤هـ) بين المسلمين والفرس ، ورسم فيها صورة مكبرة للبطل اليمنى « المثال » عمرو بن معد يكرب ، وأبرز فيها تلك الخصائص التى زعم عراقتها فى أبناء اليمن .

وعلى الرغم من اجماع المؤرخين على أن القادسية قد شهدت أعمالا رائعا يذكرها التاريخ لأهل البأس والشدة والنجدة والبطولة كانت وراء انتصار المسلمين فى هذه الوقعة الهائلة ، وأن من بين هؤلاء الرجال المذكورين يومئذ عمرو بن معد يكرب ، الذى قالوا فى حقه : « وله فى القادسية بلاء حسن ، وهو الذى ضرب خطم الفيل بالسيف ، فانهزمت الأعاجم ، وكان سبب الفتح » (٣٦) . على الرغم من ذلك وهو خطير جدا يرفع شأن أى بطل فائق ، فان ابن أعثم لابد أن ينفرد بصورة يعبر فيها عن عظمة عمرو بن معد يكرب ، وبطولته الخارقة

---

(٣٥) الفتوح ١٠٨/١ .

(٣٦) الطبرى : تاريخ ٥٣٣/٣ ، ابن الأثير : الكامل ٤٧٨/٢ ، البغدادى: خزانة الأدب ٤٤٦/٢ .

للعادة ، وانما يريد في الواقع الفخر باليمنيين أجمعين ! فلننظـر فيما قال فى هذه المناسبة (٣٧) .

« فلمـا كان من غد (يقصـد اليوم الثالث للمعركة بروايته هو) دنا القوم بعضهم من بعض ، وهذا يوم السواد ؟ وقدمت الفرس الفيلة عن أيمانهـا وعن شمائلهـا وبين أيديهم ، ونظـرت خيل المسـلمين الى الفيلة ففزعت لذلك فزعا شديدا ، وتراجعت الى ورائهـا ، فلمـا نظر المسلمون الى ذلك ، نزلوا عن الخيل وأصلتوا السيوف ، ومضوا نحو الفيلة رجالة ، واشتبكت الحرب ، وجعل المسلمون يحملون عـلى الفيلة ، فيضربون مشافرها بالسيوف حتى أفنوها عن آخرهـا ؟؟ .

قال : فتقدم رجل من كبار الفرس وساداتها يقال له : شاهنشاه(٣٨) حتى وقف بين الجمعين على فرس له ، على رأسه تاج من ذهب ، وعليه جوشن من ذهب ، فسأل البراز ! فخرج اليه رجل من المسلمين ، فقتله شاهنشاه ، ثم خرج اليه آخر فقتله ، فلم يزل كذلك حتى قتـل أربعة من فرسان المسلمين !! فصـاح المسلمون بعمرو بن معد يكرب الزبيدى فقالوا : يا أبا ثور ، هل فيك بقية من غنى (غناء) فتكفينـا أمـر هذا الأعجمى ؟ فقال فتى من تميم يقال له عبد الله بن حابس : وأى بقيـة تكون فى مثله وهو شيخ كبير على ما ترون ؟ فقـال لـه عمرو : يا ابن أخى ! ان بقيتى على ضعفى خير من شباب مثلك ! وأقبل على عمرو من كان من قومه وعشيرته فقالوا : سألناك يا أبا ثور الا كفيتنـا أمر هـذا الأعجمى ان علمت أنك تقوم به ! قال : نعم ، آتونى براحلة ، فقالوا : تريد أن تقاتل على راحلة ؟ فقال : ائتونى ولا تسألونى ، قـال : فأتوه

---

(٣٧) هناك ملاحظات عديدة على عرض ابن أعثم لأحداث القادسية ، لا يخطئهـا الدارس الواعى لتاريخ الفتوح الاسلامية .. ولكن لا نتعرض لهـا فى هذه المناسبة .

(٣٨) شاهنشاه : تعنى فى اللغة الفارسية : ملك الملوك ، أو الملك الأعظم ..

بناقة عليهـا رحلها ، فأبركها بين يديه ، ثم ركبها وقال : يابنى أخى ! أصلحوا على عمكم ثيابه ، قال : فأدخلوا أيديهم تحته ليصلحوا ثيابه فقعد على أيديهم ، وأثار الراحلة ، فبقى القوم معلقين بأيديهم فصاحوا : يا عم ! أيدينا أيدينا ! ؟ فتجافى عمرو عن الراحلة فسقطوا الى الأرض ! قال : يا بنى أخى ، ما بقى من قوة عمكم الا ما ترون (٣٩) !

ثم أقبل على بنى عمه فقال : ان فرسى هذه لست منها فى شىء ولكن ائتونى بحصان ، فأتوه بحصان مشرف كأنه الكثيب المبنى ، فأخذ بذنبه فألزم عرقوبيه الى الأرض ، ثم قال : ضعيف ائتونى بغيره ، فأتوه بفرس آخر ، فأخذ بذنبه ، فجذبه ، فألزم عرقوبيه الأرض ! وقال ضعيف ، غير أنه خير من الأول .

ثم قال : يابنى زبيد ، اعلموا أنى حامل على هذا الأعجمى ، فان بدرته بالصمصامة ، فهى نفسه لا شك فى ذلك ، وان بدرنى بسيفه فصرعنى عن فرسى فلا عليكم ، ذرونى واياه ، فانه لا يصل الى حتى أقتله على كل حال (٤٠) ..

٣ — سفارتان اسلاميتان الى هرقل وجبلة بن الأيهم :

وأما القصة الثانية ، فهى من لون آخر ، وان كان الخيال هو القاسم المشترك فى بنائها العام ، وتفاصيلها الجزئية ، فقد

---

(٣٩) قال عبد القادر بن عمر البغدادى فى خزانة الادب ٤٤٦/٢ : « روى أن رجلا رآه (يعنى رأى عمرا) وهو على فرسه ، فقال : لأ نظر ما بقى من قوة أبى ثور . فأدخل يده بين ساقه وجنب الفرس ، ففطن لها عمرو ، فضم رجله ، وحرك الفرس ، فجعل الرجل يعدو مع الفرس ، ولا يقدر أن ينزع يده ، حتى اذا بلغ منه ، صاح به ، فقال له : يا ابن أخى : مالك ؟ قال : يدى تحت ساقك ! فخلى عنه . وقال : ان فى عمك بقية ..

(٤٠) وحقق عمرو وعده ، حيث ضربه على رأسه فقطع تاج الشاهنشاه وهامته ، فقتله ، وأخذ تاجه وسلاحه وثيابه . الفتوح ٢٠٤/١ — ٢٠٦ .

يكون من المحتمل وجود أساس تاريخى لها مازال مجهولا حتى الآن ، ولكنهـا على كل حال تدخل فى هذا الباب الذى نعالجه فى هـذا الفصل من حديثنـا عن فتوح ابن أعثم الكوفى ..

ومن حيث المبدأ ، هى قصة طريفة انفرد ابن أعثم بذكرهـا دون المؤرخين الذين يعتد بمصنفاتهم فى البحث التاريخى ، ونعتمد عرضهم للتاريخ الاسلامى كأسـاس للمعرفة بهذا التاريخ . وهى تتناول خطوة تمهيدية سبقت اللقاء الحاسم بين المسلمين وبين الروم وحلفائهم من العرب المتنصرة فى بلاد الشـام ، ويشبه أن يكون هـذا اللقـاء هو « معركة اليرموك » ، ولا يتأتى لنا أن نقول غير « يشبه أن يكـون » ، لأن صاحبنـا يعزف دائما عن التحديد الزمانى والمكانى فى عرضـه للتاريخ ، فلقد رأى القائد العـام للجيوش الاسلاميـة فى الشـام أبو عبيدة بن الجراح ، أن يقدم الدعاء الى الاسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، قبل أن يضطر الى الصدام المسـلح مـع الروم وحلفائهم ، فانتدب لهذه المهمة السلمية الخطيرة فريقـا من رجاله ، ونترك ابن أعثم يقص علينـا قصتـه فى هذه المناسبة :

قال : « فدعا (أى أبو عبيدة) بهشـام بن العاص — وهـو أخو عمرو بن العاص — فضم اليه جماعة من المسلمين من أهل الدين والحسب ، فأرسله الى هرقل ملك الروم . فخرج اليه هشام بن العاص فى من معه من المسلمين حتى صاروا الى الغوطة من أرض دمشق ، ثم صاروا الى باب جبلة (أى ابن الأيهم) فاستأذنوا عليه ، فأذن لهم ، فدخلوا عليه فى مجلس له مزخرف ، فاذا هو على فرش له مرتفعة ، وعلى يمينه كراسى الذهب والفضـة ، عليهـا ملوك اليمن عليهم الديبـاج المنسوج ، وعلى رءوسهم العمائم ، وقـد اعتجروا بهـا على زى العرب ، والمجلس مفروش بالديباج الأسود ، وعلى جبلة يومئذ ثياب سود ، وتاجه على رأسه ، فلمـا نظر المسلمين أومأ اليهم أن اجلسوا ، فجلس المسلمون

بعيدا منه ، واذا رسول جبلة قــد أقبل اليهم فقال لهم : يقــول لكم جبلة ، ما حاجتكم ؟ فقال هشام للرسول : ارجع اليه فقل له : ان أردت كلامنا فانزل عن فرشك وكلمنا ، فانطلق اليه الرسول فخبره بذلك ، فنزل جبلة عن فرشـــه تلك المرتعفة التى كان عليهــا الى فرش دونها ، ثم جلس عليهــا ، وأومأ الى المسلمين (أن) تقدموا ، فتقدموا وجلسوا قريبا من فرشه ثم كلمه هشـــام بن العاص ، ودعاه الى الاسلام ، ورغبه فيه ، وقرأ عليه كتاب الله عز وجل ، وخبره بأمــر الجنــة والنار . فأبى جبلة ذلك ، ونفــر من الاسلام نفرا شديدا !!

فقال له هشـــام اذ قــد أبيت ما دعوناك اليه ، فانى سائلك : فقال : ســـل عمــا بدالك ، فقــال هشـــام بن العاص : ما هـــذه الثياب السود التى أراها عليك ؟ فقـــال جبلة : اذن أخبرك أنى لبستها نذرا على ألا أنزعهــا حتى أخرجكم من الشـــام ، فتبسم هشـــام ثـــم قال : ياجبلة ، انك والله لن تقدر أن تمنع مجلســـك هــذا منـــا ، والله لنأخذنه ، ولنأخذن ملك الملك الأعظم ! وبذلك خبرنا نبينـــا الصادق عليه السلام ، فقـــال جبلة : فأنتم اذن السمراء . قال هشام : وما السمراء ؟ قال جبلة : السمراء قوم نجدهم فى الانجيل ، انهم يصومون النهـــار ، ويقومون الليل ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكـــر ، ويفتحون من المشرق الى المغـــرب ! قال هشـــام : فنحن والله أولئك الموصوفون فى الانجيل ، فلا تشك فى ذلك ياجبلة ! فاسود وجه جبلة حتى صــــــار كالليل المظلم ثم قال : الى بعثتم أم الى الملك الأعظم ؟ فقـــال : بعثنا اليك واليه ، قال : فسيروا اذن اليه ، فان أجابكم الى ما تريدون أجبتكم ولم أتأب عليكم . فخرج هشـــام ومن معه من عند جبلة حتى صاروا الى أنطاكية [٤١] .

---

(٤١) الفتوح ١٢٦/١ — ١٢٧ .

ذكر مسير المسلمين الى أنطاكية ودخولهم على الملك (هرقل)

قال ابن أعثم فدخل المسلمون مدينة أنطاكية على رواحلهم من باب المدينة ، وهرقل ينظر اليهم من منظرة ، والقوم من الـروم ينظرون أليهم من وسط المدينة ، الى أن أناخوا رواحلهم على باب الملك حذاء المنظرة ، ثـم رفعوا أصواتهم فقالوا : لا اله الا الله ، والله أكبر ! فانتفضت المنظرة ، حتى سمع النـاس صوت نفيضها (٤٢) ، فأرسـل اليهم هرقل : انه ليس لكم أن تجهروا بدينكم على بابى ، فان كنتم رسلا فادخلوا .

فدخل اليه المسلمون وهو على سرير من ذهب مفروش بالديباج الأحمـر ، وجميع ما فى مجلسه مفروش بالحمرة ، وعليه ثياب منسوجة وعلى رأسه تاج من ذهب يلمع من الجوهـر ؟ واذا هو يكسر بالعربية ليس بالفصيح (٤٣) . قال : فوقف المسلمون بين يديه ، ولم يسلموا عليه ، فتبسم ثم قال : ما منعكم أن تحيونى بمـا تحيون بـه ملوككم ؟ فقال له هشـام بن العاص : أيهـا الرجل (٤٤) ؟! ان تحيتنـا انمـا تجوز بيننا ، ولن يجوز لنـا أن نحييك بهـا ! قال هرقل : وماتحيتكم ؟ فقـال هشـام : تحيتنا السلام . فقـال هرقل : وبذلك تحيون ملوككم؟ فقال هشـام : نعم ، وبذلك نحيى ملوكنا ، وبذلك يحيوننـا كمـا نحييهم (٤٥) . قال هرقل ، فكيف يرث الميت منكم ؟ فقـال هشام : يرثه

---

(٤٢) هكذا وردت الكلمة ، وهى خطأ ، فالاولى أن تكون « انتفاضها »،

(٤٣) أليس هذا أفضـل من جبلة بن الأيهم — وهو العربى الأصـل واللسـان — الذى جعله ابن أعثم يكلم الوفـد العربى بواسطة رسوله :؟

(٤٤) كان المسلمون يعرفون تقاليد السفارة وآدابهـا ، ولذلك فانه من غير المعقول أن يقول سفير المسلمين لامبراطور الـروم وهو يخاطبه « أيهـا الرجل » .

(٤٥) هل كان للمسلمين يومئذ (فى خلافة ابى بكـر) ملوك ؟.

أقرب الناس اليه . فقال هرقل : كيف صومكم وصلاتكم ؟ فوصف له هشام بن العاص ذلك . فقال هرقل : فما أعظم كلامكم ؟ فقال هشام : أعظم كلامنا : لا اله الا الله والله أكبر ، فانتفضت القبة من سقفها حتى فزع هرقل من ذلك ، ثم رفع رأسه ، فنظر الى السقف وقال : خبرونى عن هذه الكلمة ! كلما قلتموها فى بلادكم انتفضت سقوفكم ؟ قال هشام : لا ، ومارأينا هذا الا عندك ، وما أظن هذا الا لشىء وعظت به لتعتبر ! فقال هرقل : ما أحسن الصدق ، وأزين الحق ، ولكن خبرونى عن هذه الكلمة ، أتقولونها اذا أردتم أن تفتحوا المدن والحصون ؟ فقال هشام : نقولها ولا نعتمد الا عليها ! .

قال : فأطرق هرقل ساعة ، ثم راطن بعض غلمانه بالرومية ، وأقبل على هشام بن العاص وأصحابه فقال : انى أمرت لكم بمنزل ، فصيروا اليه يومكم هذا . فصار هشام والمسلمون الى ذلك المنزل ، وأمر لهم بطعام وعلوفة وما يصلحهم .

فلما كان من غد ، بعث اليهم ، فدخلوا عليه وليس فى مجلسه أحد ، فأمرهم بالجلوس ، فجلسوا ثم دعا بشىء على مثل الصندوق الصغير الى الطول ما هو ، وفيه بيوت صغار عليها أبواب (٤٦) ، ففتح منها بابا ، ثم أدخل يده وأخرج خرقة حرير سوداء ، فنشرها فاذا فيها صورة رجل طوال أبيض الجسم كبير العنيين والأذنين ، أقنى الأنف ، كأنه القمر فى صورته مع عظم جسده ! فقال هرقل: أتدرون من هذا ؟ فقال المسلمون : لا نعرفه . فقال : هذا أبوكم آدم عليه السلام ، ثم طوى الحريرة ، وردها الى موضعها .

---

(٤٦) يعنى أن الصندوق مقسم الى أجزاء ، وكل جزء هو خزانة مستقلة ذات باب يغلق على ما فيها .

وفتح بابا آخر ، وأدخل يده فأخرج حريرة سوداء ، ثـم نشرهـا فاذا فيهـا صورة رجل مدور الهامة ، معتـدل القامة ، صلت الجبين (٤٧) ، أحور العينين ، لطيف الفم ، قـد وخطه الشيب . فقال : أتدرون من هذا ؟ فقـال المسلمون : لا ، ما نعرفه . فقـال : هـذا أبوكم ابراهيم عليه السلام . ثـم طوى الحريرة وردهـا الى موضعها. وفتح بابا آخر ، فأخرج حريرة بيضـاء ، ثـم نشرهـا ، فاذا فيهـا صورة رجل آدم ، طوال ، جعـد الشعر حديد النظـر ، كث اللحية ! فقال : أتعرفون من هذا ؟ فقال هشـام : لا ، ما نعرفه . فقـال هرقل : فلا يجب عليكم أن تعرفوه بصفته ! ؟ هذا مـوسى بن عمران الـذى كلمه الله عز وجل على الطور .. فلم يزل هرقل يفتح بابا ، ويعـرض الصور على هشـام وأصحابه ، حتى عرض عليهم النبيين بصفاتهم ونعوتهم ، ثم فتح آخر الأبواب ، وأخرج حريرة سوداء مذهبة الجوانب ، ثم نشرهـا ، فجعل ينظـر الى الصورة التى فيهـا ويتأملهـا ثم أقبل على هشام بن العاص وأصحابه ، ثـم قال أتعرفون هـذه الصفة (كذا ولعلها الصورة) ؟ فلمـا نظر المسلمون الى الصورة ، بكوا بكاء شديدا ، حتى علا بكاؤهم ونحيبهم !! فقال لهم هرقل : ما يبكيكم فقال هشـام : هـذه الصورة ، صورة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وآله ، كأنا نراه بين أيدينا بنعته وصفته !! فقال هرقل : بدينكم، انها صورة نبيكم عليه السلام ؟ فقال المسلمون : هذه صورة نبينا كأنا نراه حيا بين أظهرنا ، ولكن ، من أين هـذه الصورة أيهـا الرجل (٤٨) ؟ فقـال هرقل: اذن أخبركم أن آدم عليه السلام سأل ربه تبارك وتعالى أن يمن عليه بصفة أولاده من النبيين المرسلين خاصـة ، فأعطاه الله تبارك وتعالى ذلك ، وبعث اليه بصفاتهم فى نمط من ديباج أخضر ، فلم يـزل ذلـك

---

(٤٧) صلت الجبين : ذوجبين بارز ، واضح ، فى سـعة وبريق . اللسـان (صلت) ٣٥٨/١ .

(٤٨) انظر تعليقنـا بالحاشية رقم ٤٤ ص ٢٧٢ .

النمط فى تابوت آدم عليه السلام ، يعرضه على أولاده كل جمعة مرة فلما توفى آدم عليه السلام ، صار التابوت الى شيث ، ومن شيث الى أنوش ، ثم توارثه قوم بعد قوم ، حتى انتهى ذلك الى ذى القرنين ، فاستخرج هذه الصورة من خزانة آدم عليه السلام ، وتوارثها آباؤنا حتى صارت هذه الصورة الينا . والله ، لقد وددت أن نفسى تطيب بترك هذا الملك حتى أخرج معكم ، وأكون عبدا لأميركم ، اذ كنتم رأيتم هذا النبى وشاهدتموه ، ولكن نفسى لا تطيب بترك ما أنا فيه من هذا الملك . والله لقد خبرنا المسيح عيسى بن مريم فى الانجيل، وأمرنا أن نؤمن بالنبى الامى صاحب الجمل والمدرعة والهراوة والنعلين والعمامة ، الأنجل العينين ، المقرون الحاجبين ، الصلت الجبين ، الواضح الخدين ، ولكن يأبى لى النعمة والسرور الا التمادى فى الغرور !! .

قال : ثم أمر لهشام بن العاص وأصحابه بجوائز سنية ، فأبوا أن يقبلوها منه ! ثم خرجوا من عنده واستووا على رواحلهم وساروا حتى صاروا الى أبى عبيدة بن الجراح ، فخبروه بما كان من أمر جبلة بن الأيهم وأمر هرقل ملك الروم . فقال أبو عبيدة « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » (٤٩) .

ومما لا ريب فيه — بعد ما عرضناه من صور ونماذج — أن ابن أعثم الكوفى مؤلف يتمتع بخيال محلق ، لا يعترف بالحدود والحواجز بين الممكن وغير الممكن فى أعراف الناس ، وحين يطلق لنفسه العنان، يندفع وراء خياله فى أى اتجاه يجمح اليه ! ولذلك فهو لم يقنع بما صوره واصطنعه حول أسطورة الصور (الالهية) لجميع النبيين المرسلين من أولاد آدم عليه السلام ، تلك الصور أو الأنماط الحريرية

---

(٤٩) سورة البقرة : الآية ٧ — والقصة فى فتوح ابن أعثم ١/١٢٦ — ١٣٢ .

التى ظلت ملكيتهـا تنتقل من أبينا آدم حتى صارت تحت يـدى هرقل ملك الروم !! لم يقنـع صاحبنا بذلك ، وانمـا ايتكـر صـورة أخرى، لا تقل فى غرائبهـا وعجائبهـا عمـا رأيناه خلال لقـاء هشـام بن العاص ورفاقه لملك الروم فى أنطاكية ، وكان ذلك فى عهـد أبى بكـر الصديق رضى الله عنه .

وأما الصورة الأخرى المبتكرة ، فكانت فى عهـد عمر بن الخطاب، ولم تكن فى أنطاكية ، وانمـا فى العاصمة الكبرى القسطنطينية ، ولم تكن فى بلاط هرقل ، وانمـا فى قصر أمير غسانى سابق ، يعيش على ذكرى الماضى الذى كان قبل ظهور الاسلام وانتشاره فى بلاد الشام ، ولقـد جمح الخيـال بابن أعثم جماحـا شديدا حتى جعل هـذا اللاجىء السياسى العربى أعلى منزلة من الامبراطور ذاته من حيث كثرة العبيـد والحشم الواقفين على بابه ، يراهم الداخل قصر جبلة ولا يرى أمثالهم على باب القصر الامبراطورى ! ؟ ثم .. نفسـح المجال للقصة الجديدة ، ولعلنا نستطيـع أن نستنتج من مضمونهـا ما يلقى ضوءا أقوى على مغزاهـا الدافـع الى كتابتهـا .

قال ابن أعثم بعد أن عرض قصـة اسلام جبلة بن الأيهم الغسانى، ثم نكوصـه وارتداده عن الاسلام ، وهروبه الى القسطنطينية ، حيث تنصرهو وحاشيته أمام هرقل ، الذى فرح به فرحـا شديدا ، ورأى أنه بذلك قـد فتح فتحا عظيما ، وجعل جبلة من خواصه ، وجعله وزيره وصاحب أمره ، وهيأله المقـام فى أرفـع المنازل وأجلهـا !! .

قال : ودعا عمر بن الخطاب بحذيفة بن اليمان ، فكتب معه كتابا الى ملك الروم يدعوه الى دين الاسلام ، ويرغبه .. فسـار حذيفـة من المدينـة الى الشـام ، ثـم صار من أرض الشـام الى أرض الروم ، وعلمت الروم أنه رسول ، فكانوا يبذرقونه (٥٠) من موضـع الى موضع

---

(٥٠) أى يحرسونه ، والبذرق هم الحراس والخفر . وهى كلمة فارسية الأصـل (معربة) . اللسان (بذرق) ١١/٢٩٤ — ٢٩٥ .

حتى بلغ القسطنطينية ، ثم دخل على هرقل ، فدفع اليه الكتاب ، وأبلغه رسالة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فأبى هرقل أن يجيب الى شىء من ذلك ! ثم أقبل على حذيفة فقال له : يا عربى ، هل أتيت ابن عمك هذا الذى جاءنا راغبا فى ديننا ، زاهدا فى دينكم ؟ فقال حذيفة : لا ما أتيته بعد ، فقال هرقل : فأته فانظر الى ما هو عليه ، فلعل قلبك يصبو الى ما صبا اليه ! .

قال حذيفة : فخرجت من عند هرقل ، حتى أتيت باب جبلة ، فلم أكن رأيت بباب هرقل ما رأيت بباب جبلة من العبيد والحشم !! ثم استأذنت عليه ، فأذن لى فدخلت عليه ، فاذا هو جالس على سرير من جوهر الزجاج (؟) ، وللسرير أربعة أركان من الذهب ، وأربع قوائم من الفضة ، وعلى رأسه تاج من الذهب كثير الزبرجد والياقوت ! قال : واذا هو أصهب ذوسبال وعثنون طويل (٥١) ، واذا قد وخطه الشيب ، وقد أمر بالذهب الأحمر فسحل ورمى فى لحيته (؟) وقد استقبل عين الشمس بوجهه ، فما رأيت منظرا أبهى ولا أحسن منه !! .

قال حذيفة : فلما رآنى حيانى ورحب بى وأدنانى ، ثم انه عاتبنى على تركى النزول عليه ، ثم سألنى عن أمر الناس ، وألح على فى المسألة عن عمر بن الخطاب خاصة ، فجعلت أخبره بما أرجو عطفه ، ورجوعه الى دين الاسلام ، فرأيته وقد تنفس الصعداء ، وعرفت الحزن فى وجهه ! ثم قال : اجلس يا حذيفة ! فجلست على شىء لم أتبينه بديا ، فلما تأملت ، فاذا هو كرسى من ذهب ! قال حذيفة : فانحدرت عنه ، وتبسم جبلة ، ثم قال : اذا طهرت قلبك فلا تبال ما لبست ، وعلام جلست ! فقلت : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(٥١) يصف هيأته فيقول : ان له لحية كثيفة طويلة حمراء ضاربة الى السواد — راجع ابن منظور : اللسان (مواد صهب ، سبل ، عثن) ١٩/٢ — ٢٠ ، ٣٤٢/١٣ — ٣٤٣ ، ١٤٨/١٧ :

كان يكره الذهب ، وقد نهى عنه ، ولكن ، ويحك ياجبلة ! ما الذى أخرجك عن قومك وملكك وبلادك ، بعـد الذى كان منك من الاسلام ، والحج الى بيت الله الحرام وقراءة القرآن ؟ •

فقال : ويحك يا حذيفة ! أو ما بلغك الذى كان من أمـر عمر ؟ أراد أن يقتص منى لرجل من السوقة !! •

فقلت : بلى ، لعمرى لقـد بلغنى ذلك ، وهـذا الاشعث بن قيس الكندى ، وطليحة بن خويلد الأسدى ، قـد كانا أسلما ، ثـم رجعا عن دين الاسلام ، ومنعا الزكاة ، وحاربا وقتلا من المسلمين ثـم انهمـا رجعـا تائبين الى دين الاسلام ، قبل ذلك منهمـا ، فقـال جبلة : ذر عنك هـذا يا حذيفة ! •

ثم أشار الى خادم واقف ببن يديه ، فخرج الخادم ، ولـم أشعر الا وغلمان قد أقبلوا يحملون صناديق الاطعمة حتى وضعت ، ثم وضعت مائدة من ذهب بين يدى سريره ، فنزل عن السرير ، وجلس على بساط بين يدى السرير ، ثـم دعانى ، فاستعففت من ذلك ، وأن آكل على مائدة من الذهب ، فأمـر لى بمائـدة من الخلنج (الخشب) فوضعت بين يدى ، ثـم سعى الينـا بكل حار وبارد من الطعـام ما رأيت ولا سمعت بمثله ! فكان يوضع بين يديه صحفة من ذهب ، ويوضع بين يدى صحفة من خلنج ، أوجام من قوارير وفيه من ذلـك الطعـام الذى يوضع بين يديه • ثـم أتى بالخمر ، فقلـت لـه : ان رأيت أن تعفنى من دورها على المائدة ! ففعل ، ثـم رفعت المائدة ، وأتى بالوضوء (يقصـد ماء الغسـيل) ، فقـدم اليه طشت من ذهب ، فلما أخذ فى غسـل يده ، قمت ، فغسلت يدى ناحية من الدار عـلى الأرض (؟ !) أو قال : فى بركة ماء كانت فى الدار ، ثـم رجعت الى موضعى فجلست فيه ! •

— ثم ، فلتستعد أيهـا القارئ الكريم لاستقبال هذا المشهد المثير من قصـة هذا اللقـاء ، فهو مشهـد لا يمكن الا أن يكون من مشاهـد « ألف ليلة وليلة » التى توصف بأنهـا « من وراء العقل » !! .

قال : فدعا بقـدح الى الطول ما هو ، فشرب فيه [٥٢] خمسـا أو ستا — أعد ذلك عليه — ثـم أشار بعينه الى خادم لـه واقف بين يديه ، فخرج الخادم ، فما كان بأسرع أن نظرت الى عشر جوار قـد أقبلن كأنهن التماثيل يحملن كراسى العاج والآبنوس ، مغشـاة بجلود النمور ، وجلود الجرو السمور ، حتى وضعت عن يمينه ويسـاره ، ثم نظرت ، واذا بعشر جوار عليهن الوشى والديباج المذهـب ، وهن يتبخترن فى الذهب والجوهر ، فأقبلن حتى جلسن على تلك الكراسى ، وعيدانهن فى حجورهن !! واذا بجارية أخرى قـد أقبلت ، وفى يدهـا اناء من ذهب مملوء بالمسـك والعنبر والكافور المسحوق ، وفى يدهـا اليسرى جام من فضة مملوء بماء الورد ، على رأسها طائـر أبيض ، كأنه الثلج بياضـا ، حتى وقفت بين يـدى جبلة ، ثـم صـفرت للطائر ، فانفض من فوق رأسهـا ، حتى سقط فى جام مـاء الورد ، فأخذ ما فيه بريش ذنبه وجناحه ثـم صفرت ثانية ، فطـار حتى سقط فى جام (اناء) المسـك والعنبر ، فأخذ ما كان فيه ، ثـم صفرت ثالثا فطار الطائر ، حتى سقط على صليب فى تاج جبلة ، ثـم جعـل يذر ما بريشه وجناحيه على تاج جبلة ورأسـه ووجهه ولحيته ، ثـم رجع الى موضعه ، وتنحت الجارية ! ؟ .

ثم دعا جبلة بكأس عظيم مترع بالخمـر فشربه ، فلمـا استوفاه

---

(٥٢) كذا ، محرفة ، والصواب أن تكون « منه » .

التفت الى الجوارى اللاتى كن عن يمينه فقال لهن : هاتن [٥٣] ، فأطربننى فخطفن عيدانهن ، واندفعن بصوت واحد ! وكان جبلة كلما سمع بيتا من الشعر ، فرح واستبشر وتهلل وجهه ، ثم قال : لله در قائل هذا الشعر ! ولله موضع قوم وصف ! •

ثم دعا بكأس مترع من الخمر ، فشربه ، فلما استوفاه ، التفت الى الجوارى اللاتى عن يساره ، فقال : هاتن [٥٣] ، فأحزننى ! فحركت الجوارى أوتار عيدانهن ، وأمسكن من ضرب عيدانهن ! فبكى جبلة ، حتى تحدرت دموعه على لحيته وخده ! واذا بجارية قد أقبلت ومعها منديل من ديباج أو حرير فمسحت وجهه ، ولحيته ، ثم تنحت !•

قال حذيفة : فأقبل على جبلة فقال : ياحذيفة ، أتعرف هذه المنازل اللاتى ذكرن (كذا) هؤلاء الجوارى ؟ فقلت : أعرف بعضها وأنكر بعضها ! فقال : هذه والله منازلنا بالغوطة من أرض دمشق ! ولكن، هل تعرف الشعر الأول والثانى ؟ فقلت : لا • قال : هذا شعر حسان ابن ثابت الأنصارى [٥٤] !؟ كان كثيرا ما يزورنا فى سالف الدهر ! قال حذيفة : فقلت : ما أكثر ذكره لك ! فقال : ويحك ، أيعيش حسان ؟ [٥٥] فقلت : نعم ، وقد كف بصره فليس يهتدى برا ولا بحرا [٥٦] (؟) • قال : فدعا بخمسمائة دينار ، وخمس ديباجات

---

(٥٣) خطأ ، والصواب ، أن يقول : هاتين .

(٥٤) هكذا جاء النص فى الكتاب ، وهى سقطة من سقطات ابن أعثم العديدة فى فتوحه . والذى من المؤكد أن جبلة لا يعرف حسان بن ثابت الأنصارى ، لأن هذه النسبة قرآنية ايمانية اسلامية ، لم يشهدها جبلة، وانما جبلة يعرف حسان بن ثابت الخزرجى اليثربى الجاهلى ..

(٥٥) توفى حسان بن ثابت الأنصارى سنة ٥٤ هـ ، بعد أن عاش مائة وعشرين عاما . ابن قتيبة : المعارف ص ٣١٢ ، والذهبى : سير أعلام النبلاء ٢/٥٢٢ .

(٥٦) كذا ورد النص ، وهو غريب جدا ، لأنه ليس من خلق الصحابة رضى الله عنهم أجمعين .

وخمسة أثواب حرير ، ومثلها بزيون [٥٧] ، فقال : أحب أن توصل هذه الى حسان . وأراد أن يأمر لى بمثلها فأبيت عليه ... ثم قال حذيفة : ثم صرت الى المدينة ، فحدثت عمر بن الخطاب رضى الله عنه بما كان من مرد هرقل ملك الروم على ، ثم حدثته بما كان من أمر جبلة بن الأيهم ![٥٨] .

ان أمثال هذا القصص وهذه التخيلات ، جديرة باهتمام الباحثين فى التاريخ الاسلامى ، ان طائفة من المصنفات التاريخية قد أدخل عليها بعض الأخبار التى يتعذر تصديقها والتسليم بها ، بل يتعذر اعتبارها جزءا من هذا التاريخ ، ولذلك فان من أجل مهام المؤرخين فى كل زمان : العمل المخلص فى سبيل تنقية وتخليص دواوين التاريخ الاسلامى مما علق بها وشوه وجهها من تلك الأقاصيص والأقاويل التى تجعل من تاريخنا مجموعة من حكايات التسلية والاثارة ، فلا يقبل عليه الا من أراد المتعة دون العظة والعبرة ودون المعرفة وتكوين الفكرة ! .

أ — وفى مقدمة ملاحظاتنا على هاتين القصتين اللتين قدمناهما آنفا ، نذكر : أن تاريخ الفتوح الاسلامية فى مصادره المعتبرة المعتمدة عند أهل النظر والتدقيق والتحرى من الباحثين ، يخلو تماما من الاشارة الى أى من هاتين القصتين الغريبتين ، سواء فى ذلك الاشارة الموجزة أو التفصيلية ، ولا تتحدث هذه المصادر عن أى سفارة اسلامية — رسمية أو غير رسمية — سوى تلك السفارة المشهور أمرها ، والوارد ذكرها فى جميع التواريخ ، وأعنى بها سفارة دحية بن خليفة الكلبى — رضى الله عنه — الذى أوفده النبى صلى الله عليه وسلم

---

(٥٧) الديباج : ثوب من الحرير الخالص . والبزيون : هو السندس ، أو هو رقيق الديباج . اللسان (دبج ، بزن) ١٦/١٩٧ ، ٣/٨٦ — ٨٧ .

(٥٨) اقرأ القصة بتمامها فى فتوح ابن أعثم ١/٣٠٢ — ٣١٠ .

الى هرقل ملك الروم — بعد صلح الحديبية سنة ٦ هـ — بكتاب منه ، يدعوه فيه الى الدخول فى الاسلام ، ويحذره من رفضه هــذه الدعوة ، ومن الصد عن سبيل الله ، بمنــع رعاياه من اعتناق هــذا الدين (٥٩) .

ب — ان ابن أعثم الكوفى يربط ربطا مباشرا بين سفارة هشــام ابن العاص ورفاقه الى جبلة وهرقل ، وبين موقعة اليرموك المشهودة ، ويجعلها خطوة تمهيدية تسبق القتال بين المسلمين وبين الروم وحلفائهم من نصارى الشام (٦٠) ، أما السفارة الثانية — سفارة حــذيفة بن اليمان — التى زعم ابن أعثم أن عمر بن الخطاب أرسلها الى ملك الروم يدعوه الى دين الاسلام ويرغبه فيه ، فلا مناسبة واضــحة لها اقتضتها ، أو جد أمر خطير فى العلاقات بين الطرفين ، أو ظهــرت بوادر تشير الى أن الامبراطور البيزنطى قد مال الى الاسلام !! كل ذلك لم يكن ، ولم يشر اليه ابن أعثم نفسه ! كل ما يمكن قولــه فى ذلك : ان صاحب الفتوح أورد قصة هذه الوفادة عقب ارتداد جبلة بن الأيهم عن الاسلام ، وتسلله عائدا الى القسطنطينية متنصرا ، ليكون فى حمى هرقل ! (٦١) فاذا جاز أن تكون هذه الحادثة مناسبة لارسال مبعوث بكتاب من أمير المؤمنين الى ملك الروم ، فانه لينبغى أن يتضمن هذا الكتاب احتجاجا شديد اللهجة — كما يقولون الآن — عــلى ايواء جبلة المعتدى الهارب قبل الاقتصاص منه ، وأن يتضمن كذلك طلبــا باعادة جبلة الى المدينة عاصمة الاسلام ! فليست هذه اذن مناســبة للدعوة الى الاسلام أو الترغيب فيه ..

ومن وجه آخر ، لابد من مراجعة سير حياة الصحابيين الجليلين ،

---

(٥٩) ابن هشام : السيرة النبوية ٦٠٧/٤ . خليفة بن خياط : التاريخ ص ٧٩ ، ٩٨ . الطبرى : تاريخ ٦٤٨/٢ — ٦٤٩ .

(٦٠) الفتوح ١٢٤/١ — ١٢٥ .

(٦١) الفتوح ٣٠٢/١ — ٣٠٤ .

اللذين نسب اليهما ابن أعثم أداء هاتين المهمتين الرسميتين « هشام ابن العاص ، وحذيفة بن اليمان » لعلنا نجد فيهما ما يؤيد — أو يشير الى — ما ذكره صاحب الفتوح متعلقا بهاتين الوفادتين ، فلم نجد شيئا ألبتة له علاقة بهما (٦٢) ، مما يؤكد فى النهاية أن كتاب الفتوح لابن أعثم هو الوحيد الذى طلع علينا بقصة هاتين البعثتين الى هرقل وجبلة ، ولما كانت رواياتاهما خاليتين من أى سند أو شاهد يعضدهما ، فان الباحث لا يملك الا رفضهما بغير تردد !

وينبغى ، قبل أن نبدأ الحديث حول غريبة أخرى من غرائب ابن أعثم فى فتوحه ، أن نشير هنا الى رأى لأحد الكتاب ، أبداه فى مقال له باحدى المجلات العربية — غير المتخصصة — حول ما رآه وأطلق عليه تعبير « المفاوضات بين العرب المسلمين والروم ابان فتوح الشام فى ضوء ما ورد فى كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفى » (٦٣) حيث يقول الكاتب: : « ويهمنا فى هذا المقال ، روايات انفرد صاحب الكتاب بذكرها ، حول مفاوضات جرت بين المسلمين والروم ابان فتوح الشام ... » الى آخر ما كتبه فى هذا الاطار (٦٤) ..

---

(٦٢) راجع ترجمة هشام بن العاص بن وائل السهمى القرشى المتوفى يوم أجنادين أو يوم اليرموك سنة ١٣هـ لدى : ابن سعد : الطبقات ١/٤/ ١٤٠ — ١٤٣ . ابن قتيبة : المعارف ص ٢٨٥ — ٢٨٦ ، ابن عبد البر : الاستيعاب ١٥٣٩/٤ . ابن الأثير : أسد الغابة ٤٠١/٥ — ٤٠٢ . الذهبى : سير أعلام النبلاء ٧٧/٣ — ٧٩ — وترجمة حذيفة بن اليمان بن جابر العبسى اليمانى ، المتوفى عام ٣٦هـ عند خليفة بن خياط : الطبقات ص ٤٨ ، ١٣٠ ، ابن عبد البر : الاستيعاب ٣٣٤/١ — ٣٣٥ ، ابن الأثير : أسد الغابة ٤٦٨/١ — ٤٧٠ . الذهبى : سير أعلام ٣٦١/٢ — ٣٦٩ .

(٦٣) هذا هو عنوان المقال المنشور بمجلة الوعى الاسلامى فى عددها رقم ١١٤ لسنة ١٣٩٤ هـ بقلم الأستاذ احسان صدقى العمد ..

(٦٤) الوعى الاسلامى — العدد ١١٤ ص ٨٨ وما يليها .

وبطبيعة الحال الذى بينا آنفا ، نحن مع الكاتب فى أن ابن أعثم قد انفرد حقا بما جاء به حول ما سماه الكاتب « المفاوضات بين العرب المسلمين والروم » ، لكن هذا الانفراد هو الذى يسقط قيمة ما أتى به ابن أعثم ، كما أسلفنا وبالنقد الذى أوضحنا . ومن ناحية أخـــرى لابد أن نتساءل عن مضمون المفاوضات فيما ذكره ابن أعثم ؟ هل تحقق هذا المضمون فيما عرضه فى الصفحات السابقة ؟

العير الذى تكلم أمام كسرى :

مما لا ريب فيه أن من يقرأ كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفى ، سيكتشف أن هذا المؤرخ مولع الولع كله بالربط بين الحوادث التاريخية ، وبين الرؤى والخيالات التى ينســـجها ، ثم ينسبها الى الشخصيات المحورية فى المناسبات التى يؤرخها ، ويجعل من تلك الرؤى والتخيلات ، حلقات مكملة ، وفصولا متممة لما يعرضه من تواريخ ، وهذا مما ينفرد به ابن أعثم عن سائر المؤرخين السابقين له ، والموجودين فى عصره ، واللاحقين من بعده ، فهو — على سبيل المثال — حين تهيأ للحـــديث المفصل عن استئناف المعارك بين المسلمين وبين الفرس عقب استخلاف عمر رضى الله عنه (١٣هـ) ، قدم لذلك بمقدمة حشاها حشـــوا بهذا الخيال الذى يتسلط عليه ، ويستبد به فى عرضه للتاريخ ! فيقول تحت هـــذا العنوان : « ذكر تحـــرك الفرس بالعراق بعد فتح دمشق » : وتحركت الفرس بالعراق ، وتكاثرت على المثنى بن حارثة بن ســـلمة الشيبانى ، وعلى من معه من المسلمين ، وخرج كسرى ملك الفرس ذات يوم الى الصيد ، فعرض له عير وحشى ، فاتبعه كسرى ، وجرى العير بين يديه جريا شديدا ، وسار كسرى فى طلبه ، حتى اذا أقفرت به الأرض ، وانفرد من عسكره ، عطف عليه العير ، وكلمه — باذن الله تعالى — وقال له : ويلك يايزدجرد ! آمن بربك تبقى (كـــذا) لك نعمتك ، ولا تكفر فيزول ملكك !؟ قال : ففزع يزدجرد فزعا شديدا ،

ثم رجع الى قصره منكسرا ، فدعا بمؤيدته (لعلها موابذته) وأساورته فخبرهم بما سمع من العير ! فقالوا : ما نظن هذا الا حدثا يأتيك من هؤلاء العرب الذين نزلوا بساحتك ! •

تلك واحدة من تخيلاته ، وأما الثانية فهى قوله بعد ذلك مباشرة ، واستكمالا للصورة : ورأى المثنى بن حارثة فى منامه رؤيا هالته وأفزعته، فلما أصبح بعث الى وزرائه [٦٥] ، فجمعهم اليه ، ثم قال لهم : اعلموا أنى قد رأيت رؤيا •• فقالوا : وما الذى رأيت أيها الأمير ؟ قال : رأيت كأن (رجلا) من أحسن الناس قد أقبل ومعه لواء ، فدفعه الى ، وقال : ذل أهل فارس كذلة الهجارس [٦٦] ، وزال ملكهم ، وحان هلكهم ، فارحل ناجيا ، وامض سائرا ، واستخبر خبرا ، واستنصر عمرا ؟ وأنا أظن ملك الفرس قد زال ، وعزهم قد حال • قال : فقالت له المشايخ من قومه : صدقت رؤياك ، ونامت عيناك ، وسر الى عمر ! وركب المثنى بعيرا له وسار مع جماعة من أصحابه يريد المدينة الى عمر بن الخطاب ، فبينا هو يسير ، اذ غلط عن الطريق هو ومن معه فبينما هو كذلك ، اذ سمع هاتفا يهتف من الجادة ، وهو يقول أبياتا من جملتها :

والفرس قد خذلت رايات نصرتها   وان ملك بنى ساسان قد مرجا

فاتبع المثنى الصوت حتى وصل الى الطريق ، ثم سار مجدا ، حتى قدم على عمر بن الخطاب رضى الله عنه !! [٦٧] وتلك كانت الثالثة من تخيلات ابن أعثم فى هذه المقدمة الوجيزة لحديث الفتح الاسلامى فى العراق فى عهد عمر بن الخطاب •

---

(٦٥) وهل كان للمثنى ، أو حتى لأمير المؤمنين عمر وزراء فى ذلك العهد ؟

(٦٦) الهجارس : جمع هجرس ، وهو الثعلب أو ولد الثعلب ، وهو أيضا القرد . الجوهرى : الصحاح ٣/٩٩٠ ، واللسان ٨/١٣٣ (هجرس) .

(٦٧) الفتوح ١/١٦١ — ١٦٣ .

ان أمامنا مصـــادر التاريخ ، تكشف لنا عن مكنوناتها جميعا ، وها قد رجعنا اليها ، نستوضح هذا الذى قاله ابن أعثم أو لعلنا نعثر فيها على ما قد يشهد له ، أو حتى يشير الى ما يشبهه ، فلم نجد منه شيئا . وكأنها بذلك تريد أن تقول لابن أعثم ولنا : ومتى كانت مثل هذه الأمور العظام — أمور الجهاد والفتح فى سبيل الله — ترتكـز أو تعول على الرؤى والخيالات وأحاديث الهواتف التى يهيؤ للتائهين فى الفلوات سماعها ؟ وهل كان يمكن للمسلمين الذين حملوا لـــواء الدعوة الى الله سبحانه ، وانطلقوا يمهدون لها الســـبيل ، ويزيلون من طريقها العوائق والعقبات ، هل كان يستطيع هؤلاء المجاهدون أن ينتصروا فى معركة واحدة ، لو أنهم عولوا على تلك الرؤى والهواتف ، وترقبوها لتبشرهم بالنصر والظفر ، أو لتقول لهم تريثوا وانتظروا ، فليس هذا يوم نصركم !؟

ان ما حدثتنا به مصادر التاريخ المعتمدة نصوصها وأخبارها فى هذه المناسبة بالتحديد ، لهو أبعد ما يكون عن فكر ابن أعثم وخيالاته وأحلامه وهواتفه ، لأنه حـــديث الواقـــع والحقيقة ، ومجمله : أنه لما أبطأ على المثنى وجنده بالعراق أخبار أبى بكر والمسلمين بالمدينة ، رأى المثنى أن يشد رحله الى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليعرض عليه موقف المسلمين والفرس فى الجبهة العراقية ، وليستأذنه فى الاستعانة بأولئك الذين ظهرت توبتهم وحسنت نياتهم من المرتدين ، فانهم أنشط الى القتال من غيرهم . فقدم المدينة وأبو بكر قد اشتد به المرض ، فأخبره الخبر ، فاستدعى عمر ، وقـــال له : انى لأرجو أن أموت من يومى هذا ، فاذا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى ، ولا تشغلنكم مصيبة عن أمر دينكم ووصية ربكم ، فقد رأيتنى متوفى رسول الله ﷺ ، وما صنعت ولم يصب الخلق بمثله — ولن يصابوا — واذا فتح الله عى أهل الشام فاردد أهل العراق الى العراق فانهم أهله وولاة أمره ، وأهل الجرأة عليهم ! ثم توفى أبو بكر رضى الله عنه ليلا ، فدفنه

عمر ، وندب الناس مع المثنى •• ثم عقبوا بقولهم : فهذا حديث العراق الى منتهى خلافة أبى بكر ! [٦٨] وهو تعقيب خطير ، يقطع الطريق على كل من يريد التزيد والتزييف ، بل كأنه موجه الى ابن أعثم بصفة خاصة ، ومن لف لفه من المصنفين !؟

لقاء فى جبال حلوان :

ومن غرائب ابن أعثم التى يبرهن بذكرها على أنه كان يفتعل الأقاصيص وينسج الخيالات ، ثم يودعها كتابه دون حرج ، وبغير استحياء من علم ، ويسجلها فى فتوحه على أنها جزء من ذلك التاريخ الاسـلامى !

فاذا ما أصبح الكتاب فى أيدى الناس — ولا سيما غير المتخصصين منهم — وأقبلوا على قراءته ، فوجدوا فيه هذا القصص ، فلنا أن نتوقع أسوأ النتائج حينئذ ، ولذلك فلابد من هذا البيان للناس ، ولابد من تعقب أمثال هؤلاء المصنفين المغرضين وتعقب كتبهم لبيان عوارهـا وفسادها ، حتى لا يقع راغبو المعرفة والباحثون فى هـذه الشراك التى ينصبها من لم تصف نفوسهم وتطهر قلوبهم من الأحقاد وأدران التعصب المقيت !

من غرائب ابن أعثم هذه القصة التى يقول فيها : « ذكر ما كان من زريب بن برثملا وكلامه للمسلمين ونضلة بن معاوية الأنصـارى »، قال ثم دعا سعد بن أبى وقاص برجل من الأنصار يقال له نضلة بن معاوية [٦٩] ، فضـم اليه ثلاثمائة فارس ، وأمره بالغارة على جميع

---

(٦٨) راجع كلا من : الطبرى : تاريخ ٤١٣/٣ — ٤١٤ . ابن الأثير : الكامل ٤١٦/٢ ، النويرى : نهاية الأرب ١٧٩/١٩ — ١٨٠ . ابن كثير : البداية والنهاية ٢٦/٧ .

(٦٩) لم أعثر على ذكر لهذا الاسم فى كتب الصحابة : طبقات ابن سعد ، والجرح والتعديل لابن أبى حاتم الرازى ، وطبقات خليفة بن خياط والاستيعاب لابن عبد البر ، واسد الغابة لابن لأثير ، والاصابة لابن حجر

رساتيق حلوان [٧٠] ، فمضى نضلة حتى انحاز الى رساتيق حلوان فلم يترك لهم (لأهلها) باعثة ولا راعية الا استاقها [٧١] .

قال : فبينا المسلمون يسوقون الغنائم بين جبلين من جبال حلوان ، يريدون سعد بن أبى وقاص ، اذ حضرتهم الصلاة — صلاة العصر — فصرفوا الغنائم الى سفح الجبل ، وتقدم نضلة بن معاوية يؤذن ، فلما قال : الله أكبر الله أكبر ، اذا بهاتف يهتف من الجبل وهو يقول « كبرت تكبيرا يا نضلة ! » ، فلما قال : أشهد أن لا اله الا الله ، أجابه الهاتف : « أخلصت اخلاصا يا نضلة ! » فلما قال : أشهد أن محمدا رسول الله ، أجابه الهاتف وهو يقول : « ذلك نبى الرحمة بعث لا نبى بعده ! » فلما قال : حى على الصلاة ، أجابه الهاتف : «فريضة فرضت ، فطوبى لمن حفظها ، وواظب عليها ! » فلما قال : حى على الفلاح ، أجابه الهاتف : « الفلاح لأهل الفلاح ، والصلاح لأهل الصلاح !! » وفرغ نضلة من أذانه ، فلما أخذ فى الاقامة ، وقال : قد قامت الصلاة ، أجابه الهاتف وهو يقول « البقاء لأمة محمد عليه السلام ، وعلى رءوسهم تقوم الساعة ! » وصلى نضلة بالمسلمين [٧٢] ..

فلما فرغ من صلاته ، وثب قائما على قدميه ، ثم نادى بأعلى صوته : أيها الهاتف بالخير والكلام ... ، انا قد سمعنا كلامك وفهمنا جوابك ، فان كنت من ملائكة الله فصلى الله عليك ، وان كنت من الجن ، فمرحبا بك وأهلا ، وان كنت من الانس ، فابرز الينا حتى نراك فانا وفد

---

(٧٠) رساتيق : جمع رستاق بمعنى القرية أو الأرض المزروعة (فارسى معرب) — حلوان : احدى مدن العراق . ياقوت : معجم البلدان ٢/٢٩٠

(٧١) هكذا ورد النص ، وهو تصحيف من الناشر ، والصواب أن يقول : ثاغية (يعنى شاة) ، وراغية (يعنى ناقة) .

(٧٢) المفروض أنهم ثلاثمائة ، اليس فيهم من يحسن الأذان والاقامة سوى نضلة — القائد والامام فى الصلاة ؟!

الله ، ووفد رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وآله ، ووفد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه [٧٣] . فلم يشعر نضلة بن معاوية ومن معه من المسلمين ، الا وشيخ قد برز لهم من شعب الجبل ، أبيض الرأس واللحية ، الى الطوال ما هو (طويل) عليه ثوبان من صوف أبيض ، وقد حسر عن هامة له عظيمة ، وفى يد عصا (عكاز) يتوكأ عليها ! فقال نضلة : السـلام عليك ورحمة الله وبركاته ، من أنت يرحمك الله ؟ فقال : أنا زريب بن برثملا — وصى العبد الصالح عيسى بن مريم عليه السلام ، دعا لى بالبقاء الى وقت نزوله من السماء !! فاقرأوا على عمر بن الخطاب منى السلام ، وقل له : فليثبت على ما هو عليه ، ويقارب ويسدد ، فقد اقترب الأمر ! وان ظهرت فى أمة محمد صلى الله عليه وسله وآله ، خصال لا خير فيها ، فالهرب الهرب ! قال نضلة بن معاوية أخبرنا رحمك الله بهذه الخصـال ، لنعرف بها ذهاب ديننا ، واقبال آخرتنا ! فقال : نعم ، اذا اكتفت رجالكم برجالكم ، ونساؤكم بنسائكم !؟ وركن علماؤكم الى أمرائكم فأتوهم بالذى يحبون ، وكثر طعامكم ، فلم يزد سعركم الا غلاء ، وكان مستشاركم يومئذ عبيدكم وخصيانكم ، وقتل البرىء بغير ذنب ليوعظ به العامة ، وقل العطـاء فلم يأخذه الا الأسقاط والسفل ، وقلت الصدقة فيكم حتى يطـوف المسكين فيكم من الحول الى الحول فلا يصيب عشرة دراهم ، واتخذتم القرآن ألحانا ومزامير ، وزخرفتم المساجد وطولتم المنار ، وكثـرت بينكم شـهادات الزور .... المطر ، فلم يكن الا غيظا ؟ واستحللتم الزنا ، وأكلتم الربا ، فاذا شهدتم ذلك فتوقعوا ذهاب الصولة وغضب ربكم !؟

ثم رجع زريب بن برثملا الى موضعه من الجبل ، وسار المسلمون بالغنائم الى سعد بن أبى وقاص ، فخبروه بما كان من أمر زريب .

---

(٧٣) يقول « رضى الله عنه » ، وهذه القصة فى حياة عمر ، وابان ولاية سعد على جيوش الفتح فى العراق !

فكتب سعد ذلك الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وخبره أنه مقيم بأرض حلوان • فكتب عمر : لله در أبيك يا ابن أبى وقاص ! انظر اذا ورد عليك كتابى هذا فسر أنت بنفسك حتى تأتى ذلك الجبل ، فتفحص لى عن أمر هذا الرجل ، وتكتب لى خبره ، والسلام •

فلما ورد كتاب عمر الى سعد ، ركب الى ذلك الموضع الذى نظروا فيه زريب بن برثملا ، فأذن سعد ، وأمر الناس بالأذان من كل جانب ، فلم يجبهم أحد ، ثم أمر بالخيل فطافت فى جبال حلوان أياما كثيرة يهتفون بزريب بن برثملا ، ويطلبونه ، فلم يقفوا له على خبر ، فرجع سعد الى حلوان (٧٤) •••

انتهت أقصوصة ابن أعثم ، والآن ، الى نقدها وبيان حقيقتها • وأبادر فأقول : ان لهذه القصة شاهدا أو بعبارة أدق « شويهدا » ، وقد وجدته فى موضعين لدى ابن حجر العسقلانى (٧٥) ، أشار اليه والى رواته وما ورد بشأنهم من نقد وجرح ، فى أحدهما ، وفى الموضع الثانى ذكر القصة كما وصلت اليه باسنادها ، وهى عنده بالنص التالى :

« وروى الباوردى (٧٦) من طريق عبد الله بن معروف ، عن أبى عبد الرحمن الأنصارى ، عن محمد بن حسين بن على : أن سعد بن أبى وقاص لما فتح حلوان ، مر رجل من الأنصار يقال له : جعونة ابن نضلة بشعب ، فحضرت الصلاة ، فتوضأ ، ثم أذن فأجابه صوت فنظر ، فلم ير شيئا ، فأشرف عليه رجل من كهف ، شديد بياض الرأس واللحية ، قال : من أنت ؟ قال : أنا زريب بن ثرملا ، من

---

(٧٤) الفتوح ١/٢٨١ — ٢٨٤ •

(٧٥) الاصابة ٢/٨٨ • ٤/٨١ •

(٧٦) محمد بن سعد الباوردى (نسبة الى مدينة أبيورد فى خراسان) توفى عام ٣١٠ هـ ، له كتاب فى معرفة الصحابة — انظر اكرم ضياء العمرى : بحوث فى تاريخ السنة المشرفة ص ٦٢ •

حواريى عيسى بن مريم ، وقد أردت الوصول الى محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فحالت بينى وبينه فارس ، فأنا أشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، فانطلق جعونة فأخبر سعدا ، فكتب سعد الى عمر ، فكتب عمر : اطلب الرجل فابعث به الى ، فتتبعوا الشعاب والأودية ، فلم يروا له أثرا » (٧٧) .

ثم تعقب ابن حجر الخبر ورواته ، فقال : ورواه عبد الرحمن ابن ابراهيم الراسبى أحد الضعفاء (٧٨) ، عن مالك عن نافع عن ابن عمر — كما تقدم فى ترجمة جعونة بن نضلة (٧٩) ، ومن وجه آخر . ورواه أبو نعيم فى الدلائل ، من طريق زيد بن أسلم عن أبيه ، لكن فى اسناده النضر بن سلمة ساذان ، وهو متروك !! (٨٠) .

وهكذا يتبين لك بجلاء عدم سلامة هذا الشويهد ، الذى كان يمكن أن يعضد أصل القصة ومنبتها ، دون التفاصيل «الأعثمية» غير أن تهاوى الرواية التى أوردها ابن حجر ، لضعف أسانيدها وطرقها ، قد حكم على قصة ابن أعثم — بالتداعى والسقوط ما فى ذلك ريب ! من جهة ثانية ، بالرجوع الى المصادر التاريخية المبكرة مثل

---

(٧٧) الاصابة فى تمييز الصحابة ٨١/٤ .

(٧٨) الذهبى : ديوان الضعفاء والمتروكين ص ١٨٦ ، ووصفه فقال : « متهم » ! .

(٧٩) الاصابة ٨٨/٢ ، وترجم له أيضا : ابن أبى حاتم : الجرح والتعديل ٥٤٠/٢ .

(٨٠) قال ابن أبى حاتم فى هذا النضر كلاما يزرى به ، ويسقط كل قيمة لمروياته ، قال : سألت أبى عنه فقال : كان يفتعل الحديث ، ولم يكن بصدوق ، وسمعت اسماعيل ابن أبى أويس يذكر شاذان بذكر سوء ، وقال لى عبد العزيز الأويسى واسماعيل بن أبى أويس : ان شاذان أخذ كتبنا ، فنسخها ولم يعارض بها ، ولم يسمع منا ، وذكراه بالسوء .. الجرح والتعديل ٤٨٠/٨ ، وقال الذهبى عنه كلاما بهذا المعنى — ديوان الضعفاء والمتروكين ص ٣١٧ ..

تاريخ الطبرى ، والبلاذرى ، بحثا عن هـذه القصـة ، فى ثنايا أخبار فتوحـات سعـد ابن أبى وقاص رضى الله عنه بالعراق ، فلم أجد لهـا ذكرا على الاطلاق ، فثبت بذلك أن قول الحافظ ابن حجر العسقلانى: « روى ابن جرير فى التاريخ » [٨١] أى روى هـذا الخبـر — موضع البحث — قوله هـذا ليس الا وهمـا ، لأنه لا وجود لهـذا الخبـر فى تاريخ الرسـل والملوك •• وقد سبق أن نقبنا عن رجـل باسـم «نضلة ابن معاوية الأنصارى » فلم نجده بين قوائم كتب الطبقـات المتداولة ، وهذا الرجل هو الذى رأى « زريب » وكلمه ، وسمع منه تلك القائمة الحافلة التى يؤذن وقوعهـا بذهـاب الدنيـا ، واقبال الآخرة ! وبتعبير آخـر : ان بطل قصة ابن أعثم شخص لا وجود له الا فى مخيلة صاحب الفتوح ، فقصته اذن فى لحمتهـا وسدأها من وحى خياله ! ؟ •

واذا كان لنا من تعقيب أخير على هذه القصـة ، فاننا نعتقـد أن ابن أعثم كان يود أن يعبر عن مشـاعر حبيسة فى صدره تجاه الدولة العباسية ، فوجـد السبيل الى ذلك التعبير ، على لسـان ذلك الحوارى الذى لا يستطيع أحد أن يتهمه بالتشنيع على الدولة والخلفـاء والحكام والمستشارين فى القرن الثالث وأوائـل القـرن الرابع الهجريين !؟ وتأمـل معى ما أجراه على لسـان زريب من قوله « وركن علماؤكم الى أمرائكم ، فأفتوهم بالذى يحبون ، ••• فلم يزد سعركم الا غـلاء ، وكان مستشاركم يومئذ عبيدكم وخصيانكم ، وقتل البرىء بغير ذنب ليوعظ به العامة ، وقـل العطاء فلم يأخذه الا الأسقاط والسفل ، وقلت الصدقة فيكم حتى يطوف المسكين فيكم من الحـول الى الحـول ، فلا يصيب عشرة دراهم ، واتخذتم القرآن ألحانا ومزامير ، وزخرفتم المسـاجد ، وطولتم المنار ، وكثرت بينكم شهادات الزور ••• واستحللتم الزنا ، وأكلتم الربا •

---

(٨١) الاصابة ٢/٨٨ •

ثم تأمل النتيجة ، تجدهـا غير ما نبه اليه وحذر منه ! يقول «فاذا شهدتم ذلك فتوقعوا ذهـاب الصوله وغضب ربكم » ، أى ليس فنـاء الدنيـا وقيـام السـاعة ، كما ذكر أولا !؟ انه اضطراب التخيـل الذى ينسى المؤلف ما كان يتحدث عنه فى البدأية ، فيتركه فى النهاية دون أن يدرى !! •

اختبار الذكاء قبل المعركة :

وفى عرضه لمقدمات قتال على رضى الله عنه للخوارج يوم النهروان، يأبى صاحب الفتوح الا أن ينفرد عن سـائر المؤرخين بقصـة ، لا يلبث — ولا يشك — من يقرأهـا أن يكتشف أنهـا من تأليف وصنعة من لم يشهد على بن أبى طالب ، ولا أبناءه ، ولا أحدا من أصحابه ، بـل انه لم يكن من رجال القرن الأول الهجرى على الاطلاق ! وأخشى أن أقول — تحوطـا — ان تلك القصـة بصياغتهـا ، وبمـا انطوت عليه من خصائص التعبير الفقهى ، والتفريع فى أحكـام العبادات على نحـو تفصيلى ، وألوان من المعلومات العامة ، وما يمكن أن نسميه اليـوم « اختبارات الذكاء » ، وهى جميعـا أمور دقيقة ، وفروع لـم يكن البحث قـد تناولها ، أو حتى تطرق اليهـا فى ذلك العصر ! أقـول : انها قصـة لا ينتمى مؤلفهـا الى القرن الثانى الهجرى ، فضـلا عن أن يكون من رجال عصر الراشدين ! •

وها هو ذا ابن أعثم الكوفى يعرض أمامنا قصته تلك ، فيبدأ بمـا لا بد أن يبدأ به ، وهو :

« ذكر كتاب على الى الخوارج »

بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله ، وابن عبده أمير المؤمنين، وأجير المسلمين ، أخى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابن عمـه ،

الى عبد الله بن وهب ، وحرقوص بن زهير [٨٢] المارقين من دين الاسلام .
أما بعد ، فقد بلغنى خروجكما واجتماعكما هنالك بغير حق كان لكماولا لأبويكما من قبلكما ، وجمعكما لهذه الجموع الذين لم يتفقهوا فى الدين ، ولم يعطوا فى الله اليقين . والزما الحق ، فان الحق يلزمكما منزلة الحق ، ثم لا يقضى الا بالحق ، ولا تزيغا فيزيغ من معكما من أخياركما ، فيكون مثلكما ومثلهم كمثل غنم نفشت فى أرض ذات عشب ، فرعت وسمنت ، وانما حتفها فى سمنها .
وقد علمنا بأن الدنيا كعروتين سفلا وعلوا ، فمن تعلق بالعلو نجا ، ومن استمسك بالسفل هلك ، والسعيد من سعدت به رعيته ، والشقى من شقيت به رعيته ، وخير الناس خيرهم لنفسه ، وشرهم شرهم لنفسه ، وليس بين الله وبين أحد قرابة « وكل نفس بما كسبت رهينة » [٨٣] . والكلام كثير وانما نريد منه اليسير ، فمن لم ينتفع باليسير ضره الكثير ، وقد جعلتمونى فى حالة من ضل وغوى ، وعن طريق الحق هوى ، خرجتم على مخالفين ، بعد أن بايعتمونى طائعين غير مكرهين ، فنقضتم عهودكم ، ونكثتم أيمانكم ، ثم لم يكفكم ما أنتم فيه من العمى وشق العصا ، حتى وثبتم على عبد الله بن خباب فقتلتموه ، وقتلتم أهله وولده بغير ترة كانت منه اليكم ولا دخل ، وهو ابن صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولن يغنى القعود عن الطلب بدمه ، فادفعوا الينا من قتله وقتل أهله وولده ، وشرك فى دمائهم ، ولا تقتلوا أنفسكم على عمى وجهل ، فتكونوا حديثا لمن بعدكم ! وبالله أقسم قسما صادقا ، لئن لم تدفعوا الينا قاتل صاحبنا عبد الله بن خباب ، لم أنصرف

---

(٨٢) عبد الله بن وهب الراسبى « ذو الثفنات » لأن طول السجود قد أثر فيها — والثفنة هى الركبة — قتل يوم النهروان . وكذلك قتل معه حرقوص بن زهير السعدى . راجع خليفة بن خياط : تاريخ خليفة ١٩٧ . الطبرى : تاريخ ٥/٧٤ وما يليها . ابن الأثير : الكامل ٣/٣٤ وما يليها .

(٨٣) سورة المدثر : الآية ٣٨ .

عنكم دون أن أقضى اربى • وبالله أستعين ، وعليه أتوكل ، والسـلام والرحمة من الواحـد الخلاق على النبيين ، وعلى عباده الصالحين ••

ثم طوى الكتاب ، وختمه ، ودفعه الى عبد الله بن أبى عقب ، وأرسله (٨٤) •

« مسير عبد الله بن أبى عقب الى الخوارج وما جرى بينهم من المناظرة »

قال ابن أعثم : فأقبل عبد الله بن أبى عقب الى الخوارج بالكتاب، حتى اذا صار الى النهروان ، تقـدم الى عبد الله بن وهب الراسبى ، وهو جالس على شاطىء النهروان ، محتب بحمـائل سيفه ، وحرقوص ابن زهير الى جانبه ، ورؤساء الخوارج جلوس حولهم (حولهمـا) ، فسـلم عبد الله بن أبى عقب ، ودفـع الكتاب الى عبد الله بن وهب ، فأخذه وفضه ، وقرأه عن آخره ، ثـم القاه الى حرقوص فقرأه ، ثم رفـع رأسه الى ابن أبى عقب ، فقـال له : لولا أنك رسول لألقيت منك أكثرك شعرا ! (٨٥) فمن أنت ؟ قـال : رجل من الموالى • قـال : من أى الموالى أنت ؟ قال : من موالى بنى هاشم • قال : انى أظنك من هذا الرجل بسبب — يعنى على بن أبى طالب • فقال : أنا رجـل من أصحابه • قال : أفحلال أنت أم لا ؟ قال : لا بل حرام دمى فى كتاب الله عز وجل • فقال : ما أراك تعرف كتاب الله ! قـال : بلى ، انى لأعرف منه الناسخ والمنسوخ ، والمكى والمدنى ، والسفرى والحضرى ! قال : وتعرف الله حق معرفته ؟ فقـال : نعم ، انى لأعرفه ولا أنكـره ، أومن بـه ولا أكفره • قال : وبماذا عرفته ؟ قال : برسوله وكتابه المنزل • قـال :

---

(٨٤) الفتوح ١٠٦/٤ — ١٠٨ . وهذا الكتاب ، وحامله من قبل على ، وهو عبد الله بن أبى عقب هـذا ، مما انفرد بذكرهما ابن أعثم الكوفى دون غيره من بقية مصادر هذا البحث .

(٨٥) عبارة غير واضحة وغير مفهومة ، ولابد أن بها خطأ . ولو كان هذا النص مسجلا فى مصدر آخـر لامكن اصلاحه وتقويمه هنـا .

صدقت ، فاصدقنى : ما تكون من على بن أبى طالب ؟ قال : أنا أخوه فى الاسـلام . قال عبد الله بن وهب : أو مسلم أنت ؟ قـال : أنا مسلم والحمـد لله . قال : وما الاسـلام ؟ قال له ابن أبى عقب : ان الاسلام عشرة أسهم ، خاب من لا سهم له فيهـا ، شهادة أن لا اله الا اللـه . وهى الملة (٨٦) . والصـلاة وهى الفطـرة ، والزكـاة وهى الطهـر ، والصـوم وهو الجنة ، والحج هو الشريعة ؟ والجهـاد وهو الغزو ، والأمر بالمعروف وهو الوفاق ، والنهى عن المنكـر وهو الحجة ، والطاعة وهى العصمة ، والجماعـة وهى الألفة . قـال : صدقت .

فخبرنى ما الايمان ؟ فقال : الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ونحن له مسلمون ، والرضاء بمـا جـاء من عند الله من سخط أورضى ، والجنة حق ، والنار حق ، وأن الله يبعث من فى القبور . فقال عبد الله بن وهب : أيهـا الرجل ، انـه حرم علينا دمك ، فخبرنى أعالم أنت أم متعلم (٨٧) ؟ قـال : متعنت أنت أم مسترشد ؟ قال : بـل مسترشد . قـال عبد الله بن وهب : فكـم الصلوات ؟ فقال : أما الفريضـة فانهـا خمس ومعهـا نوافل ، أفعن الفريضـة تسألنى أم عن النافلة ؟ فقـال : بـل عن الفريضـة أسألك ، فكم فى الفريضـة من ركعة ؟ قال : سبع عشرة ركعة ، وفيهـا : سبع عشرة مرة « سمع الله لمن حمده » (؟) ، وفيهـا أربعـة (أربع) وثلاثون سجدة ، وفيهـا أربـع وتسعون تكبيرة . قـال : صدقت ، فكم السنة ؟ قال : السنة عشر ، خمس منهـا فى الرأس ، وخمس فى الجسـد ، فأما اللواتى فى الرأس ، فالمضمضة ، والاستنشاق ، وقص الشـارب ، والسواك وفرق الشعر ، وأما اللواتى فى الجسـد ،

---

(٨٦) وأين الجزء الثانى من الشهادة « وأن محمدا رسول الله » ؟

(٨٧) من الواضح أن السياق لا يتضمن جوابا عن هذا السؤال ، ويبدو أنه سقط من النص .

فالختان وحلق العانة ، والاستنجاء بالماء ، ونتف الابط وتقليم الأظفار .. فقال عبد الله بن وهب : صدقت أيها الرجل (٨٨) .

ولكن خبرني : كم يجب فى خمس من الابل صدقة ؟ فقال ابن أبى عقب : فى خمس من الابل شاة وفى عشر شاتان ، وفى خمس عشرة ثلاث شياه ، فاذا بلغت عشرين ففيها أربع شياه ، الى أن تبلغ خمسا وعشرين ، فإذا زادت واحدة ففيها بنت مخاض (٨٩) ، فان لم توجد بنت مخاض فابن لبون ، الى خمس وثلاثين ، فاذا زادت واحدة ، ففيها بنت لبون ، الى أن تبلغ خمسا وأربعين فاذا زادت واحدة ، ففيها جذعة (٩٠) . الى أن تبلغ خمسا وسبعين ، فاذا زادت واحدة ففيها حقتان طريدتا الفحل (٩١) ، الى أن تبلغ عشرين ومائة ، فاذا بلغت الابل عشرين ومائة ، ففى كل أربعين بنت لبون ، وفى كل خمسين حقة . فاذا

---

(٨٨) فى جواب ابن أبى عقب عن السنة بذكر هذه الأعمال العشر : خروج عن الموضوع الذى يتحدث فيه مع زعيم الخوارج ، ذلك أن السؤال المطروح عليه أصلا هو : كم الصلوات ؟ ، فأجاب أولا عن عدد الصلوات المفروضة ، وكان ينبغى أن يبين بعدئذ كم عدد الصلوات النافلة ! لا أن ينتقل فجأة الى بيان أمور أخرى ، تذكر فى الوضوء والطهارة والنظافة !

(٨٩) اذا بلغت الابل خمسا وعشرين — لا ستا وعشرين — ففيها بنت مخاض ، وهى ما بلغت من الابل سنة ودخلت فى الثانية . عن عبد الرحمن الجزيرى : الفقه على المذاهب الأربعة ٥٩٧/١ .

(٩٠) قال فى المصدر السابق ٥٩٨/١ : فاذا بلغت (يعنى الابل) ستاً وأربعين ففيها حقة ، وهى : ما أتمت ثلاث سنين ودخلت فى الرابعة ، فاذا بلغت احدى وستين ، ففيها جذعة ، والجذعة هى : ما أتمت أربع سنين ودخلت فى الخامسة .

(٩١) قال : فاذا بلغت ستا وسبعين ، ففيها بنتالبون ، وهى : ما أتمت سنتين ودخلت فى الثالثة . فاذا بلغت احدى وتسعين ، ففيها حقتان . المصدر نفسه ٥٩٨/١ .

بلغت الابـــل ثلاثين ومائة ، فالحســـاب على ما خبرتك [٩٢] . وليس هذا من علم مثلى ، فسل عن غير هـــذا ! فقال لـــه عبد الله بن وهب : ذر عنك هـــذا .

فخبرنى عن صدقة البقر ؟ قال : اذا أخبرك بذلك ، فى كل ثلاثين بقرة تبيـــع ، فهو حولى لســـنة . وفى الأربعين : بقـــرة منه (مسنة)، الا ما كان من البقـــر العوامل التى تحرث الأرض ، ويسقى عليهـــا الحرث ، فانه لا صدقة عليهـــا ، لأنهـــا بمنزلة الدواب المركوبة ، والتى يحمـــل عليهـــا الأثقال من البغال والحمير ، فقـــد خرج حكمهـــا من حكم البقر السائمة ، فسنة البقـــر السائمة بخلاف سنة البقـــر العوامل، وأما من أراد بهـــا التجارة ، فيقوم فى رأس السنة ، وينظـــر الى ثمنها، فيحسب ذلك ، ويخرج صاحبهـــا زكاتهـــا ، كمـــا تخرج زكاة المال ، من كل مائتى درهم خمســـة دراهم ، ومن كل عشرين مثقالا نصف مثقال ومازاد فبالحســـاب . فقـــال عبد الله بن وهب : صدقت ! .

فخبرنى عن صدقة الغنم ما هى : فقال ابن أبى عقب : نعم ، أما الغنم فانهـــا اذا كانت دون الأربعين فلا صدقة عليها ، فاذا بلغت أربعين

---

(٩٢) اذا بلغت الابـــل مائة واحدى وعشرين ففيهـــا ثلاث بنات لبون — عند الشـــافعية ، والحنابلة ، أما المالكية فيقولون : اذا بلغت مائـــة واحدى وعشرين الى تســـع وعشرين خير الساعى (جامع الزكاة) بين أن يأخـــذ ثلاث بنات لبون أو حقتين اذا وجـــد الصنفان عند المزكى أو فقدا، فاذا وجد أحدهمـــا تعين الاخراج منه — وقال الحنفية : اذا زاد العـــدد على مائة وعشرين استؤنفت الفريضـــة ، وكانت زكاة مازاد كزكاة النصاب الأول ... فاذا بلغت الابـــل مائة وثلاثين تغير الواجب ، فيكون فى كـــل أربعين بنت لبون ، وفى كل خمسين حقة ، ففى مائة وثلاثين : بنتا لبـــون وحقة ، وفى مائة وأربعين : حقتان وبنت لبون . وفى مـــائة وخمسين ثلاث حقاق ، وهكذا يكون التفاوت بزيادة عشرة فعشرة وما بين كل فريضتين من جميـــع الفرائض المتقدمة معفو عنه لازكاة فيه . المصدر نفسه ٥٩٨/١ — فتأمل هذا وما ذكره ابن أعثم على لســـان ابن أبى عقب هـــذا ؟ .

فصدقتها شاة ، الى أن تبلغ مائة وعشرين شاة ، فاذا زادت على العشرين والمائة واحدة ، فصدقتهــا ثلاث شياه ، فاذا زادت على ثلاثمائة ، ففى كل مائة شاة (٩٣) • فهذا ما سألت عنه من صدقة الابــل والبقــر والغنم وليس مثلى من يسأل عن مثــل هــذا ، ولكن ســل أيهــا الرجل عمــا أحببت من العلوم الواسعة ؟! •

فقال ابن وهب : خبرنى عن الواحــد ما هو ؟ فتبسم ابن أبى عقب ثم قال : هذه مسألة قــد مضت فى الدهــر ، الواحــد : هو اللــه وحده لا شريك له • قال : فخبرنى عن الاثنين لم يكن لهمــا — فى عصر — ثالث ؟ قال : آدم وحواء • قال : فخبرنى عن ثلاث لارابع لهــا • قال : الطلاق • قال : فخبرنى عن أربع لا خامس لهــا • قال : أربع نســوة حــلال ولا تحــل خامســة • قــال : فخبــرنى عن خامســة (خمس) ليس لهــا سادسة ؟ قال : الخمس الصلوات المكتوبة • قال : فخبرنى عن ستة لا سابع لهــا ؟ قال : الأيــام التى خلق الله فيهــا السموات والأرض • قــال : فخبرنى عن سبعة ليس لهــا ثامنة ؟ فقال له ابن أبى عقب : يا هــذا الرجل ، ان السبعة فى كتاب اللــه عز وجل كثير ، وهن : السموات سبع ، والأرضون سبع ، والبحــار سبع ، وقال تعالى : « لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم » (٩٤) وقال : « وسبعة اذا رجعتم » (٩٥) ، وقال الريان بن الوليــد ملك مصر (٩٦) :

---

(٩٣) أول نصاب الغنم أربعون ، وصدقتها شاة ، فاذا بلغت مائة واحدى وعشرين ، ففيهــا شاتان — وليس ثلاثا كمــا ذكر — فاذا بلغت مائتين وواحدة ففيهــا ثلاث شياه ، وفى أربعمائة شاة أربع شــياه ، وما زاد ففى كل مائة شاة ، وما بين الفريضتين معفو عنه لازكاة فيــه . المصدر الســابق ١/٦٠٠ — ٦٠١ .

(٩٤) سورة الحجر : الآية ٤٤ .

(٩٥) سورة البقرة : الآية ١٩٦ .

(٩٦) هكذا ورد اسمه عند المفسرين — ينظر ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٣٠٦/٤ .

« انى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات » (٩٧) ، وقال يوسف النبى : « تزرعون سبع سنين دأبا » (٩٨) . ومثل هذا فى كتاب الله كثير . قال : فخبرنى عن سبع وثمانية ؟ قال : نعم ، قول الله عز وجل : « سخرها عليهم سبع ليالى وثمانية أيام حسوما » (٩٩) قال : صدقت . فخبرنى عن ثلاث ، وأربع ، وخمس ، وست ، وسبع ، وثمان ؟ فتبسم عبد الله بن أبى عقب ، ثم قال : ياسبحان الله ! من جمع هذه الجموع وخرج على مثل على بن أبى طالب ، وهو يعلم أنه أقضى هذه الأمة ، وأبصر بحلالها وحرامها ، يسأل رسوله عن مثل هذه المسائل ! قال الله تبارك وتعالى : « سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم » (١٠٠) فهذا ما سألت ! .

فقال حرقوص : أيها الرجل ، فانى سائلك عن غير ما سألك صاحبى . قال : سل عما بدا لك ! قال : من يتولى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (١٠١) ؟ قال : أتولى أولياء الله المؤمنين ، أتولى أبا بكر ، وعمر ، وعثمان ، ومقدادا ، وسلمان ، وأبا ذر وصهيبا ، وبلالا ، وأسلاف المؤمنين . قال : فممن تتبرأ ؟ قال : ما أتبرأ من أحد « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون » (١٠٢) . قال : فما تقول فى صاحبك على ، وما تقول فى عثمان ، وطلحة ، والزبير ، ومعاوية والحكمين عمرو بن العاص وعبد الله بن قيس ؟ فقال : أما صاحبى على ،

---

(٩٧) سورة يوسف — الآية ٤٣ .
(٩٨) سورة يوسف — الآية ٤٧ .
(٩٩) سورة الحاقة — الآية ٧ .
(١٠٠) سورة الكهف — الآية ٢٢ .
(١٠١) صيغة هذا السؤال وقع فيها تصحيف وسقط ، وصوابها : « من تتولى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم » .
(١٠٢) سورة البقرة — الاية ١٣٤ ، والاية ١٤١ .

فلو قلت فيه سوءا لم أكن بالذى أصحبه ، ولا أقاتل بين يديه ، ولا أقول بفضله ، وأما عثمان فانه ابن عم النبى ، وابن ابنة عمه ، وختنه على ابنته رقية ، وأم كلثوم ، وله فضائل كثيرة ، وقد جاءت بها العلماء (١٠٣) ولا أقول فيه الاخيرا • وأما طلحة والزبير ، فانهما حوارى رسول الله ﷺ (١٠٤) ، ولم أسمع صاحبى يقول فيهما الاخيرا ، ولا أقول فيهما الا كقوله • وأما معاوية والحكمان ، فمعاوية رضى برجل ، وعلى صاحبى برجل ، فخدع أحدهما صاحبه ، والخلافة لا تثبت لأحد بالمكر والخديعة ، ونحن على رأس أمرنا الى انقضاء المدة (١٠٥) •

فقال حرقوص : أيها الرجل ، انك قد أوجبت على نفسك

---

(١٠٣) لعل قوله : « وقد جاءت بها العلماء » يكشف عن حقيقة هذا الحوار المنحول على ابن أبى عقب (المجهول) ، وعبد الله وحرقوص — وهذه الحقيقة هى : أنه لم يكن هناك يومئذ حوار ، ففى عام ٣٧ هـ أو ٣٨ هـ — أى بعد مقتل عثمان رضى الله عنه بعامين فحسب ، ما كان هناك احد يسجل ويدون فضائل الصحابة ، وينشرها بين المتعلمين ، ويشيع أمر هذا كله ، حتى يصبح معلومات فى متناول الدارسين ، وانما يمكن أن يقال ذلك فى زمان لاحق لا يمكن أن يكون قبل القرن الثانى للهجرة !

(١٠٤) هذا قول لا يعرف بين العلماء ، وانما المعروف والمشهور والصحيح أن الزبير بن العوام وحده هو حوارى رسول الله عليه الصلاة والسلام •

(١٠٥) غنى عن البيان ، أن مجمل ما قاله ابن أعثم الكوفى « الشيعى » على لسان مبعوث على ابن أبى طالب الى الخوارج — فى جوابه عن سؤال حرقوص بن زهير عن رأيه فى هؤلاء الصحابة لا يعبر عن حقيقة رأى الشيعة فيهم وفى سائر صحابة النبى عليه الصلاة والسلام ، فهذا رأى جميل وطيب لم يعرف للشيعة فى وقت من الاوقات . وانما الذى عرف عنهم ، وسجل لهم ، ولا ينكرونه أبدا — باستثناء طائفة البترية من الشيعة الزيدية فحسب — أنهم كفروا الصحابة لتركهم بيعة على بالخلافة بعد رسول الله تنفيذا لوصيته المزعومة بذلك ! انظر فى بيان هذا وتفصيله البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٣٠ وما بعدها .

القتل ! قال : ولم ذاك ؟ فقال · لأنك توليت قوما كفروا بعد ايمانهم، وأحدثوا الأحداث • فقال له ابن أبى عقب : أيها الرجل ، انك لم تبلغ فى العلم ما يجب عليك أن تفتش عن علم الامام ! ولكنى أسألك عن مسائل يسأل صبياننا بعضهم بعضا عنها فى المكتب (١٠٦) قال · سل عما بدا لك ! فقال ابن أبى عقب : خبرنى أيها الرجل عن المتحابين ماهما ؟ وعن المتباغضين ما هما ؟ وعن المستبقين ، والجديدين، والدائبين ، وعن الطارف والتالد وعن الطم والرم ، وعن نسبة الله عز وجل ما هى ؟ •

قال حرقوص : ما رأيت أحدا يسأل عن هذا (١٠٧) ! ولكن خبرنى عنها ، وأنت آمن •

فقال له ابن أبى عقب · أما المتحابان فالمال والولد (؟) وأما المتباغضان فالموت والحياة ، وأما المستبقان فالنور والظلمة ، وأما الجديدان فالليل والنهار ، وأما الدائبان فالشمس والقمر (١٠٨) ، وأما الطارف والتالد ، فالمال المستحدث والمال القديم • وأما الطم والرم، فالطم : البحر ، والرم : الثرى • وأما نسبة الله عز وجل ، فان قريشا

---

(١٠٦) هذا مثال آخر للافتئات على الحقيقة والواقع ، فى هذا الحوار المزعوم ! فأى مكتب هذا الذى زعم ابن أعثم وجوده يومئذ ؟ اننا يمكن أن نتصور الصبيان يتعلمون فى المساجد فى ذلك العهد (٣٧ — ٣٨ هـ) — اذا أتيحت لهم الفرصة فى غمار الفتنة المشتعلة فى بلاد الاسلام — أما وجود مكاتب لتعليم الصبيان فى عصر الراشدين ، فهذه — للحق — أول مرة نسمع فيها مثل ذلك أو نقرأه فى كتاب ! ؟ .

(١٠٧) لحرقوص بن زهير — زعيم الخوارج — الحق فى أن يقول ذلك بكل الدهشة والانبهار ، لأنه لم يسمع بهذه الأسئلة من قبل ، حيث لم يتعلم فى مكتب كالذى تعلم فيه ابن أبى عقب وأمثاله ؟؟ .

(١٠٨) قال الجوهرى — فى الصحاح ١/١٢٣ ، ٤/٤٥٤ (داب ، جدد) وابن منظور — فى اللسان ١/٣٥٦ ، ٤/٨٢ — : الدائبان : الليل والنهار والجديدان : الليل والنهار ..

سألت النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد ، صف لنا ربك . فنزلت سورة الاخلاص وهى : « قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد » (١٠٩) .

قال ابن أعثم : فتعجب القوم من كلام ابن أبى عقب وعلمه ! .

ثم أجاب عبد الله بن وهب الى على بن أبى طالب جوابا : ورد على كتابك مع رسولك ، فقرأته وفهمت ما فيه . وأما قولك تأمرنى أن ألزم الحق يوم لا يقضى بالحق ، فقد صدقت ، وأنا لازم الحق جهدى وطاقتى . وأما قولك : لا أزيغ فيزيغ من معى ، فأنت معدن الزيغ وأهله ، وقد قال الله تعالى « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين » (١١٠) . وأما قولك : ان السعيد من سعدت به رعيته ، والشقى من شقيت به رعيته ، فقد صدقت . وما أعلم سعيدا سعدت به رعيته بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم غير أبى بكر ، ومن بعده عمر ، ولا أعلم شقيا شقيت به رعيته بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم غيرك وغير عثمان بن عفان، والقول — كما قلت — كثير والتفسير يسير ، فمن شاء هذرونثر ، ومن شاء قال بقدر . وأما قولك : أن ادفع الينا قاتل عبد الله بن خباب ، فكلنا قتله ، وأما ذكرك المسير الينا لقتالنا ، فاذا شئت فأقدم ، فانا عازمون على حربك — والسلام . ثم طوى الكتاب وختمه ، ودفعه الى ابن أبى عقب ، فأخذه ، وأقبل الى على كرم الله وجهه ، فخبره بالذى دار بينه وبين القوم من المسائل (١١١) ..

وعلى الرغم مما اشتملت عليه تلك القصة من عناصر التسلية والتشويق والاثارة الذهنية ، فان ذلك — بدون ريب — كان على حساب

---

(١٠٩) سورة الاخلاص كلها ١ — ٤ .
(١١٠) سورة الصف — الآية ٥ .
(١١١) الفتوح ١٠٨/٤ — ١١٩ .

الموقف التاريخى الذى ينبغى أن يعرضه المؤرخ بكل التجـرد والصدق والأمانة ما استطاع الى ذلك سبيلا ! وأما هنا فلقد ابتعد ابن أعثم كثيرا عن مهمته الأصيلة كمؤرخ ، غايته أولا أن يطلع الخلف على ما صـنع أسلافهم ، وما قاموا به على امتداد حياتهم من أعمـال دون تدخـل منه فى تشكيل هـذه الأعمـال وتصويرهـا على أى نحو من الأنحاء •

اذا تقرر ذلك ، فاننا نقرر — باطمئنان تام — أن هـذه القصـة بجملتهـا وتفاصيلهـا ، لا أصـل لهـا فى مصادر التاريخ المعتمدة ، والتى نستعين بهـا فى البحث ، فهى جميعـا قـد تتبعت أخبـار الخوارج ، واستقصت يوم النهروان من جميـع جوانبه ، وسجلت كل المحاولات التى بذلهـا على بن أبى طالب وكبار أصحابه لاثنـاء القوم عن خروجهم ومفارقتهم للجماعة ، ورغبة منهم فى اعادة هؤلاء الخارجين الى الحق ، كمـا كانوا من قبل ، فلم نعثـر على حكاية ابن أعثـم هذه ضمن هـذا السجل الدقيق الذى نجده فى هـذه المصادر جميعا •

كذلك ، فان هذا الرجل — بطل القصـة وفارسهـا — عبد الله بن أبى عقب ، انسـان مجهول ، واعتقادى أنه لـم يكن موجودا عـلى الاطلاق ، وانمـا ابتكره ابن أعثم ، ونحله هـذه الأقوال التى أجراها على لسـانه فى ذلك المشـهد — البعيـد تماما عن جـو الحـرب والتهيؤ للقتال الوشيك — وليس غريبا على صـاحب الفتوح فعـل كهذا ، فقد رأينا أمثال ذلك كثيرا ، من قصصه وابتكاراته ، وافتئاته على تاريخ الاسلام والمسلمين •

وفى ثنايا أقاويل ابن أعثم على لسـان تلك الشخصية الوهميـة (ابن أبى عقب) ، قل تحوطه واحترازه فوقـع فى أكثر من خطأ ، كشفت عن زيف قصته بصورة جلية ، فمن هذه الاخطاء البينة :

أنه نسب الى هذا العصر الباكـر فى الاسلام أقوالا فى الفروع الفقهية ، والمعلومات العامة — التى سماهـا « العلوم الواسعة » —

لا تصح نسبتها تاريخيا الى ذلك العصر ، وانما كان ذلك فيما بعد ، حين جلس فقهاء المذاهب لتفريع الأحكام وبيان تفاصيلها ومسائلها ، ولم يعرف ذلك الا خواتيم القرن الثانى ومطالع القرن الثالث للهجرة ، حين بدأ ، ثم أخذ ينتشر تدوين الفقه وبعض العلوم الأخرى فى الأمصار الاسلامية (١١٢) .

فأما تلك المعلومات العامة وألغاز الكلام والبديهيات ، التى استعرض بها ابن أبى عقب ذخائره من المعرفة الواسعة ، وتاه بكشفها على القوم جميعا — حتى انهم تعجبوا من كلامه وعلمه ! — هذه الأمور كلها لا يمكن أن تكون من شغل المسلمين ، ولا من مجالات اهتمامهم حينئذ ، وهم لا يزالون فى مرحلة البناء للدولة والدفاع عنها وحماية الدعوة الاسلامية ، ثم ما لبثوا أن داهمتهم الفتنة العمياء الرهيبة ، فشغلتهم عما سواها ، بل وملأت حياتهم هما وغما ، فهل يتأتى لهم والحال هكذا أن يجدوا فسحة وقت ، أو فراغ ذهنى ليشغلوا أنفسهم بهذه المسليات واختبارات الذكاء !! .

وأخيرا ، فمن ذا الذى يزعم — صادقا وأمينا — أن مكاتب تعليم الصبيان قد وجدت فى العقد الرابع من القرن الاول الهجرى فضلا عن اتساع وظيفتها وشمول مهمتها بحيث تعلم الصغار مثل هذه النكات التى يتباهى ابن أبى عقب ، بأن صبيانهم يسأل بعضهم بعضا عنها وعن أمثالها ؟! .

---

(١١٢) اقرأ فى ذلك ما رواه الحافظ الذهبى عن عبد الله بن الامام أحمد بن حنبل — فى أثناء ترجمته لعبد الملك ابن عبد العزيز بن جريج — فى سير أعلام النبلاء ٦/٣٢٧ . وانظر أبا المحاسن : النجوم الزاهرة ١/٣٥١ ، والسيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٦١ .

قلائد الحجاج بن يوسف !

من المناسبات التاريخية المشهورة على نطاق واسـع بين المؤرخين جميعـا ، ولاية الحجاج بن يوسف الثقفى على العراق فى عـام ٧٥ﻫ من قبل عبد الملك بن مروان ، وكانت أوضـاع العراق يومئذ شـديدة الاضطراب ، تنذر بأخطار وخيمة ، فقد مات بشر بن مروان — الوالى — وأرجف الناس ، ولما علم بموته الجند الذين خرجوا مـع المهلب لقتال الأزارقة ، تسللوا عائدين الى المصرين (البصرة والكوفـة) وصار المهلب فى جمـع قليل ، فأصبح العراق بين خطـر الفوضى من الداخل ، وخطر الأزارقة من الخارج ، فهـذه كانت الصورة المقلقة لحـالة العراق عقب وفاة واليه بشر بن مروان أخى عبد الملك ، فاستشعر أمير المؤمنين دقة الموقف وعواقبه ، ان لـم يسرع بتولية رجل كفء لهـذه المهمة الجسيمة ، فلم يجد لهـا الا الحجاج بن يوسف الثقفى — الـذى كان يومئذ واليا على الحجاز — فكتب اليه من العاصمة دمشق بتعيينه واليا على العراق ، دون خراسـان وسجستان ، فخرج من المدينة قاصدا الكوفة فدخلهـا فى رمضان سنة ٧٥ ﻫ ، لا خلاف بين جمهور المؤرخين على ذلك (١١٣) ..

أما ابن أعثم الكوفى ، فليس من أولئك الجمهور ، لأنه قـدم هذا الحادث التاريخى بصورة مختلفة تماما خرجت به عن كونه خبرا تاريخيا تناقله المؤرخون عن روايات وصلت اليهم بأسـانيدهـا الى الذين حضروا وشهدوا ، ليصبح قصـة من تلك القصص التى يزخـر بها كتاب

---

(١١٣) ابن قتيبة : المعارف ص ٣٥٧ . اليعقوبى : تاريخ ٢٧٣/٢ . المبرد : الكامل ٣٨٠/١ . الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ٢٠٢/٦ ، ٢٠٩ . ابن الاثير : الكامل ٣٧٤/٤ ، ٣٧٩ . قال الطبرى فى ذلك : « خرج الحجاج ابن يوسف من المدينة حين أتاه كتاب عبد الملك بن مروان بولاية العراق بعد وفاة بشر بن مروان (٢٠٢/٦) ثم قال بعد : وكان قدوم الحجـاج الكوفة فيما قيل فى شهر رمضـان من هذه السنة » (٢٠٩/٦) .

الفتوح ، والتى تعتمـد اعتمادا على الخيـال الخصـب الذى يتمتع به ذلك الرجل ، أو من ينقـل عنهم بعض هـذا القصص من طائفـة عيسى بن دأب ، والهيثم بن عـدى وأشباههمـا ! والآن فلنر مـا قال ابن أعثم عن تولية الحجاج على العراق :

افتتح ابن أعثم الجزء السابع من كتابه بهـذه القصـة وعنوانها هو : « ذكر كلام عبد الملك بن مروان على المنبر ، واجابة الحجاج اياه ، وتولية الحجاج العراقين جميعـا » ثم قال :

فتكلم عبد الملك بن مروان ، فقـال : أيهـا الناس ، ان العراق قد تكدر ماؤهـا ، وظهـر جدبهـا ، وملح عذبهـا ، وبدا وميضهـا ، واشتد ضرامهـا ، وكثر لهبهـا وثارقتامها ، وعظم شررها ، وعلا أمرها ، وأبرق رعودهـا (كذا ولعلهـا أبرقت) ، وكثر وقودهـا ، بحطب حى ، وجمـر ذكى ، ودخـان وهى ، وهؤلاء الأزارقة الطغاة المارقـة قد اشتدت شوكتهم ، وتفرقت جرثومتهم ، حتى قـد حذرهم الصغار ، وليس يقوم لهم الكبار ، فمن ينتدب لهم منكم بسيف قاطـع ، وسنان لامع ، وقلب جامع ، فيخمد نيرانهم ، وينتفـع بهـا خطرهـا (؟) ، ويأمن الكاعب ، ويرجع الغائب ، وتصفو البلاد ، ويسلس القياد ! ؟ .

قال : فسكت الناس ! وقام الحجاج (١١٤) ، فقـال : أنا للعراق يا أمير المؤمنين ! فولنى اياها ، فأنا الليث القمقام (١١٥) ، والليث الضرغـام ، والسيف الحسام ، الهشام للعظام والهـام ، وأنـا فراج الصفوف ، وقاتل الألوف ، ومأوى القرى والضيوف ، وخلس الحمـام

---

(١١٤) لا ندرى كيف قام الحجاج أمام عبد الملك فى دمشق ، وهو يومئذ بالمدينة واليا على الحجاز ؟ .

(١١٥) للقمقام عدة معان منهـا : البحـر ، والسيد ، والعدد الكثير ، ويقال : وقـع فى قمقام من الأمـر .. انظـر الجوهرى : الصحاح ٢٠١٥/٥ (مادة قمم) . ولا أعلم أى المعانى من هذه يوصف به الليث ؟ .

والحتوف ، والقنا والسيوف ! فقال له عبد الملك بن مروان : اسكت فلست هناك ! ثم قال : أيها الناس ، انه قد أطرقت الليوث ، وكاعت الديوث [116] ، وتربصت البعوث ، ولست أرى أسدا يقصد لفريسته ، ولا ذئبا يسمو نحو بغيته ، ولا نمرا يخرج من غيضته ! فمن للعراق ، وحرب الأزارقة ؟

قال : فسكت الناس . وتكلم الحجاج فقال : أنا لها يا أمير المؤمنين ! فولني اياها ، فأنا الليث الغشمشم ، [117] ، والقرن المنتقم من الظالم الخائن ، والغادر الآفن ، أنا ذو النفاذ واللسان ، والعدل والاحسان ، والسرعة الى الأقران عند تشاجر المران ! [118] .

فقال عبد الملك : ان لكل أمير آلة وقلائد ، فما آلتك وقلائدك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، الشدة واللين ، والعفو والقتل ، والريث والعجل ، والرفق والحزق [119] ، والمكاشفة والمداراة ، والادناء والابعاد ، والجفاء والتواضع ، والصلة والحرمان ، أنا الليث الهصور ، المتقمص بجلد النمور ، فمن رمقني بسوء حددته ، [120] ومن نازعني بددته ، ومن لوى شدقيه جذعته ، ومن تكبر على قمعته ، ومن نازعني

---

(١١٦) كاعت : خافت وجبنت . والديوث : الرجل الذى لا يغار على أهله ، والقواد على أهله ، وهو الذى تؤتى امرأته وهو يعلم . والتدييث هو القيادة . الجوهرى : الصحاح ٢٨٢/١ ، ابن منظور اللسان ٤٥٥/٢ . وهذه الجملة لا معنى لها هنا ، ولا يتأتى هذا القول في مقام كهذا ! ؟ .

(١١٧) الغشمشم : الجرىء الماضى ، لا يثنيه شىء عما يريد . ابن منظور : اللسان (غشم) ٣٣٣/١٥ — ٣٣٤ .

(١١٨) المران : الرماح الصلبة اللدنة . يقال : تطاعنوا بالمران . المفرد : مرانة . اللسان (مرن) ٢٩٠/١٧ .

(١١٩) الحزق : العصر والضغط واحكام الشد . اللسان (حزق) ٣٣٠/١١ .

(١٢٠) الحد — ومنه قوله حددته — : القطع — اللسان (حدد) ١١٥/٤ .

قصمته ، ومن دنامنى أكرمته ومن نأى عنى طلبته ومن ثبت لى طاعنته ، ومن ولى عنى لحقته ، ومن أدركته قتلته ، ومن حاكمته غلبته ، ومن طلب الأمان أعطيته ، ومن تواضع لى أدنيته ومن سارع الى طاعة أمير المؤمنين بجلته ، فهذه آلتى وقلائدى ، وأنا صاحب ابن الزبير ، ولا عليك يا أمير المؤمنين أن تسبرنى وتجربنى ، فان كنت للاعناق قطاعا ، وللارواح نزاعا ، وللخراج جماعا ، وفى الامور نفاعا ، والا استبدلت بى غيرى ! .

وفى رواية أخرى أنه قال : ان آلتى ، أن أزرع بدرهمك من يواليك ، وأحصد بسيفك من يعاديك ، سود لى قرطاسا ، واعقد لى خرقة فى رأس قناة !! [121] فقال له : أنت لها ، ولكل شدة ، فكتب عهده بيده [122] . قال : فقال له عبد الملك بن مروان : أنت لها يا حجاج ، فسر اليها مشمر الازار ، شديد الحذار ، فارفع الشريف ، وقو الضعيف ، فقد وليتك العراقين جميعا والبصرة ؟ فاضغطها ضغطة يحيق بها أهل البصرة ؟ واياك وهوينا أهل الحجاز ! فان القائل يقول ألفا ولا يقطع حرفا ! .

قال : ثم التفت عبد الملك بن مروان الى كاتبه فقال : اكتب عهده على العراقين [123] ، وأطلق يده فى الرجال والسلاح والأموال ، ولا تجعل له علة ، وأعلم أهل العراق أنه قادم اليهم أميرا عليهم ، فليلزموا طاعته ، وليحذروا صولته . فكتب عهد الحجاج على العراقين يوم الاثنين ، وخرج يوم السبت ، فلم يزل يسير حتى دخل الكوفة [124] .

---

(١٢١) كأنه منطلق ليخوض معركة حربية ، فهو يرفع راية على رمحه ؟!

(١٢٢) انظر المسعودى : مروج الذهب ٣/١٣٣ .

(١٢٣) سبق أن قال : « فكتب (أى الحجاج) عهده بيده » . والآن يقول : ان الذى كتب العهد بالولاية هو كاتب عبد الملك ؟ .

(١٢٤) كتاب الفتوح ٧/ ٣٠٠ . ولا ندرى أى الأثانين كتب فيه العهد ؟ وأى السبوت خرج فيه الحجاج فى ذلك العام ؟ .

وفى تعقيبنا على هذه القصة ينبغى أن نذكر بما سبق أن قدمنا به لهذه القصة ، وأعنى به أن هذا النص « قولا ومضمونا » قد انفرد به ابن أعثم الكوفى ، بينما اتفق المؤرخون على خلافه « جملة وتفصيلا » ، ولقد كانت أقوالهم بهذا الخصوص نصوصا صريحة واضحة محددة أن عبد الملك ابن مروان قد أسند ولاية العراق — دون خراسان وسجستان — وليس العراقين كما زعم صاحب الفتوح ، الى الحجاج بن يوسف الثقفى ، حين كان الحجاج فى المدينة واليا على الحجاز ، وأنه خرج من المدينة قاصدا الكوفة فور وصول كتاب عبد الملك اليه بهذا التكليف العاجل !.

ومعنى ذلك أن عبد الملك — حين أتاه نعى أخيه بشر وخلو العراق من وال — لم يخرج الى المسجد ، كى يصرخ فزعا ، بحثا عن وال جديد ، يرمى به العراق وأهله ، فلا يتقدم اليه أحد الا رجلا — يستحقره أمير المؤمنين بقوله « اسكت ، فلست هناك ! » ، ثم يبدىء عبد الملك القول ويعيد ، يستجدى واليا يرسله الى هذا المصر ، والناس سكوت قد أذهلهم وأخرسهم الجبن ، فلم يجرؤ أحدهم على النهوض الى هذا العمل ، الا الحجاج ! فانه أعاد الكرة ، وكرر الرجاء والالحاح ، فلم يجد عبد الملك مناصا من اسناد الأمر اليه بعد أن اختبره ، وعجم عوده بأقوال وحسب !! وهنا لا نملك الا أن نسأل ابن أعثم : ألم يسبق لعبد الملك أن استعمل الحجاج ، وعرف قدره ، وعجم عوده فى تجربة خطيرة ومهمة جسيمة هى قتال عبد الله بن الزبير ، والقضاء عليه كمنافس شديد وعنيد ، وأن الحجاج قد نجح فى مهمته تلك وأثبت لأمير المؤمنين أنه رجل المهمات الصعبة ، وصاحب المواقف الشديدة ، فلما قضى على ابن الزبير فى عام ٧٣ هـ ، عينه واليا على الحجاز كله !؟ أفبعد هذا كله يتجاهله عبد الملك ، ويسأله من أنت ؟ ويحتقره أمام الجمع الحاشد فى المسجد ؟ ولما كان ذلك قد حدث بأجمعه ولا يعقل أن يكون قد نسيه عبد الملك أو تجاهله !

فان الذى ينبغى أن يقــال اذن هــو : أن ابن أعثم هو الذى ينسى ويتجاهل ، ويتعامى عن الحقائق التاريخية ، ويسمح لخياله أن يتلاعب بحوادث التاريخ ، فيسجل منهــا ما يهوى ، ويمحو منهــا ما يرغب فى محوه وتجهيله !! .

ومن وجه آخر ، فان من أشــد ما يستنكر فى هــذه القصــة : أن ينسب هذا الموقف المتخاذل الى رجلين اشتهرا فى تاريخ الاســلام بعامة ، والعصر الأموى بخاصــة — بقوة الشخصية ، والاعتداد بالنفس والاباء ، والحزم والعزم وشدة المراس ، والقدرة الفائقة على مواجهــة الشدائد والخطوب ، فأما أمير المؤمنين عبد الملك ، فلا يتصور أن يهرول من الفزع الى المسجد ، ليعلن خلو منصب الولاية على العراق ، ويستجدى الناس أن يهب أحدهم لشغلهــا ، أو أن يدلوه على الرجل الذى يصلح لهــا ، لأنه — كرئس للدولة وأمير للمؤمنين — قــد عجز عن المعرفة ، أو لا يحسن اختيار رجاله ! ؟ كيف يتأتى ذلك ، وقــد خاض عبد الملك بنفســه غمار الحروب الضارية ، وأحكمته التجربة الطويلة فى ميــدان السياسة والادارة والحرب [١٢٥] ، وفى خضم ذلك كلــه عرف الكثير الوافــر من الرجال ، وعركهم ، وسجل فى حافظته الواعية [١٢٦] ، ما يحسنه كل منهم ، ومايتمتع به من ملكات وقدرات وميزات ، تــدفع به الى هــذا العمــل قبل سواه ، أو تضن به الى موعــد ســوف يأتى بعــد ، فيقدمه عبد الملك اليه أمرا وتكليفــا ، لا رجاء واستعطافا !

---

(١٢٥) قال عبد الملك عن نفسه : ما أعلم مكان أحد أقوى على هــذا الامــر منى ، وان ابن الزبير لطويل الصلاة ، كثير الصيام ، ولكن لبخله لا يصلح أن يكون سائســا . الطبرى : تاريخ ٤٢٢/٦ .

(١٢٦) انظر ابن سعد : الطبقات ٢٢٤/١/٥ ، ٢٣٤ ، يعقــوب بن سفيان : المعرفة والتاريخ ٥٦٣/١ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ٢٤٦/٤ — ٢٤٨ .

ويشهد تاريخ الرجل المدون فى المصـادر المعتبرة بكل ذلك واكثـر منه، شهادة صريحة جلية ناصعة (١٢٧) ..

وأما الحجاج ، فهو رجل يعرف قدر نفسه ، ومنزلتهـا بين الأقران ويعلم ما يتمتع به من قدرات ادارية وسياسية وحربية ، ويطمئن تماما الى أن عبد الملك ، هو خير من يقدر فيه ذلك كله ويعرفه لـه ، وان عزة نفسـه واباءه وشممه ، وطبيعته العربيـة الأنفة ، كل هـذا يجعله يأبى أن يعرض نفسه للعمـل عند الخليفـة مرة ، فيتعرض للتحقير والاذلال أمام القوم ! ثم يعود — على الرغم من ذلك — فيطلب مـرة أخـرى هـذه الولاية !؟ فأى وال هذا الذى أخزاه الخليفـة ، وبدد مـاء وجهه، وسلخه مروءته (١٢٨) !؟ .

وثمة مطعن نافذ — فيما أحسب — يصيب هذه القصة الأعثمية فى مقتل ! ذلكم هو ما ظنه ابن أعثم خطابة وفصاحة وبيانا يصح نسبته الى عبد الملك بن مروان ، والى الحجاج بن يوسف الثقفى ، وهو ظن جد بعيد ، لا يكاد يجاوز مخيلة من ادعاه ! لأن الذى أثبته واحتج له مؤرخو الأدب العربى ونقاده ، فى دواوينهم المبسوطة بين أيدى الناس،

---

(١٢٧) اقرأ فى ترجمته لترى مصداق ذلك : ابن سعد : الطبقـات ٢٢٣/١/٥ — ٢٢٤ ، ٢٣٤ ، ابن قتيبة : المعارف ص ٣٥٥ — ٣٥٧ ابن عبد ربه : العقد الفريد ٣٩٨/٤ — المسعودى : مروج الذهب ٢٩٢/٣ ، الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ٣٨٨/١٠ ، ابن الأثير : الكامل ٥١٧/٤ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ٢٤٦/٤ — ٢٤٩ .

(١٢٨) ليس هذا القول منى حماسـا أو دفاعا أو تأييدا للحجاج ، ولكن تزييف ابن أعثم للمواقف وتحريفه للتاريخ ، يجعل من الضرورى أن نبين الحقائق التاريخية ذات العلاقة بهذه القضية ، ومع ذلك فان هذه الاوصاف التى وصف بهـا الحجاج انما هى جزء من شخصيته وتكوينه الذاتى حسبما قالت مصادر التاريخ ، ومنهـا : ابن قتيبة : المعارف ص ٣٩٥ — ٣٩٨ ، ابن عبد ربه : العقـد الفريـد ١٣/٥ وما يليهـا ، الجاحظ : البيـان والتبيين ٩٩/٤ — ١٠٠ ، المسعودى : مروج الذهب ٣٦٥/٣ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ٣٤٣/٤ .

هو أن كلا الرجلين من أشهر وأخير خطباء العصر الأموى ، وكذلك هما فى مقدمة خطباء الخلفاء والأمراء فى تاريخ الاسلام ، كما أن النماذج الوفيرة العدد من خطب ورسائل وأقوال الرجلين ، والتى حفلت بهـا كتب الأدب على اختلاف عصـورها ومناهجها ، وبصفة خاصـة تلك الخطبة الهائلة التى افتتح بها الحجاج ولايته على العراق — ان وجود هذه النماذج فى كتب الأدب لدليل بين ، وبرهان ناصع على احتفـال نقاد اللغة العربية ومؤرخيها بالنتاج الأدبى للرجلين ، باعتباره مثالا رفيعا للفكر العربى على مر العصور (١٢٩) ..

فهل يستسيغ العقل والفكر بعد ذلك أن ينسب هذا الهذر واللغو الذى ورد فى قصة ابن أعثم التى نحن بصددها ، الى عبد الملك والحجاج من مثل قوله « أنا الليث القمقام ، والليث الضرغام ، والسيف الحسـام الهشام للعظام والهام ، وأنا فراج الصفوف وقاتل الألوف ، ومأوى القرى والضيوف ، وخلس الحمام والحتوف ، والقنا والسيوف !! » أو قوله : « قد أطرقت الليوث ، وكاعت الديوث ، وتربصت البعوث !»؟ ليس مثل هذا السجع من صنع خطباء القرن الأول الهجرى ، وليست هذه الركاكة فى التعبير مما يجمل بأحد مشاهير ذلك العصر أن يسمعها الناس منه ، ولا يسره أن تنسب اليه !

كشـف أثرى مثير :

وفى حديث ابن أعثم — المستفيض — عن الخوارج الأزارقة ، وقتال المهلب بن أبى صفرة اياهم (١٣٠) ، كأنه قد أراد التسلية والترويح

---

(١٢٩) اقرأ عند الجاحظ أمثلة لبيان عبد الملك والحجـاج فى البيان والتبيين ١/١٣٥ ، ٢٦٥ ، ٣٠٥ ، ٣٤٦ ، ٣٥٣ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٢/٨١،٨٢، ٣٠٤ وما يليها ، ٣٨٠ — ٣٨٢ ، ومواضع كثيرة أخرى فى الاجزاء الثـلاثة الأخرى من الكتاب ، ابن قتيبة : عيون الأخبار (مواضع جمة على اتسـاع الكتاب كله .

(١٣٠) سوف نتناول أن شاء الله هذا الموضوع من كتاب الفتوح بفصل خاص فى بحثنـا هذا .

عن القارىء الذى شغلته تلك المعارك والحروب التى امتدت سنين عددا بين الفريقين ، فخرج عن اطارها خرجة قصيرة ، ليقص علينا هذه الأقصوصة التى لا تخلو من عظة وتذكير بما أصاب الماضين ، ولكنه حريص على ألا يقطع حديث الأزارقة ، فلذلك جعل للقصة هذا العنوان « خبر الجاريتين ابنتى تبع الحميرى ، وخبر محمد بن يوسف — أخى الحجاج — وخبر السيف ، وهذا داخل فى حديث الأزارقة » . ثم سرد القصة فقال :

قال الهيثم بن عدى (١٣١) فى بعض أخباره : كان محمد بن يوسف أخو الحجاج بن يوسف ، يومئذ عاملا على اليمن من قبل الحجاج (١٣٢)، فدلوه على مطمورة (١٣٣) هناك ، فحفرها ، فاذا هو بحجر منقور طويل ، وفى الحجر جاريتان عند رءوسهما لوح من حجر مكتوب فيه بالحميرى : يا أخى ! وهذه أختى لميس ، ونحن ابنتا تبع الحميرى (١٣٤) ، غير أننا

---

(١٣١) هو الهيثم بن عدى بن عبد الرحمن الطائى ، الكوفى ، الأخبارى المؤرخ ، المتوفى عام ٢٠٧ هـ ، وهو متهم عند جل المحدثين ، ولذلك لا يعتدون بتواريخه ، قال الخطيب البغدادى ، عن العباس الدورى قال : سمعت بعض أصحابنا يقول : قالت جارية الهيثم : كان مولاى يقوم عامة الليل يصلى فاذا أصبح جلس يكذب ! تاريخ بغداد ٥٠/١٤ — ٥٤ ، وعند ابن قتيبة المعارف ص ٥٣٣ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، وياقوت : معجم الأدباء ٣٠٤/١٩ — ٣١٠ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ١٠٦/٦ ، ١١٤ ، الذهبى : سير أعلام ١٠٣/١٠ — ١٠٤ .

(١٣٢) كان محمد بن يوسف بن الحكم الثقفى واليا على اليمن من قبل عبد الملك وابنه الوليد من بعده حتى مات الوليد سنة ٩٦ هـ . انظر خليفة ابن خياط : التاريخ ص ٢٩٣ ، ٣١١ .

(١٣٣) المطمورة : حفرة تحت الأرض تخبأ فيها الحبوب ، وغيرها مما يراد حفظه .

(١٣٤) فى تاريخ اليمن قبل الاسلام تبابعة كثيرون ، ولذلك يقال : الملوك التبابعة . فأى تبع منهم يقصد الهيثم أو ابن أعثم ؟ .

متنا ، ولا نشرك بالله شيئا ، واذا عند رأس احداهما هـذه الأبيات مكتوبة فى الحجر :

كنت العزيز فى قومى غما امتنعت	نفسى بعـزتها لما أتى القـــدر
لما أتانى الذى قد كنت أحـذره	سلمت ، واسـتعجلتنى عبرة درر
وارفض من كان حولى من ذوى ثقة	كيما أوارى فلا شخص ولا أثـر
وأخرجونى من الدنيـا وزينتهـا	وصار أكبر ما ألحقتـه المـدر

قال : واذا عند رأس الأخرى فى الحجر هذه الأبيات :

جار الزمان علينا مثل ما صنعت	أيامه بابن ذى الصقرين ذى يزن (١٣٥)
كنا نرى وملاهى الدهـر تذهلنا	ان المنعم قـد يعرى من الحـزن
كانت لنا جنـة خضراء معشـية	للطير والوحش فيها صـوت مرتهن

قال : واذا بين هاتين سيف مأثور لا يدرى ماقيمته ! فأخـذ محمد بن يوسف ذلك السيف ، وخرج من المطمورة ، ورد الحفر الى ما كان . ثم كتب الى الحجاج يعلمه بأمر المطمورة ، وبعث اليـه بذلك السيف . فنظر الحجاج الى سيف قاطع من سيوف الأولين ! فقال لجلسائه : ما يصلح هذا السيف الا للمهلب ، يقاتل به هؤلاء الخوارج . فبعث الحجاج بذلك السيف الى المهلب ، وأمره أن يدفعه الى أشـد أولاده وأشـجعهم ! فوهبـه المهلـب الى ابنـه المغـيرة . ثم انطلق المغيرة نحو الأزارقة ، وفى يده ذلك السيف العريق ، وفعل بهم ما فعل ، وقتل منهم من قتل .. ثم رجع المغيرة الى أبيه والسـيف بيده خضيبا بالدماء !! فقال المهلب : أحسنت يابنى ! لقد أخذته بحقه ،

---

(١٣٥) هو الملك الحميرى المشهور أمره وذكره فى تاريخ اليمن قبل الاسلام ، وهو الذى تمكن — بمسـاعدة الفرس — وبعد كفاح مرير ، من هزيمة الأحباش والقضاء عليهم واخراج بقيتهم من اليمن . الطبرى : تاريخ ١٣٩/٢ — ١٤٣ ، ١٥٣ . ابن قتيبة : المعارف ص ٦٣٨ — ٦٣٩ .

وأنا كاتب الى الحجاج بما صنعت فى هذا اليوم ، فأنشأ المغيرة بن حبناء التميمى يقول فى ذلك أبياتا مطلعها :

قل للمهلب قـد وقيت نفوسنا   ببنيك فعلة تبع ذى التاج (١٣٦)

ولا فرق بين هـذه القصة ، وبين أخواتها السـابقات من حيث فسادها وعدم صحتها ، الا فى الأسباب والأدلة التى تدفعنا دفعا الى رفضها كمناسبة تاريخية مرتبطة بأفراد مشهورين فى العصر الأموى ، كالحجاج بن يوسف ، وأخيه محمد ، والمهلب بن أبى صفرة وابنه المغيرة ، أخبارهم متوافرة ، اهتمت دواوين التاريخ بتسجيلها واثباتها ، فأصبحت جزءا من ذلك التاريخ المتداول بين الناس لا ينكره أحد من أهل الدراية والعلم !

وفى هذه القصة ، حاول ابن أعثم أن يستغل شهرة شيخ قديم — هو الهيثم بن عدى — فى ميدان نقل الأخبار ، أو صنعها فى بعض الأحيان — كما روى الخطيب البغدادى عنه (١٣٧) — فى افتعال هذه الروايـة عن بنـات تبـع وسيفهمـا ، لايجـاد صـلة ما ، بيـن ذلك وبين قتال الخوارج ، واسنادها الى الهيثم ، دون وجود واسطة بينهما ، مع أنه يفصل بينهما قرن كامل وبضع سنين ! (١٣٨) ولسـنا ندرى على وجه اليقين ، الدافع وراء هذه المحاولة التى نراها غريبة الى حد بعيد !

---

(١٣٦) الفتوح ٧/٥٢ — ٥٥ . وذكر المبرد فى الكامل ٣/٣٩٠ : ان الحجاج أرسـل الى المهلب سيفا ليتقلده هو وأقسم عليه أن يفعل ، ففعل ، ثم أعطاه ولده المغيرة ، فتقلده ، ثم قاتل به ، ورجع اليه وقـد دماه ، فسر المهلب بذلك وقال : ما يسرنى أن أكون كنت قـد دفعته الى غيرك من ولدى . . ولكن لا ذكـر لليمن ولا تبع ولا ابنتيه كمـا قال صاحبنـا فى قصـته !! .

(١٣٧) تاريخ بغداد ١٤/٥٣ .

(١٣٨) توفى الهيثم بن عدى سنة ٢٠٦ أو ٢٠٧ أو ٢٠٩ هـ أمـا ابن أعثم فكانت وفاته فى نحو سنة ٣٢٠ هـ .

واذا كان أبو العباس المبرد من الكتاب القدماء الذين أبدوا اهتماما واضحا بأخبار القتال بين الخوارج — الأزارقة على وجه الخصوص — وبين المهلب وأبنائه ، ولذلك أورد حكاية السيف الذى أرسله الحجاج الثقفى الى المهلب ، وأقسم عليه أن يتقلده ليقاتل به الخوارج ، ففعل ، ثم قلده ابنه المغيرة بن المهلب ، ففعل به وفعل فى الأزراقة قتلا وجرحا ، مما شرح صدر أبيه وسره (١٣٩) ، فان ذلك يتسق تماما مع هدف المبرد فى سرد أخبار الطائفتين ، وليس فى ايراد الخبر على النحو الذى بينا شىء مثير أو بعيد عن التصديق ، وشتان بين ما صنعه المبرد ، وبين ما قصه ابن أعثم !

ويزعم ابن أعثم زعما عريضا جدا ، فيقول — فى ثنايا قصته هذه — ان اليمنيين القدماء قد عرفوا التحنيط ! ؟ تأمل قوله « ... فاذا هو بحجر منقور طويل ، وفى الحجر جاريتان عند رءوسهما لوح من حجر ... » وهذا من أغرب الصناعة الاخبارية من ابن أعثم ، ومن الهيثم بن عدى لوصح أن صاحبنا لم يغير أو يتدخل فيما رواه عن الهيثم .

ومن الواضح الجلى أن الشعر الذى يزعم ابن أعثم أنهم وجدوه مكتوبا على الحجر عند رأسى ابنتى تبع ، شعر منحول لا علاقة له — بأى حال — باللغة اليمنية فيما قبل الاسلام ، فهو شعر عربى فصيح لا ينتمى الى العصر الجاهلى الموغل فى القدم ، عصر الحميريين الذين كانت دولتهم قائمة فى اليمن قرونا متطاولة قبل أن يغزو الأحباش اليمن ، وكان منهم التبابعة العديدون الذين حكموا اليمن ، وأحدهم هو أبو هاتين الجاريتين المذكورتين فى القصة ! وهم كانوا حينئذ يتكلمون بلغة مختلفة اختلافا بينا عن العربية العدنانية التى بها أنزل

---

(١٣٩) الكامل ٣/٣٩٠ .

القرآن الكريم (١٤٠) ، والتى نظم بهـا ذلك الشعر المزعوم ! ومن وجه آخر يتجلى به فسـاد هذه القصـة ، فان كتابة الحميريين ما كانت فى ذلك العصر الا بالمسـند — الذى هو أقـدم الأقلام التى عرفـت فى جزيرة العرب قاطبة (١٤١) — فهل وجدوا الشعر مكتوبا به أيضـا ، واستطاعوا قراءته ، بعـد أن صـار خطا مهجورا لتغلب الخط العربى الشمالى عليه ، فترك وأصبح من الخطوط التاريخية فحسب ؟ •

والذى يتأمـل هذه الأبيـات من حيث الصياغة ، والمفردات ، والمعانى ، والأغراض ، يجدهـا شعرا ينتمى الى العصر الاسلامى ، بخصائصه ومميزاته التى لا تغيب عن القارىء المتمرس ، صاحب الدراية بأحوال العرب قبل الاسلام وبعده بوجه عام •• وأذن فنسبة هـذا الشـعر الى ابنتى تبـع ، نسـبة لا تصـح على أى وجه •

وأخيرا ، فان هناك ما يثير تساؤلا وجيهـا ، حول ارتباط هـذا الكشف الأثرى الذى قام بـه والى اليمن محمد بن يوسـف الثقفى • بوالى العراق يومئذ : الحجـاج بن يوسـف ! ؟ ان السلوك المنطقى الذى ينسجم مع استقلال كل وال بولايته عن سـائر ولايـات الدولة فى ذلك العهـد ، كان ينأى بمحمـد بن يوسف عن تقـديم هذا الكشف ونتائجه الى والى العراق حتى ولو كان أخاه الحجاج ، بـل كـان ينبغى له أن يقـدم ذلك الى أمير المؤمنين مباشرة ، لأنه كـان مسؤولا أمامه فقط كأمير على اقليم اليمن،ولكن ابن أعثم يريد أن يربط ربطامباشرا بين هذه القصـة التى زعم نقلهـا عن الهيثم بن عدى ، وبين ذلك السيف الذى أرسله الحجاج الى المهلب بن أبى صفرة ، كمـا ذكـر المبرد ذلك فى كتابه الكامل !! •

---

(١٤٠) جواد على : المفصـل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ٨/٥٦٢ — ٥٦٣ •

(١٤١) المرجع السابق ٨/٢٠٢ •

لقد حاولت العثور على حقيقة ما تغياه ابن أعثم من وراء هــذه القصـــة القصيرة المرتبطة فى النهاية بمعارك القتال بين المهلب وأبنائه ــ وهم أزديون يمانيون ــ وبين الخوارج الأزارقـــة ، فلم أجــد الا أن هــذا المؤرخ يريـــد أن يحشـــد الفضل كله فى هزيمة الأزارقـــة وتبديد شملهم الى اليمن عددا وعدة ، فالرجال المقاتلون بقيادة المهلب ــ اليمنى ــ وأبنائه ، والسيف الذى قتل وجرح أبطال الخوارج ســيف يمنى عريق ينتمى الى التبابعة أولئك الملوك الذين وصـــل بعضهم فى فتوحاته الى الصين شرقا ، والى روما ، وجبال أطلس فى شمال افريقيـــــــا غربا [١٤٢] ! ولو كان هذا هو ما قصـــده ابن أعثم ، اذن لقـــد أضنانا وأتعبنا فى سبيل ذلك حقا ! ولكنه التعصب الذى أصاب العرب والمسلمين فى الصميم ، فكان من أسباب ضعفهم وتنازعهم وذهاب ريحهم وهيبتهم .

ملحمة التوابين العشرة :

ومما لا شك فيه أن ابن أعثم الكوفى شديد الحماس للجهـــاد فى سبيل الله ، شديد الاعجاب بمواقف الأبطال ، وأعمـــال الصناديد من شجعان المسلمين فى ميدان الحرب ، ويسعده كثيرا جدا أن يصـــــف بالتفصيل نزالا عنيفـــا بين أحد المجاهدين ، وبين قرنه من الكفـــرة المشركين ، ويخصص لذلك مســـاحة كبيرة من كتابه « الفتوح » ، فى الوقت الذى لا يهتم فيه أدنى اهتمام بتحديد زمان ومكان هــذه المعركة ، أو النتيجة النهائيـــة لتلك الحرب ، وما ترتب عليهـــا من النتائج الأخرى السياسية أو العسكرية ، أو كيف أصبحت العلاقة بين الطرفين بالنظر الى ما فرضـــته هذه المعركة من مواقف جديدة لابد أن يتمخض عنهـــا أى اشتباك مســـلح قـــد وقـــع سواء على الحدود الفاصلة بين الدولتين أو فى داخل أرض احداهمـــا !! .

---

(١٤٢) جواد على : المفصل ٢/٥١٥ .

ان ذلك كله على مقدار أهميته وخطورته التاريخية لا يثير اهتمام ابن أعثم ، بقدر ما تثيره المواقف الشخصية للرجال فى أثناء سير المعركة ، وما تنتجه قرائح هؤلاء الرجال من أشعار وأرجاز هى — كما يزعم ابن أعثم — من وحى الموقف ، وبنت الساعة التى يجرى فيها الحدث ! ويندفع صاحب الفتوح فى تصوير هذه المواقف الفردية فى خضم المعارك ، حتى يغفل عن المعركة التى يؤرخها ذاتها ، فتحس وأنت معه تتابع هذه الصور البطولية والأعمال الفدائية الشخصية ، تحس كأنه لا أحد فى الميدان الا أولئك الرجال المسلمون وأقرانهم من أبطال العدو ! وأن سائر رجال الفريقين قد توقفوا عن الصدام والاقتتال ، وتفرغوا لمشاعدة هذا البطل وهو يجندل « العلج » القوى الصنديد بضربة من سيفه أو طعنة من رمحه ، فيخر صريعا ، مضرجا فى دمائه ، فترتفع حناجر المسلمين بالتكبير والتحميد والدعاء لذلك البطل بالتأييد ، وحينئذ يسرع أصحاب القتيل أو الجريح الى حمله وابعاده ، كى يأتى رفيقه ليثأر له من قاتله ، فاذا به يلقى مصير صاحبه ، وهكذا حتى تفاجأ بأن الله قد ألقى الرعب فى قلوب الأعداء ، ففروا من الميدان ، أو يئسوا من النصر فطلبوا الصلح فأجابهم المسلمون اليه !! .

والمثال الذى أعرضه بين يديك عما قليل ، هو نموذج يصور لك مدى شغف ابن أعثم بهذا اللون من القصص الشخصى الذى يجيد تأليفه ونسجه فى ثنايا فتوحه مقدما اياه على التأريخ للفتح الذى يعرضه أو المناسبة التى يسجلها فى موضعها من كتابه وتلك هى مهمته الأولى كمؤرخ ، بل انك لترى فى هذا المثال أن ابن أعثم لم يكترث قليلا أو كثيرا بالمناسبة التاريخية التى جعلها وعاء واطارا لتلك القصة ، فكان الخطأ فيها شديدا ، يؤكد أنه — كما أسلفنا — سيىء الحفظ ، شديد الغفلة ، كثير الخطأ .

قال ابن أعثم وهو يقدم قصته : « ذكر الفتية المدنيين التوابين ، وهو خبر حسن » .

ذكر عيسى بن دأب (١٤٣) : أن هؤلاء الفتية كانوا عشرة نفر منهم (كذا) سليمان بن عمرو القرشى ، وأخوه يحيى بن عمرو ، وهـارون ابن الحصين التميمى ، وأخوه أحمد بن أحمد بن الحصين ، ومحمـد بن الحصين ، ومحمد بن زرعة العبدى ، وأحمد بن محمد اليشـكرى ، وبشر بن مطر الأزدى ، وسعيد بن اسماعيل الطائى الأسدى ، وعبد الله بن عمرو الطائى ، ويعقوب بن عبد الله الأنصارى (١٤٤) .

قال عيسى بن دأب : وكان السبب فى توبة هؤلاء القوم ، أنهم كانوا بالمدينة على أمر من الأمور التى لا يحبها الله عز وجل ، ولكل واحد منهم جارية يهواها من بنات العرب (١٤٥) ! قال : وكان هؤلاء الفتية العشرة فى كل نعمة سابغة ، لا يأتى عليهم يوم من الأيـام ، الا وهم أشد سرورا ، وأطول حبورا من يومهم الذى مضى ، الى أن وقع الخير اليهم ، بأن عبد الملك بن مروان قد وجه جيشـا الى بلاد الروم ! وأراد الله عز وجل ما أراد من الخير ، وأحب الله عز وجل أن ينقذهم مما هم فيه من ظلمة المعاصى الى نور الطاعة ، فأول من ارتدع منهم عما هو فيه ، ودعته نفسـه الى التوبة والانابة الى الله

---

(١٤٣) هو عيسى بن يزيـد بن بكـر بن داب الليثى البكرى والمعروف بابن دأب المتوفى سنة ١٧١ هـ كان شاعرا ، راوية ، وكان يجيد الخطب والرسائل جدا — كما يقول الجاحظ — وكان يضع الحديث والشعر وأحاديث السمر ، وكان صاحب حظوة عند الهادى العباسى ، قـال الخطيب كان يضـع الحديث بالمدينة ، وابن شوكر يضع الحديث بالسند ، وفيهمـا يقول خلف الأحمر « أحاديث ألفهـا شوكر وأخرى مؤلفة لابن دأب » انظـر الجاحظ البيان والتبيين ٣٢٤/١ ، ابن قتيبة : المعارف ص ٥٣٧ — ٥٣٨ ، الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ١٤٨/١١ — ١٥٢ ، ياقوت : معجم الأدباء ١٠٤/٦ الذهبى : ديوان الضعفاء ص ٢٤٣ .

(١٤٤) هؤلاء هم عشرة نفر ، ولذلك كان ينبغى أن يقول أولا « وهم » بدل « منهم » .

(١٤٥) ثم ذكر اسم كل فتى منهم واسم الجارية العربية التى يهواها منهن ..

تعالى : يحيى بن عمرو القرشى ، فعزم على ذلك ، وجعل يسره فى نفسه ، ولا يذكر لاخوانه شيئا مما قد عزم عليه ، وهو مع ذلك يجالسهم ويحادثهم ! قال : فبيناهم ذات يوم على شرابهم ولهوهم ، اذ أخذوا شيئا من تناشد الأشعار التى قد أحدثوها بينهم ، فجعل كل واحد منهم يقول شيئا ، ويحيى بن عمرو القرشى ساكت لا ينطق بشىء ، حتى فرغوا من نشيدهم ، فأحب أن يلقى اليهم شيئا مما قد عزم عليه من أمر التوبة ، ونزوع ما هو عليه ، فأنشأ يقول :

قالت سلوت ، فقلت لست بجاحد ... أنا والمهيمن ذى الجلال الواحد
وسلخت ودك من فؤادى مثل ما ... سلخ النهار من الظلام الراكد
قالت فعد ، فالعود عندى أحمد ... فأجبتها : هيهات لست بعائد
انى أخاف عذاب رب سرمد ... تبدو فضائحه ولست ببائد ؟

قال : فلما سمع القوم من يحيى هذه الأبيات أنكروا ذلك منه انكارا شديدا بليغا ، ثم انهم عضوه بألسنتهم ، وعذلوه ، فأكثروا فيه من عزله ولومه ، ثم قالوا : يا هذا ! قد سمعنا منك شيئا نخاف أن يكون فيه تفريق جماعتنا ، وتشتيت ألفتنا ، واننا نناشدك الله فى ذلك . قال : فتبسم يحيى بن عمرو ثم حرك رأسه ، وأنشأ يقول :

ان فى اللهو ما علمت سرورا ... لا يرى فى حوادث الأقدار
غير أنى تركت ذلك خوفا ... وحذارا من شر عار ونار
فأنيبوا الى الاله وتوبوا ... كم الى كم نقيم فى الاصرار

فلما سمع القوم ذلك ، أقبل عليه سليمان بن عمرو فقال : والله يا أخى ما عدا جميع ما تكلمت به سويداء قلبى ، ولقد أخذ بمجامع قلبى وعقلى ، حتى لقد غلب على سمعى وصدرى ، وحال بينى وبين لذتى ،

ولقد علمت أن الأمر كما ذكرت ، وأن الرغبة فيما رغبت ، ثم أنشأ سليمان يقول :

يا من يلوم مرفقا يدعــو الى اسـعاده
أبدى النصيحة اذ دعا لم يأل فى اجهاده
لا تنكروا ما قــاله من بذله لرشـاده
فلقد أتى بنصـيحة موصـولة بسـداده

فلما سمع القوم كلام سليمان بن عمرو ، وميله الى أخيه ، جعل بعضهم يقول لبعض : هذا ما كنا نحذر من تفريق الألفة وتكدير صفو العيش ، فعند الله نحتسب ما فجعنا به منكما !؟ ثم انصرف القـوم عن مجلسهم يومهم ذلك ، وهم مغمومون بأمر يحيى بن عمرو وأخيه سـليمان •

فلما كان فى الليلة المقبلة ، اجتمعوا أيضا فجلسوا ، فلما اطمأن بهم المجلس أقبل عليهم يحيى بن عمرو فقال : يا أخوتى ويا أخلائى ، ومن تقر عينى بصلاحهم واجتماع كلمتهم ! انه قد ينبغى للراقد أن يستيقظ من رقدته ، ويستجلى من غشوته ، ومهما شككتم فى شىء فلا تشكوا فى الموت • انه نازل بى وبكم ، وأسأل الله العصمة والتوفيق والتسديد لى ولكم ، ثم أنشأ يقول :

دعوتكم للرشـد والنصح جاهدا ومازلت للاخوان مذ كنت ناصحا
فان تقبلوا نصحى تنالوا سعادة وتأتوا طريقا بين القصد واضحا
ومن يترك القصـد المنير طريقه يلاقى غـدا نارا ويخلد كالحـا

قال : ثم أقبل عليهم سليمان بن عمرو فقال : يا اخوتى ومن قـد عظمت حقوقهم على وابيضت أيديهم عندى ، انكم قد علمتم ما افترقنا عليه فى ليلتنا الماضية ، ومادعاكم اليه أخى يحيى بن عمرو الناصح لكم الشفيق عليكم ، فان تجيبوا الى التوبة والنزوع عما أنتم عليه ، فحظكم

أصبتم ، والى الخير أجبتم ، وان تقيموا علــى ما أرى من لغطكم ، واتباعكم أهواءكم ، فانى أسأل الله لكم التوفيق — والسلام ، ثــم أنشأ يقول :

سـألت الهى أن يؤلف بيننـا ... على الخير كالتأليففىسائر الدهر
فقد عشتم عصرا وعصرا فاننـا ... لفىغمرة جهلاء نهوى وما ندرى
نلجج فى بحر سـكارى بحيرة ... فحتى متى لسنا نفيق من السكر
وتوبوا تنالوا جنـة الخلد انمـا ... ينال جنان الخلد من كان ذا صبر

فلما سمع بشر بن مطر الأزدى مقالة يحيى ، واستحكم قولهما فى قلبه أعجبه ذلك ، ثم قال : لقد علم من أعين عقلا وأحضرهما أين موضع الحق والسلام ، ثم أنشأ يقـول :

لعمرى لئن بعت الهداية بالعمى ... وآثرت غير الحـق انى لخاسر
أأترك حظى بعد اذ أنا قـادر ... على أخذه والحـق فيه بصائر
سـأجبر نفسى عن هواها وغيها ... بصبر قوى الحزم والحر صابر

فلما سمع القوم مقالة بشر بن مطر الأزدى غمهم ذلك غما شديدا ، ثم أقبل هارون بن الحصين على أصحابه فقال : انا لله وانا اليه راجعون! ما أعظم الرزية بفرقتكم ، وأجل المصيبة بتباعدكم ، والله ما أظن هذا الأمر الا مشتتا جماعتنا ، مكدرا علينا صفو عيشنا ، لأن الذى دعوتنا اليه من مزايلة ما نحن فيه شديد ، وهو أثبت وأرسخ من أن يزيلـه العظات ، أو أن يقلعه الصفات .. ثم افترقوا أيضا ليلتهم مغمومين !!

فلما كان فى الليلة الثالثة اجتمعوا ، فلما اطمأن بهم المجلس ، أقبل عليهم محمد بن زرعة العبدى فقال : يا اخوتاه ، اسمعوا عنى كلامى وتدبروا بعقولكم ، فقد أتيتكم بأعجوبة ! فقالوا : هات ما بدا لك فقال : اعلموا أنى فارقتكم الليلة ، وصرت الى منزلى أرقا شديدا ، حتى اذا كان قبيل الصبح ، أغفيت اغفاء ، فاذا أنا بآت قد أتانى فى منامى وهو يقول هذه الأبيات :

يا تارك القصــــد بعد معــرفة ... وســــالكا غيره من الطـــرق
يحيى وأصـــحابه على رشـــد ... كما جلى الليل ســـاطع الفلق
فلا تكونن كالمقيم عــــلى ... دحض مزل أشــفى عــلى غرق

قال : فلما سمعت ذلك استيقظت فزعا مرعوبا ، حتى كاد الخفقان أن ينزع قلبى ، حتى سكننى من كان بحضرتى • فأقبل عليه يعقوب بن عبد الكريم الأنصارى ، فقال : يا أخى ، فكأنى والله ، واياك انما كنا على أمر واحد ، غير أن الألفاظ مختلفة ، وذلك أنى قمت عن مجلس حين افترقنا بالأمس وبى من الفرقة والأسف لتشتيت الفرقة ما لا أبلغ وصفه حزنا على اخوانى ، وما رأيت من مفارقتهم لنا ، ونقضهم علينا ما نحن فيه من الألفة والمودة ، فأتيت الى منزلى ، وظللت عامة ليلى أدير عينى على الغمض فلا أقدر على ذلك ! فبينا أنا كذلك بين النائم واليقظان ، اذ أنا بهاتف يهتف بى وهــو يقول :

يا خائضــا فى غمــرة الجهــل ... وحائدا عن واضـــح السبل
لســت على شىء فلا تكــذبن ... فى راجــع التــوبة فى مهـــل
من قبل يــوم معظم هـــائل ... يشــيب رأس المرضــع الطفــل

فلما سمعت ذلك استيقظت ، وما معى شىء من عقلى ! فهذا والله يا اخوتى ما رأيت ! فلما سمع القوم ذلك عجبوا ، وجعل بعضهم يقول لبعض : كيف خص محمد بن زرعة ويعقوب بن عبد الكريم بهـؤلاء الهواتف من بيننا ؟ ••• ثم أقبل سعيد بن اسماعيل الأسدى على محمد ابن زرعة وهو يقول :

لولا الذى أضمرت من غــدره ... مــاراعك الهـــاتف اذ يهتف
خصصت بالهــاتف من بيننـــا ... مالك فى قــولك لا تنصـــف
والله رب العــرش يا اخـــوتى ... فـــاننى مجتهــــدا أحلف
لاخنت من أهــوى ولا شــتمته ... جهــرا ولا مثلى بــه يوصــف

ثم أنشأ هارون بن الحصين التميمى وهو يقول :

أبا الأحلام أسلو عن هـــواى   لأقـــوام أتـــوا بالترهـــاته
أتـــونا يزعمـــون بـــأن آت   أتى بنصـــيحة عنـــد البياته
يحضـــهم على هجر وغـــدر   وقطع الحبـــل منا والشـــتاته
فمن يك راغبا عن وصـــل الف   فلســـت براغب حتى المماته

قال : وتفرق القوم أيضا ليلتهم تلك ، وقد وفق الله عز وجل للتوبة خمسة نفر ... ويقى منهم خمسة .

قال : وجعل هؤلاء الخمسة الذين تابوا ، يدعون الله ويتضرعون فى أن يراجع بقلوب اخوانهم الى ما هم عليه من التوبة ، فلم يزالوا كذلك ، الى أن استجاب الله منهم دعاءهم فى اخوانهم ، وأقبل بقلوبهم الى طاعته ...

قال : ثم انهم تواعدوا أن يجتمعوا فى مشربة لهم ؛ فيكلم بعضهم بعضا ، فاجتمعوا فى مشربتهم تلك ، وهى مشربة معروفة بالمدينة يقـــال لها مشربة التوبة ، وهى مشربة على العطارين بالمدينة ؟ فلما اجتمعوا هنالك اعتنقوا ؛ وبكى بعضهم الى بعض لطول الفرقة ، وما كانوا عليه من التباعد ، وحمدوا الله على ما ألف بينهم من التقوى ، وســـألوه التوفيق والعصمة مما هم (كذا) عليه [١٤٦] ..

---

(١٤٦) هنا ينتهى الفصل الأولى من تلك القصـــة ــ الفتوح ١٧١/٧ ــ ١٧٩ . وفى بداية الفصـــل الثانى منها سقط من النص قدر صفحة ونصف صفحة ، ولذلك لم ندرك مشهد خروج التوابين الى الجهاد مع مسلمة بن عبد الملك ، واستشهاد ثلاثة منهم ، ولكن فيما بقى غناء عما فات .

قال ابن أعثم : ... ثم حمل — يعنى أحمد بن الحصين — على العلج ، فضربه ضربة على فخذه فقطعها ، فسقط العلج ميتا . واذا بعلج آخر يقال له بولص قد بدر اليه ، فنظر اليه أحمد ، فقصد نحـوه وهو يقــــول :

دونك حـــــربا لا تقيه ترسى صبرا عـلى المكروه منى نفسى
كيما أنال منزلا فى القـــدس فانمـا الدنيـا كيــوم أمس

واختلفا بطعنتين ، طعنه العلج فى خاصرته ، فجدله قتيلا — رحمه الله — فلما قتل هارون بن الحصين ، وأخوه أحمد ، خرج من بعدهما سعيد بن اسماعيل الأسدى نحو ذلك العلج وهو يقول :

يا بولص الـــروم اليــك نفسى قد طال فى ظل الخطـايا حبسى
اليوم أحمى اخــــوتى بالحمس كيما يكـون بطن سـبع رمسى

قال : والتقيا بضربتين ، ضربه الأسدى ضربة جدله قتيلا .. وخرج من بعــده علج آخــر يقال له : قسطنطين الأصغر ، فقصده الأسدى وهو يقول :

يا أيهــا الداعى الى الجـــلاد فى حـومة الأبطال والأنجاد
أتاك ليث سلس القيــــاد ذو صـولة يكرهها الأعـادى

ثم تطاعنا برمحيهما ، فلم يصنعا شيئا ، وتضاربا بسيفيهما فلم يصنعا شيئا ، فاعتنق كل واحد منهما صاحبه حتى سقطا عن فرسيهما الى الأرض ، فشد عليه العلج بخنجر كان معه ، فوجأه فى نحـره ، فقتله — رحمه الله — وخرج من بعده يعقوب بن عبد الكريم الأنصارى نحو القسطنطين — هذا العلج — وهو يقول :

لتذهبن اليـو م نفسى أسفا اذ كنت بعد خمسـة مخلفا
قد نلت من لـذة عيشى ما صـفا حسبى الذى عاينت حسبى وكفى

ثم حمل الأنصارى على قسطنطين العلج فقتله • ثم وقف ، ودعا الى البراز ، فلم يخرج اليه أحـد ، وكاعت الروم (١٤٧) بعـد قتـل قسطنطين !

قال : وجعل مسلمة بن عبد الملك (١٤٨) ومن معه من المسلمين يتعجبون من اقدام هؤلاء الفتية على الموت ، وصبرهم على الحـرب ، وكل واحد منهم يتلو صاحبه !! والتفت بشر بن مطر الأزدى الى اخوانه الذين بقوا معه : يعقوب بن عبد الكريم ، وأحمد بن محمد اليشكرى ، ومحمد بن زرعة العبدى ، فقال : يا اخوتى ! انه قد قتل منا خمسة ، ومضوا لسبيلهم ، ونحن هنا أربعة ، ونرجو أن نلحق بهم عن قريب ان شاء الله • ولكن هل ترون ما أرى ؟ قالوا : ومانرى يرحمك الله ؟ فقال : ويحكم ! انى رفعت رأسى الى السماء ، أنظر الى هذه الغمامة التى قد أظلت هذا العسكر ، فرأيت عجبا عجيبا ، وذلك أنى رأيت رجالا لم أر على حسنها ، ونظرت الى نسوة يطلعن علينا من هذه الغمامة ، ويضحكن الى اخواننا هؤلاء الذين قتلوا ! فهذا ما رأيت ؟ قال : فعند ذلك اقشعرت جلود القوم ، ووقفت شعورهم ، واشتاقوا الى ما شوقهم اليه صـاحبهم ، ثم غلبتهم أعينهم بالبكاء والترحم على اخـوانهم ، وجعل بعضهم يقول لبعض : انه يجب علينا الآن ألا نقصر فى جهاد هؤلاء القوم الكفار ، فعسى الله أن يجمعنا مع اخواننا فى مسـتقر رحمته •

فكان أول من تقدم منهم الى الحـرب يومئذ بشر بن مطـر الأزدى ، وهو الذى رأى ما رأى ، ثم تبعه محمد بن زرعة العبـدى ••• ثم تقدم أحمد بن محمد اليشـكرى — وهم جميعا يرتجزون بيتين بيتين ، ثم حملوا فاقتتلوا قتالا شـديدا ، ثم حمل يعقـوب الأنصارى حملة يريد باب الحصـن ، ولحقه اخوته الثلاثة ، حتى

---

(١٤٧) أى جبنوا وخافوا .
(١٤٨) قائد جيش المسلمين فى هذه الموقعة .

صاروا الى باب حصن طوانة [١٤٩] ، فجعلوا يقاتلون أشد القتـال ! وصاح مسلمة بالمسلمين ، فحملوا وانكشفت الروم من بين أيديهم كشفة قبيحة • وجعل قوم يقاتلون ، وقوم ينقبون السور نقبا واسعا ، وبادر يعقوب بن عبد الكريم الأنصارى ، فدخل الحصن من ذلك النقب ، جعل يقاتل أهل الحصن وحده ، فلم يزل كذلك حتى قطعت احدى قدميه ، فوثب قائما على تلك الحالة يقاتلهم على فرد قدم (كذا) وهو يقول :

أضرب بالسـيف على فرد قـدم والحر لا يجزع من وقع الألم !
والموت بعد الألف أشفى للقرم مع الذى أرجوه من بارى النسم؟
أرجو جنانا حققت كل النعـم مع فتية كانوا ـ لعمرى ـ كالبهم
فى مجمع الحرب اذا الحرب اضطرم خوفا من الله العزيز ذى النقم!

قال : فلم يزل الأنصارى يقاتلهم وحده ، ويدفعهم عن ذلك ، حتى دخل اليه اخوته الثلاثة فأعانوا ودفعوا الروم عن ذلك النقب ، ثم انهم كبروا وصاحوا بأصحاب مسلمة ، فدخل الناس من ذلك النقب وفتحوا باب الحصن ، والأنصارى ينزف الدم من رجليه حتى مات ـ رحمه الله ـ وقتل اخوته الثلاثة الذين كانوا معه ـ رحمة الله عليهم أجمعين ••• ثم وجه مسلمة بالخمس (خمس الغنائم) الى أبيه عبد الملك بن مروان ، وكتب اليه يخبره بما فتح الله على يديه من حصن طوانة [١٥٠] ••

وهكذا اختتم ابن أعثم قصة هؤلاء الفتية التوابين ، باستشهادهم جميعا فى معركة ظافرة ، كانوا هم عنصرا من عوامل النصر الذى حققه جيش مسلمة بن عبد الملك ، غير أن ابن أعثم قد فاته وهو منصرف تماما الى تدبيج هذه القصة واحكامها ، أن فتح طوانة ـ بقيادة مسلمة ـ

---

(١٤٩) بلد بثغور المصيصة ـ ابن عبد الحق : مراصد الاطـلاع ٨٩٥/٣ .

(١٥٠) الفتوح ١٧٩/٧ ـ ١٨٣ .

لم يكن فى عهد عبد الملك بن مروان المتوفى عام ٨٦ هـ ، وانما تم هذا الفتح الكبير فى خلافة ابنه الوليد بن عبد الملك وبالتحديد فى عام ٨٨هـ ، كما قرر ذلك عامة المؤرخين (١٥١) ! واذن فان المقدمة المثيرة والطويلة ، التى قدم بها ابن أعثم لقصة هؤلاء الفتية التوابين ، هى كذلك قصة أعثمية أخرى لا أصل لها تاريخى ، لأن صاحب الفتوح قد قرر فى هذه المقدمة (٧/١٦٧ — ١٧٠) أن عبد الملك أصـــدر الأوامر والتعليمات المشددة والعاجلة بحشد الجيوش من جميع الأمصار : من الحجاز ، واليمن ، ومصر ، والعراق ، وأرمينية وأذربيجان ، وذلك بعد أن بلغته الأنباء المقلقة بتحرك الروم فى جموع عظيمة يريدون مفاجأة المسلمين فى دارهم ، وأخذ الشـــام من أيديهم ، فلما احتشد الجند المسلمون بالشـــام خطبهم عبد الملك ووعظهم ، وأعلن أنه قـــد عين ابنه « وثمرة عينه وثمرة فؤاده » مسلمة قائدا عليهم ، وأصدر اليه واليهم تعليماته النهائية ودعا لهم بالنصر ! ، كل ذلك ، وأشباهه من أقوال ابن أعثم ، وهو لا يدرى أن عبد الملك كان قد انتقل الى جوار ربه منذ عـــامين اثنين !! ولكن مقصـــوده الأهم هـــو القصـــة ، وبعد ذلك غير مهم أبدا أن يكون الأصل التاريخى صحيحا أو غير ذلك ..

أما القصة فى ذاتها — متنا وصياغة — فهى تنبىء عن حقيقتها وأصلها ، ولا يحتاج قارئها الى كبير عناء كى يدرك أنها مصـــنوعة من وحى خيال ابن دأب ، وابن أعثم معا ، وقد أخبرت منذ قليل بما يقوله العلماء والنقاد فى ابن دأب ومنهم « خلف الأحمر (ت نحو ١٨٠هـ) والجاحظ (ت٢٥٥هـ) على الخصوص ، فقد رموه بما يمنع الباحث المتحرى من تصديق روايته ، وهو وضع القصص والأخبار ، والأشعار وأنه كان يحسن ذلك جدا .. وهو لا شك يذكرنا بصاحبه ومعاصره سالف الذكر « الهيثم بن عدى » .

---

(١٥١) راجع : خليفة بن خياط : تاريخ ص ٣٠٢ ، ابن قتيبة : المعـــارف ص ٣٥٩ ، والطبرى : تاريخ ٦ / ٤٣٤ ، ابن الأثير : الكامل ٤/٥٣١ ، النويرى : نهاية الأرب ٢١/٣١١ .

وبعد ، ألا ترى معى أن ابن أعثم الكوفى ، قد نقل — أو اصطنع — قصة هؤلاء الفتية التوابين ، ثم بحث لها عن مناسبة تاريخية ملائمة يصبها فيها ، حتى تأخذ شكلها النهائى كقصة مكتملة مشوقة ، لها نصيب من التاريخ الذى يضفى عليها أهمية وجدارة ، تهيئان لها سـبيلا الى القارىء !؟

الموقف فى أرمينيا وأذربيجان :

كان الجراح بن عبد الله الحكمى : بطلا ، شجاعا ، مهيبا طوالا ، عابدا قارئا ، جليل القدر ، كان مقدم الجيوش ، وفارس الكتائب ، وروى أنه قال : « تركت الذنوب حياء أربعين سنة ثم أدركنى الورع ، وهو دمشقى . نزل البصرة والكوفة ، وكان من القراء ، وكان اذا مر فى جامع دمشق يميل رأسه عن القناديل من طوله .. وقد ولاه عمر بن عبد العزيز خراسان وسجستان ، وعمل ليزيد بن عبد الملك ثم لأخيـه هشام من بعده ، وظل واليا على خراسان وأرمينية حتى استشهد فى غزوة ضد الترك والخزر فى عام ١١٢هـ . وقال سليم بن عامر : دخلت على الجراح ، فرفع يديه ، فرفع الأمراء أيديهم ، فمكث طويلا ، ثم قال لى : يا أبا يحيى ، هل تدرى ما كنا فيه ؟ قلت لا ، وجدتكم فى رغبة فرفعت يدى معكم . قال : سألنا الله الشـهادة . فوالله ما بقى منهم أحد فى تلك الغزاة الا استشهد !! قال الواقدى : كان البلاء بمقتل الجراح على المسلمين عظيما ، بكوا عليه فى كل جند [١٥٢] ! .

ولماكان الجراح الحكمى من رجال الدولة البارزين ومن قـوادها المشهورين ، فقد سجل المؤرخون خبر مقتله على أيدى الخزر والترك فى فصل خاص لأهميته وخطورته ، وكذلك لخطورة ما ترتب عـلى

---

(١٥٢) خليفة بن خياط : تاريخ ص ٣١٠ ومواضع كثيرة أخرى . ابن أبى حاتم : الجرح والتعديل ٢/٥٢٢ — ٥٢٣ . ابن الأثير : الكامل ٥/٤٨—٥٢ الذهبى : سير أعلام النبلاء ٤/١٨٩ — ١٩٠ .

مقتله من نتائج سياسية وعسكرية ، فقال ابن الأثير [١٥٣] : فى هـذه السنة (١١٢هـ) قتل الجراح بن عبد الله الحكمى ، وسبب ذلك ما ذكرناه قبل ، من دخوله بلاد الخزر وانهزامهم ، فلما هزمهم اجتمع الخـزر والترك من ناحية اللان [١٥٤] ، فلقيهم الجراح بن عبد الله فيمن معه من أهل الشام ، فاقتتلوا أشد قتال رآه الناس ، فصـبر الفريقان ، وتكاثرت الخزر والترك على المسلمين فاستشهد الجراح ومن كان معه بمرج أردبيل [١٥٥] ، وكان قد استخلف أخاه الحجاج بن عبد الله على أرمينية •

ولما قتل الجراح طمع الخـزر ، وأوغلوا فى البلاد حتى قاربوا الموصل ، وعظم الخطب على المسلمين ! ••• ولما بلغ هشاما خبر مقتله دعا سعيدا الحرشى [١٥٦] ، فقال له : يلغنى أن الجراح قد انحاز عن المشركين ! قال : كلا يا أمير المؤمنين ، الجراح أعرف بالله من أن ينهزم ، ولكنه قتل ! قال : فما رأيك ؟ قال : تبعثنى على أربعين دابة من دواب البريد ، ثم تبعث الى كل يوم أربعين رجلاً ، ثم اكتب الى أمراء الأجناد يوافونى •

---

(١٥٣) الكامل فى التاريخ ٥/١٥٩ — ١٦٢ •

(١٥٤) بلاد فى طرف أرمينية (شرقيها) مجـاورة للخزر ، ويسميها العامة علان — ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع ٣/١١٩٥ •

(١٥٥) أردبيل : من أشهر مدن أذربيجان ، وكانت قبل الاسـلام قصبتها . ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع ١/٥٣ •

(١٥٦) هو : سعيد بن عمرو بن أسود بن مالك من بنى الحريش بن كعب ، من القـادة المشـاهير فى الدولة الأموية ، فتك بشوذب الخارجى ومن معه سنة ١٠١ هـ ، وتولى خراسان سنة ١٠٣ هـ ، وغزا بأرمينيا وبلاد الخزر ، وتوفى عام ١١٢ هـ • ابن حزم : جمهرة أنسـاب العـرب ص ٢٨٨ ، والطبرى : تاريخ ٦/٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٥٧٧ ، ٦١٩ ، ٧/٧ ، ٩ ، ١١ ، ١٢ ، ١٥ — ١٨ ، ٧٠ ، ٨/١٣٥ ، ١٤٤ ، ١٦٧ ، ٣١٦ • ابن الأثير : الكـامل ٥/٦٩ — ٧٠ ، ١٠٣ — ١٠٤ ، ١١٠ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٥٩ — ١٦٢ • الزركلى : الأعلام ٣/٩٩ •

ففعل ذلك هشام ، وسار الحرشى ، فكان لا يمر بمدينة الا ويستنهض أهلها ، فيجيبه من يريد الجهاد ، ولم يزل كذلك حتى وصل الى مدينة أرزن (١٥٧) ، فلقيه جماعة من أصحاب الجراح ، وبكوا وبكى لبكائهم ، وفرق فيهم نفقة وردهم ، وجعل لا يلقاه أحد من أصحاب الجراح الا رده معه ، ووصل الى خلاط (١٥٨) ، وهى ممتنعة عليه ، فحصرها أيضا وفتحها ، وقسم غنائمها فى أصحابه ، ثم سار عن خلاط ، وفتح الحصون والقلاع شيئا بعد شىء ، الى أن وصل الى برذعة (١٥٩) فنزلها .

وكان ابن خاقان يومئذ بأذربيجان يغير وينهب ويسبى ويقتل ، وهو محاصر مدينة ورثان (١٦٠) ، فخاف الحرشى أن يملكها ، فأرسل بعض أصحابه الى ورثان سرا يعرفهم وصولهم ويأمرهم بالصبر ، فسار القاصد ، ولقيه بعض الخزر ، فأخذوه وسألوه عن حاله ، فأخبرهم وصدقهم ، فقالوا له : ان فعلت ما نأمرك به أحسنا اليك ، وأطلقناك ، والا قتلناك . قال : فما الذى تريدون ؟ قالوا : تقول لأهل ورثان ، انكم ليس لكم مدد ولا من يكشف عنكم ما بكم ، وتأمرهم بتسليم البلد الينا . فأجابهم الى ذلك .

فلما قارب المدينة ، وقف بحيث يسمع أهلها كلامه فقال لهم : أتعرفونى ؟ قالوا : نعم أنت فلان . قال : فان الحرشى قد وصل الى

---

(١٥٧) ارزن : مدينة مشهورة ، لها قلعة حصينة ، كانت من أعمر نواحى أرمينية . وأرزن الروم : بلدة أخرى من ارمينية أيضا . وأرزن : موضع بأرض فارس قرب شيراز . ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع ٥٥/١ .

(١٥٨) خلاط : بلدة عامرة مشهورة وهى قصبة أرمينية الوسطى ، يضرب المثل ببردها فى الشتاء . المصدر نفسه ٤٧٦/١ .

(١٥٩) برذعة : بلد بأقصى أذربيجان . وقيل : هو قصبة أذربيجان . وقيل : هى مدينة أران . المصدر نفسه ١٨٢/١ .

(١٦٠) ورثان : بلد فى حدود أذربيجان ، بينه وبين الرس فرسخان ، وبينه وبين بيلقان سبعة فراسخ . المصدر نفسه ١٤٢٢/٢ .

مكان كذا فى عساكر كثيرة ، وهو يأمركم بحفظ البلد والصبر ، ففى هذين اليومين يصل اليكم . فرفعوا أصـــواتهم بالتكبير والتهليل . وقتلت الخزر ذلك الرجل ، ورحلوا عن مدينة ورثان . فوصلها الحرشى فى العساكر ، وليس عندها أحد ، فارتحل يطلب الخزر الى أردبيل ، فسار الخزر عنها ، ونزل الحرشى باجروان (١٦١) ، فأتاه عـــلى فرس أبيض ، فسلم عليه وقال له : هل لك أيها الأمير فى الجهاد والغنيمة قال : كيف لى بذلك ؟ قال : هذا عسكر الخزر فى عشرة آلاف ، ومعهم خمسة آلاف من أهل بيت من المسلمين أسارى أو سبايا ، وقـــد نزلوا على أربعة فراســـخ !

فسار الحرشى ليلا ، فوافاهم آخر الليل وهم نيام ، ففرق أصحابه فى أربع جهات فكبسهم مع الفجر ، ووضع المسلمون فيهم الســـيف ، فما بزغت الشمس حتى قتلوا أجمعون غير رجل واحد ! وأطلق الحرشى من معهم من المسلمين وأخذهم الى باجروان . فلما دخلها ، أتاه ذلك الرجل صاحب الفرس الأبيض ، فسلم وقال : هـــذا جيش للخـــزر ، ومعهم أموال المسلمين وحرم الجراح وأولاده بمكان كذا . فســـار الحرشى اليهم ، فما شعروا الا والمسلمون معهم فوضعوا فيهم السيف ، فقتلوهم كيف شاءوا ، ولم يفلت من الخزر الا الشريد ، واستنقذوا من معهم من المسلمين والمسلمات ، وغنموا أموالهم ، وأخذ أولاد الجراح فأكرمهم وأحســـن اليهم ، وحمل الجميع الى باجروان .

وبلغ خبر ما فعله الحرشى بعساكر الخزر ابن ملكهم ، فـــوبخ عساكره وذمهم ونسبهم الى العجز والوهن ، فحرض بعضهم بعضـــا ، وأشـــاروا عليه بجمع أصـــحابه ، والعود الى قتال الحرشى ، فجمع أصـــحابه من نواحى أذربيجان ، فاجتمع معه عساكر كثيرة وســـار

---

(١٦١) باجروان : قرية من ديار مضر بالجزيرة قرب الرقة . وهو أيضا مدينة من نواحى باب الأبواب قرب شروان : المصدر الســـابق ١/١٤٧ .

الحرشى اليه فالتقيا بأرض برزند [١٦٢] ، واقتتل الناس أشد قتال وأعظمه ، فانحاز المسلمون يسيرا ، فحرضهم الحرشى وأمرهم بالصبر ، فعادوا الى القتال وصدقوهم الحملة ، واستغاث من مع الخزر من الأسارى ، ونادوا بالتكبير والتهليل والدعاء ، فعندها حرض المسلمون بعضهم بعضا ، ولم يبق أحد الا وبكى رحمة للاسرى ، واشتدت نكايتهم فى العدو ، فولوا الأدبار منهزمين ، وتبعهم المسلمون حتى بلغوا بهم نهر أرس . وعادوا عنهم ، وحووا ما فى عساكرهم من الأموال والغنائم ، وأطلقوا الأسرى والسبايا ، وحملوا الجميع الى باجروان .

ثم ان ابن ملك الخزر جمع من لحق به من عساكره ، وعاد بهم نحو الحرشى ، فنزل على نهر البيلقان [١٦٣] ، وبلغ الخبر الى الحرشى ، فسار نحوه فى عساكر المسلمين فوافاهم وهم على نهر البيلقان فالتقوا هناك ، فصاح الحرشى بالناس ، فحملوا حملة صادقة ضعضعوا صفوف الخزر ، وتابع الحملات وصبر الخزر صبرا عظيما ، ثم كانت الهزيمة عليهم ، فولوا الأدبار منهزمين ، وكان من غرق منهم فى النهر أكثر ممن قتل !

وجمع الحرشى الغنائم وعاد الى باجروان فقسمها ، وأرسل الخمس الى هشام بن عبد الملك ، وعرفه ما فتح الله على المسلمين ، فكتب اليه هشام يشكره ، وأقام بباجروان ، فأتاه كتاب هشام يأمره بالمسير اليه ، واستعمل أخاه مسلمة بن عبد الملك على أرمينية وأذربيجان [١٦٤] .

---

(١٦٢) برزند : بلد من نواحى تفليس من أرمينية الأولى — وقال الاصطخرى : هى من أذربيجان . المصدر السابق ١/١٨٣ .

(١٦٣) بيلقان : مدينة قرب الدربند (باب الأبواب) تعد فى أرمينية الكبرى . المصدر نفسه ١/٢٤٤ .

(١٦٤) واقرأ أيضا فى هذه الحوادث بأوجز من ذلك : خليفة بن خياط تاريخ ص ٣٤٢ — ٣٤٣ ، الطبرى : تاريخ ٧/٧٠ — ٧١ ، النويرى : نهاية الأرب ٢١/٤١٤ — ٤١٧ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٩/٣١٤ — ٣١٥ .

لقد عرضنا فى الصفحات السابقة قصة استشهاد هذا المجاهد البارز ، الجراح الحكمى ، كما سجلها جمهور المؤرخين فى دواوينهم ، وقدمنا — فى ذلك — نص ابن الأثير ، باعتباره أطول النصوص الواردة فيه ، وأكثرها تفصيلا ، ومع ذلك فلا خلاف بينهم حول مضمون هذا الحادث الخطير ، وما تداعى بسببه من أحداث تالية ، كان لها نتائج بالغة الأهمية فى فتوح أرمينية وأذربيجان •

أما مؤرخنا — ابن أعثم الكوفى — فقد عالج هذه القصة بطريقته الخاصة الفريدة التى عهدناها فى النماذج التى سبق أن عرضناها فى هذا الفصل ، فلقد اعتبرها صاحب الفتوح فرصة مهيأة أمامه ، لينطلق مع خياله فى رسم صورة تفصيلية جديدة مختلفة تماما عما شهدناه من قول ابن الأثير ، حتى لقد أصبحت — فى حجمها — أضعاف قدرها الذى نعرفه ! ولولا أنه اعتمد فى تصويره للقصة على الأصل المروى عن المؤرخين السالف ذكرهم ، لقلنا انه يتحدث عن مناسبة أخرى ، ويعالج أحداثا لا نعرفها ، لكنه فى الواقع احتفظ بأصل هذه الحوادث وهيكلها ، ثم بنى على ذلك ما جادت به قريحته من اضافات متنوعة ، سوف تضع يدك عليها فى أثناء المقارنة التى لابد أن نقوم بها الآن ، ليتبين لك : كيف تلاعب ابن أعثم — دون حرج — بالتاريخ !! •

فهو — مثلا — يصور حالة الخليفة هشام بن عبد الملك ، بعد أن جاءه نعى الجراح بن عبد الله ، تصويرا منكرا غاية الانكار ، لأنه لا علاقة له ألبتة بما ورد فى روايات المؤرخين من وجه ، ومن وجه آخر ، لا يتفق مع صورة هشام التى يعرفها التاريخ لشخصيته القوية ، وحسن سياسته ، وادارته لشؤون الدولة (١٦٥) ! قال ابن أعثم فى ذلك الموقف :

---

(١٦٥) اقرأ سيرة هشام بن عبد الملك وما تمتع به من مميزات رئيس الدولة القوى عند : الطبرى : تاريخ ٢٠١/٧ وما يليها ، ابن الأثير :
=

« وجعل هشام بن عبد الملك يستشير وزراء خاصته (كذا ولعلها وزراءه وخاصته) فيما قد نزل به من أمر الجراح بن عبد الله وأصحابه، وامتنع من النوم ، وضاقت الأرض عليه برحبها !! ثم أقبل على مولى له يقال له سالم ، فقال : ويحك يا سالم ! ما الذى عندك من الرأى ؟ فقال سالم (وما أعجب ما قال !) : والله يا أمير المؤمنين ، ان دعاءك اياى للمشورة أعظم عندى مما فعلت الخزر بالمسلمين ! أنا عندك فى موضع مشورة ، فتستشيرنى ؟ عليك بأصحابك وصنائعك وقوادك ووجوه العرب ، فاستشرهم فى ذلك الأمر ، ثم افعل بعد ذلك ما تريد ، وبما يعزم الله لك عليه . قال : فجعل هشام يدخل الى منزله ويخرج ولا يستقر به موضع ، استعظاما لما قد انتهى اليه من أمر الجراح وأصحابه !! فكلمه خادم يقوم على رأسه فقال : يا أمير المؤمنين ، جعلنى الله فداك ! هؤلاء الأشراف الذين قد ألزمتهم بابك ، وأجريت عليهم أرزاقك ، لأى شىء يرادون الا لمثل هذا اليوم !؟ فقال هشام : والله لقد صدقت فى ذلك . على بهم ! فأدخل عليه كل من كان ببابه ، فاستشارهم هشام فى أمره . فتكلم جماعة وقالوا : يا أمير المؤمنين ، ليس لهذا الأمر الا سعيد بن عمرو الحرشى ، فانه رجل مجرب ، وقد علمت ما كان منه بخراسان فى جهاد الترك والسغد ، وهو رجل مقدام ، بطل همام ، غير أنه ضعيف البصر ، ونحن نرجو أن يقوم بأمر الخزر ! هو لها ما لها سواه (١٦٦) .

= الكامل ٥/٢٦١ — ٢٦٤ ، ابن خلدون : العبر ٣/٨٠ وما يليها ، المسعودى : مروج الذهب ٣/٢١٦ وما يليها ، ومن المراجع الحديثة : محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية ٢/١٩١ — ١٩٣ ، عمر فروخ : تاريخ صدر الاسلام والدولة الأموية ص ١٧٤ — ١٨٨ ، عبد الشافى عبد اللطيف: العالم الاسلامى ص ١٨٨ — ١٩٥ .

(١٦٦) الفتوح ٨/٤٢ — ٤٣ . وشتان بين ما قاله ابن أعثم ، وبين ما سجله مؤرخونا الذين يؤتمنون على ما حملوا من أمانة العلم . كما أنه لا يخفى عليك ما فى قوله من تنقص لهشام ، واظهاره بمظهر الحائر العاجز الذى لا يدرى ما يصنع .. وما كان هشام كذلك .

أما كيف أبلغ الحرشى بتكليفه بهذه المهمة العاجلة ، وبمـاذا أجاب الخليفـة حين اسـتدعاه ، وأصـدر اليـه تعليماتـه ؟ فكذلك قـد أبعد فيها ابن أعثم وأغـرب ، فقـال : وكان سعيد بن عمـرو هذا ينزل مدينة من مدائن الشـام يقال لهـا منبج [١٦٧] ، فأمـر هشام كاتبه فكتب : أما بعد يا سعيد ، فقد كان من أمـر الجراح بن عبد الله وأصحابه ما لا يخفى عليك ، فانظـر ان ألفاك كتابى هـذا وأنت قاعد فقم ، وان ألفاك قائما فلا تقعـد ، فان الأمـر يجل عن الوصـف . والسلام . فلمـا ورد كتاب هشـام على سعيد وقرأه وثب قائمـا ، واستوى على بغل له ، وأمـر بنى عمه بالركوب فركبوا ، وسار حتى قدم على هشـام ، وهو يومئذ على موضع يقال له : الرصافة [١٦٨] ، فأذن له ، فدخل ... فقال له هشـام : ياسعيد ، قتل أخوك الجراح ابن عبد الله ، وقتل اخوانك من المسلمين بأرض أردبيل ، فمـاذا عنـدك من الغنـاء ؟ فقال سعيد : يا أمير المؤمنين ! ما كنت قط أقوى منى هـذا اليوم ، فقـال هشـام : الحمـد لله على كل حال على ذلك ، وكيف بصرك من ضعفه ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، هـذا يوم يبصر فيه الأعمى ، ولا مخبأ لعطـر بعـد عروس ! [١٦٩] ! فقال هشام : أحسنت ، وهذا كان ظنى بك .

---

(١٦٧) منبج : بلد قديم كبير واسـع بين الفرات ومدينة حلب وهـو الى الفرات أقرب . ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع ١٣١٦/٣ .

(١٦٨) الرصافة : مواضع كثيرة . والمقصودة هنا ، هى رصافة الشام وتعرف برصافة هشـام بن عبد الملك — وهى الى الغرب من الرقة . المصدر السـابق ٦١٨/٢ .

(١٦٩) « لا مخبا لعطر بعد عروس » مثـل يضرب للشىء يدخـر لكى يستعمـل عند الحاجة اليه . وأصله : أن رجـلا تزوج امرأة فهديت اليه ، فوجدها تفلة (يعنى تغيرت رائحتهـا لتركهـا الطيب) ، فقال لهـا : فاين الطيب ؟ فقالت : خبأته ! فعندهـا قال لهـا : « لا مخبأ لعطـر بعـد عروس » ، وفى أصله رواية أخرى . انظر القاسم بن سلام : كتـاب الأمثال ص ٣٠٣ .

ثم أمر هشـــام فطلب رمحا من رماح أهل بدر ! فما أصيب الا رمح واحد ، فأتى به الى هشـــام ، فعقـــد للحرشى الى ذلك الرمح عقـــدا بيده ، ودفعه اليه • فقال الحرشى : يا أمير المؤمنين ، انى قد رأيت فى منامى رؤياعجيبة ، فقـــال هشام : وما الذى رأيت يا ســـعيد ؟ قال : رأيت كأنى أتيت بنخل كثيرة (كذا) فجعلت أحطمها برمحى ، حتى أتيت على غايتهـــا ، ثـــم انى أدخلت الى قبر الجراح بن عبد الله ، وأخرجت من فيه ، ثـــم انتبهت فزعا مرعوبا ، فصرت بنفسى الى محمـــد بن سيرين وقصصت عليه ما رأيت ، فقال : أما النخل فانهـــا عساكر الخزر ، وأنت قاتلهـــا ان شـــاء الله ، وأما دخولك قبر الجراح ، فأنت الثائـــــــر بدمه ! (١٧٠) فقال هشام : والله انى لأرجو أن يقصم الله بك الكفار ، وما ذلك على الله بعزيز • فتناول الحرشى اللواء ، ثـــم صـــاح بغلام له : يا فرج ! خذ هذا اللواء اليك ، فقال هشـــام : يا ســـعيد ، هـــذا اسمه ، أو أردت بذلك الفأل ؟ فقال : بل هو اسمه يا أمير المؤمنين • قال : فأمـــر هشام بن عبد الملك لـــه بخمسين درعا ، وخمسين سيفا ، وخمسين رمحـــا ، وخمسين مغفرا ، وخمسين قوســـا ، وخمسين كنانة ، وحمله على عشرة أفراس عربيـــة ، ثـــم انتخب له وجوه أهل الشـــام وأشراف العرب ، فضمهم اليه (١٧١) •

---

(١٧٠) ان أكبر شـاهد ، وأوضح دليل على عبث ابن أعثم وسوء حفظه ، وكذبه هو حشره محمد بن سيرين فى هـــذه المناسبة ! كيف ؟ لأن ابن سيرين توفى سنة ١١٠ هـ — باتفـــاق المؤرخين — وقتل الجراح ، وبعث الحرشى مكانه فى سنة ١١٢ هـ أى بعـــد وفاة ابن سيرين بعامين ؟؟ اقرأ ترجمـــة ابن سيرين فى : المعارف لابن قتيبة ص ٤٤٢ ، المعرفة والتاريخ ليعقوب بن ســـفيـــان ٥٤/٢ ، وتاريخ بغداد للخطب ٣٣١/٥ ، وسير النبلاء للذهبى ٦٠٦/٤ وما يليهـــا .

(١٧١) الفتوح ٤٣/٨ — ٤٥ . قارن بين هـــذا وبين ما ذكـــر آنفا ، فان اللقـــاء بين هشـــام والحرشى ، لـــم يكن فيه الا استفهام من هشـــام وجواب صريح من الحرشى يشهد للجراح بالايمـــان والشجاعة ، وكيف =

ثم يواصـــل ابن أعثم تلاعبه بتاريخ هذه المناسبة ، ويضيف اليها من خياله ما شاء له من أقوال وأفعـــال ، ليست منهـــا فى شىء ، فيذكر أنه بعد أن ســـار الحرشى — فى قومه وبنى عمه وسادات أهل الشـــام حتى نزل الرقة — جعل هشـــام يندب الناس اليه حتى صاروا ثلاثين ألفا ، فانطلق بهم حتى دخل برذعة ، وسار من برذعة حتى نزل البيلقـــان فلما استقر بهـــا أقبل اليه رجل من رستاقها (١٧٢) ، فقال : أصـــلح الله الأمير ، انى رجل ملهوف ، فاســـمع منى ما أقوله . فقال الحرشى : قل ما بدا لك . فقال : ان نارستيك بن خاقان ، لما قتل الجـــــراح بن عبد الله ، وفعل بأهل أردبيل ما فعل ، بعث الى هـــذا الرستاق بطرخان من طراخنته ، ففرق أصحابه فى هذه القرى ، فأخـــذ ابنتين لى فجردهما من ثيابهمـــا ، وأمرهمـــا أن تسقياه الخمـــر عاريتين ! وهو الآن نازل فى قرية من هـــذا الرستاق آمنا مطمئنا لا يعلم بشىء من خبر قدومك اليه ، فيصبح سكران ويمسى سكران ، فوجه اليه أيهـــا الأمير معى برجل من أصحابك فعسى الله تبارك وتعالى ، أن يمكن منه ، وأستنقذ منه ابنتى ، وأنت فى ذلك مأجور ! فاغتم الحرشى لذلك غمـــا شديدا ، ثم دعـــا برجل من بنى عمه يقال له : عبد الملك بن مسلم العقيلى ، فضم اليه جماعة من فرســـان أصحابه ووجه بهم الرستاقى الى القريـــة التى فيهـــا الطرخان . ثـــم أقبل بعبد الملك بن مســـلم حتى أوقفه على البيت الذى للطرخان . فصعد العقيلى ، وتطلع من كوة البيت ، فـــاذا هو بالطرخان سكران لا يعقل والجاريتان عند رأسه ! قال : فرمى بنفسه من كوة البيت ، فسقط على الكانون ، ثـــم وثب على الطرخان ، فـــلم

=
العمـــل يا حرشى ؟ فقال : تبعثنى على أربعين دابة من دواب البريد ، ثـــم تبعث الى كل يوم أربعين رجلا ، ثـــم اكتب الى أمراء الأجناد يوافونى ! فأين هـــذا من ذاك ؟ .

(١٧٢) وضع المؤلف لهذا الرجل وقصته عنوانا خاصـــا هو : « ذكر الرجل الرستاقى » . الفتوح ٤٦/٨ .

يزل يضربه بسيفه حتى قتله . ثـم احتز رأسـه وخرج الى أصحابه ، والجاريتان معه ، فسلمهما الى أبيهمـا ، ثـم وضع السيف فقتل كل خزرى كان فى تلك القريـة ، وغنم ما غنم ، ثم رجع الى الحرشى فخبره بذلك . قال : فكان ذلك أول فتح للحرشى (١٧٣) ! .

وقصـة أخرى ينسجهـا صاحب الفتوح ، خاصـة بابلاغ أهل مدينة ورثان أن الجيش الاسلامى بقيادة الحرشى قادم اليهم عمـا قليل، فليصبروا ولا يسلموا المدينة الى الخزر ، وقـد رأينـا فى النص الأول ، أن الحرشى بعث أحد رجاله للقيـام بهـذه المهمـة ، دون تحـديد لشخصية هـذا الرجل . أما ابن أعثم ، فرأى ألا تفلت منه هـذه المناسبة دون أن يمارس فيهـا هوايته ، فقدمهـا الينـا هكذا : « واتصـل الخبر بالحرشى ، بأن نارستيك بن خاقان ملك الخزر محـاصر لأهـل مدينـة ورثان فى جمـع عظيم ، فدعـا برجل من أهل البيلقـان يقال له « بردك » ، وكان بردك هـذا من أبناء فارس ، وكان مـع ذلـك شجاعـا بطلا ، وكان فصيحـا بالخزرية ، وكان يعـرف بصـاحب البرذون الأبلق (١٧٤) .. فدعاه الحرشى فقال : يا بردك ، أنت رجل مسلم وأريـد منك أن تهب نفسـك لله وللمسلمين ، وتصير الى (أهل) ورثان، فتعلمهم أنى قادم اليهم ، لكيلا يسلموا مدينتهم الى الخزر ! فقـال له الرجل : أفعل ذلك أيهـا الأمير ان شاء الله قال : فخرج الرجل فى جوف الليل يريـد الى مدينـة ورثان ، فلمـا أصبح ، وقـع عليه قوم من الخزر ، فأخذوه ثم سألوه عن حاله ، فخبرهم أنه رسول الحرشى الى أهل ورثان ، يعلمهم أنه قادم ! فقال له الخزر : أين الحرشى ؟ قال : بالبيلقان . قالوا : فان أحببت الآن أن نخلى سبيلك ، وأن تنجـو بنفسك،

---

(١٧٣) الفتوح ٤٦/٨ — ٤٧ . وهذه القصـة بأكملهـا جملة وتفصيلا لم يذكرهـا أحـد ، فهى من تأليف ابن أعثم وحده ! .

(١٧٤) لم أعثر على ذكـر لهـذا الرجل فى كتب التاريخ والطبقات .

فتقـدم الى مدينـة ورثان ، وخبرهم بأنه ليس بقادم عليهم أحـد من العـرب حتى يسلموا المدينة الينا ! فقال لهم : أفعل ذلك ، غير أنكم قـد أخذتم برذونى هـذا الأبلق ، وأنا لا أعرف الا به ! فردوه على ، وقربونى من المدينة . قال : فردوا عليه برذونه ، فاستوى عليه ، ثـم نادى بأعلى صوته : يا أهل ورثان ، هل تعرفوننى ؟ فقالوا : نعم ، أنت بردك البيلقانى صـاحب البرذون الأبلق . فقـال : صدقتم ، أنا هو ، ولكن أبشروا ، فقـد جاءكم سعيد بن عمرو الحرشى فى عسكر لجب ، وهو بالبيلقان ، فشدوا أيديكم بمدينتكم ، ولا تسلموها الى الخـزر ، فان الحرشى يصبحكم غدا ان شاء الله ، ولا قوة الا بالله . وأما أنـا ، فانى مقتول — وعليكم السلام . فلمـا سمع أهل ورثان ذلك ، رفعوا أصواتهم بالتكبير . وعلمت الخزر أن بردك قد نصحهم وبشرهم بقدوم الحرشى ، فشدوا عليه بالسيوف فقتلوه ! .

وبلغ ذلك الحرشى فأمـر بحطب كثير ، فجمـع له ، ثـم أمـر فألهبت فيه النيران ، لكى يرتفـع دخانه ، فيعلم أهل ورثان أنى قـادم عليهم ! ونظرت الخزر الى ذلك الدخان فارتحلوا عن باب ورثان ، حتى صاروا الى صحراء البلاشجان (١٧٥) .

ومرة أخرى — وليست أخيرة — يندفـع خيال ابن أعثم فى تصويره لمعارك الحرشى مع الخزر فى هـذه المنطقة ، ويختار ما أشـار اليـه المؤرخون عن ذلك الفارس الراكب فرسـا أبيض ، والذى ظهـر لسعيد الحرشى مرتين ليدله على موقع الخزر ومواطن ضعفهم ، ممـا كـان سببا مباشرا فى تحقيق نصر سهل للمسلمين فى موقعتين اثنتين .. أما ابن أعثم فلا يقول بذلك ، وانما يزعم أن ذلك الفارس — وقـد صوره

---

(١٧٥) الفتوح ٤٧/٨ — ٤٩ . والبلاشجان ، أو البلاسجان : مدينـة كان يسكنها الاكراد . البلاذرى : فتوح البلدان ٢٤٠ ، ٤٠٠ ، ابن الأثير : الكامل ٨٥/٣ .

فى روايته على هيئة تختلف عمـا ظهـر أولا ــ قـد تبدى للحرشى أربع مرات ، وليس مرتين فقط ! فمن أين لـه ذلك ؟ لا أحـد يدرى !.

قال صاحب الفتوح · وأقبل الحرشى ، حتى نزل باجروان ، فلمـا استقر به الموضـع ، اذا بفارس قـد أقبل على فرس كالقرطاس الأبيض من شدة بياضه ، وعلى الفارس أيضا ثياب بيض ، حتى وقف على الحرشى ــ والحرشى قاعـد على باب حصن باجروان ــ فسلم عليه ، فـرد الحرشى عليه السلام ثم قال : من أنت عافاك الله ؟ فقـال لـه الفارس: أنا عبد من عبيد الله ، ولكن هل لك أيهـا الأمير فى الجهـاد والغنيمـة من حاجة ؟ قال الحرشى : وكيف لى بذلك ؟ فقـال : هـذا عسـكر الخزر فى عشرة آلاف أهل بيت من المسلمين أسارى وسبايا ، [١٧٦] وقد نزلوا على أربعة فراسخ من موضعك هـذا ، بأرض يقال لها رستك [١٧٧] ، فان أردتهم فهذا وقتهم ثم تركه صاحب الفرس ومضى . ونادى الحرشى فى أصحابه : أيهـا الناس ، اركبوا الى الجهـاد والغنيمـة رحمكم الله وانظروا ألا يصحبنى منكم الا صاحب بيضة محكمـة ودرع سابـغ وسيف قاطع ، ثـم دعا الحرشى بدرعه وأفرغه عليه وتقلد سـيفه ، ثم قـدم اليه فرسه ، فسما وركب ، وتقدم على باب باجروان ، فجعل ينظر الى قائـد بعـد قائـد ، حتى خرج اليه أربعـة من القواد فى أربعـة آلاف رجل ، على ما أراد من الهيئة والسلاح ، فقـال : حسبكم الآن أغلقوا الباب ، فغلق باب باجروان .

ثم دعا الحرشى ــ ليأتيهم بالخبر ــ برجل يقال له ابراهيم بن عاصم العقيلى ، فأرسله الى الخزر ــ وكان ابراهيم فصيحـا بالخزرية

---

(١٧٦) فى النص الأول المعتد به : كان الأسارى والسبايا خمسـة آلاف أهل بيت من المسلمين ، اما الآلاف العشرة فهم جنود العدو ! .

(١٧٧) لم أعثر على موضع بهـذا الاسم عند ياقوت ، أو ابن عبد الحق .

ـــ فأقبل يسير فى جوف الليل نحو عسكـــر الخزر ، والحرشى من ورائهم (كذا) فى أربعـــة آلاف • فدخل ابراهيم عسكر الخزر وكـــان يلبس كلباسهم ويتشبه بهم ، فجعل يجول فى عسكرهم راجلا ، والخـــزر آمنون مطمئنون ! واذا طرخان من طراخنتهم عنده سرية للجراح بن عبد الله ، فهو يراودهـــا عن نفسهـــا ، وهى تبكى وتقول : يارب ! مالنا أحـــد ســـواك ، وقـــد ترى ما نحن فيه ، فوعدك الحق • فلمـــا سمع ابراهيم بن عاصم مقالة الجارية ، هم أن يهجم على الطرخـــان فيقتله ! ثم انه خشى أن يقتل ولا يبلغ حاجته ، فرجع الى الحرشى ، فخبـــره بذلك • فبكى الحرشى ومن معه من المسلمين بكـــاء شـــديدا ، ثـــم أمسكوا عن بكائهم ، وجعلوا يسيرون حتى أشرفـــوا على عســـكر الخزر فى آخر الليل والقوم نيام ، فلمـــا نظـــر اليهم الحرشى ، فرق عليهم أصحابه من أربعة أوجه ، وأمرهم ألا يقدموا اليهم حتى يسمعوا التكبير• قال : وبرق عمود الصبح فكبر الحرشى ، وكبر معه المسلمون ، وسمع الأسارى التكبير فأيقنوا بالفرج ، ووضع المسلمون فيهم الســـــيف ، فمـــا بزغت الشمس حتى أبيدوا بأجمعهم فى معركة واحدة ، وهم عشرة آلاف ، فمـــا أفلت منهم الا رجل واحـــد ، وانه ســـار الى نارستيك ابن خاقان فخبره بذلك ، فأنشأ رجل من المســـلمين يقول أبياتا مطلعها :

تشبث لمتى همى بما لا   يهم به الضعيف من الرجال(١٧٨) ؟

الى آخرها •

وجمـــع الحـــرشى غنـــائم الخـــزر ، واستنقذ المســـلمون والمسلمات والذرارى الذين كانوا فى أيدى الخزر ودوابهم ، وسار حتى صار الى باجروان (١٧٩) •

---

(١٧٨) البيت هكذا لا معنى له ، ولا شك أن فيه تحريفـــا فى كلمـــة « تشبث » وصوابهـــا « فشيب » وبذلك يتضح المعنى المراد من فخـــر الشـــاعر بنفســـه ، وانه ما بيض لمته (أى شعره المجاور لأذنه) الا اقتحامه الشدائد التى لا يقـــدر عليهـــا ضعاف الرجـــال •

(١٧٩) الفتوح ٨/٤٩ — ٥١ •

ثم يظهر صاحب الفرس الأبيض لسعيد الحرشى المرة الثانية عقب وصوله الى باجروان ، وفى ذلك يقول ابن أعثم : فما دخلها حينة حتى أقبل اليه صاحب الفرس الأشهب فقال : السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته ! فقال له الحرشى : أيها الرجل أين أنت ؟ فانى قد أمرت لك بجائزة ، فخذها فانك رجل ناصح دال على الخير والأجر والثواب • فقال له : أيها الأمير ! تكون هذه الجائزة عندك ، فانه أحرز لها ، ولكن هل لك أيها الأمير فى الغنيمة الباردة ؟ فقال الحرشى : وكيف لنا بذلك ؟ فقال : هذا جيش الخزر قد أقبل ومعهم أموال المسلمين ، وحرم الجراح بن عبد الله وأولاده ، وهم يريدون الى بلادهم ، غير أنهم نزلوا على الميمذ (١٨٠) من ههنا على فراسخ يسيرة للخيل ، فان أردتهم أيها الأمير فهذا وقتهم ، ثم مضى الرجل • ونادى الحرشى فى أصحابه ، وسار بهم نحو نهر الميمذ ، فلما أشرف على النهر اذا هو بجيش الخزر فى عشرين ألفا أو يزيدون ومعهم الأسارى من المسلمين والمسلمات ، قال : فكبر الحرشى وكبر المسلمون معه ، ثم حملوا على جميع الخزر ، ووضعوا فيهم السيف ، فما أفلت منهم الا الشريد ، واحتوى الحرشى على الغنائم واستنقذ الأسارى ، واذا فيهم جوارى الجراح وأولاده وحرمه وجميع أمواله (١٨١) ! فجعل الحرشى يضم أولاد الجراح الى صدوره ويبكى ويقول : يا بنى أخى ليتنى كنت مع أبيكم ، فنحيى جميعا أو نموت جميعا ! ثم سار الحرشى بالمسلمين والمسلمات والغنائم يريد الى باجروان، فأنشأ رجل من بنى عبس يقول أبياتا مطلعها :

---

(١٨٠) ميمذ : اسم جبل ، وقيل : مدينة بأذربيجان ، أو أران . ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع ١٣٤٥/٣ .

(١٨١) قوله واذا فيهم جوارى الجراح وأولاده وحرمه ، يفهم منه أنه فوجىء بوجودهم بين الأسرى ! ولا معنى للمفاجأة هنا ، لأن صاحب الفرس الأبيض قد أخبره بأنهم من بينهم ! .

أنا العبسى أذكـــر مجد قومى   يحوزون النهاب ويحكمونا

ثم يمضى ابن أعثم فى سرده الفريـــد للتاريخ فيقول : وبلغ ذلك نارستيك بن خاقان ملك الخزر ، فهم أن يقتـــل نفســـه من شـــدة الغم، ثم أقبل على طراخنته ووجوه أصحابه فقال : ويلكم يا معشر الخزر ! أنتم تعلمون أنى قتلت الجراح وهو ملك البلاد ، ثـــم استبحت عسكره ، وأسرت من أسرت ، وسبيت من سبيت ، ثم جاءكم رجل على بغل فى قلة وذلة ففعل بى وبكم ما فعل ، وأخذ غنيمتى ، فقتل أصحابى ، أفليس الموت خيرا لى من ذلك ؟ قـــال : فضجت الخزر من كل ناحيـــة ، وقـــالوا : أيها الأمير [١٨٢] ، لا عليك ، فانا نأتيك به أسيرا ، فاصنع به ما أحببت . فعندهـــا جعل نارستيك بن خاقان يجمـــع أطرافه ، ويضـــم اليـــه أصحابه من جميـــع بلاد أذربيجان ، حتى اجتمـــع له خلق كثير . وبلغ ذلك سعيد بن عمرو الحرشى ، فأرسل الى ورثان والبيلقـــان وبرذعـــة وقبلة ، [١٨٣]، والى جميع بلاد أرمينية ، فحشر اليه الناس من المزرفة [١٨٤] والمطوعـــة [١٨٥] وســـائر الناس ، فســـار بهم فى جمـــع عظـــم ، واذا بصاحب الفرس الأشهب قد أقبل [١٨٦] فقـــال : السلام عليك أيها

---

(١٨٢) فى أول هذه الفقرة وصفه بملك الخـــزر ، ثـــم يجعله الآن أميرا ؟ ! .

(١٨٣) قبلة : مدينة قديمة قرب الدربند — وهو باب الأبواب — من أعمـــال أرمينية . ياقوت : معجم البلدان ٣٠٧/٤ .

(١٨٤) المزرفة : قرية كبيرة فوق بغداد من قرى دجيل على الجاوة بقـــرب دجلة . المصدر السابق ١٢١/٥ .

(١٨٥) المطوعة : موضع من نواحى البصرة . المصدر نفسه ١٥١/٥ . وليس من المفهوم كيف جاءته الأمداد من هذين الموضعين البعيدين بعدا كبيرا عن هـــذا الميدان ؟ .

(١٨٦) هذا هو الاقبال الثالث لصاحب الفرس الأشهب على الحرشى .

الأمير ورحمة الله وبركاته ! فقال لـــه سعيد بن عمرو · ياهــذا ، أنت رجل مبارك علينـــا ، وذلك أنك عرضتنـــا للغنيمة والشهادة غير مـــرة ، وقـــد اجتمعت عندنا جوائز ، وقـــد أمرنا لك بهـــا ، فلم لا تأخـــذها يرحمك الله ؟ فقال : تكون هـــذه الجوائز عند الأمير الى وقت حاجتى اليهـــا ، ولكن هل للامير فى نارستيك بن خاقان وجيشـــه ، وفى الجهاد والغنيمة ؟ قال الحرشى : ما أحوجنـــا الى ذلك ! قال : فانه قد ســـار الى ما قبلك فى جمـــع عظيم ومعه أربعون ألف عجلة ، عليهـــا المسلمون والمسلمات والذرارى والأمتعة ، فان أردتهم فهـــذا وقتهم ·

ثم مضى الرجل ، ونادى الحرشى فى أصحابه ، فركبوا بأجمعهم ، ثم سار بهم سيرا عنيفا حتى وافى بهم أرض برزند وبها يومئذ نارستيك ابن خاقان فى جملة عساكـــر الخزر ، فلمـــا نظـــر الى عســـاكر العرب واقفة ، عبى أصحابه تعبيـــة الحـــرب وعبى الحرشى أصحابه كذلك فى وقت العصر ، وتقدم على برذون له أدهم وسيفه على عاتقه ، وتقـــدم المسلمون معه نحو الخزر · وصدقتهم الخزر القتال ، فدفعوا المسلمين دفعة اضطروهم الى ســـفح الجبل ، فلما نظر الحرشى الى ذلك حسر البيضة عن رأسه ، ثم وعظ الناس وذكرهم ، وحرضهم على القتـــال ، وقال : ويحكم ! يا أهل الاسلام الى ! تنهزمون من بين يدى هـــؤلاء الأغنام الذين لا يعرفون الله ، ولا يعبدونه ، أما تسمعون أطيط العجل ، عليهـــا المسلمون والمسلمات أسارى ينادون : وامحمداه ! واأبا القاسماه! قال : فثاب اليه المسلمون من كل ناحية ، ثـــم انهم صدقوا القتـــال فقاتلوا قتالا شديدا ، وصدق الله وعده ، وأعز جنده ، ونصر أولياءه وأذل أعداءه ، وانهزمت الخزر من بين يـــدى المسلمين هزيمـــة قبيحة، ومعهم ملكهم نارستيك بن خاقان ، واحتوى الحرشى وأصحابه عـــلى سوادهم وأموالهم وقليلهم وكثيرهم ، وحاز العجل ومن عليها من المسلمين والذرارى والأمتعة ، وأنشأ رجل من المسلمين فى ذلك يقول أبياتـــــا مطلعهـــا :

لنا هضبة تعلو الهضاب بعيدة　　　من الذل يخشى درها من يحاربه

وانهزمت الخزر على وجوههـا ، والمسلمون فى طلبهم حتى بلغوا بهم الى شاطىء لهم ، ثـم رجعوا عنهم ، وساقوا الأسـارى والغنائم الى باجروان (١٨٧) .

قال ابن أعثم : واذا بصاحب الفـرس الأشهب قـد أقبل الى الحرشى (١٨٨) ، فقال : السلام عليك أيهـا الأمير ورحمـة الله وبركاته، قم أيهـا الأمير ، وناد فى أصحابك فليركبوا ، فهـذا نارستيك بن خاقان عدو الله ، قـد التأم عليه عامة من شذ عنه من أصحابه ، وقد أقبل اليك فى جمهور الطراخنة وفرسـان الخزر ، وقـد نزل على نهـر موقان (١٨٩) فى جمـع عظيم وجيش كثير ، فلا يهولنك أمرهم أيهـا الأمير ، فان الله ناصرك ، وخاذلهم ، وجاعل دائرة السوء عليهم ، فانى خائف أن يصبحك غدا فى جمعه ذلك ، وليس الأمـر بصغير ، وقـد أعذر من أنذر . ثم تركه ومضى ، ونادى الحرشى فى أصحابه من المسلمين : ألا يبقى أحد من المسلمين صغير ولا كبير الا ركب واستعد للموت !! .

قال ابن أعثم : فركب المسلمون بأجمعهم ، ويقولون : لا حـول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، بالله استعنا وعليه توكلنا وهو حسبنا ونعم الوكيل ! ثم دعا الحرشى بقوم من ثقـات أصحابه وأمرهم بحفظ مدينة باجروان ومن بهـا من المسلمين والمسلمات والغنائم ، ثـم سار فى ثلاثة وخمسين ألفـا من أهل الشـام والجزيرة ، ومن التأم اليه من جميـع البلاد حتى وافى نهـر موقان ، واذا نارستيك بن خاقـان

---

(١٨٧) الفتوح ٥٣/٨ — ٥٥ .

(١٨٨) هذا هو الاقبال الرابع لصاحب الفرس الأشهب ! .

(١٨٩) موقان : ولاية فيهـا قرى ومروج كثيرة يحتلهـا التركمان للرعى، فأكثـر أهلهـا منهم ، وهى من أذربيجان يمشى القاصـد من أردبيل الى تبريز فى الجبال . ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع ١٣٣٥/٣ .

هنالك فى تسعين ومائة ألف ! ؟ فلمــا نظــر الى غبار خيــل المسلمين ، وثب فعبى أصحابه ، ودنامنهم الحرشى على غير تعبية ، حتى واقفهم هنالك ، ثــم دعا بعصابة فعصب بهــا حاجبه وقــال ، أيهــا النــاس ، هل فيكم من يعــرف نارستيك بن خاقان ؟ فقالوا : نعم ، هــو صاحب التاج الواقف تحت البيداء [190] الأعظم الذى عليه الرأس • فقــال الحرشى : وما ذلك الرأس ؟ قالوا : رأس الجراح ابن عبد الله ! قــال : فدمعت عينا الحرشى ثم قال : انا لله وانا اليه راجعون ! لا خير فى الحياة بعــد هــذا اليوم • ثم صاح بالناس فحمــل وحملوا معه ، فلم يكذب الحرشى أن وصــل الى نارستيك بن خاقان ، فضربه على تاجه ضربة صرعه عن فرسه الى الأرض ، واجتمعت اليه الخزر فخلصوه من المعركــة ! واشتد القتال بين الفريقين ، فقتل من المسلمين ومن الخزر خلق كثير ، وغرق فى نهر موقان ما لا يحصون كثرة ، وانهزم الباقون نحو البحر ؟ ثــم أخذوا على الســاحل حتى صاروا الى مجمــع النهرين من الكر والرس [191] ، فأنشأ رجل من قيس عيلان يقول أبياتا مطلعهــا :

وقيس أوطأت خاقان ذلا　　وقائع منهم فيها اعتداء [192]

ولا شك فى أن عرض ابن أعثم لهــذه الوقــائع ، قــد أخرجها ثم أبعدها كثيرا عن المشهور المعروف عن ســائر المؤرخين ، الــذين

---

(١٩٠) تحريف ، والصواب « اللواء » .

(١٩١) الكر والرس نهران كبيران فى أرمينيا يصبان فى مجرى واحد ينتهى الى بحــر قزوين ، وقــد ورد ذكــر الكر فى تاريخ الفتــوح انظر البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، الطبرى : تاريخ ١٩٢/٩ ، كى لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية (معرب) ص ٢١٣ ، وياقوت : معجم البلدان ٤٤/٣ ، ٤٥١/٤ .

(١٩٢) الفتوح ٨ / ٥٥ — ٥٦ . ومازالت هناك بقيــة لهــذه القصــة عند ابن أعثم ، أضربنا عن ذكرهــا اذ لا ضرورة لهــا .

قدمنا مثالا لروايتهم فى نص ابن الأثير ، بدالك من خلال المقـــارنـــة المجردة من أى اعتبار ، بين كلا النصين مـــدى افتقاد ابن أعثم الأمانة العلميـــة فى العرض التاريخى ، ومدى تدخله السافر فى سرد الحوادث التى يتناولهـــا ، بحيث أصبحت كأنهـــا قصص من بنات الخيال ، لا رواية صادقـــة للتاريخ كمـــا جرت أحداثه ، عن طريق التحمـــل والرواية الأمينة للنصوص والأخبار ، رواية لا تبغى الا تقديم المعرفـــة التاريخية لمن ينشدهـــا خالصـــة من ألوان الصنعة الكلاميـــة الاخرى ..

الفصل الخامس

الأزارقة فى فتوح ابن أعثم الكوفى

نهج خاص فى العرض التاريخى

هذا الفصل .. لماذا ؟ .

ظهور الخوارج :

« ابتداء خبر الأزارقة » : [1] .

« هذه أول وقعة كانت للازارقة مع المهلب بن أبى صفرة » :

« هذه وقعتهم الثانية » :

« ذكر كتاب المهلب بن أبى صفرة الى أهل البصرة بالسلامة والبشرى ، وما قتل الله من الأزارقة » :

« ذكر خطبة قطرى بن الفجاءة » :

« وهذه هى الوقعة الثالثة » :

« ذكر خطبة المهلب قبل الوقعة » :

« وهذه الوقعة الرابعة » :

« وهذه الوقعة الخامسة » :

« وهذه الوقعة السادسة » :

« ذكر ولاية بشر بن مروان العراقين » :

« ذكر كتاب الحجاج الى المهلب » :

« ذكر مسير سفيان بن الأبرد الكلبى ، لما بعث به الحجاج الى حرب من انفلت من الأزارقة » :

---

(١) العناوين الموضوعة بين الأقواس من وضع ابن أعثم فى الفتوح.

هـذا الفصل .. لماذا ؟ .

انه بعد القراءة الدقيقة والمتأنية لهـذا الكتاب ــ بأجزائه الثمانية ــ قد تبين لى أن صاحبه قلمـا نهج فى عرضه للحوادث والمناسبات التاريخية نهجا معتدلا مستقيمـا ، وأنه نادرا ما قـدم الخبر أو الأثر التاريخى على وجهه الذى اشتهر عند غيره من المؤرخين ، وتناقله عنهم من جاء بعدهم على تعاقب الأجيال والأعصـار ، وأنه لابد وأن تبرز بصـمته فى جميع ما يقدمه أو يعرضـه طى كتابه هـذا ! وبعـد كثير من تجارب المقارنة بين المصنفات التاريخية التى عاصر أصحابهـا ابن أعثم الكوفى ، أو عاشوا قبله ، أو فى عصر لاحق ، وبين كتـاب الفتوح هـذا ، قـد تأكـد لى بصورة يقينية أن الرجـل قـد كتب تاريخه ذلك بمزاجه الشخصى ، وتبعـا لهواه الذى يحكمه ويقـود قلمه قيادة لافكاك منهـا ، وأن هـذا المزاج الشخصى والهوى القائـد له ، هو التشيع الصريح ، ولكن الرجل يجتهـد فى تحاشى الاعـلان عن وجهته وميله الى أى أحزاب الشيعة ينتمى ! وهـو يحاول كثيرا أن يخفف من غلوائه فى فكـره ورأيه ، بمـا يعـد ــ أحيانـا ــ نزعة الى الاعتدال ، والبعد عن الانحياز ، كأن يترضى عن معاويـة بن أبى سفيان رضى الله عنه فى بعض المناسبات القليلة ! .

ولما كان من خطة هـذا البحث ، أن نقدم فيه مثالا واحـدا لموضوع عالجه ابن أعثم وعرضه عرضـا تاريخيـا كامـلا فى فتوحه ، كى نقف من خلال هـذا المثال على نهجه ونتعرف طريقته فى تناول التـاريخ ومعالجته بصورة واضحـة ، وذلك حتى لا يقـال مثلا : ان ما قدمناه من تاريخ الرجل ، وتعرضنا له بالنقـد والتحليل ــ فى الفصـلين السابقين ــ انمـا هو مباحث وجزئيـات اختيرت فى اطـار واحد

ضمن كل فصـــل على حدة ، وهـــذا الاختيار قـــد لا يعبر — التعبير الدقيق — عن أسلوب ابن أعثم ، ونهجه فى معالجـــة القضايـــا التاريخية التى تناولهـــا تناولا كامـــلا ، وبرزت من خلالهـــا الملامح التى يمكن أن تميزه بين ســـائر المؤرخين ، وحينئذ يستطيع القارىء والبـــاحث التاريخى أن يكون الانطباع الصادق ، والفكرة الواضحة عن ابن أعثم المؤرخ ، وأن يقـــدم على الحكم عليـــه وتقويمه وتقرير محله بـــين سائر المؤرخين ، دون ما حرج أو توجس .

ولكى يتسنى لنـــا تحقيق هـــذا الغرض على نحو جيد سليم ، فقد حرصت الحرص كله على أن يكون هـــذا المثال المختار من فتوح ابن أعثم ، موضوعـــا بعيدا عن مجـــال انحيازه وتعصبه ، واشباع ميوله العلوية التى لا تخفى على قارئه مطلقا فى المســـائل والقضايـــا التى يكون الشيعة طرفا فيهـــا ! فلذلك رأينـــا فى موضوع الأزارقـــــة الذى قدمه ابن أعثم من بدئه الى منتهاه ، أعنى منذ ظهورهم على مسرح الحياة كفرقة خارجة لهـــا شخصيتهـــا المنفردة عن بقيـــة فرق الخوارج الى أن قضى عليهم فى ميدان القتال واختفوا من فوق هـــذا المسرح ، رأينا فى هـــذا الموضوع التاريخى بعناصره المتميزة طلبتنا ، لأنه يؤمن فيه ويستبعد تماما أن يتحيز الرجل الى أى الفريقين ، بمـــا أن كليهمـــا لاصلة له بالشيعة ، أو كلاهمـــا عدو وخصم للعلويين ، ومن المفترض جدلا ، أنه حين يتصدى للحديث عن صراع بين طرفين لا تربطه بهمـــا أو بأيهما صلة مـــا ، فان حديثه سوف يتجه مباشرة الى تسجيل واقـــع الأمـــر وحقيقة ما حدث دون ميل الى هـــذا على حســـاب ذاك أو العكس ! .

ان مما لا ريب فيه أن ابن أعثم قد اهتم بصورة جلية بأخبار الأزارقة الحربية — دون التعرض للجانب الفكرى لديهم — ، وكان اكثر اهتماما بتسجيل الوقائع التى جرت بين المهلب بن أبى صفرة وبينهم وذلك على امتداد ثلاثة عشر عاما كاملة (٦٥ — ٧٧ هـ) ، حتى تمكن هـــذا القائد الفذ ،

بمـــا أتيح له من أسباب الفوز والنصر والتوفيق ، من القضاء عليهم وتبديد سطوتهم وتخضيـــد شوكتهم •

ولا يستطيع الباحث أن يتجاهل ما أبداه ابن أعثم — فى حديثـــه عن الأزارقة — من اهتمام واضح وتركيز ظاهـــر على دور المهلب وأبنائه وأفعالهم وبطولاتهم وتضحياتهم ، مما كان له الأثـــر البارز فى تحقيق الغلبة والانتصـــار على هذه الفرقة المارقـــة التى كان تحركهـــا قبل تصدى المهلب لهم يخلع قلوب أهل البصرة ، والعراق بعامة ، ويصيب الناس بالفزع والهلع ! •

ان ابراز جهود المهلب بن أبى صفرة وجهود أبنائه فى قتـــال الأزارقة — كمـــا يتضح من خلال عرضنـــا لما قاله ابن أعثم فى هـــذا الفصـــل — يؤيد ويعضـــد بقوة الرأى الذى ذهبنا اليه ورجحنـــاه آنفـــا ، وهو أن أحمد بن محمد بن أعثم الكوفى ، أزدى عتكى ، من ذات الفرع العربى اليمنى الكبير الذى ينتمى اليه ، وينحدر منه المهلب وأبناؤه ، الذين يواصلون ، ويؤكدون مسيرة البطولة التاريخيـــة فى هـــذا القبيل العربى اليمنى العريق ، كمـــا صنع أسلافهم الأبطال السابقون الذين تغنى بذكرهم ، ونســـج حولهم قصـــص البطولة الخـــارقة ، كالهلقـــام بن الحارث ، وسبرة بن قرة ، وعمرو بن معد يكرب ! •

من جانب آخـــر ، فسوف يتبين لك أن هـــذا العرض التـــاريخى لأخبار الأزارقة ، الذى أسهب ابن أعثم وأفاض فى حديثه عنـــه يعتريه الخلط الشديد بين الحوادث والوقائع ، بحيث يصبح من الصعب على قارئه التمييز بين وقائع هـــذا الصراع الدامى بين هؤلاء الخوارج وقوات الدولة ، وتحديد مواقعها الزمانية والمكانية ! لأن صاحب الفتوح لا يلقى بالا ، ولا يلتفت الى التواريخ ، ولا يشغل فكره بتحديدهـــا ، فمن هنـــا تداخلت الى حـــد كبير حوادث المعارك التى دارت بين الفريقين ! وذلك كله فضـــلا عن الأخطاء التاريخية البينـــة التى انطوى عليهـــا هـــذا الفصـــل من تاريخ ابن أعثم •

وسوف تستبين كذلك ، أن ابن أعثم الكوفى — فى هـذا الفصل — قد أورد كثيرا من الأشعار والأرجاز ونحلها أسماء شعراء من الفريقين، سواء كانوا من المعروفين أو المجاهيل الذين لم يرد ذكرهم فى المصادر المختصة • وكثير جدا من هـذا الشعر والرجز الذى اشتمل عليه حديث ابن أعثم ، لم يرد كذلك فى تلك المصادر الأخرى التى عالجت موضوع الأزارقة ، مثل الكامل للمبرد ، والأخبار الطوال للدينورى ، وتاريخ الطبرى ، وكامل ابن الأثير ! •

وأخيرا فانه ينبغى أن أنوه بأننى سوف أقدم نص ابن أعثم الكوفى ، فى هذا الفصل كما هو ، لا أتدخل فيه ، ولا أخفى منه أو أزيد عليه شيئا ، وانما يقتصر دورى ، فى هـذا الفصل على التعقيب فى الحواشى فحسب ، وذلك بعقد المقارنات بين ماورد فى الفتوح ، وما ذكر فى سائر المصادر التى عالجت موضوع الأزارقة وتبيان ما وقع فيه من أخطاء ، أو مخالفات للمؤرخين الآخرين ، وسوف نجد أن جل ما سجله ابن أعثم فى هـذا الفصل ، قد أخطأ فيه أو خالف غيره من مؤرخى الاسلام • أى أنه فى نهاية الأمر يصبح هـذا الفصل تأكيدا للفكرة العامة التى هدينا اليها فتكونت لدينا عن هذا التاريخ وصاحبه ، وقدمنا لاثباتها وترسيخها جميع مختاراتنا من الأمثلة فى الفصلين السابقين ••

ظهور الخوارج :

يرجع ظهور فرقة الخوارج فى الاسلام الى عام ٣٧ هـ لدى انتهاء مسألة التحكيم بين على ومعاوية رضى الله عنهما ، حيث جاءت نتيجتها مخيبه لآمال أنصار على بن أبى طالب ، فأعلنت طائفة منهم رفضها المطلق للتحكيم ، وأنه لا يصح قبول مبدأ تحكيم البشر فى كتاب الله تعالى ، لأن حكم الله جلى واضح لا يحتاج الى أحد فى تبيانه ، وأعلنوا أنه « لا حكم الا لله » ، وقد جهروا برفضهم

التحكيم فى وجه أمير المؤمنين على ، وفوق ذلك فقد اعتبروا قبوله هذا التحكيم كفرا منه بالله تعالى ، وطلبوا منه أن يقر على نفسه بالكفر ، وأن يتوب الى الله منه ، وأن يرجع عما أبرم بينه وبين معاوية من عهد ، فان فعل ذلك قاتلوا معه ، وظلوا أنصاره ، وتحت لوائه ، والا تفرقوا عنه ، وكان لهم شأن آخر ! •

ورفض أمير المؤمنين رضى الله عنه الاستجابة لهذا الشطط من هؤلاء القوم ، اذ كيف يقر على نفسه بالكفر ، وهو مؤمن صادق لم يغير ولم يبدل منذ آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم ! ؟ وكيف ينكث عهدا ، والله سبحانه يأمر بالوفاء بالعهود ؟ فلما وجدوا منه اصرارا واستمساكا بموقفه ، وثباتا على ما هو عليه من رأى ، خرجوا عن طاعته ، وانفصلوا عن شيعته ، وغادروا معسكره ، واتفق رأيهم على الخروج الى قرية « حروراء » القريبة من الكوفة ــ عاصمة الخلافة فى عهد على ــ ، ولذلك يسمى هؤلاء الخارجون بالحرورية نسبة الى تلك القرية ، كما يسمون بالشراة ــ جمع شارى ــ أخذا من قوله تعالى : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد » (٢) ، أى الذين باعوا أنفسهم لله تعالى • وأما تسميتهم بالخوارج ، فلأنهم خرجوا على أمير المؤمنين على وانشقوا عنه ، وكذلك لأنهم خرجوا فى سبيل الله يجاهدون الكفار من الأمة بعد أن قبلوا التحكيم فى كتاب الله سبحانه ، وذلك أخذا من قوله تعالى : « ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله » (٣) ، وثمة اسم آخر يطلق على الخوارج وهو « المحكمة » ، لانهم قالوا ، لا حكم الا لله ••

وفى حروراء تجمعوا واحتشدوا ، وقد بايعوا أحدهم أميرا للمؤمنين

---

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٠٧ •

(٣) سورة النساء : الآية ١٠٠ •

وهو عبد الله بن وهب الراسبى ، وأطلقوا لأنفسهم العنان ، فقتلوا الأبرياء من الرجال والنســاء والأطفال ، وارتكبوا الفظائع التى روعت الناس ، ونشروا الارهــاب ، حتى تحاماهم كل من أحس بهم ، ونهبوا الاموال ، وهم يعتبرون كل ذلك حلالا لهم ، لأن كل من عداهم — فى رأيهم — كفار تستحل دماؤهم وأموالهم ودورهم ! فلمــا أصبح وجودهم أخطر شىء يواجهه أهل العراق كان لابد من العمــل على التخلص منهم والقضــاء على خطرهم ، قبل العودة الى قتال معاوية وأنصاره ، فتوجه اليهم أمير المؤمنين على وأصحابه ، وبعــد اعذاره اليهم ونصحــه اياهم بالعودة الى الصواب ، وترك ما هم عليه من الخروج والعصيان ، دارت رحى وقعة النهروان التى أتت على عامتهم ، فلم تبق منهم الا على اثنى عشر أو ثلاثة عشر نفســا فحسب ! لكن هــذه القلة الضئيلة — بكــل أسف — كتب لهــا أن تحتفظ بأفكار وآراء هــذه الطائفة الضــالة من المسلمين ، لكى تنتشرهــا عمــا قليــل ، وليصبح أنصــارهــا كثرة ، وقوة شديدة البأس ، قــد تأصــل فى نفوسهم جميعــا بغض على بن أبى طالب ، ومعاوية بن أبى سفيان ، ورءوس أتباعهمــا البارزين ، وكان مقتل أمير المؤمنين فى رمضــان سنة أربعين للهجرة ، ومحاولة قتل معاوية ، وعمرو بن العاص — فى ذات اليوم — عملا دبروه ، ونفذوه !.

ثم كثروا عددا ، وازدادوا قوة ، وأصبحوا فيمــا بعــد ، القوة المناوئة للدولة الأموية التى ترفــع السلاح أمامهــا ، وتقاومها دون هوادة ، وتقتطع من جسمهــا ما تستولى عليه من الأقاليم ، وتقيم فيه حكومة منفصلة ، فكان على الخلفــاء الأمويين أن يحشدوا الجيوش ، ويحصنوا البلاد التى تتعرض دائمــا لاغاراتهم ومفاجآتهم ، وذلــك لدفــع عدوانهم ودرء خطرهم ، وأيضــا لشن الهجمات عليهم فى مواقع تجمعــاتهم فى البصرة والأهواز وفارس وكرمان وطبرســتان ، حيث يحتشــد الأزارقة منهم ، وفى اليمن وحضرموت واليمامة والطائف ، حيث يتجمــع طوائف أخرى منهم كالنجدات . وكان هــذان الفريقان

« الأزارقـــة والنجدات » اكبر فرق الخوارج وأشهرها ، ومن زعمائهم اشتهر : نافـــع بن الأزرق الحنفى ، واليه نسب الأولون ، وعبد الله ابن اباض المرى ــ الذى انفصـــل عن ابن الأزرق ، وأصبح على رأس فرقـــة تنسب اليه وهى « الاباضية » ، وهى الوحيدة التى بقيت حتى الآن من فرق الخوارج ــ وعبيدة بن هلال اليشكرى ، وبنو الماحـــوز السليطيون ، وقطرى بن الفجاءة المازنى ، وأبو طالوت من بنى بكر بن وائل ، وأبو فديك عبد الله بن ثور بن قيس بن ثعلبة ، وعبد ربه الكبير وعبد ربه الصغير ..

وقد ظل الصراع محتدما بين الأمويين وبينهم زمانا طويلا ، وبذل القائد المظفـــر ، المهلب بن أبى صفرة ، وأبناؤه ، وأهل العراق جهودا هائلة ، فى مقاومتهم ، حتى تمكنوا منهم أخيرا فى أيـــام عبد الملك بن مروان ، فذهبت ريحهم ، واستؤصلت شأفتهم ، وأطفئت جذوتهم ، الا قليـــلا منهم تفرقوا فى البلاد ، دون خطـــر حقيقى يهـــدد سلامة الدولة كمـــا كان الأمـــر فى الماضى ، وكذلك كان شأنهم فى أيـــام العباسيين ، لم يكونوا يمثلون خطرا على دولتهم ، ومع توالى العصور ضعف أمرهم، وتلاشى وجودهم وأثرهم فى الحياة الاسلامية ، الا ما كان من أمـــر الاباضية ، فهم أصحاب المذهب الوحيـــد الباقى الى الآن من بقايـــا الخوارج الدينية والفكرية ، وينتشرون فى عمان وبصورة محدودة فى شمال افريقيـــة .

وليس القصـــد أن نعالج فى هذا التمهيد آراء الخوارج وأفكارهم العـــامة ، ومذاهبهم الخاصـــة التى انفرد بهـــا كل فريق منهم ، وعرفوا بهـــا دون سائر المسلمين ، فان ذلك مبسوط فى كتب الفرق والمذاهب الاسلامية ، ويمكن الرجوع اليه فى مصادره المختصة (٤) .. ولكنـــا

---

(٤) مثل : مقالات الاسلاميين لأبى الحسن على بن اسماعيل الأشعرى المتوفى ٣٢٤ هـ ، والملل والنحل للشهرستانى محمد بن عبد الكريم المتوفى ٥٤٨ هـ ، والفرق بين الفرق لعبد القاهر بن طاهر البغدادى المتـــوفى ٤٢٩ هـ . واقرأ كذلك : فجر الاسلام ، لأحمد أمين المتوفى ١٩٥٤ م .

نشير هنا فقط الى ما اجتمع عليه الأزارقة من الآراء ، ومنها :

قولهم : بأن مخالفيهم من هذه الأمة مشركون ، وقولهم : ان القعدة عن الهجرة اليهم مشركون وان كانوا على مثل رأيهم (٥) .

وأنهم أوجبوا امتحان من قصد عسكرهم ، اذا ادعى أنه منهم وذلك بأن يدفعوا اليه أسيرا من مخالفيهم ويأمروه بقتله ، فان قتله صدقوه فى دعواه أنه منهم ، وان لم يقتله قالوا : هذا منافق ومشرك وقتلوه .

ومنها : أنهم استباحوا قتل نساء مخالفيهم ، وقتل أطفالهم ، وزعموا أن الأطفال مشركون ، وقطعوا بأن أطفال مخالفيهم مخلدون فى النار .

وزعموا كذلك أن دار مخالفيهم دار كفر ، ويجوز فيها قتال النساء والأطفال ، وأنكروا الرجم ، واستحلوا كفر الأمانة التى أمر الله تعالى بأدائها ، وقالوا : ان مخالفينا مشركون ، فلا يلزمنا أداء أمانتنا اليهم ، ولم يقيموا الحد على قاذف الرجل المحصن ، وأقاموه على قاذف المحصنات من النساء ، وقطعوا يد السارق فى القليل والكثير ولم يعتبروا فى السرقة نصابا .

قال عبد القاهر البغدادى : وأكفرهم الأمة فى هذه البدع التى أحدثوها بعد كفرهم الذى شاركوا فيه المحكمة الأولى ، فباءوا بكفر على كفر ، كمن باء بغضب على غضب ، وللكافرين عذاب مهين (٦) ..

ثم ننتقل الى نص ابن أعثم :

---

(٥) القعدة : جمع قاعد ، وهم الذين قعدوا عن نصرة على ، وعن مقاتلته .

(٦) الفرق بين الفرق ص ٨٣ — ٨٤ .

« ابتداء خبر الأزارقة » (٧)

قال : والأزارقة يومئذ قد جمعوا جموعا كثيرة ، وخرجوا من البصرة فصاروا الى الأهواز ، فغلبوا عليها وعلى جميع كورها ، وقتلوا عمالها ، وجبوا أموالها • ورئيسهم يومئذ : أبو راشد (٨) بن الأزرق الحنفى ، وقد بايعته الأزارقة وسموه أمير المؤمنين •

قال : وكتب أمير البصرة عبد الله بن الحرث (الحارث) الى عبدالله ابن الزبير بذلك ، فكتب اليه : بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله أمير المؤمنين ، من عبد الله بن الحرث ، أما بعد ، فانى أخبر أمير المؤمنين أيده الله أن نافع بن الأزرق الحنفى ، وعطية بن الأسود ، وعبيدة بن هلال اليشكرى ، وأخاه محرز بن هلال ، أنهم قد صاروا الى الأهواز ، فغلبوا عليها ، وأخذوا أموالها ، وقتلوا عمالها ، وقتلوا أهلها ، وقد لحق بهم من أهل البصرة وغيرها ، من كان على دينهم ، ويرى برأيهم ، وقد عقدوا لواء ، ورأسوا على أنفسهم نافع ابن الأزرق الحنفى ، وقد والله هالنا أمرهم يا أمير المؤمنين ! وأنا أحببت أن لا أطوى ذلك عنك لترى فى ذلك رأيك والسلام •

قال : فكتب اليه عبد الله بن الزبير : أما بعد ، فقد ورد كتابك على تذكر فيه أمر الأزارقة ، وما كان من اجتماعهم بالأهواز ، وغلبهم عليها ، فاذا ورد كتابى هذا فاقرأه على وجوه أهل البصرة ، وتدارك

---

(٧) نص العنوان الذى بدأ به ابن أعثم حديثه عن الأزارقة — الفتوح ١/٦ .

(٨) هذه كنية نافع بن الأزرق المقتول فى موقعة دولاب فى عام ٦٥ هـ وانظر أخبارا عنه لدى المبرد فى الكامل ٢٢٢/٣ — ٢٣١ ، وترجم له : ابن حجر فى لسان الميزان ١٤٤/٦ ، وابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٣١١ ، والنويرى : نهاية الأرب ٥٢٣/٢٠ — ٥٢٤ . والمقريزى فى الخطط ٢٩٩/٣ .

هؤلاء الخوارج قبل أن يكثـــر جمعهم ، وابعث اليهم برجل يرتضيه أهل البصرة ، وقوه بالمال والســـلاح والرجال ، ولا تقدمر فى شىء مما كتب به اليك . والسلام ..

قال : فلما ورد كتاب عبد الله بن الزبير على عبد الله بن الحـــرث وقرأه ، أرسل الى وجوه أهل البصرة ، فجمعهم ، منهم : الأحنف بن قيس التميمى ، وسويد بن منجوف الذهلى ، ومالك بن مســـمع الجحدرى، ومن أشبههم من سادات العرب ، فشاورهم فى أمـــر الأزارقـــة . فسكت القوم ، ولم يشيروا بشىء ! وقال (وقالوا) : أنظـــرنا الآن أيهـــا الأمير ثلاثة أيـــام حتى ندبـــر رأيـــا فى ذلك ، ونلقاك بعد ذلك ان شاء الله تعالى . ثـــم انصرف القوم الى منازلهم ؛ وأنشـــأ الصلتان العبدى [٩] فى ذلك يقول :

أمـــا لسويد لا تشير ومالـــــك ... وأحنف ما بعد الثلاثـــة يذهب
ومالهم لا ينظـــرون لواحـــــد ... يدور عليه الرأى لا يتـــذبذب
ولو شهد الصهر المحلب أجمعوا ... عليه جموعا ثم لم يتهيـــــــب
وكان الذى يثنى الحسام باسمه ... وأولهم بعـــد المهلـــب مطلـــب
فان رجـــع الله المهلب لم نخف ... عدوا له فى الحرب ناب ومخلب

قال ابن أعثم : ثـــم اتفقت آراء أهل البصرة على رجل من قريش يقال له : مسلم بن عبيس بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس ابن عبد مناف ، فمشوا اليه ، وسألوه أن يسير الى حـــرب الأزارقـــة ،

---

(٩) الصلتان العبدى ، هو : قثم بن خبية ، من بنى محارب بن عمـــرو من بنى عبد القيس ـــ والنسبة اليها « العبدى » وقـــد وصـــف بأنه شاعر مشهور خبيث ! توفى نحو سنة ٨٠ هـ . البغدادى : خزانة الأدب ١٨١/٢ . الزركلى : الأعـــلام ١٩٠/٥ .

فأجاب الى ذلك . ثم انه جمع سبعمائة رجل ، وخرج الى الأزارقة فالتقى بهم (١٠) .

« ذكر اجتماع أهل البصرة عند الأمير عبد الله بن الحرث ، واتفاقهم على المهلب بن أبى صفرة » ثم أرسل عبد الله بن الحرث الى أكابر أهل البصرة وأشرافهم ، فجمعهم عنده ، ثم أقبل عليهم فقال : يا أهل البصرة ! انه قد أظلكم عدو غالب ، نه نار لاهبة ، وقد أصاب فيكم مصائب عظاما حتى تحاماه الناس ، ولكن هاتوا رأيكم ، وسموا لى رجلا يقوم بهذا الأمر ، فينتدب لحرب هؤلاء الخوارج ! قال : فتكلم بعض القوم وقال : أصلح الله الأمير ! انه ليس لهذا العدو أحد يقوم بأمره الا المهلب بن أبى صفرة ، لأنه رجل له حزم وعزم ومعرفة بالحروب . فقال عبد الله بن الحرث : لعمرى ، لقد صدقتم فيما ذكرتم من أمر المهلب ، لكنه غائب بناحية خراسان كما علمتم ، فكيف الرأى فى ذلك ؟ فقالوا : الرأى أن تكتب اليه كتابا على لسان أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير ، وتبعث اليه رسولا من قبلك ، فلعله يرجع الى مصره لحرب هؤلاء القوم (١١) .

---

(١٠) الفتوح ٦/١ — ٦ . وهنا توقف ابن أعثم مؤقتا عن حديث الأزارقة ودخل فى حديث آخر لا علاقة له بالموضوع وهو « اختفاء محمد بن الحنفية فى جبل رضوى كما تزعم الشيعة — وما قاله فى ذلك السيد الحميرى من شعر . ثم عاد مرة أخرى الى حديث الأزارقة فى ص ١٠ .

(١١) الفتوح ٦/١٠ — ١١ ، وفى أول عرضه لأخبار الأزارقة ، وابتداء حروبهم مع أهل البصرة ، خلط ابن أعثم خلطا شديدا بين الحوادث ، فأدخل بعضها فى بعض ، وقدم وأخر ، وتناسى أو غفل عن ذكر أمور وقعت ، كما أسرع بذكر أشياء سوف تحدث مستقبلا ! ونحن نسارع الى تصحيح الصورة التى تم عليها الأمر أولا بأول ، فنقول : فى سنة ٦٥ هـ اشتدت شوكة نافع بن الأزرق ومن تبعه من الخوارج الذين ينتسبون اليه ، وزحف بهم نحو البصرة — حيث كان أهلها مشغولين فى صراع بين الأزدوربيعة وتميم بسبب مقتل مسعود بن عمرو — ففزع

=

قال : فعندها كتب الحارث بن عبد الله الى المهلب بن أبى صفرة :
بسم الله الرحمن الرحيم ، من عند أمير المؤمنين ، أما بعد فان عاملى بالبصرة كتب الى كتابا يذكر فيه أن قوما من خوارج الأزارقة المارقة خرجوا من البصرة بعد أن قتلوا سادات أهلها ، ثم انهم نزلوا بلد الأهواز ، فتغلبوا عليها ، وأصابوا جندا من المسلمين كبتوا عدوهم ، وقد عزموا على أن يقبلوا الى أرض البصرة ، لقتل الرجال وأخذ الأموال وهتك الحريم وسبى الذرية ! وقد رأيت أن تكون أنت الذى تلى قتالهم ،

= أهلها ، فأرسل اليه أميرها عبد الله بن الحارث ، مسلم بن عبيس بن كريز بن ربيعة فى عدة آلاف من أبطال أهل البصرة ، فخرج اليه وجعل يزحزحه عن أرض البصرة حتى بلغ دولاب — وهى احدى القرى القريبة من الأهواز — فاقتتلوا هناك أشد ما يكون القتال ، فقتل مسلم بن عبيس أمير أهل البصرة ، وقتل نافع بن الأزرق أمير الخوارج فى جمادى الآخرة . فأمر البصريون عليهم الحجاج بن باب الحميرى ، وأمر الخوارج عبد الله بن الماحوز التميمى ، ولازال القتال شديدا ، فقتل القائدان المذكوران ، فأمر أهل البصرة عليهم ربيعة بن الأجرم التميمى ، وأمرت الخوارج عبيد الله بن الماحوز التميمى ، واقتتلوا حتى حل المساء وقد نال الفريقين الجهد والعناء وكرهوا بعضهم بعضا ، وملوا الحرب ! واذا بكتيبة من الخوارج لم تشترك من قبل فى المعركة قد طلعت عليهم ، فحملت على البصريين من ناحية عبد القيس ، فانهزم أهل البصرة ، وقتل أميرهم الثالث ربيعة ، وأخذ الراية حارثة بن بدر ، فقاتل ساعة بمن صبر معه من القوم ، وأخذ يتجه بهم حتى نزل بالاهواز ، وبلغ ذلك أهل البصرة ، فأفزعهم وهالهم ! وأرسل عبد الله بن الزبير ، أميرا جديدا على البصرة هو الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى ، وعزل عبد الله بن الحارث . وأقبل الخوارج نحو البصرة . حينئذ أقبل المهلب بن أبى صفرة قادما من عند ابن الزبير ، قد ولاه خراسان . فتقدم رؤساء الناس الى أمير البصرة برأيهم فى الموقف وقالوا له : ما لهذا الأمر الا المهلب ! فكلمه أمير البصرة وأشرافها فى توليته حرب الخوارج ، فاعتذر بولايته على خراسان . راجع : الكامل للمبرد ٣/٢٩٣ — ٢٩٦ والأخبار الطوال لأبى حنيفة الدينورى ص ٢٧٠ — ٢٧١ . وتاريخ الرسل والملوك للطبرى ٥/٦١٣ — ٦١٥ . ومعجم البلدان لياقوت ٢/٤٨٥ — ٤٨٦ ، والكامل لابن الأثير ٤/١٩٤ — ١٩٦ .

لأنك ميمون الطلعة ، مبارك على أهل مصرك ، والأجر فى ذلك أعظم من كل أجـــر ، فسر رحمك الله راشدا فانه لن يفوتك سلطان خراسان » •

قال : فلمـــا فرغ من الكلام ، قام المهلب ، فحمـــد الله وأثنى عليه، ثم قال : أما بعــــد ، ما أنا الا رجل منكم يعزونى ما يعزوكم (١٢) من فرح وترح ، وهذا أمـــر لابد منه ، غير أنى أريد أن أسألكم شرطـــا يشرطه لى الأمير ، وتضمنه لى العامة ، فان أجبتمونى الى ذلك نهضت الى حرب عدوكم ، واستعنت الله على ذلك — والسلام (١٣) • قالوا : فانهض بنا اذن الى الأمير ، حتى يكون ذلك بحضرته • فنهض المهلب ، ونهض القوم معه ، حتى دخلوا على الحارث بن عبد الله المخزومى ، فسلموا عليه وأخذوا مجالسهم ، وأقبل الأمير على المهلب فقال : أبا سعيد ! انى أرى أهل مصرك قـــد أجمعوا عليك ولا أظن أنهم أجمعوا على خطـــأ ، فاجمـــع اليك ســـادات أهـــل مصرك ، وادفـــع عنا ضرر هـــؤلاء • والســـلام •

قال : فلمـــا قال ذلك ، أقبل عليه المهلب فقـــال : أيهـــا الأمير ، انى دون ما قالوا، ولعلى كمـــا يظنون ، وأريـــد منكم أن أختـــــار من

---

(١٢) عزا يعزو : نسب الى كذا ، تقول : عزا فلانا الى فلان يعزوه عزوا وعزيا : نسبه اليه . وعبارة ابن أعثم هـــذه لا معنى لهـــا هنـــا ؟ ولعل هناك تصحيفا فى الكلمتين ، وصوابهمـــا « يعرونى ما يعروكم » بالراء ، أى يصيبنى ما يصيبكم .

(١٣) قال ابن أعثم : ان المهلب كان غائبا فى خراسان ، فاتفق رأى الأمير وسائر القوم على أن يكتبوا اليه تكليفـــا من أمير المؤمنين بتـــولى قتال الأزارقـــة لعله يعود من خراسان . وها هو يقول مناقضـــا نفســـه « فلمـــا فرغ من الكلام قام المهلب فحمد الله الخ ! والذى قال به المؤرخون: أن المهلب حينئذ كان موجودا بالبصرة لم يغادرها بعد . كمـــا أن الكتاب الذى كتبه أمير البصرة الى المهلب على لســـان ابن الزبير يختلف عندهم عمـــا ذكـــره ابن أعثم فى تفاصيله وان كان المضمون العـــام واحـــــدا تقريبا . راجع الطبرى : تاريخ ٦١٥/٥ — ٦١٦ — ابن الأثير : الكـــامل ١٩٦/٤ — وراجع الفتوح ١١/٦ — ١٣ .

الرجال ما أريد (من أريد)، واذا قلت أمرا لا تكونوا دونه ! فقالوا: لك ذلك [١٤] . وأنشأ رجل منهم فى ذلك يقول [١٥] :

شمت المهلب والحوادث جمة ... والشامتون بنافع بن الأزرق [١٦]
أن مات غير مداهن فى دينه ... ومتى يمر بذكر نار يصعق
والموت ضيف لا محالة نازل ... من لا يصبحه نهارا يطرق [١٧]
فلئن أمير المؤمنين أصابه ... ريب المنون فمن يصبه يغلق [١٨]
ورمى المهلب جمعنا بجموعه ... وبما أصبنا بالصبور المنتقى [١٩]
نعم الخليفة من حدا بجنوده ... لى ابن ماحوز بقية من بقى [٢٠]

---

(١٤) الفتوح ١٣/٦ . وقد ذكر الطبرى وغيره من المؤرخين أن المهلب قد اشترط على أهل البصرة لكى يقبل هذه المهمة الخطيرة شروطا فقبلوها دون مناقشة ، وهى : أن يجعلوا له ما غلب عليه من الأرض ، وأن يعطوه من بيت المال ما يتقوى به هو ومن معه من الجند ، وأن ينتخب من فرسان الناس ووجوههم وأشرافهم من يريد . وكتبوا له بذلك كتابا .. تاريخ الرسل والملوك ٦١٦/٥ . ابن الأثير : الكامل ١٩٦/٤ .

(١٥) سياق حديث ابن أعثم هنا (١٣/٦) يقتضى أن القائل من أهل البصرة ، وليس الأمر كذلك . بل القائل رجل من الخوارج كما قال المبرد فى الكامل ٢٩٩/٣ والدينورى : الأخبار الطوال ص ٢٧٤ .

(١٦) روى المبرد البيت هكذا :

شمت ابن بدر والحوادث جمة ... والحائرون بنافع بن الأزرق

(١٧) روى المبرد الشطر الأول من البيت هكذا :

والموت حتم لا محالة واقع . الكامل ٢٩٩/٣ .

ورواه الدينورى هكذا : والموت أمر لا محالة واقع . الأخبار الطوال ص ٢٧٤ .

(١٨) ليس هذا البيت فى الأخبار الطوال .

(١٩) من هنا الى آخر الأبيات ليست عند المبرد . كما أن هذا البيت لم يرد فى الأخبار الطوال . وقوله « المنتقى » تحريف ، والصواب « المتقى » .

(٢٠) لم يرو الدينورى هذا البيت فى أخباره الطوال . وكلمة «لى» فى الشطر الثانى منه غير واضحة ولا مفهومة .

ولئن رمينــا بالمهلب انـــــه شيخ العراق وعز أهل المشرق[٢١]
فلعلنــا نسخى به ، ولعلـــه يسخى ينافى بعض ما قد نلتقى[٢٢]
بالسمر نختطف النفوس ذوابلا وبكل أبيض صارم ذى رونــق
فنذيقه فى حربنــا ويذيقنـــا كل مقالته لصـــــاحبه : ذق

قال : ثم بايعت الأزارقة لعبيـــد الله بن ماحوز ، فجعلوه فى موضع نافـــع بن الأزرق ، وعقدوا له البيعة ، وســـار المهلب حتى وافى الأهواز وسارت اليه الأزارقة نيف عن عشرين ألفـــا ، وفيهم يومئذ نيف عن أربعـــة آلاف فارس ممن عليه درعان[٢٣] ..

هذه أول وقعة كانت للأزارقة

مع المهلب بن أبى صفرة

قال ابن أعثم : وعبت الأزارقة يومئذ خيولها ، وعبى المهلب أصحابه وكان على ميمنته ابناه : زيد ، وحرون ، وعلى ميسرته ابنـــه المغيرة ، و (ابنه) قبيصة ، وعلى جناح ميمنته ابنه عبد الملك ، وعـــلى جنـــاح ميسرته ابنه المفضل ، وفى كمينه ابنه زياد ، و (ابنه) مروان ، وبين يديه

---

(٢١) نص هذا البيت لدى الدينورى هكذا :
فلئن منينـــا بالمهـــلب انه لأخو الحروب وليث أهل المشرق
ــ الأخبار الطوال ص ٢٧٤ .

(٢٢) قوله : نسخى به ، يسخى بنا ، فيه تصحيف ، والصواب : نشجى به ويشجى بنا . أى يقهرنا ونقهره ويغلبنا ونغلبه . وقـــد روى الدينورى البيت هكذا : ولعله يشجى بنا ولعلنـــا نشجى به فى كل ما قد نلتقى . المصدر الســـابق ص ٢٧٤ .

(٢٣) الفتوح ١٣/٦ ــ ١٥ .

ابناه · محمد وحماد (٢٤) • ثم وقف المهلب بين الصفين ورفـــع صوته فقال : يابنى ، ان أول غزوكم ! انصافكم لا خوتكم المســلمين ، وأن تؤاسوهم بأنفسكم ، وان أول انصافى لكم أن لا اظلمكم حقكم غى أمر الحسين (كذا ولا معنى لهــا) ، فباشروا الحرب بأنفسكم ، واستقبلوا حر السيوف بوجوهكم ، وسنان الرماح بصدوركم ونحوركم ، واعلموا أنها منزلتان : اما شهادة واما ظفــر • قال : وجعلت الأزارقة تســمع كلام المهلب ، ووصيته لأولاده ، فأيقنوا بالموت ! ثم دعا المهلب بغلام له يقال له : ذكران ، فدفــع اليه اللواء ، وقال : تقدم بين يدى ، واياك أن ترجع ، فانك ان رجعت ضربت عنقك ، وان وقفت لى فى هــذا اليوم فأنت حر ، وجاريتى ريحانة لك ! فتقدم ذكران بين يــدى المهلب ، ودنا القوم بعضهم من بعض ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، وأقبــل صاحبهم عبيد الله بن ماحوز ، وقتل أخوه عثمان • وقتــل منهمــا نيف عــلى ثلاثمائة رجل من أبطال الأزارقــة فى معركــة واحــدة ، ثــم وقعت عليه (عليهم) الهزيمة فانهزموا ، فأنشأ عوف بن بشر السبتى — من أصحــاب المهلب — فى ذلك يقول :

قد نفينــا العدو أمس عن الجيـ ش وقد زحزحوا عن الأهــواز
بطعــان مهالك القتل فيـــــه موشك الحلف للنفوس العــراز
وببيض تفرى الرءوس من القو م كأن الضبــاب برق الحجــاز
فى مقام أخر من لهب الجمــ ر كثير به يــد الرحـــــــاز

(٢٤) ليس فى أبناء المهلب من اسمه : زيد ، وانمــا هو يزيــد ، وليس فيهم حماد ، وانمــا هو حجاج . وأما حرون أو الحرون ، فهــو لقب لحبيب بن المهلب ، لقب بذلك لأنه كان يحرن فى الأرض فلا يبرح لشدة قتاله وثباته فى الحرب كمــا يقول ابن أعثم فى الفتوح ٣٤/٦ ، وانظر : ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٣٦٨ . ويذكــر الدينورى أن أبنــاء المهلب الذين قاتلوا الخوارج مع أبيهم كانوا ثمانية وهم : « المغيرة ، وحبيب ، ويزيــد ، والمفضــل ، ومدرك ، ومحمد ، وعبد الملك ، وعبد الله » الأخبار الطوال ص ٢٨٠ ، وانظــر الكامل لابن الاثير ٤٤٠/٤ — ٤٤١ .

ان من رد هــؤلاء عن الحــــ ر لأهل الصلاح والاعــــزاز
ذلكم شــيخنا المهلب حسبى من بناتى عليــه بالانجـــاز
قد دعونا لهـا الرجـال فحاموا دونهـا فعل خائفين عجـاز
قد مضى ما مضى وذاك ابن مـا حوز صريع لناتقات الحراز (٢٥)

قال ابن أعثم : وسار المهلب نحو الأزارقة حتى وافاهم بسلى وسلبرى (٢٦) .

---

(٢٥) هذه الأبيات ، لم ترد فى جميــع المصادر التى بين أيدينا ، وكذلك قائلها الذى سماه ابن أعثم : عوف بن بشر السبتى ، رجل مجهول ، لا ذكر له فى معاجم الشعراء ولا فى المصادر التاريخية الأخرى ، كما أن هـــذه النسبة غير موجودة فى كتب الأنســاب ! والواقــع أن هذه الأبيـــات الهزيلة ليست من الشعر العربى فى شىء ، الا من حيث انهــا الفــاظ مركبة موزونة فحسب ، تكون منهــا آخــر الأمــر شىء يشبه الشــعر ؛ ولكنه دون ذلك ، وبصفة خاصـــة الأبيات : الثانى ، والرابع ، والسادس ، والأخير ، كذلك تضمنت الأبيـــات كلمــات غريبة على معاجم العربيـــة مثل : العراز ، والرحاز ، وعجاز ، والحراز ! فهو شعر منحول لاسم مجهول ؟ .

(٢٦) الفتوح ١٥/٦ ــ ١٧ . وعلى الرغم من أن ابن أعثم قــد حدد أنها الوقعة الأولى بين المهلب والخوارج ، فان من يقرأ ما كتبه تحت هــذا العنوان لا يشــعر بأنه قــد جرت وقعة حقا ! فلقــد اهتم بذكــر أسماء عشرة من أبناء المهلب ، عينهم أبوهم فى موضع القيــادة من جيشـــه ، وأبرز اســم غلامه ذكوان ، وكل ما يــدل على أنه كانت هنـاك معركــة قوله : ودنا القوم بعضهم من بعض ، فاقتتلوا قتالا شديدا ! ومع ذلك فلــم يقل أين ومتى جرت هـــذه الوقعة الأولى ؟ ثــم خلط بشدة فى قوله : وأقبل صاحبهم عبيد الله بن ماحوز ، وقتل أخوه عثمان ، لأن عثمان هذا هو ابن معمر القرشى وليس بابن ما حوز التميمى ؟ وهو قد قتل فى موقعــة سابقـــة على تعيين المهلب لقتال الأزارقـــة كمــا ذكــر المؤرخون . كذلك قــد نص فى نهاية الأبيـــات الركيكة التى ذيل بهــا هذه الوقعة على أن عبيد الله بن ماحوز قد قتل ، وليس هــذا بصحيح ! واذن فماذا حدث بدقة لنصحح مــا أخطأه ابن أعثم ؟ .
=

قال ابن أعثم :

« هذه وقعتهم الثانية »

ودنا القوم بعضهم من بعض ، ثم اختلطوا فاقتتلوا قتـــالا شديدا، أشـــد ما (مما) كان من قتالهم الأول ، ودارت الحرب عليهم يومـــا وليلة ، يموج بعضهم فى بعض ، فلا تسمع الا وقـــع السـيوف عـــلى

=

قال المؤرخون الذين يعتمـــد على روايتهم للتاريخ لدقتهم وتحريهم : ان المهلب قـــد نهض الى الخوارج — فى عشرين ألفا من أبطـــال أهـــل البصرة — عند نهـــر تيرى ، وهو نهر يجرى عند بلد بنواحى الأهواز (تيرى) كما قال ياقوت فى معجمه ٣١٩/٥ ، أو عند نهـــر تستر كما ذكر الدينورى فتنحى الخوارج عنه الى الأهواز ، فبث المهلب جواسيسه فى صفوفهم ليأتوه بأخبارهم ، فلمـــا علم منهم مقصـــد الخوارج ، استخلف أخاه المعارك ابن أبى صفرة على نهـــر تيرى ، وزحف نحوهم بالأهواز ، فنشب القتال بينهم وبين مقدمة المهلب وعليها المغيرة ابنـــه ، فوجدوا من أهل البصرة صبرا وصدقا ، وأدركوا أنهم لن ينالوا من جيش المهلب ، فانسحبوا الى مناذر — وهى احدى كورتين بالأهواز ، مناذر الصغرى ، ومناذر الكبرى — فسار خلفهم ، فلمـــا قاربهم أرسلوا فرقـــة منهم يقودها « واقد » مولى أبى صفرة الى نهر تيرى حيث يوجـــد المعارك أخو المهلب ، فقتلوه وصلبوه ، فبلغ الخبر المهلب ، فبعث ابنه المغيرة الى نهـــر تيرى ، فأنزل عمه ، وصلى عليه ، ودفنه ، وهدأ من روع النـــاس ، ثم ترك بها جماعـــة ، وعـــاد الى أبيه الذى كان قد وصل الى سولاف — وهى قرية فى غربى دجيل قرب مناذر الكبرى — وفى سولاف وقعت المعركـــة الأولى بين المهلب والخوارج فى عام ٦٥ هـ ، واشتدت حملة الخوارج على أهل البصرة حتى انهزموا وقتل منهم، لكن المهلب وابنه المغيرة صبرا وأبليا بلاء حسنا ، ونادى المهلب فى أصحابه ، فعادوا اليه ، وثبتوا أمام الخوارج ، ولم يكن قتال فى الغد من يـــوم سولاف، فســـار المهلب ونزل بالعاقول وهو شديد الاحتراز من غرة الخوارج ، فأقام بالعاقول أياما ثلاثة ثم سار نحو الخوارج وهم بسلى وسلبرى . راجع الدينورى : الأخبار الطوال ص ٢٧٢ — ٢٧٣ . الطبرى : تاريخ ٦١٦/٥ — ٦١٧ . المبرد : الكامل ٣١٤/٣ — ٣١٧ . ابن الأثير : الكـــامل ١٩٦/٤ — ١٩٨ . والعاقول : الأرض لا يهتدى لهـــا .

المغافر والحجف ، وأنشأ رجل منهم يذكر من قتل فى ذلك اليوم ، واليوم الذى قبله ، وهو يقول :

لعمرى وقد بات الحياة وطيبها   برضوان ربى بالخليقة عالم
غداة نكر الخيل تدمى نحورها   بدولاب يوم المأزق المتلاحم
بكل فتى رخو النجاد كأنه   شهاب بدا تحت السيوف الصوارم
سقى الله أرضا لا تلوح وأعظما   بدولاب صوب الهاطلات الرهائم
هم أدركوا فوز الحياة وخلدها   وما خاف شر البيع يوما كغانم
فان تك قتلى يوم سلى تتابعت   فكم تركت أرماحنا من قماقم
هنالك صرعى بالفلاة فأصبحت   صوائحهم تعلون بين المآتم(٢٧)

قال ابن أعثم : وأصبح القوم على حربهم ، ليس منهم من بلغ من صاحبه ! وتعالى النهار والأمر ملتحم بين الفريقين ، حتى ان بعضهم كاد أن يأكل بعضا من شدة الحرب . وضرب المهلب على رأسه ضربة منكرة ، فسقط عن فرسه الى الأرض ، وأحدق به بنوه ، فجعلوا يحامون عنه أشد المحاماة . قال : وصاح رجل من أهل البصرة : قتل المهلب ورب الكعبة ! فانهزم الناس عن المهلب هزيمة قبيحة ، يظنون أنه قد قتل ! وأفاق المهلب بن أبى صفرة من غشوته (غشيته) فاستوى على فرسه وجعل يقاتل ، وكبر أصحابه ، فانهزمت الأزارقة لذلك انكسارا شديدا ، ثم صاح المهلب ببنيه ، وحمل الناس معه

---

(٢٧) لم يرد من هذه الأبيات السبعة فى المصادر الأخرى سوى بيتين أثنين ، هما الثانى والسادس ، وقد فصل ابن أعثم بينهما ، وقدم ثانيهما على الأول ، أما بقية الأبيات فهى — على الأرجح — من اضافات المؤلف العديدة . وقد ذكر المبرد فى الكامل ٣٢٨/٣ ، وياقوت فى معجم البلدان ٢٣٢/٣ ، البيتين على الوجه الآتى :

فان تك قتلى يوم سلى تتابعت   فكم غادرت أسيافنا من قماقم
غداة نكر المشرفية فيهم   بسولاف يوم المأزق المتلاحم

من الأزارقة مائتى رجل ، وانهزموا حتى صاروا الى بلد يقال لها ايذج [٢٨] ، فنزلوا هنالك .

قال ابن أعثم : وأقبل الفتى من شعراء أهل البصرة ، يقال له سعد بن سعيد الأزدى، حتى دخل على الحارث، فقال : لا تطلب المقام عندنا الا أن تسمع الخبر أن المهلب قد قتل ، فان كان قد قتل فما بقى فى البصرة مقام ، ان كان قد قتل هو وأولاده وبنو عمه ! ثم أنشأ ذلك الفتى فى ذلك يقول :

أيا حار ، يا ابن السادة الصيد هب لنا
رحيلك لا ترحل ولم يأتك الخبر [٢٩]
فان كان أودى بالمهلب يومه
فقد كسفت يا حار شمسك والقمر [٣٠]
فما لك من بعد المهلب رجعة
ولا لك بالمصرين سمع ولا بصر [٣١]
فدونك فالحق بالحجاز ولا تقم
ببلدتنا ، ان المقام على خطر [٣٢]

---

(٢٨) ايذج : كورة وبلد بين خوزستان وأصبهان ، فى وسط الجبال . ياقوت : معجم البلدان ١/٢٨٨ .

(٢٩) فى الأخبار الطوال ص ٢٧٣ . جاء الشطر الثانى هكذا .
« مقامك لا ترحل ولم يأتك الخبر »

(٣٠) كذلك اختلف الشطر الثانى فجاء هكذا .
« فقد كسفت فى أرضنا الشمس والقمر »
المصدر السابق والصفحة .

(٣١) ورد البيت فى الأخبار الطوال ص ٢٧٣ هكذا :
وما لكَ من بعد المهلب رجعة وما لكَ بالمصرين سمع ولا بصر

(٣٢) فى الأخبار الطوال ص ٢٧٣ : استبدلت كلمة«بها»بعلى فى الشطر الثانى » « ان المقام بها خطر » .

وان كـــان حيـــــا لم يصـــــب فحياته
عـــلى أى حــــال كـــان فى حربه ظفـــــر (٣٣)
وكـــن آمنــــا واعلم بأنـــــك آخـــــذ
به النصف ممن كان فى جده الصـــغر (٣٤)
ألـــم تـــر أن النـــــاس أجمـــع رأيهـــم
عليـــــه ولمـــا لم يجـــد مثلـــــه بشر
فقالوا جميعـــا فيه قـــولة واحـــــد
ولـــــم ينههم التفكـــــر والنظـــــر

قال : واجتمع الناس فى مسجد البصرة ، فجعلوا يبكون وينوحون !! وجعل الأحنف بن قيس يقول : انا لله وانا اليه راجعون • على هلك المهلب وأصحابه ، وجماعة المسلمين ! •

قال ابن أعثم : فوثب غلام من بنى تميم من بنى سعد ، فقال : والله ما قتل المهلب ، ولا قتل أحد من بنى عمه فى هذه الوقعـــة ، غير أن الذين صاروا اليهم منهزمين انما هم أعـــداء المهلب • وانما حسده على ما كان منه فى الاسلام ، والرفع (لعلها والدفع) عن بيضة هذا البلد ، ووالله ، الخبر الصحيح : أنا لقينا الأزارقة بموضع يقال له : سلى وسلبرى : فأطبقنا الحرب عليهم يوما وليلة ، يموج بعضنا فى بعض ، ثم أصبحنا على ذلك من شأننا ، وضرب المهلب على رأسه ضربة سقط (بها) الى الأرض ، فخبأه بنوه وحموا عنه ، فقاتلناهم فرزقنا عليهم الظفر ، وقتلنا منهم مقتلة عظيمة ، وقتل صاحبهم عبيد الله

---

(٣٣) ورد هذا البيت لدى الدينورى مختلفا ، فقال
وان كان حيا كنت بالمصر آمنا وكان بقاء المرء فينا هو الظفر

(٣٤) هذا البيت واللذان بعـــده ، انفرد بهـــا ابن أعثم ، ومن المرجـــح أنهـــا من اضافاته .

ابن ماحوز وأخوه عثمان فى معركة واحدة [٣٥] وبايع القوم من بعدهم ابن أخيه قطرى بن الفجاءة المازنى ، وقد والله هزمناهم بحمد الله وعونه ، حتى بلغناهم الى حدود أصبهان من بلاد ايذج ! فعلى هـذا تركت الناس فى آخر أمورهم ، فكل من كذبنى بعد هذا الأمر فهو الكذاب ، ثم انه أنشأ يقول :

أبا بحر انى والبنية صادق ... خبير وما مثلى بمثلك يلعب
ولا تكذب الرفاد ما بعثوا به ... اذا لم يكن فى الأرض مرعى ومشرب
وقد كان حقا جار حكمى عليكم ... وان كان زورا فاشتمونى وأضرب
بسلى وسلبرى جماجم أصبحت ... رفاتا ونهبا قد حواه المهلب
وذاك ابن ماحوز هناك مجندل ... قتيل ، وعثمان هناك محلب [٣٦]
وأطبقت الهيجاء يوما وليلة ... علينا واياهم ليوث وتلهب [٣٧]
فلا صد منا لا ، ولا من عدونا ... غداة الوغى حد ولا أرو مسلب ؟ [٣٨]
وأقشعت الغماء عنا وشيذنا ... جزى الله خيرا بالدماء مخضب
غلما رأينا وجهه لم يكن لنا ... سوى الجهر بالتكبير حين يقرب
قصدنا اليه اذ رأينا جبينه ... وقلنا : فدتك النفس والأم والأب
على ذا تركت القوم آخر أمرهم ... فمن قال كذب ، فالمكذب أكذب [٣٩]

قال : فأخذ الأحنف بيد الفتى ، وجاء به حتى أدخله الى الأمير ،

---

(٣٥) سبق لابن أعثم أن ذكر قتل عثمان بن ماحوز هذا فى الوقعة الأولى — انظر ص ٣٧٠ — وليس هناك عثمان بن ماحوز أصلا ! ؟ .

(٣٦) فى قوله « محلب » تحريف ، والصواب « ملحب » أى مقطع من أثر الضرب .

(٣٧) قوله « وتلهب » فعل مضارع لهب ولا أدرى معناه فى البيت ؟ ويبدو أنه من حشو هذا الشاعر المجهول ! ؟ .

(٣٨) الفاظ مركبة فى هذا البيت ولا معنى لها ! ؟ .

(٣٩) هذه الأبيات جميعا مما انفرد به ابن أعثم الكوفى ، فلم تذكر فى غيره من المصادر التى بين أيدينا .

فحدثه بالحديث على جهته ، فأدركه الأمير ، وأمر له بخلعة وجائزة[٤٠] .

---

(٤٠) الفتوح ١٨/٦ — ٢٤ . ومازال لدى ابن أعثم بقية من حوادث الوقعة الثانية ، نعود اليها بعد هذا التعليق الذى نصحح فيه أخطاءه فيما ذكره مخالفا به من عداه من المؤرخين ، ونوجز القول فى ذلك ، فنذكر أنه ، لما زحف المهلب الى الخوارج وهم بسلى وسلبرى ، نزل قريبا منهم ، وخندق على جنده ، ورتب المسالح والأحراس ، وبث العيون يتنطسون أخبار الأزارقة ، ووكل بأبواب الخندق من يحفظونها ، وجعل الناس على راياتهم ، كل ذلك ليأمن الغرة والبيات من عدوه ، وكان مع رجاله فى حالة تأهب دائمة . وحاول الخوارج أن ينالوا منه غرة ، فأرسلوا عبيدة بن هلال اليشكرى ، والزبير بن الماحوز التميمى مع رجال منهم الى معسكر المهلب ، ليبيتوهم ، فوجدوهم عن اليمين وعن الشمال فى تعبئة كاملة وحذر تام ، فرجعوا لم ينالوا شيئا ! .

وفى الصباح التقى الفريقان ، وكان الخوارج أحسن استعدادا وأكرم خيولا من عسكر المهلب ، فاقتتلوا أشد قتال ، وصبر الفريقان عامة النهار ، ثم شد الخوارج على المهلب وأصحابه شدة عنيفة ، فأجفلوا واضطربوا وانهزموا لا يلتفت أحد الى أحد ، حتى بلغ بعض الفارين البصرة ، فارتج أهلها ، وفزعوا وخافوا الوقوع فى قبضة الخوارج ! .

وأسرع المهلب — الذى أشيع أنه قتل — حتى سبق المنهزمين الى مرتفع من الأرض ، فناداهم : الى ، الى عباد الله ، أنا المهلب فاجتمع اليه حوالى ثلاثة آلاف رجل أغلبهم من قومه من الأزد ، فلما رآهم اطمأن اليهم وأعجبه جمعهم ، فخطبهم قائلا : ما بكم من قلة ، أيعجز أحدكم أن يرمى برمحه ، ثم يتقدم فيأخذه ؟ وقال أيضا : أعدوا مخالى فيها حجارة ، وارموا بها فى وقت الغفلة ، فانها تصد الفارس وتصرع الراجل ، ففعلوا ، ثم أمر مناديا فى أصحابه : يأمرهم بالجد والصبر ويطمعهم فى العدو ، ثم قال لهم : سيروا بنا اليهم ، فانهم الان مطمئنون ، وقد خرجت خيلهم فى طلب أخوانكم ، فوالله انى لا رحو أن لا تعود خيلهم اليهم حتى تستبيحوا عسكرهم وتقتلوا أميرهم ، وانطلق المهلب برجاله اليهم ، فلم يشعروا الا وهو يكبسهم فى جانب عسكرهم ، فلقيهم ابن الماحوز والخوارج فاستخدم رجال

=

قال ابن أعثم :

« ذكر كتاب المهلب بن أبى صفرة الى أهل البصرة بالسـلامة والبشرى وما قتل الله من الأزارقة »

بسم الله الرحمن الرحيم ، للأمير الحارث بن عبد الله ، وجماعة المسلمين من أهل البصرة ، من المهلب بن أبى صفرة ، سلام عليكم ، أما بعد ، فانه لا يوهن الاسلام خروج من خرج منه ، ولا يعبيه الحاد من ألحد فيه ، وقد كانت الحرب استوقدت بنا وبعدونا ، وحمى الوطيس بيننا ، فجاء القضاء بأمر جاوز فيه الأزل ، ومن يكيدون للاسلام كثير ، وناصروه قليل ، وليس كل من يقاتل عن الاسلام من أهله ، ولكن من يقاتل عن دين الاسلام فهو من أهله [٤١] ، وقد كان العدو أصاب فى اخواننا مصائب عظاما فيما مضى ، فأصبح العدو اليوم دريئة رماحنا وضرائب سيوفنا ، فالحمد لله الذى سقى الحى وثأر القتيل [٤٢] ، فان الحمد به تتم النعمة وتزيد فى السلامة ، وأشكره فان الشكر يهيىء

المهلب الحجارة حتى أثخنوهم ثم ضربوهم بالسيوف وطعنوهم بالرماح وما هى الاساعة بعد العصر حتى قتل قائدهم عبيد الله بن الماحوز وكثير من أصحابه ، وغنم المهلب عسكرهم . ثم أقبل الذين كانوا يتعقبون أهل البصرة راجعين ، وكان المهلب قد أعد لهم كمائن من الخيل والرجال تتخطفهم عند عودتهم وتقتلهم ، فهزم جميعهم وذلوا ، فغادروا الموقع وارتحلوا الى كرمان وأصبهان ، فلما ارتحلوا قال المهلب : أنا لهم الساعة أشد خوفا ، فاحذروا البيات ! ثم قال رجل من الخوارج فيما بعد :

أتانا بأحجار ليقتلنا بها وهل تقتل الأبطال — ويحك — بالحجر ؟

راجع : المبرد : الكامل ٣٢٢/٣ — ٣٢٥ ، الطبرى : تاريخ ٦١٧/٥ — ٦١٩ ، ابن الأثير : الكامل ١٩٩/٤ — ٢٠٠ ، النويرى : نهاية الأرب ٥٢٥/٢٠ .

(٤١) هذه الجملة تناقض الجملة السابقة عليها مباشرة ! .

(٤٢) لعل الواو فى قوله « وثأر » زائدة ، فتصبح الجملة « فالحمد لله الذى سقى الحى ثأر القتيل » .

المزيد والسلام (٤٣) .

فلما قرأ الأمير الكتاب ، فرح بذلك واستبشر ، ثم أمر به ، فقرىء على المنبر ، فأنشأ رجل من بنى ضبة فى ذلك يقول :

ان ربا رمى الخوارج بالذ ... ل لأهل أن تحمدوه كثيرا (٤٤)
اذ رموا بالمهلب بن أبى صف ... رة شيخ ترى الصغير كبيرا (٤٥)
لا يزال المهلب بن أبى صفر ... رة ما عاش بالعراق أميرا
فاذا مات فالرجال نساء ... لا يساوون بعده قطميرا
فجزاك الاله يا ابن أبى صفـ ... رة عنا جزاءه الموفورا (٤٦)

---

(٤٣) أما أبو العباس المبرد ، فقد أورد نص كتاب المهلب الى أمير البصرة هكذا : بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فانا لقينا الأزارقة المارقة بحد وجد ، فكانت فى الناس جولة ، ثم ثاب أهل الحفاظ والصبر ، بنيات صادقة ، وأبدان شداد ، وسيوف حداد ، فأعقب الله خير عاقبة ، وجاوز بالنعمة مقدار الأمل ، فصاروا درئة رماحنا ، وضرائب سيوفنا ، وقتل الله أميرهم ابن الماحوز ، وأرجو أن يكون آخر هذه النعمة كأولها . والسلام .. والدرئة : الحلقة التى يتعلم فيها الرمى والطعن ، والضرائب جمع ضريبة وهى كل ما ضربت بسيفك . الكامل ٣٢٨/٣ — ٣٢٩ . وانظر الطبرى : تاريخ ٦١٩/٥ — ٦٢٠ ، فهذا الكتاب عنده أطول كثيرا من ذلك .

(٤٤) ورد البيت فى الاخبار الطوال (ص ٢٧٤) هكذا :
ان ربا أنجى المهلب ذا الطول لأهل أن تحمدوه كثيرا

(٤٥) لم يرد هذا البيت فى المصدر السابق ، ولعله من اضافات صاحب الفتوح .

(٤٦) وهذا البيت أيضا لم يذكره الدينورى فى الأخبار الطوال والذى لم يذكره ابن أعثم فى هذه المناسبة — مع أنه أمر جدير بالذكر — هو جواب أمير البصرة « الحارث بن أبى ربيعة » على كتاب المهلب المذكور ، وها هوذا : « قد قرأت كتابك تذكر فيه نصر الله ، وظفر المسلمين ، فرأيتك يا أخا الأزد ، قد وهب الله لك شرف الدنيا ، وعزها ، وذخر لك ثواب الآخرة ان شاء الله ، وأجرها ، ورأيتك أوثق حصون المسلمين ، وهاد أركان المشركين ، وأخا السياسة ، وذا الرياسة ، فاستدم الله بشكره ، يتمم عليك نعمه ، والسلام » . المبرد : الكامل ٣٢٩/٣ ، وابن الأثير : الكامل ٢٠٠/٤ .

قد أمنابك العدو على المصـ ... ر ووقرت منبرا وسـريرا

قال : ثم رجع المهلب بوجوه الأزارقة ، فبعث بهـا الى البصرة مع قوم من أصحابه لينظروا اليها • وبلغ ذلك الأزارقة ، فخرج نفـر منهم حتى عارضوا أصحاب المهلب بموضع يقال له « الزائدان » [٤٧] ، فقاتلوهم حتى أخذوا منهم تلك الرءوس ، ثـم أخذوها وصلوا عليهـا ودفنوها • ورجع أصحاب المهلب الى المهلب من شدة أنفس الأزارقـة ، وحفظهم له منهم (؟) ، فأنشأ كعب بن معدان الأشقرى [٤٨] فى ذلـك يقـول :

قـل للأزارقـة الذين تمرقـوا ... بسلى وسـلبرى لقيت نحوسـا
قتل المهلب جمعكم وأخذتـم ... من رسله بالزائدان رءوسـا
قد تكتموها فاستروها واقبلوا ... جهدا على تلك النفوس نفوسـا
ابكوا عليهـا كل ذر شـارق ... وأسوا وظلوا عاكفين عبوسـا
كم مثلها منكم له كـم مثلهـا ... بؤسا لمن عادى المهلب بوسا[٤٩]

قال : ثم أرسل عبد الله بن الزبير الى الحارث بن عبد الله المخزومى ، فعزله عن البصرة ، وولى بعـده ابن معمـر القرشى من بنى تيم بن

---

(٤٧) لا يوجد عند ياقوت فى معجمه ، ولا عنـد ابن عبد الحق فى مراصده ، موضع باسم « الزائدان » .

(٤٨) هو : أبو مالك كعب بن معدان الأشقرى من الأزد . كان فارسا شـاعرا خطيبا ، من أصحاب المهلب المعدودين ، وقد صحبه فى حروبه للازارقـة وله أخبار مطولة فى ذكـر يوم رامهرمز وغيره . توفى نحو سنة ٨٠ هـ . ويذكر عن الفرزدق أنه قال : شعراء الاسلام أربعة : أنا وجرير والأخطل وكعب بن معدان . الطبرى : تاريخ ٥/٥٤٩ ، ٦/٣٠٤ — ٣٠٨ ، الزركلى : الأعلام ٥/٢٢٩ .

(٤٩) انفرد ابن أعثم الكوفى بذكر هذه الأبيات .

مرة [٥٠] . قال : وسارت الأزارقة من الموضع الذى كانوا فيه ، حتى صاروا الى موضع يقال له : الرجان من أرض فارس ، واجتمع اليهم خلق كثير ممن كان على رأيهم ، حتى صاروا فى اثنين وثلاثين ألفا [٥١] ..

قال ابن أعثم :

ذكر خطبة قطرى بن الفجاءة

فعندها — أى عند اجتماع الأزارقة فى أرجان — قام فيهم أميرهم قطرى بن الفجاءة المازنى خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد يا معشر المهاجرين : فان لم يكن أمس عليكم فاذكروا ما كان عليه ، انكم قتلتم مسلم بن عبيس القرشى ، وهزمتهم عثمان بن عبيد الله ابن معمر القرشى ، وهو سيد من سادات أهل الحجاز ، وفضحتم حارثة بن بدر الغدانى ، وعميم المهلب وهو سيد الأزد وعميد أهل البصرة ، وهكذا المسلمون مع عدوهم ، لهم مرة وعليهم أخرى « ليميز الخبيث من الطيب » ، واعلموا أنه لم يؤت قوم فى ديارهم الا ذلوا ، فسيروا بنا الى المهلب ، وثقوا من ربكم بالنصر — والسلام [٥٢] .

---

(٥٠) فى سنة ٦٧ هـ : عزل ابن الزبير الحارث المخزومى (المعروف بالقباع) وولى أخاه مصعبا على البصرة والكوفة وما يليهما شرقا . الطبرى : تاريخ ٩٣/٦ ، وابن الأثير : الكامل ٢٦٦/٤ .

(٥١) الفتوح ٢٤/٦ — ٢٧ ، والرجان : هى أرجان مدينة كبيرة بين الأهواز وفارس — ياقوت : معجم البلدان ١٤٢/١ — ١٤٣ .

(٥٢) وهذا أيضا من تحريف ابن أعثم للتاريخ ، والصواب فى ذلك هو ما ذكره المبرد ، قال : واجتمعت الخوارج بأرجان ، فبايعوا الزبير ابن على — وهو من بنى سليط بن يربوع ، من رهط ابن الماحوز — فرأى =

قال ابن أعثم : وسار الأزارقة حتى صاروا الى قنطرة أربك [٥٣] من بلد الأهواز ، فاذا هم بالمغيرة بن المهلب هنــالك فى خيل عظيمــة ، فلما نظروا اليه ، كبروا ثــم حملوا ..

« وهذه هى الوقعة الثالثة »

وحمــل عليهم المغيرة بن المهلب فى أهل البصرة ، واقتتل القوم على قنطرة أربك ، ونظر قطرى بن الفجاءة الى المغيرة ، فحمــل عليه وهو لا يعرفه ، والتقيا بضربتين ، فبـــادره المغيرة بضربة أرداه عن فرسه ! فوثب قطرى بن الفجاءة من الأرض سريعا ، فاســتوى على فرسه ، واشتبك الحرب بين الفريقين ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، فقتل جماعة من الأزارقة ، وولت الأزارقة الأدبار منهزمين . وأنشــأ رجل منهم يقال له : عبيدة بن هلال يقول :

=

فيهم انكســارا شديدا ، وضعفا بينا ، فقال لهم : اجتمعوا ، فحمــد الله وأثنى عليه وصلى على محمــد صلى الله عليه وســلم ، ثم أقبــل عليهم فقــال : ان البلاء للمؤمنين تمحيص وأجر ، وهــو على الكافرين عقوبــة وخزى ، وان يصب منكم أمير المؤمنين ، فمــا صــار اليه خير مما خلف ، وقد أصبتم فيهم : مسلم بن عبيس ، وربيعا الأجذم ، والحجاج بن بــاب وحارثة بن بدر ، وأشجيتم المهلب ، وقتلتم أخاه المعارك ، واللــه يقــول لاخوانكم من المؤمنين « ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس » (سورة آل عمران : الآية ١٤٠) ، فيــوم سلى كان لكم بلاء وتمحيصــا ، ويوم سولاف كان لهم عقوبة ونكالا ، فلا تغلبن على الشكــر فى حينه ، والصبر فى وقته ، وثقوا بأنكم المستخلفون فى الأرض والعاقبة للمتقين .. ثم تحمل لمحاربة المهلب ، فنفحهم المهلب نفحة ، فرجعوا ، وأكمنوا له ، فلم ينالوا منه ، ثــم يئس الزبير من ناحية المهلب ، فضرب الى ناحية أصبهان ، ثــم كر راجعــا الى أرجان ، وقــد جمع جموعــا . الكامل ٣/٣٣٠ — ٣٣١ .

(٥٣) أربك : بلد من نواحى الأهواز ، لهــا قنطرة كبيرة . ياقوت : معجم البلدان ١/١٣٧ .

لعمرى لئن كنا أصـبنا بنافـع ... وأمسى ابن ماحوز قتيلا ملحبـا
فقد عظمت تلك الرزية غيهمـا ... وأعظم من هاتين خوفى المهلبـا
رمينا بشيخ يفلق الهـام رأيـه ... يراه رجال حول رايته أبـا
بقايا عن الحر المهلب عنـوة ... وعن صحصح الأهواز معنى مشذبا
وأحنى علينـا يوم أربك ثانيـا ... وكان من الأيام يوما عصبصبـا
فان يهزموا بأربك فاصبروا لـه ... وقولوا لأمر الله أهلا ومرحبـا
فما الدين كالدنيا ولا الطعن كالمنى ... ولا الضر كالسرا ولا الليث ثعلبا(٥٤)

قال : وهم المغيرة بن المهلب أن يتبع الأزارقة ، فأرسل اليه أبوه : أن يا بنى ، لا تعجل ، وذر القوم فوجه (كذا) منهزمين فيها ، ولا تجرحهم ، فان الكلب اذا جرحته عقر ! فقبل المغيرة ما أمـر بـه المهلب ، ورجع الى تستر فنزلها • وأقبل اليه أخوه يزيـد بن المهلب فى خيل عظيمة ، ومضت الأزارقة حتى ساروا الى سابور (٥٥) من أرض فارس ، فنزلوهـا وغلبوا عليهـا ، وجبوا أموالهـا ، وخففوا عن أهلهـا المؤنة ، وسار اليهم المهلب فى جيشه ، وبلغهم ذلك فمضوا اليه ، حتى أدركـوه بموضع يقال لـه : النوبندجان (٥٦) •

« ذكر خطبة المهلب قبل الوقعة »

قال : فلما عاين القوم بعضهم بعضا ، واصطفت الخيلان ، قام المهلب فى أصحابه خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيهـا النـاس :

---

(٥٤) على الرغم من أننى لـم أجد هذه الأبيـات فى المصـادر التى بين يدى ، فانهـا ليست من ذاك الشـعر المجهول القائل ، الذى مر بنا لدى ابن أعثم فيما سلف ، وأعتقد أن الأبيات لشـاعر الخوارج وخطيبهم المشهور عبيدة بن هلال اليشكرى .. والعصبصب : الشديد .

(٥٥) سابور : كورة مشهورة من أرض فارس . ياقوت : معجم البلدان ١٦٧/٣ — ١٦٨ .

(٥٦) النوبندجان : مدينة من أرض فارس من كورة سابور قريبة من شعب بوان . ياقوت : معجم البلدان ٣٠٧/٥ .

أكرموا هــذه الخيل ، فانهــا تنفعكم غدا عند اللقـــاء ، فأجلوا السلاح لتقاتلوا به الأعداء ، وأحسنوا حمله لتنظروا يوم الوغى ، وتعلموا القتال لتنصروا به مخارج الحياة ، وأطيلوا الرماح فانهــا قرون الخيـــل ، ولا تعالوا فى السيوف فانهــا مأمورة ، واتخذوهـــا فانهـــا شعار ، وعيروا الجبان بالجبن حتى يقاتل ، ولا تقولوا : الحين يحثه،ولم يفر قوم قط الا وهنوا ، وان كان رأيهم حازما ، وليس كل عـــاد يرجع ؟ ولا كل سلامة تدوم ، وهؤلاء القوم يقاتلونكم على دينكم ودنياكم ، فان غلبوكم فلا دين لكم ولا دنيا ، فقاتلوهم على ما يقاتلونكم عليه — والسلام (٥٧) .

فأجابه الناس على ما يحب ، واعتذروا اليه مما كره ، فأنشأ المغيرة ابن حبناء التميمى (٥٨) فى ذلك يقول :

يعلمنـــا المهلب كل يـــــــــوم	قتال القـــوم تعليم الكتـــــاب
ويلبســنا السـلاح اذا أمنــا	لنحذق لبسه والنقع كــــاب
وعاب حيـــاتنــــا بالجبن حتى	كأن حياتنـــا دين المعــــــاب
ويجزى المحســنين بما أتــوه	ويعفى المذنبين من العتـــــاب
ويضرب دوننـــا بالســيف صلتنا	ويضرب كل مطرد الكعـــــاب
سخى بالنهـــاب بهــــا وفى	اذا ما ســـاد أصحاب النهــــاب

---

(٥٧) لا تطمئن النفس أبدا الى نسبة هذا القول الى المهلب ، ذلك الخطيب الذى تتميز خطبه بالفصاحة والبيان والايجاز ، فهــــل يتأتى الحاق هذه الأقوال المفككة الركيكة بالمهلب ، ونسبتهـــا اليه مـــع خلوهـــا من تلك الصفات المذكورة مجتمعة أو منفردة ؟ وقـــد وصفه الدينورى فقــــال « وكان نزر الكلام وجيزه » الأخبار الطوال ص ٢٧٢ .

(٥٨) هو المغيرة بن عمرو بن ربيعة الحنظلى التميمى — الشــــاعر ، اشتهر بنسبته الى أمه ، كان من رجال المهلب — قال المرزبانى : أنفد شعره فى مدح المهلب وبنيه ، وذكـــر حربهم للازارقة . استشهد فى نسف قرب مدينة بخارى عام ٩١ هـ . الزركلى : الأعلام ٢٧٨/٧ . وعنـــد الطبرى : بعض النماذج لشعره . تاريخ الرسل والملوك ٥٥١/٥ ، ٤٥٨/٦ ، ٤٦٠ .

وفاصل خطبة عظمت وجلـــت عظيم عنده فصــل الخطـــاب

فلولا أن سيف أبى حــــديد لصـــاح اليه بالشكوى غـــراب

ولولا أن رمح أبى ســــعيد طويل طـــال من عرسى حجـــابى

كفى وشفى النفوس أبو سعيد وقد أعيى علينـــا كل بــــاب

فدال لى ونعمتنـــا علينــــا وفاه الهنا يـــوم الحساب (٥٩)

قال ابن أعثم :

« وهذه الوقعة الرابعة »

واقتتل الفريقان طوال النهار ، وكانت على المهلب وأصحابه ، وفى آخره على الأزارقـــة ، فانكشفوا ، وذلك فى وقت المســاء ، فلـــم يتبعهم المهلب ليلة ذلك ، فلمـــا أصبح ارتحل فى آثارهم ، وذلك فى يوم ماطر كثير الثلج والزلق ، حتى وافاهم بموضع يقـــال له : كازون ، فلمـــا عاين القوم بعضهم بعضـــا ، اصـــطفوا وجردوا الصـــفاح ، وأشرعوا الرماح (٦٠) .

« وهذه الوقعة الخامســـة »

قال : وخرج عبيدة بن هلال اليشكرى فى كتيبة حسناء من فرسان الأزارقة ، وعلى رأسه بيضة ، وقـــد غرز فى العمامة ريشـــة سوداء ،

---

(٥٩) الفتوح ٢٧/٦ — ٣٢ . وهذه الأبيات كلهـــا قد انفرد بذكرهـــا ابن أعثم الكوفى ، ولكنها شعر أجود من ذاك الشعر الركيك الذى رأيناه آنفا غير مرة فى الفتوح ، فلعله يكون حقا من شـــعر المغيرة بن حبناء التميمى عدا البيت الأخير فهو غير مفهوم وغير موزرون .

(٦٠) الفتوح ٣٢/٦ — ٣٣ .

حتى وقف بين الجمعين ، فنادى بأعلى صوته : أيهـا النـاس ، أنـا عبيدة بن هلال اليشكرى ، فهل من مبارز ! ؟ فعرفه أصـحاب المهلب ، فلم يعجلوا فى الخروج اليه ، فجعل يجول فى ميدان الحـرب وهـو يرتجز ويقـول :

انى لمـذك للشراة نارهـا ... وغاسـل بالطعن عنهـا عارهـا
ومانـع ممن أتاهـا دارهـا ... حتى أقر بالقنـا قرارهـا
ولا أخـاف فى الورى شرارها ... أولا فهبنى جاهلا أو زارها (٦١)

قال : فخرج اليه فتى من أهل عمان يقال له : ميسرة بن عبـد الله اليحمدى على فرس له ادهم وهو يقول :

يالك من يوم عجاج وعلـق ... وعارض أمطرنا فيـه رشـق
والأرض فيها دافق الدحض زلق ... وللحرون سورة فيهـا فلق
ونائل فى الله أعمى قد مرق (٦٢)

فحمل عليه عبيدة بن هلال اليشكرى فقتله ــ رحمه الله • ثـم جال وطلب البراز ، فخرج اليه حبيب بن المهلب ، وكان يقـاله لـه : حبيب الحرون ، لشـدة قتاله وثباته فى الحرب • ونظر الى عبيدة بن الهلال ، فحمـل عليه على غير معرفة ، وحقق عليه حبيب بن المهلب ، فطعنه طعنة أرداه عن فرسـه ، فوثب عبيدة ومـر هاربا على وجهه ، حتى لحق بأصحابه وهو لما فيه من طعنة حبيب ، قـال المغيرة بن حبناء فى ذلك :

لا تلومى على القتال عريبـا ... ان بالكازرون يوما عجيبـا
اذ أتانا عبيدة بن هـلال ... فاغرا فاه بالدمـاء خضيبا

---

(٦١) وردت أجزاء من هذا الرجز فى الكامل : للمبرد ٣٧١/٣ وهى فى المصراع الأول ، والثانى ، والثالث ، ولكن جاء الثالث بعد الأول ، ولكن المناسبة غير تلك التى حددها ابن أعثم هنا كما سيتضح فيما بعد ان شاء الله .

(٦٢) هذا الرجز وقائلة ميسرة اليحمدى ، مما انفرد ابن أعثم بذكرهما .

فأراه عن النزال بطيـــــــا   وبما قـد أراه فيهـا مهيبـــا
ان تعد للنزال تلقـاه حتفــا   وعسى ذاك أن يكون قريبا (٦٣)

قال : وانهزمت الأزارقة فى جوف الليل نحو سابور ، فقال المهلب لأصحابه : ذروا القوم لا تتبعوهم ، فوالله ما انصرفوا حتى أنقضت القتال لشـدة حرب أعداء الله ، فذروهم حتى نصبح ، فانا لاحقون بهم ان شـاء الله ولا قوة الا بالله • وأصبح المهلب فنادى فى أصحابه ، وسار حتى وافى القوم بسابور ، فلما نظروا الى رايته وقـد طلعت بادروا ، وقـد خرجوا اليه فى تعبئة وزينة وسلاح وآلة ، لـم يكونوا أظهروها قبل ذلك •

قال ابن أعثم :

« وهذه الوقعة السادسة »

وخرج عمرو القناء العنبرى — وكان من المعدودين فى الأزارقة — يرتجز ويقـول :

اليوم عمرو وغـدا عبيـدة   كلاهمـا شوكته شـديـدة
كلاهمـا غايتـه بعيـدة   كلاهمـا طعنته عنيـدة
كلاهمـا صـعدته جريـدة   كلاهمـا وقعتـه مبيـدة
كلاهما فراره مكيده (٦٤)

فما لبث أن خرج اليه حبيب الحرون ، وبين يديه رجل من أهـل البصرة ، وهو يرتجز ويقـول :

هذا حبيب وغـدا مغيرة   كلاهمـا مدحته قصـيرة
كلاهمـا بغضته كبيرة (٦٥)

---

(٦٣) وهذه الأبيات قـد انفرد صاحب الفتوح بذكرهـا أيضا •
(٦٤) هذا الرجز مما انفرد به ابن أعثم •
(٦٥) وكذلك انفرد صاحب الفتوح بذكر هذا الرجز •

ثم التقى القوم فاقتتلوا من وقت الضحى ، الى أن اختلط الظلام ، وصاح الحبيب : يا معشر الأزارقة أنا الحبيب بن المهلب ، أنا الحرون ، أنا خدن الحرب الزبون ، والله لا رجعت وأنتم وقوف ! وصاح به عمرو القناء : يا حبيب ، أنا عمرو بن عميرة العنبرى ، حلقت لحاهم ، وجبت خصاهم أن ترجع ، أو نرجع ! قال : وبات الفريقان ظهور الخيل يجول بعضهم على بعض حتى أصبحوا ، فجعلوا يصلون على ظهور خيلهم بالايماء والتكبير ، ثم اختلطوا ، واشتد القتال ، وتضرج الفريقان بحمرة الدماء ! ونظر عمرو الى حبيب بن المهلب فحمل عليه ، فسبقه حبيب فطعنه طعنة نكسه عن فرسه ، وحملته الأزارقة فالتفت عمرو القناء وهو لما به ! صاح المهلب ببنيه ، وبأشد أصحابه ثم حمل وحملوا عليه ، فولت الأزارقة الأدبار ، والسيف فى أقفيتهم حتى دخلوا مدينة سابور ، وقد قتل منهم جماعة كثيرة ، فأنشأ مجاهد بن عصم التميمى فى ذلك يقول :

انما تطمع الأزارق فى الحر ... ب اذا لم يكن قتال حبيب
فاذا ولى القتال حبيب ... فلهم عند ذاك منه نحيب
سل لعمرو القنا غداة كنان الـ ... مهرة والسنان منه خضيب
لم يرده الحرون حتى رآه ... مقدم الخيل معلما ما يجيب
فأراه الصدود ثم بنى المهـ ... ر كأن الحرون بازى طلوب
انه فى احتياله ابن أمية ابنة ... الشيخ والحرون أريب
وجناه نحلا لحاشية البر ... د فمرعى عمير منها جديب (٦٦)

قال ابن أعثم : ونزل المهلب على مدينة سابور محاصرا للازارقة ، وجعل يجبى ما حوله من بلاد فيأهن ، فيفرق ذلك فى أصحابه ، وسائر ذلك له ولأولاده وأهل بيته (٦٧) .

---

(٦٦) هذه الأبيات ، وقائلها مجاهد بن عصم التميمى مما انفرد بذكرهما ابن أعثم الكوفى .

(٦٧) الفتوح ٢٨/٦ — ٣٨ .

ويتابع ابن أعثم حديثه عن الخوارج الأزارقة ، فيذكر أن عبد الله بن الزبير عزل والى البصرة الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة ، وولى مكانه ابنه حمزة بن عبد الله بن الزبير ، فاستضعفه البصريون فعزله أبوه ، وولى أخاه مصعب بن الزبير ، الذى قدم نفسه الى أهل البصرة بلقب « الجزار » ، فاتقاه الناس ، وخافوه خوفا شديدا [٦٨] .

---

(٦٨) الفتوح ٣٨/٦ — ٣٩ . ولقد كان عزل الحارث عن البصرة فى سنة ٦٧ هـ ، وما قاله ابن أعثم بتولية حمزة بن عبد الله بن الزبير بدلا منه خطأ ، والصواب أن مصعبا هو الذى حل محل الحارث — واليا على البصرة والكوفة وفارس — فلما قتل المختار الثقفى فى العام ذاته ، عزله أخوه وولى ابنه حمزة مكانه ، ثم لم يلبث أن عزله ، وأعاد مصعبا مفتتح السنة التالية ٦٨ هـ ، انظر : الطبرى : تاريخ ٩٣/٦ ، ١١٧ — ١١٨ ، ١١٩ ، ابن الأثير : الكامل ٢٦٦/٤ — ٢٦٧ ، ٢٧٨ — ٢٧٩ ، ٢٨١ .

ان هذه الوقائع التى زعم ابن أعثم حدوثها بين المهلب وبين الأزارقة، وسردها على هذا النسق ، ثم عقب بعدها ، بذكر التغيير الذى أجراه عبد الله بن الزبير على ولاة البصرة ، أى عزل الحارث بن أبى ربيعة المخزومى عنها وتولية ابنه حمزة بن عبد الله بن الزبير عليها فى عام ٦٧ هـ ، ثم عزله وتولية أخيه مصعب بن الزبير مكانه — الفتوح ٣٨/٦ — ٣٩ — وهذا خطأ آخر ، والصواب : أن مصعبا حل محل الحارث المخزومى أولا ، ثم استبدل حمزة بالمصعب ثم أعيد المصعب مرة ثانية واليا على العراقين جميعا ، وعزل الحمزة ! ومن نتائج هذا التغيير أن ترك المهلب حرب الأزارقة ليحل محله عمر بن عبيد الله بن معمر التيمى القرشى فى عام ٦٨ هـ ، وأصبح المهلب واليا على الموصل من قبل مصعب بن الزبير ، ليكون درعا بينه وبين عبد الملك بن مروان — الخليفة يومئذ بالشام .

ان هذا السرد من ابن أعثم خلط فى التأريخ ، وتشويش فى الترتيب الذى سارت الحوادث تبعا له ، وكل ذلك دليل قاطع على أن الرجل لا يأبه للترتيب التاريخى الذى لابد أن ينتظم الوقائع ، وانى لأتصور أن ابن أعثم الكوفى حين بدأ يكتب فى هذا الموضوع ، جمع أمامه وقائع حروب المهلب مع الأزارقة ، ثم نثرها ، فتوزعت ، وترتبت كيفما اتفق وعلى نحو عشوائى ، لا يبدو فيه أى اهتمام بالتتابع الزمنى لتلك الوقائع ، فتقدم المتأخر منها ، كما تأخر المتقدم ، وأدخلت بعض الحوادث فى بعض ، وحدث

=

قال ابن أعثم :

« ذكر كتاب مصعب بن الزبير الى المهلب أبى صفرة »

بسم الله الرحمن الرحيم ، من مصعب بن الزبير الى المهلب بن

=

مثل ذلك أو شبيه به فى الأعلام الواردين بها ، ثم حشد من الأشعار والأراجيز ما لم يرد عند غيره من المؤرخين ، ونحل كل ذلك أسماء شعراء ، بعضهم معروف ، والبعض الاخر من المجاهيل .

ويجلى لك ذلك ، ان تلك الوقائع (الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة) وجميعها مذكور قبل عام ٦٧هـ ، ان هى الا بعض المعارك التى وقعت بعد ذلك العام مع الأزارقة سواء فى أثناء ولاية مصعب على العراقين ، أو بعد مقتله ، واستيلاء عبد الملك عليه ، ثم تولية بشر ابن مروان ، والحجاج الثقفى أمر العراقين ، بل ان بعض هذه المعارك لم يحضرها المهلب ، لأنه كان حينئذ واليا على الموصل من قبل مصعب ! وذلك قول ابن أعثم فى الوقعة الثالثة : ان المغيرة بن المهلب ضرب قطرى ابن الفجاءة ، فأرداه عن فرسه ، ثم وثب من الأرض سريعا فاستوى على فرسه ، فهذا خطأ . والصواب أن الذى ضرب قطريا هو عمر بن عبيد الله بن معمر القرشى فى موقعة أرجان ، حيث كان عمر يقود أهل البصرة ضد الأزارقة (انظر مثلا ابن الأثير : الكامل ٢٨٢/٤) ، وكذلك الشأن فى الوقعة الرابعة التى جعلها قبل عام ٦٧هـ ، مع أنها فى الحقيقة قد جرت ابان ولاية الحجاج بن يوسف على العراقين ، وكان المهلب يومئذ قائدا على جيشه الذى يقاتل الأزارقة فى سنة ٧٥ هـ (راجع مثلا المبرد : الكامل ٣٦٩/٣ والطبرى : تاريخ ٢١١/٦ — ٢١٢) .

ان هذا الذى يقع فيه ابن أعثم الكوفى من الخلط والتشويش وعدم ضبط الحوادث ، وذكرها على ما جرت عليه ، انما جاءه بسبب كونه لا يهتم بذكر التواريخ ، والملابسات المحيطة بالحدث الكائن من تولية وعزل ، وانتصار أو انكسار بين المتنافسين فى الحجاز والشام والعراق ، وتأثير ذلك بالضرورة على سير الأمور ، وتطور الظروف فى ميدان المواجهة مع الأزارقة ، ومن المؤكد أن صاحب الفتوح لو التفت الى أهمية التحديد الزمنى لكل حادث ، وذكره كما يفعل سائر المؤرخين — وكما ينبغى أن يكون سبيل المؤرخ فى تصنيفه — لتجنب الوقوع فى هذه الفوضى التى تشيع فى كتابه بصورة عامة مطردة ..

أبى صفرة ، أما بعـد ، فان الناس لو أعطوا كل انسـان على قدره ، لقدمت فى العرب قاطبة غير مدافـع ، لما قد بقى (٦٩) الله بك العـدو ، وغلب بك على البلاد ، فان طاعتك وحسن بلائك ، قـد بلغ بك عندنا كل الذى تحب ، وما نرجو لك به من ثواب الله أجزل وأفضـل وأنت عندنا الأمين ، ولك بذلك عندنا المزيـد والكرامة والفضيلة — والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

فلما وصـل كتاب مصعب بن الزبير الى المهلب وقرأه ، علم أنه ولى البصرة ، فكتب اليه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، للامير مصعب بن الزبير من المهلب بن أبى صفرة ، فسلام عليك ورحمة الله وبركاته ، أما بعـد ، فأمر رسول الأمير (٧٠) أيده الله أتانى كتابه ، يذكـر طاعتى وحسن بلائى ، والذى بلغ بى عنده من حسن المنزلة ، وأنا أسأل الله أن يودع للامير حق أهل الطاعة ، وأسأله لأهل الطاعة التمام على معرفـة حسن الخليفـة وطاعة ولاة الأمـر (٧١) ، وأنا أعلم الأمير أيده الله أن لو علمت بقدومـه البصرة أميرا عليها لبدأته بالكتاب معرفة ايجابا لحقه ، وسرورا بمقدمه ، فأصلح الله الأمير ، ومد لنا فى عمـره — والسلام .

ولم يزل المهلب باقيـا على حرب الأزارقة فى أرض سابور حتى يتبعه عند الأمير من يتبعه من العداوة والحسـد ! وقالوا : أيهـا الأمير ، ان المهلب رجل يحب مطاولة العدو ، لما يجبى من البلاد ، ولو عزلته ، ووليت غيره حرب الأزارقة ، لكان فى ذلك هلاك العدو ، وتوفير المال على أمير المؤمنين — والسلام . قال ابن أعثم : فعزل مصـعب بن الزبير

---

(٦٩) كذا ، وهى لا تناسب الدعاء على العدو ، ولعلهـا دق ، فيكون فيها تحريف سماعى ، أو لعلهـا تكون « نفى » والله أعلم .

(٧٠) عبارة غير دقيقة ! .

(٧١) تعبير ركيك مفكك غير واضح المعنى ! .

المهلب عن حرب الأزارقة ، فرجع المهلب حتى نزل بموضـــع يقال له : الزائدان مع بنيه وعشيرته ، وســـار عمرو بن عبيد الله بن معمـــر التيمى يريد حرب الأزارقة (٧٢) ، حتى اذا صـــار بهرمز (٧٣) ، كتب الى الأزارقة بهذه الأبيات :

قل للأزارقـــة الذين تجمعـــوا ... بسابور انى لســـت مثل المهلب
يقاتلكم حتى اذا ما رآكـــــــم ... أقام فلم يبعد ولم يتقـــــرب
وكان امرؤيجبى الخراج بكيـــده ... يخرب أخلاق البلاد لمجلـــــب
فأطمعكم فيه تقارب خطـــــوه ... اليكم ، وهذا منه شبه التلعـــب
على أنه قد نـــال حظا برفقـــه ... وهيبته فى كل شرق ومغـــرب
ورأى ومن ارتبى يبنى مكـــانه ... وحوض سارى فى مباح المخضب (٧٤)

(٧٢) الفتوح ٦/٤٠ — ٤١ .. والواضح من كلام ابن أعثم هذا أن مصعب بن الزبير عزل المهلب عن فارس وعن قتال هؤلاء الأزارقة ، استجابة لحسد الحاسدين ، وتوفيرا للخراج الذى يجبيه المهلب لنفسه ولبنيه وسائر رجاله . وليس هذا صحيحا ولا يتفق مع رأى المصعب فى المهلب ، وهو رأى صريح ذكره ابن أعثم نفسه فى نص الرسالة المدونة فى الصفحة السابقة نقـــلا عن فتوحه . والصحيح هو : أن مصعبا كان فى حاجـــة الى المهلب وخبرته الفائقة فى القتال ، كما كان فى حاجة الى رجاله الأشداء لكى يواجه المختار الثقفى ، ويقضى عليه ، لذلك استدعاه لمعونته فى أداء هذه المهمة الخطيرة ، كما أنه لم يستبدل أحدا به فى قتال الخوارج الا فى العـــام التالى (٦٨ هـ) ، وذلك بعد أن ولاه الموصل ليكون درعا له فى مواجهة عبدالملك ابن مروان الخليفة يومئذ بالشـــام ، والذى يعرف مصـــعب مدى قـــوته وخطورته على العراق ، وعلى أخيه عبد الله فى الحجاز — انظر : المبرد : الكامل ٣/٣٣٣ — ٣٣٥ ، الدينورى : الأخبار الطوال ص ٢٧٤ ، الطبرى : تاريخ ٦/٩٤ وما يليها ، ابن الأثير : الكامل ٤/٢٦٧ وما يليها .

(٧٣) يقصد : رامهرمز وهى مدينة مشهورة بنواحى خوزســـتان . ياقوت : معجم البلدان ٣/١٧ — ١٨ .

(٧٤) هذه مجموعة كلمات وضعت على هذه الصورة فحسب ، فلا معنى يفهم منها ، ولا وزن يعرف لها ! ؟

تركت شعابا من لـؤى بن غالب — مشـــاريع للبيت العتيق المحجب
على ضربكم بالبيض حتى أقصكم — بها بعد ظفر بالوشـــيج المغلب
وأسقيكم ضربا من الموت مـرة — ويكفى لكم يوما بدهر عصبصـب
ولست بوقاف اذا الخيل أحجمت — ولا فاضحا فى الحرب أمى ولا أبى
فهذا فعالى فى لـؤى بن غالب — ودينى على ماعبتم دين مصعب(٧٥)

فأجابه عبيدة بن هلال اليشكرى وهو يقول :

تأن ولا تعجل علينا ابن معمـر — فلسـت وان أكثرت مثـل المهلب
ولا لك فى الحرب المحلب حظـه — ولا لك من يفديك بالأم والأب (٧٦)
فلو غيرنا تلقاه قلنا ألا اذهبـوا — ولو غيرنا يلقاه قلنـا له : اذهب
ولكن منينـا بالحفيظـة كلنـا — جـلادا وطعنا بالوشـيج المغلب
كذلك كنـا كلنـا يا ابن معمـر — وأنت كبيت العنكبـوت المذبذب
فان رمتها منا ولسـت بفاعـل — ركبت بها من حـربنا شر مركب
ولسنا بأنكاس قصـار رماحنا — ولا نحـن نخشى وثبـة المتوثب
ولسنا نقول الدهر عصـمة أمرنا — على كل حال كان طالع مصـعب
ولكن نقول : الحكم لله وحـده — وبالله نرضى والنبى المقرب (٧٧)

قال ابن أعثم : وسار ابن معمر حتى نزل قريبا من سـابور ، وعلمت الأزارقة هنالك ، وأمسكوا عنه ، ومكنوه ، حتى اذا كان الليل

---

(٧٥) هذه الأبيات الهزيلة السيئة الصنعة والتى نسبها ابن أعثم الى عمر بن عبيد الله ، مما انفرد بذكره دون سائر المؤرخين !

(٧٦) فى لسان العرب : حالبت الرجل اذا نصرته وعاونته ، وحلائب الرجل : أنصاره من بنى عمه خاصة ، وحلب القوم : اجتمعوا وتألبوا من كل وجه ، وأحلب القوم أصحابهم : أعانوهم ، وأحلبوا عليك : اجتمعوا من كل أوب — ٣٢٢/١ . ولكى يستقيم وزن البيت تكون الكلمة المحلب ، فهى على غير وزنها .

(٧٧) كذلك انفرد ابن أعثم بذكر هذه الأبيات ، ونسبتها الى عبيدة ابن هلال اليشكرى ، ولعلها أو أكثرها من شعره ، فلا بأس بها عامة ..

اذ الأزارقة قد وافته من أربعة أوجه ، (على) كل وجه منها رئيس من رؤسائهم : عبيدة بن هلال اليشكرى من وجه ، وعطية بن الأسود الحنفى من وجه ، وعمرو القنا العنبرى من وجه ، وفى الوجه الرابع : صاحبهم قطرى بن الفجاءة المازنى [٧٨] ، وهذه أول وقعة لعمر بن عبيد الله مع الأزارقة . قال : وفزع أصحاب عمر الى أسلحتهم ودوابهم ، فاستووا عليها ، ودنوا من الأزارقة ، واذا قطرى بن الفجاءة أمام أصحابه يهدر كالفنيق من الابل [٧٩] ، وهو يرتجز ويقول :

الليل فيه للشراة نيل   والليل فيه للغواة ويل
وحفظهم فيها هوى وسيل   ورقين كأنهن السيل
والحرب فيها بهج وويل   يوما بيوم وكذاك الليل
رجل لرجل خيل لخيل [٨٠]

فلما سمع ابن معمر كلامه فى سواد الليل قصده ، فحمل عليه قطرى بن الفجاءة بعمود كان فى يده ، فضربه ضربة على بيضته فهشمها على رأسه ، فولى ابن معمر من بين يديه هاربا حتى اختلط بأصحابه [٨١] ! وتقدم عبيدة بن هلال اليشكرى فى قبيلة من الأزارقة ، وهو يرتجز ويقول :

---

(٧٨) لم يكن قطرى قد أصبح أميرا على الأزارقة بعد ، والصواب أن أميرهم يومئذ هو : الزبير بن على السليطى من رهط بنى الماحوز — المبرد : الكامل ٣/٣٣٥ ، الطبرى : تاريخ ٦/١٢٦ — ١٢٧ ، ابن الأثير : الكامل ٤/٢٨٦ .

(٧٩) الفنيق من الابل : هو الفحل .

(٨٠) لم أجد هذا الرجز فى المصادر التى بين يدى ، فهو مما انفرد به ابن أعثم .

(٨١) اقرأ مرة أخرى ما قاله ابن أعثم فى الوقعة الثالثة (ص ٣٨٢) ، لتجد أنه هنا قد عكس ما قاله هناك ، واستبدل ابن معمر بالمغيرة بن المهلب ، وجعل الضارب هنا قطرى بن الفجاءة بينما قال هناك ان المغيرة ضرب قطريا فأراده عن فرسه !

كان المزوى اذا بـــدا لــــه أن يلقح الحـــرب دعـــا أشباله
ثم حـــداهم فى الوغى غعـــاله حتى يكـــونوا عنـــدنا أمثـــاله
لعل هـــذا طـــالب فعــــله لا تطمعن فينـــا فلن تتـــاله (٨٢)

قال : ورفعت الأزارقة المشاعل على رءوس الجبـــال ، وأطراف الرماح ، واشتد القتال ، فالتفت ابن معمر الى رجل من عبد القيس يقال له : الأعلم ، فقال له : ويحك يا أخا عبد القيس ! انك قد كنت مع المهلب فى حروبه لهؤلاء القوم ، فكيف كان يصنع ؟ فقال له الأعلم : أيها الأمير ، انه قد ذهب الرأى ، وبقى الصبر ! ثم تقدم الأعلم بسيفه نحو عبيدة بن هلال ، وهو يقول :

أنصفتنا فى الحرب يا عبيدة اثبت فـــان غايتى بعيـــدة
وعدتى ان ترمها شـــديدة

وجمرتى يوم الوغى شديدة كم من وعيد لك فى قصيدة
ان الوعيد غاية الوليدة (٨٣)

ثم التقيا جميعا ، الأعلم العبدى ، وعبيدة بن هلال ، فتضاربا بسيفيهما ساعة ثم افترقا !

وصاح قطرى بن الفجاءة : أن يا معشر المهاجرين ، ان الليل أخو الهول ، فاثبتوا لحرب هؤلاء المحلين . قال : فاضطرب القـــوم اضطرابا شديدا ليلتهم تلك ، حتى اذا أصبحوا ، انهزم أصـــحاب ابن معمر هـــزيمة قبيحة وأخذتهم ســـيوف الأزارقة ، فقتلوا منهم مقتلة

---

(٨٢) وكذلك هذا الرجز انفرد بذكره ابن أعثم الكوفى ، وفى قـــوله « المزوى » تحريف وصوابه « المزونى » ويعنى به المهلب .
(٨٣) هذا الرجز ، وقائله الأعلم العبدى ، مما انفرد بذكـــره ابن أعثم دون سائر المصادر التى بين أيدينا .

عظيمة ، ثم زحفوا الى سواد ابن معمر ، فاستباحوه ، وأخذوا جميع ما فيه ، ثم رجعوا الى سابور بالغنائم !

قال ابن أعثم : وأقبل ابن معمر الى أصحابه ، فقال : يا أهل البصرة ، لو كنتم تقاتلون معى كقتالكم مع المهلب ، اذن لبلغت الذى أريد من حرب هذا العدو ، ولكنكم تقولون هذا رجل حجازى ، خيره لغيرنا ، وشره علينا ، وايم الله ، لقد أردت أن أكتب فيكم الى أمير المؤمنين فأشكوكم اليه ، ولكنى كرهت أن يتمادى بكم اللجاج ، ويتمادى بى الغضب ! فقام اليه عمران بن عصام العنبرى (٨٤) ، فقال : أيها الأمير ، ان المهلب كان يقاتل بنا قتال الصعلوك ، ويسوسنا سياسة الملوك ، حتى سكنا اليه فى الليل ، وأنسنا به فى النهار ! فغضب ابن معمر من قول العنبرى ، ثم دعا بدفتر الجند فحلق على اسمه ، فتركه العنبرى ، وصار الى المهلب ، فحدثه بالقصة على جهتها ، فقربه المهلب ، وأدناه وزاد فى الكرامة ! •

قال : وبلغ أهل البصرة ما قتل منهم ، فاغتموا لذلك ! وطمعت الأزارقة بعد هذه الوقعة فى أخذ البصرة وغيرها ، وندم مصعب بن الزبير على عزل المهلب ، وتوليته ابن معمر ، وعلم أن لا يقوم بحرب الأزارقة غير المهلب ، لأنه قد ذاقهم ، ومارسهم ، واختبرهم ، وعرف حربهم • قال ابن أعثم : وأقبل ابن زياد على مصعب بن الزبير ، وأقام عنده ! (٨٥) وعلم مصعب بن الزبير أنه لا يقوم بأمر العراق

---

(٨٤) رجل مجهول ، وانما يوجد آخر : عمران بن عصام العنزى . غير أنه لا ذكر له فى قصة حرب الأزارقة على الاطلاق — راجع الطبرى : تاريخ ٥/٥١٥ ، ٦/٤١٣ — ٤١٤ .

(٨٥) لا نعلم من يكون ابن زياد هذا الذى جاء ليقيم عند مصعب بن الزبير ! من جهة لأن عبيد الله بن زياد قد قتل فى حرب المختار الثقفى له قبل مجىء مصعب الى العراق . ومن جهة ثانية لأن ابن زياد — أى عبيد الله — عدو لدود للزبيريين فلا يعقل أن يسلم نفسه الى أعدائه ، ولا يتأتى أن يسمح له هؤلاء بأن يقيم عندهم !؟

الا مصعب ، ولا يقوم بأمر الأزارقة الا المهلب (٨٦) .

(٨٦) الفتوح ٦/٤١ — ٤٧ . وفى هذا الجزء من رواية ابن أعثم لحرب الأزارقة ، لا جديد ولا اختلاف عما تعودناه منه فى فتوحه ، من مخالفة المؤرخين ، والانفراد عنهم بأخبار لا تعرفها كتبهم ، ونصوص لا تذكرها مصنفاتهم ، وأشعار وأراجيز لم يسمعوها فلم يدونوها وكذلك لم يخل هذا الجزء الصغير من التغيير والتبديل والتقديم والتأخير فى سير الحوادث .
وأهم ما يلفت النظر فى كل ذلك هو رسم صورة سيئة للغاية لعمر بن عبيد الله بن معمر الذى خلف المهلب فى حرب الأزارقة ، فهو فى تصوير ابن أعثم له : رجل لا يعــرف القيادة ، ويستعطف جنده كى يدلوه على كيفيــة مواجهة الأزارقة ! وهو أيضا لا يحسن القتال ، ففى أول لقاء بينه وبين عدوه صرع وفلقت هامته وسقط عن فرسه وأسرع بالفرار خوفا من قطرى ابن الفجاءة ، ولولا اختلاطه بالجند لقتل تلك الليلة ! ثم هو لا يثق فى رجاله مطلقا — كل ذلك قاله ابن أعثم وليس بدقيق ولا صحيح !

فهذا خصمه العنيد قطرى بن الفجاءة نفسه يشهد له بقوله للازارقة : « وان جاءكم عمــر بن عبيد الله بن معمــر ، أتاكــم شــجاع ، بطــل ، فارس ، جاد ، يقاتل لدينه وملكه ، وبطبيعة لم أر مثلها لأحد ، فقد شهدته فى وقائع ، فما نودى فى القوم لحرب الا كان أول فارس يطلع حتى يشد على قرنه فيضربه » — المبرد : الكامل ٣/٣٣٥ ، ابن الأثير : الكــامل : ٤/٢٨٢ — كذلك شهد له سلفه المهلب نفســه بكلمة تدفع ابن أعثم وترد عليه حملته على الرجل ، قال المبرد : « فلما بلغ المهلب أن مصعبا ولى عمر بن عبيد الله قال : رماهم بفارس العرب وفتاها » الكامل ٣/٣٣٥ — فأما عن بلائه ضد الخوارج فيشهد للرجل كذلك شهادة طيبة ، فــان الازارقة قد جمعوا له وأعدوا واستعدوا فى سابور ، فسار اليهم حتى قاربهم ، فقال له أحد جنده — حسان بن مالك الأزدى — ان المهلب كان يذكى العيون ويخاف البيات ، ويرتقب الغفلة ، وهو على أبعد من هــذه المسافة منهم ! فقال له عمر : اسكت ، خلع الله قلبك ! أتراك تموت قبل أجلك ؟ فلما كان ذات ليلة بيته الخوارج ، فخرج اليهم فحاربهم حتى أصبح ، فلم يظفروا منه بشىء !! ثم زحف الى الخوارج من غد ذلك اليوم فقاتلهم قتالا شديدا ، حتى ألجأهم الى قنطرة ، فعبروا اليهم ، وقتل ابنه عبيد الله ابن عمر فى الموقعة ، فقال قطرى للازارقة : لا تقاتلوا عمر اليوم فانه موتور — يعنى قتل ابنه — وحمل عمر عــلى الأزارقة حملة لم ير مثلها ،

ثم نمضى مع ابن أعثم فى روايته لأخبار الأزارقة ، التى قطعها وتوقف عنها ، ليذكر أخبار عين الوردة [٨٧] ، ثم يرجع الى ذكر خبر الأزارقة ، ولكنه دخل فى غمار أخبار أخرى كثيرة ، طويلة ، فلم يعد الى خبر الأزارقة الا بعد أن قطع شوطا بعيدا مديدا من أخبـــار التوابين ، والمختار ، ومقتل ابن زياد وسائر الشركاء فى مقتل الحسين ابن على رضى الله عنهما ، ثم ما تلا ذلك من مقتل المختار الثقفى ، والصراع بين مصعب وعبد الملك بن مروان بعدئذ والذى انتهى بمقتل مصعب فى عام ٧١هـ ، واستيلاء عبد الملك بن مروان على العراق ، حيث ولى خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد أمر العراقين — وذلك بعد أكثر من مائتين وخمســين صفحة من الجزء السادس من الفتوح ، كما يتبين ذلك من الحواشى ، التى نحــدد بها مواقع الأخبــار من الكتـــاب .

=

وحمل أصحابه بحملته ، فقتلوا فى حملتهم هذه تسعين رجلا من الخوارج ، وحمل على قطرى فضربه على جبينه ففلقه — عكس ما قال ابن أعثم — وانهزمت الخوارج ، وانتهب عمر عسكرهم ، فلما استقروا قال لهم قطرى : أما أشرت عليكم بالانصراف ؟ فانصرفوا حتى خرجوا من فارس !! ثم عادوا الى ناحية أرجان ، فسار اليهم عمر ثم كتب الى مصعب يقول : « أما بعد ، فانى قد لقيت الأزارقة ، فرزق الله عبيد الله بن عمر الشهادة ، ووهب له السعادة ، ورزقنا عليهم الظفر ، فتفرقوا شــذر مذر ، وبلغتنى عنهم عودة ، فيممتهم ، وبالله أستعين وعليه أتوكل — ثم كانت له معهم وقفة فى أرجان هزموا فيها أيضا ، فارتحلوا الى أصبهان ، ثم الى الأهواز ، وقد ارتحل عمر الى اصطخر . راجع المبرد : الكامل ٣/٣٣٤ — ٣٣٨ ، الطبرى : تاريخ ٦/١١٩ — ١٢٠ ، ابن الأثير : الكامل ٤/٢٨١ — ٢٨٢ .

(٨٧) عين الوردة : المشهورة بالجزيرة وتسمى رأس عين — وقــد شهدت الموقعة الهائلة بين التوابين ، وجند عبيد الله بن زياد عام ٦٥ هـ ابن الأثير : الكـــامل ٤ / ١٧٥ وما يليها ، وانظر ياقوت : معجم البلدان ٤/١٨٠ .

قال ابن أعثم :« **ثم رجعنا الى خبر الأزارقة** » (٨٨) .

ثم كتب عبد الملك بن مروان الى خالد بن عبد الله بن أسـيد ، وهو أمير العراقين ، فأمره أن يوجه المهلب بن أبى صفرة الى حرب الأزارقة . قال : فعزم خالد بن عبد الله على حرب الأزارقة ، وبلغ ذلك قطرى بن الفجاءة صاحب الأزارقة ، فقـام فيهم خطيبا ، وقـال : يا معاشر المهاجرين ، انه قد صـار أمرنا الى ما كنا عليه ، وقـد كان الناس فى المهابة على ما كانوا عليه . فقال له عبيدة بن هـلال : يا أمير المؤمنين ، أو لا تخاف يوما مثل يوم عبد الله بن ماحوز ؟ (٨٩) فقال قطرى : اننا نخاف ، ولكن مع الخوف رجاء . قال : ثم سار (وا) من بلاد فارس حتى تقاربوا من الأهواز ، فجبوا الخراج ، وقتـلوا من ناوأهم ، وقوى أمرهم ، وتسارع الناس اليهم من كل ناحية !

وأقبلوا وجوه أهل البصرة الى خالد بن عبد الله بن أسـيد ، فقالوا : أصلح الله الأمير ، ان المهلب بن أبى صفرة ولى أهل هـذا المصر ، قد أمنوا به البلاء ، وألبسوا به العافية ، وليس عليه أثآر ولا حاسد (٩٠) ، وقد صار أمر الأزارقة الى ما كانوا عليه بالأمس ، وليس لهم غير المهلب ، لأنه قد ذاقهم ومارسهم فى غير موطن ، وهو السيف الذى لا يغمد ، والحجر الدامغ لمن عند . فقال خالد بن عبد الله : انى قد سمعت كلامكم ، وأنا نازل عندما تحبونه ان شاء الله تعالى ، ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

---

(٨٨) الفتوح ٢٩٨/٦ .

(٨٩) كان أميرا على الأزارقة عقب مقتل نافع بن الأزرق ، فلحق به يومئذ وهو يوم دولاب فى عام ٦٥هـ .

(٩٠) فى ص ٣٩٢ قال ابن أعثم : ان مصـعب بن الزبير قد استمع الى حسـاد المهلب فعزله عن قتال الأزارقة ، فتأمل ما يقوله الآن !!

قال : فخرج الناس من عنده ، وأقبل خالد على من كان عنده من بنى عمه ، فقال : ويحكم يا معشر قريش ! والله لقد ذهب المهلب بحظ هذا المصر ، وأمير المؤمنين يظن أن أحدا لا يقوم مقام المهلب ، وايم الله لولا أنى أكره أن يكون من يدى أمر يعصيه أمير المؤمنين [٩١] ، لبعثت أخى عبد العزيز الى حرب الأزارقة ! فقال له بعض بنى عمه : أيها الأمير ، ان أمير المؤمنين قد رأى مكان أخيك عبد العزيز فلا تعصه وابعث المهلب الى حرب الأزارقة كما أمرت . فقال خالد بن عبد الله : حتى أنظر فى ذلك .

قال ابن أعثم : وغلبت الأزارقة على الأهواز ، فعزم خالد بن عبد الله أن يسير اليهم بنفسه ، وأشار عليه نفر من بنى عمه بذلك ، فقالوا : أيها الأمير ، انك ان سرت الى الأزارقة بنفسك ، فهزمتهم ، سقطت منزلة المهلب من عيون الناس ، ونظر الناس اليك بعين الجلالة ! فعندها عزم خالد بن عبد الله على المسير الى الأزارقة بنفسه ، وأقبل اليه المهلب فقال : أيها الأمير ، انك سائر الى هؤلاء القوم ، وأنا أعلم بحربهم منك ، وليس لك بد من أن تحمل أموالك وسلاحك فى السفن ، فانظر اذا تقاربت من القوم ، فاعمل على أن تدخل سفنك الى نهر الأهواز ، وتخندق على عسكرك خندقا ، ثم تقاتلهم بخيلك ورجلك ، فان غلبتهم تقدمت ، وان غلبوك رجعت الى خندقك . فتبسم خالد ، ثم قال : ياأبا سعيد ، ان الأمر أسرع من ذلك ، وأسرع مما تذهب اليه ، أتظن أنى أريد أن أشتو هنالك ؟ انه ليس الخندق من شأنى ! فانصرف المهلب الى منزله وهو يقول : انى لأرى أمرا ضائعا !

وجمع خالد بن عبد الله ما أراد من المال والسلاح ، وما يحتاج اليه من آلة الحرب ، فحمل ذلك كله فى السفن وعلى الظهر فى الآلة والسلاح

---

(٩١) كذا ولعلها « يغضب أمير المؤمنين » .

الشاك ، فاقتتل القوم قتالا شديدا ، وانهزم خالد بن عبد الله ، وسلمت سفنه بجميع ما فيها من مال وسلاح ، ثم ملأوها قصبا ، وأشعلوا فيها النار ، وأطلقوها ، فأقبلت السفن تهوى ، والنار ملتهبة فيها كأنها الجبال ! وصاحت الأزارقة : يا خالد ، يا مفلس ، يا مخذول ! ذهبت أموالك ، وبقيت فضيحتك !! فأنشأ كعب بن معدان الأشقرى ، يقول أبياتا مطلعها :

أيا ابن أسيد لست ممن ترومهم فخلهم من يومهم للمهلب [٩٢]

وأقبل رجل من الأزد الى المهلب ، فقال له : أبا سعيد ، ما يقعدك ، فقد بلغت الأزارقة الى فسطاط مازن ؟ فتبسم المهلب ، ثم قال : قد كنت أرى هذا بعينه ! ثم دعا المهلب بابنه يزيد ، فقال له : يا بنى ، ناد فى قومك ، واخرج الى القوم فانى لاحق بك ان شاء الله تعالى ولا قوة الا بالله .

فخرج يزيد بن المهلب فنادى فى قومه من الأزد ، فأجابوه سراعا ، فخرج فى خمسمائة رجل من بيته وسائر قومه ، فالتقى القوم ، فاقتتلوا ساعة ، وانهزمت الأزارقة من بين يدى المهلب وأصحابه ، حتى صاروا الى الأهواز ، فنزلوها ، فأنشأ صاحبهم قطرى بن الفجاءة يقول :

ألــم يأتها أنى لعبت بخـــالد وجـاوزت حد اللعب لولا المهلب
وأنا أخـذنا ماله وســلاحه وســفنا لـــه نيرانها تتلهب
فلم يبق منــه غير مهجة نفســه وقد كان منه الموت شبرا وأقرب
ولكن منينــا بالمهلب انـــه رجاقاتل فى داخل الخلق منسب [٩٣]

---

(٩٢) هذا البيت من مفردات ابن أعثم .

(٩٣) الفتوح ٢٩٨/٦ — ٣٠٢ . ونتوقف مؤقتا عند هذا المــدى من رواية صاحب الفتوح لوقائع الأزارقة ، لنذكــر كلمة لابد من التعقيب بهــا على ما ذكره ابن أعثم فى الصفحات القلائل الســابقة ! =

قال ابن أعثم — يواصل روايته لأخبار الأزارقة — فخرج المهلب الى البصرة ، فقال له خالد بن عبد الله بن أسيد : أردت أمرا كنت أولى

= فهو أولا قد تجاهل ما لقيه الأزارقة من عتاب بن ورقاء الرياحى الأمير على أصبهان من قبل مصعب بن الزبير ، قال المؤرخون : وأقام الخوارج يغادون عتاب بن ورقاء القتال ويراوحونه ، حتى طال عليهم المقام ، ولم يظفروا منه بكبير ، فلما كثر ذلك عليهم انصرفوا — المبرد : الكامل ٣٤١/٣ — ثم واصل الأزارقة تجوالهم حتى صاروا الى الرى ، وبها يزيد بن الحارث بن رويم ، فقاتلوه فنالوا منه وقتل ، فلما فرغوا من الرى انحطوا الى أصبهان ، فحاصروها ، وبها عتاب بن ورقاء ، فصبر لهم سبعة أشهر لا ينال أحد الطرفين من الآخر ! وعندما طال الحصار على عتاب وأصحابه وقد نفدت أطعمتهم قال لهم عتاب : ما تنتظرون ؟ والله ماتؤتون من قلة ، وانكم لفرسان عشائركم ، ولقد حاربتموهم مرارا ، فانتصفتم منهم ، وما بقى مع هذا الحصار الا أن تفنى ذخائركم ، فيموت أحدكم فيدفنه أخوه ، ثم يموت أخوه فلا يجد من يدفنه ، فقاتلوا القوم وبكم قوة من قبل أن يضعف أحدكم عن أن يمشى الى قرنه ، فوالله انى لارجو أن صدقتموهم أن تظفروا بهم ، فأجابوه الى ذلك . فصلى بهم الصبح ، ثم خرج بهم الى الأزارقة على غرة ، فحملوا عليهم وقاتلوهم حتى أزاحوهم عن عسكرهم فعقروا منهم خلقا كثيرا ، ثم انتهوا الى قائدهم الزبير بن على السليطى فقتلوه ، فانهزمت الخوارج منسحبين ، فلم يتبعهم عتاب ، وأمروا عليهم قطرى بن الفجاءة ، فسار بهم ناحية كرمان ، وأقام بها حتى اجتمعت اليه جموع كثيرة وجبى المال ، وقوى ، ثم اقبل الى أرض الأهواز ، فكتب والى البصرة الى مصعب يخبره بأمرهم ، وانه ليس لهم الآن الا المهلب ، فبعث اليه مصعب : أن اكفنا أمر هذا العدو ، فخرج اليهم المهلب ، فعاد الخوارج الى كرمان ، وأقام المهلب بالأهواز ، ثم كروا عليه مرة أخرى ثمانية أشهر يتقاتلون أشد قتال رآه الناس فى أرض خوزستان عند سولاف ، فجاء الخبر حينئذ بمقتل مصعب بن الزبير ، واستيلاء عبد الملك على العراق ، وتولية خالد بن عبدالله ابن أسيد على البصرة — المبرد : الكامل ٣٤١/٣ — ٣٤٩ ، الطبرى : تاريخ ١٢٥/٦ — ١٢٧ ، ابن الأثير : الكامل ٢٨٥/٤ — ٢٨٦ .

وأما قصة خروج خالد بن عبد الله بن أسيد — والى البصرة — لقتال الخوارج فهى اشبه ما تكون — على نحو ما — بما حكاه ابن أعثم ، لكنه شديد التحامل على خالد ، وأخيه عبد العزيز — لحساب المهلب ! فانه =

به منى ! أنت والله أعلم بحرب القوم ، غير أنى قد رأيت رأيا ! قال المهلب : وما ذاك ؟ أصلح الله الأمير ! قال : أوليك خراج الأهواز ، فتمضى اليها ، وتنفى الأزارقة عنها وتقيم بها ، وأولى أخى عبد العزيز حرب القوم • فقال له المهلب : أيها الأمير ، أنا لا أصلح للخراج ، وأخوك عبد العزيز لا يصلح لحرب الأزارقة ، لأن هذا الأمر له شأن يسكع عنده الجبان ، ويثبت عنده الحازم ! قال : ثم وثب رجل من بنى تميم يقال له : سلمة بن عبد الله السعدى ، وكان شاعرا مجيدا ، فأنشأ يقول أبياتا مطلعهـا :

أيا ابن أسيد وكنت امرأ من أهل الحجاز من أهل الورع (٩٤)

الى آخرهـا •

ثم أنشـأ الصلتان العبدى فى ذلك يقول أبياتا مطلعهـا :

أيا ابن أسيد تبعت الهوى وشر الفعال الهوى والمنى (٩٥)

الى آخرهـا •

فغضـب خالد بن عبد الله من مقالة هـؤلاء القـوم ، وأبى أن يوجه الى حرب الأزارقة الا أخاه عبد العزيز ! وانما أراد خـالد ابن عبد الله أن يرى أهل البصرة غناه عن المهلب ، وأن يسـقط منزلته من عيون الناس ، وأمره بالمسير الى الأهواز ليجبى خراجها ، وينفى

=
صحيح أن خالدا أبى الاعزل المهلب عن قتال الازارقة فى الأهـواز ، وأنه لم يعمل بنصيحة المهلب له باتخـاذ الخندق ، وان الخوارج — بعـد مواجهـة لمـدة أربعين يوما — قد نالوا منه ومن أصحابه ، وأحرقوا سفنه ، غير أن التعاون بين خالد والمهلب قد منع الخوارج من تحقيق نصر كامل ، فأدرك الأزارقـة أنهم بعد اشتراك المهلب فى المواجهة لن ينالوا شـيئا فى هذه الجولة فمضى قطرى بهم الى كرمان ، وانصرف خالد الى البصرة — المبرد : الكامل ٣/٣٤٩ — ٣٥٣ .

(٩٤) هذا البيت وقائله قـد انفرد ابن أعثم الكوفى بذكرهما .

(٩٥) وكذلك هذا البيت ، قد رواه للصلتان العبدى ابن أعثم وحده .

الازارقة عنها • وعلمت الأزارقة أن المهلب سار الى ما قبلهم ، فتنحوا من بين يديه الى أرض فارس ، ونزل المهلب بالأهواز على خراجها •

وتهيأ عبد العزيز للمسير الى الأزارقة ، فانتخب من الرجال ما (من) أراد ، وقربت أثقاله للرحيل •

فأنشأ رجل من عبد القيس ، يقول أبياتا مطلعها :

أمامة لا تلحى فانك مائقة   على طول ليلى من حذار الأزارقة (٩٦)

الى آخرها •

وسار عبد العزيز فى جيشه ذلك ، وكتب خالد بن عبد الله الى عبد الملك بن مروان : أما بعد فانى أخبر أمير المؤمنين أيده الله ، بأن المهلب بن أبى صفرة رجل يجبى البلاد ويطاول العدو ، وقد وليته خراج الأهواز ، وقد بعثت أخى عبد العزيز الى حرب الأزارقة ومناجزتهم ، وأمثال المهلب فى الناس كثير ! فكتب اليه عبد الملك بن مروان : أما بعد ، فان خطئى فيك حين وليتك أمر العراق كخطئك فى عبد العزيز حين توليه الحرب ، وتولى المهلب الخراج ! انظر اذا ورد عليك كتابى هذا ، فاضمم أخاك عبد العزيز الى المهلب ، وابعث المهلب الى حرب الأزارقة : فانه رجل قد عرفهم وجربهم وما رسهم فى غير موطن قبل هذا اليوم — والسلام •

قال ابن أعثم : فكتم خالد بن عبد الله هذا الكتاب ، ولم يظهره للناس • وجزع أهل البصرة من ارسال عبد العزيز الى حرب الأزارقة وعلموا أنه لا يقوم بحربهم ! وكتب عبد الله بن رفاع العامرى من الشام الى خالد بن عبد الله بهذه الأبيات :

قد أتاك الذى رأيت من الأمر   فأخطأت كل رأى سديد

---

(٩٦) هذا البيت المجهول القائل مما انفرد بذكره ابن أعثم ، وأما المائقة : فهى السريعة البكاء ، القليلة الثبات . والمائقة : الهالكة حمقا وغباوة ابن منظور : لسان العرب (موق) ٢٢٧/١٢ •

ليس للشـــام بالعراق عميـــــد غـــير شيخ يكنونه بســـــــعيد
ذاك ذاك المهلب أبن صفــــــرة لازال فى العـــلا والمزيـــــــد
ليس يدرى النحـــوس أين رأوه وهداه اليه ســـعد الســـــعود
ليس عبد العزيز قد علم النـــا س كشيخ العراق يا ابن أســـيد
ليس مثل المهلب بن أبى صفــرة فينـــا المتوج الصــــــــنديد
أجمع الناس فى البلاد عليـــــه حين خافوا من العـــدو المبيـــد
فنفـــاهم بالضرب فى قحف الرأس
وطعن يصمى الرشاش شـــديد (٩٧)
فلئن أنت لـــم تعده الى القـــو م فما ما تخافه ببعيـــــــــــــد
ان عبد العزيز يصـــلح للخفض وقرب النســـا وأكل الثريــــــد
ولجزر الجزور والعصب والربـــ ط وذا الكبش النطـــاح الصيد
ان يكن يهزم الكتـــائب بالطعن وقرع الحديد فوق الحديـــــــد
فادعون ذاك الذى منع المصر ولم يبق غير قطع الوريـــــــــد
بعد أن زالت الكعاب عن الحــذ ر جهارا وشاب رأس الوليــــــد
رد عبد العزيز واستقبل الأسد فما من أزاله برشــــــــــيد (٩٨)

فبلغ هذا الشعر المهلب ، فكان يبعث الى عبد الله بن رفـــاع هذا ، فى كل سنة بعشرة آلاف درهم ، وأوصى بنيه به بعـــده ، وكـــان يزيد ابن المهلب يجريهـــا عليه الى أن مـــات •

وسار عبد العزيز بن عبد الله نحو الأزارقة ، فجعل يطوى البلاد ، حتى صار الى فارس • قال : وسمعت به الأزارقـــة ، فطمعوا فيـــه

---

(٩٧) يصمى : يميت ويقتل ، الرشـــاش : الرش بالـــدم والدمع ، وأرشت الطعنة ، ورشاشها : دمهـــا . اللســـان (رشش) ٨/١٩٣ •

(٩٨) عبد الله بن رفاع العامرى : أحد المجاهيل الذين لـــم نعثر لهم على ذكر فى مصادر الرجال بين أيدينا ، وكذلك أبياته انفـــرد بذكرهـــا المصنف •

ولم يعدوه بشيء ؟ فسار اليه قطرى بن الفجاءة ، وعبيدة بن هلال ، وعطية بن الأسود ، وعمرو القنا ، وصالح بن مخراق ، وعبد ربه الكبير ، وعبد ربه الصغير ، فسار اليه هؤلاء السبعة فى سبعة آلاف من نخبة الأزارقة ، حتى صاروا الى دارا بجرد ، بأرض يقال لها جور (٩٩) ، فلما أرهجت الخيل من بعد ، التفت عبد العزيز الى دهقان دارا بجرد فقال : هذه التى أراها بقر أو غنم ؟ فتبسم الدهقان ثم قال: أيها الأمير ، هذه خيل العدو ، ألا تراها ، كأنها حبل ممدود ! .

قال ابن أعثم : ودنت الخيل بعضها من بعض ، فاقتتل القوم ساعة ، وانهزم عبد العزيز من بين يدى الأزارقة ، ووضع السيف فى أصحابه ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، واصطلم العسكر بما فيه ، وأخذت امرأة عبد العزيز ، وهى ابنة المنذر بن الجارود العبدى ، فأنشأ رجل من أهل البصرة يقول :

عبد العزيز فضحت جيشك كلهم ... وتركتهم صرعى بكل سبيل
من بين ذى عطش يجود بنفسه ... وملحب بين الرجال قتيل (١٠٠)
وتركت قومك لا أمير عليهم ... فارجع بخزى فى الحياة طويل (١٠١)
ونسيت عرسك اذ تقاد سبية ... تبكى العيون برنة وعويل (١٠٢)

---

(٩٩) جور : مدينة بفارس ، سماها ملك ساسان أردشير خرة ، والعرب تسميها : جور .

(١٠٠) عقب هذا البيت يوجد بيت لم يذكره ابن أعثم الكوفى ، وأورده الطبرى ١٧٣/٦ ، وابن الأثير : الكامل ٣٤٣/٤ ، وهو :

هلا صبرت مع الشهيد مقاتلا ... اذ رحت منتكث القوى بأصيل

(١٠١) ورد هذا البيت فى المصدرين السابقين هكذا :

وتركت جيشك لا أمير عليهم ... فارجع بعار فى الحياة طويل

(١٠٢) هذه الأبيات لشاعر أسلامى معروف مشهور ، لا يقال عنه « رجل من أهل البصرة » وهو عبيد الله بن قيس بن شريح بن مالك القرشى ، الملقب بابن قيس الرقيات — توفى نحو سنة ٨٥ هـ — الزركلى : الأعلام ١٩٧/٤ .

ثم قدمت الأزارقة امرأة عبد العزيز ، فنودى عليهـا كما ينادى على الاماء ، فبلغت قيمتهـا كذا وكذا ألفا ، فتقـدم قطرى بن الفجاءة فضرب عنقهـا ! فأنشأ الصلتان العبدى يقول :

عبد العزيز فضحت جيشك كلهم ... وتركتهم صرعى بكل مكـان

لما رأيت أبا نعـامة مقبـلا ... يدعو عبية والرماح دوانى(١٠٣)

وأخاهما عمرو القنا وفوارسـا ... شم الأنوف معانقى الأقـران

ولعبد رب فى الهياج غمـاغـم ... ولصالح شغب على الفرسـان

أسـلمت عرسك والبـلاء موكل ... بالقوم عند تشاجر المرآن (١٠٤)

وزعمت أنك كالمهلب نجـدة ... فحرمتها والبيت ذى الأركان(١٠٥)

وأقبل المنهزمون من أصحاب عبد العزيز حتى صاروا الى الأهواز ، وبها يومئذ المهلب بن أبى صفرة ، فخبروه بأمـر الوقعة ، فاغتم المهلب لذلك غما شديدا ، ثم أمر بالجسور فقطعت خوفا من أن تدخل الأزارقة الى البصرة . وبلغ ذلك أهل البصرة ، فنزل بهم أمر عظيم من هزيمة عبد العزيز وفضيحته وقتل المسلمين ، ثم خرجت رؤساؤهم الى الأهواز ، الى المهلب ، فقالوا له : أبا سعيد ، أرأيت ما نزل بالمسلمين من هذا العدو ؟ فقال لهم المهلب : قد رأيت ذلك ، غير أن خالد بن عبد الله ، اتبع هواه ، وجاءنى بأخيه ، فولاه أمرا أعظم منه ، وولانى أمرا أصغر منى ، وانما

---

(١٠٣) قوله : عبية ، تحريف ، والصواب « عطية » ، ويقصـد به « عطية الحنفى من رءوس الأزارقة » .

(١٠٤) ظاهر قوله أن المرآن جمـع المرء ، ولا يصح ، فان جمـع المرء رجال من غير لفظـه .

(١٠٥) هذه الأبيات ، ونسبتها الى الصلتان العبدى مما انفـرد بـه ابن أعثم ، وفى النفس من ذلك شك كبير ، فالصلتان شأنه ألا يمدح الخوارج بينما تلك الأبيـات تنضح مدحا وتمجيدا لفروسية وبطولة الأزارقـة ! ولو قورنت بالأبيات التى قبلهـا مباشرة لتبين أنها على وزنها مع اختلاف القافية فقط وبصفة عامة فان البيت الأول فى كل منهما مكرر بمعناه ولفظه .

أراد بذك ما قد علم ، فوالله ما ضرنى ، ولا نفعه ، ولا وضعنى ولا رفعه! غير أنه أهدى خطأه الينا ، هذه المصيبة الذى (التى) قد استوى فيها المعزى ، والمعزى عليه (فيه) ، وقد قطعنا هذه الجسور ، ونحن مقيمون حتى ننظر ما يكون بعد هذا ! •

قال ابن أعثم : ثم دعا المهلب رجلا من أصحابه ، يقال له : الصعب بن يزيد الجهضمى فقال له : ويحك يا صعب انه قد أبطأ عنا خبر عبد العزيز ، فلا ندرى ، قتل أم أفلت ؟ وأخوه خالد بن عبدالله قد شغلته الفضيحة عن طلبه ! ولكن احمل شيئا من الكسوة وامض ، فلا ترجعن الا بخبره حيث كان من أرض الله ! فحمل الصعب بن يزيد ما أمر به المهلب ، وخرج من الأهواز ، فلم يزل يسير حتى دخل أرض فارس ، ثم جعل يسأل عن عبد العزيز حتى أصابه فى أدانى أرض جروز (١٠٦) ، مما يلى دارا بجرد ، فى خرابة عند عجوز ، ومعه شرذمة من أصحابه • واذا هو جالس يوقد نارا ! فلما نظر اليه الصعب بن يزيد ، ناداه ، فقال مرحبا بالصابر المخذول ! فرحب به عبد العزيز ، ثم قال : كيف تركت أبا سعيد — يعنى المهلب ؟ فقال له الصعب : أبو سعيد — والله — كثير البكاء عليك ، لاثم أخيك فيك • فقال عبد العزيز — (وما أغرب وأعجب ما قال) : معك شىء من الطيب ؟؟ قال : نعم معى طيب وكسوة (١٠٧) قال : فبكى عبد العزيز ثم قال : ياصعب ، كان المهلب أولى منى بما أنا فيه ، وكنت أحوج الى

---

(١٠٦) جروز : موضع بفارس ، يقول ياقوت — وكأنه يلقم ابن أعثم حجرا — كانت به وقعة بين الأزارقة وأهل البصرة ، وأميرهم عبد العزيز ابن عبد الله بن أسيد بن أبى العيص • معجم البلدان ٢/١٣٠ — أى أن مكان عبد العزيز كان ولا شك معروفا للمهلب وللصعب بن يزيد ، فلم يكن هناك سؤال ولا بحث ولا حتى مناد ينادى على عبد العزيز ! ؟ .

(١٠٧) لقد أمره المهلب أن يحمل معه شيئا من الكسوة فحسب ، فمن أين جاءه الطيب حين طلبه عبد العزيز ؟ .

ما فى يده منه ! ياصعب ، النار والعار ، هزيمـة من يـدى عدو ، وفضيحة فى حرمة ! انى لأستحيى أن أرفـع رأسى اليك ! ثـم جعل يقـول

ألم ترنى والله بالـغ أمـره — تمنيت أمرا والأمانى طوائـل
تمنيت ما كان المهلب نـاله — وزين ذاك الجحدرى مقـاتل
فلم آل فى حرب الأزارق مثله — ولا مثله فى الناس حاف وناعل
أبى الله الا أن يبين فضـله — وكل سئول كالذى قلت قائـل
منيت بأمـر ينكس الرأس مثله — أردده فى الصدر والدمع هامل (١٠٨)

ثم بكى عبد العزيز وانتحب ، فكسـاه الصعب بن يزيـد ما كـان معه من الثياب ، ودفـع اليه الطيب الذى حمله له ، ثـم رجـع الى المهلب فأخبره بذلك ، فقال المهلب : ويحك يا صعب ، فكيف رأيت ؟ فقال : أيهـا الأمير ، لا تسأل عن شىء ، رأيته والله بشر وعر ، أما النهـار ففى أفنيـة النخل ، وأما الليـل ففى دهليز عجوز ! قال المهلب : والله ما أظنه يجتمـع مع الناس فى مجلس بعـد هذه الفضيحة ، فأنشـا المغيرة بن حبناء التميمى فى ذلك يقول أبياتا مطلعهـا :

قرت العين بالذى حدث الصعـ — ـب من فضوح عبد العزيز (١٠٩)

الى آخرهـا .

ثـم ان عبد العزيـز مضى الى مكـة ، فأقـام بهـا حيـاء من الناس (١١٠) ! .

---

(١٠٨) هـذا الشـعر ونسبته الى عبد العزيز بن عبد اللـه بن خالد . ممـا انفرد به ابن أعثم ! .

(١٠٩) وهذا البيت أيضـا ، ذكره ونسبته الى ابن حبناء من مفردات ابن أعثم الكوفى ! .

(١١٠) الفتوح ٦/٣٠٢ — ٣٠٩ . وليس من شك فى أن جل ما أورده ابن أعثم فى الصفحات السـابقة عن ولاية عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد قتال الأزارقـة ، وهزيمته أمامهم فى جروز ، جـل ذلك =

ثم نمضى مـع ابن أعثم الكوفى فى روايته لقصة الأزارقة وحروبهم مـع الدولة الاسلامية ، بعد أن فرغنا من سرده لخبر

= لم يصح ! وما كان خالد بن عبد الله أمير البصرة ليستطيع عصيان أمر عبد الملك المباشر بتولية المهلب قتال الأزارقة ، وأن يضم اليه عبد العزيز فكيف يكتم خالد كتاب أمير المؤمنين ، ولا ينفذ أمره ؟ كذلك مازعمه حول رسالة العزاء والاشفاق من الكسوة والطيب « والصعب الذى أرسله المهلب الى عبد العزيز » وما جرى من حديث وبكاء وتشرد وضياع لقائد قرشى من رهط أمير المؤمنين لا تنقذه الاعجوز لا نعلم عنها شيئا ! وكل ذلك وأمثاله من الشعر المجهول الذى لا أصل له : مزاعم لا تصح عند الباحثين، وانما الذى يصح ويعتد به فى هذا الأمر هو ما ذكره المؤرخون الذين يؤخذ بأقوالهم وتعتمد رواياتهم ، ويبنى عليها الباحثون والنقاد أعمالهم وبحوثهم التاريخية ، وأوجز ما قالوه فيما يلى :

لما قدم خالد بن عبد الله أميرا على البصرة ، كان المهلب يحارب الأزارقة ، فجعله على خراج الأهواز وحمايتها من خطر الأزارقة ، وعين أخاه عبد العزيز على قتال الخوارج ، وأعانه بمقاتل بن مسمع القيسى ، فقدم الأزارقة من جهة كرمان الى دار ابجرد ، وارسل قطرى بن الفجاءة كتيبة من تسعمائة فارس عليهم صالح بن مخراق وسعد الطلائع ، فاستقبلوا عبد العزيز وهو يسير بجيشه دون تعبئة ، فواقفهم عبد العزيز وناهضهم ساعة ، ثم انهزموا عنه مكيدة ، فاتبعهم فأشار عليه بعض رجاله بألايتبعهم دون التعبئة الكاملة ، فرفض رأيهم ، ومضى فى اثرهم ، حتى اقتحم عقبة فأصبح محصورا بينهم وبين كمين أعدوه ولم يره، فقتل منهم مقتلة كبيرة ، وانهزم عبد العزيز ، وأخذت امرأته مع السبى ثم قتلها أبو الحديد الشنى رجل من رؤوس الأزارقة من قومها ، وليس قطرى بن الفجاءة كما صرح ابن أعثم ! .

وانتهى عبد العزيز الى رامهرمز ، وعلم المهلب أمره ، فأرسل اليه شيخا من الأزد — قوم المهلب — وقال له : ان كان منهزما فعزه . فأتاه الرجل ، فرآه نازلا فى نحو ثلاثين فارسا كئيبا حزينا ، فأبلغه الرسالة ، وعاد الى المهلب بالخبر ، فارسل المهلب الى خالد بن عبد الله يخبره بهزيمة أخيه ، فلم يصدق ، واتهم الرسول بالكذب ، فقال : له أن كنت كاذبا =

عبد العزيز بن عبد الله معهم ، وهزيمته منهم فى وقعة جروز التى كانت فى عام ٧٢ هـ • يقول ابن أعثم : واجتمعت الأزارقة ، وشجع بعضهم بعضا ، وأقبلوا يريدون البصرة ، وبلغ ذلك خالد بن عبد الله أمير البصرة ، فضاقت عليه الأرض بما رحبت ، ولم يدر ما يصنع ، ثم كتب الى المهلب : أما بعد ، فانى كنت عصيتك يوم الأهواز ، وعصيتك فى عبد العزيز ، وأنا أكره أن أعصيك اليوم ، وليس لهذا العدو الكلب أحد سواك ، وانما تقاتل عن مصرك ، وتذب عن حريمك ، فسر رحمك الله الى عدوك ، وأفرج هذه الغمة عن بلدك — والسلام •

=

فاضرب عنقى ، وان كنت صادقا فأعطنى جبتك ومطرفك ، فاحتبسه حتى صح خبر الهزيمة فأحسن اليه . وقال ابن قيس الرقيات أبياته الخمسة فى هذه المناسبة ، أما أشعار صاحب الفتوح فهى خاصة به وحده لم يروها غيره ! .

فكتب خالد بن عبد الله الى عبد الملك ينبئه بما حدث ، فكتب اليه عبد الملك : قد عرفت ذلك وسألت رسولك عن المهلب ، فأخبرنى أنه عامل على الأهواز ، فقبح الله رأيك ، حين تبعث أخاك أعرابيا من أهل مكة على القتال ، وتدع المهلب يجبى الخراج ، وهو الميمون النقيبة ، المقاسى للحرب ، ابنها وابن أبنائها ، أرسل الى المهلب يستقبلهم ، وقد بعثت الى بشر (بن مروان) بالكوفة ليمدك بجيش ، فسر معهم ولا تعمل فى عدوك برأى حتى يحضره المهلب ، والسلام .

لكن أبا العباس المبرد يورد نصا آخر لكتاب عبد الملك يقول فيه : أما بعد ، فانى كنت حددت لك حدا فى أمر المهلب ، فلما ملكت أمرك نبذت طاعتى ، واستبددت برأيك ، فوليت المهلب الجباية ، ووليت أخاك حرب الأزارقة ، فقبح الله هذا رأيا ! أتبعث غلاما غرا لم يجرب الحروب للحرب ، وتترك سيدا شجاعا مدبرا حازما قد مارس الحروب تشغله بالجباية ! أما لو كافأتك على قدر ذنبك ، لأتاك من نكيرى ما لا بقية لك معه ، ولكن تذكرت رحمك ، فلفتتنى عنك ، وقد جعلت عقوبتك عزلك . انظر فى ذلك كله : المبرد : الكامل ٣٥٣/٣ — ٣٦٢ ، الطبرى : تاريخ ١٦٨/٦ — ١٧٣ ، ابن الأثير : الكامل ٣٤٢/٤ — ٣٤٥ .

فلما ورد الكتاب على المهلب ، وقرأه نادى فى أصحابه فجمعهم اليه ، ثم قال : اعلموا أنكم جندى الذى (الذين) جيشكم الله لنكاية هذا العدو ، ولو دخلتم البصرة لـم تحشروا الى ثانيـة الا بالسـيف، وأنا أعلم ان اتصـل خبر عبد العزيز بأمير المؤمنين عبـد الملك بن مروان، فان خالدا لمعزول لا محالة ، وهـذا عدو قـد كلب علينـا ، وليس يجمل بنـا الامسـاك عنه ، ولكنا نسير اليه فنكفه عن مصرنا الى أن يأتى أمر أمير المؤمنين • فقـال له الناس : أيهـا الأمير أمرك سمع وطـاعة ، فسر بنا رحمك الله حيث شئت • فسار المهلب من الأهواز يريد الأزارقة وبلغهم ذلك فساروا نحوه ، والتقى القوم ، فاقتتلوا يومهم ذلك الى الليـل ، ثم تحاجزوا ، وبات الفريقان جميعـا يحرسان بعضـهم بعضـا •

فلما كان من الغد ، وثب المهلب ، فعبى أصحابه ميامن ومياسر ، وكمناء ، وأجنحة ، وعبت (وعبأت) الأزارقة كذلك ، ودنا الجيشـان بعضهم من بعض ، وخـرج رجـل من فرسـان الأزارقة ، يقـال له : الحصين بن مالك ، شاكـا فى سلاحه ، حتى وقف بين الجمعين على فرس أدهم كالغداف ، ورفـع صوته ، وجعل يقـول أبياتا مطلعها :

ان عبد العزيز يوم جروز   كان يرجو رجـا المهلب فينا (١١١)

الى آخرهـا •

قـال : فالتفت حبيب بن المهـلب الى رجـل من أصـحابه يقـال له : سعد بن نجـد ، فقـال له : ما ترى يا سـعد ؟ فقـال ان شئت كفيتك الرجل ، ولكنه عار عليك ، لأنه قد سمى باسمك ، ولا أظنه يطلب غيرك ! فقال حبيب : صدقت ، ولا أحب أن يبارزه غيرى ، ثـم حمل عليه حبيب ، والتقيا بطعنتين ، طعنه فى لبته طعنة فقتله ! فلمـا قتل الحصين بن مالك جزعت الأزارقة عليه جزعا شـديدا ، فأنشأ عبيدة ابن هـلال اليشكرى يقول فى ذلك :

---

(١١١) هذا البيت وقائله مما انفرد ابن أعثم بذكره فى فتوحه .

قل للحصين قد أصبت سـعادة ... بما كنت مارسته بمصـيب
وما كان فى جمع المحلين غـيره ... يبـارزه فى النقع غير حبيب
وأى امرىء يأوى الجزور بمعرك ... يهاب ولكن كنت غير هيـوب
فيارب يوم قد دعانى لمثلهـا ... فلم أك فيما سألنى بمجيب(١١٢)

ثم تقدم محرز بن هلال أخو عبيدة بن هلال ، حتى وقف بين الجمعين على فرس له وهو يقول : اللهم انى أسألك الجنة ، ومرافقة أهل النهروان ، ثـم حمل فلم يزل يقاتل مقبلا غير مدبـر حتى قتل ! فدخل على الأزارقـة من مقتل محرز بن هلال مدخل عظيم ، واغتموا غمـا شديدا ، وتقـدم أخوه عبيدة بن هـلال ، بعـد ذلك حتى وقف بين الجمعين على فرس له يرثى أخاه محرزا ، وهـو يقول أبياتا مطلعها :

عجبت لأحداث الملاء وللدهر ... وللحين يأتى المرء من حيث لا يدرى(١١٣)

الى آخرها .

ثم حمـل عبيـدة بن هـلال فقاتل قتالا شديدا ، واسـتماتت الأزارقة بعـد مقتل محرز بن هلال ، فعزموا على المناجزة والقتال . وثبت لهم المهلب وأصحابه الى الزوال ، وصارت الدائـرة عليهـم ، فقتل منهم بشر كثير ، وولوا مدبرين ، واحتوى المهلب وأصحابه على كراعهم وعامة أموالهم .

واتصـل الخبر بأهل البصرة ، فاشتدت لذلك ظهورهم ، ثـم وثب

---

(١١٢) هذه الأبيات لم ترد فى المصادر التى بين أيدينا ، والبيت الأول منها غير واضح !

(١١٣) وهذا البيت كذلك من مفردات صاحب الفتوح ، ونحن نعجب من هذا البيت المجهول ، والمجهول المعنى كذلك ، لأن الأحداث جمع الحدث وهو الفتى الصغير السن . والملاء بكسر الميم : جمـع ملآن وملأى ، وبضمها : جمـع الملاءة التى يغطى بهـا بمعنى الازار ، والملاء بالضم أيضـا هـو الزكام يصيب الانسـان من امتلاء المعـدة ، فكيف يسند هـذا الى ذاك ؟ اللسـان ١/١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٥ .

الأحنف بن قيس ، فقال : يا أهل البصرة اشكروا الله ثم المهلب ، فوالله لقد جلا الله به عنا أمرا عجز عنه القرم الحازم ! والله أن لو قلنا : ان البصرة كلها للمهلب ، وان الله تعالى أفاءها عليه ، كما أفاء غيرها على غيره لصدقنا ! فقال الناس : صدقت أبا بحر ولن يجحد ذلك الا عدو للاسلام . فأنشأ حنظلة بن عرادة فى ذلك يقول:

أقول وعينى تجتلى كل كوكب ... ألا ان هذا المصر فيىء المهلب
نفى الذل عن أبنائنا ونسائنا ... مولهة من بين بكر وثيب
فلولا دفاع الله عنا لحلقت ... بنا يوم جاءوا الجسر عنقاء مغرب
وقد كسفت مس النهار وأطبقت ... صبابة يوم أزرقى عصبصب
فلا تكفروه واشكروه وعقبه ... ولا الابن كان بالأمس كالأب (١١٤)

قال ابن أعثم : وبلغ عبد الملك بن مروان ما كان من أمر عبد العزيز وفضيحته بدارابجرد ، فأقبل على جلسائه ، ثم قال : ان خالد بن عبد الله عصانى فى الذى أمرته ، ولست أقدر على عقوبة له أكثر من عزله وفضيحته فى قريش ! ثم كتب اليه ، أما بعد : فلو كانت عقوبتى اياك على قدر ذنبك ، اذن لأتاك منى ما لا تقوم له ، ولا بقية بعده ، ولكنى جعلت عقوبتك عزلك ، وذلك أنى عهدت اليك فى المهلب ابن أبى صفرة عهدا ، وأمرتك بتقدمته ، فلما ملكت أمرك ، آثرت اخاك على طاعتى ، وانى الآن قد وليت بشر بن مروان ، ما فى يدك من العمل ، فسلمه اليه ، والسلام ! (١١٥) .

---

(١١٤) هذه الأبيات والرجل الذى نسبت اليه انفرد بذكره ابن أعثم الكوفى ! .

(١١٥) الفتوح ٣٠٩/٦ — ٣١٣ . وهذا الجزء الذى نقلناه عن ابن أعثم فى تلك الصفحات الثلاث الأخيرة ، يمكن القول بأنه كله من رواياته الخاصة التى لم تعرف لأحد من المؤرخين الذين اهتموا باستقصاء أخبار الأزارقة وتدوينها ، غير أن بعض ما جاء به هنا له أصل ، =

قال ابن أعثم الكوفى تحت هذا العنوان :

« ذكر ولاية بشر بن مروان العراقين »

وكان بشر بن مروان يومئذ عاملا على الكوفة [١١٦] ، فضمت اليه البصرة ، فكان عامل العراقين جميعا [١١٧] .

قال : فدعا بشر بن مروان بعمرو بن حريث المخزومى ، فاستخلفه على الكوفة ، وأقبل الى البصرة ، فلما دخلها واستقر بها ، واذا كتاب عبد الملك بن مروان وقد ورد عليه : أما بعد يابشر ، فانك أخو أمير المؤمنين وشقيقه ، ومن زينه زينه ، وشينه شينه ، فان خالد ابن عبد الله أمرته بأمرى ، فقدم أمره ، وأخر أمرى ، وذلك أنه عزل رجلا مثل المهلب — حجر الاسلام وشجا العدو — واستعمل ملكا (كذا) لم يدعه اليه الا قرب رحمه واتباع هواه ، فاياك يابشر أن تعزل المهلب عن حرب الأزارقة فأعزلك كما عزلت خالدا — والسلام !! ثم أثبت عبد الملك بن مروان فى كتابه الى أخيه بهذه الأبيات :

=
وانما غير وبدل فى مناسبته ، وذلك مثل كتاب عبد الملك الى أمير البصرة خالد بن عبد الله الذى عزله فيه ، فقد سبق أن ذكرنا هذا الكتاب — عن المبرد — كنتيجة مباشرة لهزيمة عبد العزيز بن عبد الله أمام الأزارقة . .

أن جميع ما أورده ابن أعثم من أبيات شعرية فى هذا الجزء لم يورده غيره من المؤرخين ، فهو شعر لا يحتج به ، وغالب الظن أنه من صنعه ، كذلك أتى ابن أعثم ببضعة أسماء لرجال مجاهيل وربط ذلك الحادث بهم وبما قالوه من شعر ، على عادته فى كثير من الأحيان ، فلا أحد من المؤرخين يعرف أو يذكر الحصين بن مالك ، ولا حنظلة ابن عرادة ؟ فمن أين اذن جاء صاحب الفتوح بهذا ؟ .

(١١٦) استعمل عبد الملك اخاه بشرا على الكوفة عقب مقتل مصعب بن الزبير فى سنة ٧١ هـ .

(١١٧) وذلك فى عام ٧٣ هـ .

يا بشر انك ان عصيت فهذه ... فعل كفعل أبى أمية خالد (١١٨)
عزل المهلب ، والمهلب حية ... صماء ما لسليمها من عائد
وجأ أخاه بالذى قعدت به ... حره على ولم أكن بالراقد (١١٩)
عاجلته قبل العتاب يعزله ... وأخفته ببوارق ورواعد
ولو أننى أمهلته يمشى بها ... مرحا وكان أبو أمية رائدى ؟
أطرى أخاه كأننى عريته ... وتشرب الصهباء شرب البارد ؟
فلقد جنى عبد العزيز جناية ... ما عارها أبدا بعار بائد
وجدوا الدواء بكل داء معضل ... الا دواء الحمق ليس بواجد (١٢٠)
فارم الأزارق بالمهلب انه ... شيخ العراق وفيهم كالوالد
وكفى به لله درك وحده ... قد يكتفى من رأيه بالواحد (١٢١)

---

(١١٨) فهذه : اسم اشارة الى مؤنثة ، فكيف يكون المشار اليه به مفردا مذكرا وهو (فعل) ؟ .

(١١٩) هذا البيت غير مفهوم بتركيبه ذاك ، ولابد أن يكون هناك اخطاء فى صورته هذه ! .

(١٢٠) الصواب أن يقول : وجدوا الدواء لكل داء ، وليس بكل داء . وقوله : الا دواء الحمق ليس بواجد لا يصح ، لان واجد بمعنى موسر غنى عن الناس ، والواجد : اسم من أسماء الله تعالى بمعنى الغنى الذى لا يفتقر — أما دواء الحمق فليس بموجود ! .

(١٢١) ان رسائل أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان — شأنها شأن رسائل الخلفاء جميعا — لا ينبغى لها أن تكون سرية لا يطلع عليها ولا يدونها الا مؤرخ مجهول دون سائر المؤرخين ، ولكن قد عرفنا أن ما يكتبه الخليفة الى عماله وكبار موظفى الدولة من توجيهات أو أوامر ، لا يتأتى ان تطوى وتجهل ، لأنها فى الواقع بمثابة قانون أو عرف ادارى يحتذيه اللاحقوق من بعد ، وهذه الرسالة بما تضمنته من شعر ركيك ، لم يذكرها أحد من المؤرخين ! ؟ ولم ترد فى قائمة الوثائق السياسية التى ترجع الى العصر الأموى — التى جمعها الدكتور محمد ماهر حمادة فى كتابه الذى يحمل هذا العنوان .

قال ابن أعثم : فكتب اليه بشر بن مروان : أما بعد يا أمير المؤمنين ، فانى كنت للمهلب على حالة نقلنى الله عنها الى ما هو خير منها ، ولو وكلنى الله الى رأى ، لرضيت بغير رضا ، وأخذت من غير ثقة ، ولكنه أدرانى الخطأ خطأ ، والصواب رأيا ، وقد أنفذت فى المهلب ما أمرنى به أمير المؤمنين أيده الله تعالى ولم يكن يأتيه منى الا ما يحبه — والسلام . ثم أثبت فى كتابه هذه الأبيات :

سواء — ومن أرسى ثبيرا مكانه — عصيتك أو دليت فى ظلمة القبر (١٢٢)
وللموت أدنى من خلافك طرفة وهل لى ان خالفت أمرك من عذر
اذا كان بشر فى الأمور كخالد وصاحبه الأدنى فشلت يدا بشر
رأى خالد عزل المهلب للذى أراد وكانت تلك من عجب الدهر
أيعزل ميمون النقيبة حازما لأجبن من بوم يروع من صقر
فلا أحرم الدهر المهلب سؤله ولا أخرج الدهر المهلب من أمرى
اذا أنا لم أتبع هواك فما الذى أقول لربى يوم ألقاه فى الحشر
فأمرك عندى يملأ الصدر هيبة
وأهون منه ما يضيق به صدرى (١٢٣)

ثم دعا بشر بن مروان بأسماء بن خارجة الفزارى ، وعكرمة بن ربعى البكرى ، فقال لهم (لهما) انه قد ورد على هذا الكتاب فى المهلب من أمير المؤمنين ، وهوائى (وهواى) من ورائى فى غيره ، فما الذى عندكم (عندكما) من الرأى ؟ فقال أسماء بن خارجه : أيها الأمير ، ان أمير المؤمنين ما ولاك ما أنت فيه ، الا لتعمل برأيك ، فأمض هواك فيمن

---

(١٢٢) يزعم الراوى أن بشرا يقسم لأخيه بالله — الذى أرسى جبل ثبير — وهو اعلى جبال مكة — فى مكانه الذى هو فيه أنه لا فرق عنده بين أمرين مكروهين اشد الكراهية هما عصيان أمير المؤمنين ، والموت ! .

(١٢٣) كذلك الشأن فى هذه الرسالة الجوابية من بشر الى أخيه عبد الملك ، والشعر الذى تضمنته ، نقول فيها انها من مفردات ابن أعثم التى لم يشاركه فيها أحد من المؤرخين ! .

يريـــد (تريـــد) ، فقـــال عكرمة بن ربعى : أيها الأمير ، لا تفعل ، فان عزل المهلب عن الأزارقة متصل بعزلك ، وان أمير المؤمنين لا يحملك (لا يحتملك) على مخالفته ، فلا تخالفه ، وأنفذ المهلب الى حرب الأزارقة فليس له (لهم) (١٢٤) أحد سواه !

فلم يلتفت بشر بن مروان الى ما قاله عكرمة بن ربعى ، وغلبه هواه ورأيه ، فأرسل الى المهلب فعزله عن حـــرب الأزارقة (١٢٥) ، وأمره بالرجوع الى البصرة ، فرجع ، وطمعت الأزارقة فى الظفر ، فرجعوا من سابور فارس ، حتى نزلوا الأهواز ، ثم كتب صاحبهم قطرى بن الفجاءة الى بشر بهذه الأبيات :

ألا قل لبشر ان بشرا مصـــــبح ... بخيل كأمثال السراجين شرب(١٢٦)
يقحمها عمرو القنـــا وعبـيدة ... مفدى خـــلال النقع بالأم والأب
هنالك لا تبكى عجوز على ابنهـــا ... فأبشر بجـــــذع للانـــوف مرعب
ألم ترنا والله بـــالغ أمـــــــره ... ومن غالب الأقـــدار بالشر يغلب
رجعنا الى الأهـــواز والخيل عكف ... على الخير ما لم يرمنا بالمهلب(١٢٧)

قال ابن أعثم : فلما سمع بشر بن مروان هذه الأبيات ، كأنـــه أفكر فى قوله ، ثم دعا وجوه الناس فقال لهم : أخبرونى ، هـــل تعلمون مكان أحد يقوم بحرب الأزارقة غير المهلب ؟ فتكلم قوم ممن

---

(١٢٤) ما بين الأقواس اصلاح للكلمات الســـابقة عليهـــا مباشرة لعدم مناسبتهـــا للسيـــاق .

(١٢٥) واين اذن ما كتبه وأقسم عليه لعبد الملك أنه لا يرضى ولا يطيق مخالفته فى أمر المهلب على وجه الخصوص ؟! .

(١٢٦) ليس فى لســـان العرب : السراجين ! ولذلك فالمعنى غير واضح لجهالة المشبه به .

(١٢٧) ليس لهذه الأبيات الركيكة الهزيلة وجود الاعند ابن أعثم ، والمعلوم أن قطرى بن الفجاءة من الشعراء الفحول ويبعـــد جدا أن يكون هـــذا نظمه ! والأرجح أنه من نظم المؤلف — والله أعلم .

يبغضون المهلب ويحسدونه ، فقالوا : نعم أيها الأمير ، هذا محمد بن عمير بن عطارد ، وهو رجل من ربيعة ، وهذا زحر بن قيس ، هو رجل من اليمن ، وكل واحد من هؤلاء يمكنه القيام بحرب الأزارقة ! فأرسل بشر بن مروان الى أولئك الثلاثة [١٢٨] ، فدعاهم ، ثم ندبهم الى حرب الأزارقة ! فقالوا : أيها الأمير ، انه قد دعى الى هذا الأمر قبل اليوم من هو أكثر منا غنى ، فلم يقدموا عليه ولم يقوموا به ، وليس لهذا الأمر الا المهلب ! .

قال : وكأن بشرا لم يعجبه ، فأنشأ رجل من الأزد فى ذلك يقول :

يا بشر انـك للمهلب ظـــالم — والظلم عند المســلمين قبيح
فارجع ففيك وفى أخيـك بقيـة — طال اللجاج وطالذا التجليح[١٢٩]
ان المهلب لا يبـل سـليمه — وعـدوه حتى الممات جـريح
وله اذا عدم الرجـال عقولهم — عقل يبيـد به الرجال صـحيح
مازال مـذ عقـدت يـدا آراؤه — تغـدو عليه خطـة وتروح ؟
ليس الذين دعـوتهم أمثـاله — وهـواك فى غير المهلب ريـح
فـاز المهلب بالفعـال وقدحهم — فيمـا ألم من الأمـور تسيح
فارم العـدو به وكن مسـتيقنا — ان العـدو بسـهمه مذبوح
ألزمتـه ذنبـا ولو أنصـفته — مات العتاب وأوتر التصريح[١٣٠]؟

قال : ففشا هذا الشعر فى الناس ، حتى انتهى الى بشر بن مروان!

---

(١٢٨) لم يذكر آنفا الا اثنين فقط ! .

(١٢٩) التجليح : العناد والمكابرة ، وركوب الرأس فى الأمر . اللسان (جلح) ٣/٢٤٩ — ٢٥٠ .

(١٣٠) هذه الأبيات الرديئة — وبعضها غامض ولا معنى له — وقائلها الأزدى المجهول ، مما انفرد بذكره ابن أعثم الكوفى ! .

فأيقن بشر أن الأزارقـــة غالبة على البلاد ! (١٣١) فقال : والله انى لأستحيى أنى أريت المهلب بالأمس غناى عنه ، وأحتاج اليه اليـــوم بالأهواز ، وغدا بالجسر ، وبعد غد بالبصرة ! وانما يعمل برأى أمير المؤمنين ، فأمض المهلب اليهم ، ودع اللجاج (١٣٢) !!

قال ابن أعثم : فعندها بعث بشر بن مروان الى المهلب فدعاه وقد عمد الى امرأته هند بنت أسماء بن خارجة ، فأقعدها من ورائه خلف الحجلة ، لتكون هى التى تكلم المهلب . فلما دخل المهلب وسلم ، رد عليه بشر السلام ، فجلس ، وكلمته امرأة بشر فقالت : أبا سعيد ، اننا منك وأنت منا وان كنا فى غيرك ، وهذا بشر بن مروان أخـــو أمير المؤمنين وشقيقه ، وان أخطأ فيك أمس ، فقد أصاب اليوم ، وقد دعاك الى أمر قد دعاك اليه من كان قبله ، فأجبه الى ما يدعوك اليه والسلام! فقال المهلب : انى قد سمعت كلامك أيتها المرأة ، ولكن ليقل الأمير — أكرمه الله — ما أحب .

فتكلم بشر بن مروان فقال : أبا سعيد ، لا تنظرن الى ما كان منى بالأمس ، فان هذا العدو قد كلبوا على الأرض ، وقد نزلوا منزلهم الأول بأمانى الشيطان ، وليس لهم أحد سواك ، وانما تجيب أمـــير المؤمنين ، وتدفع عن مصرك ، وتصلح أمرا قد أفســـده غيرك ، وقد حال ما كان فى صدرى من أمرك ، فهات الآن ما عندك ! فقال المهلب : أيها الأمير ، انى قد علمت الذى كان فى قلبك والأمير — أيده الله — أهل أن يتفانى عنه ، وان كانت منه زلة ! عندى ، أن أقاتل هذا العدو

---

(١٣١) لا نستطيع أن نفهم العلاقة بين فشو هذا الشعر الردىء النظم بين النـــاس ، وبين أن يوقن بشر بغلبة الأزارقـــة على البلاد ؟! ومن جهة أخرى ، ما كان لشعر كهـــذا أن يفشو بين النـــاس لرداءته ، ولو فشا ، لعلم به المؤرخون ودونوه كمـــا دونوا غيره من الأشعار .

(١٣٢) توجيه القول هنا : أن بشرا يخاطب نفســـه بهـــذا الكلام ، ويوبخ نفسه بقوله : فأمض المهلب ، ودع اللجـــاج ؟ .

على ما قاتلتهم أمس • قال بشر : فلك اذن ما كان لأصحابك قبل اليوم ، أعطيك ، وان أردت المزيد بعد الوفاء • قال : فدعا بشر بخلعة فجعلها عليه ، وقلده سيفا ، وعقد له عقدا ، فخرج المهلب من عند بشر بن مروان حتى صار الى منزله ، فلما كان من الغـد ، نادى فى الناس فجمعهم ، ثم وضع لهم العطاء فأعطاهم ، وتجهز ، وخرج من البصرة فى عشرة آلاف رجل من قومه من الأزد ومواليهم ، وثمانية آلاف من أخلاط القبائل ، ثم سار يريد الأهواز ، ورحلت الأزارقة من الاهواز ، حتى لحقت بسابور فارس ، ودخل المهلب الى الأهواز ، فأقام بهـا ثلاثا ، ثم رحل حتى نزل بمدينة رامهرمز (١٣٣) فى جميع أصحابه ••

قال ابن أعثم : واعتل بشر بن مروان بالبصرة علة شـديدة واستسقى بطنه فمات ، وبلغ ذلك المهلب فاغتم غما شديدا ، وتفرق عنه عامة أصحابه فدخلوا البصرة ، وبقى المهلب برامهرمز فى زيادة على عشرة آلاف ، فقام فى الناس خطيبـا ، فحمد الله وأثنى عليـه ثم قال : أيها الناس ، ان كنتم انما تقاتلون هذا العدو لبشر بن مروان ، فقد مات بشر ، وان كنتم انما تقاتلون لله ، فاثبتوا على ما أنتم عليه ، فان أمير المؤمنين حى ، والعراق لابد لها من أمير — والسـلام •

وبلغ الأزارقة موت بشر بن مروان ، ففرحوا لذلك ، وكتب رجل منهم الى المهلب وأصحابه بهذه الأبيات :

قل لقـوم مـع المهلب قـد مـا ... ت ابن مروان فارجعـوا بسـلام
ودعـوا رامهرمز وقـــراها ... لا تمنـوا أمـانى الأحـلام
قبـل أن يعطف الجيـاد عليكم ... عطفة الليث بالرماح الـدوامى
وسـيوف مهنـدات خفـاف ... تترك الليث مقعصا فى القتام(١٣٤)

(١٣٣) رامهرمز : مدينة مشهورة بنواحى خوزستان . ياقـوت : معجم ١٧/٣ .

(١٣٤) وتلك الأبيات أيضا من مفردات ابن أعثم ، لم يذكرها سواه أحد.

فكتب اليه كعب بن معدان الأشقرى بهذه الأبيات :

ان بشرا — والله يرحم بشرا — ويقى وجهه عذاب الجحيم
وبرى الدهر قوسه فرماه بخطوب من الخطوب عظيم
فلئن كانت المنون أتته ان فينا لمنع هذا الحريم ؟
بأبى الحرب وابنها وأخيها حل فى منصب واسم كريم
وتمنى غناه فى سالف الأز د عظام النهى وأهل الحلوم
ذاك ذاك المهلب بن أبى صفرة فى الحرب كالهزبر الشنيم
حاد عنه عبيدة بن هلال ثم عمرو القنا بأنف رغيم
واسألوا عبد ربه ورءوسا وذرى وائل وحى تميم
من يقود الجياد يعثر فى النقع بفرسانها دوامى الشكيم
ثم لا انصرف الأعنة والخيل صحاحا كذا بغير كلوم (١٣٥)

قال : ثم قام قطرى بن الفجاءة فى الأزارقة خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد يا معشر المهاجرين ، فان بشر بن مروان قد مات وتفرق الناس عن المهلب الا قليل منهم ، وهذا العراق ليس به أمير ، فهل لكم أن تغنموا الفرصة من المهلب بن أبى صفرة بوقعة تواقعوه بها ؟ فلعلنا أن نظفر منه بشىء ! فقام عبيدة بن هلال اليشكرى فقال : يا أمير المؤمنين ، ان المهلب لا يقيم بدار مضيعة ، وقد بقى معه من أصحابه من يثق بهم ، وهم الذين سرنا اليهم بالأمس فنفونا عن جسر الأهواز ، حتى بلغوا بنا الى سابور ، ولو أن المهلب رأى منا تحركا لم نبال أن يسير الينا فيمن معه فيلقانا ، كان الأمر له أم عليه ! فقام عبد ربه الكبير ، فقال : يا أمير المؤمنين ، دع عنك كلام عبيدة بن هلال ، فان المهلب لا يبرح من رامهرمز أبدا ، ولو أقام بها وحده أو يأتيه المدد،

---

(١٣٥) وهذه أيضا من الشعر الذى انفرد بذكره ابن أعثم ، كما انفرد بنسبته الى كعب بن معدان ، وهو زعم باطل ، لأن هذا الشعر ردىء جدا لا تصح نسبته اليه وهو شاعر كبير ! وقوله كالهزبر الشنيم يعنى : كالاسد الجريح . اللسان (شنم) ١٥/٢٢٠ .

فان أردته فهذا وقته مادامت الخيل قد تفرقت عنه ! فقام عمرو القنـا ، فقال : يا أمير المؤمنين ، دع كلام هؤلاء ، واترك المهلب ما تركك ، وأرده ما أرادك ، فليس الذى فى يده بأعظم مما فى يدك ! وانك ان خاطرت لم يخاطر لأنه شيخ العراق ، ومعرك الحروب غير مدافـع ! فقال قطرى بن الفجاءة : أما انه لولا علمى بأن المشورة فيها البركة ، لما شاورتكم فى شىء أبدا ، غير أنى أعلم رأيكم (؟) ان تركتم المهلب اليوم ، وطلبتموه غدا ، ندمتم أشد الندامة .

قال : وكتب المهلب الى عبد الملك بن مروان ، يعلمه بجموع الأزارقة ، وما قد أزمعوا عليه من أخذ العراق . فعندها ، ضاقت الأرض عـلى عبد الملك بن مروان ، ولم يدر ما يصنع ، وخشى أن تتغلب الأزارقة على البلاد ، فأرسل الى أهل بيته ، وخاصته ، فجمعهم ، ثم جمع سادات العرب ، ممن لهم النجدة والقوة والجلد ، ثم قام فيهم خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه [(١٣٦)] .

---

(١٣٦) الفتوح ٣١٣/٦ الى آخـر الجزء — وسوف يبدأ الجزء السابع بقصـة مادار فى هذا الاجتمـاع الذى دعا اليه عبد الملك وانتهى بتعيين الحجاج بن يوسف الثقفى واليا على العراقين ، على النحو الـذى بيناه فى ص ٣٠٧ — ٣١٠ من هذا البحث ! ويمكن القول — دون شىء من المبالغة — ان جميـع ما ذكـره ابن أعثم حول اختلاف رأى بشر بن مـروان ، ورأى أخيه عبد الملك بشأن تولية المهلب بن أبى صفرة حرب الأزارقـة ليس صحيحـا فى مجمله وتفاصيله ، ذلك أنه لا يتصور أن يصـدر الخليفـة أمرا محددا الى واحـد من عماله — ولو كان أخاه بشرا — ثـم لا ينفذ هذا الأمـر ، لمجرد أن هـوى بشر لا يطيق تنفيذه ! فليست مصلحـة الدولة خاضعة لعاطفة الحب ، أو الكراهية الشخصية ، وانمـا مصلحـة الدولة — وبخاصـة فى عهـد عبد الملك — مقدمة على سـائر الاعتبارات ، فلما كان أمير المؤمنين قد رأى أن خطر الأزارقـة لا يدفعه عن العراق الا المهلب ، فقـد كتب الى أمير العراقين (بشر) يأمره بتعيينه وتوجيهه اليهم ، فهل يتصور أن يتجاهل بشر أمر أخيه الخليفـة ويعطله ؟ كلا ، وانمـا المتصور والمعقول أن ينفذ الأمر فور وصوله اليه ، ولو كـان ذلك عـلى غير رغبته ، كمـا ذكر ذلك المؤرخون ، ولنـا اليه عودة وشيكة .

فى الجزء الذى سلف من رواية ابن أعثم الكوفى لأخبار

= من جهة أخرى ، لم يرو المؤرخون أن احد الولاة كذب على عبد الملك فى أمر صريح كهذا يتعلق بأمن الدولة وسلامتها ! لكن ابن أعثم طلع علينا فى هذا النص بما يخالف ذلك ، فقد نص على أن بشرا خدع الخليفة وكذب عليه فقال له فى جوابه على رسالته : « وقد أنفذت فى المهلب ما أمرنى به أمير المؤمنين » مع أنه لم ينفذ شيئا ، بل فعل عكس ما طلب منه تنفيذه ، فعزل المهلب عن قتال الأزارقة ! ثم اذا علم الخوارج بذلك ، فرحوا به ، وأسرعوا حتى نزلوا الأهواز ! عندما اضطرب بشر وتحير ، وزاد غيظه واشتد حقده على المهلب ! وأخذ يتساءل فى غباء عن رجل يقوم مقام المهلب ، فلم يجده فاضطر الى الاستعانة به ، ولكن من يقوم باصلاح ما بينهما ، ويتوسط ليقبل المهلب هذه المهمة ؟ نعم ، وجد بشر من يصلح بينه وبين المهلب ، انها امرأة بشر ! وهذا من أعجب العجب فى قول ابن أعثم كله ، ولم نسمع بمثله أبدا ؟! ثم مات بشر — وكل الولاة يموتون أو حتى يقتلون ، ولا تقوم الدنيا أو تقعد — فأصيب أمير المؤمنين بالاضطراب والعجز التام والحيرة المظلمة حتى ضاقت عليه الأرض بما رحبت ولم يدر ما يصنع ! وهذا — لعمرى — من تهاويم ابن أعثم ، فليس عبد الملك بن مروان الذى يمكن أن يضطرب أو يخور ، أو تضيق عليه الأرض لموت أحد ولاته ، بل كان مضرب المثل فى قوة البأس ومضى العزم ، وعلو الهمة ، والقدرة الفائقة على مواجهة الشدائد والأزمات ، ومعالجة المواقف الدقيقة بحكمة وحزم بالغ . واقرأ ان شئت ما رووه عنه فى هذا الصدد : الذهبى : سير أعلام النبلاء ٢٤٩/٤ ، المسعودى : مروج الذهب ١٠٤/٣ — ١٠٦ ، محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية ١٦٤/٢ ، عبد الشافى عبد اللطيف : العالم الاسلامى فى العصر الأموى ص ١٤٨ — ١٥٦ .

واذا كان ما ذكره ابن أعثم حول هذه المسألة من هذا الباب ، فلنذكر بايجاز ما أورده المؤرخون المقبولة أخبارهم فيما يتعلق بموقف بشر بن مروان من المهلب ، فلقد قالوا : انه لما ولى عبد الملك أخاه بشر بن مروان على البصرة ، ومضى اليها ، جاءه كتاب أخيه عبد الملك يأمره أن يولى المهلب بن أبى صفرة حرب الأزارقة فى وجوه أهل البصرة ورؤسائهم ، وأن ينتخب منهم من أراد للسير معه الى الحرب ، كما أمره أن يرسل جيشا كثيفا من أهل الكوفة وأن يقوده رجل منهم معروف بالشدة =

الأزارقة ، والذى انتهى بوفاة بشر بن مروان أمير العراقين فى عام ٧٤هـ نكون قد أتينا على المرحلة الأولى من تلك الملحمة الهائلة التى وقعت بين الأزارقة وبين الدولة الاسلامية فى العراق وفارس ، ثم تعقبها مرحلة أخرى ، تتميز عن تلك من نواح عدة ، فهى أولا ، لم تستغرق طويلا من الزمن كالذى انقضى فى الأولى ، كما أنها لم تعرف التذبذب

=

والنجدة والتجربة وأن يكون من أشرافهم ويمد بهم المهلب ، وأن يتبعوا الخوارج حيث كانوا حتى يبيدوهم . وتغيظ بشر أن تكون امـــرة المهلب قـــد جاءت مباشرة من قبـــل أمير المؤمنين ، وشق عليه ذلك فأوغر صدره منه — حتى كأنه قد أذنب اليه !؟ — لكن لا مفـــر من تنفيذ أمـــر الخليفـــة .

فاستدعى بشر عبد الرحمن بن مخنف ، وقـــال له : قد عرفت منزلتك عندى ، وقـــد رأيت أن أوليك هـــذا الجيش الذى أسيره من الكوفة للذى عرفته منك ، فكن عند أحسن ظنى بك ، وانظـــر الى هـــذا الكذا كـــذا — يقـــع فى المهلب — فاستبد عليه بالأمـــر ، ولا تقبلن لـــه مشورة ولا رأيا ، وتنقصـــه ، وقصر به ! .

فقال عبد الرحمن بن مخنف معلقـــا على هذه الوصية (أو الوقيعة بعبارة أدق) : فترك أن يوصينى بالجيش ، وقتـــال العدو ، والنظـــر لأهل الاســـلام ، وأقبل يغرينى بابن عمى ، كأنى من السفهاء ، ما رأيت شخصـــا مثلى طمـــع منه فى مثـــل هـــذا ! قال : فلمـــا رأى أنى لســـت بنشيط الى جوابه قـــال لى : ما لك ؟ قلت : أصلحك الله ، وهل يسعنى الا انفـــاذ أمرك فيمـــا أحببت وكرهت ! قـــال : امض راشدا .

وخرج المهلب بأهل البصرة حتى نزل رامهرمز ، فلقى بهـــا الخوارج ، فاتخذ خندقـــا عليه ، وأقبل عبد الرحمن بن مخنف فى أهل الكوفـــة ومعه من أشرافهم : بشر بن جرير ومحمد بن عبد الرحمن بن ســـعيد بن قيس ، واسحاق بن محمد بن الأشعث وزحر بن قيس ، وعسكروا قريبا من عسكر المهلب بحيث يتراءى العسكران برامهرمز ، فلـــم يلبثوا الا أياما حتى مـــات بشر بن مروان فى البصرة ، وجاءهم نعيه ، فتفرق ناس كثير من أهل المصرين البصرة والكوفـــة ، وقـــد استخلف على البصرة خالد بن عبد الله بن خالد ابن أسيد ، وعلى الكوفة عمرو بن حريث ، وكان ذلك فى عـــام ٧٤ هـ . المبرد : الكامل ٣٦٢/٣ — ٣٦٥ ، الطبرى : تاريخ ١٩٥/٦ — ١٩٧ ، ابن الأثير : الكامـــل ٣٦٥/٤ — ٣٦٦ ، النويرى : نهاية الأرب ١٥١/٢١ — ١٥٢

وبطء الحركة من جانب أهل العراق ، ولم تشـــهد لهم هزيمة واحدة أو تقهقرا منهم أمام عدوهم ، ولم يحدث فيها ما تكرر فى المرحلة الأولى من تغيير قيادتهم بالتولية والعزل،وذلك ، لأن المرحلة التىنقبل عليها الآن قد جرت وقائعها جميعا فى ظل ولاية الحجاج بن يوسف الثقفى عـــلى العراقين ، وتحت قيادة عسكرية واحدة تباشر القتال أمام الأزارقة هى قيادة المهلب بن أبى صفرة وحده ، وهو الذى ظل يناهضهم ، ويصابرهم، ويلح عليهم بالقتال والحيلة ، حتى نال منهم كثيرا ، ولم ينالوا منه ، ثم ضربهم الله بالاختلاف فيما بينهم ، وقتل العديد من زعمائهم فانتهى أمرهم وذهبت ريحهم ، وتلاشت قوتهم ، وفقدوا القدرة على مقاومة المهلب وجيشه ، فتمكن من بقيتهم وقضى عليهم تماما ، كما سوف نعرضه الآن ، وها نحن نمضى مع ابن أعثم فى سرده لأخبار الأزارقة فى هذه المرحلة الأخيرة : فيقول فيها [١٣٧] :

وأصبح الحجاج — (الذى تولى العراقين فى عام ٧٥ هـ) — من غد ، فدعا بكاتبه ، فقال : اكتب الى المهلب بن أبى صفرة : أما بعد ، فان بشر بن مروان ، وجهك الى الحرب التى للأزارقة ، وكان مستكرها لنفسه فيك ، وأنا أريدك لحاجتى اليك ، فأبشر وقر عينا ، واثبت على حرب القوم ، فوالله لأحشرن اليك (الجند) حشرا ، ولأعجلن الرجال على الجام الخيل ، ولآخذن السمى بالسمى ، والكنى بالكنى ، والوالى بالولى ، حتى يكون من يوافيك أكثر مما (ممن) يفارقك ، ومالى قول هو أعظم من نعمة الله عليك والسلام [١٣٨] . ثم أمر الحجاج مناديه ، فنادى بالكوفة : ألا اننا قد أجلنا من كان من أصحاب المهلب ثلاثا ، فمن أصبناه بعد ذلك ، فعقوبته ضرب عنقه ! ثم دعا الحجاج بحاجبه زياد ابن عروة ، وبصاحب شرطته سويد بن ثروان [١٣٩] ، فقال لهما : اركبا

---

(١٣٧) الفتوح ١٤/٧ — ١٦ .
(١٣٨) ورد هذا الكتاب فى كامل المبرد ٣٦٨/٣ ، مـــع يسير اختلاف .
(١٣٩) سويد بن ثروان : مجهول لم نقف لـــه على ذكـــر فى مصادرنا .

فى جماعة من الجند ، وأمراهم أن يعلقوا السياط فى خناصرهم ، والسيوف فى أيمانهم ، واحشرا الناس الى المهلب حشرا ، فمن تأخر وأبى ، فاستعملا فيه السيف ! قال : فحشرا الناس الى المهلب بن أبى صفرة ، حتى لم يفقد من أصحابه الذين تفرقوا عنه رجلا واحدا ..

قال ابن أعثم : ثم كتب اليه (الى المهلب) الحجاج يعلمه أنه قد جعل له الشرط الأول ، وأن له خراج ما غلب عليه من البلاد ، الى أن يقضى حرب الأزارقة : فكانت الأموال تنتقل اليه من أرض فارس الى أرض البصرة فى البدر ، مكتوب عليها : « هذا ما أطعم الله المهلب بن أبى صفرة مما غلب عليه من بلاد الله » يحمله الى قومه من العتيك ، لا يعترض عليه معترض ! (١٤٠) .

فلما اجتمع للمهلب بن أبى صفرة أمره قام فى الناس خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ان الله قد دفع عنى وعنكم ما كنا نخاف ونحذر من أمر الازارقة ، وقد كنا بدار مضيعة ، وان الله تبارك وتعالى أسأله أن يتم نعمته على وعليكم ، فاحمدوا الله على ما أعطاكم ، وسيروا الى عدوكم . ثم نادى فى أصحابه ، فسار وساروا معه ، حتى صار الى أرجان ، فأقام بها ثلاثا ، ثم سار منها الى سابور ، والأزارقة يومئذ بها ، وقد جعلوها دار هجرتهم ! (١٤١) .

---

(١٤٠) البدر : جمع بدرة ، وهى جلد السخلة يتخذ كيسا توضع فيه عشرة آلاف درهم .. والعتيك بن الأزد بن عمران ابن عمرو مزيقيا — قبيلة المهلب بن أبى صفرة ، فهو أزدى عتكى — انظر ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٣١٧ . ولم أعثر على هذا النص أو شبهه فى المصادر بين يدى .

(١٤١) الفتوح ١٧/٧ . ولقد خالف ابن أعثم سائر المؤرخين ، حيث غفل أو تغافل عن ذكر أول وقعة كانت بين المهلب وبين الأزارقة فى هذه المرحلة ، وهى وقعة كازرون ، التى قتل فى الجولة الثانية منها عبد الرحمن ابن مخنف الأزدى — وكان يومئذ قائدا لأهل الكوفة — وقد ذكر المؤرخون =

قال ابن أعثم : فأقام المهلب على سابور ، يحارب الأزارقة الليل مع النهار ، حتى حاربهم ثلاث سنين كملاء مثل يوم واحد ! وأرسل الحجاج الى المهلب : أن ناجز القوم ، ما تنتظر بهم الى هذه الغاية ؟ فكتب اليه المهلب : أيها الأمير ، انى أنتظر بهم ثلاث خصال : موت صاحبهم قطرى بن الفجاءة ، أو فرقة وتشتيتا ، أو جوعا قاتلا ، وأنا

= فى بيان ذلك : أنه لما أتى كتاب الحجاج الى المهلب وابن مخنف يأمرهما بمناهضة الخوارج ، زحفوا اليهم وعسكروا بكازرون ، وخندق المهلب على نفسه ، ولم يخندق ابن مخنف وأصحابه وقالوا : خنادقنا سيوفنا ، فأرسل اليهم المهلب : انى أخاف عليكم البيات ! فلما أصبح القوم بكروا بقتال المهلب ، فاستمد ابن مخنف ، فأمده واشتد القتال ، فانكشف الخوارج ، ونال منهم المهلب وكثر فيهم القتل والجراح . فلما انتصف الليل قال الأزارقة بعضهم لبعض : نأتى عسكر ابن مخنف فانه لاخندق عليهم ، وقد تعب فرسانهم اليوم مع المهلب ، فأتوهم ، فلم يشعر ابن مخنف وأصحابه بهم الا وقد خالطوهم فى عسكرهم ، فقاتلهم حتى قتل ، وقتل معه سبعون من القراء من أصحاب على وابن مسعود رضى الله عنهما ، ثم جاء المدد اليهم من قبل المهلب فكشفوهم وكان ذلك فى رمضان من عام ٧٥ هـ، وفى ذلك يقول سراقة بن مرداس البارقى يرثى عبد الرحمن بن مخنف :

ثوى سيد الأزدين أزد شنوءة ... وأزد عمان رهن رمس بكازر
وضارب حتى مات أكرم ميتة ... بأبيض صاف كالعقيقة باتر
وصرع عند التل تحت لوائه ... كرام المساعى من كرام المعاشر
قضى نحبه يوم اللقاء ابن مخنف ... وأدبر عنه كل ألوث داثر
أمد ولم يمدد فراح مشمرا ... الى الله لم يذهب بأثواب غادر

ولسراقة رثاء آخر فى ابن مخنف ، كما رثاه غير سراقة — وعين الحجاج قائدا جديدا لأهل الكوفة هو عتاب بن ورقاء الرياحى ، ولكنه اختلف مع المهلب سريعا ، فطلب من الحجاج اعفاءه من هذه المهمة ، فأعفاه وعاد ، فجعل المهلب عليهم ابنه حبيب بن المهلب . انظر الطبرى : تاريخ ٢١١/٦ — ٢١٥ ، المبرد : الكامل ٣٦٩/٣ — ٣٧٣ ، ابن الأثير : الكامل ٣٨٨/٤ — ٣٩١ ، النويرى : نهاية الأرب ١٥٢/٢١ — ١٥٣ .

أرجو أن أدرك ذلك فيهم ان شاء الله ، ولا قوة الا بالله العظيم (١٤٢) .

قال : وكان الحجاج قد ظن فى نفسه ، أن المهلب ليس بناصح فى حرب الأزارقة ، فدعا برجل من أصحابه يقال له : عبد الله بن الجراح (١٤٣) — وكان عنده من الثقات — فضم اليه قوما من أصحابه ، وقال : أريد منكم أن تسيروا الى المهلب ، فتقيموا عنده أياما ، وتنظروا الى حرب الأزارقة ، وتأتونى بالخبر ! فساروا القوم ، حتى صاروا الى المهلب ، فنزلوا عنده شهرين كاملين ، فجعلوا ينظرون الى المهلب ، وأنه يعبىء فى كل يوم رجلا من أولاده فى أول النهار ، ثم يقاتلهم بنفسه فى آخر النهار ، ثم أقبل على الرسل بعد ذلك ، فقال : انظروا هل بعد هذا من جهد ؟ فقالوا : لا والله يا أبا سعيد ، ولا ظن الأمير أن حرب القوم على هذا الشأن ! ثم رجع القوم الى الحجاج ، وتقدم عبد الله بن الجراح فلما سلم — وقضى حق التسليم ؟ — قال له الحجاج : ما وراءك يا ابن الجراح ؟ وكيف رأيت المهلب فى

(١٤٢) قوله : حتى حاربهم ثلاث سنين كملاء . فى هذه المرحلة ، فيه خلط شديد ، لأنه بذلك تعجل ، وجمع السنين المتفرقة بعضها الى بعض ، وليس هذا بشىء ، لأن كل فترة فى هذا الصراع لها ظروفها وملابساتها . والصواب : أنه بعد عودة عتاب الى الكوفة ظل المهلب يقاتل الخوارج سنة قتالا شديدا فى سابور ، فخرجوا حتى أتوا كرمان ، وتبعهم المهلب بجنده حتى نزل مدينة جيرفت وهى مدينة كرمان ، فقاتلهم قتالا شديدا هناك أيضا . فأصبحت فارس كلها بيد المهلب فأرسل الحجاج اليه البراء بن قبيصة ليحثه على الجد فى قتال الخوارج ، لأنه لا عذر له فى بطء الحركة أمامهم ، والا فماذا ينتظر بهم ؟ فأمر المهلب بانشاب القتال معهم ، فرأى البراء من ذلك ماسره ، وعاد الى الحجاج يخبره أن المهلب وأبناءه وجنده جادون كل الجد فى قتال الأزارقة الذين لا يعين عليهم الا الله سبحانه وتعالى ، وعذر المهلب عنده . المبرد : الكامل ٣٧٣/٣ — ٣٧٤ ، الطبرى : التاريخ ٣٠١/٦ — ٣٠٢ ، ابن الأثير : الكامل ٤٣٧/٤ — ٤٣٨ ياقوت : معجم البلدان ١٩٨/٢ .

(١٤٣) الصواب أن اسمه : الجراح بن عبد الله الحكمى — وله ذكر فى هذا البحث — انظر ص ٣٣٢ وما بعدها .

حرب القوم ؟ فقال : أيها الأمير ، رأيت والله منه ما سرنى ، رأيته يحتمل المصيبة ، ويلقى القوم بنفسه وأولاده ، فيجاهدهم فى الله حق جهاده ! فقال له الحجاج : ما أحسن ثناءك على المهلب ؟ فقال : أيها الأمير ، انه كان يفعل ذلك (تلك) الفعال (فهو) حقيق بالثناء (١٤٤) .

قال : وجعل المهلب يحارب القوم ، حتى حاربهم بعد ذلك سنة كاملة . فكتب اليه الحجــاج : أما بعد فانك قد طاولت العدو وجبيت البلاد ، ولوشئت أن تفرغ من حرب الأزارقة لفعلت ، ولكنك تحب المطاولة لجباية الأموال ، فناجز القوم ولا تطاولهم ، والسلام . ثم دفع كتابه

---

(١٤٤) ذكر المبرد فى الكامل ٣/٣٧٧ — ٣٧٨ — قصــة بعث الجراح من قبل الحجاج الى المهلب لاستنهاضه على الوجه الآتى : ووجه الحجــاج الجراح بن عبد الله الى المهلب يستبطئه فى مناجزة القوم ، وكتب اليه : أما بعــد ، فانك جبيت الخراج بالعلل وتحصنت بالخنادق ، وطاولت القوم، وأنت أعز ناصرا ، وأكثــر عددا ، وما أظن بك مع هذا معصية ولا جبنــا ، ولكنك اتخذت أكلا (رزقا) وكان بقاؤهم أيسر عليك من قتالهم ، فناجزهم والا أنكرتنى ، والسلام .

فقال المهلب للجراح : يا أبا عقبة ، والله ما تركت حيلة الا احتلتهــا ، ولا مكيدة الا أعملتها ، وما العجب من ابطاء النصر وتراخى الظفر،ولكن العجب أن يكون الرأى لمن يملكه دون من يبصره ! ثم ناهضهم ثلاثة أيـام ، يغاديهم القتال ، ولا يزالون كذلك الى العصر ، وينصرف أصحابه وبهم قــرح ، وبالخوارج قرح وقتل ، فقــال له الجراح : قد أعذرت .. فكتب المهلب الى الحجاج : أتانى كتابك تستبطئنى فى لقــاء القوم ، على انك لا تظن بى معصية ولا جبنا ، وقــد عاتبتنى معاتبة الجبان ، وأوعدتنى وعيد العاصى ، فاسأل الجراح ، والسلام .

فقال الحجاج للجراح : كيف رأيت أخاك ؟ قال : والله ما رأيت أيها الأمير مثله قط ، ولا ظننت أن أحدا يبقى على مثل ما هو عليه ، ولقــد شهدت أصحابه أياما ثلاثة يغدون الى الحرب ، ثــم ينصرفون عنهــا وهم يتطاعنون بالرماح ، ويتجالدون بالسيوف ، ويتخابطون بالعمد ، ثم يروحــون كأن لم يصنعوا شيئا ، رواح قوم تلك عادتهم وتجارتهم . فقــال الحجاج : لشــد ما مدحته أبا عقبة ! قال : الحق أولى .

الى رجل من ثقيف له لسان ذرب ومنطق ذلق (١٤٥) ، فقال له : صر الى المهلب ، وانظر أن تحثه على قتال القوم ومناجزتهم فانه قد طاولهم . فلما ورد كتاب الحجاج على المهلب ، وقرأه تبسم ضاحكا ثم قال : والله ما أنا والحجاج الا كما قال أوس بن حجر :

ومستعجل غمايرى من آبائنا ولو أضجرته الحرب لم يترمرم (١٤٦)

قال : فجعل ذلك الثقفى يتكلم ويخطب ويحرض على القتال ، فقال له المهلب : أيها الرجل ، ان الحرب ليس (ليست) بالكلام ، ولا بالخطب، ولكن اصبر حتى ترى وتنظر الى حرب القوم ! ثم نادى المهلب فى الناس ، وزحف نحو الأزارقة ، واختلط القوم ، فجعلوا يقتتلون من صلاة الظهر الى أن انتصف الليل ! وبقى الثقفى حيران لا يدرى ما يقول ، ثم أقبل على المهلب فقال حسبك يا أبا سعيد !

فقال له المهلب : اصبر قليلا ولا تعجل . فلم يزل القوم يقتتلون الى وقت السحر ، وكاد الثقفى يموت لما رأى ؟ ! وأصبح القوم فرجع بعضهم عن بعض فى وقت الضحى ، فأنشأ رجل من أصحاب المهلب فى ذلك يقول :

ما زلت ياثقفى تخطب دانيا وتغمنا بوصية الحجاج (١٤٧)
حتى اذا ما الموت أقبل زاخرا وسما لنا صرفا بغير مزاج

---

(١٤٥) هذا الرجل الثقفى انما هو المبعوث الأول الذى أرسله الحجاج الى المهلب ، وأشرنا اليه فى تعليقنا بالصفحة السابقة ، وهو البراء بن قبيصة — كما ذكر المبرد والطبرى وابن الأثير .

(١٤٦) رواية البيت هكذا خطأ ووزنه مختل ، ولا معنى لشطره الأول، والصواب كما ورد عند المبرد : الكامل ٣/٣٨٥ ، والطبرى : تاريخ ٤/٥٦٤ .

ومستعجب مما يرى من أناتنا ولو زبنته الحرب يترمرم

وزبنته : دفعته . لم يترمرم : لم يتحرك .

(١٤٧) عند المبرد : تخطب بيننا . الكامل ٣/٣٩٩ .

وليت ياثقفى غير منــاظــــر تبدين ؟ بين أحزة وفجاج (١٤٨)
وبنو المهلب فى الغبــار كــأنهم أسد لبسن يلامق الديباج (١٤٩)
ليست مقارعة الكماة لدى الوغى شرب المدامة فى اناء زجاج (١٥٠)

ثم أقبل المهلب على هذا الثقفى فقال : انصرف الآن الى الحجاج ، فأخبره أن الشــاهد يرى ما لا يرى الغائب والسلام . ثــم كتب أبو خالــد اليشكرى مع هذا الثقفى الى الحجاج بهذه الأبيات :

ألا قل لمن ظن المهلب خائنــــا هلم فكن فينا مكــان المهلــب
وحدث بتعليم القتــال وحاربن بأجسامنا والعفو عن كل مذنــب
فان رجالا غيبوا عن طعاننـــا وعن ضرب هامات الليوث المجرب
قد أعطوك من أمر المهلب عنــوة وقد ذهبت أبناؤه كل مذهـــب
فلو ذقت كأسا من عبيدة مــرة وعمرو القنا أو عبد رب وشوذب
ومن قطرى أو عطية وابنـــه ومن صالح أو من زبير ومصعب
لأيقنت أنــا فى حلوق عــدونا
شجى ناشب سل يا ابن يوسف تعجب

---

(١٤٨) الشــطر الثانى عند المبرد : تنســاب بين أحزة وفجــاج — وقوله تبدين لا معنى له . والأحزة :جمع حزيز وهو المنخفض من الأرض بين طريقين غليظين . والفجاج جمع فج وهو الطريق — الكامل ٣٩٩/٣ .

(١٤٩) لم يرد هــذا البيت فى الكامــل للمبرد .

(١٥٠) نسب المبرد هذه الأبيــات الى رجل من بنى عامــر بن صعصعة من أصحاب المهلب . ولكن الجدير بالالتفــات اليه بهــذه المناسبة أن هذا الشعر لم يكن فى تلك البعثة التى يتحدث عنهــا ابن أعثم الآن ، ولكنه قيل خلال بعثة أخرى قادمة ، وكان المبعوث فيهــا هو عبيد بن أبى ربيعــة بن أبى الصلت الثقفى ! وهكذا صاحب الفتوح دائمــا ، يقــدم ويؤخر ، ويلفق ، ويجمع بين المناسبتين فى مناسبة واحدة ! .

فأرسل الينا من يعاين فعلنـــا   يقل حين يخبرنا فدالكم أبى [١٥١]

فغضب الحجاج من ذلك ، ثــم قال لجلسـائه : ألا ترون الى فعل هــذا المزونى [١٥٢] ، قــد أكل الأرض ، وجبى الأموال ، ثم يتربص بى ، وبأمير المؤمنين ، ويكتب الى بمثل هــذا وأشباهه ! ثم قال : ياغلام! اكتب الى المهلب ، وابعث به اليه : أما بعــد ، فانك مزونى ، وايم الله لئن لــم تجهد فى قتال القوم لأبعثن اليك من يحملك على مكروهك . والســلام ! .

فكتب اليه المهلب : أما بعــد ، فقــد ورد على كتابك ، تذكـــر فيه أننى مزونى وابن مزونى ، وما أنكــر ذلك ، وأنا مزونى — اســم سمتنا به العجم . ولكن الأمير — أعزه الله — من قبيلة قد ادعت فى خمس قبائل من العرب ، وما استقرت بعــد قرارهــا فى واحــدة منها ، واحــدة أنهم بقية من بقــايا آل ثمود ، والثانية : أنهم انتمــوا الى وحاظة [١٥٣] — ووحاظة لاعقب لهــا ، والثالثة : أنهم انتموا الى زياد ،

---

(١٥١) هذه الأبيات ، وقائلهــا المجهول ، مما انفرد بذكره ابن أعثم الكوفى ، اذ لم نعثر لــه على ذكــر فى ســائر المصــادر التى بين أيدينا . والأعلام المذكورون فى الأبيـــات هم رءوس فرقـــة الأزارقـــة يومئذ ، وظاهر القول فيهــا أنه يمدح الخوارج ويشيد بقوتهم وبطولتهم ، وقد تكــرر ذلك فى الفتوح غير مرة ! .

(١٥٢) المزونى : نسبة الى المزون وهى أرض عمان ، والمهلب من الأزد الذين سكنوا عمان — قال الجوهرى فى الصحاح (مزن) ٢٢٠٣/٦ — ٢٢٠٤ : وكانت العرب تسمى عمان المزون قال الكميت :

وأما الأزد أزد أبى ســعيد   فأكره أن أسميهــا المزونا

وهو أبو سـعيد المهلب المزونى ... وقال أبو عبيدة : يعنى بالمزون : الملاحين . وكان أردشير بن بابكـــان جعل الأزد ملاحين بشحر عمان قبل الاسلام بستمائة عام . وقــد حرفت الكلمة فى الكتاب الى : مروى ، ومرى ! .

(١٥٣) وحاظة : هى أحاظة عند ابن حزم فى جمهرة أنســـاب العرب — ص ٤٣٤ ، ٤٣٥ — وهم بنو ســعد بن عوف بن عــدى بن مالك بن زيــد ابن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية ... من بنى الهميسع بن حمير بن سبأ — وانظــر ياقوت : معجم البلدان ٥٦٣/٥ .

والرابعة : أنهم انتموا الى هوازن ، والخامسة : أنهم انتموا الى ثقيف . فليت شعرى ، فى أى الأحياء هم اليوم ؟ والسلام . فقرأ الحجاج كتاب المهلب واستغرب ضحكا ! ثم قال : أفحشنا على الرجل ، ففحش علينا ، والبادىء أظلم ! (١٥٤) .

قال ابن أعثم : ثم كتب بعض أصحاب المهلب الى الحجاج بهذه الأبيات :

لعمرك ما أخطا المهلب رأيه ... فلا عاش فينا بالخطاء المهلب(١٥٥)
ولا ضن عنا فى اللقاء بنفسه ... ولا ببنيه حين قال ألا اركبوا
فآسوا رجالا قد وفتكم نفوسهم ... بأنفسكم حفوا اليها وأعقبوا
فما كان الا القول حتى كأنهم ... أسود بأكناف العرين تلهب
لكل امرىء من كرة الخيل نوبة ... يطاعن بالرمح القويم ويضرب
اذا ما قضاها جاء آخر بعده ... فكل لكل فى العجاجة معقب
فلا ينثنى الا وثغرة نحره ... تسيل دما والرأس فيه ملحب
فلولا بنوه فى اللقاء وصبرهم ... لقلنا لفرسان الأزارقة اذهبوا !
لكم كل ما كان المهلب حازه ... من الأرض فاجبوه ولا تتهيبوا (١٥٦)

فلما قرأ الحجاج هذه الأبيات جعل يقول : والله ما يختلج بقلبى أن قوما يثبتون لمثل هذه الحروب ، ولكنى أحب أن أوجه بقوم ليأتونى

---

(١٥٤) قال ابن حزم — ينسب ثقيفا — وهؤلاء بنو منبه بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة ابن قيس عيلان ، وهم ثقيف . ثم قال : ولد منبه بن بكر بن هوازن بن منصور : قسى وهو ثقيف . الجمهرة ص٢٦٦ ومن ناحية أخرى فان كتاب الحجاج هذا وجواب المهلب عنه مما انفرد به ابن أعثم الكوفى .

(١٥٥) الخطاء : الفعل الخطأ الذى لم يتعمد . والخطاء : ضد الصواب . والجمع أخطئة . اللسان ٥٨/١ — ٥٩ .

(١٥٦) هذا الشعر المجهول القائل — وان كان لا بأس به — مما انفرد به ابن أعثم وحده ! .

بحقيقة ما يرون من حرب هؤلاء الأزارقـــة ، فوالله لو كانوا من حجارة أو حديد لما زادوا ! (١٥٧) .

ثم دعا الحجاج بعبيد الأعلى بن عبد الله بن عبد الله بن عامــر بن كريــز ، وبعبد الله بن عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب (١٥٨) ، وبجماعة من قريش فجهزهم ، وقال : أريـــد منكم أن تسيروا الى المهلب ، وتعلموا لى علمه، وتأتونى بحقيقـــة أمــره ، فانه قـــد عظم على أمر هؤلاء الأزارقة ، فقالوا : نفعل ذلك أيهـــا الأمير .

ثم سار القوم حتى قدموا على المهلب ، والمهلب يومئذ نازل على باب سابور فى عسكره ، فلمـــا رآهم رحب بهم وقربهم ، وسألهم عن حالهم ؟ فقال بعضهم : أبا ســـعيد ! ان الأمير الحجـــاج قد كره مطاولتك لهـــذا العدو ، وقـــد أحب منك المناجزة لهم لكى يشغلك بغيرهم !

فسكت المهلب ســـاعة ، ثـــم رفع رأسه فقال : انما أنا والحجاج كمـــا قال الأول :

أبلغ أبا مالك عنى مغلغلة   أن الكتائب لاتهزمن باللعب

ثم أقبل فقال : ان الأمير — أكرمه الله — أتاه السماع فقبله ، وأتاه العيان فرده ، وقـــد كتبت اليه : أيها الأمير ، ان الشـــــاهد يرى ما لا يرى الغائب ، فلا تكثـــر على من رسلك ، فأنا أعلم بحـــرب القوم منك » فزعم أنه هو الشـــاهد وأنى الغائب ، ولكن أقيموا اذ قدمتم

---

(١٥٧) الفتوح ١٧/٧ — ٢٢ .

(١٥٨) ذكر الدينورى هذه البعثة ، وقال : وعبد الرحمن بن سبرة ، وهو خطأ — الأخبار الطوال ص ٢٧٥ — غير أنه لـــم يذكـــر شيئا ســـوى أن الحجاج بعثهمـــا الى المهلب ليحملاه على مناجزة الازارقـــة ، فاستبقاهما المهلب معه ليشهدا ما هو فيه من الجهـــاد ضدهم . ولم يذكر مما توســـع فيه ابن أعثم شيئا أبدا .

الآن ، حتى تعاينوا حرب الأزارقـــة فوالله ، لا لقيتهم اليوم الا بمـا لقيتهم أمس • ثم نادى المهلب فى أصحابه فركبوا ، ونادى قطـرى ابن الفجاءة فى الأزارقـــة فركبوا ، ودنا القوم بعضهم من بعض ، وتقدم عشرة من أبطال الأزارقة ورؤسائهم وساداتهم ، حتى وقفوا أمام الخيل ، منهم قطرى بن الفجاءة المازنى — وهو صاحبهم وأميرهم — وعبيدة بن هلال اليشكرى ، وعمرو القنا العنبرى ، وصـــــالح بن مخراق العبقسى — (نسبة الى عبد القيس) — ، وعطية بن الأسود الحنفى ، وشوذب بن عامـــر العامرى ، وحيطان الايادى (١٥٩) ، وعنترة المرادى ، وعبد ربه الصغير • ونظـــر المهلب الى ذلك فدعا ببنيه ، وهـــم يومئذ عشرة ، كل واحد يعـــد بألف : المغيرة ، ويزيـــد ، وحبيب ، وقبيصة ، ومدرك ، والمفضل ، ومحمد ، وحماد (١٦٠) ، وعبد الملك ، ومروان ، فأمر المهلب لكل (كل) واحـــد أن يخـــرج الى رئيس من رؤساء الأزارقة •

فخرج يزيـــد وبين يديه رجل من الأزد وهو يرتجز ويقول أبياتا :

قل للشراة جـــاءكم يزيـــــــــد ذاك الذى لجمعكم مبيـــــــــــد
ذاك الذى دماركم يريـــــــــد ذاك الذى قتاله شـــــــــــديد
ذاك الذى ســـــاعده حديـــــد من كل أمـــر شركم بعيـــــــــد
وعنده من قتلكم مزيـــد

ثم تقدم حبيب بن المهلب وبين يديه رجل من الأزد ، وهو يرتجز ويقـــول :

قل للشراة ذهب الزبيـــــــــب اذ جاءكم فى ظله حبيـــــــــب

---

(١٥٩) حيطان الايادى : مجهول ، لـــم يذكره ضمن أخبار الأزارقـــة أو غيرهم أحد سوى ابن أعثم .

(١٦٠) ليس من بين أبناء المهلب من اسمه حماد . ولعله تحريف فى حجاج بن المهلب — انظـــر ص ٣٧٠ هامش ٢٤ .

ذاك الحرون الســـيد المهيــب ذاك الــذى بسيفه يصـــــيب
من كل أمر ساءكم قريب

ثم تقدم المفضل وبين يديه رجل من الأزد ، وهو يرتجــز ويقول :

قل للشراة جــاءكم مفضـــــل مودد مســـــود مبجـــــل
سنانه من طعنه تشلشل
وسيفه من ضربه مفلــــــــل كأنه البــازل حين يرفــــــل
والخيل تعدو قد علاها قسطل

ثم تقدم المغيرة ، وبين يديه رجل من الأزد ، وهو يرتجز ويقول :

يا معشر الأزارق النحـــــيرة أتاكم فى خيــله مغـــــــيرة
كفــاه : كف بالنــدى مطــيرة وكفه الأخــرى لكم مبــــيرة
ولا يـــرى كبيرة كبـــــيرة لا بــل يراهــا عنــده صــغيرة

ثم تقدم مدرك ، وبين يديه رجل من الأزد ، وهو يرتجز ويقول :

يا قطرى بن الفجــاءة الأنوك أين اذا ضــاق عليك المســـلك
تســلك والخيل عليهــــا مدرك لن يبرح الدهــر وهــذا المعرك
صفكم ، أو تهلكوا أو نهلك (١٦١)

قال ابن أعثم : فاختلط الفريقان ، واقتتلوا من وقت الضحى الى أن اختلط الظلام ، ورســـل الحجاج ينظرون الى ذلك ! وسقط رمح بعض الأزارقة ، فأخذه رجل من أصحاب المهلب ، فحلفت الأزارقـــة أنهم لا يرجعون ولا يبرحون ، أو يأخذوا الرمح ! وحلف أصحاب المهلب أنهم

---

(١٦١) هذه الأرجاز ، ومناسبتها ، لا وجود لهـــا الا فى فتوح ابن أعثم (٢٢/٧ ــ ٢٥) ، فهى اذن من مفرداته . وقوله : سنانه من طعن تشلشل : أى يقطــر دماء الأعداء وقوله : والخيل تعدو قــد علاهـــا قسطل : قسطل وقصطل وقسطال هو الغبار . وقوله : يا معشر الأزارق النحرة ، أى المذبوحة ــ جمع نحير يعنى : مذبوح . والانوك : هو الأحمق ــ الجوهرى : الصحاح ١٦١٢/٤ ــ ١٦١٣ ، ١٧٣٨/٥ ، ١٨٠١ ، لســان العرب ٤٨/٧ .

لا يردونه عليهم ! واقتتل القوم على الرمح من وقت اختلاط الظلام الى الصبح ، حتى قتل من الفريقين جماعة ، فأنشأ المغيرة بن حبناء التميمى، يقول فى ذلك أبياتا مطلعهـا :

ليست شعرى وللامور قــرار   هل بلغنا مدى رضا الحجاج ؟(١٦٢)

الى آخرهــا .

ثم أقبل المهلب على رسل الحجاج فقال : كيف رأيتم (هما رسولان) حرب الأزارقة ؟ فقالوا : حسبنا ما رأينـــا ، فردنا الى صاحبنا ، فوالله ما رأينـــا أشـــد كلبا على الاسلام من هؤلاء الخوارج ! قال : فخلع عليهم المهلب ، ورجعوا الى الحجاج . فلمـــا دخلوا عليه قـــال : كيف رأيتم المهلب فى حرب عدوه ؟ فقالوا : أيهــا الأمير ، ما رأينـــا قط قوما أضرب بسيف ولا أطعن برمح ، ولا أرمى بســـهم ، ولا أعود الى الحربه من بين الفرخ (الفرح) ، من قوم رأيناهم بالأمس من الفريقين ! فعذر الحجاج المهلب على ابطائه ، ثـــم كتب اليه : أن اعمـــل برأيك وامض لما أحببت ، فقـــد علمت أن الرأى ما رأيت (١٦٣) ! .

قال ابن أعثم : وعبى قطرى بن الفجاءة أصحابه تعبية الحـــرب ، وخرج من مدينة سابور ، ونظـــر المهلب رهج الخيل ، فوثب ، فعبى أصحابه ، ودنا القوم بعضهم من بعض ، وتقـــدم عبيدة بن هـــلال أمام الأزارقـــة فجعل يدعو للبراز ، ويطلب النزال ، فصـــاح المهلب بابنه مدرك فقال : يا مدرك ، اكفنى عبيدة ! قال : أفعل أصلح الله الأمير ، ثم خرج اليه المدرك ، ونظره عبيدة ، فحمل عليه ، وبادره مدرك بطعنة مدركـــة ، فولى عبيدة — وله عواء كعواء الكلب (الذئب) فأنشـــأ المغيرة ابن حبناء التميمى فى ذلك يقول أبياتا مطلعهـــا :

من رأى مدركـــا غـــداة التقينا   اذ أتاه عبيدة بن هلال (١٦٢)

الى آخرهـــــا .

---

(١٦٢) هذا البيت مما انفرد بذكره ابن أعثم الكوفى .

(١٦٣) الفتوح ٧/٢٥ — ٢٦ .

قال ابن أعثم : وكان عبيدة بن هـلال قبل ذلك ، اذا لقى للحرب ، لا يولى ، ويقول : ما أولى دبرى فى الحرب ولكنى أخاف النار ! فلما كان ذلك اليوم ، وطعنه مدرك بن المهلب ، وولى من بين يديه ، ناداه مدرك : أين الفرار يا عبيدة ؟ فقال : لست افر ، ولكنى أنحاز الى فئة تمنعنى ! فأنشأ كعب بن معدان الأشقرى فى ذلك أبياتا مطلعها :

قل للمهلب : ان سيفك مدرك حامى الحقيقة مدرك الأوطار (١٦٤)

الى آخرها .

واقتتل القوم على باب سابور بيوم ذلك الى الليل ثم انهزمت الأزارقة ، حتى دخلوا الى المدينة ورجع المهلب الى عسكره .

فلما كان الليل ، وهدأت العيون ، وسكنت الحركات ، خرجت الأزارقة من مدينة سابور مع نسائهم وأموالهم وأولادهم ، هاربين على وجوههم ، حتى صاروا على مسافة عشرين فرسخا من مدينة سابور . وعلم المهلب أنهم قد تنحوا ، فأقام فى عسكره يومه ذلك ، ولم يتبعهم ، ثم أمر بعسكره فضرب على باب سابور ، وبعث الى أهل المدينة فأخذ منهم الخراج ، وعزم على أن يجعل سابور منزله وداره ، ويحارب الأزارقة حيث كانوا ، فأنشأ رجل من أصحاب المهلب يقول فى ذلك أبياتا مطلعها :

قل للازارقة الذين تحزبوا ان التفرق أول الاخراج ؟(١٦٥)

الى آخرها .

وجعلت الأزارقة يتباعدون من بين أيدى المهلب ، والمهلب لا يتبعهم، وذلك أن الشتاء هجم عليه ، ووقعت الثلوج والأمطار ، واشتد البرد ،

---

(١٦٤) وهذا البيت أيضا لم يرد فى سائر المصادر التى نرجع اليها .

(١٦٥) وكذلك هذا البيت المجهول القائل ، قد انفرد به صاحب الفتوح . ولا ندرى أى اخراج يعنى ؟ .

فلم يتبعهم المهلب ، حتى اذا انحسر عنهم الشتاء ، أقبل على أصحابه ، فقال : أيها الناس ، ان بيننا وبين عدونا — على ما بلغنى — أقل من ثلاثين فرسخا ، وقد انحسر عنهم الشتاء ، وانما هو وجيف ليلة الخيل ! فاذا القوم قد وافوا ، فصاح المهلب بغلام له يقال له : مازن ، فقال : يا مازن ، ناد فى الناس بالرحيل • فنادى مازن فى الناس بالرحيل • ثم سار المهلب وأصحابه ، فلم يشعر الا وخيل الأزارقة قد أقبلت كأنها كواسر العقبان ، ودنا القوم بعضهم من بعض فاقتتلوا ساعة ، ثم وقعت الهزيمة على الأزارقة ، فانهزموا الى الموضع الذى جاءوا منه ! فقال المهلب : الحمد لله الذى كفانا شرهم ، فوالله لو فاجأونا ونحن على غير أهبة الحرب لفضحونا • ورجع المهلب وأصحابه الى سابور ، فأنشأ المغيرة بن حبناء يقول فى ذلك أبياتا مطلعها :

أكـــدنا ومن أرسى ثبيرا مكـــانه   يسال بنا لولا أتينا المهلب (١٦٦)

الى آخرها

ثم قال ابن أعثم : فبينا المهلب ذات يوم يخطب الناس بسابور ، وذلك فى يوم النحر ، اذ أقبلت الأزارقة فى جيش ، يقدمهم عمرو القنا • وبلغ ذلك المهلب ، فقطع الخطبة ، فقال : سبحان الله ! أفى مثل هذا اليوم ، وافانا العدو ؟ وانه يوم شريف عند الله تعالى ، لا يحب أن تسفك فيه الدمـــاء • غير أن الله عز وجل يقول : « الشـــهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » (١٦٧) • ثم أقبل المهلب الى ابنه المغيرة ثم قال : يا بنى ، دع الناس وعيدهم ، واخرج الى أعداء الله ، فعبى المغيرة أصحابه ،

---

(١٦٦) وهذا الكلام الموضوع بعضه الى جانب بعض — ويسـميه ابن أعثم شعرا — وما هو من الشعر فى شىء أبدا ، كما لا يليق أن ينسبه أحد الى شاعر كبير مثل المغيرة بن حبناء — هذا أيضا من خصوصيات ابن أعثم التى انفرد بها •

(١٦٧) سورة البقرة : الآية ١٩٤ •

وخرج من باب سابور ، فلما صار على باب الخندق ، واذا بعمرو القنا وقد تلقاه بجيشه ، فنظر اليه المغيرة ، فحمل عليه ، والتقيا بطعنتين ؛ طعنه المغيرة طعنة ، خر منها صريعا على وجهه ! وذهب المغيرة ليضربه بسيفه ، فحمله ثلاثة نفر من الأزارقة بكير ، وحطان الايادى ؛ وعميرة المرادى [١٦٨] ، فانفلت عمرو القنا ، وهو لما به من طعنة المغيرة ، فأنشأ المغيرة بن حبناء التميمى فى ذلك يقول أبياتا مطلعها :

وما لاقى ذليل من عزيز   كما لاقى الشراة من المغيرة [١٦٩]

الى آخرها

فتقدم فتى من الأزارقة من مذحج يقال له معاذ ! [١٧٠] حتى وقف بين الجمعين فجعل يقول :

نحن صبحناكم غداة النحر   بالخيل أمثال الوشيج تجرى [١٧١]
يقدمنا عمرو القنا فى الفجر   الى أناس لهجوا بالكفر [١٧٢]
اليوم أقضى فى الدماء نذرى   ومدرك ما أرتجى بوتر [١٧٣]

فما لبث أن خرج اليه رجل من أصحاب المغيرة بن المهلب يقال له :

---

(١٦٨) سبق أن ذكر « حيطان الايادى ، وعنترة المرادى ، ص ٤٣٦ أما بكير فهو مجهول لم يذكر من قبل .

(١٦٩) هذا البيت من مفردات ابن أعثم أيضا .

(١٧٠) وكم فى مذحج من رجال أسماؤهم معاذ !! وذكره المبرد بالصفة لا الاسم فقال « غلام جامع السلاح ، مديد القامة ، كريه الوجه ، شديد الحملة ، صحيح الفروسية » ٣٧٦/٣ .

(١٧١) فى الأخبار الطوال للدينورى ص ٢٧٦ : بالخيل أمثال الوشيج تسرى . والوشيج هو شجر الرماح .

(١٧٢) روى صدر هذا البيت فى المصدر السابق والصفحة هكذا : يقدمها عمرو القنا فى الفجر .

(١٧٣) وكذلك روى صدر هذا البيت فى المصدر نفسه :

اليوم أقضى فى العدو نذرى

أما عجز البيت فلم يذكره .

سعيد بن أبى نجد الأزدى (١٧٤) ، والتقيا بضربتين ضربه الأزدى ضربة جدله قتيلا ، ثم حمل على الأزارقة ، فجعل يضرب فيهم ضربا منكرا ، فأنشأ رجل من أصحاب المغيرة فى ذلك يقول :

ألا لله ما لاقى معاذ ... غداة النحر من سعد بن نجد
دعاه للبراز فما تلكا ... وسعد فى صدورهم كأحد
وسعد ماجد بطل هزبر ... وثوب فى الوغى كوثوب فهد
فيا سعد السعود فدتك نفسى ... أعدها فى فوارسهم وأبدى (١٧٥)

وانكشف الأزارقة من بين يدى ابن المهلب كشفة فضيحة (فاضحة) ، فأرسل المغيرة بهزيمة القوم الى أبيه يخبره بذلك ، ثم دخل مدينة سابور ، فضحى مع الناس (١٧٦) .

قال ابن أعثم : فلما كان بعد الأضحى بثلاثة أيام ، اذا بالأزارقة وقد أقبلت بخيلها ورجلها ، مستعدين للموت ! وبلغ ذلك المهلب ، فعبأ أصحابه كما كان يعبئهم ، ثم تقدم بنفسه ، حتى وقف أمام الخيل ، واتبعه بنوه ، فاختلط الخيلان بعضها ببعض ، وكابت الأزارقة على

---

(١٧٤) عند المبرد : اسمه سعد بن نجد القردوسى — وكان سعد متقدما فى شجاعته . الكامل ٣٧٦/٣ .

(١٧٥) وذلك الشعر المجهول القائل أيضا مما انفرد بروايته ابن أعثم .

(١٧٦) الفتوح ٢٩/٧ — ٣١ . وهذه هى الواقعة الوحيدة التى اتفق ابن أعثم فى معظمها وفى تحديد موعدها مع مؤرخين آخرين سبقاه بذكرها ، فقد ذكرها المبرد فى كامله ٣٧٦/٣ — ٣٧٧ ، والدينورى فى الأخبار الطوال ص ٢٧٦ . على أن الأمر لم يمر دون اختلاف فان ابن أعثم صرح بانكشاف الأزارقة وهزيمتهم أمام المغيرة ، ودخوله المدينة ليضحى مع الناس ، بينما ذكر المبرد أن الذى انكشف يومئذ هم أصحاب المغيرة حين رأوه صرع عن فرسه ، وأسرعوا الى المهلب فأبلغوه بقتل المغيرة ، ولم يكن الأمر كذلك فقد سلم المغيرة وحامى عنه بعض فرسانه . كما قال الدينورى : ان الفريقين صبر بعضهم لبعض وكثرت بينهم القتلى ، ولم يزل كل فريق بمكانه حتى حجز بينهم الليل .

المسلمين ، فاشتد القتال ، وحمل المهلب بنفسه على القوم ، فلم يزل يقاتل حتى جرح سبع عشرة جراحة ، فقال له رجل من أصحابه يقال له : عباس الكندى (١٧٧) : أيها الأمير ، أصلحك الله ، ان الله تبارك وتعالى قد جعل كفاية من ولدك وفتيانك وقومك ، وعشيرتك ، فلم تلقى هؤلاء الأعداء بنفسك ؟ فقال له المهلب : يا عباس ، ان الأسد انما غلظت رقبته لأنه رسول نفسه ، يا عباس ، ان بنى فرسان ، ولكنهم لا يبلغون فى الحرب مبلغى ! فأنشأ كعب بن معدان الأشقرى فى ذلك يقول أبياتا مطلعها :

وليس اذا رأى ابن الورد بعد ومسحا بالمهلب فى الصباح (١٧٨) ؟

الى آخرها .

وعزمت الأزارقة على أن تبيت المهلب فى عسكره ، فزحفت الأزارقة فى جوف الليل ، حتى أشرفوا على المهلب على باب سابور ، وعبيدة بن هلال اليشكرى أمام الأزارقة ، فالتفت الى أصحابه ، وقال : أيقظوا القوم لكيلا يقولوا : اننا أتيناهم وهم نيام ! ثم جعل عبيدة يرتجز ويقول أبياتا مطلعها :

لسنا نريد غرة السبات ان اغترازكم من السوءات (١٧٩)

الى آخرها .

فاستيقظ الناس وصاح المهلب بأصحابه ، وتصعصعت الرايات ، وأجمحت الفرسان (جمحت) ، وذلك فى ليلة باردة ذات ثلج وريح

---

(١٧٧) هو عند المبرد : عياش الكندى — وكان شجاعا بئيسا — الكامل ٣٨٥/٣ ، ولعل فيها تصحيفا .

(١٧٨) البيت هكذا غير موزون ، وغير مفهوم ، وفضلا عن ذلك فانه من مفردات ابن أعثم ! .

(١٧٩) البيت انفرد ابن أعثم أيضا بروايته . وروى عجزه محرفا هكذا « ان اغترار بكم من السوءات » !

منكرة • وكان أول من ركب واستوى على فرسه مدرك بن المهلب ، فتقدم أمام الخيل ، وتبعه الناس وهم يقولون : ألا انها روعة البيات ، فاتقوا الله واصبروا ! ونظر مدرك بن المهلب الى صالح بن مخراق فى سواد الليل وهو يهدر كأنه الجمل الأورق ، وكان من فرسان الأزارقة والمعدودين فيهم فحمل عليه مدرك ، والتقيا بضربتين ، ضربه صالح ابن مخراق ضربة على بيضته ، ثبت لها مدرك ، ثم ضربه (مدرك) ضربة أداره على فرسه ، فأقعى صالح على رجليه ، وتبددت خيل الأزارقة يمنة ويسرة ، ثم تراجعوا واشتبك الحرب ، فأصبح القوم وقد قتل من الأزارقة جماعة ، فأنشأ المغيرة بن حبناء يقول فى ذلك أبياتا مطلعها :

نفسى فداء أخى الحفيظة مدرك　　　عند الثبات لوقعة كانت شجا (١٨٠)

الى آخرها •

فعظم مدرك بن المهلب من تلك الليلة فى صدور اخوته ، وأحبه الناس حبا شديدا • واذا عين للمهلب أقبل اليه فقال : أيها الأمير ، ان أردت القوم الساعة ، فان القوم قد صاروا الى شعب بوان (١٨١) ! فنادى المهلب فى أصحابه فركبوا ، وسار يريد القوم ، ونظرت الأزارقة الى غبار الخيل ، فعلموا أنها خيل المهلب ، فتعبأوا للحرب ، واذا قطرى ابن الفجاءة أمام الخيل وهو يرتجز ، ويقول أبياتا مطلعها :

ان شجانا فى الوغى المهلب　　　ذاك الذى سنانه مخضب (١٨٢)

ثم حمل عليه المهلب بنفسه ، والتقيا بطعنتين ، فافترقا بجراحتين • وأطبقت الحرب على الفريقين ، وكان الفضل للازارقة فى أول النهار ،

---

(١٨٠) وهذا البيت أيضا مما انفرد بذكره صاحب الفتوح •

(١٨١) شعب بوان : ثلاثة مواضع بهذا الاسم فى فارس ، والمقصود منها هنا : واد بين فارس وكرمان — ياقوت : معجم البلدان ٥٠٣/١ — ٥٠٥ •

(١٨٢) هذا البيت من مفردات ابن أعثم التى لم يشاركه غيره فى ذكرها •

وللمهلب فى آخره ، حتى انتصف بعضهم من بعض ، فأنشأ المغيرة ابن حبناء التميمى فى ذلك يقول أبياتا مطلعها :

اذا قطرى جاءنى مرجحنة   فشبهه الراءون فى الليل كوكبا (١٨٣)
الى آخرها .

وارتحلت الأزارقة من موضعهم حتى صاروا الى اصطخر ، قال : ونظرت الأزارقة ، واذا خيل المهلب قد وافتهم ، فرجعوا اليه وقد صفوا صفوفهم ، ثم دنا بعضهم من بعض ، وخرج حطان الايادى وكان من فرسان الأزارقة وشجعانهم ، ذا بطش شديد ، لا يراه أحد الا هابه وكره نزاله ، فخرج حتى وقف بين الجمعين ، ثم جعل يرتجز ويقول :

ادعوا بعباس وادعوا سعدا   وابن أبى الزناق ادعوا غمدا
والعتكى اليحمدى جلدا   ما ان أرى من النزال بدا (١٨٤)

فالتفت المهلب الى عباس (عياش) الكندى ، وكان من الأبطال ، فقال له : يا عباس ، شأنك والرجل فانه قد بدأ باسمك . فخرج اليه عباس الكندى ، والتقيا بطعنتين ، طعنه عباس طعنة انكسر رمحه (منها) فى يده ، فبقى عباس بلا رمح ! فقال : يا حطان ، انك رامح ، وقد انكسر رمحى ، فان أردت النصفة فألق رمحك وسابقنى ! فقال له حطان : قد أنصفت يا عباس ! ثم رمى حطان برمحه ، وضرب بيده للسيف ، والتقيا للضراب ، بادره عباس بضربة على بيضته ، فقد

---

(١٨٣) وهذا البيت كذلك لم يروه من أصحاب المصادر بين أيدينا غير ابن أعثم ، والشطر الأول منه غير واضح أو مفهوم .

(١٨٤) وهذان البيتان انفرد بذكرهما صاحب الفتوح — وهؤلاء الأعلام من رجال المهلب ، بعضهم ورد ذكره وهم (عياش الكندى ، وسعد بن نجد ، واليحمدى ، وهم من الأزد) أما ابن أبى الزناق ، وغمد — فمجهولان .

البيضة ، ثم رمى حطان عن فرسه قتيلا ! فأنشأ المغيرة بن حبناء التميمى فى ذلك يقول أبياتا مطلعها :

دعاك شقى للشقاء فوارسا فعاجله دون الفوارس عباس (١٨٥)
الى آخرها .

قال ابن أعثم : وانهزمت الأزارقة الى اصطخر ، وتحصنوا ، وأقبل المهلب فى خيله ورجله ، حتى نزل عليهم ، فحاصرهم بها شهرا كاملا ، فلما كان بعد شهر خرجوا اليه ، وعزموا على المناجزة ، ونظر المهلب اليهم ، والى ما قد أعدوا له من آلة الحرب ، فقال لأصحابه : أيها الناس ، ان البادىء بالقتال مغلوب ، والمضطر معذور ، ومن وطىء فى ذاره فقد ذل ، ومن صبر ظفر ، وقد تكون البلايا بالذنوب فانظروا كيف يكون صبركم اليوم !؟ ودنا القوم بعضهم من بعض ، وأقبل عبيدة ابن هلال ، وعمرو القنا ، حتى نزلا ووقفا على تل مشرف على عسكر المهلب ، ثم رفع عمرو القنا صوته وهو يقول :

كفى حزنا انا ثلاثون ليلة قريب وأعداء القران على خفض (١٨٦)
وما هكذا انا نكون وهذه أضاقت على عمرو القنا سعة الأرض؟
وأحسبهم أمسوا على حذو نعلنا
فذاك بذاك القوم بعض على بعض (١٨٧)

ثم انحط عمرو القنا عن التل على أصحاب المهلب كأنه باز خطوف ، وهو يرتجز ويقول شعرا ، ثم انقض عبيدة بن هلال من التل كأنه الفحل

---

(١٨٥) كذلك انفرد ابن أعثم بذكر هذا البيت . وصدر البيت هكذا غير دقيق المعنى ، ولعل فيه تحريفا ، وصوابه أن يقول :
دعاك شقى للشقا وفوارسا فعاجله دون الفوارس عباس
وانظر الفتوح ٣٢/٧ — ٣٥ .

(١٨٦) رواية المبرد لهذا البيت هكذا :
الم تر انا مذ ثلاثون ليلة قريب وأعداء الكتاب على خفض
الكامل ٣٨٣/٣ .

(١٨٧) انفرد ابن أعثم برواية هذين البيتين .

القطم ، وهو يرتجز ويقول شعرا •• فالتفت المهلب الى ابن أخ له،يقالله بشر [١٨٨] • فقال له : يا ابن أخى ، أحب أن تكفينى أمر عبيدة بن هلال وعمرو القنا جميعـا ! ؟ فقال بشر : أفعل — أصلح الله الأمير — ثم خرج بشر بن أخى المهلب ، نحوهم وهو يرتجز ويقول شعرا • ثـم حمل بشر بن أخى المهلب على عبيدة بن هلال فطعنه طعنة فاذا عبيدة فى الأرض فحماه أصحابه ، وحمـل عمرو القنـا على بشر ، فالتقيـا بضربتين ، ضربه بشر فى وجهه ، فرده الى ورائه ، ثـم وقف فى ميدان الحرب ، وجعل يقول أبياتا مطلعهـا :

وكأنى مليك اذ سـطع النقـ ـع وحولى من الرماح عوالى [١٨٩]

الى آخرهـا •

قال : وتعاظم الأمـر بين الفريقين فاقتتلوا قتالا شديدا ، وجعل قطرى بن الفجاءة ينادى بأعلى صوته ويرتجـز ويقـول أبياتـا مطلعهـا :

سبحـان ربى باعث العبـاد سبحان ربى حـاكم المعـاد [١٩٠]

---

(١٨٨) قال ناشر الكتاب فى الحاشية رقم ١ ص ٣٧ ج ٧ من الفتوح : ... وما وجدناه فى جمهرة أنساب العرب ص ٣٤٨ ، حيث ذكر فيه ابن حزم أولاد أبى صفرة وأولادهم » وليس هذا دقيقا ، فقد ذكر ابن حزم أولاد أبى صفرة حقا ، ولكنه لم يستقص ذكر أولادهم ، لأنه اهتم بأولاد المشهور منهم وهو المهلب ، واختار ذكر بعض أولاد ثلاثة من أبناء أبى صفرة فحسـب ، ولم يتعرض للباقين وهم ثلاثة ومنهم المغيرة بن أبى صفرة ، الذى هو والد بشر هذا — وراجع جمهرة ابن حزم ص ٣٦٨ ، وكامل المبرد ٣/٣٨٩ .

(١٨٩) انفرد ابن أعثم دون سائر المصادر التى بين أيدينا بهذا البيت .

(١٩٠) وكذلك انفرد ابن أعثم بهذا الذى يسميه شعرا . ولكنه نسى هذه المرة أن يقول « الى آخرها » لأن قطريا لم يقل شيئا من ذلك ، بـل هو من شعراء العصر وحكمائهم المعدودين ؟! .

وثار النقع ، وسطع الغبار ، وكلبت القوم بعضهم على بعض ، وضرب يومئذ المهلب على جبهته ضربة منكرة حتى كاد أن يسقط منهـا عن فرســة وتسايلت الدماء على وجهه ولحيته ، فأنشأ كعب بن معدان الأشقرى فى ذلك يقول أبياتا مطلعهـا :

خلص القتـال الى المهلب بعدما — منع الذمار وليس فينا مانع [(١٩١)]

الى آخرها .

وانكشفت الأزارقة من بين يدى المهلب ، مفضوحين ، وقـد قتل منهم نيف عن ثلاثين رجـلا .

فلما كان من الغد زحف القوم بعضهم الى بعض ، وأقبل المهلب على أصحابه ، فقال : أيهـا الناس ، ان كل من فى عسكرى فهولى ، ألا انى أحبكم ، وأحب ما (من) الى أهل النجدة ، فانظروا من كـان يحب منكم أحدا منهم ، فانى أعفيه عن صحبته رجلا من ولدى حتى أجعله فى صحبته . قال : فوثب فتى من أهل الكوفة ، يقـال له : مالك ابن أبى حبان الأسدى فقال : أيهـا الأمير ، اسمع عنى ما أقـول : فقال المهلب : قل ما بدا لك ، فأنشأ وجعل يقول :

اجعلنى مـع الحـرون كـأنى

فارس الناس فى عجاج الحرون [(١٩٢)]

فاذا قادنى سـواه فـانى — لا أساوى عقال بان زبـون

كلنـا نطلب الحرون ومـا من — كان يهوى الحرون بالمغبـون

قد حمـا الركبـان منا جميعـا — وحمانا بقرية الزيتـون

اذ أتانا عبيدة بن هـلال — يقدم القوم فى دموك طحـون

---

(١٩١) وهذا بيت مفرد أيضا ، لم نجد له ذكرا فى المصادر التى بين أيدينا .

(١٩٢) يقصد بالحرون : حبيب بن المهلب ، وكان الحرون لقبا له ، وقـد سبق تفسير ذلك .

وأتانا عمرو القنـا بلـــــواء   مزبدا فى العجــاج كالمجنـــون
فدعــاه المهلب بن أبى صفـــــ   ـرة ليس الحرون كالمأفـــــون
فكفـــــاه مـا همـــــه وأتـــــاه
بعد ضيق الخنـــــاق بالتهوين (١٩٣)

فالتفت المهلب الى ابنه حبيب فقال : يابنى ، خذ هذا الفتى اليك ، واعتقده ، واحتفظ به فانه يحبك ، وأحرى أن ينفعك وقت حاجتك اليه •

وتقدم عبيدة بن هلال أمام الأزارقة ، فجعل يرتجز ، ويقول :

حتى متى يقتلنــــا المغيرة   ومـــدرك فيكم لـــه عفيره
أصغركم وحدكم كبيرة (١٩٤)

ثم حمل على خيل المهلب ، وطاعن ساعة ورجع الى عسكره • وتقدم رجل من الأزارقة يقال له : مالك ابن قرير الطائى ، حتى وقف بين الجمعين ، فجعل يرتجز ويقول شعرا • فما لبث أن خرج اليه فتى من أصحاب المهلب ، يكنى أبا الدرياق وكان شجاعا — فحمـــل عليه فطعنه طعنه قتلـــه ، فأنشـــأ رجـــل من أصـــحاب المهلب يقـــول فى ذلـــك أبياتا مطلعهـــا :

سأل النزال فتى الأزارق مالك   فأجاب دعوته أبو الدرياق (١٩٥)
الى آخرهـــا •

---

(١٩٣) الشـعر وقائله المجهول مما انفرد بذكرهما فتوح ابن أعثم الكوفى.

(١٩٤) وهذا الرجز أيضا لم نجده فى مصادرنا ، غير أن الدينورى ذكر ثلاثة أجزاء أخرى من الرجز لأحد الخوارج وهى :

حتى متى يتبعنا المهلب   ليس لنا فى الأرض منه مهرب
ولا السماء ، أين أين المذهب

الأخبار الطوال ص ٢٧٦

(١٩٥) مالك بن قرير ، وأبو الدرياق ، وهـــذا البيت : كل ذلك من مفردات ابن أعثم التى لم نعثر عليها فى سائر المصادر !

قال : وأقبل رجل من الأزارقة ، يقال له عطية بن الأسود الحنفى ، الى قطرى بن الفجاءة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أريــد أن توليني قتال المهلب وبنيه فى هــذا اليوم ! فقال قطرى بن الفجاءة : قــد فعلت ذلك • فنادى عطية بن الأسود فى فرســان الأزارقــة ، فلم يبق منهم فارس مذكور الا صار اليه ، فدنا عطية بن الأســود ، حتى وقف بين الجمعين فى قتال الأزارقة وشجعانه [١٩٦] • والتفت المهلب الى ابنه يزيــد ، فقال : يابنى ، هــذا عطية بن الأسود قــد أقبل فى فرسان الأزارقــة ، فاخرج اليه فى اخوانك الذين تثق بهم فى الاقدام على المكروه • فنادى يزيــد بن المهلب فى فرسان الأزد ، فاجتمعوا اليه من كل أوب ! فقال لهم : اعلموا أنه من تخلف عنى فى وقت حاجتى اليه ، محوت اسمه من الديوان • فقال أصحابه : أبا خالد ، انظــر ان تخلف مناعنك أحــد فاضرب عنقه ! فدنا يزيد بن المهلب فى أصحابه ، ودنا عطية بن الأسود فى أصحابه • وتقــدم فتى من بنى ضبة من الأزارقــة ، فجعل يقول شعرا ! •

ثم حمل الضبى على يزيــد بن المهلب ، فضربه فلم يصنع شيئا ، وضربه يزيــد ضربة لم يتمكن منه كمــا يريــد فسقط الضبى الى الأرض ، فأخذه يزيــد أسيرا ، فلمــا رآه غلاما شابا ، استحيى أن يقتله ، فقال له : الحق بأهلك ، ما كنت بالذى أقتــل مثلك ! •

ثم تقدم عطية بن الأسود حتى وقف بين الجمعين [١٩٧] ، وطلب البراز ، فذهب يزيــد بن المهلب ، ليخرج اليه ، فتقــدم رجــل من أصحابه ، فأخــذ بلجام فرسه ، فقال : أبا خالد ، لا تخــرج اليه ، فانه من الأبطال المعدودين فى الأزارقــة ! فغضب يزيــد بن المهلب ثم قال : أطلق — ويلك — لجام الفرس ، والاهممتك بالســيف فتنحى

---

(١٩٦) يبدو أن فى العبارة تحريفا جعلها غير واضحة ولا مطابقة للســياق .

(١٩٧) سبق أن أوقفه ابن أعثم بين الجمعين فى الصفحة السابقة .

الرجل ، وحمل يزيد بن المهلب على عطية بن الأسود ، فالتقيا بضربتين ، وضربه يزيد ضربة على بيضته فصرعه عن فرسه ، وهم أن يضربه أخرى ، غير أنه اشتغل بغيره ، فوثب عطية بعده حتى اختلط بالقوم ، فاقتتلوا يومهم ذلك الى الليل • فلما اختلط القوم، انهزمت الأزارقة ، وقد قتل منهم جماعة ، فأنشأ رجل من بنى أسد فى ذلك يقول أبياتا مطلعها :

أتانا عطية فى خيله فقال المهلب نادوا يزيدا (١٩٨)

قال ابن أعثم : فأقام القوم أياما متحاجزين ، قد كف بعضهم عن بعض • واذا قوم من الأزارقة قد أقبلوا الى سرح المهلب ، فاستاقوا منه نيفا على ثلاثمائة رأس ! فصاح المهلب بابنه مدرك ، فقال : يابنى ، ان السرح قد ذهب بعضه ، وانما نحن بالله ثم بالسرح ، فالحق بالقوم • فنادى مدرك فى فرسان الأزد ، فركبوا ، وركب مدرك فى خيله نحو السرح حتى لحقه ، واذا رجل من الأزارقة يسوق السرح وهو يرتجز ويقول شعرا ! فلم يشعر الأزارقة الا ومدرك بن المهلب قد وافاهم فى خيله ! فلما نظروا اليه رجعوا اليه ، فجعل رجل منهم يرتجز ويقول :

أكل يوم يبعث المهلب خيلا عليه من بنيه أغلب
ليس لنا فى الأرض منه مهرب لا شىء الا الموت والا فاهربوا

فحمل عليهم مدرك بن المهلب فى خيله ، فقتل منهم من قتل ، واستنقذ السرح ، وانهزمت الأزارقة ، وتركوا عامة أموالهم ، فرجع مدرك بالسلاح وأسلاب القوم الى العسكر • فقال له المهلب : ما فعلت يا بنى ؟ فقال : استنقذت السرح ، وجئت بعامة أسلاب القوم • فقال : ولم فاتك أحد منهم لم تقتله ؟ فقال أصلح الله الأمير ! لقد قاتلت

---

(١٩٨) هذا البيت المجهول القائل مما لم يذكره احد المصادر التى بين أيدينا سوى ابن أعثم •

القوم أشـــد القتال ، ولولا ذلك لما قدرت على السرح ! فقـــال المهلب : هيهـــات يابنى ! كل أمرىء (أمر) لا أليه بنفسى فهو ضـــائع ! فقال له رجل من أصحابه : أصلح الله الأمير ، لئن كنت لا تريـــد من الرجـــال الا مثلك ، فلا والله مافينا من يســـاوى شسع نعلك !! ؟ ثـــم أنشـــأ ذلك الرجل يقول أبياتا مطلعهـــا :

قل للمهلب والسياسة كاسمه   ان كنت تطلب للسياسة مثلكا ؟! (١٩٩)

الى آخرهـــا .

---

(١٩٩) أين جواب الشرط فى قوله « ان كنت تطلب للسياسة مثلكا ؟ » ؟ والقصة فى الفتوح ٤١/٧ — ٤٢ ، ولقد وردت هذه القصة فى الكامل للمبرد ٣٨٤/٣ — ٣٨٥ ، على نحو مختلف تماما ، وخير وسيلة لمعرفة مدى الفرق بين الروايتين أن نورد نص المبرد ، ثم تجرى المقارنة التلقائية ، فيتضـــح لك بغير عناء ما يصنعه ابن أعثم بالتاريخ من تلاعب وتغيير مشوه الى حد كبير !

قال أبو العباس المبرد — الذى نعتقد أن ابن أعثم قد نقل عنه هذه القصة بغير أمانة — : « وقال المهلب لبنيه : ان سرحكم لغار ، ولست آمنهم عليه ، أفوكلتم به أحدا ؟ قالوا : لا ، فلم يستتم الكلام حتى أتاه آت فقال : ان صالح بن مخراق قد أغار على السرح ! فشق ذلك على المهلب ، وقال : كل أمر لا أليه بنفسى فهو ضائع ! وتذمر عليهم . فقال له بشر بن المغيرة (وهو ابن أخيه) : أرح نفسك ، فان كنت انما تريد مثلك ، فوالله لا يعدل أحدنا شسع نعلك (وشسع النعل هو السير الذى يمسكها بأصابع القدم) ، فقال : خذوا عليهم الطريق ، فثار بشر بن المغيرة ، ومدرك والمفضل ابنا المهلب ، فسبق بشر الى الطريق ، فاذا رجل أسود من الأزارقة يشل السرح أى يطرده وهو يقول :

نحن قمعناكم بشـــل السرح   وقد نكأنا القرح بعد القرح

(والقمع : القهر والغلبة) قال المبرد : الشل : الطرد ... ولحقه المفضل ومدرك ، فصاحا برجل من طيىء : اكفنا الأسود فاعتوره الطائى وبشر بن المغيرة فقتلاه ، وأسرا رجلا من الأزارقة . فقال المهلب : ممن الرجل ؟ قال : رجل من همدان . قال : انك لشين همدان ! وخلى سبيله » .

=

قال ابن أعثم : فبينـــا المهلب نازل على باب اصطخر ، محاصرا للأزارقة ، اذ خرجوا فى جوف الليل يريدون الهرب منها الى المدينة البيضـــاء (٢٠٠) . وذلك أنهم قـــد أكلوا جميـــع ما كـــان بمدينـــة اصطخر ، فخرجوا عنهـــا هاربين واتصـــل الخبر بالمهلب ، فنادى فى أصحابه أن اركبوا ! ثـــم تبعهم . قال : والتفتت الأزارقـــة الى خيل المهلب قد وافتهم ، فرجعوا اليه ، وعزموا على الموت ، فتقـــدم ، عبيدة ابن هلال ، وحسر عن رأسه وهو يرتجز ويقول :

حتى متى يتبعنـــا المهلـــــــب كأنه فى اثر صحبى كوكب (٢٠١)

= وهكذا ترى أنه شتان بين قصص الفتوح ، وتاريخ يرد فى مصـــدر مبكر يعتنى صاحبه بصدق القول وامانة النقل عن المصدر الذى يستمد منه التاريخ كما وقعت حوادثه ! ونحن نشير فقط الى ما استحدثه ابن أعثم فى هذا الخبر ، ولم يكن فيه عند المبرد : فقد ذكر عددا لم يكن فى النص الأقدم « فاستاقوا نيفا على ثلاثمائة رأس » . وتقول على المهلب ما لم يقله « ان السرح قد ذهب بعضه ، وانما نحن بالله ثم بالسرح » . بينما حذف ما قاله المهلب أول الأمر وهو مهم جدا « ان سرحكم لغار ولست آمنهم عليه ، أفوكلتم به أحدا ؟ » . ثم ادعى على مدرك أنه « نادى فى فرســـان الأزد فركبوا وركب مدرك فى خيله نحو السرح » . اغفل اسم صالح بن مخراق ، ادعى شعرا على لسان الأسود الأزرقى لم يقله ، وتجاهل البيت الذى ورد فى نص المبرد . أنكر ذكر كل من بشر بن المغيرة والمفضل بن المهلب ، وذكر مدركا فحسب ، قال « وانهزمت الأزارقة وتركوا عامة أموالهم فرجع مدرك بالسلاح وأسلاب القوم » ولم يكن هناك الا قتيل واحد وأسير واحد ، فأين اذا عامة الأموال والسلاح والأسلاب ؟ . زعم أن المهلب لم يعجبه ذلك وسأل مدركا : ولم فاتك أحـــد منهم لم تقتله ؟ بينما أطلق سراح الأســـير الوحيد « الهمدانى » فى النص الأصلى ! ثم أخيرا ادعى بيتا مبتور المعنى على لسان أحد اصحاب المهلب ليختم به هزله وزيفه لهذا الخبر التاريخى ! .

(٢٠٠) البيضاء : أكبر مدينة فى كورة اصطخر . ياقوت : معجم البلدان ٥٢٩/١ . ولم يذكر ياقوت شيئا عن الأزارقة وهو يتحدث عنها وعن تاريخها ورجالها . مما يؤكد أن لا علاقة لها بهم الا عند ابن أعثم وحده فقط .

(٢٠١) ورد المصراع الأول بنصه ، ولم يرد الثانى فى الأخبار الطوال للدينورى ص ٢٧٦ .

في كل يـــوم معزبـــات شزب　　فرسانهـــا من حنق تلتهب (٢٠٢)
ليس لنا في الأرض منهم مهرب　　ولا السماء أين أين المهرب (٢٠٣)

فحمل عليه بشر بن أخي المهلب ، فطعنه طعنة سقط (بها) عبيدة عن فرســـه مفضوحا ، فأنشأ بشر يقول في ذلك أبياتا مطلعها :

يامليك ابنة الملوك ســـلي بي　　وبطعني عبيدة بن هلال (٢٠٤)
الى آخرهـــــا .

وصـــاح صالح بن مخراق : يا معشر المهاجرين ، موتوا على دينكم وولوني قتال القوم ! ثم تقدم صـــالح أمام القوم ، وجعل ينادي : يا معشر المحلين ، بشر لبشر ، ونفر لنفـــر ، والله لا برحت (حتى) أموت أو تموتوا ! فالتفت المهلب الى ابنه المفضـــل ، فقال : أبا غسان ، شأنك والرجل ، فاخرج اليه في أصحابك ، فانه قد خرج في أصحـــابه ، فان عجل فتأن ، وان أمســـك فتقـــدم ! فخرج المفضـــــل بن المهلب في خيله ، حتى وقف قبالة صـــالح بن مخراق ، ثـــم قال : أنا أبو غسان فاثبت يا ابن مخراق ! ثـــم عطف عليه المفضـــل ، والتقيا بضربتين ضربه المفضـــل ، (ف) انفلت منهـــا صـــالح بن مخراق ـــ وهو يولول ـــ فناداه المفضـــل الى أين يا ابن مخراق ؟ ان كنت صادقـــا فاثبت ! فلم يجبه صـــالح الى شيء ، واشتغل بمـــا قد نزل به من الضربة . واشتد القتال ، وجعلت الأزارقـــة كلما مل منهم قوم من القتـــال تأخروا

---

(٢٠٢) هذا البيت انفرد به ابن أعثم ، وهو مختل ، ولعل في كلمة « تلتهب » تحريفا وصـــوابها « تلهب » ، والمعزبات الشزب هي الخيل المضمرة ، يقودها ويركبها فرسان متعطشون لضرب أعدائهم والنيل منهم .

(٢٠٣) ورد هذا البيت في المصدر السابق والصفحة هكذا :
ليس لنا في الأرض منه مهرب　　ولا السماء أين أين المذهب

(٢٠٤) البيت من مفردات ابن أعثم ، ولا ندري من مليك ابنة الملوك هـــذه ؟

وتقدم آخرون ، فقال المهلب : سبحان الله العظيم ! والله ما رأيت ولا سمعت بمثل هؤلاء القوم ساعة قط ! كان كل ما ينقص منهم أن يزيد فيهم ! ؟ فقال المفضل : نعم والله ــ أصلح الله الأمير ــ وأعجب من ذلك أنى كلما قلت : ملوا من الحرب ، قد عادوا حتى كأنهم لم يفعلوا شيئا ! فقال المهلب : هكذا الرجال يابنى ، أما والله أن لولا الكتاب المؤجل اذن لأبادونا أو أبدناهم (٢٠٥) .

قال ابن أعثم : وضجرت الأزارقة ، وملوا من الطعن والضرب ، فولوا مدبرين نحو المدينة البيضاء . فقال المهلب لأصحابه : لا تتبعوهم ! فوالله ما انصرفوا حتى انتصفوا منا ، وانتصفنا منهم . فأنشأ المغيرة ابن حبناء التميمى فى ذلك يقول أبياتا مطلعها :

أتى ابن مخراق ليقضى نذره   وكان اذا ما قال أفعل تفعلوا (٢٠٦)

الى آخرها .

وأقبل المهلب حتى نزل على مدينة البيضاء ، والأزارقة مجتمعون بها ، فنزل عليها وحاصرهم ، وضيق عليهم غاية الضيق (التضييق) فلما رأوا ذلك خرجوا اليه كالسباع الضارية ، وجعل رجل منهم ينادى : يا معشر المحلين ! حتى متى نفر منكم ؟ هذا يوم نموت فيه جميعا !

---

(٢٠٥) من الأمثلة البينة التى تؤكد أن ابن أعثم الكوفى يتدخل فى النصوص التاريخية بصورة مكشوفة تخرجها عن وجهها وحقيقتها : ذلك الحوار عن تصميم الخوارج على القتال بين المهلب وبين ابنه المفضل ، فهو لا أصل له فى المصدر الذى نعتقد أن ابن أعثم قد نقل عنه وهو المبرد فى الكامل ٣/٣٨٥ ، وانما الذى جاء فيه ، ونسج عليه صاحب الفتوح هذا الكلام قوله فحسب : « وقال المهلب : ما رأيت كهؤلاء كلما ينقص منهم يزيد فيهم ! » .

(٢٠٦) هذا البيت من مفردات ابن أعثم التى لم ترد فى سائر المصادر التى بين أيدينا .

وتقـدم عمرو القنا ، حتى وقف بين الجمعين وجعـل ينادى : أين أبو غسان ؟ أين المفضل بن المهلب ؟ فمـا لبث أن خرج اليه المفضـل وبين يديه رجل من الأزد يحرضه على حرب القوم وهـو يقول أبياتـا مطلعهـا :

أقـدم فدتك النفس يا مفضـل فأنت من اخوتك المبجـل ! (٢٠٧)

الى آخرهـا

فحمل عليه عمرو القنا ، وفى يده لواء الأزارقة ، وحمـل عليـه المفضل ، فطعنه فى صدره طعنة ، فأوهنه حتى سقط اللواء من يـده ، فأخذ أصحاب المفضـل اللواء من عمرو ، ومر عمرو مجروحـا لما به ، فأنشأ المغيرة بن حبناء للتميمى يقول فى ذلك أبياتا مطلعهـا :

يا عمرو لا تلقى المفضل بعدها بلواء قومك اذ سلبت لواءكا (٢٠٨)

الى آخرهـا .

وأقبلت الأزارقـة على عمرو القنا ، فقالوا : يا عمرو ، انه قـد أخذ منك اللواء ، ورجع بغيرك (ورجعت بغيره) ، ألا تعلم أنه عـار عليك وعلى عشيرتك ! فرجـع عمرو القنا الى الحرب ثانيـة ، واشتبك القتال بين الفريقين ، وحمـل عمرو القنا على رجل من أصحاب المفضل، قد كان اللواء فى يده يأخذه منه ، وحمـل عليه المفضـل ، فضربه ضربة،

---

(٢٠٧) وهذا البيت أيضا ما وجدناه فى سائر المصادر التى بين أيدينا . ولعل ابن أعثم قد اخطأ فى مدح المفضل فعاب سائر اخوته ، اذ جعله الوحيد بين اخوته المبجل ، أما بقيتهم فليسوا كذلك ! ومن كثر لغطه زاد غلطه ..

(٢٠٨) ينطوى هذا البيت ـ الذى لم نعثر عليه فى قائمة مصـادرنا ـ على خطأين بينين ، الأول : نحوى ، حيث لم يحذف حرف العلة من الفعل المجزوم بلا الناهية « تلقى » ، والثانى : عروضى ، اذ يختل الوزن بوجود الهمزة فى لواء كا ، وينبغى حذفها .

ثم قال خذهـا يا عمرو ، أنا الغلام الأزدى ! فولى عمرو القنـا منهزماً هو وأصحابه ، حتى دخلوا مدينة البيضاء ، وذلك فى وقت المساء . فقال المهلب لابنه المفضـل : ادن منى يا بنى : هكذا فكن كمـا كان آباؤك من قبل ! فأنشأ الأشرس الحرمى فى ذلك يقول أبياتا مطلعهـا :

قل للمفضـل قد شفيت نفوسنا   يوم التقى الجمعان بالبيضاء (٢٠٩)

الى آخرهـا .

---

(٢٠٩) الفتوح ٤٢/٧ — ٤٦ — وهذا البيت اليتيم مثل سائر الأبيات المفردة التى سبقته فى الصفحات الماضيات من النصوص التى تفرد بها ابن أعثم دون سائر المصادر التى بين أيدينا . وكذلك قائل هذا البيت الذى سماه ابن أعثم : الأشرس الحرمى — مجهول لا ذكر له فى معاجم الرجال . والأقرب الى الظن أن هذه الأشعار — ومن بينها الأبيات التى نسبها الى شعراء معروفين ولم تصح نسبتها اليهم — منحولة ، وهى من نظم ابن أعثم نفسه ! وتلك ظاهرة فاشية فى تأريخه للأزارقـة فشوا مفسدا للغاية .

وظاهرة أخرى تضع يدك على تدخله وتزيده وتلاعبه فيما يرويه من تاريخ هؤلاء القوم ، وهى أنه عمد الى ما كان بين المهلب وبين الحجاج من علاقة عادية جدا بين رئيس جاد نشط يسعى الى الانجاز العاجل والحسم السريع ، فى حل المشكلات والقضاء على المخاطر التى يتعرض لها عمله ، وذلكم هو الحجاج بن يوسف — أمير العراقين — الذى كان مسئولا مباشرا عن تأمين العراق وما يليه شرقا من البلاد ، والمهلب بن أبى صفرة ذاكم القائد المحنك المجرب ، الذى عرف حقيقة خصمه العنيد القوى المستميت — وهم الأزارقة — فهو رجل مكيث ، يدرس كل خطوة قبل أن يقدم عليها ، ويرتب لكل بادرة قبل اقتحامها ، ويتحلى بصبر ومصابرة حتى يجد فرصته الملائمة فلا يتردد لحظتها فى الانقضـاض وتوجيه الضربة الواثقة ، وكان الحجاج بطبعه وبحكم ظروف وأوضاع ولايته لا يطيق ذلك من المهلب ! فلذلك وجه اليه الكتاب تلو الآخر ، والرجل بعد الرجل يحثه على مناجزة القوم والقضاء عليهم ، ويجيبه المهلب بالجواب الذى لا يكذب ، فيسلم له الحجاج ويرضى عنه ..

نقول : ان ابن أعثم الكوفى قد عمد — فى خضم ذلك — الى ادعاء كتب أرسلها الحجاج ، لم تصح ، ولم يذكرها أحد من المؤرخين سواه ، مثل

ثم توقف ابن أعثم قليلا عن رواية أخبار الأزارقة ليفسح المجال لذكر قصة طريفة تنطوى على سخرية بالحجاج بن يوسف ، بما تتضمنه من مغزى واضح ، وهو أنه على الرغم من قسوة الحجاج وشدته فى تعقب الخارجين على سلطان الدولة فى أنحاء ولايته ، فان أحد الأزارقة قد خدع الحجاج وغشه حين اختلط به فترة ، حتى أصبح سميره الذى يأنس اليه ويطمئن الى حديثه المعجب ، ويعجبه فيه ذكاؤه واحاطته بالعلوم المختلفة ، وحفظه لأشعار العرب وأمثالهم ، لذلك كله ، اجرى الحجاج عليه رزقا ! وظل الرجل أياما يكتم حقيقته ، ولا يكتشف الحجاج — وهو من هو ! — أن الرجل من أخطر أعدائه ،

=

الكتاب الذى زعم أن الحجاج كتب اليه يقول فيه : « انه قد جعل له الشرط الأول ، وأن له خراج ما غلب عليه من البلاد الى أن يقضى حرب الأزارقة » الفتوح ١٥/٧ . ورتب على ذلك أن المهلب كان يرسل الأموال الى قومه من العتيك !؟ والكتاب الآخر الذى أرسل اليه فيه : يعيره بأنه مزونى وابن مزونى ، ثم يهدده بالمكروه يأتيه من قبله ان لم يجتهد فى قتال الأزارقة — فتوح ٢١/٧ — فما كان من المهلب الا أن بادله الصاع صاعين وأفحش له فى القول كما قال ابن أعثم ! وفى بقية الكتب التى ورد ذكرها فى بعض المصادر الأخرى لم يتفق صاحب الفتوح مع أصحاب تلك التواريخ فى نصوصها ، بل امتدت يده اليها فغير وبدل ، ونقص وزاد ، وكذلك الشأن فى نتائج تلك الكتب ورد فعلها لدى المهلب وأبنائه ..

وثمة ملاحظة أخرى ذات مغزى خاص — فى هذه المرحلة من قتال الأزارقة ، وهى تلك التى بدأت بولاية الحجاج العراقين — وهى أنه أغفل الحديث عن الدور الذى لعبه أهل الكوفة مع المهلب تحت قيادة عبد الرحمن ابن مخنف الأزدى ثم بعده تحت قيادة عتاب بن ورقاء الرياحى اليربوعى ، الى أن استدعاه الحجاج ليكون فى وجه شبيب الخارجى بالكوفة عام ٧٧هـ ، حيث قتله شبيب فى ذات العام . وهذا الدور من الأهمية بحيث ان المهلب لم لم يكن ليستطيع الاستغناء عنهم ، والخوارج يومئذ فى قمة حركتهم وشدة نشاطهم ، وقوة عددهم وعدتهم .. وقد كان من رحمة الله سبحانه بالمهلب ورجاله أن الخلاف قد دب بين الأزارقة عقب ذلك ، فذهبت ريحهم ، وتلاشت قوتهم ، وضاعت هيبتهم من القلوب ..

الا بعد أن اختفى سبرة بن الجعد الشيبانى — وهذا هو اسمه — وركب فرسه وانطلق فلحق باخوانه من الأزارقة ، وكتب الى الحجاج شعرا طويلا ، يخبره فيه بأمره ، وبالخديعة الكبرى التى كان الحجاج بنفسه ضحيتها ! حتى ان الحجاج جعل يعض أنامله ويتأسف على ما فاته من قتله !!(٢١٠) .

قال ابن أعثم :

ثم رجعنا الى أخبار الأزارقة »

وأصبحت الأزارقة ذات يوم ، فخرجوا عن مدينة البيضاء الى حرب المهلب وأصحابه ، فى تعبئة لم ير مثلها قبل ذلك ، وزحفوا حتى جعلوا مدينة البيضاء من ورائهم ، وتقدم رجل منهم من بنى ضبة ، يقال له : زياد ، فجعل ينادى : يا معشر المحلين ، هل من مبارز ؟ فصاح المهلب برجل يقال له : الرقاد بن عمرو (٢١١) ، فقال له : يارقاد ، اكفنا هذا الفارس . فقال : أفعل ، أصلح الله الأمير ، ولو أمرتنى بالبراز الى من هو أعظم خطرا منه ! ثم حمل الرقاد بن عمرو على زياد الضبى ، فطعنه طعنة خر منها قتيلاً ! ونظرت الأزارقة الى زياد الضبى قد سقط ، فضجوا بالبكاء ، ثم انهم استماتوا فجعلوا يقاتلون أشد القتال ، الى أن اختلط الظلام ، ثم تحاجز الفريقان

---

(٢١٠) الفتوح ٤٦/٧ — ٥١ . وانظر المسعودى : مروج الذهب ١٤٣/٣ — ١٤٥ . وابن خلكان : وفيات الأعيان (ترجمة الحجاج) ٣٦/٢ — ٣٧ .

(٢١١) قال الطبرى (تاريخ ٣٠١/٦ ، ٣٧١) : وكان الرقاد بن زياد ابن همام (رجل من العتيك) كريما على المهلب — قتل أيام فتنة ابن الأشعث عام ٨٣هـ . ووصفه المبرد فقال : رجل طويل أجنأ (يعنى فى ظهره ميل) ، فقال المهلب للحجاج : هذا فارس العرب . فقال الرقاد : أيها الأمير ، انى كنت أقاتل مع غير المهلب ، فكنت كبعض الناس ، فلما صرت مع من يلزمنى ويجعلنى أسوة نفسه وولده ويجازينى على البلاء ، صرت أنا وأصحابى فرسانا — الكامل ٤٠٩/٣ .

وقـــد انتصف منهم خيل المهلب ، فأنشأ كعب بن معدان الأشقرى يقول فى ذلك أبياتا مطلعهـــا :

ولما بدت خيل تنـــادى بأن الصـــياح للأعادى [٢١٢]

الى آخرها .

ثم أورد ابن أعثم « خبر الجاريتين ابنتى تبع الحميرى ، وخبر محمد بن يوسف أخى الحجاج ، وخبر السيف ، وهـــذا داخل فى حديث الأزارقة » [٢١٣] .

« ذكر اختلاف الخوارج وتشتيت أمرهم »

قال ابن أعثم : ووقـــع الخلاف بين الأزارقة ، فاختلفوا ، فصاروا على ثلاث فرق : فرقـــة مـــع صاحبهم قطرى بن الفجاءة ، وفرقة مع عبد ربه الكبير ، وفرقة مع عبد ربه الصغير . وتشتتت أمورهم ، واختلفت كلمتهم ، فأنشأ رجل منهم يقـــول فى ذلك أبياتا مطلعهـــا :

كفى حزنا أن الخوارج أصبحوا قد انشتتت نياتهم فتصدعوا [٢١٤]

الى آخرهـــا .

وبلغ المهلب ما هم فيه من التشتيت والاختلاف ، فقال لأصحابه : أبشروا ! فهـــذا الذى كنت أرجـــو من هؤلاء الخوارج ، وقـــد أذن الله فى هلاكهم وبوارهم ..

---

(٢١٢) هذه الكليمات التى يسميها ابن أعثم شعرا ، وهى ليســـت كذلك ! لم نعثر لها على ذكر فى مصادرنا جميعا !

(٢١٣) أوردنا هذا الخبر بتمامه ، وعلقنا عليه فى الفصـــل الرابع ص ٣١٤ وما يليها تحت عنوان « كشف أثرى مثير » .

(٢١٤) قد انفرد ابن أعثم بذكر هذا البيت المجهول القائل دون سائر مصادرنا فى البحث .

ثم وثب رجل منهم ، يقال له : الصلت بن مــرة الايادى ، الى قطرى بن الفجاءة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، اننا كنـــا مــرة أفاعى ، فأصبحنـــا اليوم خنافس ، وقـــد كنا أسودا ، فأصبحنـــا ضباعا ! وقد أصبح المهلب يرجو منا ما كنا نرجو منه ، وقـــد بلغنى أنك تريـــد الهرب ، فان كنت انما تريـــد الله والدار الآخـــرة ، فاثبت ومت حتى نموت معك ، والا ، فـــدع أصحابك حتى يستأمنوا الى المهلب ، فانه يؤمنهم ، ثـــم أنشأ يقول أبياتا مطلعهـــا :

أبقى لنا عبد رب بعد ألفتنا   طعن الصدور فصرنا ضحكة العرب[٢١٥]

الى آخرهـــا .

فلما سمع قطرى بن الفجاءة هذه الأبيات ، استعبر باكيا ، ووطن نفســـه على الموت ، ونادى فيمن أجابه من الأزارقـــة ، وزحف الى المهلب وأصحابه ، ودنا القوم بعضهم من بعض ، وتقـــدم قطرى أمام الخيل وهو يرتجز ويقـــول شعرا . فما لبث قطرى بن الفجـــاءة أن خرج اليه المهلب بنفسه ، وهو يرتجز ويقـــول :

ياقطرى أين أين المهـــــــرب   لا أين منـــــك والفتى المهلب

---

(٢١٥) قال أبو العباس المبرد : فقال له (لقطرى) الصلت بن مرة : يا أمير المؤمنين ، ان كنت انما تريد الله ، فأقدم على القوم ، وان كنت انما تريد الدنيا ، فأعلم أصحابك ، حتى يستأمنوا ، وانشأ الصلت يقول :

قـــل للمحلين قـــد قـــرت عيونكم   بفرقة القوم والبغضـــاء والهرب
كنـــا أناســـا عـــلى دين فغيرنا   طول الجدال وخلط الجـــد باللعب
ما كان أغنى رجالا ضـــل ســـعيهم   عن الجدال وأغنـــاهم عن الخطب
إنى لأهونكم فى الأرض مضـــطربا   مالى سوى فرسى والرمح من نشب

ثم قال : أصبح المهلب يرجو منا ماكنا نطمع فيه منه ... الكامل ٣٩٤/٣ .

يطعن أحياناً ، وحينـــا يضرب كأنه وسط العجـــاج يلعب [٢١٦]

فعلم قطرى أنه المهلب ، فجعل يرتجز وهو يقول :

ان يلقنى بجـــــده المهـلب أصبر والا لـــم يضرنى المهربه
شيخ بشيخ ذاوذا مجـــــرب رمحاهما كلاهما مخضـــب [٢١٧]

قال : فاقتتل القوم يومهم ذلك الى الليل . وارتحل عبد ربـــه الكبير ، وعبد ربه الصغير نحو بلاد كرمان أحدهم (أحدهمـــا) فى سبعة آلاف ، والآخر فى أربعة آلاف ، فصار كل واحـــد منهم عـــلى حدة . وارتحل قطرى بن الفجاءة حتى صار الى مدين (مدينة) جيرفت [٢١٨] ، فنزلها فيمن بقى معه من أصحابه [٢١٩] . وجعل كل واحد من هـــؤلاء القوم يعزم على قتال المهلب بنفسه وأصحابه ليتبين صبره وجهاده من جهـــاد غيره ! وأنشأ كعب بن معدان يقول أبياتا مطلعها :

دعوا التبايع والاسراع وارتقبوا ان المحارب يشنأنى وينتظر [٢٢٠]

الى آخرهـــا .

---

(٢١٦) هذان البيتان قد انفرد بذكرهما ابن أعثم دون بقية المصادر التى بين أيدينا .

(٢١٧) وهذان البيتان أيضا لا ذكر لهما فى مصادرنا الا عند ابن أعثم

(٢١٨) جيرفت : مدينة كبيرة جليلة من أعيان مدن كرمان . ياقـــوت : معجم البلدان ١٩٨/٢ .

(٢١٩) على خلاف طريقته فى العرض التاريخى ، ذكر ابن أعثم فى هذا الخبر أرقاما وحدد مكانا ، وهو نادر الالتفات الى الأرقام أو التواريخ أو الأماكن . . ومع ذلك فهو لم يتم هذه اللفتة المهمة فى بنية ذلك الخبر ، بذكركم رجلا من الأزارقة ارتحلوا مع قطرى الى جيرفت ؟

(٢٢٠) وذلك البيت أيضا من مفردات صاحب الفتوح ، اذ لم يذكره غيره من أصحاب التواريخ التى بين أيدينا . ولما كان اختلاف الأزارقـــــة على أنفســـهم ، وتشتت آرائهم ، وتنـــازع اهـــوائهم ، وانقســـامهم

....

الى جماعات متناحرة ، من الأسباب القوية المباشرة التى مكنت المهلب بن أبى صفرة — فى نهاية الشوط — من القضاء على فتنتهم ، وازالة خطرهم ، وتحقيق النصر عليهم ، فقد كان لزاما على من يعرض أخبار الأزارقة ، ويستقصى تحركاتهم أينما ذهبوا ، ويبسط القول فى حروبهم مع المهلب وغير المهلب ، أن يذكر بالتفصيل والاهتمام البالغ طبيعة هذا الاختلاف وأسبابه وملابساته ونتائجه ، وذلك باعتباره تطورا شديد الخطورة ، بليغ التأثير على مستقبل هؤلاء الخارجين على اجماع الأمة الاسلامية ، وكذلك باعتباره أذانا صريحا بنهاية هذه الحركة الانفصالية الهدامة فى تاريخ الدولة الاسلامية فى القرن الأول الهجرى !

ولما كان أبو محمد بن أعثم الكوفى ، لم يتعرض لهذا الأمر ، وهو يستقضى أخبار الأزارقة ، ويطيل الحديث حول تحركاتهم ووقائعهم ، فقد أصبح واجبا أن نستدرك ما فاته من ذلك ، وأن نسد تلك الثغرة المكشوفة التى تركها دون معالجة فى عرضه لأخبار الأزارقة ، فنقول بايجاز :

انه بعد أكثر من عامين طويلين من الكفاح الموصول ، والقتال الشديد بين الفريقين القويين « المهلب وجنده والأزارقة » — منذ تولى الحجاج امرة العراقين فى عام ٧٥هـ — نشب الخلاف فى الرأى بين زعماء الأزارقة ، وهو ذلك الخلاف الذى كان يتوقعه ويترقب حدوثه المهلب بن أبى صفرة ، كما سبق أن كتب الى الحجاج بذلك فى أحد رسائله اليه ، وكان سبب هذا الخلاف كما حدث المؤرخون :

أن أحد عمال قطرى بن الفجاءة على جهة كرمان قتل رجلا منهم ، فغضب اخوانه ، ووثبوا الى قطرى طالبين منه القصاص من هذا الوالى واسمه المقعطر الضبى ، فلم يستجب أميرهم قطرى لمطلبهم ، وقال لهم : لقد تأول فأخطأ التأويل ، ولا أرى أن يقتل فى ذلك ، وهو من ذوى السابقة فيكم ، فوقع الاختلاف بينهم حينئذ ! .

ويذكرون كذلك فى هذا الصدد : أن رجلا حدادا من الأزارقة — اسمه أبزى — كان يصنع النصال المسمومة ، فيرمى بها جند المهلب ، فاشتكوا ذلك اليه ، فقال : أنا أكفيكموه ان شاء الله ! فوجه أحد رجاله بكتاب وألف درهم الى معسكر الأزارقة ، وقال له المهلب : ألق هذا الكتاب فى معسكرهم بحيث لا يراك أحد وأنت تفعل ذلك ! — وكان فى الكتاب : أما بعد ، فقد

قال ابن أعثم : واشتد الحصـــار على قطرى بن الفجاءة وأصحابه بمدينة جيرفت ، واتصـــل الخبر بأصحابه أنه يريـــد الهرب ، فقام اليه رجل من الأزارقـــة يقال لـــه عامـــر بن عمرو السعدى ، فقال :

=

وصلت نصالك الى ، وقد وجهت اليك بألف درهم ، فاقبضها وزدنا من هذه النصال .. فوقع الكتاب والدراهم فى يد قطرى بن الفجاءة ، فدعا أبزى ، وسأله : ما هذا الكتاب ؟ قال : لا أدرى . قال : فهذه الدراهم ؟ قال : ما أعلم علمها . فأمر به ، فقتل ! فجاءه عبد ربه الصـــغير — أو الكبير — فقال له : أقتلت رجلا على غير ثقة ولا تبين ! فقال له : ما حال هذه الدراهم ؟! قال : يجوز أن يكون أمرها كذبا ، ويجوز أن يكون حقا . فقال له قطرى : قتل رجل فى صلاح الناس غير منكر ، وللامام أن يحكم بما رآه صلاحا ، وليس للرعية أن تعترض عليه ! فاختلفوا .

ومن أفاعيل المهلب لاشـــعال الخلاف بينهم ، أنه دس اليهم رجلا نصرانيا ، وقال له : اذا رأيت قطرى بن الفجاءة فاسجد له ، فاذا نهاك فقل : انما سجدت لك . ففعل النصرانى ، فقال له قطرى : انما السجود لله ! فقال ما سجدت الا لك . فقال له رجل من الخوارج : قد عبدك من دون الله ، وتلا قول الله تعالى : « انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون » (سورة الأنبياء الآية ٩٨) . فقال قطرى : ان هؤلاء النصارى قد عبدوا عيسى بن مريم ، فما ضر ذلك عيسى شيئا . فقام رجل من الخوارج الى النصرانى فقتله ! فأنكر ذلك عليه ، وقال : أقتلت ذميا ؟ فاختلفت كلمتهم !

ووجه المهلب اليهم رجلا يسألهم عن شىء تقدم به اليه ، فأتاهم الرجل فقال : أرأيتم رجلين خرجـــا مهاجرين اليكم ، فمات أحدهما فى الطريق ، وبلغكم الآخر ، فامتحنتموه ، فلم يجز المحنة ما تقولون فيهما ؟ فقال بعضهم : أما الميت فمن أهل الجنة ، وأما الآخر ، فكافر حتى يجيز المحنة . وقـــال فريق آخر : كلاهما كافران حتى يجيزا المحنة ! ومن هنا كثر الاختلاف فى صفوفهم ، ثم ما لبثوا أن انقسموا ، وقاتلوا بعضهم بعضا نحوا من شـــهر ! راجع فى هذا الموضوع : المبرد : الكامل ٣٨٢/٣ — ٣٨٣ ، الطبرى : تاريخ ٣٠٣/٦ ، عبد القاهر البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٨٦ — ٨٧ ، ابن الأثير : الكامل ٤٣٨/٤ — ٤٣٩ ، النويرى : نهاية الأرب ١٥٥/٢١—١٥٧ .. وهناك مزيد من الحديث عن أسباب خلافات الأزارقة فيما بينهم ، قد انفرد بذكرها من بين هذه المصادر أبو العباس المبرد فى الكامل ٣٩١/٣ — ٣٩٣ ..

يا أمير المؤمنين اننا قد بلغنا عنك أنك تريد الهرب ، فان قاتلته قاتلت معك ، وان هربت فأنا أبرأ الى الله منك ! فقال قطرى بن الفجاءة: من ههنا اضربوا عنقه ! فضرب عنق السعدى ! فوثب ابن عم له ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، يكلمك ابن عمى بكلمة فيها رضى ، فتأمر بضرب عنقه ! لا يجب أن يكون جوابك القتل وعقابك السيف ، فان الطاغى يوجع ، والمستعتب يعتب ! ألا والله لم يبق معك أحد الا فارقك ، فان فعالك هذه من فعال الجبارين ، ثم أنشأ يقول :

أيا قطرى بن الفجاءة مالنا ... من النصف شىء غير فعل الجبابر
أما تستحى يابن الفجاءة للتى ... لبست بها عارا وأنت مهاجر(٢٢١)
أفى كل يوم للمهلب أسلمت ... له شفتاك الفم والقلب طائر (٢٢٢)
فحتى متى هذا الفرار حذاره ... وأنت ولى والمهلب كافر (٢٢٣)
وان قال يوما عامر فضربته ... بأبيض مصقول فلله عامر
أسرت ولم تأمر به فدماؤه ... تسيل على ثوبيه والرأس نادر
أما حسبنا من عبد رب وصحبه ... شجى ناشب لم تبتلعه الحناجر
قتلت الذى لا تستطيع فراقه ... حياتك لا تنفع وموتك ضائر
فمت قطرى ان فى الموت راحة ... وأنت لديه لا محالة سائر

قال : فهم به قطرى أن يقتله ، ثم انه خشى أن يلتاث عليه أهل عسكره ، فسكت عنه ، وجاء الليل فهرب ذلك الرجل فى جماعة من

(٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣) هذه الأبيات الثلاثة مثال جلى على ما يصنع ابن أعثم الكوفى من تشويه ومسخ للنصوص التى ينقلها عن المؤرخين، فقد وردت تلك الأبيات وحدها فى الأخبار الطوال للدينورى ص ٢٧٧ . على نحو مختلف ، وسوف تتبين من مقارنتها بما قال ابن أعثم أنها شعر ، لا لغو كلام كالذى يزعم صاحب الفتوح أنه شعر ! قال رجل من أصحاب قطرى :

أيا قطرى الخير ان كنت هاربا ... ستلبسنا عارا وانت مهاجر
اذا قيل قد جاء المهلب أسلمت ... له شفتاك الفم والقلب طائر
فحتى متى هذا الفرار مخافة ... وانت ولى والمهلب كافر

الأزارقـــة ، حتى صاروا الى المهلب ، فاستأمنوه ، فأمنهم وأحســـــن جوائزهم ، ثم أنشأ ذلك الرجل يقول :

قد قلت لـمــا أرهجت لى عجاجة هوى قطرى وسطهـــا يتذبذب
فيا قطرى بن الفجاءة مالنـــــا جواب ـــ لحاك الله ـــ الا المشطب
فلما أبى الا اللجاج بقتلنـــــا نظرت وكان المستجار المهلـــب
عفو عن الذنب العظيم كأنــــه لمن ليس يرجو العفو عن ذنبه أب
عقوبتــه فيمــا يعــاقب غــيره عليه بمصقول الظبى حين يغضب
يعاتبه المرء الشفيق نصيحــــة يزيدهم عفوا اذا القوم أذنبــوا
لحقت به لما استبان ضــــلاله كأنى اليه كنت بالأمس أهــــرب
فما جئته أغشو اليه بشبهــــة ولا طالبا مالا ولا المال أطلـب
ولكننى أحدثت لله توبـــــــة قفلت اليهــا والقلـــوب تقلب
ولم تك لى بعد البصيرة عرجة ولم يك لى بعد المهلب مذهب(٢٢٤)

قال ابن أعثم : وبقى قطرى بن الفجاءة مغموما فيما هو فيه ، لأنه قد فارقه رجال من أصحابه ، ففرقة مع عبد ربه بوادى كرمان(٢٢٥)، والذين هم معه بجيرفت ، هو منهم على وجل ، لم يدر ما يصنع ، وضاق به الأمـــر ، فأنشأ يقول :

أقول لنفسى حين طال حصارها وفارقهـــا للحادثات نصيرهــــا
لك الخير موتى ان فى الموت راحة فيأتى عليهـــا حينها ما نصـــيرها

---

(٢٢٤) أبيات لا بأس بهـــا فى مدح المهلب وذم قطرى بن الفجاءة ، والتوبة عن الخروج على الجماعة ، ولكنهـــا مجهولة القائل ، ولـــم أجدهـــا فى المصـــادر التى بين يدى .

(٢٢٥) منذ قليل ، ذكـــر أنهم انقسموا الى ثلاث فرق : احدهــــا مع قطرى ونزلوا جيرفت ، وسبعة آلاف مـــع عبد ربه الكبير ، وأربعـــة آلاف مـــع عبد ربه الصغير ـــ ولكنه هنـــا لـــم يحدد من يريـــد ، ولـــم يذكـــر الفرقة الثالثة ! .

فلو أنها ترجو الحياة عذرتنـــا ... ولكنهـــا للموت يجدى بعيرهـــا
وقد كنت أوفى للمهلب صـــاعه ... ويشجى بنا والخيل يثنى نحورها
ولا يبتغى الهندى الا رؤوســـها ... بأقرانها أسدا يدانى زئيرهـــــا
اذا ما أتت خيـــل لقيتهـــــا ... أدار رحى موت عليهـــا مديرها
ففرق أمرى عبد رب وصحبـــه ... ولا يلتقى الخطى الا صدورهـــا
فقدما رأى منا المهلب فرصـــــة ... فهاتلك أعداتى طويل سرورهـــا
وأعظم من هـــذا على مصـــيبة ... اذا ذكرتهـــا النفس طال زفيرها
فراق رجـــال لم يكونوا أذلـــــة ... وقتل رجال جاش منها ضميرهـــا
لقونى بالأمـــر الذى فى نفوسهم ... ولا يقتل الفجار الا فجورهـــــا
عبرنا زمانا والشراة بغبطـــــة ... يسر بها مأمورها وأميرها (٢٢٦)

ثم أرســـل قطرى الى من كان معه فى مدينة جيرفت ، وأوصاهم وعهـــد اليهم ، وقال : اعلموا أنى قد عزمت غدا على الخروج الى المهلب وأصحابه ، فانظروا كيف تكونون ! فأرسلوا اليه أن يا أمير المؤمنين ، اننا قد عزمنا على الموت ، فاعزم على ذلك ! فلمـــا كان من الغـــد ، فتح القوم أبواب المدينة ، وخرجوا منهـــا الى لقاء المهلب وأصحابه فى زيادة على عشرة آلاف (٢٢٧) ، وعبى المهلب أصحابه كمـــا كان يعبيهم من قبل ، ودنـــا القوم بعضهم من بعض ، واختلطوا وتلاحموا ، واقتتلوا قتالا نسوا (به) ما كان ذلك ، لم يزالوا على ذلك يومين وليلتين •

فلما كان اليوم الثالث ، أقبل عبد ربه الصغير على أصحابه ـــ وهو فى أربعة آلاف ـــ فقال : ويحكم يا معشر المهاجرين ! ان قطريـــــا وأصحابه فى الحرب منذ يومين وليلتين ، وهـــذا عار علينـــا ، أن تسلم اخواننا ، ولكن سيروا بنا اليهم • فلم يشعر المهلب الا وعسكر لجب

---

(٢٢٦) هذه الأبيات ـــ على الرغم من جودتها ـــ لـــم أعثر عليهـــا فى ســـائر المصادر التى بين يـــدى •

(٢٢٧) ها هو ابن أعثم قـــد أجاب عن سؤالنا الذى طرح آنفا عن عدد أصحاب قطرى بن الفجاءة ـــ انظـــر ص ٤٦٦ هامش ٢٢٥ :

قد وافاه فى أربعة آلاف من الأزارقة ، فقال لابنه يزيد : أباخالد، هذا عبد ربه الصغير قد أقبل ، اضمم اليك من أحببت من العسكر ، واكفنى أمره ، ودعنى وقطرى بن الفجاءة وأصحابه . قال ابن أعثم : فما انتصف النهار حتى قتل عبد ربه الصغير ، وقتل عامة أصحابه ، فما انفلت منهم الا شرذمة قليلون ! ونظر قطرى الى ما قد نزل بعبد ربه الصغير وأصحابه ، فولى منهزما ، ووضع السيف فى أصحابه ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، ونجا قطرى وأصحابه الذين بقوا معه ، فمر هاربا على وجهه ، فأنشأ كعب بن معدان الأشقرى يقول أبياتا مطلعها

نجا قطرى والرماح تنوشه　　　على سابح نهد التليل مقرع (٢٢٨)

الى آخرها .

قال ابن أعثم : ومضى قطرى بن الفجاءة هاربا على وجهه حتى صار الى مدينة الرى ، ومعه عبيدة بن هلال ومن تبعهم من الأزارقة ، فلما صار القوم الى بلد الرى افترقوا ، فصار قطرى الى ناحية طبرستان ، ومضى عبيدة بن هلال فى نفر من أصحابه الى بلد قومس (٢٢٩) فنزلها ، ثم بعث الى المهلب بن أبى صفرة بهذه الأبيات :

طال ليلى وغير الدهر حالى　　　ورمانى بصائبات النبال
أفرق الدهر بيننا قطرى　　　ورمانا بفتنة الدجال
وأرى عبد ربه ترك الحق　　　ق فهذان فى الردى والضلال
أو قدوها على الشراة وقالوا　　　شن هذا عبيدة بن هلال
ولعمرى ان هما زعماء　　　لقليل فى جمعهم أمثالى

---

(٢٢٨) هذا البيت — أول ثلاثة أبيات رواها ياقوت فى معجم البلدان ١٩٨/٢ ، فى أثناء حديثه عن مدينة جيرفت — وبعده .

يلف به الساقين ركضا　　　وقد بدا لأسناعه يوم من الشر أسنع
وأسلم فى جيرفت أشراف جنده　　　اذا ما بدا قرن من الباب يقرع

(٢٢٩) قومس : أصلها كومس ، فعربت قومس ، وهى كورة كبيرة فى ذيل جبال طبرستان — ياقوت : معجم البلدان ٤١٤/٤ — ٤١٥ .

أننى للصبور فى حمس الحـــر ب بصير بمـــا علي ومــــــالي
غير أنى لم أجبهـــا علم الله ولا حــل لي في اللجــاج عقــالي
قــرت العين بالشراة وأمســى للمحلين غير ما زلــــــــزال
وتبارى المهلــــب بن أبى صفــ رة للقـــوم عند هلك الرجـــال
مد رجليه للفراغ من الحــــــر ب ومد اليدين للأنفــــــــال
وعيالى يطرحون بجيرفــــــت لك الخير أين منى عيـــــــالى
ان تنلهم يد المهلــب فى الحــر ب سبايا فلننى لا أبـــــالى
يمنــع الشيخ منهم عظم الخطــ ب وأن ليس بيعهم بحـــــلال
أن من حـــالة المهلب فى النـــا س له هيبة وعز جـــــلال (٢٣٠)

قال : فذكروا أن المهلب قـــد وصلت اليه هذه الأبيـــات ، فلمـــا ظفر بمن بقى من الأزارقـــة ، اشترى عيـــال عبيدة بن هـــلال ، وأولاده بخمسين ألف درهم من ماله ، وألحقهم بقومه (٢٣١) .

قال ابن أعثم : وانضمت الأزارقـــة الى عبد ربه الكبير ، فبايعوه بالخلافة ، وقالوا : نحن معك أو نفنى عن آخرنا . (ف) غضب لذلـــك عطية بن الأسود ، وخرج من العسكر مخالفـــا لعبد ربه ، وتبعـــــه عبد ربه فى نفر من أصحـــابه ، فقـــال : يا أبا الأسود ، ارجـــع رحمك الله ولا تشق العصـــا ، ان النـــاس قـــد بايعونى ، فلا تخالف ما عليه اخوانك . فقال له عطية بن الأسود : لا حاجة لى فى المقـــام معك ! قـــال : فحمـــل عليه عبد ربه ، فطعنه فى خاصرته طعنة فقتله ،

---

(٢٣٠) وهذه القصيدة قد انفرد ابن أعثم كذلك بذكرهـــا ونسبتهـــا الى عبيدة بن هـــلال ، وينبغى أن اشكك في ذلك ، اذ تعبـــر هـــذه الأبيات عن شخصية تتصف باليأس وانقطـــاع الأمل والتخاذل ، وما هكذا كان عبيدة ابن هلال الذى عرفناه فى معارك الأزارقـــة بطـــلا مقداما ، شجاعـــا بئيســـا ، يقـــرن بقطرى ، وعطية بن الأسود ، وعمرو القنـــا ، وســـائر رءوس الخوارج ! .

(٢٣١) الفتوح ٧/٥٥ — ٦٣ .

ورجع الى عسكره ! فلما كان الليـل ، لـم يبق أحـد من أصحـاب عطية الا خرج من العسكر ، وهم يقولون : الصـلاة خلف عبد ربـه حرام بعـد هـذا ، ثـم صاروا الى المهلب فاستأمنوا اليه ، فأمنهم وأحسن جوائزهم ! •

وجمـع عبد ربه الكبير من بقى معه من أصحابه ، ثـم قـام فيهم خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثـم قـال : أما بعـد يا معشر المهاجرين ، فان كنتم فقدتم الرجـال ، فلم تفقدوا الاسـلام ، وقـد أراحكم الله من خمسـة أشياء من جفاء قطرى بن الفجاءة ، وأخـلاط عبيدة بن هلال ؟ ، ونخوة عمرو القنـا ، وغى عبد ربه الصغير ، وفتنـة عطية بن الأسود ! وقـد صيركم الله الى بصائركم الأولى ، فاحمدوا الله على ذلك ! وقـد علمتم أن المهلب قـد نزل بمـدينـة جيرفت ، واحتوى على غنائم اخوانكم وبنى أعمامكم ، وأنا سـائر اليه فسيروا على بركـة الله • ثم سار ، وسارت الأزارقـة معه نحـو مدينة جيرفت •

وبلغ ذلك المهلب ، فنادى فى أصحابه ، وأمرهم بالرحيل ، ثـم خرج من جيرفت كالمنهزم عنهـا ، وأقبل عبد ربه فى الأزارقـة ، وقـد بلغه خروج المهلب من جيرفت ، فظن أنه قد انهـزم بين يديه ، فأقبـل حتى دخل المدينة ، فنزلهـا فى أصحابه • وعلم المهلب بذلك ، فرجـع حتى نزل بجيرفت ، وجميـع جنده (٢٣٢) • ثم انه قام فى الناس خطيبا ، وقال : أيهـا الناس ، انكم نلتم ما رجوتم فى عدوكم من الفرقـة والتشتيت ، وقد كفاكم الله خمسـة من قرنـاء الشيطان : قطـرى بن الفجاءة ، وعبيدة بن هلال ، وعطية بن الأسود ، وعمرو القنـا ،

---

(٢٣٢) هو لا يقصـد أن المهلب وجنده قد دخلوا جيرفت والأزارقـة بداخلهـا ، وانمـا يريـد أنه نزل بجنده محاصرا المدينـة ومن فيهـا ، كمـا سيتضح من قوله بعد بضعة أسطر ! .

وعبد ربه الصغير [٢٣٣] ، وقد بقى عبد ربه الكبير ، وأنا أرجو أن يقتله الله غدا ان شاء الله ، والقوم لا قوكم فاصبروا • فقال الناس: سمعا وطاعة ! فعندها عزم المهلب على مناجزة القوم ، وجعل يقول لأصحابه : لا تبدأوهم بالقتال حتى يبدأوكم ، فان القوم متكلون على ما فى المدينة من الأطعمة ، ولقد نفد ما عندهم وجاءوا والا خرجوا اليكم •

واشتد الحصار على الأزارقة فى مدينة جيرفت ، حتى أكلوا جميع ما قدروا عليه ، ثم انهم خرجوا الى حرب المهلب فى تعبية وجيش لجب • وعبى المهلب أصحابه كراديس ، وجعل فى كل كردوس رجلا من أولاده ، ثم أقبل عليهم وقال : يابنى ، انما أقاتل لله • وأنتم تقاتلون لله وعن أبيكم ، وتذبون عن دين الاسلام ، وليس يقاتل معكم الا من رزقه الله النية فى الجهاد ، وليس أحد أولى بحربهم منكم ، فقاتلوا واصبروا ، وكونوا كما قال أخوقيس حيث يقول :

ان على أهل اللواء حقا أن يخضبوا الصعدة أو بيرقا [٢٣٤]

واعلموا يابنى أنكم لا تملكون رقاب الناس ، وانما تملكون طاعتهم ، فكونوا كما قال الأول :

اذا أعطيت راحلة ورحلا ولم أوضع فقام على ناعى

---

(٢٣٣) قارن هذا بما ورد فى خطبة عبد ربه الكبير فى الأزارقة فى الصفحة السابقة . وكأن هناك اتفاقا على ذم هؤلاء الزعماء الأزارقة من كلا الفريقين : الخوارج ، والجماعة ! ؟ .

(٢٣٤) ذكر ابن قتيبة الدينورى فى عيون الأخبار (١/١٧٤) ، والمعارف (٤٢٥) هذا الرجز بلفظ آخر ، وأن قائله هو الأحنف بن قيس ، وأنه أنشده فى أحد الفتوح التى قادها فى فارس ، ونص البيت هو :

ان على كل رئيس حقا أن يخضب الصعدة أو تندقا

ومن الواضح أن هناك تصحيفا عند ابن أعثم فى قوله « تندقا » فأصبحت « بيرقا » وهو بين الخطأ . والصعدة : هى الرمح ..

فعندهـا جد بنو المهلب فى القتال ، واذا غلام من الأزارقـة وقد وقف على تل مرتفـع ورفـع صوته ، وجعل يقول :

أفـرق الأمـر بيننـا قطرى ولهجنـا بلفظ قيـل وقـال
ورمانا عمرو القنـا بهـواه وأخوه عبيدة بن هـلال
ورضينـا بعبد ربه والمـر ء رهين بجاذب الأهـوال
فلقـد عاين المهلـب ماكـا ن رجا من تقارب الآجال (٢٣٥)

ثم حمـل ذلك الغـلام على أصحاب المهلب ، فلم يزل يقاتل حتى قتل • واشتد الحرب على باب جيرفت يومهم ذلك ، من وقت الضحى الى أن غابت الشمس ! وصـاح رجل من أصحـاب المهلب ، يقـال لـه : سلقط بن عمرو (٢٣٦) ، فقـال : أيهـا الناس ، انه قد جاء الليـل وغابت الشـمس ، والليـل لا يقـاتل فيه الا الشـجاع المطبـوع على الشجاعة ، فأيكم يبايعنى على الموت ؟ فانتدبت لـه جماعـة من فتيان الأزد ، وتقـدم سلقط هـذا فيمن اجتمـع اليه نحو الأزارقة ، فلـم يزل يقاتلهم هو وأصحابه ، حتى ألجأهم الى وادى جيرفت ! وصـاح المهلب بابنـه يزيـد ، فقـال : يابنى ، ابسـط خيلك على القـوم ، فبسـط يزيـد خيله على الأزارقـة ، وثبتت الأزارقـة للحـرب ، وجعـل أصحاب يزيـد بن المهلب لا يرون داعيـا من الأزارقـة ، الا ورموه بالحجارة ، فلم يزالوا كذلك الى الصباح ، حتى قتل من الأزارقة

---

(٢٣٥) قارن هـذه الأبيات التى انفرد ابن أعثم بذكرهـا ، بالشعر الذى نسبه الى عبيدة بن هـلال فى ص ٤٦٨ — ٤٦٩ ، فهو على ذات القافية والوزن ، بل وهناك تشابه كبير فى بعض الأبيات فيهما . وقوله أفرق «تحريف» والصواب « فرق » .

(٢٣٦) سلقط بن عمرو : اسـم غريب مجهول لا ذكر لـه فى معاجم الرجال ، وسلقط : لا وجود لـه فى معاجم اللغـة أيضـا ! فأى ابتكار هـذا ؟ .

بشر كثير (٢٣٧) ، وقتل سلقط بن عمرو الأزدى ، فأنشأ سماعة بن يزيد يقول أبياتا مطلعها :

ثوى سلقط فى حومة الحرب مسندا فياعين جودى بالدموع لسلقط(٢٣٨)

الى آخرها .

وولت الأزارقة منهزمين ، حتى دخلوا مدينة جيرفت ، بشر وعر ، فأقاموا يومهم ذلك ، فلما كان الليل اذا برجل من الأزارقة ، قد أشرف على سور المدينة ، وهو يقول أبياتا مطلعها :

الى الله أشكو كربة أن تفرجا وهما دخيلا لا أرى منه مخرجا (٢٣٩)

الى آخرها .

فلما سمع المهلب شعره التفت الى رجل من أصحابه ، فقال : اسأله ممن هو ؟ فناداه ذلك الرجل : أيها المتكلم ممن تكون ؟ فقال : أنا رجل من الأزد من أهل الكوفة ، وأنا ابن عم سراقة البارقى (٢٤٠) ، وايم الله انى لخائف أن أبتلى الفتنة !! .

فلما أصبح المهلب ، عبى أصحابه للحرب ، ودنا من باب جيرفت ،

---

(٢٣٧) الفتوح ٦٣/٧ — ٦٦ .

(٢٣٨) البيت من مفردات ابن أعثم التى لم يشاركه أحد من مؤرخينا فى ذكرها ، ولعل البيت من نظم ابن أعثم .

(٢٣٩) وهذا البيت كذلك انفرد به ابن أعثم فلم يذكر فى سائر المصادر التى بين أيدينا .

(٢٤٠) هو سراقة بن مرداس بن أسماء بن خالد البارقى الأزدى ، الشاعر الكوفى المتوفى عام ٧٩ هـ . قاتل المختار الثقفى ، ثم أسره ، وأطلق سراحه فى خبر طويل رواه الطبرى ، وذهب الى مصعب بن الزبير فى البصرة ، وكان مع بشر بن مروان فى الكوفة ، وهجا الحجاج لما ولى العراقين ، ثم فر الى الشام حيث توفى هناك — بدران : تهذيب تاريخ ابن عساكر ٦٩/٦ ، الطبرى : تاريخ ٥١/٦ وما يليها ، خير الدين الزركلى : الأعلام ٨١/٣ .

وبلغ ذلك عبد ربه رئيس الأزارقـة ، فقام فيه (فيهم) خطيبـا ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا معشر المهاجرين ، ان قطرى بن الفجاءة، وعبيدة بن هلال ، وعمرو القنا ، وشيعتهم ، انما هربوا رجاء البقـاء وليس الى البقاء من سبيل ، وقـد زحف اليكم القوم ، وهؤلاء قـوم بحدهم وحديثهم (؟) فان غلبوكم على الحياة فلا يغلبوكم على الموت فانظـروا ألا تبقى الرماح الا بالنحور ، والسيوف الا بالوجـوه ، وتعجلوا الى (الموت) قبل أحداث هذه الدنيـا ، وهبوا أنفسـكم لله فى الدنيـا يهبهـا لكم فى الآخرة ، ولا تيأسوا من النصر ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين .

قال ابن أعثم : فخرجت الأزارقة مستميتين ، وقـد عزموا على الموت ، ودنا القـوم بعضهم من بعض ، ثـم أقبـل رجل من الأزارقة حتى وقف بين الجمعين ، وجعل يرتجز ويقول :

ان كان قـد فارقتنـا عبيـدة وقطرى ذو المدى البعيـدة

فعبد رب حمـزة عنيـدة وشوكه وكيـده شديده [٢٤١] ؟

ثم حمل على أصحاب المهلب ، فكبا به فرسه ، فسقط الى الأرض فأخـذ أسيرا ، وأتى به الى المهلب ، حتى وقف بين يديه . فقـال المهلب : اضربوا عنقه ! فقـال : أيهـا الأمير ، أنا ابن عم لك ، أنا رجل من الأزد من بارق ، وأنا صاحب الشعر البارحة ، فخلى عنه المهلب ، ولم يقتله . واختلط القوم ، فاقتتلوا قتالا شديدا وصـاح عبد ربـه بأصحابه : يا معشر المهاجرين ، روحوا الى الله ، فان القـوم رائحون الى النار ! فعندهـا كلبت الأزارقة ، واشتد القتال ، ونزل عبـد ربه عن فرسـه ، فكسر جفن سيفـه ، ونزلت معه الأزارقـة وكسروا

---

(٢٤١) هـذا الكلام المرصوص بعضـه الى بعض والذى يزعم صاحبه أنه رجز — مما استقل بذكره ابن أعثم الكوفى .

جفون سيوفهم ، وعزموا على الموت • ونادى المهلب بأصحابه : يا معشر المسلمين ، ان هــذا يوم له ما بعــده من الأيــام ، ويصبركم أمس ، بلغتم اليوم ، وبصبركم اليوم تبلغون غدا ! •

وكثرت القتلى فى الأزارقة ، وعضهم السلاح ، وكأنهم كاعوا عن الحرب ، ونظر المهلب الى ذلك فجمع أولاده وأبطــال أصحابه ، ثــم حمل ، وحملوا معه ، فقتل عبد ربه ، وقتل معه قريب من أربعــة آلاف رجل ، فى ربضـــة واحدة ، وسالت دماؤهم الى وادى جيرفت ، حتى احمــر ماء الوادى ، وبقى الباقون بلا نظــام ، فولوا هاربين ، فمنهم من دخل الى مدينة جيرفت ، ومنهم من استأمن الى المهلب فأمنه ، ومنهم من هرب على وجهه فى البلاد • ودخل المهلب الى مدينة جيرفت ، فاحتوى على ما كان فيهــا من أمتعة الأزارقــة ، ودوابهم ، وسلاحهم ، وأموالهم ، ونسائهم ، وأولادهم ، فأنشأ كعب بن معدان الأشــقرى يقـــول فى ذلك أبياتا مطلعهــا :

ألم يأتها أن الأزارق شردوا   وصارت عليهم فى البلاد الفضائح(٢٤٢)

الى آخرها •

ثم جمع المهلب غنائم الأزارقة ، فجعل يقسمها فى أصحابه على أقدارهم ومراتبهم ، ثــم أقبل حتى نزل فى أصــل شجرة فى موضع سوق جيرفت ، وقــال : ياغلام ، خذ عنى سلاحى ، فنزع الغــلام درعه وخفيه ، وعلق سيفه على الشجرة ، ثــم مد رجليه ، وقــال : الحمــد لله الذى ردنا الى ماكنا عليه من الخفض والدعة ، فــانه ما كان عيشنا بعيش ! فأنشأ رجل من أصحابه يقول فى ذلك أبياتــا مطلعهــا :

---

(٢٤٢) انفرد ابن أعثم بذكــر هذا البيت ، ونسبته الى كعب بن معدان دون ســائر المصــادر بين أيدينا •

لقـــد مس منا عبد رب وجنده   عقاب فأمسى سبيهم فى المقاسم (٢٤٣)
الى آخرهـــا .

---

(٢٤٣) الفتوح ٦٦/٧ — ٦٩ . ولما كانت موقعة جيرفت هذه من المواقع الحاسمة فى هـــذا الصراع المرير بين الأزارقـــة وبين المهلب وجنـــده ، بل نستطيع أن نعدهـــا الضربة التى خضـــدت شوكتهم ، وأجهزت على معنوياتهم ، وقضت على عظم رجالهم ! لذلك ينبغى أن نقدمهـــا من وجهـــة المؤرخين الآخرين ، الذين طالما اختلف معهم ابن أعثم فى أســـلوب عرضه ، ومادته الخبرية بصفة عامة . فلقـــد قالوا فى تسجيل هذه المناسبة :

لما مضى قطرى بن الفجاءة الى طبرستان ، وأقام عبد ربه الكبير بكرمان يعنى بعد اختلافهم على أنفسهم ، نهض اليهم المهلب ، فقاتلوه قتالا شـــديدا ، وحاصرهم بمدينـــة جيرفت ، وظل يناهضهم ولا ينـــال منهم ما يريد ، فلمـــا طال الحصـــار على عبد ربه وأصحابه ، خرجوا من جيرفت بأموالهم وحرمهم فقاتلهم المهلب أشـــد قتال وأعنفه حتى عقرت الخيل ، وتكسر الســـلاح ، وقتل الفرســـان والشجعان ، فتركهم ، فمضوا ، ودخل المهلب جيرفت ، ثـــم ســـار يتبعهم الى أن لحقهم وأدركهم على مســـافة أربعـــة فراسخ من جيرفت ، فقاتلهم من بكرة الى منتصف النهـــار ، وكف عنهم ، ولكنه أقـــام عليهم بازائهم فلمـــا كانت الليلة التى قتل فى صبيحتها عبد ربـــه الكبير ، جمع أصحابه وقال : يا معشر المهاجرين ، ان قطريا وعبيدة ، ومن معهمـــا ، هربوا طلب البقاء ولا سبيل اليه ، فالقوا عدوكم ، فان غلبوكم على الحياة ، فلا يغلبنكم على الموت ، فتلقوا الرماح بنحوركم ، والســـيوف بوجوهكم ، وهبوا أنفسكم لله فى الدنيـــا ، يهبهـــا لكم فى الآخرة .

— فلما أصبحوا ، بكروا بقتال المهلب وجنده قتالا شديدا نسى به ما كان سبقه من الحروب ! فقال رجل من أصحاب المهلب : من يبايع على الموت ؟ فبايعه أربعون رجلا من الأزد وغيرهم ، فقتل بعضهم وجرح البعض وصرع الفريق الأخير منهم ، ثم ترجلت الخوارج وعقروا دوابهم ، واشتدت المعركة وعظم الخطب ، حتى قال المهلب : مامر بى مثل هذا اليوم ! وقال أيضـــا لأصحابه : الأرض ، الأرض ، وقال لبنيه : تفرقوا فى الناس ليروا وجوهكم !.

وكسرت الأزارقـــة أجفان سيوفها ، وتجاولوا ، فأجلت الجـــولة

=

قال ابن أعثم : ثــم رفع (أى المهلب) رأســه ، فاذا بقــوم بين يديه لا يعرفهم ، فعلم أنهم من الأزارقــة ، فانتقاهم على نفســه أن يفتكوا به ، فتبسم ، ثــم قال : ما أشــد عــادة السلاح ! ياغلام، رد على درعى ، وهات خفى ، فأتى بدرعه فأفرغ (فأفرغت) عليه ، ومد خفيه فى رجليه ، وتقلد سيفه ، ثــم قــال : انى أرى وجوهــا ما أعرفهــا ، ثــم قال لأصحابه : خذوهم ، فأخذوهم ، فقــال لهم المهلب : ما أنتم ؟ فقالوا : نحن قــوم من الأزارقــة ، غير أننا عجزنــا عن قتالك ، فاجتمعنا على قتلك فى وقتنــا هذا ! فضحك المهلب ، ثــم قال : أجل ، أردتم ما لــم يرده الله ، فاختاروا الآن واحدة من اثنتين القتل أم التوبة ؟ فقالوا : بــل التوبة ! فأوهبهم [٢٤٤] المهلب لقــوم من عشائرهم ، فأنشأ رجل منهم يقول أبياتا مطلعها :

=

عن رئيسهم عبد ربه مقتولا ، ثــم أنزل الله نصره على المهلب وأصحــابه ، وهزم الخوارج ، واستحر القتل فيهم ، حتى بلغ عدد قتلاهم أربعــة آلاف ، ولم ينج منهم الا القليل ، وأخــذ عسكرهم ، وما فيه ، وسبى أولادهم ونســاؤهم لأنهم كانوا يسبون نســاء المسلمين ، فقال الطفيل بن عامــر ابن واثلة يسجل هــذه الوقعــة الفاصلة ويذكــر مقتل عبد ربه وصحبه :

لقد مس منــا عبد رب وجنــــده ... عقــاب ، فأمسى سبيهم فى المقاسم
سما لهــم بالجيش حتى أزاحهــم ... بكرمان عن مثوى من الأرض ناعم
وما قطرى الكفــر الا نعــــامة ... طريــد يدوى ليله غــير نــــائم
اذا فر منــا وجهــه كــان هــاربا ... طريقا سوى قصد الهدى والمعالم
فليس بمنجيه الفرار وان جــرت ... به الفلك فى لج من البحــر دائــم

اقرأ فى خبر هذه الوقعة كلا من : المبرد : الكــامل ٤٠١/٣ — ٤٠٢، الدينورى : الأخبار الطوال ٢٧٩ . الطبرى : تاريخ ٣٠٤/٦ — ٤٠٨ ، البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٨٦ . ابن الأثير : الكامل ٤٣٩/٤ — ٤٤٠. النويرى : نهاية الأرب ١٥٦/٢١ — ١٥٧ .

(٢٤٤) خطأ ، والصواب « فوهبهم » .

خلونا ، وقلنــا : للمهلب غرة   فأعجلنا لما رآنا المهلب [٢٤٥]
الى آخرهـا .

ثم دفـع المهلب كل جريح من الأزارقة الى عشيرته ، فقـال : داووه فاخلطوه بأنفسكم ، ومن رايكم أمـره ، فاعرضوه على السيف. ثم جمـع المهلب الأموال ، فسرحها مـع غلمانه الى البصرة ، وأقـام بجيرفت حتى أعطى حقوقهم ، ثـم قـام فى النـاس خطيبـا ، فحمـد الله وأثنى عليه ، وقـال : أيهـا النـاس ، أمـا ما مضى من جباية الأموال فقـد كان لى دونكم من حقوقكم على الولاة ، وأمـا ما بقى الآن فهو لكم دونى ، وليس أحد منكم ابتلى (أبلى) بـلاء حسنا ، الا وما اخر الله له فى الآخرة ، خير له من ثواب هـذه الدنيا ، فاياكم والحرص ، فان الحرص يضر بالرزق ، واياكم أن تمنوا عـلى ربكم بالذى كان من جهادكم ، فان المن يحبط الأجـر . والسلام [٢٤٦] .

قال ابن أعثم :

« ذكر كتاب المهلب بن أبى صـفرة الى الحجـاج بعد فراغه من الأزارقة » .

ثم دعا المهلب برجل يقال له بشر بن مالك الحرسى ، فأرسـله الى الحجاج بالفتح بشيرا ، وكتب معه كتابا : الى الحجاج بن يوسـف

---

(٢٤٥) أورد المبـرد قصـة هؤلاء النفـر بأصح وأدق وأوجز من ذلك فقال : ثم نظر الى قوم فى عسكر لـم يعرفهم ، فقال : ما أشـد عـادة السلاح ! ناولونى درعى . فلبسها ثم قال : خذوا هؤلاء ، فلمـا سير بهم اليه ، قال : ما أنتم ؟ قالوا : نحن قوم جئنـا نطلب غرتك لنفتك بك : فأمر بهم فقتلوا .. الكامل ٤٠٢/٣ ــ ٤٠٣ . أما هـذا البيت فهـو من تزيد ابن أعثم .

(٢٤٦) الفتوح ٦٩/٧ ــ ٧١ . ولم أعثر على هذه الخطبة فى المصادر التى بين يدى .

من المهلب بن أبى صفرة ، أما بعد ، فالحمد لله الكافى بالاسلام، الذى أوصل الشكر بالمزيد ، وقضى أن لا ينقطع المزيد منه حتى ينقطع الشكر من عباده ، ثم انه قد كان من أمرنا وأمر عدونا ما انتهى اليه (الى) الأمير خبره مع كل ذى (؟) صباح ومساء ، وقد كانت منى الى الأزارقة مطاولة ، ظن الأمير أيده الله أنى جبيت بهم البلاد ، ولعمرى ان الذى جبته الأزارقة بنا لاكبر مما جبيناه بهم ! وان كنا قد نلناه (نلنا) منهم ما لم ينالوه ، وقد كان الناس قد رعبوا منهم رعبا شديدا ، حتى روعت بهم الفتاة الكعاب ، ونوم بهم الصبى الرضيع ، وأدنيت السواد من السواد ، حتى تعارفت الوجوه ، وحتى رغب الناس من (عن) النبل الى الرماح، وعن الرماح الى السيوف ، وانتهزت من الناس الفرص ، وأخذت منهم الثياب ، وكنت كالطبيب للمريض الذى يحميه مما يشتهيه ويسقيه مما يكره • وقد وليت قتالهم رجالا من قبلى ، فأخطأوا الورد وأظمأوا الصدر ، فعارهم قلائد فى أعناقهم الى يوم القيامة ، فلم نزل وعدنا على حالتين مختلفتين ، ما يسوءهم منا دون ما يسرهم ، وما يسرهم منا دون ما يسوءنا منهم ، حتى وقع فيهم الاختلاف والجوع، فلم يزل بهم ذلك وأصابهم البلاء ، وهرب منهم أهل الخنا والسفاهة ، وأقام أهل الحياء والدين (؟) ، فاتقوا العار ، وتواصوا بالصبر ، وأخذنا ما أخذوا به ، وكنا أولى به منهم ، فلم يزل الله تبارك وتعالى يمحصنا ويمحقهم ، وينصرنا ، ويخذلهم ، حتى بلغ بنا وبهم الكتاب أجله « فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين » (*) • والسلام عليك ورحمة الله وبركاته • ثم طوى الكتاب ، ودفعه الى بشر بن مالك بن لبيد الحرسى ، وقال : اعلم بأنك ترد على الحجاج (وهو)

(*) سورة الانعام : الآية ٤٥ .

من قد علمت ، فاذا وقفت بين يديه ، فانظر كيف تكون ! فقال : كفيت أصلح الله الأمير (٢٤٧) ..

قال ابن أعثم :

« ذكر الرسول وكلامه بين يدى الحجاج »

ثم رحل بشر بن مالك حتى قدم على الحجاج ، فوقف بين يديه وسلم ، ثم ناوله الكتاب ، فلما قرأه الحجاج بن يوسف ، ورفع رأسه اليه فقال : كيف المهلب ؟ فقال : بخير ، أصلح الله الأمير ، قد نال مارجا ، وأمن ما خاف ، فقال الحجاج : الحمد لله ، فكيف كان أمركم مع عدوكم ؟ قال : كنا اذا لقيناهم بحدنا وحدهم ، أيسوا امنا وطمعنا فيهم . قال الحجاج : أجل ، ان العاقبة للمتقين . فكيف كان

---

(٢٤٧) الفتوح ٧١/٧ — ٧٣ .. ومما لا شك فيه أن ابن أعثم الكوفى ، قد أطلق لنفسه العنان فى صياغة هذه الرسالة حتى أخرجها عن اصلها ، وذهب بها بعيدا جدا ! وها هو ذا نص هذه البشرى كما ورد فى أقدم المصادر التى عنيت بالموضوع : « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الكافى بالاسلام فقد ماسواه ، الذى وصل المزيد بالشكر ، والنعمة بالحمد ، وقضى الا ينقطع المزيد منه ، حتى ينقطع الشكر من عباده . أما بعد ، فقد كان من أمرنا ما قد بلغك ، وكنا نحن وعدونا على حالين مختلفين يسرنا منهم أكثر مما يسوءنا ، ويسوءهم منا أكثر مما يسرهم ، على اشتداد شوكتهم ، فقد كان علن أمرهم حتى ارتاعت له الفتاة ونوم به الرضيع ، فانتهزت منهم الفرصة فى وقت امكانها ، وأدنيت السواد من السواد ، حتى تعارفت الوجوه ، فلم نزل كذلك ، حتى بلغ الكتاب أجله « فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين » المبرد : الكامل ٤٠٤/٣ — ٤٠٥ ، والقلقشندى : صبح الأعشى ٢٧٨/٨ مع يسير اختلاف . ويجدر بالذكر : أن يتفق ابن أعثم مع الدينورى — الأخبار الطوال ص ٢٧٩ — على اسم رسول المهلب الى الحجاج وكذلك مع المسعودى فى مروج الذهب ١٥٩/٣ . بينما ذكر المبرد ان المهلب بعث كعب بن معدان الأشقرى ، ومرة بن تليد الأزدى — من أزد شنوءة — فوفدا على الحجاج . الكامل ٤٠٣/٣ .

بنو المهلب فى الحرب ؟ فقال : كانوا كفاة السرح بالليل ، وليوث الوغى بالنهار ! قال الحجاج : فأين المهلب من بنيه ؟ قال : فضله عليهم ، كفضلهم على غيرهم • قال : أجل ، لأنهم خلقوا منه ، ولم يخلق منهم • قال : فكيف فاتكم قطرى بن الفجاءة ؟ قال : كادنا بعض ما كدناه منه، قال الحجاج : صدقت • فأى بنى المهلب أفضل ؟ قال : ذلك الى المهلب •

قال الحجاج : فكيف الجند ؟ قال : أرضاهم الحق ، وأغناهم النفل• قال الحجاج : فكيف رضاهم بالمهلب ؟ فقال : لهم منه اشفاق الوالد ، وله منهم بر الوالد (الولد) • فقال الحجاج : أخبرنى ، أكنت هيأت هذا الكلام الذى أسمعه منك ؟ فقال : كلا أيها الأمير ، انه لا يعلم الغيب الا الله ! قال : فتبسم الحجاج ، ثم التفت الى كاتبه عنبسة بن سعيد ، فقال : هذا والله لكلام الحولى ، لا ما تجىء به أنت وأصحابك • ثم أقبل عليه الحجاج فقال : هل تقول الشعر ؟ قال : نعم أصلح الله الأمير ، وأنا القائل :

قد حسمنا داء الأزارقة الدهـ ـر فأمسوا كعادها وثمود (٢٤٨)

وأصبنا مع المهلب ما كا ن تمنى من رأيه المحمود (٢٤٩)

لم يضر ذاك بالوعيد ولا الكذ ب ولم يضرر العدو وعيد (٢٤٩)

لكن الضرب فى العجاجة بالبيض وطعن يشيب رأس الوليد (٢٥٠)

---

(٢٤٨) رواه الدينورى فى أخباره الطوال ٢٧٩ هكذا :

قد حسمنا داء الأزارقة الدهر فأضحوا طرا كآل ثمود

(٢٤٩) هذا البيت قد انفرد به ابن أعثم الكوفى .

(٢٥٠) نص البيت فى المصدر السابق والصفحة :

بطعان الكماة فى ثغر القو م وضرب يشيب رأس الوليد

كل يوم يثور فى عـــالى النقـــ ع أسود مخلوقة لأســـود (*)
كلمـــا شئت راعنى قطـــــرى فوق عبل الشوى أقب عنود (٢٥١)
مزبدا يضرب الكتيبـــة بالسـيـ ف وعمرو القنا على الصيخود (٢٥٢)
وأخـــوه عبيـــدة بن هـــلال كالهمـــام المتوج الصـــنديد
فاذا ما لقيتهم بـــرد الخلـــ ـــد على منيتى وأى بـــرود ؟
ثم لا ينثنى الخـــدود ولمـــا بل سيفى من ضربة الأخـــدود ؟
ان بشرا ومعبـــدا ومـــرادا ووكيعا والصعب كانوا شـــهودى
ثم لا أنطق الحـــديد بحـــرف من فعـــالى ليس الفعـــال بمودى
أو يقـــول الأنـــاس أحسن واللـــه لبشر بن مالـــك بن لبيـــد
نلت هـــذا مـــع المهلب انى واثق ما شكرته بمـــزيـــد
كلنـــا عنـــده كبعض بنيـــه فى سؤال لنـــا عن المفقـــود
ويداوى جريحنـــا بيـــديـــه ثـــم يكفى وليمـــة المولـــود
كل خير يقوله النـــاس فيـــه من بلاء ونائـــل محمـــود

(*) هذا البيت قد انفرد بذكره ابن أعثم .

(٢٥١) البيت رواه الدينورى بنصه هـــذا ، وعبل الشوى : قـــوى اليدين والرجلين . وفرس أقب : ضامر البطن . والعنود من الابـــل والدواب : الشديدة العناد ، المتقدمة فى السير .

(٢٥٢) الصيخود : الصخرة الملســـاء الصلبة لا تتحـــرك من مكـــانها ، ونص البيت عند أبى حنيفة الدينورى خلاف ذلك وهو فى المصدر الســـابق والصفحة :

معلما يضرب الكتيبة بالســـيـ ف وعمرو كالنار ذات الوقود

يجـد النــاس مثــل من غقــدوه غير ذا الشيخ ليس بالموجود[٢٥٣]

فلما فرغ بشر بن مالك هذا من نشيده ، أمر لــه الحجاج بعشرة آلاف درهم ، وفرس ، ودرع ، وغـلام ، وجـــارية ، ثــم كتب الى المهلب [٢٥٤] :

---

(٢٥٣) وهذه البقية من الأبيــات أيضا انفرد بذكرها صاحب الفتوح .

(٢٥٤) الفتوح ٧٣/٧ — ٧٦ . وينبغى أن نسجل هنا الحوار الطريف الذى دار بين الحجاج وبين البشير — الذى أرسله المهلب اليه بالنصر على الأزارقــة — ليتبين الفارق من خلال المقارنة بين النص الآتى ، وبين ما كتبه ابن أعثم .

قال أبو العباس المبرد فى الكامل ٤٠٣/٣ — ٤٠٤ : ووجه المهلب كعب ابن معدان الأشقرى ، ومرة بن تليد الأزدى ... ، فوفدا على الحجاج ، فلمــا طلعــا عليه ، تقــدم كعب فأنشــده :

ياحفص انى عدانى عنكم السفر وقد سهرت فأودى نومى السهر

فقال له الحجاج : أشــاعر أم خطيب ؟ قال : كلاهمــا ، ثــم أنشده القصيدة ، ثم أقبل عليه فقــال له : أخبرنى عن بنى المهلب . قــال : المغيرة فارسهم وسيدهم ، وكفى بيزيد فارسا شجاعا ! وجوادهم وسخيهم قبيصة، ولا يستحيى الشجاع أن يفر من مدرك ، وعبد الملك سم ناقــع ، وحبيب موت زعاف ، ومحمد ليث غاب ، وكفاك بالمفضــل نجدة ! قــال : فكيف خلفت جماعة الناس ؟ قــال : خلفتهم بخير ، قــد ادركوا ما أملوا ، وأمنوا ماخافوا قال : فكيف كان بنو المهلب فيهم ؟ قال : كانوا حماة السرح نهارا ، فاذا اليلوا ففرســان البيات ، قال : فأيهم كان انجد ؟ قــال : كانوا كالحلقة المفرغة ؟ لا يدرى اين طرفهــا ؟ قال : فكيف كنتم أنتم وعدوكم ؟ قــال : كنــا اذا أخذنا عفونا ، واذا أخذوا يئسنا منهم ، اذا اجتهدوا واجتهدنا بلغنا فيهم آمالنا بادراك الفرصـــة منهم . فقــال الحجاج : ان العاقبة للمتقين . كيف
=

قال ابن أعثم :

« ذكر كتاب الحجاج الى المهلب »

أما بعد ، فان الله تبارك وتعالى قد صنع لك ، وصنع بك خيرا ، وقد كانت منى اليك ظهيرة ، ودعانى اليها لجاج الحرب وتعجيل الفراغ ، وأنت كنت أعلم بما يليك منى ، وقد تيقنت من رأى البركة بحمد الله ومنه ، وقد فرغ الله بك من عدوك ، وعلت يداك على ما كنت عليه ، فأما قطرى بن الفجاءة ، وعبيدة بن هلال ، وعمرو القنا ، وفلهم ، فنحن نكفيهم ان شاء الله . فانظر ان كان فى القوم بقية تخافها على البلاد ، فأوقف لها خيلا تكون بازائها ، واستخلف على القوم أجرأ ولدك ، وأمضاهم عزيمة ، وأقدم الى على بركة الله وعونه ، وليكن معك بنوك ، وفرسانك ، ولا تأذن لاحد منهم بالانصراف حتى تقدم بهم على ان شاء الله والسلام .

=

أفلتكم قطرى ؟ قال : كدناه ببعض ما كادنا به ، فصرنا منه الى التى نحب . قال : فهلا اتبعتموه ؟ قال : كان الحد عندنا آثر من الفل . قال فكيف كان لكم المهلب وكنتم له ؟ قال : كان لنا منه شفقة الوالد ، وله منا بر الولد . قال : فكيف اغتباط الناس ؟ قال : فشا فيهم الأمن ، وشملهم النفل . قال : أكنت أعددت لى هذا الجواب ؟ قال : لا يعلم الغيب الا الله . فقال : هكذا تكون والله الرجال . المهلب كان أعلم بك حيث وجهك . . وانظر بعض ذلك عند المسعودى : مروج الذهب ١٥٩/٣ — ١٦٠ ، ابن الأثير : الكامل ٤٤٠/٤ — ٤٤١ ، النويرى : نهاية الأرب ١٥٧/٢١ .

قال : فلمـا ورد كتاب الحجاج على المهلب دعا بابنه يزيـد فاستخلفه على بلاد كرمان ، وقـال : يا بنى اعلم ، قـد كـان بالأمس لك ، اليوم لغيرك ، وليس بسـط يديك فيما تملك ، كبسطهمـا فيمـا لا تملك ، واعلم بابنى ، أنه انمـا لك من بلاد كرمان ما فضـل عن الحجاج ، وانك لن تحتمـل الا ما يحتمل أبوك ، وقـد رأيتنى يابنى فى أيام مصعب بن الزبير ، وأنا لا أطالب بدرهم واحـد ، فما سواه ، فكن يا بنى كذلك ، واعلم أن بلاد كرمان ليست لك ولا لأبيك بميراث ، وانظـر من تخلف معك من قومك ، فأحسن اليهم بقدر حاجتك اليهم ، وان رابك أمـر من الأمور فرده الى . والسلام (٢٥٥) .

---

(٢٥٥) الفتوح ٧/٧٦ — ٧٧ . وحقيقة الأمـر ، أن كتـاب الحجاج الى المهلب لم ينج من تلاعب ابن أعثم وتزيده فى الأخبار التاريخية التى يعرضهـا ، كمـا لـم تكن هـذه وصاة المهلب لابنه يزيـد وهـو يوليه كرمان ، ولذلك نقدمهما لتمام الفائـدة ، كمـا نقلهمـا المبرد وغيره من المؤرخين ، قـال : فكتب اليه الحجاج : أما بعـد ، فان الله عز وجل قد فعل بالمسلمين خيرا ، وأراحهم من حد الجهـاد ، وكنت أعلـم بمـا قبلك ، والحمـد لله رب العالمين — فاذا ورد عليك كتابى هـذا فاقسـم فى المجاهـدين فيئهم ، ونفل الناس على قدر بلائهم ، وفضل من رأيت تفضيله ، وان كانت بقيت من القـوم بقيـة ، فخلف خيـلا تقوم بازائهم ، واستعمـل على كرمان من رأيت ، وول الخيـل شهما من ولدك ، ولا ترخص لأحـد فى اللحـاق بمنزله دون أن تقـدم بهم على وعجل القـدوم ان شـاء الله .

فولى المهلب ابنه يزيـد كرمان ، وقال لـه : يا بنى ، انك اليـوم لست كمـا كنت ، انما لك من مال كرمان ما فضل عن الحجاج ، ولن تحتمل الا على ما احتمـل عليه أبوك ، فأحسن الى من معك ، وان أنكرت من انسان شيئا ، فوجهه الى وتفضـل على قومك ان شـاء الله .. الكامل ٣/٤٠٥ ، محمـد ماهر حمادة : الوثائق السياسية والاداريـة العائدة للعصر الأموى ص ٣٦٩ . وانظـر ابن الأثير : الكـامل ٤/٤٤١ .

قال ابن أعثم : ثم تجهز المهلب وسار حتى قدم على الحجاج فى بنيه وفرسان أصحابه وشجعانهم . فلما دخل وسلم رد الحجاج عليه السلام ، ثم قربه وأدناه ، وأجلسه معه على فراشه ! فقال المهلب: أيها الأمير ، أحمد الله على هلاك هذا العدو حمد من يعلم أن النعمة منه ، وأن الحمد له ، وأشكره شكر الموجب لك به المزيد ، ويهيئك به النعم (للنعم) ، فلسنا نمن على الله عز وجل ، ولا على الناس خيرا كان منا ، بل لله المن علينا . والسلام . قال الحجاج : أحسنت أبا سعيد ! أتيت بكلام قليل فى ايجاز (؟) ، وقد قضيت ما عليك ، وبقى ما علينا . ولكنى أحب أن تعرض على فرسانك الذين كانوا يبلون بين يديك . فجعل المهلب يعرض على الحجاج فارسا بعد فارس ، ويسميه له باسمه ، ويخبر بنجدته وشجاعته ، حتى عرض عليه ستمائة وعشرون (وعشرين) رجلا ، كل رجل منهم يعد بألف رجل ! فأمر الحجاج لكل واحد من هؤلاء الأبطال بجائزة سنية ، وأمر لسائر الجند بألف ألف درهم . ثم عقد للمهلب عقدا ، وولاه بلاد خراسان . وعزل عنها أمية ابن عبد الله (٢٥٦).

---

(٢٥٦) الفتوح ٧/٧٧ — ٧٨ . ولم يكن اللقاء بين المهلب والحجاج بهذا الفتور والبرود ، ولم يتضمن هذه الأرقام التى ذكرها ابن أعثم وانما كان لقاء حارا وحيويا ، وضح فيه تماما تقدير الحجاج الفائق للمهلب بن أبى صفرة وأبنائه وأبطال رجاله المعدودين ، وكأن صاحب الفتوح يتعمد التزيد فى الأمور التى لا تحتمل ذلك ، ويعكس الأمر فى المواقف التى ينبغى أن تعرض بتفاصيلها ! والذى نهتم له الآن أن نعرض الصورة كما وردت فى المصادر الأخرى التى يعول عليها .. قالوا :

=

....

وقدم المهلب على الحجاج ، فأجلسه الى جانبه ، وأظهر اكرامه وبره ، وقال : يا أهل العراق ، أنتم عبيد المهلب ، ثم قال : أنت والله كما قال لقيط بن يعمر الايادى :

وقلدوا أمركم لله دركم ... رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا

لا يطعم النوم الاريث يبعثه ... هم يكاد حشاه يقصم الضلعا

لا مترفا ان رخاء العيش ساعده ... ولا اذا عض مكروه به خشعا

مازال يحلب هذا الدهر أشطره ... يكون متبعا طورا ومتبعا

حتى استمرت على شزر مريرته ... مستحكم الرأى لا قحما ولا ضرعا

فقام اليه رجل ، فقال : أصلح الله الأمير ! والله لكأنى أسمع الساعة قطريا وهو يقول : المهلب كما قال لقيط الأيادى ، ثم أنشد هذا الشعر فسر الحجاج حتى امتلأ سرورا ! .

فقال المهلب : انا والله ماكنا أشد على عدونا ولا أحد ، ولكن دفع الحق الباطل ، وقهرت الجماعة الفتنة والعاقبة للتقوى ، وكان ما كرهناه من المطاولة خيرا مما أحببناه من العجلة . فقال الحجاج صدقت . اذكر لى القوم الذين أبلوا ، وصف لى بلاءهم . فأمر الناس فكتبوا ذلك للحجاج . فقال لهم المهلب : ماذ خر الله لكم خير لكم من عاجل الدنيا ان شاء الله . ثم ذكرهم للحجاج على مراتبهم فى البلاء ، وتفاضلهم فى الغناء ، وقدم بنيه : المغيرة ، ويزيد ، ومدركا ، وحبيبا وقبيصة ، والمفضل ، وعبد الملك ، ومحمدا . وقال : انه والله ، لو تقدمهم أحد فى البلاء ، لقدمته عليهم ، ولولا أن أظلمهم لأخرتهم ! .

قال الحجاج : صدقت ، وما أنت بأعلم بهم منى ، وان حضرت وغبت انهم لسيوف من سيوف الله ، ثم ذكر معن بن المغيرة بن أبى صفرة ، والرقاد وأشباههما ، فقال الحجاج : أين الرقاد ؟ فدخل رجل طويل ، أجنأ (مائل الظهر) . فقال المهلب : هذا فارس العرب ، فقال الرقاد:

=

قال ابن أعثم :

« ذكر مسير سفيان بن الأبرد الكلبى لما بعث به الحجاج الى حرب من انفلت من الأزارقة »

ودعا الحجاج برجل يقال له : سفيان بن الأبرد الكلبى ، فضم اليه جيشا كثيفا من أهل الشام وأهل العراق ، وأمره أن يطلب قطرى بن الفجاءة وأصحابه حيث كانوا من بلاد الله ! فسار سفيان ابن الأبرد من العراق ، حتى قدم مدينة الرى فنزلها ، وقطرى بن الفجاءة يومئذ بطبرستان قد تغلب عليها فأخذها ، وجعل يجبى خراجها . فسار اليه سفيان بن الأبرد فى جيشه ذلك . فبلغ ذلك قطرى بن الفجاءة ، فجمع اليه أصحابه من الأزارقة ومن التأم من أهل البلد ، ودنا القوم بعضهم من بعض ، فاقتتلوا قتالا شديدا .

=

أيها الأمير ، انى كنت أقاتل مع غير المهلب فكنت كبعض الناس ، فلما صرت مع من يلزمنى الصبر ، ويجعلنى أسوة نفسه وولده ، ويجازينى على البلاء ، صرت أنا وأصحابى فرسانا ! فأمر الحجاج بتفضيل قوم على قوم على قدر بلائهم ، وزاد ولد المهلب ألفين ، وفعل بالرقاد وجماعة شبيها بذلك . انظر : المبرد : الكامل ٣/٤٠٥ — ٤٠٩ ، ابن الأثير : الكامل ٤/٤٤١ . النويرى : نهاية الأرب — ٢١/١٥٧ — ١٥٨ . ولقيط بن يعمر بن خارجة الايادى ، شاعر جاهلى كبير من الحيرة ، وكان يعمل فى بلاط كسرى سابور ذى الأكتاف — كاتبا ومترجما ، وهو الذى حذر قومه بنى اياد من غزو كسرى لهم ، فقطع لسانه ، ثم قتله . توفى فى حوالى سنة ٢٥٠ قبل الهجرة . ابن الأثير : الكامل ١/٣٩٣ — ٣٩٤ ، خير الدين الزركلى ٥/٢٤٤ .

وكان تحت قطرى بن الفجاءة ، برذون له أشهب ، فكبا به البرذون فسقط قطرى ، وسقط عليه البرذون ، فكسر فخذه ، وأحاطت به الخيل من كل جانب ، فقال لهم قطرى بن الفجاءة : يافسـاق ، يافجـار ! هلموا فهذه اربتكم التى كنتم تطلبون ! فبرز اليه رجل يقال لـه : باذام ، مولى عبد الرحمن بن محمـد بن الأشعث ، فضربه ضربة اتقاهـا قطرى بيده ، فنكى السيف فى قطرى ، فرمى بهـا ، ثـم ضربه أخرى فسقط قطرى على قفاه ، فتقـدم اليه باذام ، فقتله واحتز رأسه ! .

وعطفت الخيل على أصحابه ، وفيهم عمرو القنـا ، وصالح بن مخراق ، وفرسـان من الأزارقة ، فلم يزالوا يقتتلون حتى قتلت الأزارقـة بأجمعهـا فى معرك واحد ، فمـا انفلت منهم الا رجل واحد يقـال له : قيس بن الأصم الضبى ، وهو الذى يقول أبياتا مطلعهـا .

صلى الاله على قوم شهدتهم   كانوا اذا ذكروا أو ذكروا شهقوا(٢٥٧)

الى آخرهـا .

ثم أمـر سفيان بن الأبرد ، برأس قطرى بن الفجاءة ، ورأس عمرو القنا وصـالح بن مخراق ، ورءوس القوم بأجمعهم ، فجمعت وعلقت فى أعناقهم وآذانهم الرقـاع ، وبعث بهـا الى الحجاج ، وكتب اليه بخبره مـع القوم ! (٢٥٨) .

---

(٢٥٧) لم أعثر على هذا البيت فى المصادر الأخرى التى أرجع اليها .

(٢٥٨) الفتوح ٧٩/٧ — ٨٠ . على أن مقتل رئيس الأزارقـة لـم يكن على هـذا النحو الذى صوره ابن أعثم فى فتوحه ، وانمـا قتل قطـرى بن الفجاءة فى أحد شعاب طبرستان هكذا :

لما بلغ الحجاج مسير قطرى وأتباعه نحو طبرستان ، أرسل اليه سفيان بن الأبرد الكلبى فى جيش عظيم ، ثـم انضم اليه اسحاق بن محمد بن الأشعث فى جيش لأهل الكوفة — بطبرستان — فأقبلوا فى طلب قطرى — وأصحابه ،

=

قال ابن أعثم — وهـذا هو المشـهد الأخير فى قصـة الأزارقـة كلهـا — : ثم سـار سفيان بن الأبرد فى أصحابه ، حتى صار الى قومس ونزل على ذلك الحصن الذى فيه عبيدة بن هـلال ، فأنشأ عبيدة بن هـلال يقول :

ذكـرت الصـغير وأشياعـه ... فيالك همـا اليـنـا سرى
فياليتنى قبل هـذا الحصـار ... ثويت بجيرفت فيمن ثـوى
ونحن من الخيل ذو منعــة ... أجش هزيما اذا ما جـرى (٢٥٩)

فلما طال الحصار على عبيدة بن هـلال وأصحابه بقومس ، ركب سفيان بن الأبرد الكلبى ذات يوم ، ودنا من الحصن فى نفر من أصحابه، ثم قال : يا معشر الأزارقة ، حتى متى ، والى متى هـذا الحصار ؟ وأنتم قوم عرب تكرهون العار ! اعلموا أنه لا أمان لأحـد منكم عندى، الا من جاء برأس عبيدة بن هلال وأخيه وابن عمه ! فكاد القـوم يثبوا!

=

فلحقوه فى شعب من شعاب طبرستان ، فقاتلوه ، فتفرق عنه أصحابه ، وسقط عن ظهـر دابة فتدهده الى أسـفل الشعب ، فمـر به أحـد علوج البلد ، فقال له قطرى : اسقنى الماء . فقـال العلج : أعطنى شيئا ! فقال : ما معى الا سلاحى وسوف أعطيكه اذا أتيتنى بالماء ، فانطلق العلج حتى أشرف على قطرى ، ثـم أسقط عليه حجرا من فوقه ، فأصـاب فخذه فأوهنـه ! فصـاح بالنـاس ، فأقبلوا اليه — والعلج لا يعرف قطريـا — غير أنـه يظن أنه من أشرافهم لكمـال سلاحه وحسن هيئته ، فأسرع اليه أهل الكوفة فقتلوه ! منهم : سورة بن أبجـر التميمى ، وجعفـر بن عبد الرحمن بن مخنف ، والصباح بن محمـد بن الأشعث ، وباذان مولاهم ، وعمر بن أبى الصلت ، وكل منهم ادعى قتله . ثـم ان سفيان بعث برأس قطرى الى الحجاج ، ورءوس أصحابه الذين قتلوا يومئذ راجع : الدينورى : الأخبـار الطوال ص ٢٨٠ . الطبرى : تاريخ ٣٠٩/٦ — ٣١١ . ابن الأثـير : الكامل ٤٤٢/٤ . النويرى : نهاية الأرب ١٥٩/٢١ — ١٦٠ . البغدادى : خزانـة الأدب ١٦٣/١٠ — ١٦٤ .

(٢٥٩) هذه الأبيات الثلاثة لـم أجدهـا فى مصادر البحث الأخـرى ، فهى مما انفرد بذكره ابن أعثم .

(يثبون) بعضهم على بعض ، لما فيهم من الجوع والجهد ! وأقبل عبيدة بن هلال حتى أشرف من الحصن على سفيان بن الأبرد وأصحابه ، فقال : يا أهل الشام ، يا عبيد من غلب ! يا بقية الأحزاب ! اجتمعوا الى ، فدنا الناس من الحصن • فقال : أيما أحب اليكم : أقرأ القرآن ، أم أنشدكم الشعر ؟ فقالوا : أما القرآن فقد حفظناه يا عبيدة بن هلال ، ولكن أنشدنا شيئا من شعرك • فقال عبيدة : يافسقة ، يا فجرة ، يا كفرة ! أتختارون الشعر على القرآن يا عبيد عبد الملك بن مروان والحجاج دهمان ! ثم أنشأ يقول :

الى الله أشكو ما أرى بجيادنا ... تساوك هزلى مخهن قليل (٢٦٠)
فان يك أفناها الحصار غربما ... تشحط يوما بينهن قتيل (٢٦١)
قتيل عزيز فى العشيرة فقده ... يودون لو يشرونه ببديل (٢٦٢)
تعاورها القذاف من كل جانب ... بقومى حتى صعبهن ذليل (٢٦٣)
وقد كن مما أن يرين بغبطة ... لهن بأبواب القباب صهيل (٢٦٤)
فيانفس صبرا كل ما حم واقع ... وليس الى ما تعلمين سبيل (٢٦٥)

---

(٢٦٠) جاءت كلمة ترى بدلا من أرى — فى رواية الطبرى (تاريخ ٣١١/٦) وابن الأثير (الكامل ٤٤٣/٤) • والتساوك : هو السير الضعيف من الهزال والضعف — والبيت فى اللسان (٣٣١/١٢) منسوب الى عبيد الله بن الحر الجعفى .

(٢٦١) : فى الطبرى وابن الأثير : المصدر والصفحة — وردت الكلمة « فيما » موضع كلمة « يوما » .

(٢٦٢) لم يرد هذا البيت فى المصادر الأخرى ، وهو بيت معيب — عروضيا — حيث جاءت قافيته لاما مكسورة ! .

(٢٦٣) فى رواية الطبرى وابن الأثير — المصدر والصفحة فيهما — « ذلول » موضع « ذليل » .

(٢٦٤) جاء الشطر الأول من هذا البيت « وقد كن مما أن يقدن على الوجى » المصدران السابقان ، والموضعان .

(٢٦٥) ليس البيت فى المصادر الأخرى التى بين أيدينا ، وكذلك البيتان التاليان ! .

وقومى الى دروازق الحصن فانظرى
الى خنــدق فيــه الحصار طــويل
لعمرى لئن أعطيت ســـفيان بيعتى
وخـــالفت ربى اننى لجهــول (٢٦٦)

قال ابن أعثم : ثم أمــر عبيدة بن هـــلال بباب الحصن ففتح ، ثم خرج فى أصحابه الى سفيان بن الأبرد وأصحابه ، فاقتتلوا قتالا شديدا على باب الحصن ســاعة ، ثــم نزل عبيدة بن هـــلال عن فرسه فعرقبه ، وكسر جفن سيفه ، وترك أصحابه ، ففعلوا كذلك ، فلم يزالوا يقاتلون قتال قوم قد أيسوا من الحياة ، حتى قتل عبيـــدة بن هــــلال وأصحابه كلهم فى معركـــة واحدة ، فأنشأ بعض الخوارج يقـــول أبياتا مطلعهـــا :

ذكرت الشراة الصادقين وقد فنوا وذكرنى أهل القران السذور (٢٦٧)
الى آخرهـــا .

ثم أمر سفيان بن الأبرد برأس عبيدة بن هلال ورءوس أصحابه ،

---

(٢٦٦) الفتوح ٧/٨٠ — ٨٣ . وعلى الرغم من أن ابن أعثم أتى بثلاثة أبيات ليست فى المصادر الأخرى ، فانه لـــم يذكـــر أول بيت أوردته تلك المصادر وهو قوله :

لعمرى لقد قام الأصم بخطبة لذى الشك منها فى الصدور غليل

الطبرى : تاريخ ٦/٣١١ ، ابن الأثير : الكـــامل ٤/٤٤٣ . والدروازق : أصله دروازه وهو بلســـان الفرس : باب المدينة . ياقوت : معجم البلدان ٢/٤٥٢ .

(٢٦٧) قال ياقوت فى معجم البلدان ٣/٢٠٢ — ٢٠٣ : سذور : موضع بقومس التجأ اليه الخوارج ، وأميرهم عبيدة بن هـــلال — بعـــد مهلك قطرى ابن الفجاءة بطبرستان ، فحصرهم فيه سفيان بن الأبرد مـــدة حتى قتلهم ، وحمـــل رءوسهم الى الحجاج ، فقـــال قيس بن الأصم يرثيهم :

ذكرت الشراة الصالحين وقد فنوا وذكرنى أهل القران الســـذور
بقومس فارفضت من العين عبرة يجود بها ريعانهـــا المتحـــدر
فقلت لأصحابى :قفوا،حين أشرفوا قليلا لكى نبكى وقوفـــا وننظـــر
الى بلد الشارين اضحت عظامهم تضمنهـــا من أرض قومس اقصـــر

فجمعت ، ووجهت الى الحجاج ، ووجه بهـا الحجاج الى عبد الملك ابن مروان .

قال ابن أعثم : وكان حرب الأزارقة من أول أمرهم وخروجهم الى أن أبادهم الله تبارك وتعالى وفرغ من حربهم ثمان عشرة سـنة ، والله أعلم (٢٦٨) .

---

(٢٦٨) الفتوح ٨٣/٧ — ٨٤ . وانظر فى ذلك مع شىء من الاختلاف : الطبرى : تاريخ ٣١١/٦ ، البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٨٦ — ٨٧ ، ابن الأثير : الكـامل ٤٤٢/٤ — ٤٤٣ (حوادث سنة سبع وسـبعين هجرية) .

بقيت نقطة أخيرة قـد كانت موضع خلاف بين المؤرخين تتعلق بالمـدى الزمنى الذى استغرقته وقائع فرقة الأزارقة هـذه ، فلقـد ذكر ابن أعثم فى هذه الفترة الأخيرة أنهـا امتدت ثمان عشرة سنة ، بينمـا قـال البغدادى فى كتابه الفرق بين الفرق ص ٨٦ : ثبت المهلب وبنوه وأتباعهم على قتالهم تسـع عشرة سنة ، بعضهـا فى أيام عبد الله بن الزبير ، وباقيها فى زمان خلافة عبد الملك بن مروان . على حين تجاوز ابن الأثير فى تقديره هـذا كله ، فقـال فى الكامل (٤٤٣/٤) : وانقرضت الأزارقـة بعد مقتل قطرى وعبيدة ، انمـا كانوا دفعة متصلة أهل عسكـر واحد ، وأول رؤسائهم نافع ابن الأزرق ، وآخرهم قطرى وعبيدة ، واتصـل أمرهم بضعـا وعشرين سنة

والأمـر هكذا فى حاجة بينة الى تحقيق وتحديد مؤسس على مقدمات واضحة سليمة ، وفى ذلك نقول وبالله التوفيق : لقـد فارق الخوارج — الذين كانوا بمكة وقاتلوا مـع ابن الزبير ضـد الأمويين — مكة بعـد أن اختلف رأيهم مع عبد الله بن الزبير فى عام ٦٤ هـ ، فانطلق نافـع بن الأزرق وأتباعه (وهم الأزارقة) نحو البصرة وكان من أمرهم ما سبق ذكـره فى هذا الفصـل ، وبذلك بدأت حروب الأزارقـة مـع أهل العراق فى ذلك العام ٦٤ هـ ، ولا خلاف على هـذا بين جميـع المؤرخين ..

كذلك ، لاخلاف بين المؤرخين جميعـا على أن مقتـل آخر زعمـائهم — قطرى بن الفجاءة وعبيدة بن هلال — وانتهاء أمرهم كان فى عـام ٧٧ هـ ، بعد عامين وأشهـر من بدء ولاية الحجاج على العراق وما يليه شرقا ..

والنتيجة المحددة الظاهرة للمسألة هى : أن حركة الأزارقـة امتـدت أربعـة عشر عاما كاملة ، لا تزيـد يوما واحدا عن ذلك ، نصف هـذه المدة فى العقـد السابـع ، والنصف الأخير فى العقـد الثامن من القـرن الأول للهجرة . واذن فمـا خط قلم المؤرخين غير ذلك فهو من قبيل السهو الـذى لم يعصـم منه بشر ..

خاتمة

« الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ».

خاتمة القول فى هذا العمل — الذى أرجو أن يكون خالصا لوجه الله الكريم ، نافعا لكل من ينشد الحق ، ويبتغى المعرفة — أن أبين مجموعة من الأمور ذات الأهمية الخاصة فى مجال البحث التاريخى ، قد تكشفت وتجلت من خلال هذه الدراسة المختصة بأثر علمى ، ذى لون فريد ، وطريقة غير تقليدية ، وطبيعة لم نألفها ، فى آثار ومصنفات الأقدمين التاريخية ، بيد أنه أصبح — بعد أن عرفه الباحثون — ضمن قائمة تراثنا التاريخى الحافل . انه كتاب الفتوح لأبى محمد أحمد بن محمد بن على بن أعثم الكوفى ، المتوفى آخر سنة ٣٢٠هـ أو بعدها .

فلقد أبانت هذه الدراسة أن ابن أعثم الكوفى ، ما يزال شخصية مجهولة فى معظم جوانبها ، وذلك لندرة ما وصل الينا من معلومات ضئيلة ، لا تكاد تعطى فكرة صالحة عنه ، وحتى السنة التى قدرها بروكلمان تاريخا تقريبيا لوفاته كشفت مناقشة ذلك ومقارنته بما ذكره ياقوت عن الكتاب الثانى لابن أعثم — وهو كتاب التاريخ — عن عدم الدقة ، والبعد عن الصواب فى هذا التقدير . وأن وفاته ينبغى أن تكون بعد مقتل الخليفة العباسى المقتدر بالله فى سنة ٣٢٠هـ ، ولا يصح أن تكون فى نحو عام ٣١٤ هـ ، كما قال بروكلمان ومن تابعه .

وقد أوضحت هذه الدراسة كذلك ، أن ابن أعثم الكوفى ، كاتب قد اقتحم ميدان التأليف التاريخى ، قبل أن تكتمل أهبته ، ويستحضر عدته ، ويستعد نفسيا ، للقيام بدور المؤرخ الحق ، الذى يعنيه فى المقام

الأول أن يعرض التاريخ فى صدق وأمانة وتجرد ، كما هو ، بما اشتمل عليه من وقائع نحبها أو نبغضها ، نقبل عليها أو ننفر منها ، نسعد بها أو يحزننا سماعها • ولكنه لم يكن يعنيه أن يفعل ذلك ، أو فى قول أدق من هذا : كان الذى يعنيه من كتابة هذا التاريخ أن يعرضه كما يرغب هو أو يشتهى ، لا كما يجده مدونا فى الكتب ، واستمع اليه أو رواه عن الشيوخ والرواة •

والحقيقة التى ينبغى أن تعرف أصدق المعرفة ، أن المؤرخ — شأنه فى ذلك شأن صاحب أى عمل ذى خطر فى الحياة الفكرية والثقافية — محتاج الى كافة الوسائل والملكات التى تؤهله لتحمل هذه المهمة العلمية الجليلة ! ولابدع فى ذلك مطلقا ، ولكن البدع هو التجرؤ ، والتقحم والهجوم ، قبل تحصيل هذه الوسائل والملكات ، التى تحدث عنها العلماء، واستخلصوها ، ثم حددوها فى قولهم هذا : « وينبغى أن يشترط فى المؤرخ ما يشترط فى راوى الحديث من أربعة أمور هى : « العقل ، والضبط ، والاسلام ، والعدالة » وزادوا فى المؤرخ الى جانب ذلك : المعارف المتنوعة ، وحسن النظر ، ودقة التأمل فيما يعرض له من أخبار • ثم قالوا فى تعليل ذلك : وانما اشترطوا ذلك ليكون كلاهما معتمدا فى أمر الدين ، وأمينا فيه ، ولتزداد الرغبة فى تاريخه ، وللاحتراز عن المجازفة والافتيات ، فيحصل له الأمن من الوقوع فى الضلالة والاضلال [1] •

وحين عرضنا تاريخ ابن أعثم للبحث والتأمل ، وجدنا مؤلفه قد فرط فى هذه الوسائل والملكات الواجب توفرها فى كاتب التاريخ ، أو ربما لم يستجمعها أصلا ، فصال وجال فى غير ميدانه ، فضل الطريق ،

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ٢٩١/١ ، محيى الدين الكافيجى (ت ٨٧٩ هـ) : المختصر فى علم التاريخ (منشور ضمن القسم الثانى من كتاب علم التاريخ عند المسلمين لفرانز روزنتال . ط بغداد ١٩٦٣ م) ص ٣٣٦ — ٣٣٧ .

وتاه فى بيداء الوهم والغلط ، وكشف النقد عن الزلات والعثرات التى هوت بكتابه هذا المهوى البعيد !

وأول مظاهر افتقاد ابن أعثم الكوفى لوسائل المؤرخ وعدته ، أنه لم يدرس التاريخ دراســة كافية يعتد بها ، لا بالرواية عن العلمــاء والشيوخ ، ولا بالاطلاع على مصنفات المؤرخين السابقين ! وآية ذلك هو ما كشف عنه البحث ، بالتحليل الدقيق لموارد ابن أعثم — بعــد حصرها وتعقبها جميعا — فى كتاب الفتوح : أنه يكاد يكون كتابا تاريخيا بغير موارد معروفة ، أى أنه تاريخ لا أصل له !! وبيان ذلك : أن مصنف الفتوح ، وان كان قد ذكر أنه « حدثنى فلان ، وحدثنى فلان ، وقال فلان ، وذكر فلان » فى بضع عشرات المرات ، غير أن جميع ذلك لم يصح ، ولم يثبت ، لأن أكثر هؤلاء الذين زعم أنهم حدثوه ، أو أسند اليهم الأقوال المرسلة — التى لا نعلم كيف بلغته ، أو الوسيلة التى علم بها تلك الأقوال — أكثر هؤلاء رجال لم نقف لهم عــلى ذكر ، ولم نعثر لهم عــلى أثر فى كتب الرجال والتاريخ العديدة التى جعلناها مصدرنا وعمدتنا فى هــذا الكتاب ! فمن أين اذن جاء ابن أعثم بهــذه الروايات والأخبار عنهم ؟

اننا — فى كتاب الفتوح هذا — ازاء عملية اختلاق وتقول عــلى أناس لا يتأتى لابن أعثم أن يلقاهم أو يسمع منهم شيئا ، على ما بينا آنفا بمقتضى قواعد النقد والتحليل العلمى للرواية التاريخية ، وحتى يظهر مستقبلا ما يفيد وجود هؤلاء حقيقة ، ولقاء ابن أعثم اياهم ، وسماعه منهم وروايته عنهم ، فان السلوك المنطقى ، والالتزام بالأمانة العلمية ، يقتضينا التوقف عن التسليم بهذه الأخبار التى فقدت قيمتها ، وافتقدت الشاهد الذى يؤيدها لدى المؤرخين الآخرين .

ومن وسائل المؤرخ وملكاته : أن يتمتع باليقظة الذهنية ، وقــوة الحافظة ، والضبط والاتقان ، غير أن هذا البحث كشف عن افتقار ابن

أعثم الكوفى الى هذه الصفات ، فجاء تاريخه هذا مليئا بالتشـــويش والخلط بين حوادثه ومناسباته المختلفة ، وتقديم ما ينبغى تأخيره ، وتأخير ما يجب تقديمه ، كما افتقد الترتيب والتنسيق والربط بين وقائع التاريخ المتعاقبة ، كذلك تكاثرت فيه الأوهام البينة فى التواريخ والأرقام المختلفة ، وكل ذلك انما كان مرده الى أن صاحب الفتوح كاتب تاريخى ، لا يأبه لهذه العناصر المهمة فى رواية التاريخ ، كما تعتريه الغفلة فى بعض الأحيان ، وهو أيضا سيىء الحفظ ، قليل الضبط ! .

كذلك أبانت هذه الدراسة عن افتقار النص التاريخى — فى فتوح ابن أعثم — الى التحديد الزمانى ، الذى يؤرخ وقوع الحدث ، أو حصول المناسبة ، كما أنه لا يهتم بدقة تحديد المكان الذى شهد ذلك الحدث ، أو تلك المناسبة التى يحكى عنها ! ولا شك فى أن مثـــل هـــذا العرض التاريخى لا يقـــدم لقارئه المعرفة التاريخية المنشـــودة ، بل لا نبالغ اذا قلنا : انه لا يقدم المعرفة على الاطلاق ، فانه لا يخفى على أحد أهمية عنصرى الزمان والمكان فى بناء وتكوين الخبر التاريخى .

وأوضحنا كذلك فى دراستنا لفتوح ابن أعثم ، أنه قد تنكب السبيل السوى ، لوظيفة المؤرخ بين سائر المفكرين والعلماء فى المجتمع ، من حيث أراد تسخير التاريخ ، واستغلال رسالته العلمية والانسانية ، فى بث الدعاية لمذهبه ، والترويج لفكره الخاص ، والاساءة فى ذات الوقت الى المذاهب الأخرى ، وتشويه صور أصحابها الى أبعد غاية ! وهـــو بذلك قد تجاهل تماما أهمية وخطورة العمل التاريخى المبنى على قواعده الأصيلة وقوانينه الصحيحة ، فى تثقيف الناس ، واطلاعهم على أحوال الماضـــين من الأمم فى أخلاقهم ، والســـالفين من البشر فى سيرهم وسياساتهم ، حتى تتحقق فائدة الاقتداء ، واستخلاص العبرة والعظة لمن يريد ذلك فى جميـــع الأحوال .

ان من حقائق التاريخ الاسلامى التى لا نجادل فيها : أن عـــلى

ابن أبى طالب رضى الله عنه من أرفع الصحابة منزلة ، وأعلاهم رتبة ، ومن أسبقهم الى الاسلام ، ومن أصدقهم جهادا فى سبيل الله والاسلام، ولكن ذلك لا يعنى أن نغمط أقرانه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حقهم ، وأن ننكر فضلهم ، وأن نحمل عليهم ، ونحملهم أوزارا هم برآء منها !

لقد كشفت هذه الدراسة أن ابن أعثم ، قد اتخذ من كتابه الفتوح مجالا لاعلان مواقفه المضادة ، وآرائه السيئة والمسيئة فى الصحابة ، دون أن يعنيه أو يهمه ان كانت هذه المناسبات أو القضايا التى جعلها وعاء لهذه الآراء صحيحة ، أو باطلة ، ثابتة أو مشكوكا فى حدوثها ! لقد أثبتنا بمناقشة بعضها وتحليله — فى الفصل الثالث من كتابنا هذا — أنها نسيج خيال ، وبنات أوهام ، وأساطير قاص !؟ ولا ريب أن عملا كهذا ليس من التاريخ فى شىء ، وأنه والتاريخ لا يلتقيان على الاطلاق ، لأن مهمة المؤرخ الحق أن يستخلص الآراء ، ويبنى المواقف من خلال ما يقوله التاريخ وحسب ، لا أن يستنطق التاريخ بما يريد هو ، فان لم يستجب له ويحقق بغيته ، لم يتردد فى تأليف وصنع الأخبار ، وتلفيق الروايات التى تحقق له ما يشتهيه ، ثم يضعها الى جانب الأخبار والروايات المستقرة عند غيره من أصحاب التواريخ !

كذلك بينا أن صاحب الفتوح قد كرس جهده — الى جانب ما سبق — فى الدعاية العصبية لقومه الذين ينتمى اليهم — كما نعتقد بناء على الشواهد والقرائن المذكورة فى ألفصل الأول — فظهر واضحا فى تضاعيف الكتاب كله تعصبه وانحيازه لعرب اليمن ، وتفضيله لهم ، والتغنى بمجدهم ، ونسبة الأعمال الكبيرة والخطيرة اليهم ، بينما هو يقلل من شأن القيسية بصورة غير عفوية أو تلقائية ! فأما الفرع اليمنى الذى ينحدر منه — وهم أزد عمان — فأولئك هم صفوة العرب ، ومعدن الأصالة ، وهم أولو الشجاعة والنجدة ، وأرباب الفروسية ، وأصحاب

البطولات ، ومفاتيح النصر فى المواقف الشديدة ، والكرم والسخاء أحد سجاياهم العديدة !!

وأوضحت هذه الدراسة أيضا ، أن قدرا كبيرا من تاريخ ابن أعثم هذا قد صيغ فى قالب قصصى خالص ، لعب الخيال المحض فيه دورا بارزا ، بحيث جعل الفرق بينه ، وبين الرواية التاريخية التقليدية ، والمقبولة التى عرفناها لدى مؤرخينا الآخرين — كالطبرى مثلا — ، جعل الفرق بينهما شاسعا ، أبعد هذا القدر من الفتوح عن أن يكون تاريخا ، بينما صار الى القصة أقرب وبها أشبه ! واذا كان التاريخ علما له قواعده وضوابطه ، وقوانينه التى يحرسها ، ويلتزم بها عقل المؤرخ ، وفكره الواضح المرتب ، فان هذا القدر الكبير من محتوى الفتوح ، قد أسقط من حسابه ذلك الالتزام والخضوع لمقاييس المنهج التاريخى ، المتفق عليه بين علماء هذا الفن • وذلك من أشد المطاعن الموجهة الى فتوح ابن أعثم الكوفى على الاطلاق !

وبينا كذلك — بالتحليل والمقارنة — أن لغة الفتوح وأسلوبه ، لا ينتميان الى لغة وأسلوب الكتابة العلمية الفنية ، اللذين يعرفان للقرنين الثالث والرابع ، حيث عاش ابن أعثم الكوفى حياته جميعا ، ورجحنا أن الركاكة والانحطاط الواضحين فى أسلوب وصيغة الفتوح ، يؤكدان أن العبث ، قد لحق بهذا الكتاب ، وأصابه على يد ناسخه — محمد بن على بن محمد الطنبذى — الذى ينتمى الى القرن التاسع الهجرى ، حيث كان أسلوب الكتابه السائد شبيها الى حد كبير ، بأسلوب الفتوح الذى نراه فى النسخة المطبوعة ، التى بين أيدينا ، ان هذا الذى رجحناه وذهبنا اليه فى هذه المسألة هو أقرب توجيه وتفسير لهذا الاشكال الذى يوهم انقطاعا بين لغة الكتاب ، وبين العصر الذى كتب فيه •

وأبان هذا البحث ، أن طائفة كبيرة من الشعر والرجز الذى أورده

ابن أعثم الكوفى ، وحشا الفتوح به حشوا ثقيلا مملا ، ونحله أسماء شعراء معروفين ومجهولين ، مع أنه لا يصح — فنيا — أن يكون لهؤلاء الشعراء المعروفين شيء منه لضعفه وتهافته ، أبان بحثنا هذا أن طائفة كبيرة من ذلك الشعر ، من المرجح أن تكون من نظم صاحب الفتوح نفسه •

ومن التجاوزات الأخرى التى كشف عنها البحث : أن عنوان هذا الكتاب « الفتوح » لا ينطبق على مضمونه ، ولا يتفق مع محتواه ! وأن أيسر ما يقال بهذا الصدد : أن ابن أعثم قد توسع كثيرا فى مفهومه لكلمة « الفتوح » بحيث أصبحت فضفاضة للغاية ، فجعلها تتسع لتشمل أخبارا وقضايا ، وحوادث ، وقصصا ، لا صلة لها بالفتوح على أى حال !

وآخر الأمور التى ينبغى التنبه اليها ، وذكرها فى هذه المناسبة : أن نؤكد على أن تصدى دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن بالهند ، لطبع هذا السفر التاريخى الكبير ، جهد طيب مشكور ، ينبغى أن يذكر للقائمين على هذه المؤسسة العريقة بالثناء والتقدير ، غير أن الحق يقتضينا كذلك ، أن نوضح الحاجة الى ضرورة اعادة تحقيق هذا الكتاب ، وطبعه فى صورة أدق ، تتلافى ما جاء بهذه الطبعة من أوهام ، وأخطاء فاشية بأجزاء الكتاب فشوا ملحوظا ••

وبعد ، فقد آن لهذه الرحلة الطويلة مع ابن أعثم وفتوحه أن تنتهى ، وأن نطوى صفحتها العريضة ، لقد كانت رحلة شاقة فى شعاب التاريخ المختلفة ، ودروبه السالكة والملتوية ، و لاأجد حرجا فى القول بأننى لقيت عنتا شديدا ، وواجهت مواقف عصيبة فى أثناء رحلتى تلك ! غير أن هذه هى طبيعة البحث العلمى ، التى لا خلاف عليها بين اثنين •

ان المناداة بفكرة ، والدعوة اليها ، والاجتهاد فى اشاعتها ونشرها بين الناس ، أمر لا يتأتى اعتمادا على الحماس العاطفى الجارف ،

والتعصب الجاهل ، والخيال الجامح ، والخلط بين الحق والباطل ، والتشويش فى المنطق — كما صنع ابن أعثم الكوفى فى الفتوح ، وانما يكون النجاح فى ذلك باعمال العقل والمنطق أولا ، والدعوة الهادئة ، والحكمة البليغة ، والتوجيه الحسن ، وتقديم الحجة البينة المقنعة ، وترتيب الأمور ترتيبا سليما مقبولا ، بذلك يقترب الداعى من السامعين والمتلقين ، فيكون أدعى الى حسن الاستجابة ، وأحرى بجميل الرد منهم ! وان لنا فى القرآن الكريم لخير موجه وهاد « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » (سورة النحل ، الآية ١٢٥) •

ولعل أجمل مايسر الباحث ، ويشرح صدره ، ويغمره رضى وسعادة ، أن يجد صدى طيبا ، وتقبلا حسنا لعمله العلمى فى مجتمع العلماء ومنتدى الباحثين ، وانني لأسأل الله عزت حكمته ، وجلت قدرته ، أن يكون حظ عملى من التقبل والتوفيق فوق ما قدمت من جهد ، وما لقيت من عناء • وحسبى أننى بذلت غاية ما استطعت ، وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب • وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، والحمد لله رب العالمين •

مصادر البحث ومراجعه

رتبت أسماء المؤلفين على حروف المعجم

ابن الأثير : عز الدين ، أبو الحسن على بن محمد الشيبانى ، الجزرى ، المتوفى عام ٦٣٠ هـ .

١ ـ أسد الغابة فى معرفة الصحابة ـ بتحقيق محمد ابراهيم البنا وآخرين ـ مطبعة دار الشعب ـ القاهرة ١٩٧٠م .

٢ ـ الكامل فى التاريخ ـ طبعة بيروت ـ دار صادر ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م .

الامام أحمد : أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانى ، المتوفى عام ٢٤١ هـ .

٣ ـ كتاب فضائل الصحابة ـ بتحقيق وصى الله بن محمد بن عباس . طبعة مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

٤ ـ المسند ـ طبع المطبعة الميمنيه بمصر ١٣١٣ هـ .

الأشعرى : أبو الحسن على بن اسماعيل بن اسحاق ، المتوفى عام ٣٢٤هـ

٥ ـ مقالات الاسلاميين ـ بتحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد . طبعة القاهرة ١٣٦٩ هـ / ١٩٥٠ م .

ابن أعثم : أبو محمد أحمد بن محمد بن على الكوفى ، كان موجودا عام ٣٢٠هـ .

٦ ـ كتاب الفتوح ـ طبع دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ـ الهند ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م ـ ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م .
ونسخة أخرى طبع دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

البخارى : أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم الجعفى ، المتوفى عـام ٢٥٦ هـ .

٧ — التاريخ الصغير — بتحقيق محمود ابراهيم زايد . مطبعـة الحضارة العربية بالقاهرة ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

٨ — الجامع الصحيح — مطابع دار الشعب — ١٣٧٨هـ . القاهرة .

بروكلمان : كارل بروكلمان — المستشرق الألمانى ، المتوفى عام ١٩٥٦م .

٩ — تاريخ الأدب العربي — الترجمة العربية للدكتور عبد الحليم النجار وآخرين . طبع دار المعارف بمصر — طبعة رابعة ١٩٧٧ م .

ابن بشكوال : أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود ، الأنصارى ، الأندلسى ، المتوفى ٥٧٨ هـ .

١٠ — كتاب الصلة — مطبعة السعادة ١٣٧٤هـ — القاهرة .

البغدادى : عبد القـادر بن عمر بن بايزيد بن الحاج أحمد ، المتوفى عـام ١٠٩٣هـ .

١١ — خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب — بتحقيق عبد السلام محمد هارون . الطبعة الثانية — الهيئة المصرية العامة للكتاب، ومكتبة الخانجي بالقاهرة ١٩٧٩ — ١٩٨٣م .

البغدادى : عبد القاهر بن طاهر بن محمد الاسفرائينى ، التميمى ، المتوفى عام ٤٢٩هـ .

١٢ — الفرق بين الفرق — بتحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد — مطبعة المدنى بالقاهرة — بدون تاريخ .

البلاذرى : أحمد بن يحيى بن جابر بن داود ، المتوفى عام ٢٧٩هـ .

١٣ — فتوح البلدان — بتحقيق صلاح الدين المنجد . مطبعة لجنة البيان العربى القاهرة — بدون تاريخ .

ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن يوسف ، البشبغاوى ، الظاهرى ، المتوفى عام ٨٧٤هـ •

١٤ ـ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ـ النسخة المصورة عن طبعة دار الكتب المصرية • القاهرة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م •

ابن تيمية : تقى الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحرانى ، الدمشقى ، الحنبلى ، المتوفى عام ٧٢٨ هـ •

١٥ ـ منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة والقدرية ـ نشر دار الكتب العلمية ـ بيروت • بدون تاريخ •

الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب ، الكنانى ، الليثى ، المتوفى عام ٢٥٥ هـ •

١٦ ـ البيان والتبيين ـ بتحقيق عبد السلام محمد هارون • الطبعة الثالثة • نشر مكتبة الخانجى بالقاهرة ـ بدون تاريخ •

الجزيرى : عبد الرحمن بن محمد عوض ، المتوفى عام ١٣٦٠هـ •

١٧ ـ كتاب الفقه على المذاهب الأربعة ـ دار الفكر ـ بدون تاريخ •

جواد على : (الدكتور) جواد على •

١٨ ـ المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ـ الطبعة الثالثة ١٩٨٠م ـ بيروت •

١٩ ـ موارد تاريخ الطبرى ـ بحث مطول نشر بمجلة المجمع العلمى العراقى ببغداد بدءا من الجزء الأول ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م •

الجوهرى : أبو النصر اسـماعيل بن حماد الفارابى ، المتوفى عـام ٣٩٣هـ أو ٣٩٨هـ •

٢٠ — الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) — بتحقيق أحمد عبد الغفور عطار • الطبعة الثانية — الرياض ١٤٠٢هـ •

ابن أبى حاتم : أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن ادريس بن المنذر التميمى ، الحنظلى الرازى المتوفى عـام ٣٢٧ هـ •

٢١ — كتاب الجـرح والتعديل — الطبعة الأولى بمطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن — الهند ١٣٧١ — ١٣٧٣هـ / ١٩٥٢ — ١٩٥٣م •

الحاكم : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد النيسابورى ، المتوفى عـام ٤٠٥هـ •

٢٢ — المستدرك على الصحيحين فى الحديث • مطبعة دائـرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن — الهند ١٣٣٤هـ •

ابن حبان : أبو حاتم محمد بن حبان بن معاذ بن معبد بن سعيد التميمى ، البستى ، المتوفى ٣٥٤ هـ •

٢٣ — مشاهير علماء الأمصار — تصحيح م • فلايشهمر — دار الكتب العلميـة — بيروت • بدون تاريخ •

ابن حجر العسقلانى : شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن حجر العسقلانى المتوفى عام ٨٥٢هـ •

٢٤ — الاصابة فى تمييز الصحابة — بتحقيق الدكتور طه محمد الزينى • شركة الطباعة الفنية بالقاهرة ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م •

٢٥ — تهذيب التهذيب — طبعة أولى بدائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن بالهند — ١٣٢٥هـ •

٢٦ — لسان الميزان — طبعة أولى بدائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن بالهند ١٣٣١هـ •

ابن حزم : أبو محمد على بن أحمد بن سعيد الأندلسى ، المتوفى عام ٤٥٦ هـ•

٢٧ — جمهرة أنساب العرب — بتحقيق عبد السلام محمد هارون — طبعة رابعة بدار المعارف بمصر ١٩٧٧م •

٢٨ — جوامع السيرة النبوية — مطبعة دار الجيل بالقاهرة ١٩٨٢ م •

حسن : حسن ابراهيم (الدكتور) ، المتوفى عام ١٩٦٨م •

٢٩ — تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى — الجزء الثالث — الطبعة السابعة بالقاهرة ١٩٦٥م •

حمادة : الدكتور محمد ماهر •

٣٠ — الوثائق السياسية والادارية العائدة للعصر الأموى ٤٠ — ١٣٢هـ / ٦٦١ — ٧٥٠م — الطبعة الأولى — مؤسسة الرسالة — بيروت ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م •

الخطيب البغدادى : أبو بكر أحمد بن على بن ثابت ، المتوفى عام ٤٦٣ هـ

٣١ — تاريخ بغداد أو مدينة السلام • نسخة مصورة عن طبعة القاهرة — دار الكتب العلمية • بيروت •

ابن خلدون : ولى الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن الحضرمى ، المتوفى عام ٨٠٨هـ •

٣٢ — المقدمة (مقدمة ابن خلدون) — بتحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى ، الطبعة الثالثة بمطبعة نهضة مصر • القاهرة ١٩٧٩م •

ابن خلكان : شمس الدين أبو العباس أحمد بن أبى بكر ، المتوفى عام ٦٨١هـ .

٣٣ — وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان — بتحقيق الدكتور احسان عباس ، مطابع دار صادر ببيروت ١٩٦٨ — ١٩٧٢م .

خليفة بن خياط : أبو عمرو خليفة بن خياط بن أبى هبيرة خليفة بن خياط الليثى ، العصفرى ، الملقب بـ « شباب » المتوفى عام ٢٤٠هـ .

٣٤ — تاريخ خليفة بن خياط — بتحقيق الدكتور أكرم ضياء العمرى — الطبعة الثانية دمشق ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .

٣٥ — كتاب الطبقات — بتحقيق أكرم ضياء العمرى — الطبعة الأولى ، مطبعة العانى بغداد ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .

الدار قطنى : أبو الحسن على بن عمر البغدادى ، المتوفى عام ٣٨٥هـ .

٣٦ — الضعفاء والمتروكون — بتحقيق موفق بن عبد الله بن عبد القادر . طبع الرياض ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

الداودى : محمد بن على بن أحمد ، المصرى ، المتوفى عام ٩٤٥هـ .

٣٧ — طبقات المفسرين — بتحقيق على محمد عمر — الطبعة الأولى — بمطبعة الاستقلال بالقاهرة ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م .

الدينورى : أبو حنيفة أحمد بن داود بن وننند ، المتوفى ٢٨٢هـ .

٣٨ — الأخبار الطوال — بتحقيق عبد المنعم عامر — الطبعة الأولى بدار احياء الكتب العربية بمصر عام ١٩٦٠ م .

الذهبى : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركمانى ، الدمشقى ، المتوفى عام ٧٤٨هـ .

٣٨ — تاريخ الاسلام (المغازى) — بتحقيق محمد محمود حمدان . الطبعة الأولى بمطبعة نهضة مصر ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ .

٤٠ — ديوان الضعفاء والمتروكين وخلق من المجهولين وثقات فيهم لين — بتحقيق حماد بن محمد الأنصارى — طبع مطبعة النهضة الحديثة بمكة المكرمة ١٣٨٧هـ •

٤١ — سير أعلام النبلاء (٢٣ جزءا) بتحقيق الدكتور بشار عواد معروف وآخرين ، الطبعة الثانية — مطابع مؤسسة الرسالة ببيروت ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م •

٤٢ — ميزان الاعتدال فى نقد الرجال — بتحقيق على محمد البجاوى — القاهرة ١٩٦٣م •

الريس : الدكتور محمد ضياء الدين •

٤٣ — النظريات السياسية الاسلامية — الطبعة السابعة — القاهرة ١٩٧٩م •

زرزور : نعيم زرزور •

٤٤ — ترجمة ابن أعثم الكوفى — فى صدر طبعة بيروت لكتاب الفتوح لابن أعثم الكوفى — دار الكتب العلمية ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م •

الزركلى : خير الدين الزركلى ، المتوفى عام ١٩٧٦م •

٤٥ — الأعلام — الطبعة الرابعة (٨ مجلدات) — مطابع دار العلم للملايين — بيروت ١٩٧٩م •

السبكى : تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى ، المتوفى عام ٧٧١هـ •

٤٦ — طبقات الشافعية الكبرى — بتحقيق الدكتورين محمود محمد الطناحى ، عبد الفتاح الحلو — مطبعة الحلبى بمصر ١٩٦٤م •

سزكين : فؤاد سزكين .

٤٧ — تاريخ التــراث العربى — ترجمة الدكتور محمود فهمى حجازى . مطابع جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

ابن سعد : أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهرى — كــاتب الواقدى . المتوفى عام ٢٣٠هـ .

٤٨ — كتاب الطباقت الكبرى — طبعة دار التحرير بمصر ١٣٨٨ — ١٣٩٠هـ / ١٩٦٨ — ١٩٧٠م .

أبو سعده : الدكتور محمد جبر .

٤٩ — الحركة العلمية فى جامع عمرو بن العاص فى القرنين الأول والثانى للهجرة — رسالة دكتوراه — ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م — مكتبة كلية اللغة العربية بالقاهرة .

٥٠ — ابن عبد الحكم المؤرخ وكتابه فتوح مصر وأخبــارها . الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .

٥١ — نص قديم حول علاقة الحبشة بالدولة الاسلامية فى عهد عثمان بن عفان — مقال منشور بالعدد السادس من مجلة كلية الشريعة والدراسات الاسلامية . جامعة أم القــرى بمكة المكرمة ١٤٠٢ / ١٤٠٣هـ .

السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيرى ، المتوفى عام ٩١١هـ .

٥٢ — تاريخ الخلفاء — بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد — الطبعة الرابعة — مطبعة الفجالة الجديدة . القاهرة ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م .

شعوط : الدكتور ابراهيم على :

٥٣ ـ أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ ـ الطبعة الأولى ، دار الطباعة المحمدية ـ القاهرة ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م •

الصفدى : صلاح الدين خليل بن أيبك ، المتوفى عام ٧٦٤هـ •

٥٤ ـ الوافى بالوفيات ـ صدر منه سبعة عشر جزءا ، باعتناء مجموعة من المستشرقين والعرب ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ـ عن دار النشر الألمانية « فرانز شتاينر ـ فيسبادن » •

ابن الصلاح : تقى الدين عثمان بن عبد الرحمن (الصلاح) بن عثمان ابن موسى بن أبى النصر ، الشهرزورى المتوفى عام ٦٤٣هـ •

٥٥ ـ مقدمة ابن الصلاح ـ بتحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشـــاطىء) • الطبعة الأولى ـ مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٧٤م •

الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد ، المتوفى عام ٣١٠هـ •

٥٦ ـ تاريخ الرسل والملوك ـ بتحقيق محمد أبى الفضل ابراهيم • الطبعة الثانية ، مطابع دار المعارف بمصر ١٩٧٦م •

الطهرانى : محمد محسن الشهير بالشيخ آقابزرك الطهرانى •

٥٧ ـ الذريعة الى تصانيف الشيعة ـ الطبعة الأولى ، بمطبعة النجف ١٣٨٩هـ •

ظهير : احســـان الهى •

٥٨ ـ الشيعة والسنة ـ الطبعة العاشرة • لاهور ـ باكستان • ١٤٠١هـ /١٩٨١م •

ابن عبد البر : أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد ، القرطبى ، المتوفى عـام ٤٦٣هـ ٠

٥٩ — الاستيعاب فى معرفة الأصحاب — بتحقيق على محمـد البجاوى — مطبعة نهضة مصر — بدون تاريخ ٠

ابن عبد الحق : صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق بن شـمائل ، البغدادى ، المتوفى علم ٧٣٩هـ ٠

٦٠ — مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع — بتحقيق على محمد البجاوى ٠ الطبعة الأولى بدار احياء الكتب العربية ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م ٠

ابن عبد الحكم : أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم القرشى ، المصرى ، المتوفى علم ٢٥٧هـ ٠

٦١ — فتوح مصر وأخبارها — بتحقيق تشارلس تورى — طبع ليدن ١٩٢٠ م ٠

ابن عبد الحكم : أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن ليث القرشى ، المصرى ، المتوفى عام ٢١٤هـ ٠

٦٢ — سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الامام مالك بن أنس وأصحابه — بتحقيق أحمد عبيد — طبع القاهرة ١٣٤٦هـ ٠

ابن عبد ربه : أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسى ، المتوفى عام ٣٢٨ هـ ٠

٦٣ — العقد الفريد — بتحقيق أحمـد أمين ، وأحمد الزين ، وابراهيم الابيارى — نشر دار الكتاب العربى فى بـيروت ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م — عن طبعة لجنة التأليف والترجمـة والنشر ٠

عبد اللطيف : الدكتور عبد الشافى محمد :

٦٤ — العالم الاسلامى فى العصر الأموى — دراسة سياسية — الطبعة الأولى ، بدار الوفاء للطباعة القاهرة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .

ابن العربى : أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله المعافرى ، الأندلسى ، المتوفى عام ٥٤٣هـ .

٦٥ — العواصم من القواصم ، في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسـلم — بتحقيق محب الدين الخطيب . طبع بيروت ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .

ابن العماد : أبو الفـلاح عبد الحى بن أحمد بن محمد ، الحنبلى ، الدمشقى ، المتوفى عام ١٠٨٩هـ .

٦٦ — شذرات الذهب فى أخبار من ذهب — طبع بيروت — دار الآفاق الجديدة . بدون تاريخ .

العمد : احسـان صدقى .

٦٧ — المفاوضات بين العرب المسلمين والروم ، ابان فتوح الشام ، فى ضوء ما ورد فى كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفى — مقاله منشور في مجلة الوعي الاسـلامي — العدد ١١٤ لعـام ١٣٩٤هـ . الكويت .

عمر : الدكتور فاروق .

٦٨ — بحوث فى التاريخ العباسى — الطبعة الأولى — بيروت ١٩٧٧م

العمرى : الدكتور أكرم ضياء .

٦٩ — بحوث فى تاريخ السنة المشرفة — الطبعة الثانية — مطبعة الارشاد ببغداد ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م .

ابن الفرضى : أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدى ، القرطبى ، المتوفى عام ٤٠٣هـ •

٧٠ — تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس — طبع مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م •

ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم ، الدينورى ، المتوفى عام ٢٧٦ هـ •

٧١ — المعارف — بتحقيق الدكتور ثروت عكاشة — الطبعة الرابعة — دار المعارف بمصر ١٩٨١م •

القفطى : جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف بن ابراهيم الشيبانى ، المتوفى عام ٦٤٦هـ •

٧٢ — انباه الرواة على أنباه النحاة — بتحقيق محمد أبى الفضل ابراهيم • مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م •

القلقشندى : أبو العباس أحمد بن على بن أحمد الفزارى ، المتوفى عام ٨٢١ هـ •

٧٣ — صبح الأعشى فى صناعة الانشا — نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية — مطابع كوستا تسوماس القاهرة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣م •

الكافيجى : محى الدين أبو عبد الله محمد بن سليمان بن سعد الرومى ، المتوفى عام ٨٧٩هـ •

٧٤ — المختصر فى علم التاريخ — منشور ضمن القسم الثانى من كتاب « علم التاريخ عند المسلمين ، لفرانز روزنتال » — طبع بغداد سنة ١٩٦٣ م •

ابن كثير : عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير ، القرشي ، الدمشقي المتوفى في عام ٧٧٤ هـ •

٧٥ — (أ) اختصار علوم الحديث — بشرح الشيخ أحمد محمدشاكر — طبع بيروت ، بدون تاريخ •

(ب) البداية والنهاية — طبع دار الكتب العلمية — بيروت ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م •

٧٦ — تفسير القرآن العظيم — بتحقيق الدكتور محمد ابراهيم البنا وآخرين — مطابع دار الشعب ، القاهرة ١٣٩٢ هـ / ١٩٧١ م •

كراتشكوفسكي : أغناطيوس جوليانوفتش الروسي ، المتوفى عام١٣٧٠هـ•

٧٧ — تاريخ الأدب الجغرافي العربي — ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم•طبع لجنة التأليفوالترجمة والنشر — القاهرة١٩٦٣م

الكندي : أبو عمر محمد بن يوســف بن يعقوب بن حفص المصري ، المتوفى عام ٣٥٠هـ •

٧٨ — ولاة مصر — بتحقيق الدكتور حسين نصار — طبع بيروت ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م •

لسترنج : كي لسترنج ، الانجليزي ، المتوفى عام ١٣٥٢هـ •

٧٩ — بلدان الخلافة الشرقية — نقله الى العربية بشير فرنسيس ، كوركيس عواد — الطبعة الثانية — مؤسسة الرسالة • بيروت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م •

الماوردي : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري ، البغدادي ، المتوفى عام ٤٥٠هـ •

٨٠ — الأحكام السلطانية والولايات الدينية • الطبعة الثالثة — مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م •

المبرد : أبو العباس محمد بن يزيـد بن عبد الأكبر ، المتوفى عام ٢٨٦ هـ .
٨١ — الكامل — بتحقيق محمد أبى الفضل ابراهيم ، والسـيد شحاته — مطبعة دار نهضة مصر للطبع والنشر — بـدون تـاريخ .

متز : آدم متز ، السويسرى الألمانى ، المتوفى عام ١٣٣٥ هـ .
٨٢ — الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى — ترجمة محمد عبد الهادى أبى ريدة — الطبعة الرابعة — بيروت ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .

محمد كرد على : محمد كرد على بن عبد الرزاق بن محمد كرد على ، المتوفى عام ١٣٧٢هـ .
٨٣ — الاسلام والحضـارة العربية — الطبعة الثالثة — لجنة التأليف والترجمة والنشر — القاهرة ١٩٦٨م .

مخلص : عبد الله بن محمد عبد الله مخلص ، المتوفى عام ١٣٦٧هـ .
٨٤ — تاريخ ابن أعثم الكوفى — مقالة صغيرة منشورة بمجـلة المجمع العلمى العربى بدمشق جـ ٣ المجلد السادس ١٣٤٤هـ / ١٩٢٦م .

المسعودى : أبو الحسن على بن الحسين بن على البغدادى ، المتوفى عام ٣٤٦هـ .
٨٥ — مروج الذهب ومعادن الجوهر — بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، الطبعة الخامسة بيروت ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م .

مسلم : أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى ، النيسابورى ، المتوفى عام ٢٦١هـ .
٨٦ — الجامع الصحيح — طبعة استنبول . عام ١٣٢٩ هـ .

مصطفى : شاكر مصطفى .
٨٧ — التاريخ العربى والمؤرخون ، دراسة فى تطور علم التاريخ ، ومعرفة رجاله فى الاسلام . الطبعة الثانية — بيروت ١٩٨٠م

ابن معين : أبو زكريا يحيى بن معين بن عون بن زياد المرى مولاهم ، البغدادى ، المتوفى عام ٢٣٣هـ •

٨٨ — التاريخ — بتحقيق الدكتور أحمد محمد نور سيف — الطبعة الأولى ، بمطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب — ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩ م •

المقريزى : تقى الدين أبو العباس أحمد بن على بن عبد القادر ، المتوفى عام ٨٤٥ هـ •

٨٩ — المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار « الخطط المقريزية » — طبع دار التحرير بالقاهرة • ١٩٦٧ — ١٩٦٨م •

٩٠ — النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبني هاشم — المطبعة الابراهيمية بالقاهرة ١٩٣٧ م •

ابن منظور : جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم على الأنصارى ، المتوفى عام ٧١١ هـ •

٩١ — لسان العرب — طبعة مصورة عن طبعة بولاق — مطبعة كوستا تسوماس بالقاهرة بدون تاريخ •

ابن النديم : أبو الفرج محمد بن اسحاق بن محمد بن اسحاق ، البغدادى ، المتوفى عام ٤٣٨ هـ •

٩٢ — الفهرست — طبعة القاهرة ١٣٤٨هـ •

نفيس أحمد :

٩٣ — جهود المسلمين فى الجغرافيا — ترجمة فتحى عثمان ، الكتاب رقم ٢٧٢ من سلسلة الألف كتاب — مطابع دار القلم بالقاهرة •

النووى : محيى الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مرى بن حسن الحورانى ، المتوفى ٦٧٦هـ •

٩٤ — تهذيب الأسماء واللغات — ادارة الطباعة المنيرية بالقاهرة — بدون تاريخ •

النويرى : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشى ، المتوفى ٧٣٣هـ •

٩٥ — نهاية الأرب فى فنون الأدب — الجزء العشرون بتحقيق محمد رفعت فتح الله ، والجزء الحادى والعشرون بتحقيق على محمد البجاوى — طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ ، ١٩٧٦م •

هارون : عبد السلام محمد •

٩٦ — تحقيق النصوص ونشرها — الطبعة الثانية — مطبعة المدنى بالقاهرة ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م •

ابن هشام : أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى المعافرى ، المتوفى عام ٢١٣ ، أو ٢١٨هـ •

٩٧ — السيرة النبوية — بتحقيق مصطفى السقا وآخرين — الطبعة الثانية بمطبعة الحلبى بمصر ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م •

الواقدى : أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد السهمى ، المدنى ، المتوفى عام ٢٠٧هـ •

٩٨ — كتاب المغازى — بتحقيق الدكتور مارسدن جونس — الطبعة الأولى بدار المعارف بمصر ١٩٦٥م •

ياقوت : شهاب الدين أبو عبد الله الرومى الحموى ، المتوفى عام ٦٢٦هـ

٩٩ — ارشاد الأريب الى معرفة الأديب (وهو معجم الأدباء) بتحقيق الدكتور أحمد فريد رفاعى • مطبعة دار المـأمون بالقاهرة ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م •

١٠٠ — معجم البلدان — طبع بيروت (دار صادر) ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧م •

يعقوب بن سفيان : أبو يوسف يعقوب بن سفيان بن جوان الفسوى ، المتوفى عام ٢٧٧ هـ •

١٠١ — كتاب المعرفة والتاريخ — بتحقيق الدكتور أكرم ضـياء العمرى — مطبعة الارشاد فى بغداد ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م •

اليعقوبى : أحمد بن اسحاق (أبى يعقوب) بن جعفر بن وهب بن واضح البغدادى ، المتوفى عام ٢٩٢هـ •

١٠٢ — تاريخ اليعقوبى — طبع بيروت ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م •

أبو يوسف : يعقوب بن ابراهيم بن حبيب البجلى ، الكوفى (صاحب أبى حنيفة) • المتوفى عام ١٨٢هـ •

١٠٣ — كتاب الخراج — بتحقيق الدكتور محمد ابراهيم البنا • طبع دار الاصلاح للطبع والنشر بالقاهرة ١٩٨١م •

فهرس موضوعات الكتاب

صفحة

صفحة

مطبعة الجبلاوى
٢٠٢ شارع الترعة البولاقية

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٨/١٥٥٣